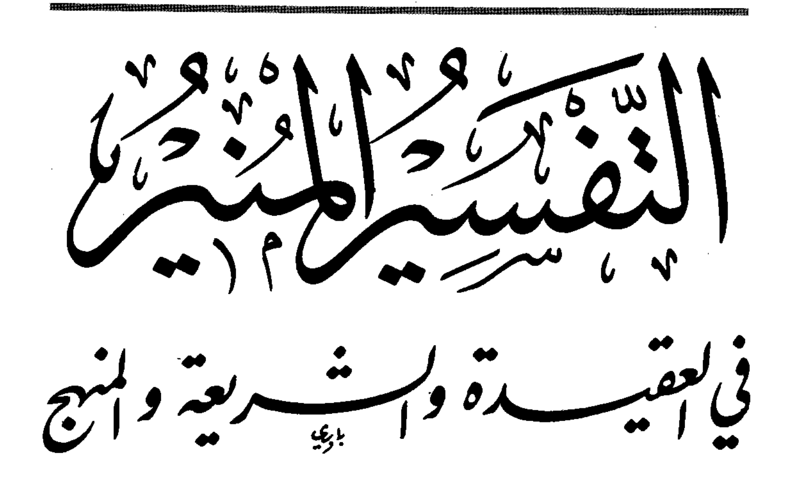
يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

(الأنفال ٨/٢٤)



الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

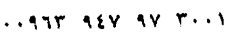
المجلد الرابع عشر

الجزءان ٢٧ ـ ٢٨





دار الفكر - دمشق - البرامكة




٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

أ.د. وهبة الزحيلي

المجلد الرابع عشر

الرقم الاصطلاحي: ١٤- ١٦٩٠,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-160-5

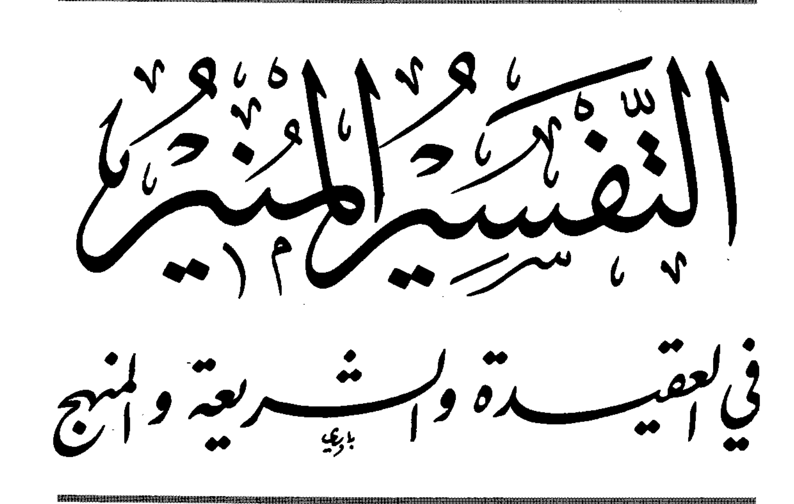
الرقم الموضوعي: ٢١١ (القرآن وعلومه)

٧٢٨ ص، ١٧ × ٢٥ سم

الطبعة العاشرة: ١٤٣٠هـ= ٢٠٠٩م

ط٢ / ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم



المجلد الرابع عشر

الجزءان ٢٧ ـ ٢٨



بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الذاريات

مكية، وهي ستون آية

تسميتها:

سميت (سورة الذاريات) لافتتاحها بالقسم بالذاريات، وهي الرياح التي تذرو التراب وغيره، أي تفرقه وتنقله من مكان إلى آخر. والقسم بها دليل على خطورتها، وأنها من جند الله تعالى.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين:

أ - ختمت سورة ﴿قٓ﴾ بذكر البعث والجزاء والجنة والنار في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ وافتتحت هذه السورة بالقسم بالرياح والسحب والسفن والملائكة على أن ما وُعِد به الناس من ذلك صادق، وأن الجزاء واقع.

٢- ذكر في سورة ﴿قٓ﴾ إجمالاً إهلاك الأمم المكذبة، كقوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط وشعيب، وتُبَّع، وفي هذه السورة تفصيل ذلك في قصص إبراهيم ولوط وموسى وهود وصالح ونوح عليهم السلام.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية إثبات أصول العقيدة والإيمان

وهي التوحيد والرسالة والبعث، ونفي أضدادها وهي الشرك، وتكذيب النبوة، وإنكار المعاد.

وقد افتتحت ببيان دلائل البعث ووقوع المعاد من عجائب الكون، بالقسم على حدوثه حتماً بأربعة أمور هي الرياح المحركة للأشياء، والسحب التي تحمل الأمطار، والسفن الجارية بسهولة في البحار والأنهار الكبرى، والملائكة التي تقسِّم المقدرات الربانية، وتدبِّر أمر الخَلْق.

ثم ذكرت السورة أحوال كفار مكة وغيرهم الذين كذبوا بالقرآن وبالآخرة وما يلقونه من العذاب الشديد في نار جهنم، كما ذكرت أحوال المؤمنين المتقين وما أعدّ لهم من جنات ونعيم في اليوم الآخر، ليدرك العاقل الفرق بينهما، ويقترن الترهيب بالترغيب للعظة والعبرة.

وتأكيداً لتلك الغاية أشارت الآيات إلى أدلة القدرة الإلهية والوحدانية في الأرض والسماء والأنفس وضمان الأرزاق للعباد، وأوردت أخبار الأمم السالفة التي كذبت رسلها، فكان مصيرهم الدمار والهلاك، وهم قوم إبراهيم ولوط وموسى، وعاد وثمود، وقوم نوح. وكان في الحديث عن قصص هؤلاء الرسل مع أقوامهم تسلية للنبي ﷺ عما يلقاه من أذى قومه.

ثم عادت إلى التذكير ببناء السماء وفرش الأرض وإيجاد الزوجين لبقاء النوع الإنساني والحيواني، وأعقبت ذلك بالتزهيد في الدنيا، والفرار إلى الله من مخاطرها، والنهي عن الشرك بالله، والإخبار عن تكذيب الرسل باستمرار، وأمر النبي ﷺ بالإعراض عن قومه، وتذكير من تنفعه الذكرى من المؤمنين.

وختمت السورة ببيان الهدف من خلق الجن والإنس وهو معرفة الله تعالى وعبادته والإخلاص له، وأخبرت بكفالة الزرق لكل مخلوق، وأوعدت الكفار والمشركين الظالمي أنفسهم بعذاب شديد يوم القيامة، وهددتهم بعذاب في الدنيا مماثل لعذاب أمثالهم ونظرائهم من المكذبين السابقين.

القسم على وقوع البعث

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾

الإعراب:

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾﴾ الواو: واو القسم، ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ صفة لموصوف محذوف تقديره: ورب الرياح الذاريات، فحذف الموصوف، وجواب القسم: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾. ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾﴾ ﴿وِقْرًا﴾ مفعول الحاملات.

﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾ ﴿يُسْرًا﴾ صفة لمصدر محذوف، تقديره: جرياً يسراً، فحذف الموصوف، وأقام الصفة مقامه، أو مصدر في موضع الحال، أي ميسرة.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ ما: مصدرية أو موصولة، وهو جواب القسم.

﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ ﴿يَوْمَ﴾ في موضع رفع على البدل من ﴿يَوْمُ﴾ الأول، إلا أنه بني؛ لأنه أضيف إلى غير متمكن.

البلاغة:

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾﴾ في قوله: ﴿قُتِلَ﴾ استعارة تبعية، حيث استعار القتل للدعاء عليهم باللعن؛ لأن الملعون يشبه المقتول في الهلاك.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ الرياح تذرو التراب وغيره. ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ﴾ السحب تحمل الأمطار. ﴿وِقْرًا﴾ ثقلاً. ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ﴾ السفن التي تجري على سطح الماء. ﴿يُسْرًا﴾ بسهولة أو جرياً سهلاً. ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ الملائكة التي تقسِّم أمور العباد والأمطار والأرزاق وغيرها.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي إن وعدكم بالبعث وغيره. ﴿لَصَادِقٌ﴾ لوعد صادق. ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ﴾ الجزاء بعد الحساب. ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ لحاصل لا محالة. استدل تعالى باقتداره على هذه الأشياء على اقتداره على البعث الموعود.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ ذات الطرق جمع حبيكة، إما الطرق المحسوسة التي هي مسير الكواكب أو الطرق المعقولة التي يتوصل بها إلى المعارف. ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ إنكم يا أهل مكة في شأن القرآن الكريم والنبي ﷺ في قول متناقض مضطرب، فتقولون تارة: سحر وساحر، وتارة: شعر وشاعر، وتارة: كهانة وكاهن، وتقولون أحياناً الله خالق السماوات والأرض، ثم تقومون بعبادة الأوثان معه، وفي شأن الحشر: تارة تقولون: لا حشر ولا بعث، وأخرى تقولون الأصنام شفعاؤنا يوم القيامة عند الله.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ يصرف عن الرسول أو القرآن أو الإيمان من صرف عن الهداية في علم الله تعالى؛ إذ لا صرف أشد منه.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ لعن الكذابون من أصحاب القول المختلف. ﴿فِى غَمْرَةٍ﴾ جهل يغمرهم. ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أمروا به. ﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ النبي سؤال استهزاء. ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ متى مجيء يوم الجزاء؟ وجوابهم محذوف، أي يجيء. ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يحرقون، يقال: فتنت الذهب: أحرقته وأذبته ليعرف غشه، فاستعمل في الإحراق والتعذيب. ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي يقال لهم: ذوقوا تعذيبكم. ﴿هَٰذَا﴾ التعذيب. ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ وقوعه في الدنيا استهزاء.

التفسير والبيان:

لما بيّن الله تعالى في آخر سورة ﴿قٓ﴾ المتقدمة أن المشركين مصرّون على إنكار الحشر بعد إيراد البراهين الساطعة عليهم، لم يبق إلا توكيد الدعوة بالأيمان، فافتتحت هذه السورة بذلك:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾﴾ أقسم الله سبحانه هنا لإثبات الحشر بالمتحركات: لأن الحشر فيه جمع وموج وتفريق، وهو بالحركة أليق، فأقسم بالرياح التي تذرو وتفرّق التراب وكل ما شأنه أن يتطاير متجاوزة قانون الجاذبية الأرضية، وبالسحب التي تحمل الماء بكميات ثقيلة، وبالسفن التي تجري فوق وجه الماء، وبالملائكة التي تقسم الأرزاق والأمطار بين العباد، وكل ملك مخصص بأمر، فجبريل صاحب الوحي إلى الأنبياء، وميكائيل الموكل بالرزق والرحمة، وإسرافيل صاحب الصُّور، وعزرائيل لقبض الأرواح.

أقسم سبحانه بتلك المظاهر الكونية المرئية وغير المرئية العجيبة التأثير على أن ما وُعِد به الناس من الحشر إلى الله تعالى، ووقوع المعاد، لصادق غير كاذب، وأن الجزاء من الثواب والعقاب لكائن حاصل لا محالة.

وكان هذا القسم تأكيداً لإخباره بوقوع الحشر ويسره وسهولته في السورة السابقة ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ وفيه إشارة إلى إنكار مشركي مكة وأمثالهم البعث وإصرارهم على الكفر به بعد إقامة البرهان عليه.

والحكمة من القسم هنا وفي غير ذلك من السور أن العرب كانت تعتقد أن النبيﷺ قوي الحجة، غالب في المجادلة والبرهان، فأقسم الله لهم بكل شريف ليعلموا صدقه، ويؤكد حجته، كما أنهم كانوا يعتقدون أن الأيمان الكاذبة تدع الديار بلاقع (خرائب) وأنها تضر صاحبها، فحلف الله لهم للتصديق

والثقة التامة، وهم يعلمون أيضاً أن النبي ﷺ لا يحلف كاذباً، ولم يصب بسوء بعد أيمانه، بل ازداد رفعة وثباتاً، مما يدل على كونه صادقاً فيما يقول.

ثم إن هذه الأيمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل على كامل قدرته على البعث وغيرها، فمن أوجد هذه الأشياء وصرَّفها كيفما يشاء قادر بلا شك على البعث وإعادة الخلق مرة أخرى يوم القيامة.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾﴾ أي والسماء ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء، فكل شيء أحكمته وأحسنت عمله، فقد حبكته واحتبكته، أو ذات الشدة مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾ [الطارق: ٨٦/ ١١] أو ذات الطرائق والممرات المحكمة وهي ممرات الكواكب، والبناء المتقن، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ١] .

والخلاصة: والسماء ذات البنيان المتقن والجمال والحسن والطرائق المحكمة إنكم يا كفار قريش لفي قول مضطرب متناقض غير متلائم في أمر القرآن والرسول، فمرة تقولون في القرآن: شعر وسحر وكهانة وأساطير الأولين، وحيناً تقولون في الرسوم: شاعر وساحر وكاهن ومجنون، وإنما يصرف عن هذا القرآن والإيمان به من كذّب به، ويروج على من هو ضال في نفسه، جاهل غمر لا فهم له؛ لأنه قول باطل، يصرف بسببه من صرف عن الإيمان برسول الله ﷺ، وهو قول متناقض؛ إذ الشاعر أو الساحر أو الكاهن يحتاج إلى عقل وذكاء وفطنة، أما المجنون فلا عقل عنده.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾ لعن وقبح الكاذبون أصحاب القول المختلف المرتابون في وعد الله ووعيده، الذين هم في جهل يغمرهم، غافلون في الكفر والشك عما أمروا به وعما هم قادمون عليه.

وهذا في الأصل دعاء عليهم بالقتل والهلاك، كقوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/١٧] ثم جرى مجرى: لعن وقبح. ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ يسألك المشركون تكذيباً وعناداً واستهزاء، قائلين: متى يوم الجزاء؟ فقل لهم: إنه يوم يعذب الكفار ويحرقون في نار جهنم، يقال: فتنت الذهب: إذا أحرقته لتختبره.

ويقال لهم من الْخَزَنة:

﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي يقال لهم: ذوقوا عذابكم أو حريقكم، هذا العذاب الذي كنتم تتعجلون به أو تطلبون تعجيله استهزاء منكم، وظناً أنه غير كائن.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي:

أ - تعظيم المقسم به وهو الرياح الشديدة التأثير التي لا تخضع لقانون الجاذبية، والسحب المحملة بأحمال ثقيلة وهي الأمطار سبب الرزق والخيرات، والسفن الجارية فوق سطح الماء، والملائكة التي تقسِّم الأمطار وأرزاق العباد وأمورهم. والله يقسم على ما يشاء، في أي وقت يشاء، ولكل أمر يشاء.

ويلاحظ أن جميع السور التي بدئت بغير الحروف، كهذه السورة، كان المقسم عليه أحد أصول الاعتقاد: التوحيد، والرسالة، والبعث، فسورة الصافات أقسم فيها على التوحيد، فقال: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ وفي سورة النجم والضحى أقسم على صدق الرسول، حيث قال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾ وبقية السور كان المقسم عليه هو البعث والجزاء.

كما يلاحظ أيضاً أن الله تعالى أقسم بجموع المؤنث السالم في سور خمس،

ففي سورة ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ لإثبات الوحدانية أقسم بالساكنات، وفي السور الأربعة الباقية أقسم بالمتحركات لإثبات الحشر، فقال: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾ لأن الحشر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة أليق، كما تقدم.

٢ً- إن المقسم عليه هو صدق وعد الله بالحشر والبعث والمعاد، ووقوع الجزاء والحساب والثواب والعقاب.

٣ً- أقسم الله تعالى مرة ثانية في مطلع هذه السورة بالسماء ذات البنيان المتقن والجمال البديع، والاستواء، والطرائق المحكمة على أن المشركين في قول متخالف متناقض في شأن الله عز وجل، حيث قلتم: إنه خالق السماوات والأرض، وتعبدون معه الأصنام، وفي شأن الرسول ﷺ، حيث قلتم تارة: إنه مجنون، وتارة أخرى: إنه ساحر، والساحر لا يكون إلا عاقلاً، وفي أمر الحشر قلتم: لا حشر ولا حياة بعد الموت أصلاً، وزعمتم أن أصنامكم شفعاؤكم عند الله تعالى يوم القيامة، ونحو ذلك من الأقوال المتناقضة.

٤ً- يصرف عن الإيمان بالقرآن والرسول من صرف عنه في سابق علم الله تعالى، وقضائه السابق، لعلمه بأنه ضال في نفسه.

٥ً- لعن الكذابون من أصحاب القول المختلف المتناقض، المرتابون في وعد الله ووعيده، الذين يقولون: لسنا نبعث، ويتخرصون بما لا يعلمون، فيقولون: إن محمداً مجنون كذّاب ساحر شاعر، علماً بأنهم في جهل، غافلون عما أمروا به. وهذا دعاء عليهم؛ لأن من لعنه الله، فهو بمنزلة المقتول الهالك.

٦ً- كان مشركو مكة وغيرهم من العرب متجبرين معاندين مصرين على كفرهم، مما جعلهم يسألون استهزاء وشكاً في القيامة وعناداً: متى يوم الحساب؟

فأجابهم ربهم بأنه اليوم الذي يحرقون فيه في نار جهنم، ثم وبخهم الله وتهكم بهم قائلاً لهم أو تقول الخَزَنة لهم: ذوقوا عذابكم وجزاء تكذيبكم، ذلك العذاب الذي كنتم تستعجلون به في الدنيا، وتسألون عنه استهزاء وكفراً به.

جزاء المتقين وأوصافهم

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

القراءات:

﴿وَعُيُونٍ﴾: قرئ:

١- (وعِيُون) وهي قراءة ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي.

٢- (وعُيُون) وهي قراءة الباقين.

﴿مِّثْلَ﴾: قرئ:

١- (مثلُ) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٢- (مثلَ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿ءَاخِذِينَ﴾ حال من الضمير في خبر ﴿إِنَّ﴾.

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧﴾ ﴿قَلِيلًا﴾ إما صفة مصدر محذوف، أي يهجعون هجوعاً قليلاً، أو صفة لظرف محذوف، أي كانوا يهجعون وقتاً قليلاً، و﴿مَا﴾ زائدة، ويجوز أن تكون﴿مَا﴾ مع ما بعدها مصدراً في موضع رفع على البدل من ضمير. (كان) و﴿قَلِيلًا﴾ خبر (كان)، تقدير: كان هجوعهم من الليل قليلاً. وقال السيوطي: يهجعون: خبر (كان)، و﴿قَلِيلًا﴾ ظرف.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ مبتدأ، و﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ خبره. ولا يجوز أن يتعلق ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ على تقدير: أفلا تبصرون في أنفسكم؛ لأنه يؤدي إلى أن يتقدم ما في حيِّز الاستفهام على حرف الاستفهام.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾ ﴿مِّثْلَ﴾ حال من الضمير في (حق) و﴿مَآ﴾ زائدة، ويقرأ بالرفع على أنه صفة (حق) لأنه نكرة: لأنه لا يكتسي التعريف بالإضافة إلى المعرفة وهي﴿أَنَّكُمْ﴾ لأن وجوه التماثل بين الشيئين كثيرة غير محصورة.

البلاغة:

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ مجاز مرسل، أطلق الزرق، وأراد المطر؛ لأنه سبب الأقوات .﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ فيه تأكيد الخبر بالقسم وإنّ واللام، وهذا النوع من التأكيد الإنكاري؛ لأن المخاطب منكر لذلك.

المفردات اللغوية:

﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿وَعُيُونٍ﴾ ينابيع تجري فيها﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابلين لما أعطاهم، راضين به، وهو ما أعطاهم ربهم من الثواب، والمعنى: أن كل ما آتاهم ربهم حسن مرضي، مُتَلَقًّى بالقبول ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ

محسنين﴾ أي إنهم قبل دخولهم الجنة قد أحسنوا أعمالهم في الدنيا، وهو تعليل لاستحقاقهم ذلك.

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)﴾ أي ينامون في زمن يسير من الليل، ويصلون أكثره، والهجوع: النوم، والهجعة: النومة الخفيفة. ﴿وَبِالْأَسْحَارِ﴾ أواخر الليل، جمع سَحَر: وهو الجزء الأخير من الليل قبيل الفجر. ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾ يقولون: اللهم اغفر لنا، أي إنهم مع قلة هجوعهم وكثرة تهجدهم إذا أسحروا، أخذوا في الاستغفار.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيب يوجبونه على أنفسهم، تقرباً إلى الله، وإشفاقاً على الناس. ﴿لِّلسَّائِلِ﴾ المستعطي المستجدي. ﴿وَالْمَحْرُومِ﴾ الذي حرم من المال، والمراد به المتعفف الذي يظن كونه غنياً، فيحرم الصدقة.

﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ أي في كرة الأرض من الجبال والبحار والأشجار والثمار والمعادن والنبات والإنس والجن والحيوان وغير ذلك دلائل على قدرة الله تعالى ووحدانيته. ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ الموحِّدين الذين أيقنوا بالله، وسلكوا الطريق الموصل إلى رضوان الله. ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي في تركيب أنفسكم وخلقكم من العجائب آيات أيضاً. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظرة متأمل معتبر، يستدل بذلك على الصانع وقدرته. ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي في السحاب أسباب الرزق وهو المطر الذي ينشأ عنه النبات الذي هو رزق مسبب عن المطر. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أي الذي توعدونه من الخير والشر والثواب والعقاب. ﴿إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أي ما توعدون حق ثابت. ﴿مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي مثل نطقكم، فكما أنه لاشك في أنكم تنطقون، لاشك في تحقق ذلك.

سبب نزول الآية(١٩):

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ﴾ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الحنفية أن رسول الله ﷺ بعث سرية، فأصابوا وغنموا، فجاء قوم بعدما

فرغوا - لم يشهدوا الغنيمة-، فنزلت: ﴿وَفِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ۝١٩﴾. قال ابن كثير: وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية، وليس كذلك، بل هي مكية شاملة لما بعدها[1]. قال ابن عباس: إنه حق سوى الزكاة يصل به رَحِماً، أو يَقْرِي به ضيفاً، أو يحمل به كَلاً، أو يغني محروماً. وقال ابن العربي: لأن السورة مكية، وفرضت الزكاة بالمدينة.

المناسبة:

بعد أن حكى الله تعالى حال الفجار الأشقياء الذين كذبوا بالبعث، وأنكروا نبوة محمد ﷺ، وعبدوا مع الله إلهاً آخر من وثن أو صنم، أراد تعالى أن يبين حال المؤمنين الأتقياء وأوصافهم وجزاءهم في الآخرة.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ أي إن الذين اتقوا ربهم، وتجنبوا ما يعرضهم لعذاب الله، من التزام أوامره واجتناب نواهيه، هم يوم المعاد في بساتين فيها عيون جارية، قابلين قبول رضا لكل ما أعطاهم ربهم، راضين به، فرحين بعطائه وفضله، بخلاف ما يتعرض له أولئك الأشقياء من العذاب والنكال والحريق والأغلال. فقوله: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ كما ذكر الزمخشري: قابلين قبول راض، كما قال تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٤] أي يقبلها. وقيل: الأخذ بمعنى التملك، يقال: بكم أخذت هذا؟ كأنهم اشتروها بأنفسهم وأموالهم. وعلى كل: الأخذ في هذا المقام إشارة إلى كمال قبولهم للفيوض الإلهية؛ لما أسلفوا من حسن العبادة، ووفور الطاعة، ولهذا علله بقوله:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي، لأنهم كانوا في الدنيا محسنين في أعمالهم

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٣٥.

الصالحة، يراقبون الله فيها، كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٤] .

ثم أبان الله تعالى وجوه إحسانهم في العمل، فقال:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي كانوا ينامون زمناً قليلاً من الليل، ويصلون أكثره، فتكون ﴿مَا﴾ زائدة وهو القول المشهور، و﴿قَلِيلًا﴾ ظرف، ويجوز أن تجعل﴿مَا﴾ صفة للمصدر أي كانوا يهجعون هجوعاً قليلاً. وأنكر الزمخشري كون﴿مَا﴾ نافية، تقديره: كانوا قليلاً من الليل لا يهجعونه، وقال لا يجوز أن تكون نافية؛ لأن ما بعد﴿مَا﴾ لا يعمل فيما قبلها، تقول: زيداً لم أضرب(١).

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي يقولون في الجزء الأخير من الليل: اللهم اغفر لنا وارحمنا. وصفهم بأنهم يُحْيون أكثر الليل متهجدين، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، وكأنهم باتوا في معصية، وهذا سيرة الكريم، يأتي بأبلغ وجوه الكرم، ثم يستقله ويعتذر، واللئيم بالعكس، يأتي بأقل شيء، ثم يمنّ به، ويستكثر. قال الحسن: مدّوا الصلاة إلى الأسحار، ثم أخذوا في الأسحار بالاستغفار.

ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، حتى يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: هل من تائب، فأتوب عليه؟ هل من مستغفر، فأغفر له ؟ هل من سائل، فيعطى سؤله؟ حتى يطلع الفجر» .

وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخباراً عن يعقوب أنه قال لبنيه: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف: ١٢/ ٩٨] : أخرهم إلى وقت السحر.

(١) الكشاف : ٣/ ١٦٨.

وبعد أن وصفهم تعالى بكثرة الصلاة التي هي عبادة بدنية، وصفهم بأداء العبادة المالية، فقال:

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ أي وجعلوا في أموالهم جزءاً مقسوماً معيناً للفقراء والمحتاجين على سبيل البِرّ والصلة، والسائل: هو الفقير الذي يبتدئ بالسؤال، والمحروم: هو الذي يتعفف عن السؤال، فيحسبه الناس غنياً فلا يتصدّقون عليه.

أخرج الشيخان (البخاري ومسلم) في صحيحيهما عن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بالطوّاف الذي تردُّه اللُّقمة واللقمتان، والتَّمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يُفْطَن له، فيُتصدق عليه» وفي لفظ آخر أخرجه ابن جرير وابن حبان وابن مدرويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، والأَكْلة والأَكْلتان، قيل: فمن المسكين؟ قال: الذي ليس له ما يغنيه، ولا يُعلم مكانه، فيتصدق عليه، فذلك المحروم».

وللسائل حق، أخرج الإمام أحمد وأبو داود عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «للسائل حق، وإن جاء على فرس».

والمشهور في الحق: أنه هو القدر الذي علم شرعاً، وهو الزكاة، وهذا ما رجحه ابن العربي والجصاص الرازي وغيرهما أخذاً بقول ابن عباس: نسخت الزكاة كل صدقة. وقال محمد بن سيرين وقتادة: الحق هنا: الزكاة المفروضة.

قال القرطبي: والأقوى في هذه الآية أنها الزكاة؛ لقوله تعالى في سورة المعارج: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ والحق المعلوم: هو الزكاة التي بيَّن الشرع قدرها وجنسها ووقتها، فأما غيرها لمن يقول به، فليس بمعلوم؛ لأنه غير مقدّر ولا مجنّس ولا موقّت[١].

---

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٤١٢، أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٧١٨، تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٠٥، تفسير القرطبي: ١٧/ ٣٨.

ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إذا أديت زكاة مالك، فقد قضيت ما عليك فيه» . وروى أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أديت زكاة مالك، فقد قضيت الحق الذي يجب عليك» . قال الجصاص[١] فهذه الأخبار يحتاج بها من تأول حقاً معلوماً على الزكاة، وأنه لا حق على صاحب المال غيرها.

وقال منذر بن سعيد: هذا الحق: هو الزكاة المفروضة.

وبالرغم من أن هذا صحيح، وأنه قول الجمهور، فإن السورة مكية، وفرض الزكاة بالمدينة، وإذا فسر الحق بأنه الزكاة لم يكن صفة مدح؛ لأن كل مسلم كذلك يؤدي زكاة ماله، فالظاهر أن المراد بالآية هنا صدقات التطوع غير الزكاة، وهي أي الصدقات التي تعطى على سبيل البر والصلة، عن ابن عمر: أن رجلاً سأله عن هذا الحق، فقال: الزكاة وسوى ذلك حقوق، فعمم.

واحتج من أوجب في المال حقاً سوى الزكاة بما روى الشعبي عن فاطمة بنت قيس قالت: سألت رسول الله ﷺ: أفي المال حق سوى الزكاة؟ فتلا: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٧] فذكر الزكاة في نسق التلاوة بعد قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[٢].

ثم أكد الله تعالى وقوع الحشر والدلالة على قدرته بالأدلة الأرضية، فقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي وفي معالم الأرض من جبال ووديان وقفار وأنهار وبحار وأصناف نبات وحيوان وناس مع اختلاف ألسنتهم وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى وتفاوت العقول والفهوم وما

(١) الجصاص، المرجع السابق : ص ٤١١ .

(٢) الجصاص، المرجع والمكان السابق .

في تركيب أجسادهم من عجائب الصنع، دلائل واضحة وعلامات ظاهرة على عظمة الخالق وقدرته الباهرة، للموقنين بالله؛ لأنهم الذين يعترفون بذلك، ويتدبرون فيه، فينتفعون به.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي وفي أنفسكم آيات تدل على توحيد الله، وصدق ما جاءت به الرسل، أفلا تنظرون نظرة متأمل معتبر ناظر بعين البصيرة، فتستدلون بذلك على الخالق الرازق، المتفرد بالألوهية، فليست نفوسكم مخلوقة بالصدفة ولا بالطبيعة، وإنما خالقها الله القادر على كل شيء، وعلى البعث وإعادة الحياة.

ففي النفس والدماغ ذي الملايين من الخلايا، وحواس السمع والبصر والإحساس واللمس والذوق، ودورة الدم، وأجهزة التنفس والهضم والبول، كل ذلك أدلة مقنعة لمن يعقلها، ولا يعقلها حقيقة إلا المؤمنون المتقون الله، أما غيرهم فيفسرها على أنها حقائق طبيعية مادية فقط.

ثم ذكر الله تعالى ضمانه الرزق للأنفس والعباد كلهم فقال:

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي، وفي السماء تقدير الأرزاق وتعيينها، وفيها ماتوعدون من خير أو شر، وجنة ونار، وثواب وعقاب، ففي السماء التي هي السحاب المطر، وفي السماء أسباب الرزق من الشمس والقمر والكواكب والمطالع والمغارب التي تختلف بها الفصول، التي يكون تغيرها مناسباً لأنواع النباتات المختلفة التي تسقى بماء الأمطار، وتسوقها الرياح، وتغذيها الشمس بحرارتها، ويمنحها نور القمر قوة ونمواً ونضجاً.

ثم أقسم الله تعالى بذاته المقدسة على أحقية البعث وضمان الرزق، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي فورب العزة والجلال، إن ما أخبرتكم به في هذه الآيات، وما وعدتكم به من أمر القيامة والبعث والجزاء، وتيسير الرزق وضمانه، حق لا مرية فيه، كائن لا محالة، فلا تشكُّوا فيه، كما لا تشكُّوا في نطقكم حين تنطقون، فهو كمثل نطقكم،

فكما أنكم لا تشكون في نطقكم فكذلك هذا، كما تقول: إنه لحق، كما أنك تتكلم وترى وتسمع. وكان معاذ رضي الله عنه إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق كما أنك ها هنا.

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن أبي عدي عن الحسن البصري أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربهم، ثم لم يصدقوا» .

قال الأصمعي: أقبلت خارجاً من البصرة، فطلع أعرابي على قَعُود، فقال: من الرجل ؟ قلت: من بني أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال، اتل عليّ، فتلوت ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ فلما بلغت قوله: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها، ووزعها على الناس، وعمد إلى سيفه وقوسه، فكسرهما وولّى. فلما حججت مع الرشيد، طفقت أطوف، فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق، فالتفتُّ، فإذا أنا بالأعرابي قد نحل واصفر، فسلَّم علي، واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح، وقال: وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، ثم قال: فهل غير هذا ؟ فقرأت: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ فصاح، فقال: ياسبحان الله، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؟! لم يصدقوه بقوله، حتى ألجؤوه إلى اليمين؟! قالها ثلاثاً، وخرجت معها نفسه[١].

وفي هذا المعنى قصة الأشعريين حين أرسلوا رسولهم إلى النبي ﷺ، فسمع قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦/١١] فرجع ولم يكلم النبي ﷺ وقال: «ليس الأشعريون بأهون على الله من الدواب» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

(١) أسنده الثعلبي، راجع غرائب القرآن : ٢٧/ ١٠ -١١، تفسير القرطبي : ١٧/ ٤٢.

١ً- إن مآل المتقين في بساتين فيها عيون جارية، على نهاية ما يتنزه به، قابلين قبول رضا، قريرة أعينهم بما أعطاهم ربهم من الثواب وأنواع الكرامات. وهذا في مقابل مآل الكفار في نار جهنم في الآيات السابقة.

٢ً- أوصاف المتقين المذكورة في هذه الآيات تنحصر في إحسانهم العمل وأداء الفرائض قبل دخولهم الجنة في الدنيا، ومظاهر إحسانهم ثلاثة أشياء: تهجدهم بالليل بعد نومهم زمنا قليلاً، واستغفارهم من ذنوبهم بالأسحار(أواخر الليل قبيل الفجر) وأداء حقوق أموالهم من الزكاة المفروضة وصدقات التطوع على سبيل البر والصلة. وإنما أضاف المال إليهم، وفي مواضع أخرى قال: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: ٣٦/٤٧] لأن هذه الآية للحث على الإنفاق، وأما الآية التي في هذه السورة فهي مدح على ما فعلوا، مما يدل على أنهم في غير حاجة إلى التذكير بالحرص المانع من النفقة.

٣ً- من أدلة قدرة الله على البعث والنشور: خلق الأرض والسماء والأنفس، ففي الأرض علامات على باهر قدرته، منها عود النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها أنه قدّر الأقوات فيها قِواماً للحيوانات، ومنها سيرهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذبة، ولا ينتفع بتلك العلامات ولا يتدبر بها إلا الموقنون، وهم العارفون ربهم الموحِّدون إلههم، المصدِّقون بنبوة نبيهم.

وفي الأنفس البشرية آيات أيضاً للمتأملين المؤمنين الموقنين، من تركيب الجسم العجيب، وتلازم الروح والجسد، والعقل والفؤاد، والقوى والإرادات، لذا عقبه تعالى بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني بصر القلب ليعرفوا كمال قدرة الله تعالى. وهذا إشارة إلى دليل الأنفس، وهو كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٤١/٥٣].

وفي السماء أسباب الرزق من مطر وثلج ينبت به الزرع، ويحيا به الخلق،

وفيها تقدير ما يوعد به البشر من خير وشر، وجنة ونار، وثواب وعقاب. وفي الآيات الثلاث ترتيب حسن، فذكر الأرض وهي المكان، ثم عمرها وآنسها بالإنسان، ثم ذكر ما به بقاؤه وهو الرزق.

٤- أكد رب العزة ما أخبر به من البعث، وما خلق في السماء من الرزق، وما قدَّر من أقوات الحيوانات والنفوس البشرية، فأقسم عليه بأنه لحق، ثم أكده بقول: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي مثل نطقكم، أي إن ذلك ثابت حِسّاً، كما يدرك الإنسان يسر نطقه وكلامه. وخص النطق من بين سائر الحواس؛ لأن ما سواه من الحواس يحدث فيه اللبس والتشبيه.

وهذا قَسَم ثالث: فبعد أن أقسم تعالى بالأمور الأرضية وهي الرياح، ثم أقسم بالسماء في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾﴾ أقسم هنا بالذات العلية، وهذا ترتيب منطقي سليم، يقسم المتكلم أولاً بالأدنى، فإن لم يصدق به، يرتقي إلى الأعلى.

قصة ضيف إبراهيم ومهمتهم في إهلاك قوم لوط

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

القراءات:

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾:

وقرأ حمزة والكسائي (قال سِلْم).

الإعراب:

﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ ﴿سَلَٰمًاۖ﴾: منصوب على المصدر أو بوقوع الفعل عليه و﴿سَلَٰمٌ﴾: إما مبتدأ وخبره محذوف، تقديره: سلام عليكم، وجاز الابتداء؛ لأنه في معنى الدعاء أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: أمري سلام عليكم. و﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ خبر مبتدأ، أي أنتم.

﴿فِي صَرَّةٖ﴾ متعلق بمحذوف حال، أي كائنة.

﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ لم يقل: عقيمة؛ لأن﴿عَقِيمٞ﴾ فعيل بمعنى مفعول، وهذه الصيغة لا تثبت فيها الهاء، تقول: عين كحيل، وكف خضيب، ولحية دهين، أي عين مكحولة، وكف مخضوبة، ولحية مدهونة، وذلك للتفرقة بين فعيلة بمعنى مفعولة، وفعيلة بمعنى فاعلة، نحو: شريفة وظريفة ولطيفة، وعقيم بمعنى معقومة، لا بمعنى فاعلة، فلم تثبت فيها الهاء.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ الكاف في ﴿كَذَٰلِكِ﴾ صفة مصدر محذوف، تقديره: قال ربك قولاً كذلك، أي مثل ذلك.

البلاغة:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ أسلوب التشويق والتفخيم، لتفخيم شأن الحديث.

﴿قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٞ﴾ إيجاز بالحذف، أي أنتم قوم منكرون، وأنا عجوز عقيم.

المفردات اللغوية:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ خطاب للنبي ﷺ ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ ضيوف، وضيف في الأصل، مصدر، ولذلك يطلق على الواحد والجماعة، كالزّور والصوم، وكانوا اثني عشر مَلَكاً، أو تسعة عاشرهم جبريل، أو ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وسماهم ضيفاً؛ لأنهم كانوا في صورة الضيف. ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ لأنهم في أنفسهم مكرمون، كما قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٢٦] أو لأن إبراهيم خدمهم بنفسه، وأخدمهم امرأته، وعجل لهم القِرى. ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ ظرف لحديث ضيف، أو للضيف أو المكرمين. ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ قالوا هذا اللفظ أو نسلم عليك سلاماً. ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي عليكم سلام، عدل به إلى الرفع بالابتداء، لقصد الثبات حتى تكون تحيته أحسن من تحيتهم. ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي أنتم قوم غير معروفين، قال ذلك في نفسه، أو صرح به للتعرف عنهم أو بهم.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ ذهب إليهم في خِفْية من ضيفه، أو مال إليهم سراً، قال الزمخشري: ومن أدب المضيف أن يخفي أمره، وأن يباده بالقِرى من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفه ويعذره. ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ممتلئ شحماً ولحماً لأنه كان عامة ماله البقر، وفي سورة هود: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (٦٩) أي مشوي.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ وضعه بين أيديهم. ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ منه؟ أي عرض عليهم الأكل فلم يجيبوا. ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أضمر في نفسه منهم خوفاً، لما رأى إعراضهم عن طعامه؛ لظنه أنهم جاؤوه لشرّ. ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ إنا رسل الله. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾أي ذي علم كثير، هو إسحاق عليه السلام، كما ذكر في هود.

﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ هي سارّة رضي الله عنها لما سمعت بشارتهم له، وكانت في زاوية

تنظر إليهم .﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صيحة، أي جاءت صائحة .﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لطمته بأطراف أصابعها عجباً وحياء، بأن ضربت بيدها على جبهتها .﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أنا عجوز كبيرة السن، عاقر لم ألد قط، فكيف ألد؟ وكان عمرها تسعاً وتسعين سنة(٩٩) وعمر إبراهيم مئة أو مئة وعشرين.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ أي مثل ذلك الذي بشرنا به .﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ هو قول الله، إنما نخبرك به عنه .﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ذو الحكمة في صنعه، والعلم الواسع بخلقه .﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ما شأنكم الخطير، قال ذلك لما علم أنهم ملائكة، وأنهم لا ينزلون مجتمعين إلا لأمر عظيم سأل عنه.

﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ كافرين، هم قوم لوط .﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ مطبوخة بالنار وهو السجيل: الطين المتحجر .﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مُعْلَمة من السُّومة: وهي العلامة .﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الفجور، بإتيانهم الذكور، مع كفرهم.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قوم لوط، وأضمرت ولم تذكر سابقاً؛ لكونها معلومة .﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ممن آمن بلوط، بقصد إهلاك الكافرين. ﴿غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي غير أهل بيت من المسلمين، وهم لوط وابنتاه وأتباعه إلا امرأته، أي مصدقون بقلوبهم عاملون بجوارحهم الطاعات. واستدل به على اتحاد الإسلام والإيمان، لكنه -كما قال البيضاوي - استدلال ضعيف؛ لأن المراد اجتماع الصفتين فيهم، وذلك لا يقتضي اتحاد مفهومهما. ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ﴾ بعد إهلاك الكافرين .﴿ءَايَةً﴾ علامة دالة على ما أصابهم من الهلاك .﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ لمن خافوا عذاب الله المؤلم، فلا يفعلون مثل فعلهم.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى إنكار مشركي مكة للبعث والنشور، آنس قلب

رسوله ﷺ ببيان أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كان مثله، فقد أُوذوا من أقوامهم، وأعرض هؤلاء عن دعوة رسلهم. وبدأ تعالى بقصة إبراهيم بعد إيرادها في سورة هود والحجر؛ لكونه شيخ المرسلين، وكون النبي عليه الصلاة والسلام على سنته، وإنذاراً لقومه بما جرى من الضيف، وبياناً لإنزال الحجارة على المذنبين المضلين، حتى يتعظ أو يعتبر كفار قريش وأمثالهم إلى يوم القيامة. ثم سألهم إبراهيم عن شأنهم وسبب مجيئهم، فأخبروه بأنهم أرسلوا لإهلاك قوم لوط بحجارة من سجيل بها علامة تدل على أنها أعدت لهم.

التفسير والبيان:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي هل بلغك خبر قصة إبراهيم عليه السلام مع ضيوفه الملائكة المكرّمين عند الله سبحانه الذين جاؤوا إليه في صورة بني آدم، وهم في طريقهم إلى قوم لوط، فدخلوا عليه وسلموا بقولهم: سلاماً، أي نسلم عليك سلاماً، فأجابهم بأحسن من تحيتهم بما يدل على الثبات، فقال سلام عليكم، إنكم قوم لا أعرفكم من قبل، فمن أنتم؟ وقيل: إنه قال ذلك في نفسه، ولم يخاطبهم به؛ لأن هؤلاء الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قدموا عليه في صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة.

ابتدأ الله تعالى بالاستفهام التقريري تفخيماً لشأن الحديث، ولفتاً للنظر والانتباه، مع تهديد العرب ووعيدهم ووعظهم، وتسلية الرسولﷺ على ما يجري عليه من قومه، وأطلق عليهم صفة الضيف حيث أضافهم إبراهيم عليه السلام، والضيافة سنة، وذهب أحمد وجماعة إلى وجوب الضيافة للنزيل، وحيّوه بصيغة ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾التي هي دعاء، فردّ عليهم الخليل مختاراً الأفضل من التسليم، فقال ﴿سَلَٰمٞ﴾ لأن الرفع أقوى وأثبت من النصب؛ لدلالته على الثبات والدوام. والظاهر الذي يناسب حال إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه

لم يقل لهم: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ ولم يخاطبهم بذلك، بل أسرَّها في نفسه، فقال: هؤلاء قوم منكرون، أو قال ذلك لمن معه من أتباعه وخدَمه وجلسائه؛ لأن التصريح بمثل هذا فيه إيحاش للضيف وعدم إيناس.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧)﴾ أي عدل أو ذهب إلى أهله خِفية من ضيوفه في سرعة، فقدم إليهم عجلاً سميناً مشوياً، كما في سورة هود: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾(٦٩) أي مشوي على الرُّضف (الحجارة المحماة)،. وبعد أن أدناه منهم ووضعه بين أيديهم دعاهم بتلطف وأدب، وعَرْض حسن قائلاً مستحثاً: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؟

وقد انتظمت الآية آداب الضيافة، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة، دون سابق عرض؛ لأن إبراهيم عليه السلام كان جواداً كريماً، وأتى بأفضل ماله، وهو عجل فتيّ سمين مشوي، لأن جلّ ماله كان البقر، ووضعه بين أيديهم، ودعاهم على سبيل التلطف في العرض قائلاً: ألا تأكلون؟

فأعرضوا؛ لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي فلما أعرضوا عن الطعام ولم يأكلوا، أحسّ في نفسه خوفاً منهم، على عادة الناس أن الامتناع عن الطعام لشرّ مبيت، وأن من أكل من طعام إنسان، صار آمناً منه، فظن إبراهيم عليه السلام أنهم جاؤوا للشر، ولم يأتوا للخير، كما في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ١١/ ٧٠].

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي قالت الملائكة لإبراهيم: إننا ملائكة رسل من الله تعالى، كما في آية أخرى: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ١١/ ٧٠].

وبشروه(١) بغلام يولد له، كثير العلم بعد البلوغ، وهو إسحاق عليه

(١) وفي سورة الصافات: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ﴾ أي بواسطة الملائكة.

السلام، كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١/١١] وتضمنت البشارة شيئين مفرحين، هما كونه غلاماً ذكراً، وكونه عالماً، والعلم أكمل الصفات.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ أي فلما سمعت امرأته سارّة بشارتهم، وكانت في ناحية من البيت تسمع كلامهم، أقدمت صائحة صارخة، وضربت بيدها على وجهها، كما هي عادة النساء عند التعجب، وقالت: كيف ألد، وأنا كبيرة السن، وعقيم لا تلد، حتى في عهد شبابها، كما جاء في آية أخرى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: ٧٢/١١].

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ أي كما قلنا لكِ وأخبرناكِ قال ربُّكِ، فلا تشكّي في ذلك، ولا تعجبي منه، فنحن رسل الله، والله على كل شيء قدير، وهو الحكيم في أقواله وأفعاله، العليم بما تستحقونه من الكرامة وبكل شيء في الكون، كما جاء في آية أخرى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٣/١١].

وهذه المفاوضة لم تكن مع سارّة فقط، بل كانت مع إبراهيم أيضاً، حسبما تقدم في سورة الحجر(٥٣-٥٤)، وإنما لم يذكر هنا اكتفاء بما ذكر هناك، كما أنه لم يذكر هناك اكتفاء بما ذكر هنا وفي سورة هود (٧٢).

ويكون استبعادها الولد لسببين: كبر السن، والعقم، فكأنها قالت: يا ليتكم دعوتم دعاء قريباً من الإجابة، ظناً منها أن ذلك منهم، مثلما يصدر من الضيف من مجاملات الأدعية، كقوله: الله يعطيك مالاً ويرزقك ولداً، فقالوا: هذا منا ليس بدعاء، وإنما ذلك قول الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ ثم دفعوا استبعادها بقولهم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢١٥.

والسبب في اختلاف تذييل الآيتين حيث قال هنا: ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وفي هود قال: ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾: أنهم في سورة هود نبهوها إلى القيام بشكر نعم الله، فناسب قولهم﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ لأن الحميد: هو الذي يستحق الحمد والشكر لصدور الأفعال الحسنة منه، والمجيد: الممجد الذي يستحق الحمد بنفسه وبمجده.

وأما هنا فأرادوا التنبيه إلى الحكمة العامة من الولادة في الكبر وبعد العقم طوال الحياة. وهي الدلالة على حكمته وعلمه، فهو حكيم في فعله يضع الأمور في نصابها، عليم بشؤون خلقه[1].

وبعد بشارة الملائكة إبراهيم عليه السلام بالغلام، سألهم عن شأنهم وسبب مجيئهم:

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي فما شأنكم الخطير، وفيم جئتم، وما قصتكم المثيرة، وما سبب إرسالكم من جهة الله؟ فأجابوه:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي قالت الملائكة رسل العذاب ورسل البشرى: إنا بعثنا إلى قوم لوط الذين أجرموا بالكفر وارتكاب الفواحش، لنرجمهم بحجارة من طين متحجر، مطبوخ بالنار، كالآجرّ، معلمة بعلامات تعرف بها، مخصصة عند الله لهلاك المتمادين في الضلالة، المجاوزين الحد في الفجور.

ثم أخبرنا الله تعالى عن أن هذا العذاب ليس عشوائياً يصيب الصالح والطالح، وإنما فيه تمييز المؤمنين عن المجرمين، فقال:

---

(١) المرجع والمكان السابق.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي لما أردنا إهلاك قوم لوط، أخرجنا من كان في تلك القرى من قومه المؤمنين به، تنجية لهم من العذاب، فلم نجد غير أهل بيت واحد أسلم وجهه لله، وانقاد لأوامره، واجتنب نواهيه، وهو بيت لوط بن هارون-أخي إبراهيم - بن تارح، أي كان لوط ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام، آمن بعمِّه، وتبعه في رحلاته إلى مصر، ثم تركه عن تراض، ونزل إلى سَدُوم في الأردن.

وكان أولئك المؤمنون هم لوط وأهل بيته إلا امرأته، قال سعيد بن جبير: كانوا ثلاثة عشر.

ونحو الآية: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٣٢].

وقد احتج بهذه الآية المعتزلة الذين لا يفرقون بين مسمى الإيمان والإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين. قال ابن كثير: وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين ومسلمين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان ها هنا، لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال.

والدليل على التفرقة بين الإسلام والإيمان الآية السابقة: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوٓا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ٤٩/١٤]. وحديث الصحيحين عن عمر رضي الله عنه: «أن جبريل سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقتَ، فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَر خيره وشرِّه، قال: صدقتَ».

ثم أورد الله تعالى العبرة من قصة قوم لوط، فقال:

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾ أي وأبقينا في تلك القرى علامة ودلالة لكل من يخاف عذاب الله ويخشاه وهم المؤمنون، وهي آثار العذاب المدمر المؤلم، فإنها ظاهرة مبيِّنة، جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وقلبنا ديارهم عاليها سافلها، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة، وهي بحيرة طبرية. ونظير الآية: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/ ٣٥].

وهذا دليل على أنه إذا غلب الشر والكفر والفسق، كان الدمار والهلاك.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي فيما تضمنته من قصتين: قصة البشارة بإسحاق، والإخبار بإهلاك قوم لوط، **فمن القصة الأولى يستفاد ما يلي:**

١- ذكر الله تعالى قصة إبراهيم عليه السلام ليبين بها أنه أهلك المكذب بآياته، كما فعل بقوم لوط.

٢- وصف الله سبحانه الملائكة بكونهم ضيوفاً، ولم يكونوا كذلك، إكراماً لإبراهيم عليه السلام في حسابه وظنه، فلم يكذبه الله تعالى في ذلك.

وهم أيضا عباد مكرمون عند الله عز وجل، وعند إبراهيم عليه السلام؛ إذ خدمهم بنفسه وزوجته، وعجَّل لهم القِرى، ورفع مجالسهم، كما في بعض الآثار.

٣- السنة التحية لكل قادم على غيره، وهي السلام، فقال الملائكة: نسلم عليك سلاماً، والمراد من السلام هو التحية وهو المشهور، فأجابهم إبراهيم عليه السلام بأحسن من تحيتهم، فقال : سلام عليكم، أي سلام دائم ثابت لا

يزول؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ [النساء: ٤/ ٨٦].

٤ً- أنكرهم إبراهيم عليه السلام للسلام الذي هو علم الإسلام والذي لم يكن شائعاً في قومه الكفرة، ولأنهم عليهم السلام غرباء غير معروفين، ولأن أوضاعهم وأشكالهم خلاف ما عليه الناس، ولإمساكهم عن الكلام.

٥ً- بادر إبراهيم عليه السلام إلى إكرامهم، لما اشتهر عنه من الكرم، ولأن الضيافة من آداب الدين، وكان في إعداده الطعام لهم في غاية الأدب والتكريم والسمو، يقال: إن إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفي من ضيفه؛ لئلا يظهروا على ما يريد أن يتخذ لهم من الطعام.

واختار الأجود، فقدَّم إليهم الطعام الدسم وهو عجل سمين مشوي على الحجارة المحماة، وعرض عليهم الأكل بتلطف وعرض حسن دون أمر، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: كلوا. وأظهر السرور بأكلهم، وكان غير مسرور بتركهم الطعام، كما يوجد من بعض البخلاء المتكلفين الذين يحضرون طعاماً كثيراً، ثم يترقبون إمساك الضيف عن الأكل.

٦ً- أحسَّ إبراهيم منهم الخوف في نفسه، على عادة الناس أن من يمتنع من مؤاكلة المضيف يضمر شراً مبيتاً، فطمأنوه وقالوا له: لا تخف، وأعلموه أنهم ملائكة الله ورسله، وبشروه بولد يولد له من زوجته سارّة.

٧ً- لما سمعت زوجته بالبشارة، تعجبت وصاحت كما جرت عادة النساء، حيث يسمعن شيئاً من أحوالهن، يصحن عند الاستحياء أو التعجب، وكان تعجبها لأمرين: كِبَر السن والعقم.

٨ً- أجابها الملائكة بأن ما قالوه وأخبروا به هو قول الله وحكمه، فلا يصح أن تشك فيه، وكان بين البشارة والولادة سَنَة، وكانت سارّة لم تلد قبل

ذلك، فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم يومئذ ابن مئة سنة، والله حكيم فيما يفعله، عليم بمصالح خلقه.

وأما القصة الثانية ففيها ما يأتي:

١- أدرك أبو الأنبياء إبراهيم أن وراء وفد الملائكة الجماعي شيئاً خطيراً، فبعد أن علم وتيقن أنهم ملائكة أرسلوا لأمر خطير، قال لهم: فما شأنكم وقصتكم أيها الملائكة المرسلون سوى البشارة؟

وإنما عرف كونهم مرسلين لقولهم هنا: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ فهذا يدل على كونهم منزلين من عند الله، حيث حكوا قول الله.

٢- أجابوه بأنهم أرسلوا إلى قوم مجرمين هم قوم لوط، لرجمهم بحجارة معروفة بأنها حجارة العذاب، قيل: على كل حجر اسم من يهلك به. وإنما قال: ﴿مِّن طِينٍ﴾ لإفادة أن الحجارة من طين متحجر وهو السجّيل، ولدفع توهم كونها بَرَداً، فإن بعض الناس يسمي البَرد حجارة.

٣- كانت الحاجة إلى قوم من الملائكة، مع أن الواحد منهم يقلب المدائن بريشة من جناحه، إظهاراً لقدرة الله وتعظيمه وشدة سلطانه وغلبة جنده.

٤- جرت سنة الله تعالى في إنزال الهلاك والدمار العام بإنجاء المؤمنين وتمييزهم، فلما أراد إهلاك قوم لوط أمر نبيه لوطاً بأن يخرج هو مع المؤمنين من أهل بيته إلا امرأته، لئلا يهلك المؤمنون، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ١١/ ٨١] .

٥- دلّ قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ على فائدتين[١]:

---

(١) تفسير الرازي: ٢١٨/٢٨

إحداهما - بيان القدرة والاختيار، لتمييز الله المجرم عن المحسن.

الثانية- بيان أنه ببركة المحسن ينجو المسيء، فإن القرية ما دام فيها المؤمن لم تهلك، فلما خرج من القرية آل لوط المؤمنون، نزل العذاب بالباقين.

٦ً- دل قوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ على أن الكفر إذا غلب، والفسق إذا عمَّ وفشا، لا تنفع معه عبادة المؤمنين. أما لو كان أكثر الخلق على الطريقة المستقيمة، وفيهم شرذمة يسيرة يسرقون ويزنون، فلا عذاب.

٧ً- المؤمنون والمسلمون من آل لوط سواء، لكن في الحقيقة: الإيمان: تصديق القلب، والإسلام: هو الانقياد بالظاهر لأحكام الله، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، فسمَّاهم تعالى في الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم. قال الرازي مؤيداً التفرقة بين الإيمان والإسلام: والحق أن المسلم أعم من المؤمن، وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه، فإذا سمي المؤمن مسلماً لا يدل على اتحاد مفهوميهما، فكأنه تعالى قال: أخرجنا المؤمنين، فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتاً من المسلمين، ويلزم من هذا ألا يكون هناك غيرهم من المؤمنين.

٨ً- إن في تعذيب قوم لوط على الكفر وفاحشة اللواط عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم، غير أن المنتفعين بالعظة والعبرة هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه، والمنتفع بها هو الخائف. وقد عبر عن ذلك في آية أخرى بأبلغ وجه حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [العنكبوت: ٣٥/٢٩] فقد وصف الآية بالظهور، وقال: ﴿مِنْهَآ﴾ لا (فيها) المفيدة للتبعيض، فكأنه تعالى قال: من نفسها لكم آية باقية، وذكر أن المنتفع هو العاقل، والعاقل أعم من الخائف، فكانت الآية في العنكبوت أظهر؛ لأن القصد هناك تخويف القوم، وها هنا تسلية القوم، ويؤكده أنه قال

هناك: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ من غير بيان واف بنجاة المسلمين والمؤمنين بأسرهم، وقال هنا: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قصص أنبياء آخرين مع أقوامهم

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿الصَّاعِقَةُ﴾:

وقرأ الكسائي (الصعقة).

﴿وَقَوْمَ﴾: قرئ:

١- (وقومِ) وهي قراءة أبي عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (وقومَ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ وتقديره: وفي موسى آيات. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ الجملة حال من ضمير ﴿فَأَخَذْنَاهُ﴾

وكذلك التقدير في قوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا﴾

وكذلك التقدير في قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾

وكذلك التقدير في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ عند من قرأ بالجر، ومن قرأ بالنصب فهو منصوب بفعل مقدر، تقديره: أهلكنا قوم نوح، أو اذكر قوم نوح.

البلاغة:

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾ استعارة، استعار الركن للجنود والجموع: لأنه يتقوى بهم، ويعتمد عليهم كما يعتمد على الركن في البناء.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ مجاز عقلي: أطلق اسم الفاعل على اسم المفعول، أي ملام على طغيانه.

﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ استعارة تبعية في قوله: ﴿الْعَقِيمَ﴾ شبه استئصالهم بعقم النساء، ثم أطلق المشبه به على المشبه، واشتق منه العقيم بطريق الاستعارة.

المفردات اللغوية:

﴿وَفِي مُوسَى﴾ معطوف على قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ﴾ قال الزمخشري وابن عطية: وهذا بعيد جداً ينزّه القرآن عن مثله. والأصح العطف على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا﴾ والمعنى: وجعلنا في قصة موسى آية. ﴿بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي مصحوباً متلبساً بسلطان مبين، أي بحجة واضحة هي معجزاته، كاليد والعصا. ﴿فَتَوَلَّى﴾ أعرض عن الإيمان. ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي كقوله: نأى بجانبه، أو فتولى عن الإيمان مع جنوده وأتباعه: لأنهم له كالركن، والأصل في الركن: ما يُركَن إليه الشيء ويُتقوَّى به، والمراد هنا: جنوده وأعوانه، كما في آية: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ١١/ ٨٠] .

﴿وَقَالَ﴾ لموسى .﴿سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي هو ساحر أو مجنون، كأنه نسب الخوارق إلى الجنّ .﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ طرحناهم .﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحر ..﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يُلام عليه من الكفر والعناد وتكذيب الرسل ودعوى الربوبية.

﴿وَفِى عَادٍ﴾ أي وفي إهلاك عاد آية .﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ حين أرسلنا عليهم الريح العقيم، سماها عقيماً؛ لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، أو لأنها لا خير ولا منفعة فيها، فلا تحمل المطر ولا تلقح الشجر، وهي الدَّبور أو الجَنُوب أو النَّكْباء .﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ أي ماتترك شيئاً مرّت عليه .﴿إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ كالرماد، أو كالشيء البالي المتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك. مأخوذ من الرم: وهو البلى والتفتت.

﴿وَفِى ثَمُودَ﴾ أي وفي إهلاك ثمود آية .﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ بعد عقر الناقة. ﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى انقضاء آجالكم .﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ استكبروا عن امتثال أمره .﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي العذاب بعد الثلاثة أيام، كما في آية: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥/١١] ، والصاعقة: نار نازلة بسبب احتكاكات كهربية، وهي الصيحة المهلكة التي صعقتهم .﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها، فإنها جاءتهم معاينة بالنهار.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ ما قدروا على النهوض حين نزول العذاب، وهو كقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧/١١] .﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي ممتنعين من العذاب وعلى من أهلكهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح، ومن قرأ بالجر فهو عطف على ثمود، أي وفي إهلاكهم آية .﴿مِّن قَبْلُ﴾ قبل إهلاك هؤلاء المذكورين .﴿فَٰسِقِينَ﴾ خارجين من طاعة الله، متجاوزين حدوده.

المناسبة:

بعد بيان العظة والعبرة في قصتي إبراهيم ولوط عليهما السلام، من أجل

الإيمان بقدرة الله، عطف تعالى على ذلك قصص أقوام آخرين، عذبوا على تكذيب الرسل بعذاب الاستئصال، وهم فرعون موسى وأتباعه، وعاد وثمود وقوم نوح، وقد تبين في تعذيبهم نهاية الطغاة والمكذبين والكفار الظالمين، ليثوب الناس إلى رشدهم، ويؤمنوا بالله وبالبعث، ويكفّوا عن تكذيب الرسول ﷺ والكفر برسالته.

التفسير والبيان:

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾﴾ أي وتركنا في قصة موسى عليه السلام آية وعبرة، حين أرسلناه إلى الطاغية فرعون الجبار بشيراً ونذيراً بحجة ظاهرة واضحة هي المعجزات كالعصا واليد وما معها من الآيات.

فأعرض استكباراً وعناداً ونأى عن آياتنا بجانبه، واعتز بجنده وجموعه وقوته، وقال محقراً شأن موسى: هو إما ساحر أو مجنون، إذ لم يستطع تفسير مارآه من الخوارق، إلا بنسبته إلى السحر أو الجنون، كما في آية أخرى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٣٤] وآية: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٧] .

﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي فأخذناه مع جنوده أخذ عزيز مقتدر، فألقيناهم في البحر، وفرعون آتٍ بما يلام عليه من الكفر والطغيان وادعاء الربوبية والعناد والفجور.

وهذا دليل آخر على عظمة القدرة الإلهية على إذلال الجبابرة، جزاء عتوهم واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

ثم ذكر الله تعالى قصة عاد، فقال:

﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا

جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ أي وتركنا أيضاً في قصة عاد آية وعبرة، حين أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً عاتية، لا خير فيها ولا بركة، ولا تلقح شجراً، ولا تحمل مطراً، إنما هي ريح الإهلاك والعذاب، فلا تترك شيئاً مرّت عليه من الأنفس البشرية والأنعام والأموال إلا جعلته كالشيء الهالك البالي.

ثم أبان الله تعالى قصة ثمود، فقال:

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أي وتركنا في قصة ثمود آية، حين قلنا لهم: عيشوا متمتعين في الدنيا إلى وقت الهلاك، كما قال تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ١١/٦٥].

فتكبروا عن امتثال أمر الله، فنزلت بهم صاعقة من السماء أهلكتهم، والصاعقة: هي كل عذاب مهلك، وهم يرونها عياناً بالنهار، أو هم ينتظرون ما وعِدوه من العذاب، وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام، فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار، جزاء وفاقاً لما اقترفوا من آثام ومعاصٍ.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي لم يقدروا على القيام والهرب من تلك الصرعة، بل أصبحوا في ديارهم هلكى جاثمين، ولم يكونوا ممتنعين من عذاب الله، ولم يجدوا نصيراً ينصرهم ويدفع عنهم العذاب.

ثم أعقبه بقصة نوح، فقال:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي وأهلكنا بالطوفان قوم نوح من قبل هؤلاء، لتقدم زمنهم على زمن فرعون وعاد وثمود، لأنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله، متجاوزين حدوده.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه نهاية الطغاة الظالمين وعاقبة الكفار المكذبين، أخبر بها تعالى للعظة والعبرة، وهي تذكّر بحال أربعة أقوام.

- فإن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام مؤيداً بالدليل الباهر والحجة القاطعة والمعجزات كالعصا واليد، إلى فرعون الطاغية الجبار، فأعرض عن الإيمان بجنوده وجموعه، وكذبوا برسالته، ووصف فرعون موسى بأنه ساحر يأتي الجن بسحره أو يقرب منهم، والجن يقربونه ويقصدونه إن لم يقصدهم، فيصير كالمجنون، فالساحر والمجنون كلاهما أمره مع الجن، غير أن الساحر يأتيهم باختياره، والمجنون يأتونه من غير اختياره.

فكان عاقبتهم الإغراق في البحر لكفرهم وتوليهم عن الإيمان، وإتيان فرعون بما يلام عليه من ادعاء الربوبية والطغيان والعناد.

- كذلك أرسل الله هوداً عليه السلام إلى قبيلة عاد، فكذبوه واستكبروا عن دعوته، وعكفوا على عبادة الأصنام، فاستأصلهم الله وأهلكهم بريح صرصر عاتية، لا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة، وهي كما قال مقاتل: الدَّبُور، كما في الصحيح عن النبي ﷺ: «نُصِرْت بالصَّبا، وأُهلكت عاد بالدَّبُور» وقيل: هي الجنوب، لما روى ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن النبي ﷺ قال: «الريح العقيم: الجنوب» وقال ابن عباس: هي النكباء.

وكان تأثير تلك الريح شديداً مرعباً، فلم تمر بشيء من الأنفس والأموال والديار إلا جعلته كالشيء الهشيم، أو كالشيء الهالك البالي، كما قال تعالى:

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٤٦/ ٢٥] .

- وأرسل الله أيضاً نبيه صالحاً عليه السلام إلى قبيلة ثمود الذين متعهم الله تعالى بالخيرات في الدنيا، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فخالفوا أمر الله، واستكبروا عن الامتثال به، فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون إليها نهاراً، وهي كل عذاب مهلك، وهي نار من السماء، أو صيحة منها، أي صوت شديد، فهلكوا، ولم يتمكنوا من النهوض فضلاً عن الهرب والفرار، وما كان لهم ناصر ينصرهم ويمنعهم من العذاب حين أهلكوا.

- وقبل هؤلاء أرسل الله نوحاً عليه السلام إلى قومه، فأمرهم بترك عبادة الأصنام، والاتجاه إلى عبادة الله الواحد الأحد، فأبوا وعاندوا واستمروا على كفرهم، فأهلكهم الله بالطوفان، جزاء على كفرهم وبغيهم ووثنيتهم.

وأنواع العذاب في إهلاك الأقوام السابقة تدل على أن الله قادر على أن يعذب ويحقق الفناء بما به البقاء والوجود أو عناصر الحياة الأربعة: وهي التراب والماء والهواء والنار، فعذب قوم لوط بالتراب، وعذب قوم نوح وقوم فرعون بالماء، وعذب عاداً بالهواء، وثمود بالنار.

إثبات وحدانية الله وعظيم قدرته

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾

القراءات:

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ نعم: فعل ماض للمدح، و﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ فاعل، والمخصوص بالمدح محذوف، تقديره: فنعم الماهدون نحن، فحذف المقصود بالمدح.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بقوله بعده: ﴿خَلَقْنَا﴾.

البلاغة:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ سجع رصين غير متكلف يزيد في جمال الأسلوب؛ وبين السماء والأرض طباق.

المفردات اللغوية:

﴿بِأَيْيْدٍ﴾ بقوّة، مثل الآد. ﴿لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون على خلقها وخلق غيرها، من الوسع: بمعنى الطاقة، والموسع: القادر على الإنفاق، يقال: آد الرجل يئيد: قوي، وأوسع الرجل: صار ذا سعة وقوة. ﴿فَرَشْنَاهَا﴾ مهدناها وبسطناها كالفراش لتستقروا عليها، يقال: مهد الفراش: إذا بسطه ووطّأه، وتمهيد الأمور: تسويتها وإصلاحها. ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي نحن.

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي من كل جنس من الأجناس. ﴿زَوْجَيْنِ﴾ صنفين ونوعين: ذكر وأنثى، وسماء وأرض.وشمس وقمر، وسهل وجبل، وصيف وشتاء، وحلو وحامض، ونور وظلمة. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي تتذكرون، فتعلموا أن التعدد من خواص الممكنات، أما الواجب بالذات خالق الأزواج فهو فرد واحد لا يقبل التعدد والانقسام.

﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ فروا من عقابه إلى ثوابه ورضاه بالإقرار بالتوحيد وملازمة الطاعة وتجنب المعصية. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي إني من عذابه المعدّ لمن أشرك أو عصى بيِّن الإنذار والتخويف. ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إفراد وتوحيد لمن يفرّ إليه ويلجأ لجنابه، أي وقل لهم: لا تجعلوا.. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تكرير الجملة للتأكيد.

المناسبة:

بعد إثبات وقوع البعث أو الحشر والمعاد لا محالة، أقام الله تعالى الأدلة

على الوحدانية وعظيم القدرة، من خلق السماء محكمة البنيان، والأرض ممهدة كالفراش للاستقرار عليها، وخلق الجنسين كالذكر والأنثى من كل نوع من أنواع الحيوان، والصنفين المتضادين من بقية الأشياء، عدّد الحسن البصري أشياء كالسماء والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والبر والبحر، والموت والحياة، وقال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثيل له.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي ولقد بنينا السماء بقوة وقدرة، وإنا لذوو قدرة وسعة على خلقها وخلق غيرها، فنحن قادرون، لا نعجز عن ذلك، ولا يمسنا تعب ولا نصب. وفي لفظ البناء إشارة إلى كونها محكمة البنيان. وقوله: ﴿بِأَيۡيْدٍ﴾ تأكيد لذلك، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ مزيد تأكيد.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي والأرض مهدناها وبسطناها كالفراش لتصلح للعيش والاستقرار عليها، فنعم الماهدون نحن الذين جعلناها مهداً لأهلها، ومترعة بالخيرات على سطحها وجوفها، برها وبحرها وجوها، فعلى سطحها يعيش الإنسان والحيوان، وفي جوفها الثروة المعدنية الجامدة والسائلة كالنفط، وفي برها مختلف النباتات والأزهار والأشجار، وفي بحرها آلاف الأنواع من الأسماك، واللآلئ والمرجان وتسير فيها السفن، وفي جوها الطير والهواء والسحب الزاخرة بالمطر، وتحليق الطائرات وغيرها.

وإنما أطلق الفرش على الأرض، ولم يطلق البناء؛ لأنها محل التغييرات كالبساط يفرش ويطوى. وقوله: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾ أدل على الاستقلال وعدم الشريك في التصرف.والآية تشير إلى أن دَحْو الأرض وبسطها كان بعد خلق السماء؛ لأن بناء البيت يكون أولاً قبل الفرش، وهذا هو المعروف الآن علمياً. قال

الرازي: في الآية دليل على أن دحو الأرض بعد خلق السماء؛ لأن بناء البيت يكون في العادة قبل الفرش(١).

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي وأوجدنا من جميع المخلوقات صنفين أو نوعين ضدين أو متقابلين: ذكر وأنثى، وحلو مرّ، وسماء وأرض، وليل ونهار، وشمس وقمر، وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وموت وحياة، وخير وشر، وشقاء وسعادة، وجنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات، لذا قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي خلقنا ذلك على هذا النحو لتعلموا وتتذكروا أن الخالق واحد لا شريك له، وتستدلوا بذلك على التوحيد.

ثم رتب على دليل الوحدانية والقدرة أمرين: اللجوء إلى الله وتجنب الشرك إتماماً للتوحيد، فقال:

- ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ أي الجؤوا إلى الله، واعتمدوا عليه في أموركم كلها، وتوبوا من ذنوبكم، وأطيعوا أوامره، فإني لكم منذر بيِّن الإنذار، ومخوِّف من عذابه وعقابه. وهذا أمر بالإقبال على الله، والإعراض عما سواه. وقوله: ﴿فَفِرُّوا﴾ ينبئ عن سرعة الإهلاك، كأنه يقول: الإهلاك والعذاب أسرع وأقرب من أن يحتمل الحال الإبطاء في الرجوع، فافزعوا إلى الله سريعاً وفروا.

- ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾ أي لا تشركوا بالله شيئاً آخر سواه، فإن الإله المعبود بحق هو الذي لا تصلح العبادة لغيره، ثم كرر التذكير بمهمة الإنذار البيِّنة للنبي ﷺ للتأكيد.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٢٧.

١ً- إثبات وحدانية الله وقدرته بآيات الكون الكبرى، من خلق السماء التي تدل بكواكبها ونجومها وشمسها وقمرها وتوابعهما على أن الإله الصانع قادر على الكمال، وكذا خلق الأرض الممهدة المبسوطة الممدودة كالفراش بما فيها من خيرات ظاهرة وباطنة، وأيضاً خلق الصنفين والنوعين المختلفين من ذكر وأنثى، حلو وحامض، ونحو ذلك، وسماء وأرض، وشمس وقمر، وليل ونهار، ونور وظلام، وسهل وجبل، وجنّ وإنس، وخير وشر، وبكرة وعشيّ، والأشياء المختلفة الطعوم والروائح والأصوات.

فهذا كله دليل على قدرة الله، ومن قدر على هذا قدر على الإعادة، وهو إشارة إلى أن ما سوى الله تعالى مركب من أجزاء، وهو دليل على الانتقال من المركب إلى البسيط، ومن الممكن إلى الواجب، ومن المصنوع إلى الصانع، فإن خالق الأزواج فرد وإلا لكان ممكناً، فيكون مخلوقاً، ولا يكون خالقاً، فلا يقدَّر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء، إذ ليس كمثله شيء.

٢ً- إن الإله المتصف بالوحدانية والقدرة الباهرة يجب في حقه أمران أساسيان: اللجوء إليه وحده، والتوبة إليه من الذنوب، والفرار من معاصيه إلى طاعته، واجتناب الشرك أو عبادة شيء آخر معه. قال سهل بن عبد الله: فِرُّوا مما سوى الله إلى الله.

٣ً- إن النبي ﷺ في حياته وبعد مماته بما تركه من بيان وسنة دائم الإنذار، بيِّن التخويف، ينذر الناس من عقاب الله على الكفر والمعصية.

تهديد المشركين بالعذاب لتكذيب النبي ﷺ

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

القراءات:

﴿يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي﴾: قرئ:

١- (يومهِمِ) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (يومهُمُ) وهي قراءة خلف، وحمزة، والكسائي.

٣- (يومهِمُ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم﴾ الكاف في﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع: لأنها خبر مبتدأ محذوف، تقديره: الأمر كذلك.

﴿ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ ﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ بالرفع: صفة لـ ﴿ذُو﴾ وقرىء بالجر على أنه صفة للقوة، وذكّر؛ لأنه تأنيثِ غير حقيقي، ولأن فعيل يصلح صفة للمذكر والمؤنث، والرفع أشهر في القراءة، وأقوى في القياس.

البلاغة:

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ إطناب بتكرار فعل﴿أُرِيدُ﴾ للمبالغة والتأكيد.

﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ تشبيه مرسل مجمل؛ لأنه حذف منه وجه الشبه، أي نصيباً من العذاب مثل نصيب أسلافهم المكذبين في الشدة والألم.

المفردات اللغوية:

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمر مثل ذلك، والإشارة إلى تكذيبهم الرسول ﷺ، وتسميتهم إياه ساحراً أو مجنوناً. ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ الآية كالتفسير له، أي مثل تكذيبهم لك بقولهم: إنك ساحر أو مجنون تكذيب الأمم قبلهم رسلهم بقولهم ذلك.

﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ أي هل أوصى أولهم آخرهم؟ استفهام بمعنى النفي على سبيل التعجب، أي كأن الأولين والآخرين منهم أوصى بعضهم بعضاً بهذا القول، حتى قالوه كلهم. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضراب عن أن التواصي جامعهم لتباعد أيامهم إلى أن الجامع لهم على هذا القول طغيانهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم وعن مجادلتهم بعد الإصرار والعناد. ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ لست ملوماً على الإعراض عنهم؛ لأنك بلّغتهم الرسالة وبذلت الجهد في التذكير. ﴿وَذَكِّرْ﴾ داوم على التذكير والموعظة بالقرآن. ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. مَنْ عَلِم الله تعالى أنه يؤمن، فإن التذكير يزيده بصيرة.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إلا لنأمرهم بالعبادة ويعبدوا الله بالفعل لا لاحتياجي إليهم، فإن أعرض أو قصر بعضهم أو أكثرهم فعليه تبعة فعله. ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ لاأريد منهم الاستعانة بهم على تحصيل أرزاقهم ومعايشهم لأنفسهم أو غيرهم وهو أولى. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أن يطعموا أنفسهم أو غيرهم. والمراد بيان أن شأن الله مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم، فإنهم يملكونهم للاستخدام في حوائجهم ﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزق كل محتاج، وفيه إيماء باستغنائه عن الرزق. ﴿ٱلْمَتِينُ﴾الشديد القوة.

﴿ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالكفر من أهل مكة وغيرهم. ﴿ذَنُوبًا﴾ نصيباً من العذاب، وأصل الذنوب في اللغة: الدّلْو العظيمة المملوءة ماء. ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مثل نصيب نظائرهم من الأمم السالفة، الهالكين قبلهم، ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ بالعذاب إن أخّرتهم إلى يوم القيامة، وهو جواب لقولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٦٧/ ٢٥]. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي هلاك لهم وشدة عذاب. ﴿مِن يَوْمِهِمُ﴾ في يومهم وهو يوم القيامة.

سبب النزول

نزول الآيتين (٥٤،٥٥):

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾: أخرج ابن منيع وابن راهويه والهيثم بن كليب في مسانيدهم عن علي قال: لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ لم يبق منا أحد إلا أيقن بالهَلَكةِ، إذ أمر النبي ﷺ أن يتولى عنهم، فنزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فطابت أنفسنا.

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال: ذكر لنا أنه لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ الآية، اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ، ورأوا أن الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر، فأنزل الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

المناسبة:

بعد بيان الأدلة على الحشر، وعلى إثبات الوحدانية وعظيم القدرة الإلهية، وتذكير المشركين بإهلاك الأمم المكذبة السالفة، بيَّن الله تعالى أن كل رسول كُذِّب، وكأن التكذيب بين الأمم شيء متواصًى به من الجميع، والواقع أنهم قوم طغاة تجاوزوا حدود الله، لذا أمر النبي ﷺ بالإعراض عنهم، علماً بأنهم خلقوا لعبادة الله، لا لتحصيل المعايش والأرزاق، ثم ختمت السورة بتهديد

مشركي مكة بعذاب مماثل لعذاب من قبلهم من الأمم، والعذاب واقع بهم، لا شك فيه، ولا مردّ له.

التفسير والبيان:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ أي كما كذبك قومك من العرب ووصفوك بالسحر أو الجنون، فعلت الأمم المتقدمة التي كذبت رسلها، فهذا شأن الأمم في القديم، ولست أنت وحدك الذي كُذّب. وهذا إيناس للرسول ﷺ عن إعراض قومه، وحمله على الصبر وتحمل الأذى.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ هذا استفهام على سبيل التعجب والإنكار بمعنى النفي، فهو تعجب من حالهم يراد به: كأنما أوصى أولهم آخرهم بالتكذيب، وتواطؤوا عليه، أي هل أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة؟ والواقع أنهم لم يتواصوا بذلك لتباعد زمانهم، لكن هم قوم طغاة، جمعهم الطغيان: وهو مجاوزة الحد في الكفر، فقال متأخروهم كما قال متقدموهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾ أي أعرض عنهم أيها الرسول، وكفّ عن جدالهم، فقد فعلت ما أمرك الله به، وبلّغت رسالته، وما أنت بملوم عند الله بعد هذا؛ لأنك قد أدّيت ما عليك، وما على الرسول إلا البلاغ، وعلى الله الحساب.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ أي ولكن تابع التذكير، وعظ بالقرآن من آمن به من قومك، فإن التذكير ينفعهم، أو إنما تنتفع بالذكرى القلوب المؤمنة المستعدة للهداية. والمراد أن الإعراض عن طائفة معلومة لعدم قابليتهم الهدى، لا يوجب ترك البعض الآخر.

ثم بيَّن الله تعالى الغاية من خلق الثقلين: وهي العبادة، مع أن المشركين كذبوا الرسول، وتركوا عبادة الخالق، فقال:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ أي ما خلقت الثقلين: الإنس والجن إلا للعبادة، ولمعرفتي، لا لاحتياجي إليهم كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٩/٣١] وكما ورد: «كنتُ كنزاً مخفياً فأردتُ أن أُعْرفَ، فخلقت الخلق، فبي عرفوني».[1]

والعبادة في اللغة: الذل والخضوع والانقياد. وقال أهل السنة: إن العبادة المعرفة والإخلاص له في ذلك، فإن المعرفة أيضاً غاية صحيحة.

وقال مجاهد: المعنى إلا لآمرهم بعبادتي وأنهاهم. وهذا كلام جديد مستأنف لتقرير وتأكيد الأمر بالتذكر، فإن خلقهم للعبادة يستدعي دوام التذكير بها. وحكمة تقديم الجن على الإنس أن عبادتهم سرية لا يدخلها الرياء كعبادة الإنس.

ثم ذكر الله تعالى سمو الغاية من الخلق، فقال:

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ أي لا أريد من خلقهم جلب نفع لي، ولا دفع ضرر عني، كما تريده السادة عادة من عبيدهم، فإن الله هو الغني المطلق، الرزاق المعطي، الذي يرزق مخلوقاته، ويقوم بما يصلحهم، وهو ذو القدرة والقوة، والشديد القوة، فلم يخلقهم لنفع ينفعونه به، فعليهم أن يؤدوا ما خلقوا له من العبادة. وما في قوله: ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ للنفي في الحال، ولا: للنفي في الاستقبال، ونفي الحال وهو الدنيا أولى من نفي الاستقبال وهو في أمر الآخرة.

والخلاصة:

إنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم

(١) قال ابن تيمية: إنه ليس من كلام النبي ﷺ، ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف.

الجزاء، ومن عصاه عذَّبه أشد العذاب، وهو غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم.

روى الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، تفرَّغْ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل، ملأت صدرك شغلاً، ولم أسد فقرك».

وورد في بعض الكتب الإلهية: يقول الله تعالى: «ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وتكفلت برزقك فلا تتعب، فاطلبني تجدْني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فُتُّك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء».

ثم هدد الله تعالى مشركي مكة وأمثالهم بقوله:

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾﴾ أي فإن للذين ظلموا أنفسهم بالكفر والشرك وتكذيب الرسول نصيباً من العذاب، مثل نصيب أمثالهم الكفار من الأمم السابقة، فلا يطلبوا مني تعجيل العذاب لهم، فإن حظهم من العذاب آتٍ لا ريب فيه، وواقع لا محالة، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١٦/١].

وهذا جواب قولهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الملك: ٦٧/٢٥] وقولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [هود: ١١/٣٢].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي فهلاك وشدة عذاب للكافرين في يوم القيامة الذي يوعدون به، وقيل: اليوم يوم بدر.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ- إن تكذيب الرسل شأن الأمم قديمها وحديثها، فكما كذب محمداً قومه، وقالوا: ساحر أو مجنون، كذّب من قبلهم رسلهم، وقالوا مثل قولهم،

وكأن أولهم أوصى آخرهم بالتكذيب، والتواطؤ عليه، والواقع ليس كذلك، فلم يوص بعضهم بعضاً، بل جَمَعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحد في الكفر.

والغرض من الخبر إيناس النبي ﷺ عما يلقاه من صدود قومه عن دعوته.

٢ً- أمر الله نبيه بالإعراض عن جدال قومه، وطمأنه ربه بأنه غير ملوم ولا مقصر، فقد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، وإنما هم الملومون بالإعراض والعناد. وهذه إيناس آخر؛ لأن النبي ﷺ كان من كرم أخلاقه وشدة حساسيته ينسب نفسه إلى تقصير في التبليغ، فيجتهد في الإنذار والتبليغ.

٣ً- لكن التولي عن القوم ليس مطلقاً، لذا أمر النبي ﷺ بمتابعة التذكير، فإنه ينفع المؤمنين، وهم من علم الله سابقاً أنهم يؤمنون.

٤ً- وغاية التذكير: توجيه الناس إلى عبادة الله وتوحيده والإخلاص له، فلم يخلق الله الخلق إلا للعبادة، فالمقصود من إيجاد الإنسان العبادة، فيكون التذكير بها ضرورياً، والإعلام بأن كل ما عداها تضييع للزمان، وفائدة العبادة: التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله.

ثم إن مهمة الأنبياء منحصرة في أمرين: عبادة الله، وهداية الخلق. وهناك غرض ثالث آخر من ذكر هذه الآية: وهو بيان سوء صنيع الكفار، حيث تركوا عبادة الله، مع أن خلقهم ما كان إلا للعبادة.

وقال مجاهد وغيره ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إي إلا للعبادة، وهذا كما قال الثعلبي قول حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم، لما عُرف وجود الله وتوحيده، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨٧] . ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٩] . وهذا منهم عبادة وليس ينفعهم مع الشرك.

٥ً- لم يكن خلق الناس للعبادة لحاجة من الخالق، فالله عز وجل غني عن عبادة العباد، ولم يكن خلقهم للتسخير للخدمة في توفير الطعام والشراب أو

حفظه، كما يفعل السادة مع العبيد، وهو سبحانه الرزاق الذي يرزق غيره، وهو القدير الشديد القوي، الذي لا يتقوى بأحد.

وقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ تعليل لعدم طلب الرزق، وقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ تعليل لعدم طلب العمل؛ لأن من يطلب رزقاً، يكون فقيراً محتاجاً، ومن يطلب عملاً من غيره، يكون عاجزاً لا قوة له.

٦- إن للذين ظلموا أنفسهم وهم كفار مكة وأمثالهم نصيباً من العذاب مثل نصيب الكفار من الأمم السالفة، فلا داعي لاستعجالهم نزول العذاب بهم، فإنه آتيهم لا محالة.

وهذا تهديد للكفار الذين وصفهم الله بأنهم ظلمة؛ لأن من وضع نفسه في موضع عبادة غير الله، يكون قد وضع الشيء في غير موضعه، فيكون ظالماً. وإذا ثبت أن الإنس مخلوقون للعبادة، فإن الذين ظلموا بعبادة غير الله، لهم هلاك مثل هلاك من تقدم.

ومناسبة الذَّنوب التي هي في الأصل: الدلو العظيمة: هي أنه تعالى قال: نصبُّ من فوق رؤوسهم ذَنوباً كذَنُوب صُبَّ فوق رؤوس أولئك.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطور

مكية، وهي تسع وأربعون آية

تسميتها:

سميت سورة (الطور) لافتتاحها بقسم الله تعالى بجبل الطور الذي يكون فيه أشجار، كالذي كلّم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، فنال بذلك شرفاً عظيماً على سائر الجبال.

مناسبتها لما قبلها:

تتجلى للمتأمل مناسبة هذه السورة لسورة الذاريات قبلها من وجوه:

أ - تشابه الموضوع: فإن كلتا السورتين مكية، تضمنت الكلام عن التوحيد والبعث وأحوال الآخرة، والرسالة النبوية، وتفنيد معتقدات المشركين الفاسدة.

٢- تماثل الابتداء والانتهاء: ففي مطلع كل منهما وصف حال المتقين في الآخرة: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾ [الذاريات: ٥١/١٥] .﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ [الطور: ٥٢/١٧] وفي ختام كل منهما صفة حال الكفار: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الذاريات: ٥١/٦٠] .﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٥٢/٤٢] .

٣ً- اتحاد القسم بآية كونية: ففي الذاريات أقسم الله بالرياح الذاريات النافعة في المعاش، وفي الطور أقسم الله بالجبل الذي حظي بالنور الإلهي بتكليم موسى عليه السلام وإنزال التوراة عليه لنفع الناس في المعاش والمعاد.

٤ً- تطابق الأمر للنبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين ومتابعة تذكير المؤمنين: ففي الذاريات: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ [٥٤] ﴿وَذَكِّرْ﴾ [٥٥] وفي الطور: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ﴾ [٢٩]: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ﴾ [٤٥].

ما اشتملت عليه السورة:

لما ختم الله تعالى السورة المتقدمة بوقوع اليوم الموعود، أقسم على ذلك بالطور، وهو الجبل الذي ذكر مراراً في قصة موسى عليه السلام، والكتاب المسطور: التوراة ونحوها أو اللوح المحفوظ، والبيت المعمور: الكعبة المشرفة، والسقف المرفوع: السماء، والبحر المسجور: المملوء أو الموقد. فهو قسم بآيات كونية علوية وسفلية على أن العذاب آتٍ لا ريب فيه.

ثم وصف الله تعالى عذاب النار الذي يزجّ به المكذبون، وما يلقونه من الذل والإهانة، وأردفه بوصف نعيم المتقين أهل الجنة، وما يتمتعون به من أنواع الملذات في الملبس والمسكن والمطعم والمشرب والزواج بالحور العين.

وأعقب هذا الوصف أمر النبي ﷺ بمتابعة التذكير، وتبليغ الرسالة، وإنذار الكفرة، والإعراض عن سفاهة المشركين وافترائهم حين يقولون عنه: إنه شاعر أو كاهن، أو مجنون، أو مفتر على الله. ثم أنكر تعالى عليهم مزاعمهم الباطلة هذه، وأثبت بالأدلة الدامغة صدق رسالة النبي ﷺ، وأقام البراهين والحجج القاطعة على الألوهية الحقة والوحدانية، ونعى على المشركين قولهم: الملائكة بنات الله، ووبخهم وتهكم بهم في عنادهم ومكابرتهم وبلوغهم حد إنكار المحسوسات المشاهدة لهم. وختمت السورة بأمر الرسول ﷺ بترك الكفار في ضلالهم حتى الهلاك، وبالصبر في تبليغ رسالته وبالتسبيح والتحميد ليل

نهار، والإخبار بأن الله حارسه وعاصمه وحافظه، وبأن للظالمين عذابين: في الدنيا والآخرة.

فضلها:

أخرج البخاري وغيره عن أم سلمة: «أنها سمعت رسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت بالطور وكتاب مسطور».

وعن جبير بن مُطْعِم: «أتيت رسول الله ﷺ أكلِّمه في الأسَارى، فألفيته في صلاة الفجر، يقرأ سورة والطور، فلما بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ أسلمتُ خوفاً من أن يَنْزل العذاب فلما انتهى إلى هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ كاد قلبي أن يطير.

وقوع القيامة وإثبات العذاب في اليوم الموعود

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

الإعراب:

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢﴾ الواو الأولى واو القسم، والثانية واو العطف، وجواب القسم: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ العامل في الظرف هو﴿لَوَٰقِعٌ﴾ أي يقع في ذلك اليوم، ولا يجوز أن يعمل فيه .﴿دَافِعٍ﴾ لأن المنفي لا يعمل فيما قبل النافي.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ ويل: مبتدأ مرفوع، وخبره﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. وجاز الابتداء بكلمة (ويل) النكرة؛ لأن في الكلام معنى الدعاء كقولهم: سلام عليكم، والفاء في ﴿فَوَيْلٌ﴾جواب الجملة المتقدمة؛ لأن الكلام متضمن معنى الشرط، أي إذا كان الأمر كذلك فويل ...﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ بدل من قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ ﴿هَٰذَآ﴾ في موضع رفع مبتدأ، وسحر: خبر مقدم وتقديم الخبر لأنه مقصود بالإنكار والتوبيخ. وأما هنا: منقطعة لا متصلة؛ لمجيء جملة اسمية تامة بعدها، فلو لم يكن بعدها جملة تامة لكانت متصلة. والمتصلة بمعنى (أي) والمنقطعة بمعنى (بل والهمزة) وتقديره: أفسحر هذا، بل أنتم لا تبصرون. و﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ مبتدأ، خبره محذوف، أي سواء عليكم الجزع والصبر.

البلاغة:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ جناس اشتقاق، وكذا قوله: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ .﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتقريع .﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ للإهانة والتوبيخ. وبين قوله: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ﴾ وقوله: ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ طباق السلب .﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ الآيات فيها سجع لطيف، وكذا في قوله ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾﴾ هو الجبل المشجر الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه

عيسى، وغير المشجر لا يقال له: طور، وإنما يسمى جبلاً. وموقع الطور في صحراء سيناء ببلاد مدين، وهو طور سينين. والطور بالسريانية: الجبل. ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ۝٢﴾ أي مكتوب، تم فيه ترتيب الحروف المكتوبة على وجه منتظم، والسطر: ترتيب الحروف المكتوبة، والمراد به: ما كتبه الله في اللوح المحفوظ من الكتب السماوية، كالتوراة وألواح موسى والزبور والإنجيل والقرآن.

﴿رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ الرّق: جلد رقيق يكتب فيه، وقد استعير هنا لما كتب فيه الكتاب، والمنشور: المبسوط المفتوح، وتنكيرها للتعظيم والإشعار بأنهما ليسا من المتعارف فيما بين الناس.

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤﴾ الكعبة المعمورة بالحجاج والزوار والمجاورين. ﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ هو السماء. ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦﴾ البحر المملوء ماءً، وهو المحيط، أو الموقد المحمى المملوء ناراً، من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦﴾ [التكوير: ٨١/٦] من سجّر النار: أوقدها، روي أن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار ناراً تسجر بها جهنم.

﴿لَوَٰقِعٞ﴾ لنازل بالمستحقين. ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾ يدفعه أو يمنعه عن المستحقين. والمراد بهذه الأمور المقسم بها على وقوع عذاب الله يوم القيامة أنها تدل على كمال قدرة الله وحكمته، وصدق أخباره، وضبط أعمال العباد للمجازاة.

﴿تَمُورُ﴾ تتحرك وتضطرب وتدور وترتجّ في مكانها. ﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ۝١٠﴾ أي تسير عن وجه الأرض، فتصير هباء منثوراً، وذلك في يوم القيامة الذي يقع فيه العذاب. ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ إي إذا وقع ذلك فويل لهم، أي شدة عذاب. ﴿فِي خَوۡضٖ﴾ باطل. ﴿يَلۡعَبُونَ﴾ يتشاغلون بكفرهم.

﴿يُدَعُّونَ﴾ يدفعون دفعاً شديداً بعنف. ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا

تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾أي فيقال لهم ذلك .﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ أي أسحر هذا العذاب الذي ترون، كما كنتم تقولون في الوحي: هذا سحر .﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ بل أنتم لا تبصرون هذا أيضاً، كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ما يدل عليه، وهو تقريع وتهكم .﴿ٱصْلَوْهَا﴾ ادخلوها وقاسوا شدائدها .﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ ادخلوها على أي وجه شئتم من الصبر وعدمه وهو الجزع، فإنه لا محيص لكم عنها .﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي الأمران: الصبر والجزع سواء، لأن صبركم لا ينفعكم .﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تعليل للاستواء؛ لأنه لما كان الجزاء واجب الوقوع، كان الصبر وعدمه سببين في عدم النفع.

التفسير والبيان:

يقسم الله تعالى بمخلوقاته الدالة على كمال قدرته في إيقاع العذاب بأعدائه دون أن يكون هناك دافع له عنهم، فيقول:

﴿وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾﴾ أقسم الله سبحانه بجبل طور سيناء الذي فيه أشجار، تشريفاً له وتكريماً، لما حدث فيه من حادث عظيم وهو تكليم الله موسى فيه، وأنزل عليه التوراة التي كتبت بحروف منتظمة، في جلد رقيق مبسوط. وكانت الجلود أكثر ما يكتب فيها قبل اختراع الورق.

فقوله: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ يشمل الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً، كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن. وقيل: هو اللوح المحفوظ.وقرن الله الكتاب بالطور؛ لإنزاله على موسى وهو فيه، وقوله: ﴿مَّنشُورٍ﴾ إشارة إلى الوضوح.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ أي والكعبة المشرفة التي تعمر بالحجاج والزوار والمجاورين الذين يقصدونها للعبادة والدعاء والتبرك بها، والسماء العالية التي هي كالسقف للأرض وما

حوتها من شموس وأقمار وكواكب ثابتة وسيّارة وعوالم لا يحصيها إلا الله تعالى.

والبحر المملوء ماءً، المحبوس عن الأرض اليابسة، الموقد ناراً كالتنُّور المحْمَى الذي يتفجر بالنار الملتهبة يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير: ٨١/٦] روي: أن البحار تسجر يوم القيامة، فتكون ناراً. ومن المعروف أن النفط يستخرج من قاع البحار كالأرض اليابسة، وتتصاعد منه بين الحين والآخر الزلازل والبراكين.

وقرن الله السقف المرفوع بالبيت المعمور ليعلم شأن الكعبة، وأماكن شعائر الإسلام، وعظمة قدر النبي محمد ﷺ الذي دعا فيه (في البيت) ربه قائلاً: «سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك» . كما أن يونس عليه السلام كلَّم ربه في البحر قائلاً: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٧] .

وتنكير الكتاب وتعريف باقي الأشياء لتعظيمه وشهرة معرفته، حتى إنه ما احتاج إلى تعريف، أما بقية الأشياء فاحتاجت إلى التعريف.

ثم ذكر الله تعالى جواب القسم قائلاً:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾ هذا هو المقسم عليه أو جواب القسم، أي أقسم بتلك المخلوقات العظيمة على أن عذاب الآخرة لواقع كائن لا محالة لمن يستحقه من الكافرين والعصاة الذين كذبوا الرسل، ليس له دافع يدفعه ويردّه عن أهل النار. وقوله ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ فيه إشارة إلى الشدة. وقوله: ﴿عَذَابَ رَبِّكَ﴾ ليأمن النبي وكل مؤمن حين يسمع لفظ الرب فإن اسم الله منبئ عن العظمة والهيبة، واسم الرب ينبئ عن اللطف.

ثم بيّن الله تعالى ما يصاحب وقوع العذاب يوم القيامة، فقال:

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾﴾ أي إن العذاب لواقع يوم تضطرب السماء اضطراباً ويموج بعضها في بعض موجاً، وتتحرك في مكانها، وتزول الجبال من مواضعها كسير السحاب، وتصير هباء منبثاً، وتنسف نسفاً.

والحكمة في مور السماء وسير الجبال: الإعلام بألا عودة إلى الدنيا، لخرابها وعمارة الآخرة؛ لأن الأرض والجبال والسماء والنجوم كلها لعمارة الدنيا والانتفاع لبني آدم بها، فإن لم يؤمل العود إليها، لم يبق فيها نفع.

ثم ذكر الله تعالى من يقع عليه العذاب وينزل عليه يوم القيامة، فقال:

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي ويل- وهي كلمة تقال للهالك- لأولئك الذين كذبوا الرسل، ذلك اليوم، من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم، فمن لا يكذّب لا يُعذَّب بنحو دائم، والمكذبون الذين كانوا في الدنيا في تردد وخوض في الباطل، واندفاع فيه، لا يذكرون حساباً، ولا يخافون عقاباً، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً، ويخوضون في أمر محمدﷺ بالتكذيب والاستهزاء. والفاء في قوله: ﴿فَوَيْلٌ﴾ لاتصال المعنى وهو الإعلام بأمان أهل الإيمان. أما أهل الكبائر فلا يستمر تعذيبهم ولا يخلّدون في النار؛ لأنهم لا يكذبون الرسل.

وأسلوب إلقاء المكذبين في النار هو ما ذكره تعالى بقوله:

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ أي يوم يدفعون ويساقون إلى نار جهنم دفعاً عنيفاً شديداً.

ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً:

١-﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي تقول الزبانية لهم تقريعاً وتوبيخاً: هذه النار التي تشاهدونها هي النار التي كنتم تكذبون بها في الدنيا. والتكذيب بها تكذيب للرسول الذي أخبر بها من طريق الوحي.

٢- ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي أهذا الذي ترون وتشاهدون سحر كما كنتم تقولون لرسل الله المرسلة ولكتبه المنزلة؟ بل إنه لحق ولكنكم أنتم عُمي عن هذا، كما كنتم عمياً عن الحق في الدنيا، أي لا شك في المرئي، ولا عمى في البصر، فالذي ترونه حق.

٣- ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي إذا لم يمكنكم إنكار ماترون من نار جهنم، وتحققتم أن ذلك ليس بسحر، ولم يكن في أبصاركم خلل، فالآن ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاته، وقاسوا حرها وشدتها، ثم يستوي الأمران: الصبر على العذاب وعدم الصبر وهو الجزع، فلا ينفعكم شيء، وافعلوا ما شئتم، فالأمران سواء في عدم النفع، وإنما الجزاء بالعمل خيراً أو شراً، وبما أن العذاب واقع حتماً، كان الصبر وعدمه سواء، فسواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا، لا محيد لكم عنها، ولا خلاص لكم منها، ولا يظلم الله أحداً، بل يجازي كلاً بعمله.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- أقسم الله تعالى بأشياء خمسة: هي الطور والكتب المنزلة، والبيت المعمور، والسقف المرفوع والبحر المسجور، تشريفاً لها وتكريماً. والحكمة في اختيار الأماكن الثلاثة: وهي الطور، والبيت المعمور، والبحر المسجور هي كونها أماكن ثلاثة أنبياء، انفردوا فيها للخلوة بربهم، والخلاص من الخلْق، ومناجاة الله وخطابه. أما الطور فانتقل إليه موسى عليه السلام، وخاطب

ربه، فقال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٥٥] وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٤٣] .

ونادى محمدﷺ ربه في البيت المعمور(الكعبة) فقال- كما تقدم-: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» .

ودعا يونس عليه السلام ربه في أعماق البحر، فقال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٨٧] .

فصارت الأماكن شريفة بهذه الأسباب، فحلف الله تعالى بها، ثم قرن بها الكتاب؛ لأن الله تعالى كلَّم موسى عليه السلام في الطور، وأنزل عليه التوراة[1]، وبقية الكتب مثل التوراة للهداية والنور.

٢ً- كان المقسم عليه هو وقوع عذاب اليوم الموعود لا محالة، بلا أدنى شك، واستحالة قدرة أحد أن يدفعه عن المعذَّبين المكذبين بالرسل.

٣ً- يقع العذاب بالمكذبين يوم القيامة، وهو اليوم الذي تمور فيه السماء، أي ترتج بما فيها وتضطرب في مكانها، وتسير الجبال عن أماكنها حتى تستوي بالأرض، إعلاماً بألا عودة إلى الدنيا.

٤ً- الويل: كلمة عذاب أو واد في جهنم، وتقال للهالك، والويل لكل من كذب الرسل الذين هم في تردد في الباطل، وهو خوضهم في أمر محمد بالتكذيب.

٥ً- يدفع أهل النار إليها يوم القيامة دفعاً عنيفاً شديداً، قال المفسرون: إن

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٣٩ -٢٤٠.

خزنة النار يغلُّون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم، وزجّاً في أقفيتهم.

٦- وإذا دنوا من النار قالت لهم الخزنة للتوبيخ والتقريع والتهكم:

أ - هذه النار التي كذبتم بها في الدنيا.

ب - أفسحر هذا الذي ترون الآن بأعينكم، كما كنتم تقولون عن الوحي: إنه سحر؟ بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون؟

جـ - ذوقوا حر جهنم بالدخول فيها، سواء كان لكم فيها صبر أو لم يكن، فلا ينفعكم شيء، وإنما الجزاء بالعمل. وقد أخبر الله عنهم أنهم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ١٤/٢١].

جزاء المتقين ونعم الله عليهم يوم القيامة

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

القراءات:

﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم﴾: قرئ:

١- (وأتبعناهم ذرياتهم) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (وأتبعتهم ذرياتهم) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (واتبعتهم ذريتهم) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر (ذرياتِهم وما).

﴿أَلَتْنَٰهُم﴾:

وقرأ ابن كثير (ألِتناهم).

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (لا لغوَ فيها ولا تأثيمَ).

﴿نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ﴾:

وقرأ نافع، والكسائي (ندعوه أنه).

الإعراب:

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ﴾ ما: مصدرية. ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا﴾ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾منصوب على الحال من ضمير ﴿كُلُوا۟﴾ أو ضمير ﴿وَٱشْرَبُوا۟﴾. وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾ الباء: سببية، أي بعملكم.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال من الضمير المستكن في قوله: ﴿جَنَّٰتٍ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في محل رفع مبتدأ، وخبره: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في موضع نصب على الحال.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿إِنَّهُۥ﴾ بالكسر: على الابتداء، وبالفتح: على تقدير حذف حرف الجر، وتقديره: لأنه.

البلاغة:

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ تشبيه مرسل، مجمل، حذف منه وجه الشبه، فصار مجملاً.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾ أي إن العاملين بالأوامر الإلهية، المبتعدين عن المحظورات الشرعية هم في بساتين خضراء نضرة تجري العيون والينابيع والأنهارمن تحتهم، ويغمرهم نعم كثيرة من الله تعالى. ﴿فَـٰكِهِينَ﴾ متلذذين مستمتعين مسرورين وقرئ (فكِهين) أي طيبة نفوسهم. ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ أعطاهم. ﴿وَوَقَىٰهُمْ﴾ حفظهم وحماهم، وهو معطوف على ﴿ءَاتَىٰهُمْ﴾ أي بإتيانهم ووقايتهم.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي ويقال لهم ذلك. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أي أكلاً وشرباً هنيئاً، أو طعاماً وشراباً هنيئاً: وهو مالا تنغيص فيه ولا نكد، أو مالا مشقة فيه ولا يؤدي إلى سَقَم أو عناء وتُخْمة. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب عملكم. ﴿سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي متصلة بعضها ببعض حتى تصير صفاً واحداً. ﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم﴾ قرناهم، معطوف على ﴿جَنَّـٰتٍ﴾. ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾ حور: جمع حوراء: وهي المرأة البيضاء، والعين: جمع عيناء، هي المرأة العظيمة الواسعة العين، أي نساء بيض عظام الأعين حسانهن، وحَوَر العين: اسوداد المقلة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ معطوف على (حور) أي قرناهم بأزواج ورفقاء مؤمنين كقوله تعالى: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧/١٥] ، ويصح جعله

مبتدأ، وخبره: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ﴾. ﴿وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ اعتراض للتعليل، والذرية: لفظ يقع على الواحد والكثير، وقرئ: (وأتبعناهم ذرياتهم) أي جعلناهم تابعين لهم في الإيمان، والذرية: تشمل الصغار والكبار، وقوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من ضمير: واتبعتهم، وتنكيره للتعظيم، أو الإشعار بأنه يكفي للإلحاق: المتابعة في أصل الإيمان. ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ في دخول الجنة، أو الدرجة، وإن لم يعملوا بعملهم، تكرمةً للآباء باجتماع الأولاد إليهم، ولما روي مرفوعاً: أنه ﷺ قال فيما يرويه ابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن ابن عباس: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه لتقرّ بهم عينه» ثم تلا هذه الآية.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾ وما نقصناهم بهذا الإلحاق. ﴿مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي فيزاد في عمل الأولاد بالتفضل عليهم، وهو اللائق بكمال لطف الله. ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ من خير أو شر ﴿رَهِينٌ﴾ مرهون بعمله عند الله، فيؤاخذ بالشر، ويجازى بالخير، والعمل الصالح يفكّه، والعمل الطالح يهلكه. ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ زدناهم وقتاً بعد وقت. ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ من أنواع النعم، وإن لم يصرحوا بطلبه.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا﴾ يتجاذبون في الجنة ملاعبة وسروراً، أو يتعاطون بينهم. ﴿كَأْسًا﴾ خمراً، فهي إناء الخمر مادام مملوءاً، فإن كان فارغاً لم يسم كأساً، وسماها باسم محلها، ولذلك أنث الضمير في قوله: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي لا يتكلمون بسبب شربها بلغو الحديث (وهو ما لا خير فيه)، ولا يفعلون ما يأثم به فاعله من فحش الكلام وغيره مما يغضب الله، كما هو عادة الشاربين في الدنيا، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٣٧/ ٤٧].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمة بالكأس وغيرها. ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ مماليك مخصوصون بهم. ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي كأن الغلمان حسناً ولطافة لؤلؤ مصون في الصدف، لأن فيها أحسن منها في غيرها، وذلك من صفائهم

وبياضهم، قال ﷺ فيما رواه ابن جرير وعبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة: «والذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» .

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ يسأل بعضهم بعضاً عن أحواله وأعماله، استمتاعاً وتلذذاً واعترافاً بالنعمة .﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ أي كنا في الدنيا خائفين من عذاب الله، وهذا القول إيماء إلى علة الوصول إلى الجنة .﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالمغفرة والرحمة .﴿وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ حمانا من عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم، وقرئ: (ووقّانا) بالتشديد.

وقالوا أيضاً إيماء إلى الوصول إلى الجنة: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ في الدنيا. ﴿نَدْعُوهُ﴾ نعبده موحدين، أو نسأله الوقاية .﴿إِنَّهُ﴾ بالكسر: استئناف، وإن كان تعليلاً معنى، وقرء بالفتح: (أنه) تعليلاً لفظاً .﴿الْبَرُّ﴾ المحسن، الصادق في وعده .﴿الرَّحِيمُ﴾ الكثير الرحمة.

المناسبة:

بعد بيان وقوع البعث والعذاب بالكافرين حتماً وما يلاقونه من الشدائد والإهانات، ذكر الله تعالى حال المؤمن وجزاءه المتميز، أي إنه ذكر ما يتلقاه المؤمن في الآخرة بعد بيان حال الكافر، ثم ذكر الثواب عقب العقاب، جرياً على الموازنة وعادة القرآن في إيراد الأضداد، والجمع بين الترغيب والترهيب، حتى يتأمل الإنسان في المصير، فيرغب في الرحمة، ويرهب النقمة والعقاب.

ومما يزيد في الترغيب: أنه تعالى لم يقصر النعمة على المستحق، وإنما أفاضها أيضاً على الذرية والأولاد، فلم يكتف بتعداد صنوف اللذات النفسية في الملبس والمسكن والمأكل والمشرب والزواج، وإنما زاد في الفضل والإكرام، فألحق بالأصول الذرية المؤمنة في المنازل العالية والدرجات الرفيعة في الجنان.

وأبعد اليأس والملل والوحشة عن أهل الجنة، وأحل محلها المتعة المتجددة والأنس بتجاذب الكؤوس فرحاً ولعباً، والتندر بأطيب الأحاديث، والتحدث بأحوال الدنيا ومقارنتها بأحوال الآخرة، ونحو ذلك.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾ إن الذين اتقوا ربهم في الدنيا باتباع أوامره واجتناب نواهيه يكونون في بساتين نضرة، ويتنعمون فيها بنعيم دائم، بضد ما أولئك الكفار فيه من العذاب والنكال، وهم يتفكهون بفواكه الجنة تفكهاً فيه غاية الطيبة واللذة والسرور، بما أعطاهم الله من النعيم، من أصناف الملاذ في المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والفُرُش والأزواج وغير ذلك، وحماهم الله من عذاب النار، ونجاهم من لظى السعير، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها، مع دخول الجنة التي فيها من السرور مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وقوله: ﴿فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ يفيد أنهم يتنعمون في الجنان تنعماً فعلياً، لا كمجرد الناطور الذي يحرس البستان. وقوله﴿فَـٰكِهِينَ﴾ للدلالة على أن التنعم في النفس والقلب أيضاً، فقد يكون التنعم ظاهرياً، والقلب مشغول؛ كحال كثير من أغنياء الدنيا.

وتقول لهم ملائكة الرضوان في الجنة:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي تهنئهم الملائكة وتقول لهم: كلوا من طيبات الرزق، واشربوا مما لذ وصفا وطاب، لا تجدون في الأكل والشرب تنغيصاً ولا نكداً ولا كدراً، وهذا معنى الهنيء، وذلك بسبب ما قدمتم من أعمال صالحة في الدنيا، فهذا بذاك تفضلاً وإحساناً.

ونظير الآية: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٤] . قيل للربيع بن خَيْثَم، وقد صلى طوال الليل: أتعبتَ نفسَك، فقال: راحتَها طلبتُ.

ثم ذكر الله تعالى تمتعهم بالفرش والبسط والأزواج، فقال:

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ أي الحال أنهم يجلسون ويستندون على أسرّة مصفوفة متصل بعضها ببعض، حتى تصير صفاً واحداً، وهذا دليل الاطمئنان والراحة وعدم التكلف وفراغ البال من الشواغل. وكذلك قرنّا كل واحد منهم بقرينات صالحات وزوجات حسان من نساء الجنة، وهن الحوريات الشديدات بياض العين، والشديدات سوادها، والواسعات الأعين. ويلاحظ أن كلمتي الحور والعين جمع للمذكر والمؤنث، أي أحور حوراء وأعين عيناء.

روى ابن أبي حاتم عن الهيثم بن مالك الطائي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة، ما يتحول عنه ولا يملّه، يأتيه ما اشتهت نفسه، ولَذَّت عينه» .

ويلاحظ أنه تعالى ذكر في الآيات السابقة أسباب التنعيم الأربعة على الترتيب، فذكر أولاً المسكن وهو الجنات، ثم الأكل والشرب، ثم الفرش والبسط، ثم الأزواج. وذكر في كل نوع ما يدل على الكمال فيه، وهو قوله ﴿فَاكِهِينَ﴾ في الجنات؛ لأن مكان التنعيم قد ينتغص بأمور، وقوله ﴿هَنِيئًا﴾ إشارة إلى خلو المأكول والمشروب عما يكون فيها من المفاسد في الدنيا كالتخمة والمرض والغصة والانقطاع. وقوله في السرر: ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ للدلالة على عدم التكلف، والهيئة دليل خير. وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إنجاز لما وعدهم به ربهم في الدنيا، من غير منّ، وإنما كان المنّ في الدنيا بالهداية للإيمان والتوفيق للعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ٤٩/ ١٧] .

وقوله: ﴿مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ إشارة إلى أنها مخصصة لكل واحد، لا اشتراك فيها. وقوله: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ دليل على أن المزوج بأمانة هو الله تعالى، وأن المنفعة في التزويج لهم وأنه لم يقتصر على الزوجات، بل وصفهن بالحسن، واختار أحسن الحسن وهو جمال العيون(١).

ويلاحظ أيضاً الفرق بين جزاء الكفار حيث قال تعالى في حقهم: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وبين جزاء المتقين حيث قال في حقهم: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فجزاء الكفار منحصر بكلمة ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر، أي لا تجزون إلا ذلك، وأما المؤمنون فيضاعف ما عملوا ويزيدهم من فضله، ويجازي الكفار عين أعمالهم بقوله: ﴿مَا كُنتُمۡ﴾ إشارة إلى المبالغة في المماثلة، وقال في حق المؤمنين: ﴿بِمَا كُنتُمۡ﴾ كأن ذلك أمر ثابت مستمر بعملهم الصالح، وذكر الله تعالى الجزاء في حق الكفار، وهو ينبئ عن الانقطاع، ولم يذكره في حق المؤمنين مما يدل على الدوام وعدم الانقطاع(٢).

ثم أخبر الله تعالى عن مزيد فضله وكرمه ولطفه بخلقه وإحسانه بإلحاق الذرية بالآباء في المنزلة، وإن لم يبلغوا عملهم، لتقرَّ عين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي إن المؤمنين الذين تتبعهم ذريتهم في الإيمان أو بسبب إيمان عظيم رفيع المحل وهو إيمان الآباء، يلحقهم الله بآبائهم في المنزلة فضلاً منه وكرماً، والمعنى: أن الله سبحانه يرفع ذرية المؤمن إليه، وإن كانوا دونه في العمل، لتقر عينه، وتطيب نفسه، بشرط كونهم مؤمنين. ومن باب أولى يلحق الآباء بالأبناء إن كان

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٤٩.
(٢) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٤٩.

هؤلاء أحسن حالاً من آبائهم، فيرفع ناقص العمل إلى منزلة كامل العمل، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك، قال ابن عباس: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل، لتقرّ بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾[١] وتنكير لفظة (إيمان) للدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة ويجوز أن يراد إيمان الذرية الداني المحل، كأنه قال: بشيء من الإيمان لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم[٢].

وروى الحافظ الطبراني عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة، سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك، فيقول: ياربِّ، قد عملتُ لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به» . وقرأ ابن عباس: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الآية.

وهذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء، وفضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء، أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: ياربِّ أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك» وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» .

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي وما نقصنا الآباء بإلحاق ذريتهم بهم من ثواب أعمالهم شيئاً.

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي كل إنسان مرتهن يوم القيامة بعمله، فلا

---

(١) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، ورواه البزار عن ابن عباس مرفوعاً، ورواه الثوري عن ابن عباس موقوفاً .

(٢) تفسير الكشاف : ٣/ ١٧٣ .

يتحمل أحد ذنب آخر سواء كان أباً أو ابناً، كما أن الرهن لا ينفك ما لم يؤدَّ الدين، فإن كان العمل صالحاً فكّه ونجاه؛ لأن الله يقبله، وإن كان طالحاً أهلكه.

ونظير الآية كثير في القرآن، مثل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩)﴾ [المدثر: ٧٤/٣٨-٣٩] أي كل نفس مرهونة بعملها، لا يفك رهنها إلا أصحاب اليمين بعملهم الطيب.

ثم عدد الله تعالى أصناف النعم على المتقين، فقال:

١ً- ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢)﴾ أي وزدناهم على ما كان له من النعيم فاكهة متنوعة، ولحماً مختلفاً من أنواع اللحوم، من كل ما تشتهيه أنفسهم وتستطيبه وتلذ به.

٢ً- ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣)﴾ أي يتعاطون في الجنة كأساً من خمر الجنة، ويتجاذبون الكؤوس مع جلسائهم تجاذب سرور ولهو وملاعبة، لشدة فرحهم، وليس في شراب الآخرة ما يدعو إلى اللغو والإثم، فلا يتكلمون بكلام لاغ، أي هذيان، ولا قول فيه إثم أي فحش، كما يتكلم شاربو الخمر في الدنيا، قال ابن قتيبة: لا تذهب بعقولهم، فيلغوا، كما يكون من خمر الدنيا، ولا يكون منهم ما يؤثمهم.

وقد أخبر الله تعالى عن حُسن منظر خمر الآخرة وطيب طعمها ومذاقها، فقال: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ (٤٦) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧)﴾ [الصافات: ٣٧/ ٤٦-٤٧] وقال: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩)﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١٩].

٣ً- ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤)﴾ أي ويدور عليهم للخدمة بالكأس والفواكه والطعام وغير ذلك فتيان يخدمونهم، كأنهم في الحسن والبهاء لؤلؤ مستور، مصون في الصدف، لم تمسّه الأيدي.

ونحو الآية: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/١٧-١٨].

روى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: «بلغني أنه قيل: يارسول الله، هذا الخادم مثل اللؤلؤ، فكيف بالمخدوم؟ فقال: والذي نفسي بيده إن فضل ما بينهم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» وروي ذلك أيضاً عن الحسن.

٤- ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويسأل بعضهم بعضاً في الجنة عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا، وما كان فيها من متاعب ومخاوف. ونكد وكدر.

ثم ذكر الله تعالى أجوبتهم التي تومىء إلى علة الوصول إلى الجنان، فقال:

- ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ أي أجابوا قائلين: إنا كنا في الدار الدنيا خائفين وجلين من عذاب الله وعقابه، فتفضل الله علينا بالمغفرة والرحمة ووفقنا إلى العمل الصالح، وأجارنا مما نخاف من عذاب النار. وسموم جهنم: ما يوجد من حرّها.

- ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾ أي إنا كنا في الدنيا نوحد الله ونعبده، ونسأله أن يمنّ علينا بالمغفرة والرحمة، فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا، إنه سبحانه الكثير الإحسان والكرم، الكثير الرحمة والفضل لعباده.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- إن جزاء المتقين دخول الجنان، والتمتع بأنواع النعيم المختلفة، فهم ذوو فاكهة كثيرة، طيبو النفس، مزّاحون، ناجون من عذاب النار، يقال لهم: كلوا واشربوا هنيئاً، والهنيء: مالا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر.

وهم متكئون على سرر موصولة بعضها ببعض حتّى تصير صفاً واحداً، ويتزوجون بما شاؤوا من الحور العين، أي بنساءٍ بيض نُجْل العيون حِسَانها.

٢ً- يُلحق الله الذرية الصغار والكبار بالآباء، والآباء بالذرية، في المنزلة والدرجة في الجنة تكريماً من الله وتفضلاً وإحساناً لتقر أعين الآباء بهم، ولا ينقص الأبناء من ثواب أعمالهم لقصر أعمارهم، ولا ينقص الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذريات بهم، وذلك بشرط الإيمان بين الأصول والفروع.

قال الزمخشري: فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أولادهم[١].

وقال الرازي في الآية: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ تدل على أن شفقة الأبوة كما هي في الدنيا متوفرة كذلك في الآخرة، ولهذا طيب الله تعالى قلوب عباده بأنه لا يُوْلِهُّهُم (يفرق بينهم وبين أولادهم)، بل يجمع بينهم[٢].

٣ً- ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، قال الزمخشري: عام في كل أحد، مرهون عند الله بالكسب، فإن كسب خيراً فك رقبته، وإلا أربق بالرهن[٣].

٤ً- زيادة من الله وفضله يمد المؤمنين بأنواع الفاكهة واللحوم المختلفة

---

(١) الكشاف : ٣/ ١٧٣.

(٢) تفسير الرازي : ٢٨/ ٢٥٠.

(٣) الكشاف: ٣/ ١٧٤ .

حسبما يشتهون، غير الذي كان لهم، ويتناول بعضهم من بعض كأساً وهو إناء الخمر وكل إناء مملوء من شراب وغيره، وهم المؤمن وزوجاته وخدمه في الجنة.

ويطوف عليهم مماليك مخصوصون بالفواكه والتحف والطعام والشراب كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٧١] ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥)﴾ [الصافات: ٣٧/ ٤٥] . وأولئك المماليك كأنهم في الحسن والبياض لؤلؤ مستور مصون في الصدف، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧)﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١٧] .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادي الخادم من خَدَمه، فيجيبه ألفٌ كلُّهم: لَبيك لَبيك»[1].

٥- يُقبل أهل الجنة بعضهم على بعض، فيتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف عنهم، وامتنان الله عليهم بالجنة والمغفرة، وبالتوفيق والهداية، والنجاة من عذاب نار جهنم، نار السَّموم، والسموم: الريح الحارّة.

٦- يجد أهل الجنة ثواب ما عملوا في الدنيا، فإنهم كانوا في الدنيا يعبدون الله ويوحدونه، ويَدْعونه بأن يمنّ عليهم بالمغفرة من تقصيرهم، فيرون ثمرة ذلك في الآخرة، فإن الله تعالى كثير البر والجود والإحسان، اللطيف الصادق فيما وعد، الكثير الرحمة.

---

(١) تفسير الألوسي : ٢٧/ ٣٤

متابعة التذكير والموعظة بالرغم من المكائد

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

القراءات:

﴿بِنِعْمَتِ﴾:

رسمت بالتاء، فوقف ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي بالهاء.

ووقف الباقون بالتاء.

الإعراب:

﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ ﴿بِكَاهِنٍ﴾ خبر ما، و﴿مَجْنُونٍ﴾ معطوف عليه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ ﴿أَمْ﴾هنا: منقطعة بمعنى بل والهمزة، وكذلك﴿أَمْ﴾ في أوائل الآيات: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ (٣٢-٤٣) كلها منقطعة، بمعنى (بل والهمزة) وهي خمسة عشر موضعاً. و﴿بَل﴾ للإضراب الانتقالي والهمزة للإنكار والتقريع والتوبيخ، أي ما كان ينبغي أن يحصل، أو بمعنى ما حصل هذا.

البلاغة:

﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ استعارة تصريحية، استعير لفظ الريب(وهو الشك) لنوائب الدهر وحوادثه، بتشبيه حوادث الدهر بالريب بجامع التقلب وعدم الاستمرار على حالة واحدة.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَآ﴾ أسلوب تهكمي للتهكم بعقولهم والسخرية منهم، وأمر الأحلام بأقوالهم مجاز عن أدائها إليه.

المفردات اللغوية:

﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبت على التذكير والموعظة، ولا تكترث بقولهم، ولا تتراجع لاتهامات باطلة كالقول بأنك كاهن أو مجنون. ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمد ربك وإنعامه عليك. ﴿بِكَاهِنٍ﴾ الكاهن: هو المخبر عن الماضي بالظن، والعرَّاف: هو المخبر عن المستقبل، بالاعتماد على الجن. ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ ننتظر. ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي حوادث الدهر ليهلك كغيره، والريب في الأصل: الشك، وأطلق على الحوادث، والمنون: الدهر، سمي بذلك؛ لأنه يقطع الأجل، وقيل: المنون: الموت.

﴿تَرَبَّصُواْ﴾ انتظروا هلاكي. ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي، فعذبوا بالقتل يوم بدر. ﴿أَحْلَامُهُم﴾ عقولهم، جمع حلم: وهو العقل. ﴿بِهَٰذَآ﴾ التناقض في القول، فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر، والمجنون عديم العقل، والشاعر يكون ذا كلام موزون متسق نابع من الخيال، ولا يتأتى ذلك من المجنون. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ بل هم مجاوزون الحد في العناد والمكابرة.

﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ اختلق القرآن وافتراه من تلقاء نفسه. ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ بل يكفرون. فيرمون بهذه المطاعن لكفرهم وعنادهم. ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ مثل القرآن. ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمهم؛ إذ فيهم كثير من الفصحاء، فهذا رد لأقوالهم المذكورة بالتحدّي.

سبب النزول:

نزول الآية (٣):

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أخرج ابن جرير وابن إسحاق عن ابن عباس: أن

قريشاً لما اجتمعوا في دار النَّدوة في أمر النبيﷺ، قال قائل: احبسوه في وثاق، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك، كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة والأعشى، فإنما هو كأحدهم، فأنزل الله في ذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

المناسبة:

بعد قسم الله تعالى على وقوع العذاب، وذكر أحوال المعذبين والناجين، أمر تعالى نبيه بالتذكير إنذاراً للكافر، وتبشيراً للمؤمن، ودعاء إلى الله تعالى بنشر رسالته، ثم نفى عنه ما كان الكفار ينسبونه إليه من الكهانة والجنون باعتبارهما طريقين إلى الإخبار ببعض المغيَّبات، بالاعتماد على الجن. وكان شيبة بن ربيعة ممن ينسبه إلى الكهانة، وعقبة بن أبي مُعَيْط ممن ينسبه إلى الجنون. ثم بيّن الله تعالى ما في هذا الاتهام من التناقض والاضطراب، ثم أمره ربه بتهديدهم بمثل صنيعهم، ثم تحداهم بأن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل أقصر سورة من هذا الكلام المفترى، وفيهم الفصحاء والبلغاء، بل هم قوم طاغون متجاوزون الحد، جاحدون كافرون لا يؤمنون بالوحي، فقالوا بأهوائهم مثل تلك الأقاويل.

التفسير والبيان:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي إذا كان في الوجود قوم يخافون الله، ويشفقون في أهليهم من عذاب الله كما تقدم في الآيات السابقة، فوجب عليك أيها الرسول الإتيان بما أمرت به من التذكير، فاثبت على ما أنت عليه من تذكير الناس وموعظتهم، ولا يثبِّطنك قولهم: كاهن أو مجنون، فلست بحمد الله وإنعامه بكاهن كما يقول جهلة كفار قريش، ولا مجنون، والكاهن: هو الذي يوهم أنه يعلم الغيب من دون وحي، ويخبر عن الماضي بالأخبار الخفية، وليس ما تقوله كهانة، فإنك إنما تنطق بالوحي

الذي أمرك الله بإبلاغه، والمجنون: هو الذي يتخبطه الشيطان من المس، في عرف العرب. وممن قال إنه كاهن كما تقدم: شيبة بن ربيعة، وممن قال إنه مجنون: عقبة بن أبي مُعَيْط.

لا تبال بهذا، فإنه قول باطل متناقض؛ لأن الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى على عقله، ولست بما عرف عنك من رجاحة العقل أحد هذين.

ثم أنكر الله تعالى عليهم قولاً آخر في الرسول ﷺ، فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ أي بل يقولون: إنه شاعر ننتظر به حوادث الأيام، فيموت كما مات غيره، أو يهلك كما هلك من قبله، فنستريح منه ومن شأنه وينقضي ما جاء به من هذا الدين.

ثم هددهم الله وتهكم بهم قائلاً لرسوله ﷺ:

- ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي قل لهم أيها الرسول: انتظروا موتي أو هلاكي، فإني معكم من المنتظرين لعاقبة الأمر، وقضاء الله فيكم، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة، وأنا واثق من نصر الله تعالى.

- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي أأنزل عليهم ذكر أم أتأمرهم عقولهم بهذا الكلام المتناقض؟ وهي دعوى أن القرآن سحر أو كهانة أو شعر، وقولهم في الرسول ﷺ: كاهن وشاعر مع قولهم: مجنون، فالشاعر غير الكاهن وغير المجنون، فالأول ينطق بالحكمة، والثاني يذكر الخرافات، والثالث زائل العقل، وكانت عظماء قريش توصف بأنهم أهل الأحلام والنهى والعقول، فتهكم الله بعقولهم التي لا تميز بين الحق والباطل.

أم إنهم قوم طغوا وتجاوزوا الحد في العناد والعصيان والضلال عن الحق، واغتروا وقالوا ما لا دليل عليه سمعاً، ولا مقتضى له عقلاً.

وعلى هذا تكون ﴿أَمْ﴾ متصلة، كما ذكر الرازي، وذكر غيره(١) أن أم في الموضعين منقطعة، أي بل أتأمرهم عقولهم، بل اطغوا وجاوزوا الحد؟ أي لكن عقولهم تأمرهم بهذه الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور، وهم قوم طاغون ضلاَّل معاندون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي أتقولون: كاهن، أم تقولون: شاعر، أم تقوله أي اختلقه وافتراه من عند نفسه، يعنون القرآن. فرد الله تعالى عليهم: بل إن كفرهم وكونهم لا يؤمنون بالله ولا يصدقون بما جاء به رسوله هو الذي يحملهم على هذه الأقوال المتناقضة، والمطاعن المفتراة الكاذبة.

ثم رد عليهم رداً آخر فيه تحدٍّ لهم، فقال:

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ أي إن صدقوا في قولهم: إن محمداً تقوله وافتراه من عند نفسه، فليأتوا(٢) بمثل هذا القرآن في نظمه وحسن بيانه وبديع أسلوبه، مع أنه كلام عربي، وهم أساطين البيان، وفرسان البلاغة والفصاحة، والممارسون لجميع أساليب العربية من نظم ونثر.

والحقيقة أنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس، ما جاؤوا بمثله، ولا بعشر سور من مثله، ولا بسورة من مثله.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

---

(١) قال أبو حيان في (البحر المحيط : ٨/ ١٥١) : والصحيح أنها تتقدر ببل والهمزة، وقد تقدم في الإعراب أن أم كلها في الآيات منقطعة بمعنى (بل والهمزة) وهو رأي ابن الأنباري وغيره من النحاة .

(٢) الفاء للتعقيب، أي إذا كان الأمر كذلك، فيجب عليهم أن يأتوا بمثل ما أتى به ليصحح كلامهم، ويبطل كلامه.

١- أمر الله نبيه محمداً ﷺ بالثبات على التذكير والوعظ لقومه بالقرآن، دون مبالاة بمطاعن كفار قريش، فليس هو بالكاهن ولا بالشاعر ولا بالمجنون، وإنما هو صادق النبوة، وقد عرف بين قومه أنفسهم برجاحة العقل، وأصالة الرأي.

٢- لقد انتظر الكفار المعاندون سوءاً أو هلاكاً بالنبي ﷺ تخلصاً منه ومن دينه، فعجل الله لهم الهلاك في معركة بدر وغيرها. قال الضحاك: هؤلاء بنو عبد الدار نسبوه إلى أنه شاعر: أي يهلك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأن أباه مات شاباً، فربما يموت كما مات أبوه.

٣- وفي حال حياتهم أورد القرآن عدة تقريعات وتوبيخات لهم بأسلوب التهكم: أولها - أنه لا عقل لهم بنحو سليم؛ إذ لو كان لهم عقل سليم لميزوا بين الحق والباطل، والمعجز وغيره، ولما أوقعوا أنفسهم في تناقضات حين وصفوا محمداً ﷺ بأوصاف متناقضة، فقالوا: إنه كاهن، شاعر، مجنون، والجنون لا يتفق مع الكهانة ونظم الشعر اللذين يتطلبان حذاقة وذكاء وإبداعاً وقوة خيال.

ثانيها- أنهم قوم طغوا وتجاوزوا الحد بغير عقول.

ثالثها- زعمهم أن محمداً تقوَّل القرآن، أي اختلقه وافتراه من تلقاء نفسه، والتقول يراد به الكذب.

رابعها- أنهم لم يؤمنوا بالله ورسوله جحوداً وعناداً واستكباراً، وقد صح عندهم إعجاز القرآن، وإلا ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي بقرآن يشبهه من تلقاء أنفسهم ﴿إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ في أن محمداً ﷺ افتراه.

فإن كان شاعراً ففيكم الشعراء البلغاء، والكهنة الأذكياء، ومن يرتجل الخطب والقصائد ويقص القصص، فليأتوا بمثل ما أتى به.

إثبات الخالق وتوحيده بالأنفس والآفاق

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾:

وهي قراءة قنبل، وحفص، وخلف، وقرأ الباقون (المصيطرون).

البلاغة:

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ فيه التفات من الغيبة إلى الخطاب لزيادة التوبيخ والتقريع لهم.

المفردات اللغوية:

﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ من غير خالق، فلذلك لا يعبدونه. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ الذين خلقوا أنفسهم؟ وبما أنه لا يعقل مخلوق بغير خالق، ولا معدوم يخلَق، فلا بد من خالق هو الله الواحد، فلِمَ لا يوحدونه ويؤمنون برسولهﷺ وكتابه الكريم؟!

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وهم لا يستطيعون ذلك، فلا يقدر على

خلقهما إلا الله الخالق القادر، فلم لا يعبدونه؟! ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ به، وإلا لآمنوا بنبيه، ولو أيقنوا بأن الخالق هو الله لما أعرضوا عن عبادته.

﴿خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ خزائن رزقه، حتى يرزقوا النبوة والرزق وغيرهما، فيخصوا من شاؤوا بما شاؤوا. ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ القاهرون الغالبون على الأشياء المسلطون عليها يدبرونها كيف شاؤوا، من سيطر على كذا: إذا تسلط عليه وأقام عليه، مثل بيطر وبيقر. ﴿سُلَّمٌ﴾ مرتقى إلى السماء، والسلم: كل ما يتوصل به إلى غيره من الأماكن العالية. ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يستمعون عليه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن، وينازعوا النبي ﷺ بزعمهم إن ادعوا ذلك. ﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾ بحجة قوية. ﴿مُّبِينٍ﴾ أي بحجة واضحة تصدّق استماعه.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾بزعمكم. ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾الذكور، فيه تسفيه آرائهم وإشعارهم بأن من هذا رأيه لا يعدّ من العقلاء، فضلاً عن الاطلاع على الغيوب. ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أم تطلب منهم أجرة على تبليغ الرسالة. ﴿مَّغْرَمٍ﴾ من التزام غرامة أو غرم: وهو التزام الإنسان ما ليس عليه. ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ محملون الثقل، فلذلك زهدوا في اتباعك ولم يسلموا.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي علم الغيب. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ذلك ويحكمون بناء عليه. ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ تدبير مكيدة وشر، وهو كيدهم في دار الندوة. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل العموم والخصوص، فيشمل جميع الكفار، أو كفار قريش، فيكون ذلك تسجيلاً للفكر عليهم. ﴿ٱلْمَكِيدُونَ﴾ المغلوبون المهلكون، الذين يحيق بهم الكيد، أو يعود وبال كيدهم عليهم، وهو قتلهم يوم بدر. ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يعينهم ويحرسهم من عذابه. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾تنزيهاً لله، وهو اسم علم للتسبيح. ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو شركة ما يشركون به وعن الذين يشركون.

المناسبة:

بعد أن رد الله تعالى على ما زعم كفار قريش من أن محمداً كاهن أو شاعر أو مجنون، ذكر الدليل من الأنفس والآفاق على صدقه، وإبطال تكذيبهم لرسالته، وإنكارهم للخالق، وإثبات التوحيد بخلقهم وخلق السماوات والأرض، علماً بأن إثبات الخلق الأول دليل على جواز الخلق الثاني وإمكانه وهو الحشر.

ثم طمأن الله نبيه بأن كيدهم له لا يضره شيئاً، وأن الله ناصره، ومظهر دينه، ولو كره الكافرون.

التفسير والبيان:

هذه الآيات لإثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ هذا رد على إنكار الخالق الواحد، فهل وُجدوا من غير موجد، أم هم أوجدوا أنفسهم؟ وإذا كان الأمران منتفيين بشهادة العقل والحس والواقع وبإقرارهم، فالله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾ وهل خلقوا السماوات والأرض وما فيهما من العجائب والغرائب وأسباب الحياة والمعيشة؟ إنهم في الواقع لا يستطيعون ادعاء ذلك، والحقيقة أن عدم إيقانهم من قولهم بأن الله هو الخالق هو الذي حملهم على التكذيب وإنكار رسالة النبي محمد ﷺ، إذ لو أيقنوا حقاً بأن الله هو الخالق ما أعرضوا عن عبادته.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي هل هم يملكون خزائن الله من النبوة والرزق وغيرهما، فيتصرفوا فيها كيف شاؤوا، أم هم المسلطون على المخلوقات يدبرون أمرها كيف يشاؤون؟ الواقع أن الأمر ليس كذلك، بل الله عز وجل هو المالك المتصرف الفعال لما يريد.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ أي بل أيقولون: إن لهم سلماً منصوباً إلى السماء يصعدون به، أي مرقاة إلى الملأ الأعلى، ويستمعون فيه كلام الملائكة وما يوحى إليهم، ويطلعون على علم الغيب؟ فليأت مستمعهم إليهم على صحة ما هم فيه بحجة ظاهرة واضحة، كما أتى محمدﷺ بالبرهان الدال على صدقه. الواقع ليس لهم سبيل إلى ذلك، فليس لهم دليل ولا حجة على ما يقولون.

وبعد الرد على إنكار الألوهية، رد الله تعالى على من قال: الملائكة بنات الله، فقال:

﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ أي بل أتجعلون لله البنات، وتخصون أنفسكم بالبنين؟ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، فمن كان هذا رأيه لا يعدّ من العقلاء، ولا يستبعد منه إنكار البعث، وجحد التوحيد.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي بل أتسألهم أجرة يدفعونها إليك على تبليغك الرسالة، فهم من التزام غرامة تطلبها منهم محمّلون غرماً ثقيلاً، فلا يسلمون ولا يجيبون دعوتك؟ الواقع لست تسألهم على ذلك شيئاً، ولا تطلب منهم أدنى شيء يشق عليهم ويثقلهم. وهذا على أنه لم يطلب منهم أجراً ما.

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي بل أيدّعون أن عندهم علم الغيب، وهو ما في اللوح المحفوظ، فيكتبون للناس ما أرادوا من علم الغيب؟ ليس الأمر كذلك، فإنه لا يعلم أحد الغيب إلا الله. قال قتادة: لما قالوا: نتربص به ريب المنون، قال الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ﴾ حتى علموا متى يموت محمد ﷺ، أو إلى ما يؤول إليه أمره.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ أي إن كنتم تعلمون الغيب فأنتم كاذبون، وإن كنتم تظنون أنكم تقدرون عليه، فأنتم غالطون،

فإن الله يصونه عنكم وينصره عليكم، فإن كنتم تريدون تدبيراً أو مكراً برسول الله ﷺ لإهلاكه، فالكافرون هم الممكور بهم، المجزيون بكيدهم، ولام ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لهؤلاء الكفار أو للجنس، فيشملهم وغيرهم. وتنكير الكيد إشارة إلى وقوع العذاب بغتة من حيث لا يشعرون. وصرح بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ للدلالة على كون الكافر مكيداً في مقابلة كفره، لا في مقابلة إرادته الكيد.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي بل ألهم إله غير الله يحرسهم من عذاب الله؟ تنزه الله عن الشريك والمثيل والنظير وعن كل ما يعبدونه سواه. وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله، وتنزيه الله نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون.

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١- إن إثبات وجود الله ووحدانيته وقدرته على الحشر هو خلق الأنفس والآفاق، أي خلق الإنسان والحيوان والنبات من غير سابق وجود، وخلق السماوات والأرض بعد العدم، فالخلق دليل على وجود الله تعالى، وهو الدليل الأعظم الذي ذكره القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النحل: ١٦/١٧].

والانفراد بالخلق دليل على وحدانية الخالق؛ لأن في كل شيء له آية تدل على أنه واحد. والخلق الأول دليل على جواز الخلق الثاني وإمكانه وهو الحشر.

وإذا أقر الكفار بأن ثَمَّ خالقاً، فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام، ومن الإقرار بأنه قادر على البعث.

وهم يقرون بأنه لا يعقل وجودهم من غير رب خلقهم وقدّرهم، كما

يقرون إذا سئلوا عن خالق السماوات والأرض بأنه هو الله، فلم لا يوقنون بالحق، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٣١/ ٢٥].

٢- أنكر القرآن على الكفار اعتراضهم على نبوة محمدﷺ بأنه هل عندهم خزائن الرحمة والغيب والرزق حتى يختاروا للنبوة من أرادوه، أو أنهم المصيطرون على العالم الغالبون حتى يدبروا أمر العالم على حسب مشيئتهم؟

٣- ثم أنكر القرآن على الكفار قدرتهم على شيء من علم الغيب، ومضمون ذلك: أيدّعون أن لهم مرتقى إلى السماء ومصعداً وسبباً يستمعون الأخبار، ويصلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمدﷺ بطريق الوحي، فإذا صح ذلك فليأت مستمعهم على صحة ادعائه بحجة بيِّنة أن هذا الذي هم عليه حق. وهذا تتميم للدليل السابق لإثبات النبوة.

٤- سفّه القرآن أحلام قريش وأمثالهم وقرَّعهم ووبخهم في قولهم: الملائكة بنات الله، وهذا إشارة إلى نفي الشرك. فهل يعقل أن يكون لله البنات، وللبشر البنون؟ ومن كان عقله هكذا فلا يُستبعد منه إنكار البعث.

٥- ثم أكد الحق سبحانه صدق نبوة عبده محمد ﷺ بدليل أنه لا يطلب أجراً على تبليغ الرسالة، فهم من المغرم الذي يطالبهم به مجهدون لما كلفهم به. ثم أضاف دليلاً آخر وهو أنه ليس عندهم علم بالغيب يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيب.

٦- أخبر الله تعالى بأنه عاصم نبيه محمداًﷺ من السوء والشر ومكائد أعدائه، فإنهم إن أرادوا به شراً ومكيدة ومكراً كما دبروا في دار الندوة، فإنهم المهزومون المغلوبون المكور بهم الذين يعود عليهم وبال الكيد: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٤٣] وذلك أنهم قتلوا ببدر، وأظهر الله دين الإسلام.

٧- أعاد الله تعالى إثبات التوحيد ونفي الشرك، فقال موبخاً: هل لهم إله غير الله يخلق ويرزق ويمنع، تنزَّه الله وتعالى وتقدس عن نسبة الشرك له أو أن يكون له شريك، فإن الشريك دليل العجز، والإله الحق يتميز بالقدرة المطلقة التي تشمل الكون كله وما فيه من مخلوقات حتى تصح الدينونة والخضوع والانقياد والعبادة له دون غيره.

وهذا تصريح بالمقصود الكلي من الآيات، لذا وبخهم على إشراكهم، ونزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي عن إشراكهم وعن الذين يشركون.

الإعراض عن الكفار لمكابرتهم في المحسوسات

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

القراءات:

﴿يُصْعَقُونَ﴾: قرئ:

١- (يُصْعَقون) وهي قراءة ابن عامر، وعاصم.

٢- (يَصْعَقون) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ ﴿سَاقِطًا﴾ إما مفعول به ثان، أو حال.

﴿يَوْمَهُمُ﴾ مفعول ﴿يُلَٰقُواْ﴾. ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي﴾منصوب على البدل من﴿يَوْمَهُمُ﴾ وليس بمنصوب على الظرف.

﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ إدبار بكسر الهمزة: مصدر أدبر إدباراً، وتقديره: وسبّحه وقت إدبار النجوم، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقرئ بفتح الهمزة، على أنه جمع (دبر): وهو منصوب لأنه ظرف زمان.

البلاغة:

﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ أسلوب الفرض والتقدير، أي لو رأوا ذلك لقالوا ما قالوا.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ مجاز عن الحفظ.

المفردات اللغوية:

﴿كِسْفًا﴾ قطعاً، واحدها كِسْفَة. ﴿يَقُولُواْ﴾ من فرط طغيانهم وعنادهم. ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾أي هذا سحاب تراكم بعضه على بعض، نرتوي به، ثم لا يؤمنون. والآية جواب قولهم: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٨٧].

﴿فَذَرْهُمْ﴾ اتركهم وأعرض عنهم. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يموتون أو يقتلون. ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا يفيد شيئاً من الإغناء في ردّ العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله تعالى في الآخرة. ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بكفرهم، وهو يحتمل العموم والخصوص فإن كان العذاب هو عذاب القبر فالذين ظلموا عام في كل ظالم، وإن كان العذاب هو عذاب يوم بدر فالذين ظلموا هم أهل مكة. ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي دون عذاب الآخرة، أي في الدنيا قبل موتهم، كعذاب الجوع والقحط سبع سنين، والقتل يوم بدر، أو عذاب القبر.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالهم وتبليغ الرسالة، ولا يضق صدرك بعنائهم وإعراضهم وجدالهم. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منا، نراك ونحفظك ونكلؤك، وجُمِعَ مبالغة بكثرة أسباب الحفظ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ قارناً التسبيح بالتحميد، فقل: سبحان الله وبحمده ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ من منامك أو من مجلسك أو إلى الصلاة، أي من أي مكان قمت. ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ نزهه بقولك: سبحان الله، وخصه بالليل وقدمه على الفعل؛ لأن العبادة فيه أشق على النفس وأبعد عن الرياء. ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ أي عقب غروبها سبحه أيضاً، أي إذا أدبرت النجوم من آخر الليل.

المناسبة:

بعد تفنيد مزاعم المشركين في الحشر والمعاد، والألوهية والوحدانية، والنبوة والشرك، وإثبات المعاد والتوحيد وصدق النبوة ونفي الشرك، أجاب الله تعالى عن بعض مقترحاتهم بإسقاط قطعة من السماء تعذيباً لهم، وبيَّن مدى مكابرتهم في إنكار المحسوسات، فضلاً عن المعقولات، ثم أمر نبيه بالإعراض عنهم، والصبر على مساوئهم ومكائدهم، فإن الله ناصرك عليهم وحافظك، وأخبره بأن العذاب واقع بهم في الدنيا قبل الآخرة، وقوَّى معنوية نبيه بالاعتصام بالله، والإقبال على طاعته، وذِكْرِه صباحاً ومساء، نهاراً وليلاً حين يقوم من منامه أو من مجلسه أو بعد غياب النجوم، وإصباح الصباح.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن عناد المشركين ومكابرتهم للمحسوس، فيقول:

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤)﴾ أي إن ير هؤلاء المشركون قطعاً من نار السماء ساقطة عليهم لتعذيبهم، لما صدقوا ولما أيقنوا، ولما انتهوا عن كفرهم، بل يقولون: هذا سحاب متراكم ملقى بعضه على

بعض، نرتوي به. وهذه غاية المكابرة؛ لأنهم ينكرون ما تبصره الأعين وتشاهده النفوس.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ١٤-١٥].

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي إذا كان هذا شأنهم وتبين أنهم لا يرجعون عن كفرهم، فدعهم يا محمد ولا تأبه بهم حتى يلقوا أو يأتي يوم مجازاتهم بأعمالهم السيئة الذي يحدث فيهم هلاكهم السريع، وهو يوم موتهم أو قتلهم وهو يوم بدر، وهو الظاهر في الآية كما قال البقاعي؛ لأنهم عذبوا فيه، أو يوم النفخة الأولى يوم القيامة؛ لأن صعقته تعم جميع الخلائق، وهو قول الجمهور، كما ذكر أبو حيان.

وإسقاط كلمة الإشارة قبل كلمة﴿سَحَابٌ﴾ أي هذا سحاب لوضوح الأمر وظهور العناد، كما أن كلمة ﴿يَقُولُواْ﴾ تدل على العناد.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي ذلك اليوم يوم لا ينفعهم فيه مكرهم ولا كيدهم الذي كادوا به رسول الله ﷺ في الدنيا، ولا يمنع عنهم العذاب النازل بهم مانع ولا ينصرهم ناصر، بل هو واقع بهم لا محالة.

والكيد: هو فعل يسوء من نزل به، وإن حسن ممن صدر منه. وإنما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ﴾ للرد على ما كانوا يعتقدون أنه أحسن أعمالهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي وإن للظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي وكيد النبي وعبادة الأوثان عذاباً في الدار الدنيا وهو قتلهم يوم بدر، أو هو مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام

والبلايا، وذهاب الأموال والأولاد، والقحط والجوع سبع سنين قبل يوم بدر الذي حدث في السنة الثانية من الهجرة، غير أن أكثرهم لا يعلمون ما سينزل بهم من عذاب الله وبأسه وبلاياه، لعلهم يرجعون عما هم عليه من الكفر والعناد، ولو كشف عنهم العذاب لعادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه. والمراد بالأكثر الكل على عادة العرب حيث تعبر عن الكل بالأكثر، أو هم في أكثر أحوالهم لم يعلموا.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢١/٣٢] . وجاء في الحديث لبيان عودة الكفار بعد جلاء العذاب إلى كفرهم: «إن المنافق إذا مرض وعوفي، مَثَلُه في ذلك كمثل البعير، لا يدري فيما عقلوه، ولا فيما أرسلوه» .

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾﴾ أي إلى أن يحكم الله أو لقضاء الله، والمعنى: واصبر أيها الرسول على أذى هؤلاء القوم، ولا تبال بهم، إلى أن يقع بهم العذاب الذي وعدناهم به، فإنك بمرأى ومنظر منا، وفي حفظنا وحمايتنا وتحت كلاءتنا، والله يعصمك من الناس، ونزِّه ربك عما لا يليق به لإنعامه عليك تنزيهاً مصحوباً بالحمد، حين تقوم من مجلسك، أي من كل مجلس جلسته، فتقول: (سبحان الله وبحمده) أو (سبحانك اللهم وبحمدك) أو حين تقوم إلى الصلاة، كما قال الضحاك: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك» .

روى مسلم في صحيحه عن عمر أنه كان يقول هذا في ابتداء الصلاة، ورواه أحمد وأهل السنن عن أبي سعيد وغيره عن النبي ﷺ أنه كان يقول ذلك.

وقال أبو الجوزاء: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي من نومك من فراشك، واختاره ابن جرير، ويتأيد هذا القول بما رواه الإمام أحمد

والبخاري وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ قال: «من تعارّ من الليل[١]، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلْك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: رب اغفر لي- أو قال: ثم دعا - استجيب له، فإن عزم فتوضأ، ثم صلى قبلت صلاته».

ويتأيد الرأي الأول في كون التسبيح والتحميد بعد كل مجلس بما أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم في المستدرك وابن مردويه وابن أبي شيبة عن أبي بَرْزة الأسلمي قال: كان رسول الله ﷺ يقول بآخر عمره إذا أراد أن يقوم من المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك».

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ أي وإذا قمت من نومك فسبّحه واذكره واعبده في بعض الليل، وفي آخر الليل حين أفول النجوم؛ لأن العبادة حينئذ أشق على النفس وأبعد عن الرياء. وقال مقاتل: أي صلّ المغرب والعشاء، وقيل: ركعتي الفجر. قال الرازي: والظاهر أن المراد من ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وقت الصبح حيث يدبر النجم، ويخفى، ويذهب ضياؤه بضوء الشمس. وحينئذ يكون قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ المراد به النهار، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ ما عدا وقت النوم.

ونظير هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ١٧/ ٧٩] وهذا يتفق مع الحديث الصحيح: «خمس صلوات في اليوم والليلة، قال: هل علي غيرها؟ قال: لا إلا أن تطوّع».

---

(١) تعارّ الرجل من الليل: إذا هبّ من نومه مع صوت.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً- شأن الكفار ودَيْدَنُهم العناد ومكابرة المحسوسات، حتى إنهم لو رأوا بأعينهم أمارات العذاب النازل عليهم من السماء كالشهب والصواعق، لما أيقنوا وظلوا على كفرهم، وزعموا أنه سحاب محفَّل بالمطر متراكم بعضه على بعض، وليس صواعق. وهذا جواب قولهم: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الشعراء: ٢٦/١٨٧] وقولهم: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ١٧/٩٢].

٢ً- هددهم الله تعالى بالهلاك السريع وأمر نبيه ﷺ بتركهم والإعراض عنهم حتى يوم بدر، أو يوم يموتون أو يوم النفخة الأولى في يوم القيامة حيث يأتيهم فيه من العذاب ما تشيب منه الرؤوس وتزول به العقول. وليس قوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ للتخلي عن دعوتهم إلى الإسلام، والقول بأن ذلك منسوخ بآية القتال ضعيف كما ذكر الرازي، وإنما المراد التهديد.

٣ً- في ذلك اليوم الذي يلاقونه لا ينفعهم فيه شيء من مكرهم وما كادوا به النبي ﷺ في الدنيا، وما تآمروا به عليه، ولا يجدون فيه ناصراً ينصرهم من الله، أو مانعاً يمنعهم من عذاب الله، وقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي﴾ فيه تمييز يوم الكفار والفجار عن يوم المؤمنين حيث قال تعالى فيه: ﴿يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ﴾ [المائدة: ٥/١١٩].

٤ً- للكفار عذابان: عذاب جهنم في الآخرة، وهو الأدهى والأمر؛ لأنه عذاب خالد دائم، وعذاب في الدنيا قبل موتهم وهو أخف من عذاب الآخرة بالتعرض لمصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا وذهاب الأموال والأولاد، والجوع والجَهْد والقحط سبع سنين، وقد عذب به أهل مكة، والقتل في المعارك كمعركة يوم بدر الذي قتل فيه زعماء قريش، ولكن أكثر

الكفار لا يعلمون أن العذاب نازل بهم، ولا ما يصيرون إليه في الآخرة أو الدنيا.

٥ً- الصبر مفتاح الفرج، لذا أمر الله نبيه وكل مؤمن بالصبر على قضاء ربه فيما حَمَّله من رسالته، وأعلمه بأنه بمرأى ومنظر من الله يراه ويسمع ما يقول ويفعل، والله حافظه وحارسه وراعيه.

٦ً- إن الإقبال على طاعة الله والاعتصام بقوته وقدرته وتفويض الأمور إليه يقوي النفس البشرية، وينفخ فيها روح الجِدِّ والعزيمة والإقدام والجرأة على أداء رسالة الحياة، لذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ وكل مؤمن بتسبيح الله وحمده كل وقت وعقب كل مجلس، وبالصلاة. والتهجد ليلاً. وقد سبق إيراد الآيات والأحاديث الآمرة والمرغبة بكل ما ذكر، ومنها حديث الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من جلس في مجلس، فكثر فيه لَغَطه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك» وأخرج الترمذي أيضاً عن ابن عمر قال: «كنا نعدّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئة مرة من قبل أن يقوم: رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور»[١].

وفي الحديث المتفق عليه بين البخاري ومسلم عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت قَيوم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحقّ، ووعدك الحق، وقولك الحقّ، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار

(١) قال الترمذي عن كل من الحديثين: حديث حسن صحيح غريب.

حق، والساعة حق، والنبيون حقّ، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت وعليك توكلت وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدّمت وما أخرت، وأسررت وأعلنت، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك» .

وعن ابن عباس أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل، مسح النوم عن وجهه؛ ثم قرأ الآيات العشر الأواخر من سورة [آل عمران] أي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (١٩٠) إلى آخر السورة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النجم

مكية، وهي اثنتان وستون آية

تسميتها:

سميت سورة النجم؛ لأن الله تعالى افتتحها بالقسم بالنجم، وأل للجنس، أي بنجوم السماء وقت سقوطها وغروبها؛ لأن النجم إذا كان في وسط السماء لم يهتد به الساري؛ لأنه لا يعلم المغرب من المشرق والجنوب من الشمال، فإذا مال إلى الأفق عرف به هذه الجهات، والميل إلى أفق المغرب أولى بالذكر؛ لأن الناظر إليه يستدل بغروبه على الجهة.

مناسبتها لما قبلها:

ترتبط هذه السورة بما قبلها بوجوه أربعة:

١- إن سورة الطور ختمت بقوله: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ وافتتحت هذه السورة بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾.

٢- في سورة الطور ذكر تقوّل القرآن وافتراؤه، وهذه السورة بدئت بذلك وردت عليه.

٣- ذكر في الطور ذرية المؤمنين، وأنهم تبع لآبائهم، وفي هذه السورة

ذكرت ذرية اليهود في آية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [٣٢].

٤- في حق الآباء المؤمنين قال تعالى في الطور: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [٢١] أي ما نقصنا الآباء مما أعطينا البنين، مع نفعهم بعمل آبائهم، وقال في النجم في حق الكفار أو أبناء الكفار الكبار: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [٣٩].

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسائر موضوعات السور المكية المعنية بأصول العقيدة وهو إثبات الرسالة وصدق الرسول ﷺ في تلقي القرآن بالوحي عن الله، والتوحيد والكلام على الأصنام وبيان عدم جدواها، والتحدث عن قدرة الله عز وجل، وعن البعث والنشور.

افتتحت السورة بإثبات ظاهرة الوحي بوساطة جبريل عليه السلام، والكلام عن (المعراج) وقرب النبي ﷺ من ربه، ورؤيته عجائب ملكوت الله تعالى، ومشاهدته جبريل على صورته الحقيقية المَلَكية مرتين.

ثم قرّعت المشركين على عبادة الأوثان والأصنام، ووصفتها بأنها عبادة باطلة لآلهة مزعومة لا وجود لها، ووبختهم أيضاً على جعل الملائكة إناثاً، وتسميتهم إياها: بنات الله، وبيان أن الملائكة لا تملك الشفاعة إلا بإذن الله تعالى.

ثم وصفت الجزاء العادل يوم القيامة، حيث يجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وذكرت أوصاف المحسنين، ونددت بإعراض الكافرين عن الإسلام، وأعلمت الناس جميعاً أن المسؤولية فردية شخصية، فيسأل كل إنسان عن سعيه وعمله، ولا تتحمل نفس إثم أو وزر نفس أخرى، ولا تقبل تزكية المرء نفسه.

وأبانت السورة إحاطة علم الله بما في السماوات والأرض ومظاهر قدرة الله تعالى في الإحياء والإماتة، والإغناء والإفقار، وخلق الإنسان من النطفة، والبعث والحشر والنشر.

وهددت المشركين الذين أنكروا الوحدانية والرسالة والبعث بالإهلاك كإهلاك أقوام أخرى أشداء، كعاد وثمود وقوم نوح ولوط.

وختمت بالتعجب من استهزاء المشركين بالقرآن وإعراضهم عنه، وأمر المؤمنين بالعبادة الخالصة لله تعالى.

فضلها:

أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أن سورة النجم أول سورة أعلن النبي ﷺ بقراءتها، فقرأها في الحرم والمشركون يسمعون.

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن مسعود أيضاً قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب، فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً» وهو أمية بن خلف.

وفي رواية أنه عليه الصلاة والسلام سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب، فإنه رفع حفنة من تراب، وقال: يكفي هذا. فيحتمل أنه وأمية فعلا كذلك.

إثبات النبوة وظاهرة الوحي

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي (أفتمرونه).

الإعراب:

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ ظرف لفعل (أقسم) المقدر، والمراد بـ ﴿إِذَا﴾ هنا مطلق زمان.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ جملة في جواب سؤال مقدر نشأ بعد قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾.

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ الواو في﴿وَهُوَ﴾: واو الحال، والجملة بعدها من المبتدأ والخبر: في موضع نصب على الحال من ضمير﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾عالياً، يعني جبريل.

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ كذب بالتخفيف، فتكون﴿مَا﴾ في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر، وتقديره: ما كذب الفؤاد فيما رآه.

و﴿مَا﴾: إما بمعنى الذي، و﴿رَأَىٰٓ﴾ الصلة، والهاء المحذوفة العائد، أي رأه، فحذف الهاء تخفيفاً، وإما مصدرية. وقرئ (كذّب) بالتشديد، فتكون ﴿مَا﴾ مفعولاً به، من غير تقدير حذف حرف جر؛ لأنه متعد بنفسه.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ ﴿نَزْلَةً﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال، كأنه قال: رآه نازلاً نزلة أخرى، وذهب الفرّاء إلى أنه منصوب على الظرف؛ إذ معناه: مرة أخرى.

البلاغة:

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ إبهام الموحى به للتعظيم والتهويل، ومثله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ وكذلك ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ بين ﴿هَوَىٰ﴾ ﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾ جناس، فالأول بمعنى خرّ وسقط، والثاني بمعنى هوى النفس.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ جملة يوحى لدفع المجاز وتأكيد الإيحاء.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ جنس النجوم، أو الثريا، فإنه غلب فيه إذا غرب أو انتثر يوم القيامة، والواو للقسم .﴿هَوَىٰ﴾ غرب وسقط .﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ما عدل محمد ﷺ عن طريق الهداية المستقيم .﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ ما وقع في الغي: وهو الجهل مع الاعتقاد الفاسد، وهو الجهل المركب، والمراد: ما اعتقد باطلاً قط، والخطاب في هذا لقريش. والمراد: نفي ما ينسبون إليه .﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ ما يتكلم بالقرآن عن الهوى أي الباطل .﴿إِنْ هُوَ﴾ أي القرآن أو الذي ينطق به .﴿إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ وحي يوحيه الله إليه.

﴿عَلَّمَهُۥ﴾ إياه مَلَك .﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ صاحب القوى الشديد، وهو جبريل عليه السلام .﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ ذو قوة وحصافة في عقله ورأيه .﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورته الحقيقية التي خلقه الله تعالى عليها، ورآه عليها محمد ﷺ مرتين: مرة في السماء، ومرة في الأرض عند غار حراء في بدء النبوة.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ أفق السماء وهو الجهة العليا بالنسبة للناظر، والضمير لجبريل .﴿ثُمَّ دَنَا﴾ قرب من النبي ﷺ .﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ زاد في القرب ونزل وتعلق به، وهو تمثيل لعروجه بالرسول ﷺ .﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ أي فكان جبريل على مقدار قوسين أو أقرب من ذلك، والمراد به هنا مقدار ما بين مقبض القوس والسِّيَة: وهي ما عطف من طرفيها، ولكل قوس قابان: طرفان. والخلاصة: فكان مقدار مسافة قربه منه مثل مقدار مسافة قاب قوسين. والمقصود تمثيل ملكة الاتصال وتحقيق استماعه لما أوحي إليه، بنفي البعد الموقع في اللبس والغموض.

﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ الله تعالى .﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ جبريل .﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ جبريل إلى النبي ﷺ، ولم يذكر الموحى به تفخيماً لشأنه، أو فأوحى جبريل إلى عبد الله محمد ﷺ. ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ أي ما أنكر فؤاد النبي ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أفتجادلونه وتغلبونه وتكذبونه على ما يراه معاينة، من المراء: وهو الجدال بالباطل .﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ رأى محمد جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى .﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ أعلى مكان في السماء، ينتهي إليها علم الخلائق وأعمالهم، شبّهت بالسدرة: وهي شجرة النبق؛ لأنهم يجتمعون في ظلها .﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ الجنة التي تأوي إليها أرواح المؤمنين المتقين .﴿إِذْ﴾ حين .﴿يَغْشَى﴾ يغطي ويستر .﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ تعظيم وتكثير لما يغشاها بحيث لا يحيط بها وصف ولا عدد .﴿مَا زَاغَ

﴿ٱلْبَصَرُ﴾ ما مال بصر رسول الله ﷺ عما رآه. ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوز ما أمر به تلك الليلة. ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي رأى في تلك الليلة - ليلة المعراج- بعض آيات ربه العظمى، وعجائب الملكوت، كرؤية جبريل حينما سدّ أفق السماء بما له من ست مئة جناح.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾﴾ أي أقسم بالنجم أي بالنجوم عندما تميل للغروب؛ إذ بالميل إلى الأفق تعرف الجهات، ما عدل محمد ﷺ عن طريق الهداية والحق، وما صار غاوياً متكلماً بالباطل، وقيل: النجم: الثريا إذا سقطت مع الفجر. روى ابن أبي حاتم عن الشعبي وغيره قال: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق.

وقد عرض الرازي مقارنة في المقسم به والمقسم عليه بين هذه السورة والسور المتقدمة، فذكر أن السور التي تقدمت وهي الصافات والذاريات والطور وهذه السورة كان القسم فيها بالأسماء دون الحروف، أقسم الله في الأولى لإثبات الوحدانية: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾. وفي الثانية لإثبات الحشر والجزاء: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾. وفي الثالثة لإثبات دوام العذاب بعد وقوعه يوم القيامة: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾. وفي هذه السورة لإثبات نبوة محمد ﷺ، فاكتملت الأصول الثلاثة: الوحدانية، والحشر، والنبوة[1].

ويلاحظ أن القسم على الوحدانية والنبوة قليل في القرآن، والقسم على إثبات البعث كثير، كما في سورة الذاريات، والطور، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٢٧٧.

(١)﴾، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا (١)﴾، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ (١)﴾، وغير ذلك؛ لأن دلائل الوحدانية كثيرة، وكلها عقلية كما قيل:

وفي كُلِّ شيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ علـى أنَّـه واحـدُ

ودلائل النبوة والرسالة أيضاً كثيرة وهي المعجزات المشهورة والمتواترة، أما البعث فإمكانه يثبت بالعقل، وأما وقوعه فلا يثبت إلا بالأدلة السمعية أو النقلية وهي القرآن والحديث، لذا أكثر الله تعالى في القرآن بالقسم عليه ليؤمن به الناس.

ونظير الآية: ﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ (٧٧) فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٨٠)﴾ [الواقعة: ٥٦/٧٥-٨٠].

والحكمة في القسم بالنجوم أنه عالم رهيب، سواء في السرعة أو في الحجم، أو في النوع، فسرعة نور الكوكب ٣٠٠ ألف كيلو متر في الثانية، أي إن النور يجري حول الأرض في سُبْع ثانية مرة واحدة، والشمس أكبر من الأرض بمليون وثلاث مئة ألف مرة، وهي واحد من ثلاثين ألف مليون شمس، والنظام الشمسي والكواكب السيارة الإحدى عشرة جزء من عالم المَجَرَّة، والمَجَرَّة ذات نجوم بنحو ٣٠ ألف مليون نجم، منها ما هو أكبر من الشمس، والمجرة عادة تشبه قرصاً مفرطحاً، ويبلغ قطر المجرّة التي تنتمي إليها ١٠٠ ألف سنة ضوئية[١] وإن التحام قوة الجاذبية بين المجرَّات بالكميات الهائلة من

(١) السنة الضوئية تساوي ٦ ملايين ميل، وقد أشار تقرير حول أعمال الاجتماع السنوي للجمعية الأمريكية لعلم الفلك في مدينة(أوستن)- (ولاية تكساس) إلى أن علماء الفلك الأمريكيين رصدوا مجرَّتين هما الأقدم والأبعد عن الأرض بين كل تلك التي رصدت إلى اليوم. وأوضح التقرير أن هاتين المجرتين تقعان على بعد ١٧ مليار سنة ضوئية عن الأرض. وأنهما تكونتا إبان الانفجار الكبير (بيج بانج) الذي يقال : إنه أسفر عن نشوء الكون، والمجرتان على حد ما جاء في التقرير هما أبعد وأقدم من إشعاعات (كازار) التي تشبه النجوم، وتبعث إشعاعاً كهربائياً ومغناطيسياً قوياً.

الغازات والمواد الموجودة فيها يحوّل ما يعرف بالفجوات السوداء في وسط هذه المجرّات الفضائية إلى شهب مشتعلة، تحدث نادراً في ظروف مئات الملايين من السنين. والشهب أشبه بالنجوم إلا أنها تصدر إشعاعات مغناطيسية تفوق في طاقتها ما يصدر عن النجوم العادية المعروفة بالإشعاعات، وبُعْد الشهب عن الأرض بمسافة عشرة آلاف مليون سنة ضوئية.

وقد أوضحت سابقاً أن الشمس على مدار السنة تنتقل في اثني عشر برجاً، وتوجد في كل برج لمدة شهر حيث تتم دورتها السنوية في اثني عشر شهراً (٣٦٥ يوماً وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان). ويطلق على هذه السنة: السنة النجمية التي تبدأ في ٢١ آذار (مارس). وللقمر بروج أيضاً تسمى منازل القمر، يقيم فيها كل يوم في منزل جديد، ويستمر بالتنقل على مدار الشهر ما بين ٢٩ أو ٣٠ منزلاً، يسمى المنزل الأخير محاقاً، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس: ١٠/٥] وتدل آية﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥٧] على أن الإعجاز القرآني في الفلك أكبر من الإعجاز القرآني في الطب والإنسان، وقد طلب الله منا أن نمعن النظر في آياته الكونية، ونكتشف ظواهر الكون[١].

(١) في يوم الأربعاء الموافق ١٢ نيسان(أبريل) لعام ١٩٦١ قامت أول مركبة فضائية تحمل بشراً وتدور حول كوكب الأرض، بقيادة رائد الفضاء جاجارين من الاتحاد السوفييتي، وكان أول سؤال وجهه إليه الصحفيون الروس هو : هل وجدت الله؟ فأجاب بمنطق الإلحاد المطلق المعروف بأنه لم يجد الله. ثم تلاه رائد فضاء سوفييتي آخر اسمه (تيتوف) استمر في الفضاء لمدة أطول من رفيقه (جاجارين) فلما عاد إلى الأرض، سئل : هل وجدت الله ؟ فأجاب : «نعم، لقد وجدت عظمة الخالق، وفي عمله الجبار بالسيطرة على قوانين الجاذبية بين الأرض والقمر والشمس».

لهذه الأهمية للنجوم أقسم الله بها على أن محمداً ﷺ ليس بضال تائه عن الحق، ولا غاو يعدل عن الحق، وسبب رشده وعدم ضلاله وغوايته ما قال تعالى:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض، وما ينطق بالقرآن عن هواه الشخصي، إنما ينطق بوحي من الله أوحاه إليه، ويبلِّغ ما أمر به كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن أبي شيبة عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ، ورسول الله بشر يتكلم في الغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج مني إلا الحق».

وأخرج الحافظ أبو بكر البزار عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «ما أخبرتكم أنه من عند الله، فهو الذي لا شك فيه».

وأخرج أحمد عن أبي هريرة أيضاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أقول إلا حقاً، قال بعض أصحابه: فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: إني لا أقول إلا حقاً».

ثم أخبر الله تعالى عن معلِّم رسول الله ﷺ وهو جبريل عليه السلام فقال:

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ أي علَّم القرآنَ النبيَّ جبريلُ الذي هو شديد قواه العلمية والعملية، وهو ذو قوة وشدة في الخَلْق، وذو حصافة في العقل، ومتانة في الرأي، وقد استقام جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، حين أحب النبي ﷺ رؤيته كذلك، فظهر له في الأفق الأعلى أي في الجهة العليا من السماء، وهو أفق الشمس، فسدَّ الأفق عندما جاء بالوحي إلى النبي ﷺ أول ما جاءه بالوحي.

ونظير الآيات عن جبريل قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٨١/١٩-٢٣].

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ أي استوى واعتدل جبريل بالأفق الأعلى أولاً، ثم قرب من الأرض، وازداد في القرب والنزول، حتى نزل على النبي ﷺ، فكان مقدار ما بين جبريل ومحمد ﷺ من المسافة مقدار قوسين أو أقل من قوسين، فأوحى جبريل إلى عبد الله ورسوله محمد ﷺ ما أوحاه من القرآن في تلك النزلة، من شؤون الدين. وقيل: فأوحى الله إلى محمد ﷺ عبده ما أوحى، وفيه تفخيم لشأن الوحي.

وهذا كان ورسول الله ﷺ في الأرض، لا ليلة الإسراء. ولهذا قال تعالى بعده: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾. روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود، قال في هذه الآية ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾: قال رسول الله ﷺ: «رأيت جبريل له ست مئة جناح».

وقال عن رؤية جبريل حقيقة لا تخيلاً:

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ أي ما أنكر فؤاد النبي ﷺ ما رآه من صورة جبريل، وإنما كان فؤاده صادقاً، فتكون عينه أصدق، فكيف تجادلونه وتكذبونه فيما رآه بعينه رؤية مشاهدة محسوسة من صورة جبريل عليه السلام؟! والأشهر أن لام ﴿ٱلْفُؤَادُ﴾ للعهد، وهو فؤاد محمد ﷺ، فلم يقل فؤاده لما رآه: لم أعرفْك، وصدّق فؤاده ما عاينه، ولم يشك في ذلك، ولم يقل: إنه جن أو شيطان.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ أي لقد رأى محمد ﷺ جبريل نازلاً مرة أخرى على صورته التي خلقه الله

عليها، وذلك ليلة الإسراء، عند سدرة المنتهى التي هي في رأي الأكثرين وهو المشهور: شجرة في السماء السابعة، وجاء في الصحيح أنها في السماء السادسة، وإليها ينتهي علم الخلائق، ولا يعلم أحد منهم ما وراءها، وعندها الجنة التي تأوي إليها أرواح المؤمنين، والصحيح كما تقدم في سورة الإسراء: أن المعراج كان بالروح والجسد، وليس بالروح فقط كما يرى بعضهم، وإلا لما كان المعراج معجزة.

فتكون رؤية النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية مرتين: مرة في الأرض ومرة في السماء، وأما في غير هاتين المرتين، فكان يراه في صورة إنسان؛ لأن عليه أيسر وأهون وأكثر أنساً.

وعلى هذا يكون ضمير ﴿رَءَاهُ﴾ ليس راجعاً إلى الله تعالى، بل إلى جبريل عليه السلام، فالآية تنفي أن يكون ﷺ رأى ربه سبحانه مطلقاً، ويؤكده قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٣] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٤٢/ ٥١].

وقال بعضهم: الضمائر في ﴿دَنَا﴾، و﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ و﴿فَكَانَ﴾ و﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ وكذا في ﴿رَءَاهُ﴾: لله عز وجل، ويشهد لهذا ما أخرجه البخاري عن أنس: «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة، فتدلى، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه فيما أوحى خمسين صلاة». والراجح هو الرأي الأول بدليل ما أخرجه مسلم عن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ فقال: «رأيت نوراً»[١].

---

(١) تفسير الألوسي: ٢٧/ ٥٢ وما بعدها.

وأما سدرة المنتهى فنؤمن بها كما جاء في ظاهر القرآن، دون تعيين مكانها وأوصافها إلا بما جاء في الحديث الصحيح، روى الإمام أحمد ومسلم والترمذي عن ابن مسعود قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض، فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها..» .

ورواية مسلم في صحيحه عن ابن مسعود: «.. وهي في السماء السادسة» . وفي رواية أخرى لمسلم عن أنس أن النبيﷺ قال: «لما رُفِعتُ إلى سِدْرة المنتهى، في السماء السابعة، نَبِقها مثل قِلال هَجَر، وورقها مثل آذان الفِيَلة..» والنَّبِق: ثمر السِّدْر، الواحدة: نَبِقة[1]

وروى الترمذي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول اللهﷺ يقول- وقد ذُكِر له سِدْرة المنتهى - قال: «يسير الراكب في ظل الغصن منها مئة سنة، أو يستظل بظلها مئة راكب[2]، فيها فَرَاش[3] الذهب، كأن ثمرها القِلال» .

﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي تلك السدرة التي يحيط بها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله ما يحيط، مما لا يحصره وصف ولا عدد. وهذا في رأي الأكثرين يشعر بالتعظيم والتكثير.

﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ أي ما مال بصر النبي ﷺ عما رآه، وما تجاوز ما رأى، فرؤية جبريل وغيره من مظاهر ملكوت الله رؤية عين، وليست من خدع البصر، وهذا يؤكد أن المعراج كان بالروح والجسد.

---

(١)) ويقال : نَبْق بفتح النون وسكون الباء، وهي لغة المصريين، وكسر الباء أفصح .

(٢) شك من الراوي .

(٣) الفراش : دويبَّة ذات جناحين، تتهافت في ضوء السراج، واحدتها فراشة.

لقد رأى في ليلة المعراج من آيات ربه العظام ما لا يحيط به الوصف، وهو جبرائيل على صورته، وسائر عجائب الملكوت. وهذا كقوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١٧/١] دون تحديد المرئي للإشارة إلى تعظيمه وتفخيمه وأهميته. روى البخاري وغيره عن ابن مسعود أنه قال في الآية: رأى رَفْرَفاً أخضرَ من الجنة قد سدَّ الأفق[1]. وعن ابن زيد: أنه رأى جبريل بالصورة التي هو بها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- لله تعالى أن يقسم بما شاء، على ما شاء، في أي وقت يشاء، وقد أقسم بالنجوم (على أن اللام للجنس) أو بالثريا (على أن اللام لتعريف العهد) والعرب تسمي الثُّريا نجماً، وإن كانت في العدد نجوماً. وأقسم به وقت هُويِّه وغروبه لأنه الوقت الذي يستفاد منه لمعرفة الجهات، أما إذا كان في وسط السماء، فيكون بعيداً عن الأرض، لا يهتدي به الساري، فإذا مال إلى الغروب تبين جانب المغرب من المشرق، والجنوب من الشمال.

٢ً- المقسم عليه الشهادة للنبي ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال، والضال: الذي يسير على غير هدى بغير علم، والغاوي: وهو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره، والضلال في مقابلة الهدى، والغي في مقابلة الرشد. وبه نزَّه الله تعالى رسولهﷺ وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كاليهود والنصارى.

٣ً- القرآن الكريم ليس كلاماً للرسولﷺ وإنما هو وحي صادر من الله عز وجل.

(١) قال ابن عباس أيضاً: رأى رفرفاً أخضر سدّ أفق السماء.

٤ً- قد يحتج بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ من لا يجوِّز لرسول الله ﷺ الاجتهاد في الحوادث، وهذا خطأ؛ لأن المراد بالآية إثبات كون القرآن وحياً من عند الله، والقرآن ذاته أمره بالاجتهاد، وقد اجتهد ﷺ في الحروب فيما لم يحرمه الله، وأذن لبعض المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك، فعاتبه ربه بقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/٤٣] .

٥ً- كان الوحي من الله تعالى على قلب نبيه ﷺ بوساطة جبريل، لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ وهو جبريل في قول سائر المفسرين، سوى الحسن، فإنه قال: هو الله عز وجل.

وقد وصف الله جبريل بأنه ذو قوة فائقة علماً وعملاً وحصافة في العقل ومتانة في الرأي.

٦ً- رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية مرتين: مرة بدأت في أفق السماء، حينما استوى واستقام كما خلقه الله تعالى بالأفق الشرقي العلوي، فسد المشرق لعظمته.

ثم دنا جبريل بعد استوائه بالأفق الأعلى، من الأرض، فنزل بالوحي على النبي ﷺ. وهذه هي المرة الأولى للرؤية، والنبي على الأرض. وكان جبريل قريباً من النبي ﷺ بمقدار مسافة قوسين عربيتين أو أقل من ذلك.

٧ً- لقد أوحى الله إلى محمد ﷺ عبده ورسوله ما أوحى، ولم يبين الموحى به تفخيماً لشأن الوحي، أو أوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى إلى محمد ﷺ، أو أوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحاه الله إليه وكلمه به. وعلى كل حال مصدر الوحي الأصلي هو الله تعالى، وجبريل واسطة، ومحمد ﷺ الموحى إليه. والوحي: إلقاء الشيء بسرعة.

٨ً- لم يكذب قلب محمد ﷺ ليلة المعراج ما رآه من جبريل على صورته

الحقيقية وآيات الله الإلهية العجيبة، وهي رؤية حقيقية بالبصر، وقيل: إنه رأى ما رآه بقلبه.

٩- أنكر الله على كفار قريش ما أخبر به النبي ﷺ ليلة المعراج، فقال: كيف تجادلونه وتوردون شكوكم عليه، مع أنه رأى ما رأى عين اليقين؟!

١٠- لقد رأى النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة أخرى عند سدرة المنتهى (وهي شجرة النَّبِق، وهي في السماء السادسة، أو في السماء السابعة، التي لا يحيط بها وصف) عند جنة المأوى التي تأوي إليها أرواح الملائكة والشهداء والمتقين، وينتهي إليها علم الأنبياء، ويعزب علمهم عما وراءها، كما قال ابن عباس.

قال ابن مسعود فيما ذكره المهدوي، قال النبي ﷺ: «رأيت جبريل بالأفق الأعلى، له ست مئة جناح، يتناثر من ريشه الدر والياقوت» . والذي يغشى السدرة مبهم للتفخيم والتعظيم، مثل أنوار الله تعالى، والملائكة، والخلائق الدالة على عظمة الله تعالى.

١١- لم يعدل بصر النبي ﷺ يميناً ولا شمالاً عما رأى بعينه يقيناً، ولا تجاوز الحد الذي رأى.

١٢- لقد رأى النبي ﷺ من آيات ربه آيات هن أكبر الآيات، قال الرازي معقباً على قول من قال: إنه رأى جبريل عليه السلام في صورته: الظاهر أن هذه الآيات غير تلك.

منع الإشراك وبيان عدم فائدة الأصنام

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَمَنَوٰةَ﴾ :

وقرأ ابن كثير (مناءة).

﴿ضِيزَىٰٓ﴾ :

وقرأ ابن كثير (ضئزى).

﴿رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ : قرئ:

١- (ربهِم) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (ربَهُم) وهي قراءة حمزة، والكسائي.

٣- (ربهِمُ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ : المفعول الأول، والمفعول الثاني: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ ﴿ضِيزَىٰٓ﴾: أصلها ضوزى بوزن فُعْلى فقلب إلى (فِعْلى) وإنما كان أصلها (فُعْلى) لأن (فِعْلى) ليست من أبنية الصفات، وفُعْلى من أبنيتها، نحو حُبلى، ونظير﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾: (مشية حيكى) فقلبت الضمة كسرة لتصح الياء.

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ (كم): خبرية، في موضع رفع بالابتداء، و﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾: خبره، وجمع ضمير (كم) عملاً بالمعنى؛ لأن المراد بها الجمع. وقوله: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي يشاء شفاعته، فحذف المضاف الذي هو المصدر، فصار: لمن يشاؤه، ثم حذف الهاء العائدة إلى (مَنْ) فصار يشاء.

البلاغة:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ استفهام توبيخي مع احتقار عقولهم. ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ مراعاة الفواصل وتوافق رؤوس الآيات الذي له وقع على السمع، ويسمى بالسجع.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ، وَمَنَوٰةَ﴾ أصنام العرب التي كانوا يعبدونها، فاللات كانت لثقيف بالطائف أو لقريش بنخلة، سمي به؛ لأنه صورة رجل كان يلتّ السويق بالسمن ويطعم الحاج. والعُزّى كانت لغطفان، وهي شجرة ببطن نخلة، بعث النبيﷺ عام الفتح خالد بن الوليد ليقطعها، فجعل يضربها بفأسه ويقول:

يا عَزُّ، كفرانكِ لا سبحانكِ إني رأيتُ الله قد أهانكِ

ومناة: صخرة كانت لهذيل وخزاعة، وكانت دماء النسائك تُمْنَى عندها،

أي تراق. ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صفتان لتأكيد الذم، والأخرى: المتأخرة الوضيعة القدر، من التأخر في الرتبة، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٧/٣٨] أي قال أدنياؤهم أو وضعاؤهم لأشرافهم.

﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ قسمة جائرة، من ضاز يضيز ضيزاً، أي جار وظلم جوراً. ﴿إِنْ هِىَ﴾ الأصنام المذكورة. ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ سميتم بها، أي إن إطلاق اسم الآلهة عليها مجرد تسميات لا مضمون لها، فليس فيها شيء من معنى الألوهية. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ ما أنزل الله بعبادتها من حجة وبرهان. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يتبعون في عبادتها إلا مجرد الظن غير القائم على الدليل، وإلا توهم أن ما هم عليه حق، فالمراد بالظن هنا التوهم. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ ما تشتهيه أنفسهم مما زين لهم الشيطان أنه تشفع لهم عند الله تعالى. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ البرهان القاطع وهو الرسول والكتاب، فتركوه.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة، والهمزة فيها للإنكار، والمعنى بل ألكل إنسان منهم ما تمنى من أن الأصنام تشفع لهم؟ أي ليس له كل ما يتمناه، والمراد نفي طمعهم في شفاعة الآلهة المزعومة. ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ أي وكثير من الملائكة. ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ لا تنفع شفاعتهم شيئاً. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لهم في الشفاعة. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده. ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ عنه ويراه أهلاً كذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢١/٢٨] وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥].

المناسبة:

بعد أن قرر الله تعالى الرسالة وصدق النبوة، ذكر ما ينبغي أن يبتدئ به الرسول وهو التوحيد، ومنع الإشراك، وبيان عدم جدوى الأصنام في الشفاعة عند الله تعالى بأسلوب فيه إنكار وتهكم وتوبيخ وإهدار لحرمة العقل

الذي يدين لغير الخالق الرزاق، ويعبد أحجاراً أو أشجاراً أو معادن صماء لا تنفع ولا تضر.

التفسير والبيان:

يقرّع الله تعالى المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم لها البيوت، مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، فيقول:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ أنظرتم إلى اللات: صنم ثقيف، والعزى: شجرة غَطَفان بين مكة والطائف، تعظمها قريش، ومناة: صخرة لِهُذَيل وخُزاعة، وللأوس والخزرج بين مكة والمدينة، ثالثة الصنمين والمتأخرة الوضيعة القدر، قال ذلك عنها للتحقير والذم؟ إنها أحجار صماء أو أشجار تستنبت، فكيف تشركونها بالله، وهي مصنوعة لكم أو مخلوقة غير خالقة؟! والله عز وجل الذي تعرفون عظمته في الكون، أليس هو الأجدر والأحق بالعبادة؟!

وهذا تقريع شديد، وذم وتوبيخ، لوضع الشيء في غير محله، فكانت ثقيف ومن تابعها يفتخرون باللات التي كانت صخرة بيضاء منقوش عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهي في الأصل صورة رجل كان يلت السويق للحجيج في الجاهلية، فلما مات عكفوا على قبره، فعبدوه.

وكانت العُزّى شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف، لغَطَفان، وكانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أُحُد: لنا العُزّى ولا عُزّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم».

وكانت مناة بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة، وكانت خُزاعة والأوس

والخزرج في جاهليتها يعظمونها، ويهلون منه للحج إلى الكعبة، وتذبح عندها القرابين. وكانت بجزيرة العرب وغيرها طواغيت أخر، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاثة التي نصت عليها الآية، وإنما أفردت هذه بالذكر؛ لأنها أشهر من غيرها.

وبعد بيان سخف عقولهم بعبادة الأصنام، وبخهم الله تعالى على شرك من نوع آخر وهو جعل الملائكة بنات الله، فقال:

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي أتجعلون لله ولداً، ثم تجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور؟ فلو اقتسمتم فيما بينكم هذه القسمة، لكانت قسمة خارجة عن الصواب، جائرة عن الحق. فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسَفَهاً؟! ونظير الآية: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور: ٥٢/٣٩] .

ثم أنكر الله تعالى عليهم ما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر بعبادة الأصنام، وتسميتها آلهة، فقال:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي ما تسمية هذه الأصنام آلهة، مع أنها لا تبصر ولا تسمع، ولا تعقل ولا تفهم، ولا تضر ولا تنفع إلا مجرد أسماء سميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم، وليس لها مسميات حقيقية، اتخذتم ذلك أنتم وآباؤكم، قلّد الآخر فيها الأول، وتبع في ذلك الأبناء الآباء، ولم ينزل الله بها من حجة ولا برهان تحتجون به على أنها آلهة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: ١٢/٤٠] .

ثم بيَّن الله تعالى منشأ عبادتها، فقال:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي

ما يتبعون في تسمية الأصنام آلهة إلا مجرد وهم أو ظن لا يغني من الحق شيئاً، ولا يتبعون إلا ما تهواه نفوسهم وتميل إليه وتشتهيه، من غير التفات إلى ما هو الحق الذي يجب اتباعه، مع أنه قد أتاهم من الله البيان الواضح الظاهر بأنها ليست آلهة، وهو هذا القرآن الذي هو الحجة والبرهان من عند الله، على لسان رسوله الذي بعثه الله إليهم، فأعرضوا عنه، ولم يتبعوا ما جاءهم به، ولا انقادوا له.

ثم أوضح ا لله تعالى أن القضية ليست بالتمنيات والأماني، وأن هذه الأصنام لا تفيدهم في شفاعة عند الله ولا في غيرها، فقال:

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي بل أيمكن[1] أن يكون للإنسان ما يتمنى؟ ليس كل من تمنى خيراً حصل له، وليس لهم ما يتمنون من كون الأصنام تنفعهم وتشفع لهم، فسلطان الدنيا والآخرة وملكهما والتصرف فيهما لله عز وجل، وليس للأصنام معه أمر في الدنيا ولا في الآخرة[2] ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾[النساء: ٤/ ١٢٣]. وروى أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته».

ثم بيّن الله طريق قبول الشفاعة، فقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ أي وكثير من الملائكة الكرام في السماوات، مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله لا تشفع لأحد إلا لمن أذن الله أن يشفع له، فكيف بهذه الجمادات الفاقدة العقل والفهم؟!

---

(١) أم المنقطعة كما تقدم: بمعنى بل الإضرابية وهمزة الاستفهام التي تفيد الإنكار.

(٢) جملة ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ مسوقة لتقرير جهلهم واتباعهم الظن.

أي إن الملائكة لا تشفع إلا بعد الإذن لها بالشفاعة، وإلا لمن يشاء الله أن يشفعوا له؛ لكونه من أهل التوحيد، وليس للمشركين في ذلك حظ. قال ابن كثير: فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله، وهو تعالى لم يشرع عبادتها، ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه[1]؟. وهذا توبيخ لعبدة الملائكة والأصنام.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ- حاجّ الله المشركين إذ عبدوا ما لا يعقل، فإن تلك الأصنام التي يعبدونها كاللات والعزى ومناة لا تسمع ولا تبصر، ولا تنفع ولا تضر، فكيف تجوز عبادتها؟ علماً بأن العبادة في رأي المشركين للمنفعة، وهذه عديمة النفع، فهل رأيتم هذه الأصنام حق الرؤية، فإن رأيتموها علمتم أنها لا تصلح شركاء؟ وقد عرفتم جلال الله وعظمته، فهو الأحق بالعبادة.

٢- قرّع الله المشركين ووبخهم أيضاً ورد عليهم قولهم: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله، وبيّن لهم أنه لا يعقل جعل البنات الإناث لله، ويختارون هم الذكور، فهذه القسمة قسمة جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحق.

٣- ما هذه الأوثان إلا أسماء وضعتموها ونحتموها وسميتموها آلهة، وقد قلدتم آباءكم في ذلك، وما أنزل الله بها من حجة ولا برهان، وما تتبعون في ذلك إلا الظن أو الوهم وأهواء النفس وما تميل إليه، بالرغم من أنه جاءكم البيان الشافي من جهة الرسول أنها ليست بآلهة، فهم اختاروا العمل بالظن مع قدرتهم على العمل باليقين الذي نزل به الوحي.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٥٥.

٤ً- الواقع أنه ليس للمشركين في عبادة الأصنام إلا مجرد التمنيات والأماني المعسولة المبنية على وهم لا واقع له، فلن تتمكن من الشفاعة لهم كما يحلمون فقد تمنوا الشفاعة عند من ليس لهم شفاعة، وإن الملك والتصرف والسلطان في الدنيا والآخرة لله عز وجل، فهو يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، لا ما تمنى أحد.

٥ً- وبّخ الله تعالى من عبد الملائكة والأصنام، وزعم أن ذلك يقرّبه إلى الله تعالى، فأعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتها على الله لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له.

توبيخ المشركين لتسميتهم الملائكة بنات الله

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

الإعراب:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ﴿أَعْلَمُ﴾: إما على أصلها في التفضيل في العلم، أي هو أعلم من كل أحد بهذين الصنفين، وإما أنها بمعنى (عالم). ومثله: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ فيها الوجهان.

البلاغة:

بين ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهْتَدَىٰ﴾ طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ يسمون كل واحد منهم .﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ حيث قالوا:

هم بنات الله. ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ بهذا القول من دليل يقيني. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ ما يتبعون فيه. ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ مجرد التوهم. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي إن الظن لا يفيد في مجال الحق: الذي هو حقيقة الشيء، فإن الحق لا يدرك إلا بالعلم، أي اليقين، والظن لا اعتبار له في المعارف الحقيقية أو اليقينيات وإنما العبرة به في العمليات والوسائل المؤدية إليها.

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾ أعرض عمن تولى عن القرآن وعن تذكيرنا وانهمك في الدنيا. ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي طلب الدنيا وأمرها نهاية علمهم، فلا يتجاوزه علمهم لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، والجملة اعتراضية مقررة لقصر همهم على الدنيا. ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ تعليل للأمر بالإعراض، أي إنما يعلم الله من يجيب ممن لا يجيب، فلا تتعب نفسك في دعوتهم، إذ ما عليك إلا البلاغ، وقد بلَّغت، والله عالم بالفريقين فيجازيهما.

المناسبة:

بعد أن وبخ الحق سبحانه المشركين على عبادتهم الأصنام والأوثان، وأبان عدم جدوى تلك العبادة في مجال الشفاعة وغيرها، وبخهم مرة أخرى وقرَّعهم على قولهم: الملائكة بنات الله، وأوضح أنها دعوى لا تستند إلى دليل مقبول، وأن عقولهم قاصرة، وأنهم لا يهتمون إلا بالدنيا وحطامها، وأن الله سيجازيهم على مزاعمهم ومعتقداتهم الفاسدة.

التفسير والبيان:

أنكر الله تعالى على المشركين تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وقولهم: إنهم بنات الله، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ أي إن

هؤلاء المشركين الكافرين الذين لا يصدقون بوجود الآخرة والحساب والعقاب يزعمون أن الملائكة إناث، وأنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. والمراد أنهم يسمون كل واحد من الملائكة أنثى؛ لأنهم إذا جعلوا الكل بنات، فقد جعلوا كل واحدة بنتاً. كما جاء في آية أخرى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩/٤٣] .

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ﴾ أي وليس لهم بذلك علم صحيح بصدق ما قالوه، ولا معرفة ولا برهان، فإنهم لم يعرفوهم ولا شاهدوهم، ولا أخبرهم به مخبر مقبول الخبر، بل قالوا ذلك جهلاً وضلالة وجرأة، وكذباً وزوراً وافتراء وكفراً شنيعاً.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي ما يتبعون في زعمهم إلا التوهم أو الظن الذي لا أساس له من الصحة، وإن مثل هذا الظن لا يجدي شيئاً، ولا يقوم أبداً مقام الحق. جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» .

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي فأعرض أيها الرسول عمن أعرض عن القرآن أو تذكير الله، ولم يكن همُّه إلا الدنيا، وترك النظر إلى الآخرة، أي فاترك مجادلتهم والاهتمام بشأنهم، فقد بلّغت ما أمرت به، وليس عليك إلا البلاغ،. وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ يشير إلى إنكارهم الحشر، كما قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩/٦] وقال تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [التوبة: ٣٨/٩] .

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِۚ﴾ أي إن أمر الدنيا وطلبها هو منتهى ما وصلوا إليه من العلم، فلا يلتفتون إلى ما سواه من أمر الدين. روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا

دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له» وفي الدعاء المأثور: «اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا» .

والعلة أو سبب الأمر بالإعراض عنهم ما قال تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي أعرض عن هؤلاء؛ لأن الله هو الخالق لجميع المخلوقات، وهو عالم بمن ضل عن سبيله، سبيل الحق والهدى، وعالم بمن اهتدى إلى الدين الحق، وسيجازي كل فريق أو أحد على عمله.

وفيه إيناس للنبي ﷺ كيلا يتعب نفسه في تحصيل ما ليس يرجى حصوله، وهو إيمان أهل العناد الذين قنعوا بالظن بدل العلم، ولازموا الباطل دون الحق، إذ كان من خلقه ﷺ الحرص على إيمانهم. وفي ذلك أيضاً وعيد للكفار، ووعد للمؤمنين.

فقه الحياة أو الأحكام:

أوضحت الآيات ما يأتي:

١ً - وصف الله الكفار الذين قالوا: الملائكة بنات الله، والأصنام بنات الله بأنهم كافرون بالبعث والحشر أو بالآخرة على الوجه الحق الذي جاءت به الرسل.

٢ً - وبخ الله المشركين الذين يعتقدون أن الملائكة إناث وأنهم بنات الله سبحانه وتعالى.

٣ً - ليس لهم بما وصفوا به الملائكة هذا الوصف علم صحيح، فإنهم لم يشاهدوا خلق الله الملائكة، ولم يسمعوا ما قالوه من رسول الله ﷺ، ولم يروه في كتاب، وإنما يتبعون التوهم في أن الملائكة إناث، وإن التوهم أو الظن

الذي لا يقوم على أساس علمي صحيح لا يفيد شيئاً في مجال التعرف على الحقيقة.

٤ - إذا كان هذا شأن هؤلاء الكفار المعاندين الذين لا همَّ لهم إلا الدنيا فاترك أيها الرسول مجادلتهم، فقد بلغت الرسالة، وأتيت بما كان عليك. قال الرازي- وما أصوب ما قال-: وأكثر المفسرين يقولون بأن كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾ منسوخ بآية القتال، وهو باطل؛ فإن الأمر بالإعراض موافق آية القتال، فكيف ينسخ به؟ وذلك لأن النبيﷺ كان مأموراً بالدعاء بالحكمة والموعظة الحسنة، فلما عارضوه بأباطيلهم قيل له: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ ثم لما لم ينفع قال له ربه: فأعرض عنهم، ولا تقابلهم بالدليل والبرهان، فإنهم لا يتبعون إلا الظن، ولا يتبعون الحق، وقابلهم بالإعراض عن المناظرة بشرط جواز المقابلة، فكيف يكون منسوخاً[1]؟!

٥- شأن الكفار غالباً الاهتمام بالدنيا فقط، وجهل أمر الدين والآخرة، فهم قوم ماديون، كما نشاهد اليوم، لذا أخبر الله تعالى عنهم بأن طلب الدنيا هو قدر عقولهم، ونهاية علمهم؛ لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٧٦/٢٧].

٦- ختمت الآيات بالوعيد والتهديد، فالله تعالى أعلم بالضالين، وأعلم بالمهتدين، فلاداعي للمعاناة، وسيجازي كلاً بأعمالهم خيرها وشرها.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٨/ ٣١١.

جزاء المسيئين والمحسنين وأوصاف المحسنين

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢)﴾

القراءات:

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (كبير الإثم).

﴿بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾:

وقرأ حمزة وصلاً (بطون إِمِّهاتكم) والكسائي وصلاً (بطون إِمَّهاتكم).

الإعراب:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ﴾ لام ﴿لِيَجْزِيَ﴾ إما لام (كي) والتقدير: واستقر لله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، أو تكون لام القسم.

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: في موضع نصب على البدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ ﴿ٱللَّمَمَ﴾: استثناء منقطع: وهو صغائر الذنوب.

البلاغة:

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة، وتكرار لفظ (يَجْزِيَ) من قبيل الإطناب.

المفردات اللغوية:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي هو الخالق والمالك والمتصرف. ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ بعقاب ما عملوا من السوء كالشرك وغيره. ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ الذين أحسنوا بالتوحيد والطاعة يجزيهم بالمثوبة الحسنى وهي الجنة.

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ما يكبر عقابه من الذنوب، وهو كل ذنب توعد الله عليه صاحبه بالعذاب الشديد كالشرك وعقوق الوالدين. ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما فحش من الكبائر خصوصاً، وهو الذنب الذي عاقب الله عليه بالحد كالقتل العمد والزنى والقذف وشرب الخمر وسائر المسكرات. ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن اللمم إذا اجتنبت الكبائر تُغفر، مثل النظرة إلى المحرَّمات والقبلة واللمسة. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ كثير الغفران للذنوب، قابل التوبة منها، فله أن يغفر ما يشاء من الذنوب صغيرها وكبيرها، قال البيضاوي: ولعله عقب به وعيد المسيئين ووعد المحسنين، لئلا ييأس صاحب الكبيرة من رحمته، ولا يتوهم وجوب العقاب على الله تعالى. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ عالم بأحوالكم. ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ خلق أباكم آدم من التراب. ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أي حينما صوَّركم في الأرحام، والأجنَّة: جمع جنين: وهو الولد ما دام في بطن أمه، سمي بذلك لاجتنانه أي استتاره.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لا تثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير، ولا تمدحوها على سبيل الإعجاب، أما على سبيل الاعتراف بالنعمة فحسن. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي عالم يعلم التقي وغيره قبل الخلق.

سبب نزول الآية (٣٢):

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾: أخرج الواحدي والطبراني وابن المنذر وابن أبي حاتم: عن ثابت بن الحارث الأنصاري قال: كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صبي صغير: هو صِدِّيق، فبلغ ذلك النبيﷺ،

فقال: «كذبت اليهود، ما من نسمة يخلقه الله في بطن أمه إلا ويعلم أنه شقي أو سعيد» فأنزل الله عند ذلك هذه الآية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

المناسبة:

بعد أن أبان الله تعالى أنه العليم بما في السماوات والأرض، وأنه يجازي عباده بعدله، فيثيب المحسن بالجنة، ويعاقب المسيء بالنار، ذكر أنه قادر على ذلك، فهو مالك العالم العلوي والسفلي يتصرف فيهما بما شاء، وهو يجازي على وفق علمه المحيط بكل شيء، ثم ذكر أوصاف المحسنين، وأخبر أنه جواد كريم واسع المغفرة لمن يشاء من عباده.

التفسير والبيان:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾[1] أي إن الله تعالى مالك السماوات والأرض، وإنه الغني عما سواه، الحاكم في خلقه بالعدل، وقد خلق الخلق بالحق، وجعل عاقبة أمر الخلق الذين فيهم المحسن والمسيء أن يجزي كلاً بعمله، بحسب علمه المحيط بكل شيء، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته، فإن كان العمل خيراً، كان الجزاء خيراً، وإن كان شراً كان الجزاء شراً. فتكون لام ﴿لِيَجْزِيَ﴾ لام العاقبة.

قال ابن الجوزي في تفسيره: والآية إخبار عن قدرته وسعة ملكه، وهو كلام معترض بين الآية الأولى، وبين قوله: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ لأنه إذا كان أعلم بالمسيء وبالمحسن، جازى كلاً بما يستحقه، وإنما يقدر على مجازاة الفريقين إذا كان واسع الملك.

---

(١) قال الواحدي: اللام للعاقبة أو الصيرورة، كما في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٢٨/٨] أي أخذوه وعاقبته أنه يكون لهم عدواً.

ثم ذكر الله تعالى صفات المتقين المحسنين، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أي إن المحسنين هم الذين يبتعدون عن كبائر الذنوب كالشرك والقتل وأكل مال اليتيم، وعن الفواحش كالزنى، والكبائر: كل ذنب توعد الله عليه بالنار، والفواحش: ما تناهى أو تزايد قبحه عقلاً وشرعاً من الكبائر، مما كان فيه الحد. ولكن لا يقع منهم إلا اللمم أي صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال كالنظرة الحرام والقبلة.

أخرج أحمد والشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تَتَمَنَّى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه».

فإن اقترفوا اللمم تابوا ولم يعودوا إلى مثله.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٣١].

وقد ورد في الصحيحين عن علي رضي الله عنه تحديد الكبائر بسبع: «اجتنبوا السبع الموبقات: الإشراك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وقد أوصلها الحافظ الذهبي في كتابه (الكبائر) إلى سبعين. وروى الطبراني عن ابن عباس أن رجلاً قال له: الكبائر سبع، فقال: هي إلى سبع مئة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

ثم فتح الله تعالى باب الأمل ومنع اليأس بقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي إن رحمة الله وسعت كل شيء، ومغفرته تسع

الذنوب كلها لمن تاب منها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

ثم أكد الله تعالى علمه بالأشياء كلها، فقال:

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ﴾ أي إن الله بصير بكم، عليم بأحوالكم وأفعالكم وأقوالكم التي ستصدر منكم، حين ابتدأ خلقكم بخلق أبيكم آدم من التراب، واستخرج ذريته من صلبه، وحين صوركم أجنة في أرحام أمهاتكم، وتعهدكم بالنمو والتكوين في أطوار مختلفة. والجنين: هو الولد مادام في البطن، وفائدة قوله: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ﴾ التنبيه على كمال العلم والقدرة، فإن بطن الأم في غاية الظلمة، ومن علم بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهر من حال العباد.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي لا تمدحوا أنفسكم، ولا تبرّئوها عن الأثام، ولا تثنوا عليها بإعجاب أو رياء، ولا تدّعوا الطهارة عن المعاصي، بل احمدوا الله على الطاعة، واحذروا المعصية، فالله هو العليم بمن اتقى المعاصي.

ونظيرالآية قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء: ٤/٤٩].

وروى مسلم في صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: «سَمَّيتُ ابنتي (بَرَّة) فقالت لي زينب بنت أبي سَلَمة: إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم، فقال: لا تزكوا أنفسكم، إن الله أعلم بأهل البر منكم، فقالوا: بِمَ نسميها؟ قال: سموها زينب».

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، قال: مدح رجل

رجلاً عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ويلك قطعت عُنُق صاحبك - مراراً- إذا كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة، فليقل: أحسب فلاناً، والله حسيبُه، ولا أزكّي على الله أحداً، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك» .

وروى أحمد ومسلم وأبو داود عن همّام بن الحارث قال: جاء رجل إلى عثمان، فأثنى عليه في وجهه، فجعل المقداد بن الأسود يحثو في وجهه التراب، ويقول: أمرنا رسول الله ﷺ إذا لقينا المداحين أن نحثو في وجوههم التراب.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ً- لله تعالى جميع ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وخلقاً، وهذا دليل القدرة الإلهية، وسعة الملك الإلهي، وهذا معترض في الكلام.

٢ً- إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بمن اهتدى، فيجازي كلاً بما يستحقه. وإذا كانت اللام للعاقبة فالمعنى: ولله ما في السماوات وما في الأرض، لتكون عاقبة أمر الخلق أن يكون فيهم محسن ومسيء، فللمحسن المثوبة أو العاقبة الحسنى وهي الجنة، وللمسيء السوأى وهي جهنم.

٣ً- إن نعت المحسنين أنهم لا يرتكبون كبائر الإثم وهو الشرك؛ لأنه أكبر الآثام، ونحوه من الكبائر المذكورة آنفاً وهي كل ما أوعد الله عليه بالنار، ويبتعدون عن الفواحش المتناهية في القبح، كالزنى، وهي كل ذنب فيه الحدّ.

لكن اللمم، وهي كما ذكر القرطبي: الصغائر التي لا يسلم من الوقوع فيها إلا من عصمه الله وحفظه، فإن أمرها سهل مغفور، يتوب الله فيها على من تاب وأناب. وقال ابن مسعود وأبو سعيد الخدري وحُذَيْفة ومسروق: إن اللمم ما دون الوطء من القبلة والغمزة والنظرة والمضاجعة. وفي صحيح

البخاري ومسلم عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة أن النبيﷺ قال:

«إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدِّق ذلك أو يكذِّبه» وقد أعدت الحديث بهذا اللفظ؛ لأنه أوضح، والمعنى: أن الفاحشة العظيمة والزنى التام الموجب للحدّ في الدنيا والعقوبة في الآخرة، هو في الفرج، وغيرُه له حظٌّ من الإثم.

٤ً- إن الله عز وجل واسع المغفرة من الصغائر والكبائر لمن تاب من ذنبه واستغفر، أما من لم تصل إليهم المغفرة فهم الذين أصروا على الإساءة، وماتوا من غير توبة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤/٤٨].

٥ً- أكد الله تعالى لعباده علمه بجميع أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، فذكر أنه أعلم بهم من أنفسهم وقت الإنشاء حين خلق أباهم آدم من الطين، وتسلسلوا في بطون الأمهات، معتمدين في تكوين نشأتهم على الغذاء الذي يعتمد على التراب والماء، فكل أحد أصله من التراب، فإنه يصير غذاء، ثم يسير نطفة. وفي هذا تقرير لكونه عالماً بمن ضل.

٦ً - نهى الله تعالى الإنسان عن تزكية نفسه ومدحها والثناء عليها، فإنه أبعد من الرياء، وأقرب إلى الخشوع، ولأن الله عالم بمن أخلص العمل، واتقى عقوبة الله. قال ابن عباس: ما من أحد من هذه الأمة أزكّيه غير رسول الله ﷺ.

توبيخ بعض كبار المشركين الأغنياء لإعراضه عن اتباع الحق وتذكيره بما في صحف إبراهيم وموسى

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (النشآءة).

﴿وَثَمُودَا۟﴾: قرئ:

١- (وثمودَ) وهي قراءة عاصم، وحمزة.

٢- (وثموداً) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ حذف مفعولي ﴿يَرَىٰٓ﴾ وتقديره: فهو يراه حاضراً. ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا: إما منقطعة بمعنى (بل والهمزة) أو متصلة بمعنى (أي) لأنها معادلة للهمزة في قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ﴾

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ في موضع جر على البدل من: (ما) في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ﴾ أو في موضع رفع على تقدير مبتدأ محذوف تقديره: ذلك ألا تزر، وتقديره: أنه لا تزر. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ﴾ فتكون (أنْ) مخففة من الثقيلة.

﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ نائب الفاعل ضمير مستتر فيه، ومن قرأ بالفتح (يَرى) كان التقدير فيه: سوف يراه، فحذف الهاء، كما يقال: إن زيداً ضربت، أي ضربته.

﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ الهاء في ﴿يُجْزَاهُ﴾ في موضع نصب مفعول به، و﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ منصوب على المصدر.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ أراد: أنه إلى ربك، وهو معطوف على﴿أَلَّا تَزِرُ﴾ وكل ما بعده من قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [الآيات: ٤٣/ ٥٠] معطوف على﴿أَلَّا تَزِرُ﴾.

﴿وَثَمُودَا فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ ﴿وَثَمُودَا﴾ منصوب بفعل دال عليه .﴿فَمَا أَبْقَىٰ﴾ تقديره: وأهلك ثموداً، فما أبقى. وإنما لم يجز نصبه بـ ﴿أَبْقَىٰ﴾ لأن ما بعد النفي لا يعمل فيما قبله.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ مفعول به منصوب لـ ﴿أَهْوَىٰ﴾.

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ أي ما غشاه إياها، فحذف مفعولي (غشّى) والأول ضمير ﴿مَا﴾ والثاني ضمير﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾.

البلاغة:

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾﴾ الإبهام للتعظيم والتهويل.

بين ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ وبين ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ وبين ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ ما يسمى بالطباق.

بين ﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ جناس ناقص لتغير بعض الحروف.

المفردات اللغوية:

﴿تَوَلَّىٰ﴾ أعرض عن اتباع الحق والثبات عليه. ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾ من المال، ﴿وَأَكْدَىٰ﴾ قطع العطاء ولم يتممه، يقال: حفر فأكدى، أي بلغ كُدْية أي أرض صلبة كالصخرة تمنع حافر البئر من مواصلة العمل وإتمامه. ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ يعلم أن غيره يتحمل عنه عذاب الآخرة، وهو الوليد ابن المغيرة أو غيره كما سيأتي. وجملة ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ﴾ المفعول الثاني لرأيت بمعنى: أخبرني.

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ﴾ أي بل لم يخبر. ﴿صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أسفار التوراة، إنما قدم تعالى ذكر صحف موسى؛ لأنها أقرب وأشهر وأكثر. ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي وصحف إبراهيم: وهي ما نزل عليه من الشرائع ﴿وَفَّىٰٓ﴾ أتم ما أمر به، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٤]. ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي لا تحمل نفس حِمْل أي ذنب غيرها. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي وأنه ليس لإنسان إلا ما سعى من خير، فليس له من سعي غيره للخير شيء. ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ يبصر في الآخرة، ويراه أهل القيامة تشريفاً للمحسن، وتوبيخاً للمسيء.

﴿يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي يجزى الإنسان سعيه بالجزاء الأكمل أو الأوفر. ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ المرجع والمصير والنهاية بعد الموت يوم القيامة. ﴿أَضْحَكَ﴾ أي من شاء أفرحه. ﴿وَأَبْكَىٰ﴾ ومن شاء أحزنه. ﴿أَمَاتَ﴾ في الدنيا. ﴿وَأَحْيَا﴾ للبعث. ﴿خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ الصنفين. ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ من مني إذا تدفق وصب في الرحم، فقوله: تُمنى أي تُصبّ في الرحم. ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ الخلقة الأخرى للبعث بعد الخلقة الأولى، بإعادة الأرواح في الأجساد حين البعث.

﴿أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ أعطى المال من شاء، وأفقر من شاء .﴿رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ الكوكب المضيء خلف الجوزاء، يسمى العبور، كانت طائفة من العرب تعبده في الجاهلية .﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ القدماء وهم قوم عاد وقوم هود: وهم ولد عاد بن إرم بن عوف بن سام بن نوح، وعاد الأخرى: من ولد عاد الأولى، وهم ثمود وقوم صالح كما قال المبرد .﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ ثمود: قوم صالح، فما أبقى أحداً منهم، و(ثَمُود) بلا صرف: اسم للقبيلة، وهو معطوف على ﴿عَادًا﴾ وبالصرف: اسم للأب .﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي قبل عاد وثمود أهلكناهم .﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ من عاد وثمود؛ لأنهم مع عدم إيمانهم بنوح عليه السلام على مدى ألف سنة إلا خمسين عاماً كانوا يؤذونه ويضربونه .﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ قرى قوم لوط، سميت بذلك؛ لأنها ائتفكت بأهلها، أي انقلبت بهم، ومنه الإفك؛ لأنه قلب الحق .﴿أَهْوَىٰ﴾ أسقطها وقلبها في الأرض بعد أن رفعها إلى السماء، بأمر جبريل بذلك.﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ غطّاها بالحجارة وغيرها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ ما غطّى، أبهم ذلك تهويلاً وتعميماً لما أصابهم.

سبب النزول:

سبب نزول الآيات (٣٣ - ٤١):

قال مجاهد وابن زيد فيما أخرجه الواحدي وابن جرير: نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان قد اتبع رسول الله ﷺ على دينه، فعيَّره بعض المشركين، وقال: لِمَ تركتَ دين الأشياخ وضللتهم، وزعمت أنهم في النار؟ قال: إني خشيت عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئاً من ماله، ورجع إلى شِرْكه، أن يتحمل عنه عذاب الله سبحانه وتعالى، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل ومنعه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

وقال السدي: نزلت في العاص بن وائل السهمي كان ربما يوافق النبي ﷺ في بعض الأمور.

وقال محمد بن كعب القرظيّ: نزلت في أبي جهل بن هشام، قال: والله ما يأمر محمد إلا بمكارم الأخلاق؛ فذلك قوله تعالى ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة: أن النبي ﷺ خرج في غزوة، فجاء رجل يريد أن يحمل- أي يركب-، فلم يجد ما يخرج عليه، فلقي صديقاً له، فقال: أعطني شيئاً، فقال: أعطيك بَكْري هذا على أن تتحمل ذنوبي، فقال له: نعم، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الآيات.

سبب نزول الآية (٤٣):

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾: أخرج الواحدي عن عائشة قالت: مرّ رسول الله ﷺ بقوم يضحكون، فقال: لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً، فنزل عليه جبريل عليه السلام بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ فرجع إليهم فقال: ما خطوت أربعين خطوة حتى أتاني جبريل عليه السلام، فقال: ائت هؤلاء، وقل لهم: إن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله سبحانه سعة علمه وقدرته الفائقة على إيقاع الجزاء يوم القيامة بأهل الإساءة والإحسان، وبيَّن جهل المشركين في عبادة الأصنام ذكر على سبيل التعجيب والتقريع نبأ واحد معين منهم بسوء فعله، أعرض عن الإيمان والدخول في الإسلام، بالرغم من سماع ما أنزل، وظن أن غيره يتحمل عنه أوزاره، مع أن جميع الشرائع كشريعة إبراهيم وموسى تقرر مبدأ المسؤولية الشخصية أو الفردية، وأن لا تتحمل نفس آثمة وزر أو ذنب نفس أخرى، وأن ليس لكل إنسان إلا سعيه بالخير.

التفسير والبيان:

ذمّ الله تعالى ووبخ كل من تولى عن طاعة الله، فقال:

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾[1] أي أعلمت وأخبرت شأن الذي تولى عن الخير، وأعرض عن اتباع الحق، وأعطى قليلاً من المال، ثم أحجم عن العطاء في سبيل أن يتحمل عنه غيره وزره، أو كما قال ابن عباس: أطاع قليلاً ثم قطعه، أفعند هذا الكافر الذي آثر الكفر على الإيمان علم ما غاب عنه من أمر العذاب، فهو يعلم أن صاحبه يتحمل عنه أوزاره يوم القيامة؟ ليس الأمر كما يظن.

وهذا كقوله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾ [القيامة: ٧٥/ ٣١-٣٢] ثم ذكّره تعالى بما أجمعت عليه الشرائع من أن المسؤولية شخصية، فقال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ أي بل أإنه لم يُخْبَر بما جاء في أسفار التوراة، وصحف إبراهيمَ الذي تمم وأكمل ما أمر به، وأدى الرسالة على الوجه الأكمل، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: ٢/ ١٢٤] فإنه قام بجميع الأوامر، وترك جميع النواهي، وبلّغ الرسالة على التمام والكمال، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله.

واكتفى بذكر صحف إبراهيم وموسى؛ لأن المشركين يدّعون أنهم على ملة إبراهيم، وأهل الكتاب يتمسكون بالتوراة، وإنما قدم هنا صحف موسى خلافاً للترتيب الزمني، ولما جاء في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [٨٧/ ١٨-١٩]؛ لأن صحف إبراهيم كانت بعيدة، وكانت المواعظ فيها غير مشهورة فيما بينهم كصحف موسى التي هي أقرب وأشهر وأكثر.

---

(١) ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾: معناها المراد: أخبرني، ومفعولها الأول: ﴿ٱلَّذِى﴾، والثاني: جملة الاستفهام.

ثم أوضح الله تعالى ما تقرر في صحف موسى وإبراهيم، فقال:

١ً- ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ أي لا تؤخذ نفس بذنب غيرها، فكل نفس ارتكبت جرماً من كفر أو أي ذنب، فعليها وحدها وزرها، لا يحمله عنها أحد، وهذا مبدأ المسؤولية الفردية أو الشخصية أو لا يؤاخذ امرؤ بذنب غيره، كما جاء في آيات أخرى منها: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر: ٣٥/١٨].

٢ً- ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ أي ليس له إلا أجر سعيه وجزاء عمله، فلا يستحق أجراً عن عمل لم يعمله، وهذا المبدأ وهو ألا يثاب أو يكافأ امرؤ إلا بعمله يقابل المبدأ السابق، فكما لا يتحمل أحد مسؤولية أو وزر غيره، كذلك ليس له من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه. والمراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة وكل عمل، فالخير مثاب عليه، والشر معاقب به، وعبر بصيغة الماضي في قوله: ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ لزيادة الحث على العمل الصالح.

ومن هذه الآية الكريمة استنبط الشافعي رحمه الله أن القراءة لا يصل إهداء ثوابها إلى الموتى؛ لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم. والمعتمد في المذاهب الأربعة أن ثواب القراءة يصل إلى الأموات؛ لأنه هبة ودعاء بالقرآن الذي تتنزل الرحمات عند تلاوته، وقد ثبت في السنة النبوية وصول الدعاء والصدقة للميت، وذلك مجمع عليه، وروى مسلم في صحيحه والبخاري في الأدب وأصحاب السنن إلا ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنْتَفع به، أو ولد صالح يدعو له» . قال القرطبي: وكثير من الأحاديث يدل على هذا القول، وأن المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره[١].

(١) تفسير القرطبي : ١١٤/١٧ .

٣- ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ أي إن عمله محفوظ يجده في ميزانه لا يضيع منه شيء، وسيعرض عليه وعلى أهل المحشر يوم القيامة إشادةً به ولوماً للمقصرين، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٥] أي فيخبركم به ويجزيكم عليه أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

٤- ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ أي يجزى الإنسان سعيه، ويجازى عليه جزاء كاملاً غير منقوص، فيجازى بالسيئة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف.

٥- ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾(١) أي إن المرجع والمصير يوم القيامة إلى الله سبحانه، لا إلى غيره، فيجازي الخلائق بأعمالهم على الصغير والكبير، وهذا ترهيب وتهديد للمسيء، وترغيب وحث للمحسن، يستدعي التأمل في عودة العباد إلى الله يوم المعاد، وتعرضهم للجزاء على أعمالهم، كما جاء في آيات أخرى مثل: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٨٣] . وروى ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قام فينا معاذ بن جَبَل فقال: يابني أود، إني رسول رسول الله ﷺ إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار.

٦-﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي أضحك من شاء في الدنيا بأن سرَّه، وأبكى من شاء بأن غمَّه، وخلق في عباده الضحك والبكاء والفرح والحزن وسببهما، وهما مختلفان، والمراد أن الله خلق ما يسر من الأعمال الصالحة، وما يسوء ويحزن من الأعمال السيئة. وهذا دليل القدرة الإلهية. وإنما خص بالذكر هذان الوصفان؛ لأنهما أمران لا يعللان، فلا يقدر أحد تعليل خاصية الضحك والبكاء في الإنسان دون الحيوان.

---

(١) (أنَّ) هذه: تحتمل الفتح والكسر.

٧ً- ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾﴾ أي وأنه تعالى خلق الموت والحياة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٦٧/ ٢] فهو سبحانه قادر على الإماتة وعلى الحياة والإعادة.

٨ً- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ أي والله هو الذي خلق الصنفين: الذكر والأنثى من كل إنسان أو حيوان، من مني أو ماء قليل يصب في الرحم، ويتدفق فيه، ثم ينفخ الله الروح في النطفة، فتصير بنية إنسانية،أو حيوانية، وهذا من جملة المتضادات التي ترد على النطفة، فبعضها يخلق ذكراً، وبعضها يخلق أنثى.

٩ً- ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ أي إعادة الأرواح إلى الأجساد عند البعث، فكما خلق الله الإنسان من البداءة، هو قادر على الإعادة، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة. فهذا إشارة إلى الحشر.

١٠ً- ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ أي وأنه وحده الذي أغنى من يشاء من عباده، وأفقر من يشاء منهم، حسبما يرى من الحكمة والمصلحة للخلائق، فالإغناء والإفقار أو الإعطاء من المال والمنع منه، كلاهما بيد الله تعالى وفي سلطانه وتصرفه.

١١ً- ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ أي وأنه تعالى رب هذا النجم الوقاد المضيء الذي يطلع خلف الجوزاء في شدة الحر، ويقال له: مرزم الجوزاء أو العَبُور، كانت خُزاعة وحِمْيَر تعبده. وفي النجوم شِعْريان: إحداهما يمانية والأخرى شامية، والظاهر - كما قال الرازي- أن المراد اليمانية؛ لأنهم كانوا يعبدونها؛ لذا خصت بالذكر. وأول من سن عبادتها أبو كَبْشة من أشراف العرب، وكانت قريش تطلق على الرسولﷺ (ابن أبي كبشة) تشبيهاً له به، لمخالفته دينهم، كما خالفهم أبو كبشة، وكان من أجداد النبي ﷺ من جهة أمه. قال أبو سفيان يوم فتح مكة حين شاهد عساكر المسلمين تمرّ عليه: لقد أَمِر أَمْر ابنِ أبي كَبْشة، وقال مشركو قريش: ما لقينا من ابن أبي كبشة!!

١٢- ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾ أي وأنه تعالى أفنى قوم هود عليه السلام، وهم عاد القدماء، وهي أول أمة أهلكت بعد نوح، ويقال لهم: عاد بن إرم بن سام بن نوح، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨﴾ [الفجر: ٨٩/٦-٨] وكانوا من أشد الناس وأقواهم وأعتاهم على الله ورسوله، فأهلكهم الله ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ، سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ﴾ [الحاقة: ٦٩/٦-٧] . قال المبرد: وعاد الأخرى: هي ثمود قوم صالح.

١٣- ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ٥١﴾ أي وأهلك ثموداً كما أهلك عاداً، ودمرهم وأخذهم بذنوبهم فما أبقى أحداً من الفريقين، كما قال تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة: ٦٩/٨] .

١٤- ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء الفريقين: عاد وثمود، إنهم كانوا أظلم من عاد وثمود، وأطغى منهم، وأشد تمرداً وتجاوزاً للحد من الذين أتوا من بعدهم؛ لأنهم بدؤوا بالظلم، والبادئ أظلم: «ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها»[(١)] وأما كونهم أطغى فلأنهم سمعوا المواعظ أمداً طويلاً، وعتوا على الله بالمعاصي، مع طول مدة دعوة نوح لهم، أصروا على الكفر واستكبروا استكباراً، مما ألجاه إلى الدعاء عليهم بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٧١/٢٦] .

١٥- ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ٥٤﴾أي وأسقط وقلب مدائن قوم لوط، بجعل عاليها سافلها، أهواها جبريل بعد أن رفعها، ثم أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود، فغطّاها ما غطّاها من الحجارة

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم عن ابن عمر وجرير بن عبد الله.

والعذاب على اختلاف أنواعه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٧٣] . وسميت المؤتفكة؛ لأنها ائتفكت أي انقلبت بهم، وصار عاليها سافلها.

وهذا الأسلوب من الإبهام فيه تهويل وتفخيم للأمر الذي غشاها، وتعميم للذي أصابهم. قال قتادة: كان في مدائن لوط أربعة آلاف ألف إنسان (أي ١٦٠٠٠ ألفاً) فانضرم عليهم الوادي شيئاً من نار ونفط وقطران كفم الأتون.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- خصص الله سبحانه واحداً من المشركين عينه بسوء فعله للعبرة والعظة واستهجان ما فعل من معاوضة غيره في الدنيا بمال قليل، أعطى اليسير منه، ثم منع الباقي، على أن يتحمل عنه آثامه يوم القيامة.

٢ً- إن نقطة الضعف الأساسية عند هذا، عدا سذاجة عقله الجاهلي البدائي، هو جهله بالغيب، لذا أنكر الله تعالى عليه مبيِّناً: أعنده علم ما غاب عنه من أمر العذاب؟!

٣ً- ذكَّره الله تعالى بما جاء في صحف إبراهيم وموسى من مبادئ عشرة هي:

الأول- المسؤولية الفردية أو ألا يسأل أحد عن ذنب غيره، وهو مبدأ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

الثاني- كل إنسان وعمله، وكل امرئ وعطاؤه، ولا ثواب إلا بالعمل والنية الصالحة.

الثالث- العمل ذو أثر دائم، محفوظ في ميزان العامل، لا يضيع منه شيء، خيراً كان أو شراً.

الرابع- يجازى كل إنسان على عمله وسعيه جزاء أوفر، السيئة بمثلها، والحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف.

الخامس- إن مصير أو مردّ جميع الخلائق إلى الله عز وجل، فيعاقب المسيء، ويثيب المحسن.

السادس- خلق الله تعالى الضحك والبكاء، والسرور والحزن، وإن الله تعالى خصّ الإنسان بالضحك والبكاء من بين سائر الحيوان، وليس في سائر الحيوان من يضحك ويبكي غير الإنسان.

السابع- إن الله تعالى خلق الموت والحياة وأسبابهما.

الثامن- خلق الله سبحانه الصنفين المتضادين: الذكر والأنثى من شيء واحد هو النطفة: وهي الماء القليل.

التاسع- الله تعالى هو القادر على إعادة الأرواح إلى الأجساد للبعث، وهذا هو الحشر.

العاشر- أوجد الله تعالى التفاوت في الأرزاق بين الناس، فأغنى من شاء وأفقر من شاء.

والمبادئ الخمسة الأخيرة دالة على قدرة الله عز وجل، وقد أكَّدها تعالى بإيراد أمثلة أو نماذج خمسة أخرى دالة على القدرة وهي:

الأول- الله سبحانه هو رب الشِّعرى: وهو الكوكب المضيء الذي يطلع بعد الجوزاء في شدة الحر، وهما الشعريان: العَبُور التي في الجوزاء، والشِّعرى الغُمَيصَاء التي في الذراع، وتزعم العرب أنهما أختا سُهَيل. وإنما ذكر أنه رب الشعرى، وإن كان رباً لغيره من سائر النجوم؛ لأن العرب كانت تعبده وهم حِمْيَر وخُزاعة.

الثاني- أهلك الله تعالى قوم عاد العتاة الأشداء الجبارين بريح صرصر عاتية.

الثالث- أهلك الله عزّ وجل أيضاً ثمود قوم صالح بالصيحة لتمردهم وبغيهم.

الرابع- أهلك الله سبحانه قوم نوح من قبل عاد وثمود، الذين كانوا أظلم وأطغى؛ لطول مدة نوح فيهم، حتى كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه، فينطلق إلى نوح عليه السلام، فيقول: احذر هذا، فإنه كذّاب، وإن أبي قد مشى بي إلى هذا، وقال لي مثل ما قلت لك، فيموت الكبير على الكفر، وينشأ الصغير على وصية أبيه.

الخامس- دمَّر الله مدائن قوم لوط عليه السلام، ائتفكت بهم، أي انقلبت وصار عاليها سافلها، وألبسها ما ألبسها من الحجارة، قال الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: ١٥/ ٧٤].

الاتعاظ بالقرآن وبرسالة الرسول والتحذير من أهوال القيامة

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾

الإعراب:

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ ﴿كَاشِفَةٌ﴾: إما أن الهاء فيه للمبالغة، كعلامة ونسَّابة. أو تكون كاشفة بمعنى كشف، كخائنة بمعنى خيانة.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩﴾ قرئ بإدغام الثاء في التاء لقربهما في المخرج، وأنهما مهموسان من حروف طرف اللسان، وأدغمت الثاء في التاء؛ لأنها أزيد صوتاً، والأنقص صوتاً يدغم فيما هو أزيد صوتاً.

البلاغة:

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠﴾ بينهما طباق.

﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧﴾ جناس الاشتقاق.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١﴾ مراعاة الفواصل أو ما يسمى بالسجع.

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ عطف العام على الخاص.

المفردات اللغوية:

﴿ءَالَآءِ﴾ نِعَم، جمع إلًى (بالفتح والكسر) وإلْيٌ. ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكك وتمتري ومعنى الآية: بأي أنعم الله الدالة على وحدانيته وقدرته تتشكك أيها الإنسان؟ والخطاب للإنسان، فالخطاب عام، وهو ابتداء كلام، كأنه يقول: بأَي النعم أيها السامع تشكّ أو تجادل؟

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝٥٦﴾ أي هذا القرآن إنذار من جنس الإنذارات المتقدمة، أو هذا الرسول نذير من جنس المنذرين الأولين، أي إنه رسول كالرسل قبله، أرسل إليكم كما أرسلوا إلى أقوامهم.

﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧﴾ قربت القيامة أو دنت الساعة، كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ٥٤/١] . ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ أي ليس لها نفس من غير الله قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله، أي لا يكشفها ويظهرها إلا هو، كقوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ٧/١٨٧] إذ

لا يطلع عليها سواه، فقوله: ﴿كَاشِفَةٌ﴾ أي نفس تكشف وقت وقوعها وتبيِّنه؛ لأنها من المغيبات. والتاء للتأنيث، لتأنيث الموصوف المحذوف، أي نفس قادرة على كشفها إذا وقعت، ولكنه سبحانه لا يكشفها.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ القرآن .﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً وتكذيباً .﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاء .﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حزناً على ما فرطتم، وعند سماع وعد الله ووعيده. ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ لاهون وغافلون ومعرضون عما يطلب منكم .﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ الذي خلقكم، أي إذا اعترفتم لله بالعبودية، فاخضعوا له .﴿وَٱعْبُدُوا۟﴾ اعبدوه دون الآلهة المزعومة كالأصنام، وأقيموا وظائف العبادة.

المناسبة:

لمّا عدَّ الله تعالى نعمه على الإنسان من خلقه وإغنائه، ثم ذكر أمثلة على قدرته بإهلاك من كفر بتلك النعم، وأن الإحياء والإماتة بيد الله، وبَّخ الإنسان على جحد شيء من نعم الله، فيصيبه ما أصاب الشاكّين المتمارين المجادلين بالباطل. ثم ذكَّره بإنذار القرآن، والرسول. وحين فرغ من بيان التوحيد والرسالة، ختم السورة ببيان اقتراب الحشر: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ وحذَّر من إنكار القرآن وتكذيبه، ومن التفريط بما جاء فيه، والغفلة والإعراض عن مواعظه وحِكَمه، ودعا إلى الانقياد التام لله عز وجل، وعبادته وحده لا شريك له بإتقان وإخلاص.

التفسير والبيان:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ أي فبأي نِعَم ربك أيها الإنسان المكذب تتشكك وتمتري؟ مثل قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/١٣] . وهذا ابتداء كلام والخطاب عام لكل إنسان. والمراد بالنعم ما عدده سابقاً من الخلق والإغناء وخلق السماء والأرض وما فيهما من نعم مخلوقة للإنسان.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾﴾ أي هذا القرآن أو الرسول محمد ﷺ نذير مخوف محذِّر من جملة النذر المتقدمة، فالقرآن منذر كالكتب السماوية السابقة، والنبي ﷺ رسول إليكم كالرسل المتقدمين قبله، فإنه أنذركم كما أنذروا أقوامهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩/٤٦] وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦/٣٤] وفي الحديث الثابت: «أنا النذير العُرْيان»[1] أي الذي أعجله شدة ما عاين من الشر عن أن يلبَس شيئاً، وبادر إلى إنذار قومه، وجاءهم عرياناً مسرعاً.

﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ أي قربت ودنت الساعة الموصوفة بالقرب في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١/٥٤] وقوله: ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ٥٦/ ١] وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١/٢١] وقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧/٤٢] وفيه تنبيه على أن قرب الساعة يزداد كل يوم، وأنها تكاد تقوم، فالآية إشارة إلى القيامة لإثبات الأصول الثلاثة على الترتيب: الأصل الأول وهو الله ووحدانيته بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾، ثم الرسول والرسالة بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ثم الحشر والقيامة بقوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾. وجاء في الحديث الذي رواه أحمد عن سهل بن سعد: «مثلي ومثل الساعة كهاتين » وفرّق بين أصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام. وروى أحمد أيضاً والشيخان عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعِثتُ أنا والساعةُ هكذا» وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ أي ليس هناك على الإطلاق نفس قادرة على كشفها وإظهارها والإعلام بها إلا الله تعالى؛ لأنها من أخفى

---

(١) شبه النبي (نفسه بهذا الرجل، قال ابن السِّكيْت : هو رجل من خثعم حمل عليه يوم ذي الخلصة عوف بن عامر، فقطع يده ويد امرأته (النهاية لابن الأثير: ٢٢٥/٣) .

المغيبات، فاستعدوا لها قبل مجيئها بغتة وأنتم لا تشعرون، فهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣١/ ٣٤] وقوله سبحانه: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٨٧] .

أو: ليس لها نفس قادرة على كشفها إذا غشيت الخلق بشدائدها وأهوالها غير الله، والأولى أن يقال: ليس لها من دون الله من يؤخرها أو يقدّمها، كما ذكر القرطبي.

ثم أنكر الله على المشركين وأمثالهم ووبخهم لإنكار القرآن وتكذيبه، فقال: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي كيف تعجبون من أن يكون القرآن صحيحاً، تكذيباً منكم، وتضحكون منه استهزاء، وتسخرون من آياته، مع كونه غير محل لذاك، ولا تبكون كما يفعل الموقنون، وأنتم لاهون عنه، غافلون معرضون، أو مستكبرون عنه؟ فهذا استفهام توبيخ.

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ أي اسجدوا أيها المؤمنون شكراً على الهداية واخضعوا له، واشتغلوا بالعبادة، وأخلصوا ووحدوا، فإنه تعالى المستحق لذلك منكم.

وقد ورد أن النبي ﷺ سجد عند تلاوة هذه الآية، وسجد معه المسلمون والكفار، أخرج البخاري عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس. وأخرج الإمام أحمد والنسائي عن جعفر بن المطلب بن أبي وداعة عن أبيه قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة سورة النجم، فسجد وسجد من عنده، فرفعت رأسي، فأبيت أن أسجد- ولم يكن أسلم يومئذ المُطّلب- فكان بعد ذلك لا يسمع أحداً يقرؤها إلا سجد معه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١- يستنكر الحق سبحانه على الإنسان المكذِّب في أي زمان كان تشككه ومماراته وجداله في آلاء الله ونعمه العديدة، بعد أن أبان القرآن الكريم بعضاً منها كالخلق والرزق والإغناء والصحة وتسخير الكون كله لمصالح الإنسان، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٩].

٢- إن القرآن العظيم نذير بما أنذرت به الكتب الأولى، وكذلك محمد ﷺ نذير بالحق الذي أنذر به الأنبياء قبله، فإن أطاعه الناس أفلحوا ونجوا. وهذا مطابق أيضاً لما في صحف إبراهيم وموسى وغيرهما.

٣- لقد قربت الساعة ودنت القيامة: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ يعني القيامة، سماها آزفة لدنوّها من الناس، وقربها منهم، ليستعدوا لها؛ لأن كل ما هو آتٍ قريب.

وليس للآزفة أو القيامة من دون الله من يؤخرها أو يقدّمها.

٤- وبّخ الله المشركين تعجبهم تكذيباً بالقرآن، وضحكهم استهزاء بآياته، وعدم بكائهم انزجاراً وخوفاً من الوعيد، ولهوهم وإعراضهم عن كتاب الله تعالى.

روي أن النبي ﷺ ما رئي بعد نزول هذه الآية ضاحكاً إلا تبسّماً، وقال أبو هريرة فيما ذكره القرطبي: لما نزلت: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قال أهل الصُّفَّة: «إنا لله وإنا إليه راجعون» ثم بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم، فلما سمع النبي ﷺ بكاءهم، بكى معهم، فبكينا لبكائه؛ فقال النبي ﷺ: «لا يَلِج النار من بكى من خشية الله، ولا يدخل الجنة مُصِرٌّ على معصية الله، ولو

لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيغفر لهم ويرحمهم، إنه هو الغفور الرحيم» .

وقال أبو حازم: نزل جبريل على النبي ﷺ، وعنده رجل يبكي، فقال له: من هذا؟ قال: هذا فلان؛ فقال جبريل: إنا نزِن أعمال بني آدم كلها إلا البكاء، فإن الله تعالى ليطفئ بالدمعة الواحدة بحوراً من جهنم.

٥ً- أمر الله بالسجود له والخضوع لجلاله وعظمته شكراً على الهداية، وبالاشتغال بالعبادة. قال ابن مسعود، وبه أخذ أبو حنيفة والشافعي: المراد بقوله: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ سجود تلاوة القرآن. وقد تقدم أول السورة وفي تفسيرها من حديث ابن عباس أن النبيﷺ سجد فيها وسجد معه المشركون. وقال ابن عمر: المراد سجود الفرض في الصلاة، أي إنه كان لا يراها من عزائم السجود، وبه قال مالك، قال القرطبي: والأول أصح.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القمر

مكية، وهي خمس وخمسون آية

تسميتها:

سميت سورة القمر؛ لافتتاحها بالخبر عن انشقاق القمر، معجزة لنبينا ﷺ.

مناسبتها لما قبلها:

تتضح مناسبة هذه السورة لما قبلها من نواح ثلاث هي:

١- اتفاق خاتمة السورة السابقة وفاتحة هذه السورة حول إعلان قرب القيامة، فقال تعالى في سورة (النجم): ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝٥٧﴾ وقال في هذه السورة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ إلا أنه ذكر ههنا دليلاً على الاقتراب، وهو قوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾. جاء في الصحيحين عن أنس: «أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ آية، فانشق القمر مرتين».

٢- تناسب التسمية وحسن التناسق، لما بين النجم والقمر من تقارب، كما في توالي سورة الشمس، والليل، والضحى، ومن قبلها سورة الفجر.

٣- فصلت هذه السورة أحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم بسب تكذيب رسلهم في السورة المتقدمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟

﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣﴾. وهذا يشابه الأعراف بعد الأنعام، والشعراء بعد الفرقان، والصافات بعد يس.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسائر السور المكية لتقرير أصول العقيدة الإسلامية، بدءاً من إنزال القرآن بالوحي وتهديد المكذبين بآياته، وانتهاءً بالجزاء الحتمي يوم القيامة ومشاهد عذاب الكفار، وأنواع ثواب المتقين وتكريمهم.

أخبرت السورة أولاً بقرب وقت القيامة ودليل ذلك وهو انشقاق القمر الذي هو أحد المعجزات الكبرى للنبي ﷺ، وموقف المشركين من تلك المعجزة ووصفها بأنها سحر مفترى، وغفلتهم عما في القرآن من الزواجر.

وتلا ذلك أمر الرسول ﷺ بالإعراض عنهم، وإنذارهم بحشرهم أذلة مسرعين كالجراد المنتشر، بعبارات تهز المشاعر، وتثير المخاوف، وتملأ النفس رعباً وفزعاً من أهوال القيامة.

ثم أنذرت كفار مكة بعذاب مشابه لعذاب الأمم السابقة كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون جزاء على تكذيبهم الرسل، وأفردت كل قصة عن الأخرى، وعقبتها بعبارة مخيفة تدعو للعجب وهي: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝١٦﴾ وقرنها بقوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾.

ثم وبخت مشركي قريش على غفلتهم عن هذه النذر، وحذرتهم مصرعاً مماثلاً لمصارع أولئك الأقوام، وهو القتل والهزيمة في الدنيا، وعذاب الآخرة الأدهى والأمَرّ، الذي يصاحبه الذل والمهانة بالسحب على وجههم في النار، فهم في ضلال وسُعُر.

وختمت السورة ببيان ظاهرة التوازن في خلق الأشياء، وسرعة نفاذ أمر

الله ومشيئته كلمح البصر، وضرورة العظة والتذكر بهلاك الطغاة، ورصد جميع أعمال البشر في سجلات محفوظة، وتبشيرالمتقين بالجنات والكرامات عند ربهم المليك المقتدر.

والخلاصة: إن السورة حافلة بالوعد والوعيد، والعظات والعبر بأخبار الماضين، وتهديد الكفار بعقاب مماثل، وإكرام المتقين في جنات ونعيم.

فضل السورة:

تقدم في فضل سورة ﴿قٓ﴾ إيراد حديث أبي واقد الليثي فيما يرويه الإمام أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة: «أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر» وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار كالجمع والعيد؛ لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة.

انشقاق القمر وموقف المشركين منه

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿نُّكُرٍ﴾:

وقرأ ابن كثير (نُكْر).

﴿خُشَّعًا﴾: قرئ:

١- (خُشَّعاً) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وابن عامر، وعاصم.

٢- (خاشعاً) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أصله (مزتجر) بوزن مفتعل من الزجر، وإنما أبدلت التاء دالاً، لأن التاء مهموسة والزاي مجهورة، فأبدلوا من التاء دالاً، لتوافق الزاي في الجهر، وهو اسم مصدر أو اسم مكان. و﴿مَا﴾ اسم موصول أو نكرة موصوفة. والجار والمجرور: ﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ متعلق بمحذوف حال مقدم من ﴿مَا﴾. ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾: ﴿حِكْمَةٌۢ﴾: إما بدل مرفوع من ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ و﴿مَا﴾: مرفوعة فاعل: (جاء)، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هي حكمة بالغة. و(ما) في قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾: إما استفهامية استفهام إنكاري، في موضع نصب بـ ﴿تُغْنِ﴾ أي، أيّ شيء تغني النذر، أو نافية على تقدير حذف مفعول ﴿تُغْنِ﴾ وتقديره: فما تغني النذر شيئاً. وحذفت ياء (تغني) وواو (يدعو) اتباعاً لخط المصحف؛ لأنه كتب على لفظ الوصل، لا على لفظ الوقف. ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ ناصب يوم: يخرجون الآتي بعده.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ ﴿خُشَّعًا﴾: حال منصوب من ضمير ﴿عَنْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ﴾ حال منصوب من ضمير ﴿عَنْهُمْ﴾.

البلاغة:

﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية:

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ قربت القيامة ودنت .﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ روى الشيخان أن الكفار سألوا رسول الله ﷺ آية، فانشق القمر، أي انفلق فلقتين على أبي قُبيس وقُعَيْقَعَان .﴿وَإِن يَرَوۡاْ﴾ أي كفار قريش .﴿ءَايَةً﴾ معجزة له ﷺ دالة على نبوته .﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ﴾ أي هذا سحر .﴿مُّسۡتَمِرٌّ﴾ محكم قوي، من المِرَّة وهي القوة، أو دائم مطرد .﴿وَكَذَّبُواْ﴾ النبي ﷺ .﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ ما زيَّن لهم الشيطان من الوساوس ورد الحق بعد ظهوره .﴿وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ﴾ أي وكل أمر من الخير والشر منته إلى غاية من خذلان أو نصر في الدنيا، وشقاوة أو سعادة في الآخرة، وبعبارة أخرى: كل أمر لا بدّ أن يصير إلى غاية يستقر عليها، وقرئ بفتح القاف .﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي ذو استقرار، أو له زمان استقرار أو موضع استقرار، فهو إما مصدر أو ظرف زمان أو مكان.

﴿ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ أخبار الأمم الماضية وما أصابهم من عذاب أو إهلاك لتكذيبهم الرسل .﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ ما يزجرهم ويكفُّهم، يقال: زجرته وازدجرته: نهيته بغلظة، أوكففته فانكف .﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ تامة، واصلة غاية الإحكام والإبداع، لا خلل فيها .﴿تُغۡنِ﴾ تفيد وتنفع .﴿ٱلنُّذُرُ﴾ المنذرون، جمع نذير بمعنى منذر، أو الأمور المنذرة لهم، جمع المنذر منه، أو مصدر بمعنى الإنذار.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ أعرض عنهم ولا تجادلهم، لعلمك أن الإنذار لا ينفع ولا يغني فيهم. ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ يوم ينادي إسرافيل. ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ إلى شيء شديد الهول تنكره النفوس لا عهد لها مثله. ﴿خُشَّعًا﴾ أذلة، جمع خاشع، أي ذليل، ويقرأ (خُشَعاً) بضم الخاء وفتح الشين، أي مشددة. ﴿ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ القبور جمع جَدَث.﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ في الكثرة والتموج والانتشار في الأمكنة، والجراد: حيوان طائر معروف يأكل النبات، والمنتشر: الكثير .﴿مُّهۡطِعِينَ﴾ مسرعين، مادّين أعناقهم، منقادين .﴿هَٰذَا يَوۡمٌ

﴿عَسِرٌ﴾ يوم صعب شديد على الكافرين، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٧٤/٩-١٠].

سبب النزول:

نزول الآية (١-٢):

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: أخرج الشيخان والحاكم- واللفظ له- عن ابن مسعود قال: رأيت القمر منشقاً شقين بمكة، قبل مخرج النبي ﷺ، فقالوا: سُحِرَ القمر، فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

وأخرج الترمذي عن أنس قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة، مرتين، فنزلت: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾.

وأخرج محمد بن جرير وأبو داود الطيالسي والبيهقي عن عبد الله بن مسعود قال: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كَبْشة، سحركم، فاسألوا السُّفَّار، فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن اقتراب القيامة وانتهاء الدنيا، فيقول:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي قربت القيامة ودنت، واقترب موعد انقضاء الدنيا، أي قد صارت باعتبار نسبة ما بقي بعد النبوة المحمدية إلى ما مضى من الدنيا قريبة، كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١٦/١] وقال سبحانه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:

١/٢١] . وروى أبو بكر البزّار عن أنس أن رسول الله ﷺ خطب أصحابه، وقد كادت الشمس أن تغرب، فلم يبق منها إلا سَفٌّ يسير، فقال: «والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا، فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيراً».

ويعضده ما أخرجه أحمد والشيخان عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُعثت أنا والساعة هكذا» وأشار بأصبعيه: السبابة والوسطى. وقيل: المراد تحقق وقوع الساعة.

ثم أخبر الله تعالى عن انشقاق القمر معجزة للنبي ﷺ، فقال: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ أي وقد انشق القمر معجزة لرسول الله ﷺ وآية ظاهرة على قرب القيامة وإمكانها. قال ابن كثير: قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ كما ورد ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة، وهذا أمر متفق عليه بين العلماء، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات[١]. وقرب القيامة بالرغم من مضي أكثر من أربعة عشر قرناً باعتبار أن كل ما هو آتٍ قريب.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن أنس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين، حتى رأوا حراءً (جبل مشهور بمكة) بينهما.

وأخرجا أيضاً عن ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» .

وقيل: المراد الإخبار عن أنه سينشق القمر.

ثم أخبر الله تعالى عن موقف الكفار وعنادهم أمام هذه المعجزة، فقال:

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٦١.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ أي وإن ير المشركون علامة على النبوة دليلاً على صدق النّبي ﷺ، يعرضوا عن التصديق والإيمان بها، ويولوا مكذبين بها قائلين: هذا سحر قوي شديد يعلو كل سحر، مأخوذ من قولهم: استمرّ الشيء: إذا قوي واستحكم، وقيل: مستمر، أي دائم مطرد.

وهذا ردّ على المشركين الذين طالبوا بآية، قال المفسرون: لما انشق القمر، قال المشركون: سَحَرنا محمد، فقال الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ يعني انشقاق القمر. ثم أكد تعالى موقفهم هذا بقوله:

﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ أي وكذبوا بالحق إذ جاءهم، واتبعوا ما أملته عليهم أهواؤهم وآراؤهم في أن محمداً ﷺ ساحر أو كاهن، بسبب جهلهم وسخافة عقولهم. ثم هددهم تعالى وأخبرهم بأن كل أمر منته إلى غاية مماثلة له، فالخير يستقر بأهل الخير، والشر يستقر بأهل الشرّ، فقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ استئناف للرد على الكفار في تكذيبهم، ببيان أنه لا فائدة لهم في ذلك؛ لأن كل أمر له غاية حتماً، وسينتهي أمر النّبي ﷺ إلى غاية يظهر فيها أنه على حق، وهم على باطل.

وفي هذا أيضاً إيناس لرسول الله ﷺ وتبشير له بأن النصر سيكون حليفه في الدنيا، وأن له ولأتباعه الدرجة العالية والجنة في الآخرة.

ثم وبخهم الله على إصرارهم على الكفر وعلى ضلالهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤﴾ أي ولقد جاء كفار مكة وأمثالهم من أخبار الأمم المكذبة رسلها، وما حل بهم من العقاب والنكال في هذا القرآن ما فيه كفاية لكفهم عن السوء، وزجر وردع ووعظ عما هم فيه من الشرك والوثنية والعصيان والتمادي في التكذيب.

ووصف الله تعالى تلك الأنباء بقوله:

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾ أي إن هذه الأنباء في القرآن وما تضمنته من عبرة وعظة وهداية حكمة بالغة كاملة قد بلغت منتهى البيان، ليس فيها نقص ولا خلل، ولا تفيد النذر أو الإنذارات شيئاً للمعاندين، فإن عنادهم يصرفهم عن الحق، فتكون (ما) نافية، ويصح أن تكون استفهاماً إنكارياً، بمعنى أي غناء أو شيء تغني النذر أي الإنذارات لهؤلاء الكفار الطغاة؟ فإنك أيها النّبي أتيت بما عليك من الإخبار بالنبوة مقرونة بالآية الباهرة، وأنذرتهم بأحوال الأقدمين، فلم يفدهم شيئاً.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ١٠١].

ثم أمر الله نبيه بالإعراض عن مجادلتهم بعدئذٍ، فقال:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ أي أعرض عنهم يا محمد، ولا تتعب نفسك بدعوتهم، حيث لم يؤثر فيهم الإنذار، وانتظرهم، واذكر يا محمد ذلك اليوم الذي يدعو فيه إسرافيل إلى شيء فظيع تنكره نفوسهم، استعظاماً له، إذ لا عهد لهم بمثله أبداً، وهو موقف الحساب الرهيب وما فيه من البلاء والأهوال.

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ أي يوم يكون أولئك الكفار في ذلك اليوم ذليلة أبصارهم من الذل والهوان، يخرجون من القبور على هذه الحال من الذل، كأنهم لكثرتهم واختلاطهم وانتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر منبثّ في الآفاق، مختلط بعضه ببعض.

وهذا كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ١٠١/ ٤].

﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾ أي مسرعين إلى الداعي، وهو إسرافيل دون تلكؤ ولا تأخر، يقول الكفار: هذا يوم صعب شديد الهول على الكفار، ولكنه ليس بشديد على المؤمنين.

ونظير الآية: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ۝١٠﴾ [المدثر: ٧٤/٩-١٠].

وهذا يدل بطريق المفهوم على أنه يوم هيِّن يسير على المؤمنين.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- اقتراب موعد يوم القيامة، فكل آتٍ قريب، وإن مرور عشرات القرون بعد نزول هذه الآية وأمثالها لا يعد شيئاً في حساب عمر الدنيا الذي قدّر بخمسة مليارات سنة.

٢ً- حدوث انشقاق القمر بمكة في عهد النبي ﷺ معجزة له، قال القرطبي: وقد ثبت بنقل الآحاد العدول أن القمر انشق بمكة، وهو ظاهر التنزيل، ولا يلزم أن يستوي الناس فيها؛ لأنها كانت آية ليلية، وأنها كانت باستدعاء النّبي ﷺ من الله تعالى عند التحدي[1].

وقال الرازي: وأما المؤرخون فتركوه؛ لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها المنجم، وهو لما وقع الأمر قالوا بأنه مثل خسوف القمر، وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر، فتركوا حكايته في تواريخهم، والقرآن أدل دليل، وأقوى مثبت له، وإمكانه لا يشك فيه، وقد أخبر عنه الصادق، فيجب اعتقاد وقوعه[2].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧/١٢٦ .

(٢) تفسير الرازي : ٢٩/٢٨ .

والقائلون بأن الأخبار الواردة بشأن انشقاق القمر أخبار آحاد غير متواترة يرون أن منكر ذلك لا يكفر؛ لعدم التواتر في السنة، وكون الآية ليست نصاً في ذلك.

٣- دلّ قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ﴾ على أن المشركين رأوا انشقاق القمر. قال ابن عباس: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ، وقالوا: إن كنت صادقاً فاشقق لنا القمر فرقتين، نصف على أبي قُبَيْس ونصف على قُعَيْقَعَان؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن فعلتُ تؤمنون؟» قالوا: نعم، وكانت ليلة بدر، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا؛ فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي المشركين: «يافلان، يافلان اشهدوا» . ويؤيده حديث ابن مسعود المتقدم في سبب النزول.

٤- لم يجد المشركون طريقاً لتكذيب آية الانشقاق إلا بأن يصفوه بأنه سحر محكم قوي شديد، ومن الْمِرّة وهي القوة، أو دائم نافذ مطرد، أو ذاهب، من قولهم: مَرَّ الشيء واستمر: إذا ذهب.

٥- لقد كذبوا نبيهم واتبعوا ضلالاتهم واختياراتهم وآراءهم الباطلة في أن انشقاق القمر خسوف عرضي للقمر.

٦- هددهم الله تعالى بأن كل أمر مستقر، أي يستقر بكل عامل عمله، فالخير مستقرّ بأهله في الجنة، والشرّ مستقرّ بأهله في النار، وكل أمر صائر إلى غاية، وأن أمر محمد ﷺ سيصير إلى حدّ يعرف منه حقيقته، وكذلك أمرهم مستقر على حالة البطلان والخذلان.

٧- لقد أعذر من أنذر، وجاء هؤلاء الكفار من أنباء الأمم الخالية ما يزجرهم عن الكفر لو قبلوه، وأخبره الرسول باقتراب القيامة، وأقام الدليل على صدقه، ووعظهم بأحوال القرون الخالية وأهوال الدار الآخرة.

٨ً- الأنباء التي في القرآن الكريم أو القرآن نفسه حكمة بالغة النهاية في الكمال والبيان.

٩ً- إذا كذَّب الكفار وخالفوا وعاندوا وأصروا على كفرهم، فلسيت تغني عنهم النذر، فتكون (ما) نافية في قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾. ويجوز أن تكون استفهاماً بمعنى التوبيخ، أي فأي شيء تغني النذر عنهم، وهم معرضون عنها؟! والنذر بمعنى الإنذار، أو جمع نذير.

١٠ً- إذا كان هذا شأن الكفار، فأعرض يا محمد عن مجادلتهم ومحاجتهم، ولا تسأل عنهم وعن أحوالهم، واذكر يوم يدع الداعي: إسرافيل إلى شيء فظيع عظيم شديد تنكره نفوسهم لشدة أهواله، وهو موقف الحساب ويوم القيامة.

١١ً- في يوم القيامة يخر الكفار من قبورهم ذليلة أبصارهم، كأنهم لكثرتهم واختلاطهم وتموجهم جراد منتشر مبثوث في كل مكان. وقال تعالى في آية أخرى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾ [القارعة: ١٠١/٤] . قال القرطبي: فهما صفتان في وقتين مختلفين:

أحدهما - عند الخروج من القبور، يخرجون فزِعين لا يهتدون أين يتوجهون، فيدخل بعضهم في بعض؛ فهم حينئذٍ كالفراش المبثوث بعضه في بعض، لاجهة يقصدها.

الثاني- فإذا سمعوا المنادي قصدوه، فصاروا كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد له جهة يقصدها.

وهم في سيرهم مهطعون، أي مسرعون، ويقولون: إن يوم القيامة يوم صعب عَسِر؛ لما ينالهم فيه من الشدة.

إعادة قصص الأمم الخالية المكذبة للرسل

- ١ -

قصة قوم نوح عليه السلام

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ السَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾

القراءات:

﴿فَفَتَحْنَآ﴾:

وقرأ ابن عامر (ففتَّحْنا).

﴿عُيُونًا﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان، وحمزة، والكسائي (عِيوناً).

﴿الْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

الإعراب:

﴿فَالْتَقَى الْمَآءُ﴾ أراد بالماء الجنس، ولو لم يرد ذلك لقال: الماءان: ماء السماء، وماء الأرض. والأصل في الماء: مَوَهٌ، لقولهم في تكسيره: أمواه، وفي تصغيره: مُوَيْه؛ لأن التصغير والتكسير يردان الأشياء إلى أصولها،

فتحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، وأبدلت من الهاء همزة، فصار: (ماء).

﴿جَزَآءً﴾ منصوب بفعل مقدر، أي أغرقوا انتصاراً، أو عقاباً.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أصل﴿مُّدَّكِرٍ﴾ مذتكر بوزن مفتعل، من الذكر، إلا أن الذال مجهورة والتاء مهموسة، فأبدلوا من التاء حرفاً من مخرجها يوافق الذال في الجهر، وهي الدال، وأدغمت الذال في الدال لتقاربهما، فصار مدكر. ويجوز أن تدغم الدال في الذال، فيقال: مذّكر، وقد قرئ به.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ (كيف): إما خبر ﴿كَانَ﴾ إن كانت ناقصة، و﴿عَذَابِى﴾: اسمها، وهو مصدر بمعنى الإنذار، أو جمع نذير، كرغيف ورُغُف. ويجوز أن يكون (كيف) في موضع الحال، فـ (كان) بمعنى وقع وحدث و(عذابي): رفع لـ(كان) ولا خبر لها.

البلاغة:

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استعارة تمثيلية، شبه تدفق المطر من السحاب بانصباب أنهار انفتحت بها أبواب السماء .﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ كناية عن السفينة التي تتركب من الأخشاب والمسامير.

المفردات اللغوية:

﴿كَذَّبَتْ﴾ بالرسل .﴿قَبْلَهُمْ﴾ قبل قومك قريش .﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ تأنيث الفعل لمعنى ﴿قَوْمُ﴾ .﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ نوحاً، وهو تفصيل بعد إجمال .﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي زجر عن التبليغ بأنواع الأذى من السبّ وغيره.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى﴾ أي بأني .﴿مَغْلُوبٌ﴾ غلبني قومي .﴿فَٱنتَصِرْ﴾ فانتقم لي منهم، وذلك بعد يأسه منهم، فقد روي أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه، حتى يخرّ مغشياً عليه، فيفيق، ويقول: اللهم اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون.

﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ منصب، كثير .﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ أي وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون، وأصله: فجرنا عيون الأرض، أي وجعلناها تنبع، فغيَّر للمبالغة .﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ ماء السماء وماء الأرض .﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ﴾ على حال﴿قَدۡ قُدِرَ﴾ قضي به في الأزل، وهو هلاكهم غرقاً .﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾ حملنا نوحاً .﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ حملناه على سفينة ذات أخشاب عريضة ومسامير، والدسر: جمع دسار مثل كتب وكتاب، والمراد أن السفينة ذات دفع شديد .﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ بمرأى منا، والمراد بحراستنا وحفظنا﴿جَزَآءٗ﴾ أي أغرقوا عقاباً .﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ جُحد به، وهو نوح عليه السلام، أي أغرقوا عقاباً لهم، وقرئ: (كفَر) أي جزاء للكافرين.

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ أبقينا السفينة أو الفعلة .﴿ءَايَةٗ﴾ علامةً ودليلاً لمن يعتبر بها .﴿مُّدَّكِرٖ﴾ أي متذكر معتبر ومتعظ .﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي إنذاراتي لهم بالعذاب قبل نزوله، وهو استفهام تعظيم ووعيد، وتقرير، والمعنى: حمل المخاطبين على الإقرار بوقوع عذاب الله تعالى بالمكذبين لنوح موقعه .﴿يَسَّرۡنَا﴾ سهلنا .﴿لِلذِّكۡرِ﴾ للعظة والاعتبار .﴿مُّدَّكِرٖ﴾ متعظ بمواعظه.

المناسبة:

بعد أن أجمل الله تعالى الزجر بأخبار الأمم الماضية المكذبة رسلها، أعاد بعض الأنباء وفصلها، وهي قصص أربع: قصة قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط لهدفين: بيان أن حال الرسول ﷺ كحال الرسل المتقدمين مع أقوامهم، ووعيد المشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم.

التفسير والبيان:

﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ أي

كذبت قبل قومك يا محمد بالرسل قوم نوح، فإنهم كذبوا عبدنا نوحاً عليه السلام، واتهموه بالجنون، وانتهروه وزجروه وتواعدوه عن تبليغ الدعوة بمختلف أنواع الإيذاء والسّب والتخويف، قائلين: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١١٦] .

وفائدة قوله: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾[١] بعد قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ هي التخصيص بعد التعميم، أي كذبت الرسل أجمعين، فلذلك كذبوا نوحاً. وقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ تشريف وتنبيه على أنه هو الذي حقق المقصود من الخلق وقتئذٍ، ولم يكن على وجه الأرض حينئذٍ عابد لله سواه، فكذبوه.

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾أي فدعا نوح الله ربّه قائلاً: إني ضعيف عن مقاومة هؤلاء، فانتصر أنت لدينك، وانتقم لي منهم بعقاب من عندك.

وقد طلب النصرة عليهم، بعد أن علم تمردهم وعتوهم وإصرارهم على الضلال. فأجاب الله دعاءه قائلاً:

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾[٢] أي صببنا عليه ماءً غزيراً كثيراًمتدفقاً. وهذا التعبير مجاز عن كثرة انصباب الماء من السماء، كما يقال في المطر الوابل: جرت ميازيب السماء، وفتحت أبواب القِرَب.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ أي وجعلنا الأرض كلها عيوناً متفجرة وينابيع متدفقة، فالتقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضي عليهم، أي على أمر مقدر عليهم من الأزل، لما علم الله من حالهم.

(١) الفاء : فاء تفصيل وتفريع.

(٢) الباء للآلة نحو فتحت الباب بالمفتاح، ويفتح الله لك بخير.

وهذا دليل على عقابهم والانتقام منهم، ثم ذكر تعالى كيفية إنجاء نوح، فقال:

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ أي وحملنا نوحاً على سفينة ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾: وهي الأخشاب العريضة، ﴿وَدُسُرٍ﴾: وهي المسامير التي تشد بها الألواح. وهذا الإيجاز من فصيح الكلام وبديعه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ٢٩/١٥].

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ أي تسير بمنظر ومرأى منا وحفظ وحراسة لها، جزاءً لهم على كفرهم بالله، وانتصاراً لنوح عليه السلام؛ لأنه نعمة من الله، وتكذيبه كفران أو جحود لتلك النعمة.

وهذا دليل على أن اتخاذ الأسباب لتحقيق النتائج أمر ضروري، وهو أيضاً محتاج إلى رعاية الله وعنايته وحفظه.

ثم ذكر الله تعالى أنه أبقى السفينة عبرة لمن بعدهم، فقال:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ أي لقد أبقينا السفينة عبرة للمعتبرين، أو لقد تركنا هذه الفعلة التي فعلناها بهم عبرة وعظة، فهل من متعظ ومعتبر، يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها.

قال قتادة: أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة، وعقب عليه الحافظ ابن كثير قائلاً: والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفينة، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يس: ٣٦/٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/١١-١٢][1] ولهذا قال هاهنا:

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٢٦٤.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي هل من متعظ ومعتبر يتعظ بهذه الآية ويعتبر بها؟!

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ أي فانظر أيها السامع كيف كان عذابي لمن كفر بي، وكذّب رسلي، ولم يتعظ بما جاءت به نذري المرسلون، وكيف انتصرت لهم، وأخذت لهم بالثأر، أو كيف كانت إنذاراتي؟ والاستفهام للتوبيخ والتخويف، وإنما أفرد العذاب فلم يقل: أنواع عذابي، وجمع النذر، إشارة إلى غلبة الرحمة الغضب؛ لأن الإنذار إشفاق ورحمة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ أي لقد سهلناه للحفظ، وسهلنا لفظه للنطق، ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس، فهل من متعظ بمواعظه، ومعتبر بعبره؟! والأولى أن يقال: سهلناه للتذكر والاتعاظ بسبب المواعظ الشافية والبيانات الوافية.

وفي الآية الحث على درس القرآن، والاستكثار من تلاوته، والمسارعة في تعلّمه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ الْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٣٨/٢٩] ، وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾﴾ [مريم: ١٩/٩٧] . قال ابن عباس: لولا أن الله يسره على لسان الآدميين مااستطاع أحد من الخَلْق أن يتكلم بكلام الله عزّ وجلّ.

والحكمة في تكرير قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ﴾ هي تجديد التنبيه على الادّكار والاتعاظ والتعرف على تعذيب الأمم السالفة، للاعتبار بحالهم.وهكذا حكم التكرير في سورة الرحمن عند عدّ كل نعمة، وفي سورة المرسلات عند عدّ كل آية، لتكون مصوَّرة للأذهان، محفوظة في كل أوان. وهذه القصص نفسها كم كررت في القرآن مختلفة أوجز وأطنب؛ لأن التكرير يوجب التقرير في النفوس، والتذكير ينبه الغافل على أن كل موضع مختص بمزيد فائدة لم يعرف من غيره[١].

(١) غرائب القرآن للنيسابوري: ٢٧/ ٥٢ .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- كان نوح عليه السلام في وقته ومبدأ دعوته العابد الوحيد لله عزّ وجلّ، وكان قومه أول المكذبين للرسل، لذا شرفه الله تعالى بقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ فالإضافة إلى الله تشريف منه، واختيار لفظ العبد أدل على صدقه وقبح تكذيبهم من قوله: رسولنا.

٢- وصفوه بأنه مجنون إشارة إلى أنه أتى بالآيات الدالة على صدقه، حيث رأوا ما عجزوا عنه. وأخبر تعالى عنه: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ دليل على الحجر عليه ومنعه من تبليغ دعوته بالسبِّ والوعيد بالقتل. ويصح أن يكون ذلك حكاية قولهم. وتقديره: قالوا: مجنون مزدجر، ومعناه ازدجره الجن، قال الرازي: والأول أصح.

٣- لما زجروه وانزجر عن دعوتهم دعا ربّه: ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ أي غلبوني بتمردهم فانتصر لي.

٤- أجاب الله دعاءه، وأمره باتخاذ السفينة، ثم أغرقهم بالطوفان بماء كثير منصب متدفق من السحب، وماء نابع من الأرض فالتقى الماءان: ماء السماء وماء الأرض على حال قدرها الله وقضى بها من الأزل، لعلمه بتكذيبهم.

٥- ونجى الله نوحاً عليه السلام ومن آمن معه بحملهم على سفينة ذات ألواح شدت بمسامير، وفي حفظ الله ورعايته وكلاءته، وقد جعل الله ذلك ثواباً وجزاءً لنوح على صبره على أذى قومه الذين جحدوا برسالته، وعقاباً للكافرين على كفرهم بالله تعالى.

٦- لقد ترك الله هذه الفعلة أو السفينة عبرة، فهل من متعظ خائف؟! قال قتادة: أبقاها - أي السفينة - الله ببَاقِرْدَى من أرض الجزيرة عبرة وآية، حتى نظرت إليها أوائل هذه الأمة، وكم من سفينة كانت بعدها، فصارت رماداً.

٧- عقب الله تعالى على القصة بأمرين:

أولهما- فكيف كان العذاب والإنذار؟ تنبيهاً عاماً للخلق.

وثانيهما - لقد سهل الله القرآن الكريم للاتعاظ والادِّكار، أو للحفظ وأعان عليه من أراد حفظه. قال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن.

وهذا يدل على أن الله تعالى يسَّر على هذه الأمة حفظ كتابه ليذكَّروا ما فيه، فهل من قارئ يقرؤه، ومتذكر متعظ يتذكّر به ويتعظ؟ وكرر ذلك في هذه السورة للتنبيه والإفهام، كما تقدم.

- ٢ -

قصة عاد قوم هود عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾

الإعراب:

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ صرصر: أصله صِرَّر، إلا أنه اجتمعت ثلاث راءات، فأبدلوا من الراء الثانية صاداً، كما قالوا: رقرقت، وأصله رققت، فاجتمع فيه ثلاث قافات، فأبدلوا من القاف الوسطى راءً، هرباً من الاستثقال.

﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ إنما ذكر ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ لأن النخل يذكر ويؤنث، ولهذا قال في موضع آخر: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦٩/٧] . والقاعدة: كل ما كان الفرق بين واحده وجمعه من أسماء الأجناس الهاء، نحو النخل والشجر والسدر، فإنه يجوز فيه التذكير والتأنيث.

البلاغة:

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تشبيه مرسل مجمل، حذف منه وجه الشبه.

المفردات اللغوية:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ نبيَّهم هوداً عليه السلام، فعذبوه .﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله، أو إنذاري لمن بعدهم في تعذيبهم. ﴿صَرْصَرًا﴾ شديدة الصوت والبرد .﴿نَحْسٍ﴾شؤم .﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾دائم شؤمه حتى أهلكهم .﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تقلعهم من أماكنهم، وتصرعهم على رؤوسهم، فتدق رقابهم﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أصول نخل مقتلع من مغارسه، أو مؤخر الشيء، وشُبِّهوا بالنخل لطولهم، والمنقعر: المنقطع من أصله.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ كرره للتهويل، أو أنه ذكر مرتين في قصة عاد؛ لأن الاستفهام الأول للبيان، كما يقول المعلم لمن لا يعرف: كيف المسألة الفلانية؟ ليتنبه الطالب المسؤول للجواب الذي سيذكره المعلم، والاستفهام الثاني للتوبيخ والتخويف. أما في قصة ثمود فاقتصر على الأول للاختصار، وفي قصة نوح اقتصر على الثاني للاختصار أيضاً، ولعله ذكر الاستفهامين معاً في قصة عاد لفرط عتوهم، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ٤١/١٥] .

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي متعظ، والمعنى كما تقدم: سهلناه للادّكار والاتعاظ بسبب المواعظ الشافية والبيانات الوافية، وقيل: للحفظ. والأول أنسب بالمقام، وإن روي أنه لم يكن شيء من كتب الله محفوظاً على ظهر القلب سوى القرآن.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى تكذيب قوم نوح الذي بدأ به؛ لأن تكذيبهم كان أبلغ

وأشد، حيث دعاهم قريباً من ألف سنة، وأصروا على التكذيب، أعقبه بقصة عاد قوم هود، تأكيداً للعظة والعبرة، وتبياناً للمشركين المكذبين في مكة وأمثالهم أن عاقبة المكذبين الهلاك والدمار، دون تفاوت بين الأقوام. وإنما قال ﴿عَادٌ﴾ ولم يقل (قوم هود) كما قال (قوم نوح) لأن التعريف بالاسم العلم أولى من التعريف بالإضافة إليه.

التفسير والبيان:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾﴾ أي كما صنع قوم نوح في تكذيبهم رسولهم، كذبت قبيلة عاد قوم هود عليه السلام رسولهم، فانظروا واسمعوا أيها المخاطبون من قريش وغيرهم كيف كان عذابي لهم، وإنذاري إياهم.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ لفت للأنظار، وتنبيه للأسماع لما سيذكر.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾ أي إنا سلّطنا عليهم[1] ريحاً شديدة البرد والصوت في يوم شؤم عليهم، دائم الشؤم حتى أهلكهم ودمرهم؛ لأنه اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي، أما ذات اليوم بمجرده فلا يصح وصفه بالنحس أو الشؤم، وإنما الأيام والليالي كلها سواء، لذا كان التشاؤم بالعدد (١٣) غير صحيح شرعاً وديناً.

ونظير الآية: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ٤١/ ١٦] وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٧] أي متتابعة.

---

(١) هذه الجملة استئنافية، لبيان ما أجمل أولاً في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾﴾ أي إن تلك الريح الصرصر كانت تقتلعهم من الأرض اقتلاع النخلة من أصلها، قال مجاهد: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم، فتدق أعناقهم، وتبين رؤوسهم من أجسادهم.

والمعنى أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتاً، وهم جثث طوال عظام، كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها فلا فروع، ﴿مُّنقَعِرٖ﴾: منقلع عن مغارسه. وقد شبهوا في طول قاماتهم حين صرعتهم الريح، وطرحتهم على وجوههم بالنخل الساقط على الأرض التي ليست لها رؤوس.

والآية تومئ إلى أن الريح كانت تقتلع رؤوسهم، فتصبح الأجسام من غير رؤوس ولا هامات، وتشير أيضاً إلى عظمة أجسادهم وطول قاماتهم، وإلى محاولتهم الثبات في الأرض والتشبث بها لمقاومة الريح، كما تشير أيضاً إلى يبسهم وجفافهم بالريح التي كانت تقتلعهم ببردها المفرط، فتجعلهم كأنهم أخشاب يابسة.

ثم أعاد الله تعالى ما يفيد تهويل العذاب، فقال:

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي فانظروا كيفية بطشي وعقابي وإنذاري.

ثم كرر التصريح بسهولة التعرف على ذلك القرآن، فقال:

﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾ أي لقد سهلنا القرآن للادكار والاتعاظ، بما أوردنا فيه من المواعظ الشافية، وبينا ما فيه من الوعد والوعيد، فهل من متعظ معتبر؟! وقيل: ولقد سهلناه للحفظ وأعنَّا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه[1] ؟

---

(١) الكشاف: ٣/ ١٨٤.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- كذبت قبيلة عاد قوم هود برسولهم هود عليه السلام، فاستحقوا العقاب، لذا بادر الله تعالى إلى التخويف والتهويل بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ وقد وقعت كلمة ﴿وَنُذُرِ﴾ في هذه السورة في ستة أماكن محذوفة الياء في جميع المصاحف، وقرأها يعقوب مثبتة في الحالين: حال الوقف والوصل، وقرأها ورش بالياء في الوصل لا غير.

٢- كان عقابهم بإرسال ريح شديدة البرد، شديدة الصوت، في يوم كان مشؤوماً عليهم، قال ابن عباس: كان آخر أربعاء في الشهر، أفنى صغيرهم وكبيرهم. والمراد أنه يوم نحس على الفجار والمفسدين؛ كما كانت الأيام النحسات المذكورة في القرآن، نحسات على الكفار من قوم عاد، لا على نبيهم والمؤمنين به منهم.

٣- وصف الله الريح بأنها تقلعهم من مواضعهم، قيل: قلعتهم من تحت أقدامهم اقتلاع النخلة من أصلها، وقال مجاهد كما تقدم: كانت تقلعهم من الأرض، فترمي بهم على رؤوسهم، فتندق أعناقهم، وتَبِين رؤوسهم عن أجسادهم.

وكانت الريح تنزع الناس، فتتركهم كأنهم أعجاز نخل منقعر. والأعجاز: جمع عَجُز: وهو مؤخر الشيء، وكانت أشخاص عاد موصوفين بطول القامة فشُبِّهوا بالنخل انكبت لوجوهها.

٤- كانت العاقبة على قوم عاد سوءاً وشراً مستطيراً، يستدعي التفكير بكيفية عذاب الله وإنذاراته. وطريق فهم ذلك ميسر، فإن القرآن بما اشتمل عليه من العظات والعبر سهل يسير الاعتبار والاتعاظ، فهل من متعظ معتبر؟!

- ٣ -

قصة ثمود قوم صالح عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

القراءات:

﴿سَيَعْلَمُونَ﴾:

وقرأ ابن عامر، وحمزة (ستعلمون).

الإعراب:

﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾ ﴿أَبَشَرًا﴾ منصوب بتقدير فعل دل عليه ﴿نَّتَّبِعُهُۥ﴾ تقديره: أنتبع بشراً منا واحداً؟

﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ ﴿فِتْنَةً﴾: إما مفعول لأجله، أو مصدر، منصوب على المصدرية. وقوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ أصله: اصتبر، على وزن: افتعل من الصبر، إلا أنهم أبدلوا من التاء طاء لتوافق الصاد في الإطباق.

﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ ﴿كَهَشِيمِ﴾: في موضع نصب؛ أنه خبر كان، و﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: بكسر الظاء هو المشهور، أي المتخذ الحظيرة، وقرئ بفتحها (المحتظَر) أي مكان الحظيرة.

البلاغة:

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ صيغة مبالغة على وزن فَعَّال وفَعِل، أي كثير الكذب، عظيم البطر.

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ أي بالرسل جمع نذير بمعنى منذر أو بالإنذارات والمواعظ، فإنهم كذبوا بالأمور التي أنذرهم بها نبيهم صالح عليه السلام، وتكذيبه تكذيب لجميع الرسل؛ لاتفاقهم على أصول الدين. ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ أي من جنسنا أو من جملتنا لا فضل له علينا. ﴿وَاحِدًا﴾منفرداً لا تبع له، والاستفهام بمعنى النفي، المعنى: كيف نتبعه ونحن جماعة كثيرة، وهو واحد منا، وليس بحاكم ولا ملك؟ أي لا نتبعه. ﴿إِنَّا إِذًا﴾ أي إنا إن اتبعناه. ﴿لَّفِى ضَلَالٍ﴾ خطأ وبُعْد عن الصواب. ﴿وَسُعُرٍ﴾ جنون، ومنه: ناقة مسعورة أي مجنونة.

﴿الذِّكْرُ﴾ الوحي، ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي وفينا من هو أحق منه بذلك. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ﴾ في أنه أوحي إليه. ﴿أَشِرٌ﴾ متكبر بَطِر، حمله بطره على الترفع علينا بادّعائه. ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ أي عند نزول العذاب بهم، أو يوم القيامة. ﴿مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ هو أو هم، أي الذي حمله أشره على الاستكبار عن الحق، وطلب الباطل.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ مخرجوها وباعثوها. ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ اختباراً أو امتحاناً لهم. ﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم يا صالح وتبصر ما يصنعون. ﴿وَاصْطَبِرْ﴾ اصبر على أذاهم. ﴿قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ مقسوم بينهم وبين الناقة، يوم لهم ويوم لها. ﴿كُلُّ شِرْبٍ﴾نصيب من الماء. ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضره صاحبه في نوبته.

﴿صَاحِبَهُمْ﴾ قُدار بن سالف أُحَيْمر ثمود .﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ اجترأ على تعاطي قتلها غير مبال بما يفعل، والتعاطي: تناول الشيء بتكلُّف .﴿فَعَقَرَ﴾ ضرب قوائم الناقة بالسيف، فقتلها موافقة لهم .﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ أي كيف كان عقابي وإنذاري لهم بالعذاب قبل نزوله، المعنى: أن العذاب وقع موقعه.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي صيحة جبريل عليه السلام، والجملة بيان للعذاب المشار إليه في الجملة السابقة .﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ أي مثل المتهشم اليابس، المتكسر من الشجر، الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء. وقرئ فتح الظاء، أي كهشيم الحظيرة .﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ سهلنا القرآن للاتعاظ به .﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ.

المناسبة:

هذه قصة ثالثة أو أنموذج من تكذيب الأمم الخالية رسلها، فإن عادتهم ومذهبهم إنكار الرسل وتكذيبهم، فكذبوا نوحاً وهوداً وصالحاً عليهم السلام فيما يدعيه من الوحي عن ربه، وكل من كذب رسولاً كذب جميع الرسل لاتحادهم في أصول الاعتقاد والدين.وكانت معجزة صالح عليه السلام ناقة فريدة تشرب ماء نهير كله يوماً، وتدر لبناً يكفي جميع القبيلة، بل يفيض عنهم، فقتلوها، فعاقبهم الله بعذاب الصيحة: صيحة جبريل عليه السلام، فبادوا عن آخرهم.

التفسير والبيان:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ كذبت قبيلة ثمود قوم صالح برسل الله الكرام، بتكذيبهم لرسولهم، وهو صالح، ومن كذب واحداً من الأنبياء، فقد كذب سائرهم؛ لاتفاقهم في الدعوة إلى كليات الشرائع وأصولها العامة، كتوحيد الله تعالى، وعبادته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ويلاحظ أنه في

قصة نوح وقصة عاد قال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ ولم يقل بالنذر، وفي هذه القصة وقصة قوم لوط قال: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ والأمر سواء؛ لأن عادتهم التكذيب.

ثم أبان الله تعالى مظاهر تكذيبهم، فقال:

١- ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي إنهم قالوا فيما بينهم: كيف نتّبع بشراً من جنسنا، منفرداً وحده، لا تبع له، ولا متابع له على ما يدعو إليه، لقد خبنا وخسرنا إن أطعنا واحداً منا، وإنا إذا اتبعناه نكون في خطأ واضح وبعد عن الحق والصواب، واتصفنا بالجنون أو أصابنا العذاب والعناء والشدة.

٢- ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ أي كيف خُصّ من بيننا بالوحي والنبوة، وفينا من هو أحق بذلك منه، بل هو متجاوز في حدالكذب فيما يدعيه من نزول الوحي الإلهي عليه، ومتكبر بطر، حمله تكبره على الترفع علينا بادعائه الوحي.

فوجّه الله تعالى إليهم تهديداً شديداً ووعيداً أكيداً بقوله:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾ أي سيعرفون عما قريب في المستقبل وقت نزول العذاب بهم في الدنيا، أو يوم القيامة، وسيتبين لهم من هو المفتري الكذّاب، الأبلغ في الشرارة، أصالح في تبليغ رسالة ربه، أم هم في تكذيبهم إياه؟ والمراد أنهم هم الكذابون البطرون المتكبرون.

ثم وصف الله تعالى جرمهم مخاطباً صالحاً فقال:

﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ أي إنا مخرجو الناقة العظيمة العشراء من صخرة صماء، كما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به، ولتكون امتحاناً واختباراً لهم، فانتظر ما يؤول إليه أمرهم وما يصنعون واصبر عليهم وعلى ما يصيبك من الأذى منهم، فإن العاقبة لك والنصر في الدنيا والآخرة.

- ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي وأخبرهم أن ماء البئر أو النهير مقسوم بينهم وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم، وكل حظ أو نصيب من الماء يحضره صاحبه، ليأخذه في نوبته، فتشرب الناقة في يوم، ويشربون هم في يوم آخر، أو كل شرب محتضر فيه، يوم لها ويوم لهم، قال مجاهد: إن ثمود يحضرون الماء يوم نوبتهم فيشربون، ويحضرون يوم نوبتها فيحتلبون. وقال أيضاً: إذا غابت حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن.

ونحو الآية: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٥٥].

-﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾ أي ولكن ثمود ملّوا هذه القسمة، وبادروا إلى التخلص من هذا الوضع كفراً وعناداً، فنادوا نداء المستغيث قُدار بن سالف،وكان أشقى قومه، وأشجع وأهجم على الأمور، وحرضوه على عقر الناقة، فاجترأ على الأمر العظيم، وتعاطى أسباب العقر، فأهوى بسيفه على قوائم الناقة، فكسر عرقوبها، ثم نحرها.

- ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾ أي فعاقبتهم، فانظر كيف كان عقابي لهم على كفرهم بي وتكذيبهم رسولي الذي ينذرهم ويخوفهم عذاب الله. ويلاحظ أن هذه الآية ذكرت في قصة ثمود قبل بيان العذاب للبيان، وفي قصة نوح بعد بيان العذاب للتهويل والتعظيم، وفي قصة عاد قبل بيان العذاب وبعد بيانه، للجمع بين الأمرين.

-﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ أي إنا أرسلنا عليهم صيحة جبريل، فصاح بهم، فبادوا عن آخرهم، لم تبق منهم باقية، وجمدوا وهمدوا كما يهمد وييبس الزرع والنبات، وصاروا كالعشب أو فتات الشجر اليابس الذي جمعه الراعي المحتظر في الحظيرة إذا داسته الغنم بعد سقوطه.

والهشيم: الشجر اليابس المتهشم، أي المتكسر، والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة ليحفظ الغنم من الذئاب. ووجه التشبيه: أن ما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتطؤه البهائم فيتكسر، وأنهم صاروا موتى جاثمين، ملقى بعضهم فوق بعض، كالحطب الذي يكسر في الطرق والشوارع.

- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾ أي ولقد سهلنا القرآن للتذكر والاتعاظ، والاعتبار بالأحداث والوقائع، فهل من متعظ؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١- كذبت قبيلة ثمود كغيرها الرسل ونبيهم، وكذبوا بالآيات التي جاء بها، وأنكروا أن ينبأ بشر كائن منهم منفرد لا أتباع له، وزعموا أنهم إن اتبعوه كانوا في خطأ وذهاب عن الصواب، وجنون وعناء.

٢- وقالوا على طريق الاستفهام المراد به الإنكار: كيف خصص بالرسالة من بين آل ثمود، وفيهم من هو أكثر مالاً وأحسن حالاً؟ بل هو كذاب فيما يدّعيه، وإنما يريد أن يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير استحقاق.

٣- هددهم الله بأنه سيحل بهم العذاب في الدنيا، والعذاب يوم القيامة. وقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ على التقريب، على عادة الناس في قولهم للعواقب: إن مع اليوم غداً. وهذا القول مفروض الوقوع في وقت قولهم: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أو أنه تهديد بالتعذيب يوم القيامة. وسيتبين لهم من هو الكذاب الأشر، أهو صالح عليه السلام أم هم؟

٤- أخرج الله لهم ناقة عظيمة من الهضبة التي سألوها، روي أن صالحاً صلى ركعتين، ودعا، فانصدعت الصخرة التي عينوها عن سنامها، فخرجت ناقة عُشَراء. وكان ذلك ابتلاء واختباراً لهم. ومعنى قوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا ٱلنَّاقَةِ

فِتْنَةً﴾: إنا نرسل، وهو بمعنى المستقبل في ذلك الزمان الذي تم فيه الإرسال. وكون الناقة فتنة: أن أوضاعها الغريبة اختبار.

٥ً- أمر الله تعالى نبيه صالحاً عليه السلام بأوامر ثلاثة: انتظر ما يصنعون، واصبر على أذاهم، وأخبرهم أن الماء مقسوم بين آل ثمود وبين الناقة، لها يوم ولهم يوم. قال ابن عباس: كان يوم شِرْبهم لا تشرب الناقة شيئاً من الماء، وتسقيهم لبناً، وكانوا في نعيم، وإذا كان يوم الناقة شربت الماء كلّه، فلم تُبق لهم شيئاً. أي إنهم يوم شِرْبها أو وِرْدها الماء يحتلبون منها ما شاؤوا.

٦ً- ملّوا هذه القسمة، فحرضوا صاحبهم قدار بن سالف أشقى ثمود على عَقْرها، فعقرها، بأن رماها بسهم، ثم ضرب قوائمها بالسيف، ثم نحرها.

٧ً- عاقبهم الله جزاء تكذيبهم وكفرهم برسولهم صالح، واعتدائهم على الناقة، فأرسل عليهم صيحة واحدة من جبريل عليه السلام، فلما سمعوا الصيحة ماتوا، وبادوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد، وأصبحوا كهشيم المحتظر، قال ابن عباس: المحتظر: هو الرجل يجعل لغنمه حظيرة بالشجر والشوك؛ فما سقط من ذلك وداسته الغنم فهو الهشيم. وعنه: كحشيش تأكله الغنم، أو كالعظام النخرة المحترقة. وقوله: ﴿فَكَانُوا﴾ فيه استعمال الماضي فيما اتصل بالحال.

٨ً- المتأمل ينظر بما آل إليه هؤلاء القوم من إبادة وعذاب أصبحوا مثلاً وعبرة للتاريخ.

٩ً- يسهل على كل إنسان إدراك هذه الحقيقة من القرآن الذي أخبر عن هذه المحنة الأليمة، فهو كتاب سهل المأخذ، يسر الله به فهم المواعظ والعبر، فهل من متعظ معتبر؟! والتكرار للتذكار والتأكيد.

-٤-

قصة قوم لوط عليه السلام

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾

الإعراب:

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ، نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾ ﴿آلَ لُوطٍ﴾: منصوب على الاستثناء، و﴿بِسَحَرٍ﴾ في موضع نصب؛ لأنه متعلق بـ ﴿نَجَّيْنَاهُم﴾ وصرفه أي نونه؛ لأنه أراد به سَحَراً من الأسحار. ولو أراد به التعريف لكان ممنوعاً من الصرف، أي التنوين للتعريف والعدل عن لام التعريف. و﴿نِعْمَةً﴾: مفعول لأجله.

المفردات اللغوية:

﴿بِالنُّذُرِ﴾ بالرسل والأمور المنذرة على لسانهم، وتكذيب نبي واحد كتكذيب جميع الأنبياء؛ لاتفاقهم على أصول الشرائع كما تقدم. ﴿حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبهم بالحجارة، أي ترميهم بالحصباء: وهي صغار الحجارة، الواحد دون ملء الكف. ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ أهله وابنتاه معه. ﴿بِسَحَرٍ﴾ أي بسحر من الأسحار، من يوم غير معين، والسحر: السدس الأخير من الليل قبيل طلوع الفجر. ﴿نِعْمَةً﴾ مصدر، أي إنعاماً. ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ أي مثل ذلك الجزاء نجزي من شكر نعمنا، وكان مؤمناً بالله تعالى ورسوله ﷺ، مطيعاً الله تعالى ورسوله ﷺ.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ أي خوَّفهم لوط عليه السلام. ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذتنا بالعذاب. ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي شكُّوا في الإنذارات وكذبوا بها. ﴿رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ قصدُوا الفجور بضيوفه، وطلبوا منه تمكينهم منهم وأن يسلمهم أضيافه الذين كانوا ملائكة. ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أعميناهم، أو جعلنا أعينهم مطموسة لا شق لها، وأزلنا أثرها. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ أي فقلنا لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا إنذاري وتخويفي، أي ثمرته وفائدته.

﴿بُكْرَةً﴾ أول النهار. ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ دائم يستقر بهم إلى أن يهلكوا، أو يتصل بعذاب الآخرة. ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ قال البيضاوي: كرر ذلك في كل قصة إشعاراً بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب، واستماع كل قصة مستدع للادّكار والاتعاظ، واستئنافاً للتنبيه والإيقاظ، لئلا يغلبهم السهو والغفلة، وهكذا تكرير قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ و﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾ ونحوهما.

وإنما لم يقل هنا ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾ كما قال في القصص الثلاث الأخرى؛ لأن التكرار ثلاث مرات بالغ كافٍ، ويحصل التأكيد بالثلاث.

المناسبة:

هذه قصة رابعة هي قصة قوم لوط، ذكرها الله تعالى لبيان السبب وهو تكذيب الرسل وارتكاب الفواحش، وبيان العقاب الشديد وهو التدمير والإهلاك، ليعتبر كل الناس، ويعلموا أنه ما من هلاك إلا بعد إنذار بالعذاب على لسان رسول، ثم تكذيبه.

التفسير والبيان:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ هذا حال قوم آخرين، وهم قوم لوط الذين كذبوا رسولهم وخالفوه، وكذبوا بالآيات التي أنذرهم بها، واقترفوا الفاحشة.

ثم بيّن الله تعالى عذابهم وإهلاكهم، فقال:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي إننا أرسلنا عليهم ريحاً ترميهم بالحصباء، وهي الحصى والحجارة، فأهلكتهم ودمرتهم إلا لوطاً عليه السلام ومن آمن به واتبعه، فإنا أنجيناهم من الهلاك في آخر الليل أو في قطعة من الليل وهو السدس الأخير، نجوا مما أصاب قومهم.

هذا ولم يؤمن بلوط من قومه أحد، ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته أصابها ما أصاب قومها، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء.

وكان سبب نجاتهم شكرانهم النعمة، فقال تعالى:

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾ أي لقد أنجيناهم إنعاماً منا عليهم، وتكريماً لهم، ومثل ذلك الجزاء الحسن، نجزي من شكر نعمتنا ولم يكفرها، بأن آمن وأطاع أمرنا، واجتنب نهينا.

ثم بين الله تعالى عدله في العقاب وهو مجيئه بعد إنذار، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾ أي ولقد أنذرهم نبيهم بطشة الله بهم، وهي عذابه الشديد، وعقوبته البالغة، قبل حلوله بهم، إن لم يؤمنوا، فما التفتوا إلى ذلك ولا أصغوا إليه، بل شكوا في الإنذار ولم يصدقوه، وكذبوه.

ثم ذكر الله تعالى جرماً آخر لهم عدا الكفر والتكذيب، فقال:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ أي لقد أرادوا منه تمكينهم ممن أتاه من الضيوف الملائكة الذين جاؤوا في صورة شباب مُرْد حسان، ليفجروا بهم، كما هو دأبهم، إذ قد بعثت امرأته العجوز

السوء إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط، فأقبلوا يُهْرَعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب عشية الليل، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، وأرشدهم إلى نسائهم الذين هم بمثابة بناته، وهو لهم كالأب.

فلما اشتد الخلاف، وأبوا إلا الدخول، طمس الله أبصارهم، فأصبحوا لا يرون شيئاً، فرجعوا على أدبارهم، يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح.

وقلنا لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا ألم عذابي وتبعة إنذاراتي.

ثم ذكر تعالى نوع العذاب العام الذي أصابهم ووقته، فقال:

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾﴾ أي لقد أتاهم صباحاً عذاب مستقرّ بهم، نازل عليهم، لا يفارقهم ولا ينفك أو يحيد عنهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ [هود: ١١/ ٨١] والعذاب المستقر: الثابت الذي لا محيد عنه أو الذي استقر عليهم إلى الاستئصال الكلي.

ثم أوضح تعالى العبرة وحكى ما قيل لهم، فقال:

- ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾ أي فذوقوا جزاء أفعالكم ومقتضى إنذاركم السابق.

- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾ أي ولقد سهلنا آيات القرآن للاتعاظ والتذكر، فهل من متعظ معتبر. هذه الجملة الواردة عقب القصص الأربع للتأكيد والتنبيه والاتعاظ والزجر، كما تقدم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- لما كذب قوم لوط نبيهم، أرسل الله عليهم ريحاً ترميهم بالحصباء وهي الحصى، فلا عقاب دون جريمة، ولا عذاب قبل إنذار.

٢ً- نجّى الله تعالى نبيه لوطاً عليه السلام ومن تبعه على دينه، ولم يكن إلا بنتاه، وتمت النجاة في وقت السحر آخر الليل، إنعاماً من الله على لوط وبنتيه، ومثل ذلك الجزاء يجازي الله كل من آمن بالله وأطاعه، أي إن ذلك الإنجاء كان فضلاً من الله ونعمة، كما أن ذلك الإهلاك كان عدلاً. وفيه فائدة وهي الدلالة على الثواب في الدار الآخرة، كما تحققت النجاة في الدنيا، أي كما أنعمنا عليهم ننعم عليهم يوم الحساب.

٣ً- لا عقاب أيضاً إلا بعد إنذار، فلقد أنذر لوط عليه السلام قومه، وخوّفهم عقوبة ربهم، وأخذه إياهم بالعذاب الدنيوي والأخروي، فشكُّوا فيما أنذرهم به الرسول، ولم يصدقوه. وفي هذا تبرئة لوط عليه السلام وبيان أنه أتى بما عليه.

٤ً- اقترن مع كفرهم جريمة كبرى أخرى هي اقترافهم الفواحش، بل إنهم أرادوا من لوط عليه السلام تمكينهم ممن كان أتاه من الملائكة في هيئة الأضياف، طلباً للفاحشة.

٥ً- لما أصرُّوا على الاعتداء على الملائكة، واقتحام منزل لوط عليه السلام، أعماهم الله مع صحة أبصارهم، فلم يروهم. ويروى أن جبريل عليه السلام ضربهم بجناحه فعَمُوا. قال الضحاك: طمس الله على أبصارهم، فلم يروا الرسل؛ فقالوا: لقد رأيناهم حين دخلوا البيت، فأين ذهبوا؟ فرجعوا ولم يروهم.

٦ً- قال الله لهم على ألسنة الملائكة: ذوقوا عذابي الذي أنذركم به لوط والمراد بذوق العذاب مجازاة الفعل وموجبه.

٧- لقد صبحّهم أول النهار، وقت الصبح عذاب دائم عام، استقر فيهم، حتى يفضي بهم إلى عذاب الآخرة. وفائدة قوله: ﴿بُكۡرَةً﴾ تبيين حدوث العذاب في أول النهار؛ لأن التصبيح يطلق على الإتيان في أزمنة كثيرة من أول الصبح إلى ما بعد الإسفار، فإذا قال: ﴿بُكۡرَةً﴾ أفاد أنه كان أول جزء منه.

٨- كرر الله تعالى للتأكيد ما قالته الملائكة لهم: ذوقوا العذاب الذي نزل بكم من طمس الأعين، غير العذاب الذي أهلكوا به؛ لأن العذاب كان مرتين: أحدهما- خاص بالمراودين، والآخر عام.

٩- إن الهدف من القصة هو العبرة والعظة، والقرآن الكريم سهَّله الله للاتعاظ والاعتبار، ولكن ما أكثر المواعظ والعبر، وأقل الاعتبار. وقد كرر تعالى بيان ذلك للتنبيه والتأكيد.

- ٥ -

قصة آل فرعون

﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾

المفردات اللغوية:

﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ قومه معه، واكتفى بذكرهم دونه للعمل بأنه القائد وأنه أولى بذلك.

﴿ٱلنُّذُرُ﴾ الإنذارات على لسان موسى وهارون، فلم يؤمنوا. ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ أي بل كذبوا بالآيات التسع التي أوتيها موسى عليه السلام. ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ﴾ بالعذاب. ﴿أَخۡذَ عَزِيزٖ﴾ قوي لا يُغالَب ولا يُغلَب. ﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾ قادر لا يعجزه شيء.

التفسير والبيان:

هذه قصة خامسة بإيجاز، أخبر الله بها عن تكذيب فرعون وقومه بالرسل، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾ أي والله لقد جاءت الإنذارات والبشائر فرعون وقومه من طريق موسى وهارون، الإنذار بالعذاب إن كفروا، والبشارة بالجنة إن آمنوا. والفرق بين الآل والقوم: أن القوم أعم من الآل، فالقوم: كل من يقوم الرئيس بأمرهم ويأتمرون بأمره، والآل: كل من يؤول إلى الرئيس خيرهم وشرهم، أو يؤول إليهم خيره وشره.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ أي إننا أيدنا موسى وهارون بمعجزات عظيمة وآيات متعددة، منها الايات التسع كالعصا واليد، فكذبوا بها كلها، فأخذهم الله بالعذاب الشديد أخذ قوي غالب في انتقامه، قادر على إهلاكهم قاهر لا يعجزه شيء. أي أبادهم الله ولم يبق منهم أحداً، وعاقبهم بتكذيبهم وبكفرهم بالله.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذا خبر موجز عن فرعون وقومه: القبط، يتضمن بيان الجريمة والعقاب، فإن الله أرسل لهم موسى وهارون بالإنذارات والبشائر، فكذبوا بجميع الآيات أو المعجزات الدالة على توحيد الله ونبوة الأنبياء، وهي تسع: العصا، واليد، والسِّنون، والطمسة، والطوفان، والجراد والقُمَّل، والضفادع، والدم، فعاقبهم الله بكفرهم بربهم وتكذيبهم رسل الله، وكان العقاب شديداً لصدوره من إله غالب في انتقامه، قادر على ما أراد.

ويلاحظ أن القصص الخمس المذكورة في هذه السورة: قصة قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وآل فرعون مشتركة في السبب أو الجريمة، وفي الجزاء أو العقاب، والسبب أو الجريمة يكاد يكون واحداً وهو الكفر بالله وتكذيب الرسل، مع معاص أخرى، والعقوبة وإن اختلفت بين طوفان،

وريح صرصر عاتية، وصيحة جبريل، وريح حاصب، وإغراق، فنتيجتها واحدة وهي الإبادة والاستئصال التام، وتلك عبرة وعظة لكفار قريش وأمثالهم.

توبيخ المشركين من كفار قريش وبيان جزاء المجرمين والمتقين

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

الإعراب:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ ﴿نَحْنُ﴾: مبتدأ، و﴿جَمِيعٌ﴾: خبره، و﴿مُّنتَصِرٌ﴾: خبر لمحذوف تقديره: أمرنا أو جمعنا.

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ ﴿كُلَّ﴾: بالنصب بتقدير (خلقنا) وذلك يدل على العموم واشتمال الخلق على جميع الأشياء، ولا يجوز أن يكون (خلقنا) صفة ﴿شَىْءٍ﴾ لأن الصفة لا تعمل فيما قبل الموصوف. وتقرأ (كل) بالرفع على الابتداء، و﴿خَلَقْنَٰهُ﴾: خبره، لكن لا يكون ﴿كُلَّ﴾ حينئذ متمحضاً للعموم؛ لأن المعنى: إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر، فيحتمل أن يكون ههنا ما ليس بمخلوق من الأشياء، بخلاف حالة النصب، فإنه لا يحتمل إلا العموم. و﴿بِقَدَرٍ﴾: حال من ﴿كُلَّ﴾، أي مقدراً.

البلاغة:

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ الاستفهام إنكاري يقصد به النفي.

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ إطناب بتكرار لفظ الساعة لزيادة التخويف.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ و﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ المس مجاز مرسل عن الألم، وعلاقته السببية، فإن مسها سبب للألم، ويراد بالذوق الإحساس.

﴿صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ بينهما طباق.

في أواخر الآيات كلها سجع غير متكلف له وَقْع وجرس وجمال في اللفظ.

المفردات اللغوية:

﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ يا قريش ﴿مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ المذكورين في القصص السابقة من قوم نوح إلى آل فرعون ﴿بَرَاءَةٌ﴾ وثيقة مكتوبة بالنجاة من العذاب ﴿الزُّبُرِ﴾ الكتب السماوية، جمع زبور، المعنى: أم أنزل لكم في الكتب السماوية أن من كفر منكم، فهو في أمان من العذاب. والاستفهام في الموضعين بمعنى النفي، أي ليس الأمر كما تزعمون أو تتصورون.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ كفار قريش ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ﴾ جمع ﴿مُنْتَصِرٌ﴾ على محمد، قال أبو جهل يوم بدر: إنا جمع منتصر، فنزلت الآية: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ يرجعون إلى الأدبار هاربين، فقد هزموا ببدر، ونصر رسول الله ﷺ عليهم، وهو من دلائل النبوة ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ بالعذاب الأصلي. ﴿وَالسَّاعَةُ﴾ أي وعذاب الساعة ﴿أَدْهَى﴾ أعظم وأشد بلية وداهية،

والداهية: أمر فظيع لا يهتدى لعلاجه. ﴿وَأَمَرُّ﴾ أشد مرارة ومذاقاً من عذاب الدنيا، والمراد: أصعب على النفس وأكثر شدة وهولاً.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ الكفار والمشركين. ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ خطأ وبعد عن الحق. ﴿وَسُعُرٍ﴾ نيران مستعرة في الآخرة. ﴿يُسْحَبُونَ﴾ يجرّون على وجوههم. ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يقال لهم: ذوقوا حر النار وألمها، فإن مسَّها أي إصابتها سبب للتألم بها، و﴿سَقَرَ﴾ اسم جهنم، ولذلك كان ممنوعاً من الصرف. ﴿بِقَدَرٍ﴾أي مقدّراً بمقدار معلوم ومكتوب في اللوح قبل وقوعه.

﴿أَمْرُنَآ﴾ شأننا، أو أمرنا بإيجاد الشيء الذي نريده. ﴿إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾أي كلمة واحدة، وهي قول (كُنْ) فيوجد، أو فعلة واحدة، وهو الإيجاد بلا معاناة. ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي في اليسر والسرعة. ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم في الكفر من الأمم الماضية. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متعظ، والاستفهام بمعنى الأمر، أي اذكروا واتعظوا. ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ مكتوب في سجل أو كتب الحفظة. ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطور أو مكتوب في اللوح المحفوظ.

﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ بساتين. ﴿وَنَهَرٍ﴾ أنهار، المراد به الجنس. وقرئ بضم النون وسكون الهاء كأُسْد وأسد. ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكان مرضي، أو في مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، والمراد به أيضاً الجنس، وقرئ: مقاعد أي في مجالس من الجنات سالمة من اللغو والتأثيم، بخلاف مجالس الدنيا، قل أن تسلم من ذلك. ﴿عِندَ مَلِيكٍ﴾ أي مقربين عند الله تعالى، و﴿مَلِيكٍ﴾ صيغة مبالغة، أي عزيز الملك وواسع السلطان. ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾قادر لا يعجزه شيء، وهو الله تعالى.

والعندية ليست عندية مكان، وإنما إشارة إلى الرتبة والقربة من فضل الله تعالى.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٥):

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾: أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا يوم بدر: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، فنزلت: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

نزول الآية (٤٧):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: أخرج مسلم والترمذي عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدَر، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

وروى ابن حبان عن أبي أمامة الباهلي قال: أشهد بالله لسمعت رسول الله ﷺ يقول: إن هذه الآية نزلت في القدَرية[١]: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

وذكر أبو بكر بن الحارث عن أبي زرارة الأنصاري: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ ثم قال: أنزلت هذه الآية في أناس من آخر هذه الأمة يكذبون بقدر الله تعالى.

المناسبة:

بعد بيان إهلاك بعض الأمم السابقة وهم قوم نوح وهود وصالح ولوط بسبب تكذيبهم الرسل، خاطب الله أهل مكة موبخاً لهم بطريق الاستفهام الإنكاري، ليبين لهم أن ما أصاب غيرهم من العذاب والهوان سيصيبهم؛ لأن ما جرى على المثيل يجري على مثيله، إن استمروا على كفرهم، وأصروا

---

(١) القدرية : هم الذين يقولون : إن الإنسان يخلق أفعال نفسه.

على ضلالهم، وأنهم أيضاً سيهزمون في الدنيا، وسيلقون في الآخرة عذاباً أشد وأدهى.

ثم أبان الله تعالى نوع عذاب المجرمين أي المشركين في الآخرة، وأن كل شيء مخلوق لله سبحانه، وأن أمره تعالى سريع النفاذ بكلمة (كن) التكوينية، وختم السورة بذكر ثواب المتقين الأبرار.

التفسير والبيان:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ أي أكفاركم يا مشركي قريش خير من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بالكتب السماوية، أم معكم من الله براءة فيما أنزل من الكتب ألاّ ينالكم عذاب ولا نكال؟!

والمعنى: ليس كفاركم يا أهل مكة، أو يا معشر العرب، خيراً من كفار من تقدمكم من الأمم الذين أهلكوا بسبب كفرهم، فلستم بأفضل منهم، حتى تكونوا بمأمن مما أصابهم من العذاب عند تكذيبهم لرسلهم، وليست لكم براءة من عذاب الله في شيء من كتب الأنبياء.

وهذا تهديد وتوبيخ لمن أصرّ على الكفر من مشركي العرب، فالمراد بعض العرب لا كلهم، فليس كفارهم خيراً ممن سبقهم، وهم قوم نوح وهود وصالح ولوط، بل هم مثلهم أو شر منهم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي بل هم يقولون: نحن جماعة أو جمع كثيرو العدد، شديدو القوة، ولنا النصر على الفئة القليلة المستضعفة من أعدائنا، فهم يعتقدون ويثقون أنهم يتناصرون بعضهم مع بعض، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء. والاستفهام: إنكاري، وإفراد المنتصر مع أن ﴿نَحْنُ﴾ ضمير الجمع؛ لأن المراد بالجميع كالجنس، لفظه لفظ واحد، ومعناه جمع فيه الكثرة.

فرد الله تعالى عليهم بقوله: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي سيتفرق جمع أو شمل كفار مكة أو كفار العرب على العموم ويغلَبون، ويولون الأدبار هاربين منهزمين. وكان هذا دليلاً من دلائل النبوة، فقد هزمهم الله يوم بدر، وولوا الأدبار، وقتل رؤساء الكفر وأساطين الشرك.

عن أبي جهل: أنه ضرب فرسه يوم بدر، فتقدم في الصف، فقال: نحن نُنصَر اليوم من محمد وأصحابه، فنزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي الأدبار.

وأخرج البخاري والنسائي عن ابن عباس: أن النبي ﷺ قال: وهو في قُبَّة له يوم بدر: «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئتَ لم تُعبدْ بعد اليوم في الأرض أبداً» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححتَ على ربِّك، فخرج وهو يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾

وأخرج ابن أبي حاتم عن عِكْرمة قال: لما نزلت: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يُغلَب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ فعرفت تأويلها يومئذ.

ثم بيَّن الله تعالى أن الأمر غير مقتصر على انهزامهم وإدبارهم، بل الأمر أعظم منه، فإن الساعة موعدهم، وسيلقون في الآخرة عذاباً أشد إن بقوا مصرين على الكفر، فقال:

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ أي بل إن القيامة موعد عذابهم الأخروي، وليس هذا العذاب الكائن في الدنيا بالقتل والأسر والقهر هو تمام ما وعدوابه من العذاب، وإنما هو مقدمة من مقدماته، وعذاب القيامة أعظم وأنكى، وأشد مرارة من عذاب الدنيا، كما أنه عذاب دائم خالد.

قال الرازي: هذا قول أكثر المفسرين، والظاهر أن الإنذار بالساعة لكل من تقدم، كأنه قال: أهلكنا الذين كفروا من قبلك، وأصرُّوا، وقوم محمد ﷺ ليسوا بخير منهم، فيصيبهم ما أصابهم إن أصروا، ثم إن عذاب الدنيا ليس لإتمام المجازاة، فإتمام المجازاة بالأليم الدائم[١].

ثم أخبر الله تعالى عن نوع العذاب الأخروي، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي إن المشركين بالله الذين كذبوا رسله وكل كافر ومبتدع كافر ببدعته من سائر الفرق في حيرة وتخبط في الدنيا وبعد عن الحق والصراط المستقيم، وفي نيران مستعرة في جهنم يوم القيامة.

وجاء إطلاق المجرمين على (المشركين) في قوله تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٥٥/٤١].

وبعض المفسرين رأوا أن هذه الآية نازلة في القدرية، روى الواحدي في تفسيره بإسناده عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر، فأنزل الله تعالى هذه الآية إلى قوله: ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[٢].

وعن عائشة أن النبي ﷺ قال: «مجوسُ هذه الأمة: القَدَرية»[٣] وهم المجرمون الذين سماهم الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق في الدنيا﴿وَسُعُرٍ﴾ وهو نيران في الآخرة.

وبيَّن الإمام الرازي رحمه الله معنى القدرية الذين قال النبي ﷺ نزلت الآية فيهم، فذكر أن كل فريق في خلق الأعمال يذهب إلى أن القدري خصمه،

---

(١) تفسير الرازي: ٢٩/٦٨.

(٢) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه.

(٣) رواه ابن ماجه عن جابر بلفظ «إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله تعالى..» وهو ضعيف.

فالجبري يقول: القدري من يقول: الطاعة والمعصية ليستا بخلق الله وقضائه وقدره، فهم قدرية؛ لأنهم ينكرون القدر. والمعتزلي يقول: القدري: هو الجبري الذي يقول حين يزني ويسرق الله قدرني، فهو قَدَري لإثباته القدر، وهما جميعاً يقولان لأهل السنة الذين يعترفون بخلق الله، وليس من العبد: إنه قدري.

والحق أن القدري الذي نزلت فيه الآية: هو الذي ينكر القدر، وينكر قدرة الله تعالى، ويقول بأن الحوادث كلها حادثة بالكواكب واتصالاتها، ويدل عليه قوله: جاء مشركو قريش يحاجون رسول الله ﷺ في القدر، فإن مذهبهم ذلك. وأما المراد من قوله ﷺ: «مجوس هذه الأمة هم القدرية» فهم القدرية في زمانه، وهم المشركون الذين أنكروا قدرة الله على الحوادث، فلا يدخل فيهم المعتزلة، ونسبتهم إلى هذه الأمة كنسبة المجوس إلى الأمة المتقدمة[١].

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ أي إن المجرمين الكفار يعذبون في النار، ويُجرُّون فيها على وجوههم للإهانة والإذلال، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً: ذوقوا وقاسوا حرّ النار وآلامها وشدة عذابها.

ثم أبان الله تعالى أن كل ما يحدث في الكون، ومنه أفعال العباد كلهم، هو مخلوق الله، فقال:

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ أي إن كل شيء من الأشياء، وكل فعل من الأفعال في هذا الكون أو هذه الحياة خيراً كان أو شراً، مخلوق لله تعالى، مقدر محكم مرتّب على حسب ما اقتضته الحكمة، وعلى وفق ما هو مقدر مكتوب في اللوح، معلوم لله ثابت في سابق علم الله الأزلي، قبل وجوده أو كونه، يعلم حاله وزمانه. والقدر: التقدير.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٩/٦٩-٧٠.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢] وقوله سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٨٧/ ١-٣] أي قدر قدراً، وهدى الخلائق إليه.

وقد استدل أهل السنة بهذه الآية الكريمة على إثبات قدر الله السابق لخلقه: وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته (أي تسجيله) لها قبل حدوثها.

أخرج الإمام أحمد ومسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكسل» . وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه أحمد ومسلم أيضاً عن أبي هريرة: «استعن بالله، ولا تعجز، فإن أصابك أمر فقل: قدّر الله، وما شاء فعل، ولا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن: لو تفتح عمل الشيطان» .

وأخرج أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: «ياغلام، إني أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجَفَّت الصحف» .

ومن المعلوم أن الكتابة لا تعني الجبر والفرض على العباد، والعلم السابق بالأشياء لا يدل على الإلزام، وإنما يدل على أن جميع ما في الكون معلوم سابقاً لله تعالى.

ثم أوضح الله تعالى نفاذ مشيئته في خلقه، ونفاذ قدره فيهم، فقال:

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ أي إن أمرنا بإيجاد الأشياء إنما يكون مرة واحدة، لا حاجة فيه إلى تأكيد ثان، فيكون الذي نأمر به بكلمة

واحدة حاصلاً موجوداً كلمح البصر في سرعته، لا يتأخر طرفة عين، ولمح البصر: إغماض البصر، ثم فتحه. وهذا تمثيل وتقريب لسرعة نفاذ المشيئة في إيجاد الأشياء، فهو كلمح البصر أو أقرب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٣٦/٨٢] .

ثم أعاد تعالى التنبيه للحق والاتعاظ بهلاك السابقين، فقال:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾ أي وتالله لقد أهلكنا أمثالكم وأشباهكم في الكفر يا معشر قريش، من الأمم السابقة المكذبين بالرسل، فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب، وهل من يتذكر ويتعظ بالمواعظ، ويعلم أن ذلك حق، فيخاف العقوبة التي حلت بالأمم السابقة؟

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٣٤/٥٤] .

وأتبع ذلك الإخبار عن إحصاء جميع أعمالهم ورقابة الله عليهم، فقال:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾ أي إن جميع ما فعلته وتفعله الأمم والشعوب والأفراد من خير أو شر مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي كتب (أو سجلات) الملائكة الحَفَظَة، وما من شيء من أعمال الخلق وأقوالهم وأفعالهم إلا وهو مسطور في اللوح المحفوظ، وفي دواوين الملائكة وصحائفهم، صغيرة وكبيرة، وجليلة وحقيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ٥٠/١٨] .

أخرج الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «يا عائشة، إياكِ ومحقَّراتِ الذنوب، فإن لها من الله طالباً» .

ثم ذكر الله تعالى نوع جزاء المؤمنين المتقين لمقارنته بجزاء الكافرين، ومقابلة الثواب بالعقاب وبالعكس، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾
أي إن المتقين، بعكس ما يكون الأشقياء فيه من النار والسحب على الوجوه فيها، مع التوبيخ والتقريع والتهديد، هم في بساتين غنّاء مختلفة، وجنان متنوعة، وأنهار متدفقة بمختلف أنواع الأشربة من ماء وعسل ولبن وخمر غير مسكرة، وفي الجنة دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه، وفي مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثيم، وفي منزلة وكرامة عند ربهم القادر على ما يشاء، والذي لا يعجزه شيء، فهو الملك العظيم، الخالق للأشياء كلها ومقدّرها، والمقتدر على ما يشاء، مما يطلبون ويريدون.

أخرج أحمد ومسلم والنسائي عن عبد الله بن عمرو، يبلغ به النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يَعْدِلون في حُكْمهم وأهليهم وما وُلّوا».

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- كل من ارتكب جرماً وعوقب بعقاب معين، فإن ذلك العقاب مستحق لأمثال أولئك المجرمين، فليس كفار العرب أو قريش خيراً من كفار من تقدم من الأمم الذين أهلكوا بكفرهم، وليس لهم صك براءة أو وثيقة بالسلامة من العقوبة في الكتب المنزلة على الأنبياء.

٢- زعم كفار قريش أنهم منتصرون على المؤمنين بسبب كثرة عددهم وقوتهم، وضعف المسلمين وقلتهم، غير أن موازين القوى البشرية تختلّ في ميزان القدرة والحكمة والتوفيق الإلهي: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٩].

لذا قال تعالى هنا: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ أي سيهزم جمع كفار

مكة، وقد كان ذلك يوم بدر وغيره. وهذا من دلائل صدق النبوة، قال ابن عباس: كان بين نزول هذه الآية وبين بدر سبع سنين. فالآية على هذا مكية، بل والسورة كلها مكية كما تقدم. أخرج البخاري عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: لقد أنزل على محمد ﷺ بمكة، وإني لجارية ألعب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾. وقد تقدم حديث ابن عباس وقصة أبي بكر يوم بدر.

٣- إن تعذيب الكفار لا يقتصر على الدنيا بالقتل والأسر والهزيمة والذل والهوان، وإنما لهم عذاب آخر في الآخرة أشد وأعظم، وأدهى وأمرّ، وأدوم وأخلد..

٤- إن الكفار والمشركين في حَيْدَة عن الحق واحتراق في نار جهنم، ويُجَرُّون على وجوههم في النار بقصد الإذلال والإهانة.

٥- الله تعالى خالق كل شيء وخالق أفعال العباد كلها دون جبر ولا إكراه عليها: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٩٦] وقوله تعالى هنا: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ فالله قادر، غير أنه لم يجبر أحداً على ما يفعله بل تركه لاختياره وحريته.

ويعد المشركون قدرية لإثباتهم القدرة على الحوادث لغير الله من الكواكب، وطائفة القدرية من المسلمين يوصفون بهذا الوصف لقولهم: لا قدرة لله على تحريك العبد بحركة، كالصلاة والزنا، وإنما العبدُ يخلق أفعال نفسه.

قال القرطبي: والذي عليه أهل السنة: أن الله سبحانه قدّر الأشياء؛ أي علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد منها ما سبق في علمه أنه يوجده على نحو ما سبق في علمه، فلا يحدث حدث في العالم العلوي والسفلي إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة وإضافة، وأن ذلك كله إنما

حصل لهم بتيسير الله تعالى بقدرته وتوفيقه وإلهامه، سبحانه لا إله إلا هو، ولا خالق غيره، كما نص عليه القرآن والسنة، لا كما قالت القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا، والآجال بيد غيرنا. قال أبو ذرّ رضي الله عنه: قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا: الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا؛ فنزلت هذه الآيات إلى قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ فقالوا: يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا؟ فقال: «أنتم خصماء الله يوم القيامة»[1].

٦ً- إن نفاذ أمر الله في خلقه سريع أسرع من لمح البصر، وما هي إلا كلمة واحدة، وهو قوله للأمر: (كن).

٧ً- كرر الله تعالى تحذيره وتوبيخه للمشركين، ونبَّههم إلى أنه أهلك أشباههم في الكفر من الأمم الخالية، فهل من يتذكر؟!

٨ً- جميع ما فعلته الأمم قبل المشركين وجميع ما تفعله بعدهم من خير أو شر كان مكتوباً عليهم في اللوح المحفوظ أو في كتب الحفظة، وكل ذنب صغير أو كبير مكتوب على عامله قبل أن يفعله ليجازى به، ومكتوب إذا فعله، ومكتوب على الكفار إهلاكهم العاجل في الدنيا، وعذابهم الآجل المعد لهم في الآخرة على ما فعلوه، ومكتوب ما يفعله غيرهم.

٩ً- وصف الله المؤمنين بعد وصف الكفار للمقارنة والموازنة والترغيب والترهيب، فالمؤمنون الأتقياء في جنان الخلد التي تجري أنهار الماء والخمر والعسل واللبن من تحت قصورهم، وهم في كرامة ومنزلة عند ربهم المالك القادر على ما يشاء، في مجلس حقّ لا لغو فيه ولا تأثيم، وهو الجنة.

والعندية هنا كما تقدم: عندية القُرْب والزلفى والمكانة والرتبة والكرامة والمنزلة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٤٨/١٧.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الرحمن

مدنية، وهي ثمان وسبعون آية

مكيتها:

سورة الرحمن: في رأي ابن مسعود ومقاتل: مدنية كلها، وقد كتب في بعض المصاحف أنها مدنية، والأصح كما ذكر القرطبي وابن كثير والجمهور أنها مكية كلها، وهو قول الحسن وعُروة بن الزبير وعِكْرمة وعطاء وجابر. وقال ابن عباس: إلا آية منها هي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. وهي ثمان وسبعون (٧٨) آية. وعدها بعضهم (٧٦) آية.

ودليل الجمهور والرأي الأصح: ما روى عُروة بن الزبير قال: أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ ابن مسعود؛ وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعتْ قريشٌ هذا القرآن يُجْهَرُ به قطّ، فمن رجل يسمعهموه؟ فقال ابن مسعود: أنا؛ فقالوا: إنا نخشى عليك، وإنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى، ثم قام عند المقام، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ ثم تمادى رافعاً بها صوته، وقريش في أنديتها، فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن امِّ عَبْد؟ قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه، حتى أثَّروا في وجهه. وصح أن النبي ﷺ قام يصلّي الصبح بنخلة، فقرأ سورة (الرحمن) ومرّ النفر من الجن، فآمنوا به.

وفي الترمذي عن جابر قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة (الرحمن) من أولها إلى آخرها، فسكتوا؛ فقال: «لقد قرأتها على الجنّ ليلة الجنّ، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربَّنا نكذب، فلك الحمد»[١]. وفي هذا دليل على أنها مكية.

تسميتها:

سميت سورة الرحمن؛ لافتتاحها باسم من أسماء الله الحسنى وهو (الرحمن) وهو اسم مبالغة من الرحمة، وهو أشد مبالغة من (الرحيم) وهو المنعم بجلائل النِّعم ولجميع الخلق، أما الرحيم: فهو المنعم بدقائق النعم، والخاص بالمؤمنين.

قال الإمام الطبري: الرحمن: لجميع الخلق، والرحيم: بالمؤمنين.

وتسمى أيضاً في حديث أخرجه البيهقي عن علي كرم الله وجهه مرفوعاً (عروس القرآن). فقال رسول الله ﷺ: «لكل شيء عَروس، وعَروس القرآن: سورة الرحمن» .

مناسبتها لما قبلها:

تظهر صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه:

أ- هذه السورة بأسرها شرح وتفصيل لآخر السورة التي قبلها، ففي سورة القمر بيان إجمالي لأوصاف مرارة الساعة وأهوال النار وعذاب المجرمين، وثواب المتقين ووصف الجنة وأهلها، وفي هذه السورة تفصيل على الترتيب الوارد في الإجمال وعلى النحو المذكور من وصف القيامة والنار والجنة.

(١) قال الترمذي : هذا حديث غريب.

٢ً- ذكر الله تعالى في السورة السابقة أنواع النقم التي حلت بالأمم السابقة قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون، وهنا ذكر أنواع الآلاء والنعم الدينية والدنيوية في الأنفس والآفاق على الناس جميعاً. وافتتح السورة السابقة بما يدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر، وافتتح هذه السورة بما يدل على الرحمة والرحموت وهو إنزال القرآن.

٣ً- ختمت السورة السابقة ببيان صفتين لله عز وجل تدلان على الهيبة والرهبة والعظمة وهما (المليك المقتدر) أي ملك عظيم الملك، قادر عظيم القدرة، وابتدئت هذه السورة بصفة أخرى بجوار ذلك وهي صفة (الرحمن) وبيان مظاهر رحمته وفضله ونعمه على الإنسان وفي الكون كله سمائه وأرضه، فهو سبحانه عزيز شديد مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار، رحمن منعم غافر للأبرار.

ما اشتملت عليه السورة:

سورة الرحمن كسائر السور المكية المتميزة بقصر آياتها، وشدة تأثيرها ووقْعها، ومزيد رهبتها، والمتعلقة بأصول الاعتقاد وهي التوحيد وأدلة القدرة الإلهية، والنبوة والوحي، والقيامة وما فيها من جنة ونار، وآلاء ونعم، وشدائد وأهوال.

عدد الله تعالى في مطلع السورة آلاءه ونعمه العظمى، وأولها نعمة الدين والوحي، وإنزال القرآن وتعليمه عباده به، فهو النعمة الكبرى، وسنام الكتب السماوية ومصداقها. ثم أتبعه ببيان خلق الإنسان ليعلم أنه إنما خلقه للدين، والإفادة من الوحي وكتاب الله، ثم ذكر ما تميز به عن سائر الحيوان من البيان: وهو المنطق الفصيح المعرب عما في الضمير.

ثم أحصى الله تعالى أصول النعم الظاهرة الكبرى في الكون من الشمس والقمر، والنجم (النبات) والشجر، والسماء القائمة على التوازن الدقيق،

والأرض ذات الفواكه والثمار والأشجار، والزروع والرياحين، مع الإشارة إلى خلق عالم آخر غير مادي ولا ملموس وهو الجنّ.

وأضاف إلى ذلك آية على قدرته الباهرة بالفصل بين البحر المالح والعذب، وإخراج اللؤلؤ والمرجان من الماء المالح، كإخراج الحب والعصف والريحان من التراب، وتسيير السفن في أعالي البحار.

ثم يطوى عالم الكون البديع بالفناء الحتمي، ولا يبقى سوى الحي القيوم ذي الجلال والإكرام، ويبدأ بعدئذٍ عالم القيامة وما فيه من أهوال جسام، ومصيرعصيب للمجرمين، وزجّ في نيران الجحيم.

ويقابل ذلك المشهد المؤلم مشهد النعيم في جنان الخلد لأهل الإيمان واليمين، والخوف من مقام الله، وفي تلك الجنان أنواع الأغصان، والعيون والأنهار، والفواكه، والفرش الحريرية الوثيرة والأرائك الخضر، والحور والولدان، والخيرات الحسان.

وناسب كل ذلك ختم السورة بتمجيد الله عزّ وجلّ، والثناء عليه، على ما تفضل به وأنعم على عباده: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

أعظم النعم الإلهية الدنيوية والأخروية

-١-

نعمة القرآن والأشياء الكونية والأرضية

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾: قرئ:

١- (والحبَّ ذا العصفِ والريحانَ) وهي قراءة ابن عامر.

٢- (والحبُّ ذو العصفِ والريحانِ) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (والحبُّ ذو العصفِ والريحانُ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾: مبتدأ، وجملة ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ وما بعدها: أخبار مترادفة، وإخلاؤها من العاطف؛ لأنها

بقصد التعداد، كما تقول: زيد أغناك بعد فقر، أعزّك بعد ذلّ، كثّرك بعد قلة، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد، فما تنكر من إحسانه؟

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ ﴿ٱلشَّمْسُ﴾: مبتدأ، ﴿وَٱلْقَمَرُ﴾: عطف عليه، وخبره: إما قوله ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ وإما محذوف تقديره: يجريان بحسبان.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ منصوبة بتقدير فعل، أي ورفع السماء، وتقرأ بالرفع على الابتداء، كقولهم: زيد لقيته، وعمرو كلّمته. ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨﴾ أن: إما ناصبة مع تقدير حذف حرف الجر، أي لئلا تطغوا، وإما مفسرة بمعنى (أي) فتكون (لا) الناهية، و﴿تَطْغَوْا۟﴾ على الأول منصوب بأن، وعلى الثاني مجزوم بـ (لا).

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ ﴿وَٱلْحَبُّ﴾: بالرفع معطوف على المرفوع قبله، ويقرأ بالنصب بفعل مقدر، أي وخلق، ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾: بالرفع معطوف، وبالنصب معطوف على ﴿وَٱلْحَبُّ﴾ إذا نصب، وبالجر بالعطف على ﴿ٱلْعَصْفِ﴾

البلاغة:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ سجع مرصع غير متكلف.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ و﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

المفردات اللغوية:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾ هو الله تعالى المنعم بجلائل النعم الدنيوية والأخروية،

وهو اسم من أسماء الله الحسنى .﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾﴾ قدم ذلك لأن أصل النعم الدينية وأجلها هو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه، فإنه أساس الدين، ومنشأ الشرع، وأعظم الوحي، وأجلُّ الكتب والمهيمن عليها والمصدِّق لها. ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾﴾ الجنس الإنساني .﴿ٱلْبَيَانَ﴾ التعبير عما في النفس، وإفهام الغير لما يدركه من تلقي الوحي، وتعرف الحق، وتعلم الشرع.

﴿بِحُسْبَانٍ﴾ يجريان بحساب دقيق منظم، مقدر في بروجهما ومنازلهما. ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ النبات الذي ينجم أي يظهر من الأرض، ولا ساق له كالحنطة والمقاثي .﴿وَٱلشَّجَرُ﴾الذي له ساق كالنخل وأشجار الفاكهة .﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادان أو يخضعان لله فيما يريد بهما طبعاً، كما ينقاد الساجد من المكلفين اختياراً أو طوعاً .﴿رَفَعَهَا﴾ خلقها مرفوعة المحل والرتبة .﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ أثبت العدل والنظام والتوازن في الأشياء الكونية كلها، قال ﷺ: «بالعدل قامت السماوات والأرض» .﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾﴾ أي لئلا تجوروا فيما يوزن به، ولا تعتدوا ولا تجاوزوا الإنصاف.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي قوِّموا الوزن بالعدل .﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ تنقصوا الموزون، والتكرار مبالغة في التوصية به، وزيادة الحث على استعماله، وقرئ: (ولا تَخْسُروا) بفتح التاء، وضم السين وكسرها وفتحها. ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ أي أثبتها وبسطها للخلق من الإنس والجن وغيرهم.

﴿فِيهَا فَـٰكِهَةٌ﴾ أنواع ما يتفكه به .﴿ٱلْأَكْمَامِ﴾ أوعية الطلع والثمر، جمع كِمّ: بالكسر .﴿وَٱلْحَبُّ﴾ كالحنطة والشعير والذرة وسائر ما يتغذى به .﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ ورق الزرع الجاف، وهو التبن .﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ الورق المشموم الطيب الرائحة من النبات .﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ أي فبأي نعم ربِّكما أيها الإنس والجن تكذبان؟ والاستفهام للتقرير، ذكرت في السورة

إحدى وثلاثين مرة، فكلما ذكر تعالى نعمة وبخ على التكذيب بها، كما يقول الرجل لغيره معاتباً ومذكراً ومؤنباً: ألم أحسن إليك بكذا بالمال، ألم أحسن إليك بأن أنقذتك من كذا وكذا؟ ويكون التكرار لاختلاف ما يقرر به، وهذا شيء كثير مألوف في كلام العرب، كقول مهلهل يرثي كليباً:

على أنْ ليس عِدْلاً[1] من كُلَيْب إذا مـا ضيم جـيران المجـير
عـلى أن ليس عِـدْلاً مـن كـليب إذا رجف ألعِضاه من الدَّبور[2]
عـلى أن ليس عِـدْلاً مـن كـليب إذا خـرجـت مخـبـأة الخـدور
عـلى أن ليس عـدلاً مـن كـليب إذا مـا أعـلـنـت نجـوى الأمـور
عـلى أن ليس عـدلاً مـن كـليب إذا خيـف المخوف من الـثغـور
عـلى أن ليس عـدلاً مـن كـليب غـداة تـأثـل الأمـر الـكـبـير
عـلى أن ليس عـدلاً مـن كـليب إذا ما خـار جاش المستـجير[3]

وأنشد قصائد أخرى على هذا النمط.

التفسير والبيان:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾ أي إن الله الواسع الرحمة لخلقه في الدنيا والآخرة أنزل على عبده محمد ﷺ القرآن لتعليم أمته وجعله حجة على الناس قاطبة، ويسَّر حفظه وفهمه على من رحمه. وهذا جواب لأهل مكة القائلين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾ [النحل: ١٦/١٠٣].

ولما كانت هذه السورة لتعداد نعم الله التي أنعم بها على عباده، قدَّم بيان أجل النعم قدراً، وأكثرها نفعاً، وهي نعمة تعليم القرآن عباده، فإنها مدار سعادة الدارين. ثم امتن بنعمة خلق الإنسان أداة إعمار الكون، فقال:

---

(١) عدلاً: أي مثلاً ونظيراً.

(٢) العِضاه: كل شجر يعظم وله شوك، والدَّبور: الريح التي تُقَابِل الصَّبَا.

(٣) مخفف جأش وهو العزيمة، وقد تطلق على النفس مجازاً.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ أي أوجد جنس الإنسان، وعلّمه النطق والتعبير عما في نفسه، ليتخاطب مع غيره، ويتفاهم مع أبناء مجتمعه، فيتحقق التعاون والتآلف والأنس، وبذلك اكتملت عناصر التعليم: الكتاب والمعلم وهما القرآن والنّبي، والمتعلم وهو الإنسان، وطريق التعلم وكيفيته وهو البيان.

ثم ذكر الله تعالى أموراً عُلْوية هي مجال التعلم، فقال:

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥﴾ أي إن الشمس المشرقة المضيئة للنهار، والقمر نور الليل يجريان بحساب دقيق منظم مقدر معلوم في بروج ومنازل معلومة، لا يعدوانها، ويدلان بذلك على اختلاف الفصول وعدد الشهور والسنين، ومواسم الزراعة، وآجال المعاملات وأعمار الناس، ويحققان الفوائد الكثيرة للإنسان والنبات والحيوان، ويتعاقبان بحساب مقنن لا يختلف ولا يضطرب، كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٩٦﴾ [الأنعام: ٦/٩٦].

ثم أورد الله تعالى بعض عوالم الأرض السفلى، فقال:

﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦﴾ أي إن النبات الذي لا ساق له، والشّجر الذي له ساق ينقادان طبعاً لله تعالى فيما أراد، كما ينقاد الساجدون من المكلفين اختياراً، فإن ظهورهما من الأرض في وقت معين ولأجل محدد، وجعلهما غذاء للإنسان، ومتعة له شكلاً ولوناً ومقداراً وطعماً ورائحةً، انقياد لقدرة الله تعالى.

ثم نبّه الله تعالى إلى ظاهرة التوازن بين الأشياء، وضرورة التعادل في المبادلات، فقال:

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨﴾ أي

جعل السماء مرفوعة المحل والرتبة فوق الأرض، وأقام التوازن في العالمين العلوي والسفلي الأرضي، وأثبت في الأرض العدل الذي أمر به، لئلا تتجاوزوا العدل والإنصاف في آلة الوزن أثناء مبادلة الأشياء، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٥] فهذا نهي عن الطغيان في الوزن.

وأكد على التزام العدل أو التعادل، فقال:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ أي قوّموا وزنكم بالعدل، ولا تنقصوه ولا تبخسوه شيئاً، بل زنوا بالحق والقسط، كما قال تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٨٢].

وهذا التكرير لتأكيد الأمر بالعدل، ويلاحظ أنه سبحانه أمر أولاً بالتسوية، ثم نهى عن الطغيان الذي هو مجاوزة الحدّ بالزيادة، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس.

ثم ذكر نعمته في الأرض مقابل السماء، فقال:

﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾﴾ أي إنه تعالى كما رفع السماء، وضع الأرض ومهدها وبسطها لينتفع بها، وأرساها بالجبال الراسخات الراسيات ليستقر الأنام على وجهها، وهم الخلائق المختلفة الأنواع والألوان والأجناس والألسنة في سائر الأقطار، ثم أبان تعالى طرق معايش الناس فيها، فقال:

﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ أي إن في الأرض كل ما يتفكه به من أنواع الثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح وأشجار النخيل ذات أوعية الطلع الذي يتحول بعدئذ إلى تمر، وجميع ما يقتات من الحبوب كالحنطة والشعير والذرة ونحوها، ذات العصف وهو بقل الزرع: وهو أول ما ينبت منه، أو هو التبن، وكل مشموم

من النبات ذي الورق الذي تطيب رائحته. وتنكير كلمة الفاكهة وتعريف النخل؛ لأن الفاكهة تكون في بعض الأزمان وعند بعض الأشخاص، أما ثمر النخيل فهو قوت محتاج إليه في كل زمان متداول في كل حين وأوان وعند جميع الأشخاص.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ أي فبأي النعم المتقدمة تكذبان يا معشر الجن والإنس. فالخطاب مع الثقلين: الإنس والجن. وقد عرفنا أن هذه الآية كررت في السورة إحدى وثلاثين مرة بعد كل خصلة من النعم، وجعلها فاصلة بين كل نعمتين، لتأكيد التذكير بالنعم، ولتقريرهم بها، وللتنبيه على أهميتها، والنعم محصورة في دفع المكروه وتحصيل المقصود. وقوله: ﴿رَبِّكُمَا﴾ لبيان أن مصدر هذه النعم من الله المربي الذي يتعهد عباده بالتربية والتنمية، فيكون هو الجدير بالحمد والشكر على ما أنعم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات الكريمات على ما يأتي:

١- عدد الله تعالى في سورة الرحمن نعمه العظمى الدينية والدنيوية والأخروية، وذكر بعد كل نعمة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ للتذكير بالنعمة والتنبيه عليها، مع إشاعة جو الرهبة والتخويف، والتوبيخ لمن أنكرها.

روي أن قيس بن عاصم المِنقري قال للنبي ﷺ: اتْلُ علي مما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ فقال: أعِدْها، فأعادها ثلاثاً؛ فقال: والله إن له لَطلاوة، وإن عليه لَحلاوة، وأسفله لَمُغْدِق، وأعلاه مثمر، وما يقول هذا بشر، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

٢- النعمة الأولى وهي أعظم النعم وأجلها: نعمة إنزال القرآن الذي بدَّل حياة البشرية، وسيظل صوت الحق الأبلج إلى يوم القيامة.

٣- النعمة الثانية والثالثة: خلق جنس الإنسان لإعمار الكون، وتعليمه البيان أي الكلام والنطق والفهم، وهو مما فُضِّل به الإنسان على سائر الحيوان.

٤- النعمة الرابعة والخامسة: خلق الشمس والقمر اللذين يجريان بحساب معلوم دقيق في منازل لا يعدوانها ولا يحيدان عنها، وبهما تحسب الأوقات والآجال والأعمار.

٥- النعمة السادسة: خلق النبات الشامل للنجم، وهو ما لا ساق له، والشجر الذي له ساق، وجعل ذلك منقاداً لإرادة الله تعالى، وتوجيهه لنفع الإنسان.

٦- النعمة السابعة والثامنة: جعل السماء مرفوعة المحل والرتبة عن الأرض، ووضع العدل الذي أمر الله به في الأرض، وأقام التوازن في عالم السماء والأرض.

٧- النعمة التاسعة: خلق آلة الميزان لإقامة العدل في المعاملات، ومنع المنازعات وكفالة استقرار الناس وإبقاء ظاهرة الودّ والصفاء والوئام بينهم.

لذا نهى الله تعالى عن الطغيان في الوزن وهو تجاوز الحد أو الزيادة بعد الأمر بالتسوية والتعادل، ثم نهى عن الخسران الذي هو النقص والبخس في الوزن والكيل، كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين: ٨٣/ ١-٣] ، وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ١١/ ٨٤] .

قال قتادة في هذه الآية: اعدل يا ابن آدم، كما تحبُّ أن يُعْدَلَ لك، وأوفِ كما تحبُّ أن يُوفّى لك، فإن العدل صلاح الناس.

٨- النعمة العاشرة: خلق الأرض ممهدة مبسوطة للناس.

٩ً- النعمة الحادية عشرة: اشتمال الأرض على متعة الحياة وأقوات الإنسان والحيوان، وهو كل ما يتفكه به الإنسان من ألوان الثمار، وإنبات النخيل مصدر التمور، وإخراج الحبّ كالحنطة والشعير ونحوهما، والعصف: وهو التبن، أو ورق الشجر والزروع، والرياحين.

١٠ً- بعد إيراد هذه النعم، خاطب الله تعالى- كما تقدم- الجنّ والإنسان بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ لتقرير النعمة وتأكيد التذكير بها. وقد تقدم حديث الترمذي عن جابر بن عبد الله قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ سورة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾﴾ حتى ختمها ثم قال: «مالي أراكم سكوتاً؟! لَلْجِنُّ كانوا أحسن منكم رَدّاً، ما قرأت عليهم هذه الآية مرة إلا قالوا: ولا بشيء من نِعمك ربَّنا نكذِّب، فلك الحمد».

-٢-

توضيح أحوال بعض النعم

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾

القراءات:

﴿يَخْرُجُ﴾:

وقرأ نافع، وأبو عمرو (يُخرَج).

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾:

وقرأ حمزة (المنشِآت).

الإعراب:

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ مرفوع إما بدل من ضمير ﴿خَلَقَ﴾ أو على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو ربّ المشرقين.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ أي يخرج من أحدهما؛ لأن اللؤلؤ والمرجان لا يخرج من العذب، وإنما يخرج من الملح، فحذف المضاف وهو (أحد) وأقام المضاف إليه مقامه، كقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١/٤٣] أي من إحدى القريتين، فحذف المضاف.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ الكاف في موضع نصب على الحال من ضمير في ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾

البلاغة:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾، ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ بينهما مقابلة. ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ تشبيه مرسل مجمل، أي كالجبال في العظم والضخامة والثبات فوق الشيء.

المفردات اللغوية:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾أصل الإنسان وهو آدم ﴿صَلْصَـٰلٍ﴾ طين يابس له صلصلة أي صوت، إذا نُقِر﴿ كَٱلْفَخَّارِ﴾ وهو الخزف: وهو ما طبخ من طين أو الطين المطبوخ حتى يتحجر .﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ أصل الجن وهو إبليس ﴿مَّارِجٍ﴾ لهب خالص لا دخان فيه﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيان لمارج: فإنه في الأصل الشيء المضطرب.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ أي مشرقي الشتاء والصيف، ومغربهما. ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلهما وأجراهما، يقال: مرجتُ الدابة في المرعى، أي أرسلتها فيه، والبحران: العذب والملح .﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ يتجاوران في المصب دون فصل مرئي بينهما .﴿بَرْزَخٌ﴾ حاجز من قدرة الله تعالى .﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يبغي أحدهما على الآخر، فيختلط به أو يمتزج.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي يخرج من أحدهما وهو الملح ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾ صغار الدّر المخلوق في الأصداف .﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾ كبار الدّر أو الخرز الأحمر .﴿ٱلْجَوَارِ﴾ السفن، جمع جارية .﴿ٱلْمُنشَآتُ﴾ المصنوعات المحدثات، أو الرافعات أشرعتها .﴿كَٱلْأَعْلَامِ﴾ كالجبال عظماً وارتفاعاً، جمع عَلَم: وهو الجبل العالي الطويل.

المناسبة:

بعد تعداد أصول النعم على بني الإنسان وخلق العالم الكبير من السماء والأرض، أراد الله تعالى إيضاح أحوال بعضها، وهي أصل خلق الإنسان والجانّ وهو العالم الصغير، وبيان مشرق الشمس ومغربها وسلطانه عليهما، وعلى البحار وما فيها من لآلئ ومرجان، وما يسير على سطحها من مراكب عظيمة كالجبال، مما يدلّ على وحدانية الله وقدرته.

التفسير والبيان:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ أي خلق الله تعالى أصل الإنسان من طين يابس يسمع له صلصلة، أي صوت إذا نُقِر، يشبه الفخار، أي الخزف: وهو الطين المطبوخ بالنار، للدلالة على صلابة الإنسان وتماسك أجزائه.

وقد تنوعت عبارات القرآن في بيان هذا، باعتبار مراتب الخلق: ﴿مِن

تُرَابٍ﴾، ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ أي طين متغير، أو﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ أي لاصق باليد، ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ﴾، فهذا إشارة إلى أن آدم عليه السلام خلق أولاً من التراب، ثم صار طيناً، ثم حمإٍ مسنوناً، ثم لازباً، ثم كالفخار، فكأنه خلق من هذا ومن ذاك، ومن ذلك.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ أي وأوجد الجنّ من طرف النار، وهو المارج، أي الشعلة الصاعدة ذات اللهب الشديد، التي لا لهب فيها، المختلط الألوان المضطرب، كالأصفر، والأحمر، والأخضر وغيرها. أخرج الإمام أحمد ومسلم عن عائشة قالت، قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ أي فبأي نعم الله يا معشر الثقلين: الإنس والجن تكذبان أو تنكران مما هو واقع ملموس؟!

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾أي ربّ مشرقي الشمس في الصيف والشتاء، وربّ مغربي الشمس في الصيف والشتاء، وبهما تتكون الفصول الأربعة، وتختلف أحوال المناخ من برد وحرّ واعتدال، وغير ذلك من المنافع العظيمة للإنسان.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ أي فبأي نعم الله هذه تكذبان أو تنكران؟ وأما قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٧٠/ ٤٠] فذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس. وقوله سبحانه في آية أخرى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٧٣/ ٩] ، فالمراد منه جنس المشارق والمغارب.

ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾﴾ ؟ فالشمس تشرق صيفاً من

مدار السرطان في نصف الكرة الشمالي، ومن مدار الجدي في الجنوب صيفاً، حيث يكون الشتاء في الشمال، فلو ثبتت الشمس في شروق وغروب واحد لتعطلت المواسم والزراعة في الصيف والشتاء.

وبعد بيان نعم الله في البر، ذكر نعمه في البحر، فقال:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ أي أرسل البحرين ملحاً وعذباً متلاقيين، لا فصل بينهما في مرأى العين، ومع ذلك فبينهما حاجز يحجز بينهما، لا يبغي أحدهما على الآخر، بالامتزاج والاختلاط، وإنما يظلان منفصلين، كما قال تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٥/٥٣].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾ أي فبأي هذه النعمة أو المنفعة تكذبان أيها الإنسان والجن؟ فالعذب للشرب وسقي النبات والحيوان، والملح لتطهير تجمع الماء من الجراثيم، وإصلاح طبقة الهواء، وإخراج اللؤلؤ والمرجان، كما قال تعالى:

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ أي يخرج من أحدهما - على حذف مضاف - وهو الملح ﴿ٱللُّؤْلُؤُ﴾: وهو الدّر الذي يتكون في الصدف، ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾: الخرز الأحمر المعروف.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾ فبأي نعم الله الظاهرة لكم تكذبان يا معشر الجن والإنس؟ فإن في ذلك من الآيات ما لا يستطيع أحد تكذيبه، ولا يقدر على إنكاره.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ أي والله الذي خلق وألهم صنع السفن الجارية في البحر التي رفع بعض خشبها على بعض ورُكِّب،

ورفعت سواريها وأشرعتها في الهواء كالجبال الشاهقة، فهي تنتقل في البحار بالركاب والحمولات والبضائع والأقوات والأرزاق والآلات من بلد إلى آخر، ومن قطر إلى قطر، حتى بلغت حمولة بعض ناقلات النفط خمس مئة ألف طن، بالإضافة لحاملات الطائرات والبوارج الحربية المدمرة، والغواصات الذرية الرهيبة.

ولو شاء تعالى لجعل البحر ساكناً ولما تمكنت السفن أن تطفو فوق الماء. فقوله: ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ إما المرفوعات، وإما المحدثات الموجودات،. وهذا يدل على كبر السفن حيث شبهها بالجبال، وإن كانت المنشآت تطلق على السفينة الكبيرة والصغيرة. وإنما قال: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾خاصة، مع أن له السماوات وما فيها والأرض وما عليها؛ لأن أموال الناس وأرواحهم في قبضة قدرة الله تعالى، حيث لا تصرّف لأحد في الفلك.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان أيها الإنس والجنّ؟ لقد خلقت هذه النعمة العديدة لكم، أيمكنكم إنكار صناعة السفن الضخمة، أو كيفية إجرائها في البحر، أو دورها في تقريب المسافات والاتصال بين أجزاء العالم المتباعدة، ونقل تجاراته وصناعاته، للاستفادة منها في أقاليم أخرى.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

١- إن أصل خلق الإنسان من تراب، ثم طين، فحمأ مسنون، ثم لازب، ومرد غذائه إلى التراب والماء، ومصيره في النهاية إلى الأرض التي خلق منها، ثم يخرج منها يوم البعث والمعاد.

٢- وإن خلق أصل الجن من لهب النار، أو من الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد، المختلط بعضه ببعض: أحمر وأصفر وأخضر.

٣- الله سبحانه ربّ المشرق والمغرب، وربّ المشرقين والمغربين في الصيف والشتاء، وربّ المشارق والمغارب، أي مطالع الشمس ومغاربها في كل يوم.

٤- أرسل الله في البحار والمحيطات الكبرى البحرين: الملح والعذب، وجعل بينهما حاجزاً لا يختلط أحدهما بالآخر، وتلك آية كبرى على قدرة الله وعظمته.

٥- أخرج الله للناس ومنافعهم من البحار المالحة اللؤلؤ والمرجان، كما أخرج من التراب الحبّ والعصف والريحان. وإنما قال: ﴿مِنْهُمَا﴾ وإنما يخرج ذلك من الملح لا العذب؛ لأن العرب تجمع الجنسين، ثم تخبر عن أحدهما، كقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٣٠]، وإنما الرسل من الإنس دون الجن، كما قال الكلبي وغيره. وقال الزجاج: قد ذكرهما الله، فإذا خرج من أحدهما شيء، فقد خرج منهما، وهو كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ٧١/ ١٥-١٦] والقمر في سماء الدنيا، ولكن أجمل ذكر السبع، فكأن ما في إحداهنّ فيهنّ.

وقال أبو علي الفارسي كما تقدم: هذا من باب حذف المضاف، أي من أحدهما، كقوله تعالى: ﴿رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٣١] ، أي من إحدى القريتين.

٦- لا يملك الفلك في البحر في الحقيقة أحد سوى الله؛ إذ لا تصرُّف لأحد فيها، لذا امتن الله تعالى على الناس في تسيير السفن في البحار، وأموال وأرواح ركابها في قبضة قدرة الله تعالى فوق الماء، كما هو الحال في إقلاع الطائرات في أعالي الفضاء فوق الهواء.

والسفن في البحر كالجبال في البر، والطائرات في الجو كالطيور والشهب، ومن المعلوم أن الطائرات في الفضاء كالسفن في البحار تحمل مئات الأطنان.

٧- أردف الله تعالى بعد كل نعمة قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ للتقرير بالنعم المختلفة المتعددة، والتوبيخ على التكذيب بها، كما تقدم بيانه، ومجمل المذكور هنا وما قبله: هل يستطيع أحد إنكار بدء خلق الإنسان والجن، وسلطان الله تعالى على المشرق والمغرب والشمس والقمر، والنجم والشجر، والزرع والحب، والأنهار والبحار، والدر والمرجان، وخلق مواد السفن، والإرشاد إلى أخذها وكيفية تركيبها وإجرائها في البحر، بأسباب لا يقدر على خلقها وجمعها وترتيبها غيره سبحانه وتعالى. والإنسان وإن كان هو الصانع في الظاهر، ولكن صنعه بإلهام الله وتوفيقه وهدايته وإرشاده.

فناء النعم والكون كله وبقاء الله تعالى

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾

البلاغة:

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ مجاز مرسل، أي ذاته المقدسة، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل.

المفردات اللغوية:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ من على الأرض من إنسان وحيوان وموجودات ومصنوعات و﴿مَنْ﴾ لتغليب العقلاء، أو المراد: من الثقلين: الإنس والجن، فالضمير على الصحيح يعود إلى الأرض. ﴿فَانٍ﴾ هالك. ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي ذاته. ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ العظمة. ﴿وَالْإِكْرَامِ﴾ الإفضال العام بأنعمه على المؤمنين. ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ مما ذكرنا قبل، ومن الإخبار بالفناء الذي يعقبه البقاء والحياة الأبدية.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يطلبون منه صراحة أو بلسان الحال كل ما يحتاجون إليه من الحدوث والبقاء للذوات، والسعادة والرزق في الأحوال. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ كل وقت هو في أمر من الأمور، يحدث أشخاصاً، ويجدد أحوالاً على ما سبق به قضائه في الأزل، من إحياء وإماتة، وإعزاز وإذلال، وإغناء وإعدام، وإجابة داع وإعطاء سائل، وغير ذلك.

المناسبة:

بعد تعداد النعم الدينية والدنيوية والأخروية، والاستدلال على قدرة الله وتوحيده في الأنفس والآفاق، نعى الحق سبحانه وتعالى الكون بأجمعه، وأخبر بأن جميع النعم الدنيوية والكائنات فانية، ولا يبقى إلا ذات الله تعالى.

التفسير والبيان:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ أي جميع من على الأرض من الناس والحيوانات، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله، سيفنون ويموتون، وتنتهي حياتهم جميعاً، ولا يبقى إلا ذات الله سبحانه ذو العظمة والكبرياء، والإفضال والإكرام الذي يكرم به المخلصين من عباده، وهذه الصفة (صفة الجلال والإكرام) من عظيم صفات الله، وأعظم النعمة مجيء وقت الجزاء عقب ذلك، قال رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي عن أنس: «ألظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام» أي الزموا ذلك في الدعاء، ومرَّ ﷺ برجل، وهو يصلي ويقول: يا ذا الجلال والإكرام، فقال: «قد استجيب لك».

وفي الدعاء المأثور: «يا حيُّ يا قيُّوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت، برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك».

ونظير الآية: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨/٢٨] قال ابن كثير: وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام، أي هو أهل أن يُجَلّ فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨/١٨] وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩/٧٦] . وقال ابن عباس: ذو الجلال والإكرام: ذو العظمة والكبرياء[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ أي فبأي نعم الله هذه تكذبان أيها الإنس والجن، فالناس والمخلوقات جميعاً يتساوون كلهم في الوفاة، ثم يصيرون إلى الدار الآخرة، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل، والفناء طريق للبقاء، والحياة الأبدية، فكان في الفناء نعمة التساوي في الموت، ونعمة تعاقب الأجيال، ونعمة العدل المطلق، ونعمة الانتقال من الدار الفانية إلى الدار الخالدة الباقية دار الجزاء والثواب، ذات النعيم المادي والروحي الشامل، فكيف يكون منكم التكذيب بهذه النعم العظيمة؟!

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي يطلب منه جميع أهل السماء والأرض كل ما يحتاجون إليه، فيسأله أهل السماوات المغفرة، ولا يسألونه الرزق، وأهل الأرض يسألونه الأمرين جميعاً (المغفرة والرزق) وتسأل لهم الملائكة أيضاً الرزق والمغفرة، فلا يستغني عنه أهل السماء ولا أهل الأرض، والمادة تحتاج إلى ما يناسبها، والنبات يحتاج إلى ما يبقيه، والإنسان بحاجة إلى مقومات الحياة المادية والمعنوية، والحيوان مفتقر إلى عناصر البقاء.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢٧٣/٤.

وهذا إخبار عن غناه تعالى عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان الحال والمقال، وأنه سبحانه كل يوم ووقت في شأن، ومن شأنه أنه يحيي ويميت، ويرزق، ويُغْني ويُفْقر، ويعزُّ ويُذلّ، ويُمْرض ويشفي، ويعطي ويمنع، ويغفر ويعاقب، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

أخرج ابن جرير والطبراني وابن عساكر عن عبد الله بن منيب الأزدي قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ فقلنا: يا رسول الله، وما ذاك الشأن؟ قال: «أن يغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ بأي نعم الله تكذبان؟ فإن اختلاف شؤونه في تدبير عباده نعمة لا يمكن جحدها، ولا يتيسر لمكذِب تكذيبها.

فقه الحياة أو الأحكام:

أفادت الآيات ما يأتي:

١ - الفناء أمر حتمي لجميع الخلائق في السماوات والأرض يوم القيامة، والبقاء بعدئذ لله ذي العزة والجبروت، والعظمة والكبرياء، والتكريم عن كل شيء لا يليق به من الشرك وغيره، والإكرام لعباده المخلصين.

قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فنزلت: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ فأيقنت الملائكة بالهلاك.

٢ - يطلب أهل السماوات والأرض جميع ما يحتاجون إليه، فيسأل أهل السماوات المغفرة، ويسأله أهل الأرض المغفرة والرزق، والله كل يوم في أمر أو شأن، ومن شأنه أن يحيي ويميت، ويُعز ويذل، ويرزق ويمنع. وروى البخاري في تاريخه وابن ماجه وابن حبان عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن

النبي ﷺ أنه قال في هذه الآية: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرِّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين».

٣- لا مجال للتكذيب بشيء من نعم الله في التسوية بين الْخَلْق في الموت والفناء، والانتقال إلى دار الجزاء والثواب، وإجابة دعائهم وتحقيق الخير والرزق والمغفرة لهم في الدنيا والآخرة.

الجزاء والثواب على الأعمال في الآخرة

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾

القراءات:

﴿سَنَفْرُغُ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (سَيَفْرُغُ).

﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾:

وقرأ ابن عامر (أيُّهُ الثقلان).

﴿شُوَاظٌ﴾:

وقرأ ابن كثير (شِواظ).

﴿وَنُحَاسٌ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (نحاسٍ).

الإعراب:

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ ﴿وَنُحَاسٌ﴾ بالرفع: معطوف على قوله﴿شُوَاظٌ﴾ وقرئ بالجر، ولا يجوز عطفه على﴿نَّارٍ﴾ لأن الشواظ لا يكون من النحاس؛ لأن النحاس ههنا بمعنى الدخان، وإنما هو محمول على تقدير: شواظ من نار، وشيء من نحاس، فحذف الموصوف لدلالة ما قبله عليه.

البلاغة:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ استعارة تمثيلية، شبه محاسبة الخلائق وجزاءهم يوم القيامة بالتفرغ للأمر، والله تعالى لا يشغله شأن عن شأن، وإنما ذلك على سبيل المثال، إذ شبه تعالى ذاته في المجازاة بحال من فرغ للأمر.

﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ الأمر هنا للتعجيز، ﴿فَٱنفُذُواْ﴾أمر تعجيزي.

المفردات اللغوية:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾سنتجرد لحسابكم وجزائكم يوم القيامة، أو سنقصدكم بالفعل وفيه تهديد .﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾ الإنس والجن .﴿أَن تَنفُذُواْ﴾ إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض، هاربين من الله، فارّين من قضائه. ﴿أَقْطَارِ﴾ جوانب جمع قطر .﴿فَٱنفُذُواْ﴾ فاخرجوا، وهو أمر تعجيز .﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذ .﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ بقوة وقهر .﴿شُوَاظٌ﴾ لهب خالص لا دخان فيه .﴿وَنُحَاسٌ﴾ ودخان لا لهب فيه .﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ لا تمتنعان من ذلك العذاب، بل تساقون إلى المحشر.

المناسبة:

بعد بيان النعم التي أنعم الله بها على الإنسان من تعليم العلم وخلقه وخلق السماء والأرض وما أودع فيهما، والإخبار عن فنائها يوم القيامة، أخبر الله

تعالى عن مجازاة الناس وحسابهم يوم القيامة، فيجازي كل عامل بما عمل، ويثاب على ما قدم من عمل صالح، ولا مناص ولا مهرب من العقاب، ولا من الامتناع منه.

التفسير والبيان:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ (٣١)﴾ أي سنتجرد لحسابكم وجزائكم على أعمالكم، أيها الثقلان: الإنس والجن. وسموا الثَّقَلين؛ لأنهم ثقل على الأرض أحياء وأمواتاً. وهذا وعيد شديد من الله سبحانه للعباد، علماً بأن الله لا يشغله شيء عن شيء.

جاء في الصحيح تفسير الثقلين بما ذكر: «يسمعه كل شيء إلا الثقلين» وفي رواية: «إلا الإنس والجن» وفي حديث الصور: «الثقلان: الإنس والجن».

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢)﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الثقلين؟ فإن من نعمه إنصاف الخلائق، بإثابة المحسنين، ومعاقبة المجرمين، فلا يظلم أحد شيئاً.

ولا إفلات من هذا الجزاء، فقال تعالى:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ (٣٣)﴾ أي أيها الإنس والجن، إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض ونواحيهما هرباً من قضاء الله وقدره، وأمره وسلطانه، فاخرجوا منها، وخلصوا أنفسكم، لا تقدرون على التخلص والنفوذ من حكمه إلا بقوة وقهر، ولا قوة لكم على ذلك ولا قدرة، فلا يمكنكم الهرب. والمعشر: الجماعة العظيمة، والأدق أن المعشر: العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا بابتداء فيه.

ونظير الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم

مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: ١٠/٢٧].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾ بأي نعم الله تكذبان أيها الثقلان؟ ومن ذلك تقديم التنبيه والتحذير، فذلك يرغّب المحسن، ويرهب المسيء، والله قادر على عقاب الجميع، فلا يفلت أحد، كما أنه تعالى يعفو مع كمال القدرة، وتلك نعمة أخرى. وإنما جمع ﴿ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فهو لبيان عجزهم وعظمة ملك الله تعالى.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾ أي لو خرجتم يسلّط عليكم أيها الإنس والجن سيل من النار أو لهب خالص لا دخان معه من النار، ودخان مع النار، أو يصب على رؤوسكم نحاس مذاب، فلا تقدرون على الامتناع من عذاب الله. فالنحاس: إما الدخان الذي لا لهب له، أو النحاس المذاب الذي يصب على الرؤوس. وإنما ثنى ضمير ﴿عَلَيْكُمَا﴾فهو لبيان الإرسال على النوعين، لا على كل واحد منهما، ولا على جميع الإنس والجن. وكذلك تنثية﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾أراد به النوعين أي لا ينصر بعضكم بعضاً أيها الجن والإنس.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾ بأي نعم الله تكذبان أيها الإنس والجن، فإن التهديد لطف، والتمييز بين المطيع والعاصي، بإثابة الأول، والانتقام من الثاني من نعم الله سبحانه.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ- لا بد من الحساب والجزاء على أعمال الناس والجن يوم القيامة، وسيتم القصد بالفعل للمجازاة أو المحاسبة. وهذا وعيد وتهديد من الله لعباده، ليحذروا يوم الحساب، ويرهبوا يوم الجزاء.

٢ً- الحساب دليل واضح على أن الجن مخاطبون بالتكاليف الشرعية كالإنس تماماً، فهم مكلفون مأمورون منهيون، مثابون معاقبون كالإنس سواءً، مؤمنهم كمؤمنهم، وكافرُهم ككافرهم، لا فرق بيننا وبينهم في شيء من ذلك.

٣ً- لا مفرّ ولا مهرب ولا مناص من الجزاء والحساب على أعمال الإنس والجن، ولا يملكون إطلاقاً التخلص والهروب من العذاب إلا بسلطان من الله يجيرهم، وإلا فلا مجير لهم.

والسبب في تقديم الجن على الإنس في هذه الآية: أن النفوذ من أقطار السماوات والأرض بالجن أليق إن أمكن. أما الإتيان بمثل القرآن فهو بالإنس أليق إن أمكن، لذا قدم الإنس على الجن في ذلك، في قوله تعالى ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٨٨] .

٤ً- لو خرجتم أيها الإنس والجن من ناحية ما، أرسل عليكم شواظ من نار (لهب خالص) ودخان أو نحاس مذاب يصب على رؤوسكم، وأخذكم العذاب المانع من النفوذ أو الخروج، ولا ينصر بعضكم بعضاً يا معشر الجن والإنس.

٥ً- كيف يصح لأحد من الإنس والجن إنكار أو تكذيب شيء من هذه النعم؟ فإن الحساب حق والجزاء حق، يستهدف كل منهما إحقاق الحق التام، وإرساء العدل المطلق، والتخويف والتحذير أو الترهيب يحقق الزجر والامتناع من المخالفة والعصيان، والإذعان التام والإقرار بعظمة سلطان الله، وملكه وقدرته.

تصدع السماء وأحوال المجرمين يوم القيامة

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ (٣٩) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ (٤٤) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥)﴾

الإعراب:

﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ الجار والمجرور في محل رفع نائب فاعل، وليس في (يؤخذ) ضمير يعود على (المجرمين) وإنما يقدر ضمير في رأي البصريين، أي يؤخذ منهم أو يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم. ويرى الكوفيون أن الألف واللام يقومان مقام الضمير مثل: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ (٥٠)﴾ [ص: ٣٨/ ٥٠] أي أبوابها، وكقولهم: زيد أما المال فكثير، أي ماله. ويأبى البصريون ذلك، ويقدرون: مفتحة لهم الأبواب منها، وزيد أما المال فكثير له.

البلاغة:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ﴾ تشبيه بليغ، حذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه، أي كالوردة في الحمرة.

المفردات اللغوية:

﴿ٱنشَقَّتِ﴾ تصدعت. ﴿وَرۡدَةٗ﴾ حمراء، أي كالوردة في الحمرة. ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ مذابة كالدهن، أو كالأديم (الجلد) الأحمر، على خلاف ما هي عليه الآن، وجواب ﴿فَإِذَا﴾ محذوف تقديره: فما أعظم الهول. ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا

﴿يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ أي الناس والجن، وعدم السؤال حينما يخرجون من قبورهم، ويحشرون إلى الموقف. وأما قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: ١٥/٩٢] ونحوه فهو حين الحساب في موقف الحشر.

﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ علامتهم. ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾ جمع ناصية: وهي مقدَّم الرأس. ﴿وَٱلْأَقْدَامِ﴾ جمع قدم: وهي القدم المعروفة، ويؤخذ بهما مجموعاً بينهما. ﴿يَطُوفُونَ﴾ يسعون. ﴿بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ يترددون بين النار التي يحرقون بها، وبين ماء حارٍّ شديد الحرارة، يُسْقَوْنه إذا استغاثوا من حرّ النار.

المناسبة:

هذه الآيات حلقة أخرى تتعلق بأحوال الآخرة والجزاء، فبعد أن ذكر الله تعالى رهبة الحساب وحتميته واستحالة التخلص منه أو الهرب من إيقاعه، ذكر تعالى ما يطرأ على العالم من تغير وتبدل واختلال النظام، حيث تتصدع السماء وتذوب كالدهن أو الزيت، ويتميز المجرمون من غيرهم بعلامات خاصة، فلا حاجة لسؤالهم حينئذٍ، ثم يزجّ بهم في جهنم، بأخذهم بنواصيهم وأقدامهم، ويطاف بهم بين النار التي يحترقون بها، وبين الماء المغلي البالغ نهاية الشدة في الحرارة، ويقال لهم توبيخاً وتقريعاً: هذه جهنم التي كذبتم بها.

التفسير والبيان:

عقب الله بقوله: ﴿فَإِذَا﴾ لأن الفاء للتعقيب، بعد قوله:

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي في وقت إرسال الشواظ عليكما، والمعنى: فإذا انشقت السماء وذابت، وصارت الأرض والجو والسماء كلها ناراً، فكيف تنتصران؟

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝٣٧﴾ أي فإذا جاء يوم

القيامة، انصدعت السماء، وتبددت وصارت كوردة حمراء، وذابت مثل الدهن، أو تلونت كالجلد الأحمر، والمراد أنها تذوب كما يذوب الزيت، وتتلون كما تتلون الصباغ التي يدهن بها، فتارة حمراء، أو صفراء، أو زرقاء، أو خضراء، وذلك من شدة الأمر، وهول يوم القيامة.

ونظائر الآية كثير، مثل: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ۝١﴾ [الانشقاق: ٨٤/ ١] ، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ [الانفطار: ٨٢/ ١] ، ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٦] ،﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝٢٥﴾ [الفرقان: ٢٥/ ٢٥] .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٣٨﴾ أي فبأي نعم الله تكذبان أيها الإنس والجن؟ فإن الخبر بذلك فيه رهبة ورعب يزجر السامع عن الشر، وبأي نعم الله تكذبان مما يكون بعد ذلك؟

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۝٣٩﴾ أي يوم تنشق السماء، لا يسأل أحد من الإنس ولا من الجنّ عن ذنبه؛ لأنهم يُعْرَفُون بسيماهم عند خروجهم من قبورهم، ولأن الله سبحانه قد أحصى الأعمال، وحفظها على العباد. وقال مجاهد في هذه الآية: لا تسأل الملائكة عن المجرمين، بل يعرفون بسيماهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٣٥-٣٦] ، ثم يسألون بعدئذٍ في حال أخرى يوم يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم في موقف الحساب، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٣﴾ [الحجر: ١٥/ ٩٢-٩٣] ، وقال سبحانه: ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ۝٢٤﴾ [الصافات: ٣٧/ ٢٤] .

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٢﴾ بأي نعم الله تكذبان؟ مما أنعم الله على عباده المؤمنين في هذا اليوم، ومن هذا التخويف والإنذار المسبق، ليرتدع الناس عن الذنوب، ويثوبوا إلى رشدهم.

ثم أبان الله تعالى سبب عدم السؤال، فقال:

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾﴾ أي يعرف الكفار والفجار يوم خروجهم من القبور بعلاماتهم، وهي كونهم سود الوجوه، زُرْق العيون، يعلوهم الحزن والكآبة، فيؤخذ بنواصيهم وأقدامهم مجموعاً بينهما، فتجعل الأقدام مضمومة إلى النواصي، وتُلْقيهم الملائكة في النار. والناصية: مقدَّم شعر الرأس. وإفراد (يُؤْخَذُ) مع أن المجرمين جمع، وهم المأخوذون؛ لأن (يُؤْخَذُ) متعلق بقوله تعالى: ﴿بِٱلنَّوَٰصِى﴾ كما يقال: ذهب بزيد.

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾ بأي النعم تتجرأان على تكذيبها، فقد أنذرتم وحذرتم سابقاً، وعرفتم المصير المنتظر في عالم الآخرة؟

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ ها هنا إضمار، أي يقال لهم عند ذلك توبيخاً وتأنيباً: هذه نار جهنم التي تشاهدونها وتنظرون إليها التي كنتم تكذبون بوجودها، وتنكرون حدوثها، ها هي حاضرة أمامكم ترونها عياناً.

وهم تارة يعذبون في الجحيم للاحتراق، وتارة يسقون من الحميم: وهو الشراب أو الماء المغلي الشديد الحرارة، الذي هو كالنحاس المذاب، يقطع الأمعاء والأحشاء، كقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر: ٤٠/٧١-٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ، يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحج: ٢٢/١٩-٢١].

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ أي بأي النعم تكذبان بعد هذا البيان والإنذار والإعلام السابق؟!

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- إن انشقاق أو تصدع السماء يحدث عقب إرسال الشواظ من النار، وإذا انصدعت السماء صارت في حمرة الورد وذوبان الدهن كالجلد الأحمر الصرف، فالتشبيه بالدهن ليس في اللون بل في الذوبان، والتشبيه بالوردة في اللون.

٢- إن القيامة مواطن لطول ذلك اليوم، فيسأل الإنس والجن في وقت ولا يسألون في وقت آخر، فلا يسألون وقت خروجهم من القبور، وإذا استقروا في النار، ويسألون في موقف الحساب قبل الصيرورة إلى الجنة أو إلى النار. والمراد من السؤال على المشهور: أنهم لا يقال لهم: من المذنب منكم؟

٣- يتميز الكفار المجرمون والفجار عن المؤمنين بعلامات بارزة، فهم سود الوجوه، زُرْق العيون، تعلوهم الكآبة والحزن كما تقدم، وتأخذ الملائكة بنواصيهم (أي بشعور مقدم رؤوسهم) وأقدامهم، فيقذفونهم في النار.

٤- يقال للمجرمين تقريعاً وتوبيخاً، وتصغيراً وتحقيراً: هذه النار التي أُخبرتم بها، فكذبتم، ويعذبون مرة في الحميم (الشراب الشديد الحرارة جداً) ومرة في الجحيم (النار).

٥- امتن الله تعالى على عباده بقوله بعد كل نعمة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾ لأن معاقبة العصاة المجرمين، وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه، وكان إنذاره لهم عن عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك.

أنواع نعم الله على المتقين في الآخرة

- ١ -

وصف الجنات

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

الإعراب:

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾ ﴿ذَوَاتَآ﴾ تثنية (ذات) التي أصلها (ذَوَيَة) فتحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، فصارت (ذوات) إلا أنه حذفت الواو من الواحد للفرق بين الواحد والجمع. ودل عود الواو في التثنية على أصلها في الواحد.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حال منصوب من المجرور باللام في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ أي ثبت لهم جنتان في هذه الحال، أو عامله محذوف أي يتنعمون.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾: في موضع نصب على الحال من﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ وتقديره: فيهن قاصرات الطرفِ مُشْبِهاتُ الياقوت والمرجان.

البلاغة:

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ جناس ناقص أو جناس الاشتقاق، لتغير الشكل والحروف. ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ إيجاز بحذف الموصوف وإبقاء الصفة، أي نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن.

المفردات اللغوية:

﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ لكل من خاف، بأن كفَّ عن المعاصي واتبع الطاعات، والأصل في الخوف: توقع مكروه في المستقبل، وهو ضد الأمن. ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ قيامه بين يدي ربه للحساب، فترك معصيته، أي خاف الموقف الذي يقف فيه العباد للحساب، أو قيامه على أحواله واطلاعه عليه. ﴿جَنَّتَانِ﴾ روحانية وجسمانية. ﴿أَفْنَانٍ﴾ أغصان جمع فنن كطلل، أو أنواع من الأشجار والثمار، جمع فنّ. ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾ حيث شاؤوا في الأعالي والأسافل، قيل: إحداهما التسنيم، والأخرى السلسبيل.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ من كل نوع من أنواع الفاكهة. ﴿زَوْجَانِ﴾ صنفان أو نوعان: رطب ويابس. ﴿فُرُشٍ﴾ جمع فراش للنوم والراحة. ﴿بَطَآئِنُهَا﴾ جمع بطانة وهي القماش الرقيق الداخلي. ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ ما غلظ من الديباج وخشن، أي الحرير الثخين، والظهائر: من السندس. ﴿وَجَنَى﴾ ثمر. ﴿دَانٍ﴾قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿فِيهِنَّ﴾ أي في الجنتين وما اشتملتا عليه من الفرش والقصور والعلالي والحور ونحوها أو في هذه الآلاء المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى (الثمر). ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن المتكئين من الإنس والجن، لا ينظرن إلى غيرهم، وهن من الحور أو من نساء الدنيا. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ لم يمسسهن أو لم يفتضهن، وفيه دليل على أن الجن يطمثون. ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ لا من الإنس ولا من الجن.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ﴾ في صفاء الياقوت أو حمرة الوجه، والياقوت: الحجر الأملس الصافي المعروف. (والمرجان) هو الخرز الأحمر، أو صغار اللؤلؤ والدر في بياض البشرة وصفائها، وتخصيص الصغار لأنهن أنصع بياضاً من الكبار .﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العمل .﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ في الثواب، وهو الجنة.

سبب النزول:

نزول الآية (٤٦):

﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال: نزلت هذه الآية في أبي بكر الصديق، وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ ابن حيان في كتاب العظمة عن عطاء: أن أبا بكر الصديق ذكر ذات يوم القيامة والموازين والجنة والنار، فقال: وددت أني كنت خضراء من هذه الخضر، تأتي علي بهيمة تأكلني، وأني لم أخلق، فنزلت: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى ما يلقاه المجرمون: المشركون وأمثالهم من الكفار والفجار العصاة من ألوان العذاب الأخروي، ذكر هنا ما أعدّه الله عز وجل للمؤمنين المتقين الذين يخافون ربهم في السر والعلن من أنواع النعيم الروحي والمادي في الجنة، من قصور، ورياض غنَّاء، وبساتين خضراء، وأنهار جارية، وفواكه متنوعة، وفرُش حريرية، ونساء حسان كالياقوت صفاء، واللؤلؤ أو الدر بياضاً، بسبب ما قدموا من صالح الأعمال،. والخلاصة: أنه لما ذكر أحوال أهل النار، ذكر ما أعدّ للأبرار.

التفسير والبيان:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ أي ولمن

خشي الله وراقبه، فهاب الموقف الذي يقف فيه العباد بين يدي الله للحساب، وحسب الحساب لإشراف الله تعالى على أحواله، واطلاعه على أفعاله وأقواله نعمتان: روحية وجسمانية، أما الروحية رضا الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢/٩] وأما الجسمانية فهي جنتان تشتملان على متع مادية كتمتع الدنيا وأسمى، بسبب أعماله الصالحة، فبأي نعم الله تكذبان أيها الثقلان، فإن نعيم الجنان لا مثيل له، فضلاً عن الخلود والدوام فيه، ولا مانع أن يعطي الله جنتين وجناناً عديدة.

والصحيح - كما قال ابن عباس وغيره- أن هذه الآية عامة في الإنس والجن، فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا.

أخرج البخاري ومسلم وأصحاب السنن إلا أبا داود عن أبي موسى الأشعري قال: «جنان الفردوس أربع جنات: جنتان من ذهب حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة حليتهما وآنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء، على وجهه، في جنة عدن».

وأخرج ابن جرير والنسائي عن أبي الدرداء: «أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: وإن رغم أنف أبي الدرداء».

ثم وصف هاتين الجنتين، فقال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾ أي ذواتا أغصان نضرة حسنة، تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة، أو ذواتا أنواع من الأشجار والثمار، فبأي نعم الله تكذبان يا معشر الجن والإنس، فإن هذا الجمال وهذه النعمة لمما يحرص عليها العقلاء.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾﴾ أي في كل واحدة

من الجنتين عين جارية، فهما عينان تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان، فتثمر من جميع الألوان. قال الحسن البصري: إحداهما يقال لها: تسنيم، والأخرى السلسبيل. فبأي نعم الله يحدث التكذيب؟ فتلك حقيقة قطعية، ونعمة عظيمة.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾﴾ أي في الجنتين من كل نوع يتفكه به ومن جميع أنواع الثمار صنفان ونوعان، يستلذ بكل نوع منهما، أحدهما رطب والآخر يابس، لا يتميز أحدهما عن الآخر في الفضل والطيب خلافاً لثمار الدنيا، بل فيهما مما يعلم وخير مما يعلم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فبأي شيء من هذه النعم تكذبان يا إنس ويا جن؟ قال ابن عباس: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء، يعني أن بين ذلك بوناً عظيماً، وفرقاً واضحاً.

وبعد ذكر الطعام ذكر الفراش، فقال:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾ أي إن أهل الجنة يضطجعون ويجلسون ويتنعمون على فرش بطائنها (وهي التي تحت الظهائر) من إستبرق (وهو ما غلظ من الديباج، أو الديباج الثخين) قال ابن مسعود وأبو هريرة: هذه البطائن، فكيف لو رأيتم الظواهر؟ وقيل لسعيد بن جُبير: البطائن من إستبرق، فما الظواهر؟ قال: هذا مما قال الله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ٣٢/ ١٧] .

وقال ابن عباس: إنما وصف لكم بطائنها لتهتدي إليه قلوبكم، فأما الظاهر فلا يعلمها إلا الله.

وثمر الجنتين قريب التناول منهم متى شاؤوا وعلى أي صفة كانوا، كما قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ٢٣] وقال سبحانه: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا

تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ٧٦/ ١٤] أي لا تمتنع ممن تناولها، بل تميل إليه من أغصانها. فبأي شيء من هذه النعم يحصل التكذيب والإنكار؟! ثم ذكر تعالى أوصاف الحور والنساء، فقال:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾ أي هناك نساء في الجنتين المذكورتين وما فيهما من أنهار وعيون وفرش وغيرها، أو في هذه الآلاء (النعم) المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهة والفرش والجنى (الثمر) أو في الجنان؛ لأن ذكر الجنتين يدل عليه، ولأنهما يشتملان على أماكن ومجالس ومتنزهات، وهن نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم لم يمسسهن ولم يفتضهن ولم يجامعهن قبلهم أحد من الإنس والجن؛ لأنهن خلقن في الجنة، فبأي النعم تكذبان أيها الثقلان؟! والطمث: الافتضاض. ثم نعت (وصف) النساء بقوله:

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾ أي كأن تلك النسوة الياقوت صفاء، وصغار اللؤلؤ بياضاً، فبأي نعمة تكذبان؟

والياقوت: هو الحجر الصافي الكريم المعروف، والمرجان: حجر يؤخذ من البحر، وهو الأحمر المعروف. قال مجاهد والحسن وابن زيد وغيرهم: في صفاء الياقوت وبياض المرجان. فجعلوا المرجان هنا اللؤلؤ.

أخرج الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر والتي تليها على ضوء كوكب دُرِّي في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب» .

ثم بيَّن الله تعالى سبب هذا الثواب فقال:

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾

أي ما جزاء من أحسن العمل في الدنيا إلا الإحسان إليه في الآخرة، فهاتان الجنتان لأهل الإيمان وصالح الأعمال، كما قال تعالى﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٠/٢٦] .

أخرج البغوي والبيهقي وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أنس بن مالك قال: «قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ وقال: هل تدرون ما قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة» . وبما أن الذي ذكر هنا نعم عظيمة لا يقابلها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان قال تعالى بعد ذلك: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾ ؟

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ً- لكل من خاف المقام بين يدي ربه للحساب، فترك المعصية، أو خاف إشراف ربه واطلاعه عليه جنتان، أي لكل خائف جنتان على حدة، ذكر المهدوي والثعلبي عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «الجنتان: بستانان في عرض الجنة، كل بستان مسيرة مئة عام، في وسط كل بستان دار من نور، وليس منها شيء إلا يهتز نغمة وخضرة، قرارها ثابت، وشجرها ثابت» .

٢ً- تلك الجنتان: ذواتا ألوان من الفاكهة والأغصان والأشجار والثمار، وفي كل واحدة منهما عين جارية، تجريان بالماء الزلال، إحدى العينين: التسنيم، والأخرى السلسبيل، كما تقدم من قول الحسن.

وفيهما أيضاً من كل ما يتفكه به صنفان أو نوعان، وكلاهما حلو يستلذ به، قال ابن عباس: ما في الدنيا شجرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظل إلا أنه حلو. وثمر الجنة (الجنى) قريب التناول لكل إنسان، خلافاً لجنة دار الدنيا.

٣ً- أهل الجنة يضطجعون ويجلسون على فرش بطائنها (جمع بطانة: وهي التي تحت الظهارة) من إستبرق (ما غلظ من الديباج وخشن) وإذا كانت البطانة التي تلي الأرض هكذا، فما ظنك بالظهارة؟ كما قال ابن مسعود وأبو هريرة، وهذا يدل على نهاية شرفها، وتمتع أهلها بالثواب والنعيم العظيم. والظاهر أن لكل واحد فرشاً كثيرة، لا أن لكل واحد فراشاً واحداً. والاتكاء يدل على صحة الجسم وفراغ القلب والشعور بالمتعة والسرور البالغ.

٤ً- في الجنات وما فيها من ألوان النعمة نساء قاصرات الأبصار على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم، بكارى، لم يُصِبْهن بالجماع قبل أزواجهن هؤلاء أحد.

٥ً- في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ دليل على أن الجن تغشى كالإنس، وتدخل الجنة، ويكون لهم فيها جِنّيات، ودليل على أن نساء الآدميات قد يطمثهن الجان، والطمث: الافتضاض أو الجماع، وأن الحور العين قد بَرِئن من هذا العيب ونُزِّهن. قال ضمرة: للمؤمنين من الجن أزواج من الحور العين، فالإنسيات للإنس، والجنيات للجن.

٦ً- من أوصاف تلك النساء: أنهن في صفاء الياقوت وبياض المرجان.

روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقيها من وراء سبعين حُلَّة، حتى يرى مُخّها» وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾. والياقوت كما تقدم: حجر أملس شديد الصفاء. والمرجان: صغار الدر أو اللؤلؤ.

٧ً- ترتيب النعم في غاية الحسن، فإن الله تعالى ذكر أولاً المسكن وهو الجنة، ثم بيّن ما يتنزه به من البساتين، فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾ ثم ذكر ما يتناول من المأكول، فقال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ ثم ذكر موضع الراحة بعد التناول وهو الفراش، ثم ذكر ما يكون في الفراش معه من الحوريات.

٨ً- أردف الله تعالى كل نعمة بتوبيخ من ينكرها أو يكذب بها، ومنها نعم تقابل بعمل. ونعم هي مجرد فضل وامتنان دون مقابلة عمل.

٩ً- هذه النعم في الغالب جزاء أو ثواب العمل الصالح في الدنيا، وهل جزاء من أحسن في الدنيا إلا أن يحسن إليه في الآخرة؟ وآية ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ فيها ثلاث دلالات واضحة: هي ما يأتي:

الأولى - رفع التكليف عن العوام والخواص في الآخرة، وأما الحمد والشكر فهو لذة زائدة على كل لذة سواها.

الثانية - أن العبد محكّم في أحوال نعيم الآخرة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يس: ٣٦/ ٥٧] .

الثالثة - كل ما يتخيله الإنسان من أنواع الإحسان الإلهي، فهو دون الإحسان الذي وعد الله تعالى به؛ لأن عطاء الكريم لا يحد ولا يوصف، فالذي يعطي الله فوق ما يرجو العبد، وذلك على وفق كرمه وإفضاله.

-٢-

وصف آخر للجنات

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

القراءات:

﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾:

وقرأ ابن عامر (ذو الجلال).

الإعراب:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ أي ولهم من دونهما جنتان، فحذف (لهم) لدلالة الكلام عليه تخفيفاً.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾: أصله: خيِّرات بالتشديد، وقد قرئ به على الأصل، إلا أنه خفف كتخفيف شَيْد وهيْن وميْت.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ حال، و﴿رَفْرَفٍ﴾ وهي الوسائد: إما اسم جمع، كقوم ورهط، ولهذا وصف بـ ﴿خُضْرٍ﴾ وهو جمع أخضر، كقولك: قوم كرام، ورهط كرام، ورهط لئام. أو جمع (رفرفة) مثل عبقري جمع عبقرية. و﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾: منسوب إلى عبقر: وهو اسم موضع ينسج به الوشي الحسن، وجمع عبقر: عباقر، ومن قرأ (عباقريّ) فلا يصح أن ينسب إليه وهو جمع؛ لأن النسب إلى الجمع يوجب ردّه إلى الواحد، إلا أن يُسمع بالجمع، فيجوز أن ينسب إليه على لفظه كمعافريّ وأنماريّ، ولا يعلم أن عباقر: اسم لموضع مخصوص بعينه.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ يقرأ (ذو الجلال) وصف للاسم، ويقرأ بالجر على أنه وصف لـ ﴿رَبِّكَ﴾.

المفردات اللغوية:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ أي ومن دون الجنتين المذكورتين الموعودتين للخائفين المقرَّبين، أي ومن ورائهما جنتان أقل منهما. ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾

شديدتا الخضرة من كثرة الري والعناية، كأنهما سوداوان، والدهمة في اللغة: السواد. ﴿نَضَّاخَتَانِ﴾ فوّارتان بالماء. ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ عطفهما على الفاكهة بياناً لفضلهما، فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، وثمرة الرمان فاكهة ودواء، كما قال البيضاوي. ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ في الجنتين وما فيهما أو في الجنان نساء خيِّرات الأخلاق، حسان الوجوه، وخيرات مخففة كقوله ﷺ: «هيْنون ليْنون». ﴿حُورٌ﴾ جمع حوراء: بيضاء، شديدة سواد العين وبياضها. ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ مخدَّرات مستورات. ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ جمع خيمة: وهي التي تنصب على أعواد أربعة وتسقف بنبات الأرض، وأما الخباء: فهو ما يتخذ من شعر أو وبر. وخيام الجنة شبيهة بالخدور، مصنوعة من الدرّ. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ لم يفتضهن أو يجامعهن. ﴿رَفْرَفٍ﴾ وسائد، جمع رفرفة. ﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ طنافس منقوشة عجيبة الوشي نادرة. ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ تقدس وتنزه اسم الله الذي يطلق على ذاته. ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي ذي العظمة والكبرياء، أو ذي العظمة والتكريم عن كل ما لا يليق به، أو الإفضال والإنعام على عباده.

المناسبة:

ذكر الله تعالى في الآيات السابقة بعض أوصاف الجنة التي هي ثواب المتقين الخائفين ربهم، ثم أردفه بأوصاف أخرى للجنة، مبيناً أولاً أن ثواب الخائفين جنتان، وثواب آخر مثله وهو جنتان أخريان.

التفسير والبيان:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾﴾ أي وهناك جنتان أخريان للخائفين، أو هناك جنتان أخريان، دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة، لمن دون أصحاب الجنتين السابقتين من أهل الجنة، تقدم في الحديث: جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما،

وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، فالأوليان للمقرَّبين، والأخريان لأصحاب اليمين. وفي الجنتين السابقتين أشجار وفواكه وغير ذلك، وكذا هاتان الجنتان خضراوان، فهما من شدة خضرتهما سوداوان في رأي العين، من شدة الري المائي. وقد فسر ابن عباس وأبو أيوب الأنصاري وغيرهما من الصحابة والتابعين قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ بأنهما خضراوان، وذلك مروي في حديث عن أبي أيوب أخرجه الطبراني وابن مردويه.

فبأي نعم الله تكذبان أيه الإنس والجن؟ فالجنتان في غاية المتعة والنضرة والخضرة، ولكنهما دون الجنتين المتقدمتين في الرتبة والفضيلة، فهناك جنتان ذواتا أفنان، أي أغصان وأشجار وفواكه، وهنا جنتان خضراوان.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾ أي في الجنتين عينان فيَّاضتان فوَّارتان بالماء العذب، فهناك جنتان تجريان، وهنا جنتان فوَّارتان، والجري أقوى من النضخ، قال البراء بن عازب: العينان اللتان تجريان خير من النضاختين. فبأي نعم الله تكذبان أيها الإنس والجن؟

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾ أي في هاتين الجنتين فاكهة كثيرة متنوعة، ومنها ثمر النخيل والرمان، وإفرادهما بالذكر من بين سائر الفواكه ليس من عطف الخاص على العام كما ذكر البخاري وغيره، وإنما لمزيد حسنهما، وكثرة نفعهما بالنسبة إلى سائر الفواكه، ولشرفهما على غيرهما، لدوامهما وكونهما غذاء ودواء، ولوجودهما في الخريف والشتاء.

وقد قال هناك: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ وقال هنا: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ ولا شك أن الأولى أعم وأكثر في الأفراد والتنويع، من قوله ﴿فَٰكِهَةٌ﴾فهي نكرة في سياق الإثبات لا تعم.

فبأي نعم الله تكذبان يا إنس ويا جن، فإن هذه النعم تستحق الحمد والشكر.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾﴾ أي في هاتين الجنتين نساء حسان الخَلْق والخُلُق، أو هن ذوات فضل، خيِّرات فاضلات الأخلاق، حسان الوجوه، فالخيِّرات جمع خيِّرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخُلق، الحسنة الوجه، وهو قول الجمهور، بدليل ما روى الحسن عن أم سلمة قالت: « قلت لرسول الله ﷺ، أخبرني عن قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ ؟ قال: خيّرات الأخلاق، حسان الوجوه »، وفي حديث آخر أن الحور العين يغنين: نحن الخيرات الحسان، خلقنا لأزواج كرام.

وقال قتادة: المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾﴾ أي إن هؤلاء النساء الخيرات حور شديدات البياض، وفي عيونهن حور، أي واسعات الأعين، مع صفاء البياض، مخدرات محجبات مستورات في خيام الجنة المكونة من الدّر المجوفة، فلسن مترددات في الشوارع والطرقات. وقد وصفت نساء الجنتين هناك بأنهن ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ فهن أعلى منزلة من هؤلاء المذكورات في هذه الآية: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ لأنه لا شك أن التي قد قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصرت، وإن كان الجميع مخدرات. والعرب يمدحون ويؤثرون النساء الملازمات للبيوت، لتوافر الصون، فبأي نعم الله هذه ونحوها تكذبان؟!

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾﴾ أي لم يمسّهن ولم يجامعهن قبل ذلك أحد من الإنس والجن، توفيراً للمتقين الخائفين ربّهم، فبأي نعم الله تكذبان؟! وقد زاد في وصف نساء الجنتين السابقتين بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾﴾ أي وهم في الجنة متكئون مستندون على وسائد خضراء، وبسط منقوشة

بديعة فاخرة متقنة الصنع، فبأي نعم لله تكذبان أيها الإنس والجن؟! وقد وصف الله مرافق الجنتين الأوليين بما هو أرفع وأولى من هذه الصفة، فإنه تعالى قال هناك: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾.

وختمت الصفات المتقدمة بقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ فوصف أهلها بالإحسان وهو أعلى مراتب العبادة.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ أي تقدس وتنزه الله صاحب العزة والعظمة والتكريم على ما أنعم به على عباده المخلصين، فهو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى.

ويلاحظ أنه قال سابقاً بعد ذكر نعم الدنيا: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ للإشارة إلى فناء كل شيء من الممكنات، وقال بعد ذكر نعم الآخرة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ للإشارة إلى بقاء أهل الجنة ذاكرين اسم الله متلذذين به.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- هناك أربع جنان ذات منازل مختلفة لمن خاف مقام ربِّه، فجنتان للمقربين، ودونهما في المكان والفضل جنتان لأصحاب اليمين، كما قال ابن زيد، وقال ابن جريج: هي أربع: جنتان منها للسابقين المقرَّبين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ و﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وجنتان لأصحاب اليمين ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾. وقد ذكرت ما رواه أبو موسى عن النبي ﷺ: «وجنتان من فضة، أبنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب، أبنيتها وما فيهما».

٢- لما وصف الله الجنتين لكل فريق أشار إلى الفرق بينهما:

أولاً - فقال في الأولين: ﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ ٤٨﴾ أي ذواتا ألوان من الفاكهة، وقال في الأُخريين: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ٦٤﴾ مخضرتان في غاية الخضرة من الري.

ثانياً - وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ ٥٠﴾ وفي الأُخريين: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ٦٦﴾ أي فوارتان ولكنهما ليستا كالجاريتين؛ لأن النضخ دون الجري.

ثالثاً - وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ ٥٢﴾ فعمّ ولم يخص، وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ٦٨﴾ ولم يقل: من كل فاكهة.

قال بعض العلماء: ليس الرمان والنخل من الفاكهة؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه، إنما يعطف على غيره، وهذا ظاهر الكلام. وقال الجمهور: هما من الفاكهة، وإنما أعاد ذكر النخل والرمان لفضلهما وحسن موقعهما على الفاكهة، كقوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢/٢٣٨] ، وقوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٢/٩٨] .

وبناء على الرأي الأول قال أبو حنيفة: من حلف ألا يأكل فاكهة فأكل رمّاناً أو رُطباً، لم يحنث، وخالفه صاحبه والجمهور.

رابعاً- وقال في الأوليين: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ وفي الأُخريين: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ ٧٠﴾ يعني النساء، الواحدة خَيْرة، على معنى ذوات خير، وقرئ (خيِّرات) والتي قصرت طرفها بنفسها أفضل ممن قُصرت، كما تقدم.

ووصفت الأوليان بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٥٨﴾.

ويلاحظ أنه سبحانه قال في الموضعين عند ذكر الحور: ﴿فِيهِنَّ﴾ وفي سائر المواضع: ﴿فِيهِمَا﴾ والسّر في ذلك الإشارة إلى أن لكل حورية مسكناً على

حدة، متباعداً عن مسكن الأخرى، متسعاً يليق بالحال، وهذا ألذ وأمتع وأهنا للرجل الواحد عند تعدد النساء، فيحصل هناك متنزهات كثيرة، كل منها جنة، وكأن في ضمير الجمع إشارة لذلك. أما العيون والفواكه فلا حاجة فيها لهذا الاستقلال، فاكتفى فيها بعود الضمير إلى الجنتين فقط.

وهل الحور أكثر حسناً وأبهر جمالاً من الآدميات؟ قيل: الحور؛ لما ذكر من وصفهن في القرآن والسنة؛ ولقوله ﷺ في دعائه على الميت في الجنازة: «وأبدله زوجاً خيراً من زوجه».

وقيل: الآدميات أفضل من الحور العين بسبعين ألف ضعف؛ لحديث روي مرفوعاً(١).

والمشهور أن الحور العين لَسْنَ من نساء أهل الدنيا، وإنما هنّ مخلوقات في الجنة؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ وأكثر نساء أهل الدنيا مطموثات.

خامساً- وقال في الأولين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وفي الأخريين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾ ويلاحظ أن الوصف الأول أرفع وأفخم.

٣- كرر الله تعالى في هذه السورة قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ إحدى وثلاثين مرة: ثمانية منها ذكرها عقيب تعداد عجائب خلقه، وذكر المبدأ والمعاد، ثم سبعة منها عقيب ذكر النار وأهوالها على عدد أبواب جهنم، وبعد هذه السبعة أورد ثمانية في وصف الجنات وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية بعدها عقيب وصف الجنات التي هي دونهما، فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها، استحق كلتا الثمانيتين من الله، ووقاه السبعة السابقة.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٧/١٨٧ وما بعدها.

٤- نزّه الله تعالى نفسه عما لا يليق بجلاله، وختم السورة به، والاسم (اسم الجلالة) مقحم على المشهور للتبرك والتعظيم كالوجه في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾، وهذا لتعليم العباد بأن كل ما ذكر من آلاء ونعم من فضله ورحمته، وأن من عدله تعذيب العاصين، ولإثابة الطائعين، فإنه افتتح السورة باسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾ فوصف خلق الإنسان والجن، وخلق السماوات والأرض وصنعه، وأنه كل يوم هو في شأن، ووصف تدبيره فيهم، ثم قال في آخر السورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ أي هذا الاسم الذي افتتح به هذه السورة، كأنه يعلم عباده أن هذا كله خرج لكم من رحمتي، فمن رحمتي خلقكم وخلقت لكم السماء والأرض والخلق والخليقة والجنة والنار، فهذا كله من اسم الرحمن.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الواقعة

مكية، وهي ست وتسعون آية

تسميتها:

سميت سورة الواقعة؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾ أي إذا قامت القيامة التي لا بدّ من وقوعها وهي مكّية على الصحيح.

مناسبتها لما قبلها:

تتصل هذه السورة بسورة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾، وتتآخى معها من وجوه:

١- في كل من السورتين وصف القيامة والجنة والنار.

٢- ذكر تعالى في سورة﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾ أحوال المجرمين وأحوال المتقين في الآخرة وبيّن أوصاف عذاب الأولين في النار، وأوصاف نعيم الآخرين في الجنان، وفي هذه السورة أيضاً ذكر أحوال يوم القيامة وأهوالها وانقسام الناس إلى ثلاث طوائف: هم أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقون، فتلك السورة لإظهار الرحمة، وهذه السورة لإظهار الرحمة، على عكس تلك السورة مع ما قبلها.

٣- ذكر تعالى في سورة ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١﴾ انشقاق السماء (تصدعها) وذكر

هنا رجّ الأرض، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما في الموضوع سورة واحدة، ولكن مع عكس الترتيب، فذكر في أول هذه السورة ما ذكره في آخر تلك، وفي آخر هذه ما في أول تلك.

فافتتح سورة﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ ﴾ بذكر القرآن ثم الشمس والقمر، ثم النبات، ثم خلق الإنسان والجان من نار، ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنة، وابتدئت هذه السورة بوصف القيامة وأهوالها، ثم صفة الجنة، ثم صفة النار، ثم خلق الإنسان، ثم النبات، ثم الماء، ثم النار، ثم النجوم التي لم يذكرها في ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ ﴾ كما لم يذكر هنا الشمس والقمر، ثم القرآن، فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك.

ما اشتملت عليه السورة:

ابتدأت السورة بالحديث عن اضطراب الأرض وتفتت الجبال حين قيام الساعة، ثم صنفت الناس عند الحساب أقساماً ثلاثة: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقين، وأخبرت عن مآل كل فريق وما أعده الله لهم من الجزاء العادل يوم القيامة.

وأوضحت أن الأولين والآخرين من الخلائق مجتمعون في هذا اليوم.

ثم أقامت الأدلة على وجود الله الخالق ووحدانيته وكمال قدرته، وإثبات البعث والنشور والحساب، من خلق الإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وخلق قوة الإحراق في النار.

ثم أقسم الله عزَّ وجلّ بمنازل النجوم على صدق تنزيل القرآن من ربّ العالمين، وأنه كان في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون، وندد بالتشكيك في صحته وصدقه.

ولفت الله تعالى النظر إلى ما يلقاه الإنسان عند الاحتضار من شدائد

وأهوال، وختمت السورة ببيان عاقبة الطوائف الثلاث وما يجدونه من جزاء، وهم المقرَّبون الأبرار، السابقون إلى خيرات الجنان، وأهل اليمين السعداء، والمكذِّبون الضالون أهل الشقاوة، وأن هذا الجزاء حق ثابت متيقن لا شك فيه.

وكل ذلك يستدعي الإقرار بوجود الخالق وتنزيهه عما لا يليق به من الشرك ونحوه، وتوبيخ المكذبين على إنكار وجود الله تعالى وتوحيده.

فضلها:

وردت أحاديث في فضل هذه السورة منها:

١ً- أخرج الحافظ أبو يعلى وابن عساكر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً» وفي رواية: «في كل ليلة».

٢ً- أخرج ابن مردويه عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «سورة الواقعة سورة الغنى، فاقرؤوها، وعلِّموها أولادكم» وأخرج الديلمي عنه مرفوعاً: «علِّموا نساءكم سورة الواقعة، فإنها سورة الغنى».

٣ً- أخرج الإمام أحمد عن جابر بن سمرة يقول: كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات الخمس كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر الواقعة ونحوها من السور.

٤ً- أخرج الترمذي عن ابن عباس قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت قال: «شيَّبتني هود، والواقعة، والمرسلات، و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾، و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾» وقال: حسن غريب.

٥-أخرج الثعلبي وابن عساكر في ترجمة عبد الله بن مسعود عن أبي ظبية قال: مرض عبد الله مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان، فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي، قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه، قال: يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة، لم تصبه فاقة أبداً».

قيام القيامة وأصناف الناس

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢)﴾

الإعراب:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١)﴾ ﴿إِذَا﴾: في موضع نصب إما بـ﴿وَقَعَتِ﴾ لأن ﴿إِذَا﴾ فيها معنى الشرط، فجاز أن يعمل فيها الفعل الذي بعدها، وإما أن العامل فيه: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤)﴾ أي وقوع الواقعة وقت رج الأرض، وإما العامل: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢)﴾ أي ليس لوقعتها كذب، و﴿كَاذِبَةٌ﴾ بمعنى كذب، كالعاقبة والعافية، وإما العامل فعل مقدر، أي اذكر.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣)﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي فهي خافضة رافعة، وهي جواب ﴿إِذَا﴾ وقرأ بالنصب على الحال من الواقعة، أي وقعت في حالة الخفض والرفع.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ﴿٤﴾﴾بدل من قوله تعالى ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾.

﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿٨﴾﴾ قيل: هو جواب ﴿إِذَا﴾وهو مبتدأ. و﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول، والعائد فيها محذوف: أي: (ماهم).

وكذلك قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ والاستفهام في هذين الموضعين معناه التعجب والتعظيم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأول: مبتدأ، والثاني: صفة، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾مبتدأ ثان، و﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ خبره، والأحسن أن يقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأ، والثاني: خبر، وجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ استئناف بياني.

البلاغة:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ جناس اشتقاق.

﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ و﴿ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ بينهما طباق، وكذا بين﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ وإسناد الخفض والرفع إلى القيامة مجاز عقلي؛ لأن الخافض الرافع على الحقيقة هو الله وحده، ونسب إلى القيامة مجازاً، مثل (نهاره صائم).

المفردات اللغوية:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ إذا حدثت القيامة، سماها واقعة لتحقق وقوعها .﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا﴾ لوقوعها .﴿كَاذِبَةٌ﴾ كذب، أو نفس كاذبة، بأن تنفيها حين تقع كما تكذب الآن في الدنيا .﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ تخفض قوماً وترفع آخرين، بدخولهم النار ودخولهم الجنة، وهو تقرير لعظمتها، فإن الوقائع العظام تميز بين الناس.

﴿رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ زلزلت وحركت تحريكاً شديداً يؤدي إلى سقوط البناء والجبال. ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ فتتت وصارت كالسويق الملتوت، يقال: بسّ فلان السويق، أي لته. ﴿هَبَآءً﴾ غباراً. ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ متفرقاً منتشراً.

﴿وَكُنتُمْ﴾ في القيامة. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً. وكل ما يذكر مع صنف آخر: زوج، وكل قرينين ذكر وأنثى: زوج. ﴿فَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أهل اليمين، الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم. ﴿مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ تعظيم لشأنهم بدخولهم الجنة، فهم أصحاب المنزلة السنية. ﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أهل الشمال الذين يؤتون كتبهم بشمائلهم. ﴿مَآ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تحقير لشأنهم بدخول النار، فهم أصحاب المنزلة الدنية.

﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ﴾ هم الذين سبقوا إلى الخير في الدنيا، وهم الأنبياء. ﴿ٱلسَّـٰبِقُونَ﴾ تأكيد، لتعظيم شأنهم؛ لأنهم سبقوا إلى الإيمان والطاعة من غير توانٍ. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ الذين قرّبت درجاتهم، وأعليت مراتبهم في الجنة، فهم أهل الحظوة والكرامة عند ربهم.

التفسير والبيان:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ أي إذا قامت القيامة، ليس لوقوعها صارف ولا دافع، ولا بد أن تكون، ولا يكون عند وقوعها تكذيب أصلاً، ولا توجد نفس كاذبة منكرة لها كما كان الحال في الدنيا. والواقعة: اسم للقيامة كالآزفة والحاقة وغيرها، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها، كما جاء في آية أخرى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/ ١٥]. وقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ إشارة إلى أنها تقع دفعة واحدة.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ تخفض أقواماً كانوا في الدنيا مرفوعين، فتجعلهم في الجحيم، وهم الكفرة والفسقة، وترفع أقواماً كانوا في الدنيا مغمورين، فتجعلهم في الجنة، وهم أهل الإيمان؛ لأن شأن الوقائع العظيمة إحداث تغيرات في موازين المجتمع، فترفع وتخفض.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾﴾ أي إذا زلزلت وحركت الأرض تحريكاً شديداً، فتهتز وترتج وتضطرب، حتى ينهدم كل ما عليها من بناء وجبال. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: ٩٩/ ١] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ١].

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ أي فتتت الجبال فتاً، وصارت كما قال تعالى: ﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ٧٣/ ١٤].

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ أي صارت غباراً متفرقاً منتشراً، كالهباء الذي يطير من النار، أو الذي ذَرَتْه الريح وبثته.

وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال عن أماكنها يوم القيامة، وذهابها وتسييرها، وصيرورتها كالعهن المنفوش، بسبب نسفها من ربك.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ أي وأصبحتم يوم القيامة منقسمين إلى ثلاثة أصناف: أهل اليمين أصحاب الجنة، وأهل اليسار أهل النار، والسابقون بين يدي الله عز وجل المقربون: وهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء.

ثم أوضح هذه الأصناف بقوله:

١- ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾﴾ أي وأصحاب اليمين الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم، ويؤخذون إلى الجنة، فما أحسن حالهم وصفتهم وأكمل سعادتهم!! وقوله: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم. والفاء: تدل على التفسير، وبيان مورد التقسيم. وابتدأ أهل اليمين ثم بأهل الشمال للترغيب بالثواب والترهيب بالعقاب، بعد التخويف من الواقعة.

٢- ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ أي وأصحاب الشمال الذين يتناولون كتبهم بشمائلهم، ويساقون إلى النار، فما أسوأ حالهم وأتعسهم!!

أخرج الإمام أحمد عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ . . .﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ فقبض بيده قبضتين، فقال: «هذه للجنة ولا أبالي، وهذه للنار ولا أبالي».

٣- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ أي والسابقون من كل أمة إلى الإيمان والطاعة والجهاد والتوبة وأعمال البر، وهم الأنبياء والرسل عليهم السلام والشهداء والصدِّيقون والقضاة العدول، هم السابقون إلى رحمة الله، وهم المقرَّبون إلى جزيل ثواب الله وعظيم كرامته، والمقيمون إلى الأبد في جنات النعيم. والإشارة بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لعلو درجتهم، ورفعة مكانتهم.

أخرج الإمام أحمد عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون من السابقون إلى ظلِّ الله يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: الذين إذا أُعطوا الحق قبلوه، وإذا سئلوه بذلوه، وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم».

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- وقوع القيامة أمر حتمي وحق ثابت لا ريب فيه، لا يستطيع أحد تكذيبه عند حدوثه كما كان يحصل في الدنيا، ولا يملك أحد أن يرده أو يدفعه.

٢- القيامة ترفع أقواماً وهم أولياء الله إلى الجنة، وتخفض آخرين وهم أعداء الله إلى النار؛ لأن الوقائع الجسام تؤدي إلى التغيير الاجتماعي في تركيب المجتمع، فيعِزُّ قومٌ، ويذل آخرون.

٣- إذا وقعت الساعة، زلزلت الأرض وحركت واضطربت، ودمرت من عليها وما فوقها من المباني والقصور والجبال، وتفتَّت الجبال، وأصبحت غباراً منتشراً متفرقاً، وزالت من أماكنها.

٤ً- يكون الناس يوم القيامة أصنافاً ثلاثة: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقون، والأولون أصحاب الميمنة: هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ويعطون كتبهم بأيمانهم، وأصحاب المشأمة: هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ويعطون كتبهم بشمائلهم، والسابقون: الأنبياء والمرسلون والمجاهدون والحكام العدول الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة والجهاد والتوبة والقضاء بالحق، وهم المقربون بين يدي الله تعالى.

وقسمة الخلق إلى ثلاثة أقسام دليل غلبة الرحمة، فلم يجعل الله سبحانه قسماً رابعاً وهم المتخلفون المؤخرون عن أصحاب الشمال؛ لشدة الغضب عليهم، في مقابل المقربين.

وهذه القسمة كقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٥/ ٣٢] ولم يقل: منهم متخلف عن الكل.

أنواع نعيم السابقين

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾

القراءات:

﴿وَكَأْسٍ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وكاس).

﴿يُنزِفُونَ﴾: قرئ:

١- (يُنْزِفون) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي.

٢- (يُنْزَفون) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (وحورٍ عينٍ).

الإعراب:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ ﴿ثُلَّةٌ﴾: إما مبتدأ مؤخر، وخبره: ﴿فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ المتقدم عليه، أو خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هم ثلة. و﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾: معطوف عليه، و﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾: خبر ثان، و﴿مُّتَّكِـِٔينَ﴾ و﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ حال من ضمير ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾.

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿وَحُورٌ﴾: على تقدير: ولهم حور، جمع أحور وحوراء، ويقرأ بالنصب على تقدير: ويعطى حوراً، وبالجر بالعطف على ما قبله: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾. و﴿عِينٌ﴾: جمع أعْيَن وعيناء، وكان قياساً أن يجمع على فُعْل بضم الفاء، إلا أنها كسرت؛ لأن العين ياء. و﴿جَزَآءً﴾: إما مصدر مؤكد لما قبله، أو مفعول لأجله.

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ ﴿قِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء المنقطع، أو منصوب بـ﴿يَسْمَعُونَ﴾. و﴿سَلَـٰمًا﴾ منصوب بالقول، أو مصدر، أي يتداعون فيها، وسلمك الله سلاماً، أو وصف لـ (قيل).

البلاغة:

﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ و﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ بينهما طباق.

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ تشبيه مرسل مجمل، حذف منه وجه الشبه، أي كأمثال اللؤلؤ في بياضه وصفائه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٦﴾﴾ تأكيد المدح بما يشبه الذم، لأن السلام ليس من جنس اللغو والتأثيم، ثم أثنى عليهم بإفشاء السلام.

المفردات اللغوية:

﴿ثُلَّةٌ﴾ جماعة كثيرة أو قليلة. ﴿مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم الماضية. ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ من أمة محمد ﷺ، ولا يخالف ذلك قوله ﷺ: «إن أمتي يكثرون سائر الأمم»[1] لجواز أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقي هذه الأمة، وتابعو هذه الأمة أكثر من تابعيهم، ولا يرده قوله تعالى في أصحاب اليمين: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ لأن كثرة الفريقين لا تنافي أكثرية أحدهما.

﴿مَوْضُونَةٍ﴾ منسوجة بإحكام، أو بقضبان الذهب والجواهر. ﴿وِلْدَانٌ﴾ صبيان جمع ولد. ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ باقون على صفتهم أبداً، لا يهرمون كأولاد الدنيا. ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ آنية لا عُرى لها ولا خراطيم، جمع كوب. ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ أوان لها عُرى وخراطيم، جمع إبريق. ﴿وَكَأْسٍ﴾ إناء شرب الخمر. ﴿مِنْ مَعِينٍ﴾ أي من خمر جارية من منبع لا ينقطع أبداً.

﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ لا يحصل لها منها صداع كما يحدث ذلك من خمر الدنيا. ﴿وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ ولا تذهب عقولهم بالسكر منها، بخلاف خمر الدنيا، ويقرأ بفتح الزاي وكسرها، من نُزْف الشارب وأنزف: إذا ذهب عقله، ويقال للسكران: نزيف ومنزوف. ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ يختارون ويرضون.

(١) تفسير الألوسي: ٢٧/ ١٣٤.

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي ولهم حور أي نساء شديدات سواد العيون وبياضها، جمع حوراء وأحور، و﴿عِينٌ﴾ ضخام الأعين واسعات، حسان، جمع أعْيَن وعيناء؟ ﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾ المصون أو المستور الذي لم تمسه الأيدي، فهو مصون عما يضرُّ به في الصفاء والنقاء .﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يفعل ذلك كله بهم جزاء بأعمالهم .﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ في الجنة .﴿لَغْوًا﴾ فاحشاً أو ساقطاً من القول .﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ما يؤثم .﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ أي لكن قولاً: سلاماً سلاماً أي يقولون: سلَّمك الله سلاماً. وتكرار ﴿سَلَٰمًا﴾ للدلالة على فشوّ السلام بينهم.

سبب النزول:

نزول الآية (١٣و٣٩):

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾: أخرج أحمد وابن المنذر وابن أبي حاتم بسند فيه من لا يعرف عن أبي هريرة قال: لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ شق ذلك على المسلمين، فنزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

وأخرج ابن عساكر في تاريخ دمشق بسند فيه نظر، من طريق عروة بن رويم عن جابر بن عبد الله قال: «لما نزلت ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ وذكر فيها ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ بكى عمر، وقال: يا رسول الله، آمنا بك، وصدقناك، ومع هذا كله، من ينجو منا قليل، فأنزل الله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فدعا رسول الله ﷺ عمر، فقال: يا عمر بن الخطاب، قد أنزل الله فيما قلت، فجعل ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾، فقال عمر: رضينا عن ربنا وتصديق نبينا» .

والخلاصة: أن كلتا الروايتين مشكوك فيهما.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى الصنف الثالث من الناس يوم القيامة، وهم السابقون، ذكر ما يتمتعون به من أنواع النعيم في الفرش والخدم والطعام والشراب والنساء والأحاديث الخالية من اللغو والفحش والإثم، مع إفشاء السلام بينهم.

التفسير والبيان:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ أي إن السابقين السابقين المقربين هم جماعة كثيرة لا يحصر عددهم، من الأمم السابقة، من لدن آدم إلى نبينا ﷺ، وقليل من هذه الأمة، وسموا قليلاً بالنسبة إلى من كان قبلهم وهم كثيرون، لكثرة الأنبياء فيهم، وكثرة من أجابهم.

والدليل على أن (القليل) من أمة محمد ﷺ قوله ﷺ فيما رواه الشيخان وأحمد والنسائي عن أبي هريرة: «نحن الآخرون، السابقون يوم القيامة» ويستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد وأبو محمد بن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال: «لما نزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ فقال النبي ﷺ: إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة، أو شطر أهل الجنة، وتقاسمونهم النصف الثاني» .

أما أصحاب اليمين كما يأتي وهم أهل الجنة، فإنهم كثيرون من هذه الأمة؛ لأنهم كل من آمن بالله ورسوله وعمل صالحاً، فإنهم ثلة من الأولين، وثلة من الآخرين، فلا يمتنع أن يكون في أصحاب اليمين من هذه الأمة من

هو أكثر من أصحاب اليمين من غيرهم، فيجتمع من قليل سابقي هذه الأمة، ومن ثلة أصحاب اليمين منها من يكون نصف أهل الجنة، كما في الحديث المتقدم.

والخلاصة: أن مجموع هذه الأمة إذا قورنت بمن سواها، وأن سابقي الأمم السوالف أكثر من سابقي أمتنا، وتابعي أمتنا أكثر من تابعي الأمم. وإن كثرة سابقي الأولين ليس إلا بأنبيائهم، فما على سابقي هذه الأمة بأس إذا كثَرهم سابقو الأمم بضم الأنبياء عليهم السلام[1].

ثم وصف الله تعالى حال المقربين، فقال:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ أي هم في الجنة حالة كونهم على أسرّة منسوجة بخيوط الذهب، مشبكة بالدُّر والياقوت والزبرجد، مستقرّين على السرر، متكئين عليها متقابلين مواجهة، لا ينظر بعضهم قفا بعض، فهم في بسط وسرور، وصفاء وحبور، لا يملّون ولا يكلّون، ولا يتخاصمون ولا يتشاحنون، وهم مخدومون كما قال تعالى:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي يدور عليهم للخدمة غلمان أو صبيان أو خدم لهم، مخلّدون على صفة واحدة، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يبعد أن يكونوا كالحور العين مخلوقين في الجنة، للقيام بهذه الخدمة.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي يطوفون عليهم بأقداح مستديرة الأفواه لا آذان لها ولا عُرى ولا خراطيم، وأباريق ذات عُرى وخراطيم، وكؤوس مترعة من خمر الجنة الجارية من الينابيع والعيون، ولا تعصر عصراً كخمر الدنيا، فهي صافية نقية، لا تتصدع رؤوسهم من شربها، ولا يسكرون منها، فتذهب عقولهم.

---

(١) تفسير الألوسي: ٢٧/ ١٣٤.

قال ابن عباس: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله تعالى خمر الجنة، ونزهها عن هذه الخصال.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٣١﴾﴾ أي ويطوفون عليهم مما يختارونه من ثمار الفاكهة، وأنواع لحوم الطيور التي يتمنونها وتشتهيها نفوسهم، مما لذّ وطاب، علماً بأن لحم الطير أفضل من غيره من اللحوم وألذ. والحكمة في تقديم الفاكهة على اللحم: أنها ألطف، وأسرع انحداراً، وأيسر هضماً، وأصح طباً، وأكثر تحريكاً لشهوة الأكل وتهيئة النفس للطعام.

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ أي ولهم نساء حور بيض، مع شدة سواد العين، وشدة بياض بياضها، وواسعات الأعين حسانها، مثل أنواع اللآلئ والدرر المستورة التي لم تمسها الأيدي صفاء وبهجة، وبياضاً وحسن ألوان، كما في آية أخرى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الصافات: ٣٧/٤٩] والكاف في قوله: ﴿كَأَمْثَٰلِ﴾ للمبالغة في التشبيه.

﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي يفعل بهم ذلك كله، للجزاء على أعمالهم، أو مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً، أي عبثاً خالياً من المعنى، أو مشتملاً على معنى ساقط أو حقير أو مناف للمروءة، ولا كلاماً فيه قبح من شتم أو مأثم، ولكن يسمعون أطيب الكلام، وأكرم السلام أو التسليم منهم بعضهم على بعض، كما قال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٣] . والمراد أن هذا النعيم ليس مصحوباً بألم كنعيم الدنيا، وإنما هو خالٍ من الكدر والهم، واللغو، والقبح. والحكمة في تأخير ذكر ذلك عن الجزاء، مع أنه من النعم العظيمة: أنه من أتم النعم، فجعله من باب الزيادة والتميز؛ لأنه نعمة اجتماعية تدل على نظافة الوسط الاجتماعي، بعد ذكر النعم الشخصية.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- إن فئة من السابقين المقربين تشتمل على جماعة من الأمم الماضية، وقليل ممن آمن بمحمد ﷺ؛ لأن الأنبياء المتقدمين كثيرون، فكثر السابقون إلى الإيمان منهم، فزادوا على عدد من سبق إلى التصديق من أمتنا.

والأصح أن هذه الآية: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤)﴾ [الواقعة: ٥٦/١٣-١٤] محكمة غير منسوخة؛ لأنها خبر، لأن ذلك في جماعتين مختلفتين، والنسخ في الأخبار أي في مدلولها مطلقاً غير جائز في الأرجح، فإذا أخبر تعالى عنهم بالقلة، لم يجز أن يخبر عنهم بالكثرة من ذلك الوجه.

قال الحسن البصري: سابقو من مضى أكثر من سابقينا؛ فلذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (١٤)﴾ وقال في أصحاب اليمين، وهم سوى السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (٤٠)﴾ ولذلك قال النبي ﷺ كما تقدم: «إني لأرجو أن تكون أمتي شطر أهل الجنة» ثم تلا قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ (٤٠)﴾

٢- للسابقين في الجنة ألوان من النعيم في المجلس والطعام والشراب والزواج والكلام، فمجالسهم على سرر منسوجة بقضبان الذهب، مشبكة بالدر والياقوت، ويخدمهم غلمان خدم لهم لا يموتون ولا يهرمون ولا يتغيرون. وأداة الشراب آنية براقة صافية لا عُرى لها ولا خراطيم، وأباريق لها عُرى وخراطيم، وكؤوس من ماء أو خمر، والمراد هنا: الخمر الجارية من العيون، ولا تنصدع رؤوسهم من شربها، فهي لذيذة لا تؤذي، بخلاف شراب الدنيا، ولا يسكرون فتذهب عقولهم.

وطعامهم مما لذَّ وطاب من لحوم الطيور، ويتخيرون ما شاؤوا من الفواكه لكثرتها.

ويتزوجون بنساء حور بارعات الجمال، عيونهن شديدات السواد والبياض، واسعات حسان، مثل اللؤلؤ والدر صفاء وتلألؤاً، متناسقات أجسادهن في الحسن من جميع الجوانب.

وكلامهم أطيب الكلام، ليس فيه باطل ولا كذب ولا لغو هُراء ساقط، ولا مُوقِعٌ في الإثم، لا يؤثِّم بعضهم بعضاً، ولا يسمعون شتماً ولا مأثماً، وإنما يتبادلون التحيات والسلامات من بعضهم بعضاً.

٣- أتحفهم الله بهذه النعم الجزيلة جزاء حسناً على أعمالهم الصالحة، وما قدموا في دنياهم من خيِّر الأفعال، وأحسن الأقوال. وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ يدل على أن العمل عملهم، وحاصل بفعلهم.

أنواع نعيم أصحاب اليمين

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

القراءات:

﴿عُرُبًا﴾:

وقرأ حمزة، وخلف (عُرْباً).

الإعراب:

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ هنّ: يعود على (الحور) المذكورات في نعيم السابقين، أو على أصحاب اليمين، أو على ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ واختار ابن

الأنباري أن يكون الضمير غير عائد إلى مذكور على ما جرت به عادتهم إذا فهم المعنى، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٥٥/٢٦] وأراد به الأرض، ولم يسبق ذكرها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ٩٧/١] وأراد به القرآن، وإن لم يجر له ذكر؛ لأن هذا أول السورة، ولم يتقدم للقرآن ذكر فيه، وكقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٨/٣٢] أراد به الشمس، وإن لم يجر لها ذكر، فكذلك ها هنا أريد الضمير (الحور) في هذه القصة، وإن لم يجر لهن ذكر، لما عرف المعنى.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ ﴿أَبْكَارًا﴾ جمع بكر، و﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب؛ لأن فعولاً يجمع على فُعُل، كرسول ورُسُل، ويجوز (عُرْباً) بضم العين وسكون الراء. و﴿أَتْرَابًا﴾ جمع تِرْب، يقال: هي تِرْبه ولِدَته وقِرْنه، أي على سنِّه. و﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾: إما صله لما قبله أو خبر لقوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾﴾ خبر لمبتدأ محذوف أي هم ثلة.

البلاغة:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ كرره بطريق الاستفهام للتفخيم والتعظيم.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ بعد قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ تفنن في العبارة، كما في ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ و﴿أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ سجع لطيف غير متكلف، أو ما يسمى توافق الفواصل في الحرف الأخير، مما يزيد في تأثير الكلام وجماله.

المفردات اللغوية:

﴿سِدْرٍ﴾ شجر النبق: وهو شجر يمتاز بكثرة أوراقه وأغصانه، إلا أن له

شوكاً. ﴿مَخْضُودٍ﴾لا شوك فيه، مقطوع الشوك، من خُضِد شوكه، أي قُطع. ﴿وَطَلْحٍ﴾ شجر الموز. ﴿مَنضُودٍ﴾ متراكب الثمر، نضِّد حمله من أسفله إلى أعلاه، فليست له سوق بارزة، بل ثمره مرصوص بعضه فوق بعض بنظام جميل. ﴿مَمْدُودٍ﴾ دائم باق، لا يزول، منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت. ﴿مَسْكُوبٍ﴾ جارٍ دائم لا ينقطع، مصبوب يسكب لهم.

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ كثيرة الأجناس والكميات. ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ لا تنقطع في وقت. ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ولا تمتنع عن متناولها بوجه كثمن أو غيره، فهي مباحة سهلة التناول. ﴿وَفُرُشٍ﴾ جمع فراش كسُرج وسِرَاج. ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ عالية منضدة مرفوعة على السرر. ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾﴾ خلقناهن خلقاً جديداً من غير ولادة، وهن الحور العين. ﴿أَبْكَارًا﴾ عذارى، كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن عذارى. ﴿عُرُبًا﴾ جمع عَرُوب، وقرئ (عُرْباً) متحبّبات إلى أزواجهن عشقاً له. ﴿أَتْرَابًا﴾ مستويات السن، جمع تِرْب.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٧):

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ أخرج سعيد بن منصور في سننه والبيهقي في البعث عن عطاء ومجاهد قالا: لما سأل أهل الطائف الوادي يُحمى لهم، وفيه عسل، فَفُعل، وهو واد معجب، فسمعوا الناس يقولون: في الجنة كذا وكذا، قالوا: ياليت لنا في الجنة مثل هذا الوادي، فأنزل الله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ الآيات.

نزول الآية (٢٩):

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾﴾: أخرج البيهقي من وجه آخر عن مجاهد قال: كانوا يعجبون بوَجّ- واد مخصب في الطائف- وظلالِه وطلحهِ وسِدْرِه، فأنزل الله:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾﴾

المناسبة:

لما بيَّن الله تعالى حال السابقين وأوصاف نعيمهم، شرع في بيان حال أصحاب اليمين من الأصناف الثلاثة في الآخرة، وعدد أوصاف نعمهم من فواكه وظلال ومياه وفرش ونساء حسان عذارى في سن واحدة.

التفسير والبيان:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ هذا عطف على السابقين المقربين، وهم أصحاب اليمين الأبرار الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، منزلتهم دون المقربين، فهم أقل درجة في النعيم من السايقين؛ لأنهم كانوا في الدنيا أضعف إيماناً، وأقل إخلاصاً وعملاً، فأشجارهم وفواكههم وما يؤتون به من النعيم لا يبلغ درجة ما يناله أصحاب السبق.

ومع ذلك، فهم في درجة عالية ومنزلة رفيعة، لذا جاء الكلام في مدحهم على نحو هذا الأسلوب العربي لإفادة المبالغة في المدح، كما يقال: فلان ما فلان؟ والمعنى: وأما أصحاب اليمين السعداء، فما أدراك ما هم، وأي شيء هم وما حالهم، وكيف مآلهم؟! وهذا يلفت النظر ويثير الانتباه للتعرف على مصيرهم. لذا جاء التفصيل لبيان ما أبهم من حالهم، فقال تعالى:

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾﴾ أي هم يتمتعون في جنات ذات شجر مورق كثيرالورق، مقطوع الشوك، وشجر موز منضد متراكب الثمر بعضه فوق بعض، وظل دائم باق لا يزول، وماء منصبّ يجري بالليل والنهار أينما شاؤوا، لا تعب فيه، وفاكهة متنوعة وكثيرة، لا تنقطع

أبداً في وقت من الأوقات، كما تنقطع فواكه الدنيا في بعض الأوقات، ولا تمتنع على من أرادها في أي وقت، على أي صفة، بل هي معدّة لمن أرادها. أما فاكهة السابقين فإنهم يتخيرونها تخيراً.

ويلاحظ أنه قدم الشجر المورق على الشجر المثمر، على طريقة الارتقاء من نعمة إلى نعمة فوقها، والفواكه أتم نعمة، وذكر الأشجار المورقة بأنفسها وذكر أشجار الفاكهة بثمارها؛ لأن حسن الأوراق عند كونها على الشجر، وأما الثمار فهي في أنفسها مطلوبة، سواء كانت عليها أو مقطوعة.

ووصف الفاكهة بالكثرة لا بالطيب واللذة؛ لأن طيبها معروف بالطبيعة، والمقصود بيان الكثرة والتنوع لإفادة التنعم الواسع، ووصفها بقوله: ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ﴾ للدلالة على أنها ليست كفواكه الدنيا، فإنها تنقطع في أكثر الأوقات والأزمان، وفي كثير من المواضع والأماكن، كما أنه وصفها بكونها غير ممنوعة بثمن أو عوض أو غيره، خلافاً لفاكهة الدنيا التي تمنع عن البعض، وقدم كونها غير مقطوعة على المنع؛ لأن القطع للموجود، والمنع بعد الوجود؛ لأنها توجد أولاً، ثم تمنع.

ثم ذكر الله تعالى وسائل التمتع في المجالس، فقال:

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي وأهل اليمين يجلسون وينامون على فرش مرفوعة على الأسرّة، ورفيعة القدر والثمن. والفرش جمع فراش: وهو ما يفترش للجلوس عليه والنوم. وقيل: الفرش مجاز عن النساء، والمعنى: ونساء مرتفعات الأقدار في حسنهن وكمالهن.

ثم ذكر تمتعهم بالنساء، فقال:

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ أي خلقنا الحور العين خلقاً جديداً من غير توالد، وجعلناهن بكارى

عذارى لم يطمثهن قبلهم إنس ولا جان، وكلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً من غير وجع، كما في حديث رواه الطبراني[١]، ومتحببات إلى أزواجهن، وأنشأهن الله لأجل أصحاب اليمين الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات. وكرر ذكر ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ للتأكيد. والإنشاء: هو الاختراع الذي لم يسبق بخلق، وذلك مخصوص بالحور اللاتي لسن من نسل آدم عليه السلام.

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾ أي إن أصحاب اليمين جماعة من الأولين، وهم مؤمنو الأمم الماضية، وجماعة من الآخرين، وهم المؤمنون بالنبي ﷺ إلى قيام الساعة.

ولا تنافي بين قوله: ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾ وقوله قبل: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٤﴾ لأن قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ هو من السابقين، وقوله: ﴿وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠﴾ هو في أصحاب اليمين[٢]. وإنما لم يذكر هنا كون الجزاء مقابل العمل، كما فعل في حق السابقين، لأن عمل أصحاب اليمين أقل من عمل السابقين، فلم يحتج للتنويه به، وإشارة إلى أن الله غمر أهل اليمين بالفضل والرحمة والإحسان.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ- أشاد الله تعالى بأهل اليمين وخصالهم ومنازلهم، ومدحهم مدحاً عظيماً.

---

(١) روى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً».

(٢) البحر المحيط: ٨/٢٠٧.

٢- ذكر الله تعالى أنواع نعيم أهل اليمين في البيئة والطعام والشراب والمجلس والزواج، فهم في ظل ناعم من شجر كثير الورق كشجر السدر أي النبق، ولكن قد خضد شوكه، أي قطع، وذلك الظل الممدود، أي دائم باق لا يزول ولا تنسخه الشمس.

وهم يستمتعون بأشجار الموز وأنواع الفواكه الكثيرة الطازجة التي لم تقطع عن الشجر، ولا تنقطع في وقت من الأوقات، كانقطاع فواكه الصيف في الشتاء، ولا تمنع ولا تحظَر عن أحد كثمار الدنيا.

ويجلسون وينامون على فرش مرفوعة على السرر.

ولهم نساء حوريات رائعات الجمال خلقهن الله خلقاً جديداً، وأبدعهن إبداعاً فريداً لم يسبق، وجعلهن أبكاراً عواشق لأزواجهن، متحببات إليهم، مستويات أو متماثلات متشابهات في السن والأخلاق، لا تباغض بينهن ولا تحاسد، وهن بنات ثلاث وثلاثين كأزواجهن.

٣- أصحاب اليمين في الجنة هم جماعة عظيمة من الأمم السابقة، وجماعة أخرى من الأمم اللاحقة. قال الواحدي: أصحاب الجنة نصفان: نصف من الأمم الماضية، ونصف من هذه الأمة.

أنواع عذاب أهل الشمال في الآخرة

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾

القراءات:

﴿أَئِذَا﴾، ﴿أَءِنَّا﴾:

وقرأ نافع، والكسائي (أئذا... إنا).

﴿مِتْنَا﴾: قرئ:

١- (مِتْنا) وهي قراءة نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (مُتْنا) وهي قراءة باقي السبعة.

﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾:

وقرأ قالون، وابن عامر (أَوْ آباؤنا).

﴿شُرْبَ﴾: قرئ:

١- (شُرْب) وهي قراءة نافع، وعاصم، وحمزة.

٢- (شَرْب) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ أتى باللام المؤكدة مع أنها لا تذكر في النفي؛ لأن الصيغة ليست تصريحاً بالنفي.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ ﴿شُرْبَ﴾ بضم الشين: اسم، وهو منصوب على المصدر، وتقديره: فشاربون شَرْباً مثل شرب الهيم، فحذف المصدر وصلته، وأقيم ما أضيفت إليه الصفة مقام المصدر. وقرئ بالفتح، فهو مصدر. و﴿ٱلْهِيمِ﴾ الإبل التي لا تروى من الماء، لما بها من داء وهو الهيام، وهو جمع أهيم وهيماء، وكان الأصل فيه يجمع على فُعْل بضم الفاء، إلا أنها كُسِرت لمكان الياء، كما تقدم في (عين) جمع (عيناء).

البلاغة:

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ توافق الفواصل في الحرف الأخير، لزيادة جرس الكلام وجماله.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة، تحقيراً لشأنهم، بعد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ فالأصل أن يقول: هذا نزلكم.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ فيه تهكم واستهزاء أيضاً، أي هذا العذاب ضيافتهم يوم القيامة: لأن النزل هو أول ما يقدم للضيف من الكرامة.

المفردات اللغوية:

﴿سَمُومٍ﴾ ريح شديدة الحرارة تنفذ في المسام ﴿وَحَمِيمٍ﴾ ماء شديد الحرارة. ﴿يَحْمُومٍ﴾ دخان أسود شديد السواد ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ لا هو بارد كغيره من الظلال.

﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ ولا هو نافع يدفع أذى الحر لمن يأوي إليه .﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ في الدنيا. ﴿مُتْرَفِينَ﴾ منعمين منهمكين في الشهوات .﴿يُصِرُّونَ﴾ يقيمون .﴿ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذنب العظيم وهو الشرك والوثنية.

﴿أَئِذَا مِتْنَا﴾ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كررت الهمزة للدلالة على إنكار البعث مطلقاً. ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ الهمزة للاستفهام، والاستفهام هنا وما قبله للاستبعاد، وفيه دلالة على أن ذلك أشد إنكاراً في حقهم لتقادم زمانهم، ويقرأ بسكون الواو (أوْ) عطفاً بأو، والمعطوف عليه محل (إن) واسمها ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ وقرئ: لمجمعون .﴿مِيقَٰتِ﴾ وقت، أي ما وقت به الشيء. ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ يوم القيامة، وسمي بذلك؛ لأنه وقتت به الدنيا.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾ بالبعث، والخطاب لأهل مكة وأمثالهم .﴿لَأَكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾ ﴿مِن﴾ الأولى للابتداء، والثانية للبيان، والزقوم: شجر غاية المرارة ينبت في أصل الجحيم .﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾ مالئون من الشجر البطون لشدة الجوع .﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ على الزقوم المأكول، لغلبة العطش، وتأنيث ضمير ﴿مِنْهَا﴾ وتذكيره في ﴿عَلَيْهِ﴾ الأول لمراعاة المعنى، والثاني لمراعاة اللفظ .﴿ٱلْهِيمِ﴾ الإبل العطاش، جمع أهيم وهيمان للذكر، وهيمى للأنثى، كعطشان وعطشى، وهي المصابة بداء الهُيام: وهو داء يشبه الاستسقاء يصيب الإبل، فتشرب حتى تموت أو تمرض. ﴿نُزُلُهُمْ﴾ النزل: ما يعد للضيف أول نزوله تكرمة له .﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يوم الجزاء والقيامة.

المناسبة:

بعد بيان أحوال فريقين من الأصناف الثلاثة يوم القيامة، وهما السابقون وأصحاب اليمين، بيّن الله تعالى عطفاً عليهم حال أصحاب الشمال وما يلقونه في نار جهنم من أنواع العذاب والنكال، مع بيان سبب ذلك، وهو انهماكهم في الشهوات في الدنيا، وشركهم، وإنكارهم يوم البعث.

التفسير والبيان:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾ أي وأصحاب الشمال أي شيء هم فيه، وأي وصف لهم حال تعذيبهم في الآخرة؟!

وهذا الحال والوصف ما قاله تعالى:

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي هم في ريح حارة من حر النار، وماء شديد الحرارة، ظل من دخان جهنم شديد السواد، ليس بارداً كغيره من الظلال التي تكون عادة باردة، ولا حسن المنظر ولا نافعاً. وكل ما لا خير فيه فهو ليس بكريم. والمشهور أن السموم: ريح حارة تهب فتُمرض أو تقتل غالباً، قال الرازي: والأولى أن يقال: هي هواء متعفن، يتحرك من جانب إلى جانب، فإذا استنشق الإنسان منه يفسد قلبه بسبب العفونة ويقتله.

وذكر السموم والحميم، وترك ذكر النار وأهوالها، إشارة بالأدنى إلى الأعلى، فإذا كان هواؤهم الذي يستنشقونه سموماً، وماؤهم الذي يستغيثون به حميماً، مع أن الهواء والماء أبرد الأشياء في الدنيا، فما ظنك بنارهم التي هي في الدنيا أحرّ شيء! وكأنه تعالى يقول: إذا كان أبرد الأشياء لديهم أحرها، فكيف حالهم مع أحرِّها.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات: ٧٧/ ٢٩-٣٣].

وسبب عذابهم ما قال تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ

يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [١] أي إنهم كانوا في الدار الدنيا منعمين بما لا يحل لهم، منهمكين في الشهوات، مقبلين على لذات أنفسهم، لا يأبهون بما جاءت به الرسل؛ وكانوا في إصرار دائم على الذنب العظيم لا يتوبون عنه، وهو الشرك، أو الكفر بالله، واتخاذ الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله؛ وكانوا ينكرون ويستبعدون البعث بعد الموت، قائلين: كيف نبعث إذا متنا وصرنا أجساداً بالية وعظاماً نخرة؟ بل كيف يبعث آباؤنا وأجدادنا الأولون لتقادم الزمن الطويل عليهم وتقدم موتهم؟ فهم أشد إنكاراً واستبعاداً لبعث أصولهم الأوائل. ويلاحظ أنهم حكوا كلامهم على طريقة الاستفهام بمعنى الإنكار.

ويلاحظ أنه تعالى عند إيصال الثواب لا يذكر أعمال العباد الصالحة، لذا لم يذكر سبب كون أصحاب اليمين في النعيم، وعند إيقاع العقاب يذكر أعمال المسيئين؛ لأن الثواب فضل، والعقاب عدل، والفضل سواء ذكر سببه أم لم يذكر لا يتوهم في المتفضل به نقص وظلم، وأما العدل فإن لم يعلم سبب العقاب، يظن أن هناك ظلماً، فقال تعالى: هم فيها بسبب ترفهم.

فأجابهم الله تعالى على أسباب إنكارهم البعث وهي الحياة بعد الموت، وتحول الأجساد إلى تراب، وطول العهد على موت الآباء، فقال:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾أي قل لهم أيها الرسول: إن الأولين من الأمم الذين تستبعدون بعثهم، والآخرين منهم الذين أنتم ومن سيأتي في المستقبل من جملتهم، سيجمعون بعد البعث إلى ساحات القيامة في يوم محدود، معلوم الأجل، لا يتأخر ولا يتقدم، ولا يزيد ولا ينقص، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ

(١) الهمزة في ﴿أئذا﴾ و ﴿أئنا﴾ للإنكار والتعجب كما تقدم، وتكريرها لتأكيد الإنكار.

﴿١٤﴾ [النازعات: ٧٩/١٣-١٤] . وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ، وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١١/١٠٣-١٠٥] . وقوله: ﴿قُلۡ﴾ إشارة إلى أن الأمر في غاية الظهور. وأما عدم تعيين يوم القيامة فلئلا يتكل الناس.

ثم ذكر الله تعالى بعض مظاهر العذاب في المأكل والمشرب، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ أي إنكم معشر الضالين عن الحق، الذين أنكرتم وجود الله ووحدانيته، وكذبتم رسله، وأنكرتم البعث والجزاء يوم القيامة: إنكم ستأكلون في الآخرة من شجر الزقوم الذي هو شجر كريه المنظر، كريه الطعم، حتى تملؤوا بطونكم، لشدة الجوع، ثم إنكم سوف تشربون على الزقوم عقب أكله من الماء الحار، لشدة العطش، ويكون شربكم منه شرب الإبل العطاش الظماء، التي لا تروى لداء يصيبها، أي لا يكون شربكم من الحميم شرباً معتاداً، بل شرب الهيم التي تعطش ولا تروى أبداً بشرب الماء حتى تموت، قال ابن عباس وجماعة من التابعين: ﴿ٱلۡهِيمِ﴾ الإبل العطاش الظماء. وقال السدي: الهيم داء يأخذ الإبل فلا تروى أبداً حتى تموت، فكذلك أهل جهنم، لا يروون من الحميم أبداً. وعن خالد بن معدان: أنه كان يكره أن يشرب شرب الهيم غبة واحدة، من غير أن يتنفس ثلاثاً.

ثم أبان الله تعالى أن هذا عذابهم، فقال:

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾ أي هذا الذي وصفنا من المأكول والمشروب، من شجر الزقوم، وشراب الحميم هو على سبيل السخرية والاستهزاء ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم، وهو الذي يعد لهم ويأكلونه يوم القيامة. وفي

رأي الرازي: أن هذا ليس كل العذاب، بل هذا أول ما يلقونه وهو بعض منه.

والنزل: ما يعد للضيف، ويكون أول ما يأكله، كما قال تعالى في حق المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٨/١٠٧] أي ضيافة وكرامة.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ً- إن أصحاب الشمال هم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم، عظَّم الله تعالى بلاءهم وعذابهم، وأثار فينا العجب من حالهم وشأنهم.

٢ً- إنهم يعذبون في ريح حارة تدخل مسام البدن، ويشربون من ماء حار قد انتهى حرّه، لشدة العطش، فإذا أحرقت النار أكبادهم وأجسادهم فزعوا إلى الحميم، فيجدونه حميماً حاراً في نهاية الحرارة، وإذا فزعوا من السمُّوم إلى الظل، كما يفزع أهل الدنيا، فيجدونه ظلاً من يحموم، أي من دخان جهنم أسود شديد السواد.

فهو ليس بارداً، بل حار؛ لأنه من دخان شفير جهنم، ولا حسن المنظر ولا عذب، ولا نافع ولا خير فيه، فهو ليس بكريم.

٣ً- إن أعمالهم الموجبة لهذا العقاب أو سبب استحقاقهم هذه العقوبة: أنهم كانوا في الدنيا مترفين منعَّمين بالحرام، متكبرين عن التوحيد والطاعة والإخلاص، وكانوا يقيمون على الذنب الكبير ويلازمونه ولا يتوبون منه وهو الشرك، وقيل: اليمين الغموس؛ لأنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون، وكانوا يقسمون ألا بعث وأن الأصنام أنداد لله، فذلك حنثهم، وكانوا يقولون استبعاداً منهم لأمر البعث، وتكذيباً له، لا حياة بعد الموت، ولا يمكن إعادة

الحياة للأجساد التي بليت والعظام التي نخرت، وبعث آبائنا أبعد، فإنا إذا كنا تراباً بعد موتنا، والآباء حالهم فوق حال العظام الرفات، فكيف يمكن البعث؟!

٤ً- ومن ألوان عذاب هؤلاء الضالين عن الهدى، المكذبين بالبعث أكلهم من شجر الزقوم: وهو شجر كريه المنظر، كريه الطعم، حتى يملؤوا بطونهم منه، ثم شربهم على الزقوم من الحميم: وهو الماء المغلي الذي قد اشتد غليانه، وهو صديد أهل النار، وليس شربهم كالمعتاد، وإنما يشربون شرب الإبل العطاش التي لا تَرْوى لداء يصيبها.

والمراد: أنه يسلط عليهم الجوع حتى يضطروا إلى أكل الزقوم، ثم يسلط عليهم العطش إلى أن يضطروا إلى شرب الحميم كالإبل الهيم.

٥ً- هذا رزقهم الذي يعدّ لهم يوم الجزاء ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ في جهنم، كالنزل الذي يعدّ للأضياف تكرمةً لهم، وفي هذا الوصف تهكم، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٤] .

أدلة الألوهية وإثبات القدرة على البعث والجزاء

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

القراءات:

﴿قَدَّرْنَا﴾:

وقرأ ابن كثير (قدَرنا).

﴿تَذَكَّرُونَ﴾: قرئ:

١- (تَذَكَّرون) وهي قراءة حفص، وحمزة، والكسائي.

٢- (تَذَّكَّرون) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ في موضع المفعول الثاني على أن الرؤية علمية، ومستأنفة على أنها بصرية.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أصله: ظَلِلْتم، يقرأ بفتح الظاء وكسرها، فمن قرأ بالفتح حذف اللام الأولى بحركتها تخفيفاً، ومن قرأ بالكسر نقل حركة اللام الأولى إلى الظاء، وحذفها، وهما لغتان.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ ملزمون غرامة أو نفقة ما أنفقنا، أو مهلكون، لهلاك رزقنا، من الغرم: وهو الهلاك. المفعول الثاني.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلق متيقنين، تقيمون الدليل على التصديق بالأعمال الدالة عليه، أو فلولا تصدقون وتقرون بالبعث والإعادة، كما أقررتم بالنشأة الأولى، وهي خلقهم، فإن من قدر على الإبداء قادر على الإعادة .﴿مَّا تُمْنُونَ﴾ ما تقذفونه أو تصبونه من المني في الأرحام .﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تجعلون المني بشراً سوياً تام الخلق .﴿قَدَّرْنَا﴾ قضينا وأقّتنا موت كل واحد بوقت معين. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا يسبقنا أحد، فيهرب من الموت، أو لا يغلبنا أحد، فلسنا بعاجزين.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ نخلق أشباهكم، وقوله: ﴿عَلَىٰٓ﴾ إما متعلق بقوله: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾أي نحن قادرون، قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم، أي بموت طائفة، ونبدلها بطائفة قرناً بعد قرن، وهذا قول الطبري. وإما متعلق بمسبوقين، أي لا نسبق على أن نبدل أمثالكم جمع مثل، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصفات، أي نحن قادرون على أن نعدمكم أو نميتكم، وننشئ أمثالكم، وعلى تغيير أوصافكم، مما لا يحيط به فكركم[(١)].

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ نخلقكم خلقاً آخر لا تعلمونه وأطواراً لا تعهدونها، أو نخلق صفات لا تعلمونها.

---

(١) البحر المحيط ٢١١/٢.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي علمتم الخلقة الأولى، فهلا تتذكرون أن من قدر عليها، قدر على النشأة الأخرى، لسبق المثال، وفيه دليل على صحة القياس.

﴿تَحْرُثُونَ﴾ تثيرون الأرض وتلقون البذور فيها، ﴿تَزْرَعُونَهُۥ﴾ تنبتونه، من الزرع: الإنبات. ﴿ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبتون. ﴿حُطَٰمًا﴾ هشيماً هالكاً متكسراً. ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أصله ظِللتم، أي أقمتم نهاراً. ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ تتعجبون من سوء حاله، وتندمون على اجتهادكم فيه. ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ملزمون غرامة أو نفقة ما أنفقنا، أو مهلكون، لهلاك رزقنا، من الغرم: وهو الهلاك. ﴿مَحْرُومُونَ﴾ ممنوعون رزقنا، أو محدودون غير مجدودين (غير محظوظين).

﴿ٱلْمُزْنِ﴾ السحاب، جمع مُزْنة. ﴿ٱلْمُنزِلُونَ﴾ بقدرتنا. ﴿أُجَاجًا﴾ملحاً لا يمكن شربه. ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فهلا تشكرون أمثال هذه النعم الضرورية. ﴿تُورُونَ﴾تقدحون، أو تخرجونها ناراً. ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ الشجرة التي منها الزناد، كالمرخ والعفار والكلخ التي تقدح ناراً بالتماس. ﴿جَعَلْنَٰهَا﴾جعلنا نار الزناد. ﴿تَذْكِرَةً﴾أنموذجاً لنار جهنم، أو تبصرة في أمر البعث، أو تذكيراً. ﴿وَمَتَٰعًا﴾ منفعة. ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾للمسافرين، مأخوذ من أقوى القوم: الذين ينزلون القَواء، أي القفر والمفاوز التي لا نبات فيها ولا ماء. ﴿فَسَبِّحْ﴾نزِّه. ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي نزّه الله تعالى، وقل: سبحان الله العظيم، وأحدث التسبيح بذكر اسمه، أو بذكره فإن إطلاق اسم الشيء: ذكره، و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: صفة للاسم أو الرب.

المناسبة:

بعد بيان حال الأصناف الثلاثة من المخلوقات يوم القيامة، ومآل كل صنف، ردّ الله تعالى على المكذبين من أهل الزيغ والإلحاد، فأقام الأدلة على الألوهية بالْخَلْق والرزق والإمداد بالنعم الدائمة، وقرر المعاد، وأثبت البعث والجزاء.

التفسير والبيان:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي نحن ابتدأنا خلقكم أول مرة، بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، وأنتم تعلمون ذلك، فهلا تصدقون بالبعث، كما تقرّون بالخلق، فإن من قدر على البداءة قادر على الإعادة بطريق الأولى والأحرى؟

وهذا تقرير للمعاد وإثبات له بطريق القياس، ثم أقام أدلة أخرى على ذلك فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي أخبروني عما تقذفون من المني أو النطف في أرحام النساء، أأنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها وتجعلونه بشراً سوياً تام الْخَلْق، أم الله الخالق لذلك، المقدر المصور له؟!

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾أي نحن قسمنا الموت بينكم ووقتناه لكل فرد منكم، فمنكم من يموت كبيراً، ومنكم من يموت صغيراً، ولكن الكل سواء فيه، وما نحن بمغلوبين، بل نحن قادرون على أن نأتي بدلكم بخلق مثلكم بعد إهلاككم، وعلى تغيير صفاتكم التي أنتم عليها، وإنشاء صفات وأحوال أخرى لا تعلمونها. والمراد أننا قهرناكم بالموت، ونقدر على الإتيان بأجيال أخرى أمثالكم ومن جنسكم، لتستمر الحياة البشرية، ونقدر أيضاً على التجديد في الصفات والأحوال؛ وما نحن بمغلوبين عاجزين عن خلق أمثالكم وإعادتكم بعد تفرق أوصالكم.

وهذا دليل على كذب المكذبين بالبعث، وصدق الرسل في الحشر؛ لأن قوله: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ إلزام بالإقرار بأن الخالق في الابتداء هو الله تعالى، ولما كان قادراً على الخلق أولاً، كان قادراً على الخلق ثانياً.

ثم أورد الله تعالى دليلاً آخر على إمكان البعث مقرراً لما سبق، فقال:

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ أي قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، فخلقكم على مراحل وأطوار من نطفة ثم من علقة، ثم من مضغة، ثم من هيكل عظمي، ثم كساكم باللحم، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة فهلا تتذكرون قدرة الله سبحانه على النشأة الأخيرة، وتقيسونها على النشأة الأولى؟ فإن الذي قدر على الأولى قادر على الأخرى، وهي الإعادة بطريق الأولى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٠/٢٧]، وقال سبحانه: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ١٩/٦٧]، وقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٣٦/٧٩]، وقال عزّ اسمه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٧٥/٣٦-٤٠].

وهذا دليل الحشر وتقرير النشأة الثانية، بالتذكير بالنشأة الأولى، ليكون تذكيراً بعد تذكير.

ثم ذكر الله تعالى دليلاً آخر على قدرته، مع الاستدلال على كمال عنايته ورحمته ببريته، فقال:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي أخبروني عما تحرثون أو تقلبون من أرضكم، فتطرحون فيه البذر، والحرث: شق الأرض وإلقاء البذر فيها، أأنتم تنبتونه وتجعلونه زرعاً بحيث يكون نباتاً كاملاً يكون فيه السنبل والحب، بل نحن الذين ننبته في الأرض ونصيِّره زرعاً تاماً؟ كان حُجْر المنذري إذا قرأ: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾ وأمثالها يقول: بل أنت يا ربّ.

وهذا دليل الرزق الذي بالبقاء بعد ذكر دليل الخلق الذي به الابتداء، وفيه

أمور ثلاثة: المأكول المذكور هنا أولاً؛ لأنه هو الغذاء، ثم ذكر المشروب؛ لأن به الاستمراء، ثم النار التي بها الإصلاح.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم، ولو نشاء لأيبسناه، وجعلناه متحطماً متكسراً لا ينتفع به قبل استوائه واستحصاده، ولا يحصل منه حب ولا شيء آخر يطلب من الحرث، فصرتم تعجبون من سوء حاله وما نزل به، قائلين: إننا لخاسرون مغرمون، والمغرم: الذي ذهب ماله بغير عوض، أو إننا لهالكون هلاك أرزاقنا، بل إننا حُرِمنا رزقنا بهلاك زرعنا، لسوء حظنا، والمحروم: الممنوع من الرزق، وهو ضدّ المرزوق.

ثم ذكر الله تعالى من دليل الرزق بعد المأكول وهو المشروب، فقال:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي أخبروني أيها الناس عن الماء العذب الذي تشربونه لإطفاء العطش، أأنتم أنزلتموه من السحاب، أم نحن المنزلون بقدرتنا دون غيرنا، فكيف لا تقرّون بالتوحيد، وتصدقون بالبعث؟

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي لا عمل لكم في إنزال الماء أصلاً، فهو محض النعمة، ولو نريد لجعلناه ملحاً لا يصلح لشرب ولا لزرع، فهلا تشكرون نعمة الله الذي خلق لكم ماءً عذباً زلالاً، تشربون منه وتنتفعون به، كما قال تعالى: ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل: ١٦/ ١٠-١١].

روى ابن أبي حاتم عن أبي جعفر عن النّبي ﷺ أنه كان إذا شرب الماء قال: «الحمد لله الذي سقانا عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا».

ثم ذكر النار أداة الإصلاح، فقال:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾﴾ أي أرأيتم النار التي تستخرجونها بالقدح من الزناد، أأنتم أنشأتم شجرتها التي كانوا يقدحون منها النار، أم نحن المنشئون لها بقدرتنا دونكم؟ وكان للعرب شجرتان يقدحون بهما النار وهم المرخ والعَفَار، بأن يؤخذ منهما غصنان أخضران، ويحك أحدهما بالآخر، فيتناثر من بينهما شرر النار.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أي نحن جعلنا هذه النار تذكركم حر نار جهنم الكبرى، ليتعظ بها المؤمن، ونفعاً للمسافرين وأهل البادية النازلين في الأراضي المقفرة. أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «نار بني آدم التي يوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم» فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية فقال: «إنها قد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً».

وخصص المُقْوين، أي المسافرين، بالذكر، لشدة حاجتهم إلى النار، وإن كان ذلك عاماً في حق الناس كلهم، لما رواه الإمام أحمد وأبو داود عن رجل من المهاجرين من قرن أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمون شركاء في ثلاثة: النار، والكلأ، والماء».

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ أي نزِّه ربَّك العظيم الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة، فخلق الماء الزلال العذب البارد، ولو شاء لجعله ملحاً أجاجاً كالبحار والمحيطات، وخلق النار المحرقة، وجعل ذلك مصلحة للعباد ومنفعة لهم في معاشهم، وزجراً لهم في المعاد.

وفائدة هذا أنه تعالى لما ذكر حال المكذبين بالحشر والوحدانية، وذكر الدليل عليهما بالخلق والرزق، ولم يفدهم الإيمان، أمر الله نبيّه بأن يُعْنى بوظيفته وهي إكمال نفسه، بعلمه بربِّه، وعمله لربِّه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أثبت الله تعالى قدرته على البعث والحشر والنشر بدليلين هنا: دليل الخلق، ودليل الرزق.

أما دليل ابتداء الخلق: فشمل خلق الذوات وخلق الصفات، أما خلق الذوات فهو النشأة الأولى بالخلق من النطفة، ثم من العلقة، ثم من المضغة، دون أن نكون شيئاً، من طريق التزاوج بين الذكر والأنثى، والتقاء نطفتي الرجل والمرأة، ثم القرار في الأرحام، والمرور بأطوار الخلق إلى أن يكتمل الإنسان بشراً سوياً تام الخلق. وإذا أقرّ الناس بأن الله هو خالقهم لا غيره، فعليهم الإقرار والاعتراف بالبعث.

والله سبحانه هو الذي يقدر على الإماتة، والذي يقدر على الخلق، وإذا قدر على الخلق قدر على البعث.

والله عزّ وجلّ قادر على خلق الأجيال، جيلاً بعد جيل، وتجديد صفات المخلوقات وأحوالهم، وصورهم وهيئاتهم، والقادر على ذلك قادر على الإعادة.

جاء في الخبر: «عجباً كل العجب للمكذِب بالنشأة الأخرى، وهو يرى النشأة الأولى، وعجباً للمصدِّق بالنشأة الأخرى، وهو لا يسعى لدار القرار»[١].

وأما دليل الرزق فيشمل المأكول والمشروب وما به إصلاح المأكول. فذكر تعالى المأكول أولاً لأنه الغذاء، بطريق الاستفهام المراد به الطلب، وهو أخبروني عما تحرثونه من أرضكم، فتطرحون فيها البذر، أأنتم تنبتونه

---

(١) تفسير الألوسي: ١٤٨/٢٧.

وتحصّلونه زرعاً، فيكون فيه السنبل والحبّ، أم نحن نفعل ذلك؟ وإنما منكم البذر وشقّ الأرض، فإذا أقررتم بأن إخراج السُّنْبل من الحبّ ليس إليكم، فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم؟ وأضاف الحرث إلى العباد، والزرع إليه تعالى؛ لأن الحرث فعلهم وباختيارهم، والزرع من فعل الله تعالى، وإنباته باختياره، لا باختيارهم.

أخرج البزار وابن جرير وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في شعب الإيمان -وضعفه- وابن حبان عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «لا يقولن أحدكم: زرعتُ، وليقل: حرثت، فإن الزارع هو الله» قال أبو هريرة: ألم تسمعوا قول الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾. وهذا نهي إرشاد وأدب، لا نهي حظر وإيجاب.

والمستحب لكل من يُلقي البذر في الأرض أن يقرأ بعد الاستعاذة: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ الآية، ثم يقول: بل الله الزارع والمنبت والمبلغ، اللهم صل على محمد، وارزقنا ثمره، وجنِّبنا ضرره، واجعلنا لأنعمك من الشاكرين، ولآلائك من الذاكرين، وبارك لنا فيه يا ربّ العالمين. وقال: إن هذا القول أمان لذلك الزرع من جميع الآفات: الدود والجراد وغير ذلك.

والله سبحانه قادر أن يجعل الزرع متكسراً هشيماً هالكاً لا ينتفع به في مطعم ولا زرع، وفي هذا تنبيه على أمرين: أحدهما - ما أولاهم به من النِّعم في زرعهم؛ إذ لم يجعله حطاماً ليشكروه، الثاني- ليعتبروا بذلك في أنفسهم؛ فكما أنه يجعل الزرع حطاماً إذا شاء، كذلك يهلكهم إذا شاء ليتعظوا وينزجروا.

وإذا جعله الله حطاماً لم يجد الإنسان سبيلاً آخر للتعويض، فيعجب من ذهاب الزرع، ويندم مما حلّ به، ويقول: إنني لخاسر مغرم، أو لمعذب هالك، محروم مما طلبت من الريع والربح.

ثم ذكر الله تعالى المشروب الذي لا بدّ منه للحياة، والتابع للمطعوم، فهو نعمة عظمى، والله هو الذي أنزله من السحاب، لإحياء النفوس، وإرواء العطش، وإذا عرف أن الله أنزله، فلِم لا يشكره العباد بإخلاص العبادة له، ولِم ينكرون قدرته على الإعادة؟

والله قادر على أن يجعله ملحاً شديد الملوحة، لا ينتفع به في شرب ولا زرع ولا غيرهما، فهلا أيها البشر تشكرون الله الذي صنع ذلك لكم! فهذا دليل آخر على قدرة الله، ونعمة أخرى.

ثم ذكر الله تعالى النار التي بها الإصلاح، فهي أيضاً نعمة، والله هو الذي أنشأ شجرتها التي يكون منها الزناد وهي المَرْخ والعَفَار، وإذا عُرف أن الله هو المخترع الخالق، وعُرفت قدرته على خلق الأشياء، فليشكروه ولا ينكروا قدرته على البعث.

ونار الدنيا أيضاً موعظة للنار الكبرى، وسبب منفعة وتمتع للمسافرين وكل الناس، فلا يستغني عنها أحد في مرافق الحياة والمعايش، فيها الخبز والطبخ والإنارة والطاقة المولدة لمحركات الآلات الحديثة في البر والجو والبحر، وهذا تذكير بالإنعام الإلهي على الناس.

وما عليك أيها الإنسان بعد إيراد هذه الأدلة والتذكير بهذه النعم إلا أن تنزه الله عما أضافه إليه المشركون من الأنداد، والعجز عن البعث.

ويلاحظ حسن الترتيب في بيان هذه الأدلة، حيث بدأ تعالى بذكر خلق الإنسان، لأن النعمة فيه سابقة على جميع النعم، ثم أعقبه بذكر ما فيه قوام الناس وقيام معاشهم وهو الْحَبّ، ثم أتبعه الماء الذي به يتم العجين، ثم ختم بالنار التي بها يحصل الخبز. وذكر عقيب كل واحد ما يمكن أن يأتي عليه ويفسده، فقال في الأولى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ وفي الثانية: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ وفي الثالثة: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ولم يقل في الرابعة

وهي النار ما يفسدها، بل قال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ تتعظون بها، فلا تنسَوْا نار جهنم، كما أخرج الترمذي عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ: «ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، لكل جزء منها حرها».

إثبات النبوة وصدق القرآن وتوبيخ المشركين على اعتقادهم

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

القراءات:

﴿بِمَوَٰقِعِ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (بموقع).

﴿لَقُرْءَانٌ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

﴿وَجَنَّتُ﴾:

رسمت بالتاء، فوقف عليها بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

الإعراب:

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ في الجمل تقديم وتأخير من وجهين: أحدهما أنه فصل بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ فقدمه على المقسم عليه وتقديره: «أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم..» إلخ. الثاني- أنه فصل بين الصفة والموصوف بقوله ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ وتقديره: وإنه لقسم عظيم لو تعلمون، فقدمه على الصفة.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ ﴿لَّا﴾: نافية غير ناهية، و﴿يَمَسُّهُۥٓ﴾ فعل مضارع مرفوع، ويكون المراد بقوله: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ الملائكة.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ تقديره: فلولا ترجعونها إذا بلغت الحلقوم، ولولا: بمعنى (هلا) ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ أما: حرف تفصيل وشرط، بمنزلة (مهما) وجوابه: ﴿فَرَوْحٌ﴾ وتقديره: فله روح، وروح: مبتدأ، وله خبره، والتقدير: مهما يكن من شيء فروح وريحان إن كان من المقربين، فحذف الشرط الذي هو (يكن من شيء) وأقيم (أما) مقامه.

وهكذا الكلام على قوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾.

البلاغة:

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ جملة اعتراضية بين القسم والمقسم عليه لتأكيد القسم، وقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة اعتراضية بين الصفة

والموصوف لبيان أهمية القسم.

المفردات اللغوية:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ هذا قسم في كلام العرب، و (لا) مزيدة للتأكيد، كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٩] . واستعمال هذه الصيغة للدلالة على أن الأمر واضح من أن يحتاج إلى قسم، أو المراد: فأقسم ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ مساقط الكواكب ومغاربها، وتخصيص المغارب، للدلالة على وجود مؤثر، لا يزول تأثيره. ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي القسم بها .﴿لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي لو كنتم من ذوي العلم لعلمتم عظم هذا القسم؛ لما في المقسم به من الدلالة على عظيم القدرة، وكمال الحكمة، وفرط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته ألا يترك عباده سدى.﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧﴾ إن المتلو عليكم لقرآن كثير النفع؛ لاشتماله على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد .﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾ في مكتوب مصون عن التغيير والتبديل، وهو المصحف، أو اللوح المحفوظ. ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ ﴿لَّا﴾ النافية، و﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ الملائكة، أي لا يقربه ولا يطلع عليه إلا المنزهون من الحظوظ النفسية، وهم الملائكة. أو هو خبر بمعنى النهي، أي لا يمس القرآن إلا المطهَّرون من الأحداث، فيكون نفياً بمعنى نهي. وقرئ: (المتطهرون) . و (المطَّهرون) بالإدغام، و (المطْهِرون) من أطهره، و (المطهِّرون) ، أي أنفسهم أو غيرهم بالاستغفار لهم والإلهام ﴿تَنزِيلٞ﴾ صفة رابعة للقرآن، أي منزَّل من رب العالمين، أو وصف بالمصدر؛ لأنه نزِّل مقسطاً منجماً من بين سائر كتب الله تعالى، فكأنه في نفسه تنزيل، لذا سمي به، ويقال: جاء في التنزيل كذا، ونطق به التنزيل، أو هو تنزيل، على حذف المبتدأ، وقرئ: تنزيلاً أي نزل تنزيلاً.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ القرآن ﴿مُّدۡهِنُونَ﴾ متهاونون، كمن يدهن في الأمر، أي

يلين جانبه، ولا يتصلب فيه، تهاوناً به، ومنه يقال: المداهنة: الملاينة والمداراة. وهذا استعمال للفظ في الشيء المعنوي على سبيل المجاز، الذي صار لشهرته حقيقة عرفية. وأصله الادهان: أي جعل الأديم (الجلد) مدهوناً بمادة زيتية ليلين ليناً حسياً. ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي شكر رزقكم، وهو المطر. ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بمانحه وساقيه حيث تنسبون المطر إلى الأنواء، وتقولون: مطرنا بَنْوء كذا. والنّوْء: سقوط نجم من المنازل في المغرب مع الفجر، وطلوع رقيبه من المشرق، يقابله من ساعته، في كل ثلاثة عشر يوماً، ما خلا الجَبْهة، فإن لها أربعة عشر يوماً، وكانت العرب تُضيف الأمطار والرِّياح والحَرّ والبَرْد إلى الساقط منها، وقيل: إلى الطالع منها؛ لأنه في سلطانه، وجمعه: أنواء.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ أي فهلا إذا وصلت الروح وقت النزع الحلقوم، أي أعلى مجرى الطعام. ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ وأنتم يا من يكون حول المحتضر تنظرون إليه، والواو للحال. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي ونحن أعلم بحال المحتضر منكم، ولكن لا تعلمون ذلك، أو لا تدركون كُنه ما يجري عليه، عبر عن العلم بالقرب الذي هو أقوى أسباب الاطلاع. ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي فهلا إن كنتم غير مجزيين يوم القيامة، أي غير مبعوثين بزعمكم. ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ تردون الروح إلى الجسد، بعد بلوغ الحلقوم. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما زعمتم. والمعنى: هلا ترجعون الروح إلى مقرّها إن نفيتم البعث، صادقين في نفيه، بأن تزيلوا الموت الذي يعقبه البعث. ولولا الثانية تأكيد للأولى. وإذا ظرف لفعل: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾﴾ أي إن كان المتوفى من السابقين. ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ فله استراحة، ورزق حسن طيب، وجنة ذات تنعم. ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ أي وإن كان من أهل اليمين، فسلام من العذاب وتحية لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، من جهة أنه منهم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾﴾ أي من أصحاب الشمال الذين كذبوا بالله ورسله وضلوا عن الهدى، وإنما وصفهم بأفعالهم زجراً عنها، وإشعاراً بسبب وعيدهم. ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي فالنزل المعدّ لك أول قدومك: ماء شديد الحرارة، والاصطلاء بنار الجحيم وإذاقة حرها. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ أي إن هذا المذكور في السورة لهو حق اليقين، أي الحق الثابت الذي لا شك فيه. ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ فنزه بذكر اسمه عما لا يليق بعظمة شأنه.

سبب النزول:

نزول الآية (٧٥):

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾: أخرج مسلم عن ابن عباس قال: مُطر الناس على عهد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة وضعها الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا، فنزلت هذه الآيات: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ حتى بلغ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حزرة قال: نزلت هذه الآيات في رجل من الأنصار في غزوة تبوك نزلوا الحِجْر[1]، فأمرهم رسول الله ﷺ ألا يحملوا من مائها شيئاً، ثم ارتحل ونزل منزلاً آخر، وليس معهم ماء، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ، فقام، فصلى ركعتين، ثم دعا، فأرسل الله سحابة، فأمطرت عليهم حتى استقوا منها، فقال رجل من الأنصار لآخر من قومه يتهم بالنفاق: ويحك أما ترى ما دعا النبي ﷺ، فأمطر الله علينا السماء، فقال: إنما مُطِرنا بنوء كذا وكذا.

---

(١) الحجر: ديار ثمود، واد بين المدينة والشام.

وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تروا إلى ما قال ربكم؟ قال: ما أنعمتُ على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق بها كافرين، يقول: الكوكب، وبالكوكب».

المناسبة:

بعد بيان أدلة إثبات الألوهية والبعث والجزاء، أقام الله تعالى الأدلة على النبوة وصدق القرآن العظيم، وأقسم بمواقع النجوم تعظيماً لشأن القرآن أنه تنزيل من رب العالمين، ثم وبخ المشركين على اعتقادهم الباطل بجحود الله وتكذيب رسوله، وإنكار المعاد، ثم أعاد الكلام على أحوال الأصناف الثلاثة الذين بدئت بهم السورة: السابقين المقربين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، وما يلقاه كل صنف من الجزاء يوم القيامة، ثم أخبر الله نبيه بأن هذا الخبر هو الحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، وأمره أن ينزه ربه عن كل نقص وغيره مما لا يليق به.

التفسير والبيان:

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾ أي أقسم بمساقط النجوم وهي مغاربها، ولله في رأي الجمهور أن يقسم بما شاء من خلقه، وهو دليل على عظمته. وإنما خص القسم بمساقط النجوم؛ لما في غروبها من زوال أثرها، والدلالة على وجود مؤثر دائم لا يزول تأثيره، لذا استدل إبراهيم عليه السلام بالأفول على وجود الإله، وكذلك لا ريب أن لأواخر الليل خواص شريفة.

وجاء القسم على هذا النحو:﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ بالنفي مريداً: ﴿أُقۡسِمُ﴾؛ لأن العرب تزيد (لا) قبل فعل﴿أُقۡسِمُ﴾ كأنه ينفي ما سوى المقسم عليه، فيفيد التأكيد، والمراد أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم ما، فضلاً عن هذا القسم العظيم. وورد القسم على مثال ذلك كثيراً في القرآن الكريم، مثل:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/١٦-١٧] و﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾﴾ [التكوير: ٨١/١٥-١٦] و﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة: ٧٥/١] و﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الحاقة: ٦٩/٣٨] و﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٧٠/٤٠] و﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾﴾ [البلد: ٩٠/١] و﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾﴾ [القيامة: ٧٥/٢].

ويرى بعض المفسرين أن (لا) ليست زائدة لا معنى لها، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على منفي، كقول عائشة رضي الله عنها: «لا والله ما مسَّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط».

وجاء القسم في القرآن على أنواع: إما قسم الله بنفسه أو بذاته مثل: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٥١/٢٣] و﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٢١/٥٧]. وإما قسم من الله بأشياء من خلقه، دلالة على عظمة مبدعها، كالصافات، والطور، والذاريات، والنجم ومواقع النجوم، والشمس والقمر، والليل والنهار، ويوم القيامة، والفجر والبلد والتين والزيتون.

وقد يكون القسم بالقرآن: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [يس: ٣٦/١-٢]. ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾﴾ [ص: ٣٨/١]. ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾﴾ [ق: ٥٠/١]. ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/١-٢] [والدخان: ٤٤/١-٢] في الزخرف والدخان.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ أي وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك. والضمير يرجع إلى القسم المفهوم من الكلام المتقدم.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ هذا هو المقسم عليه، أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد لكتاب عظيم، كثير المنافع والفوائد، لما فيه من الهدى والعلم والحكمة والإرشاد إلى سعادة الدنيا والآخرة. وهذه الصفة الأولى للقرآن.

والمناسبة واضحة بين المقسم به وهو النجوم، وبين المقسم عليه وهو القرآن؛ لأن النجوم تضيء الظلمات، وآيات القرآن تنير الطريق، وتبدد ظلمات الجهل والضلالة، والأولى ظلمات حسية، والثانية ظلمات معنوية.

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ هذه ثلاث صفات أخرى للقرآن العظيم: وهي أنه في اللوح المحفوظ مصون مستور لا يطلع عليه إلا الملائكة المقربون، وهم الكَرُوبيون، ولا يمسه في السماء إلا الملائكة الأطهار، ولا يمسه في الدنيا إلا المطهرون من الحَدَثين: الأصغر والأكبر، أي الحدث والجنابة، وهو منزل من الله تعالى، فليس بسحر ولا كهانة ولا شعر ولا قول بشر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع.

ويدل فحوى الآية على أنه لا يمس القرآن كافر ولا جنب ولا محدث، روى مالك في موطئه وابن حبان في صحيحه: أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم ألا يمس القرآنَ إلا طاهر. وروى أبو داود في المراسيل وأصحاب السنن من حديث الزهري قال: قرأتُ في صحيفة عبد أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إلا طاهر» وأسنده الدراقطني عن عمرو بن حزم وعبد الله بن عمر وعثمان بن أبي العاص، لكن في إسناد كل منهما نظر.

وعدم مس المحدث للمصحف أمر يكاد يجمع عليه العلماء، وأجاز بعض الفقهاء وهم المالكية مس المحدث له لضرورة التعلم والتعليم. لكن رجح العلماء أن المراد من الكتاب: الكتاب الذي بأيدي الملائكة، على نحو ما هو مذكور في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾﴾ [عبس: ٨٠/١٣-١٦] لأن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن عن أن تنزل به الشياطين، ولأن السورة مكية، وأغلب عناية القرآن المكي في أصول الدين

من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما الأحكام الفرعية ففي القرآن المدني، ولأن قوله ﴿مَّكْنُونٍ﴾ معناه مصون مستور عن الأعين لا تناله أيدي البشر، ولو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن وصفه بكونه مكنوناً فائدة كبيرة.

ثم وبخ الله تعالى المتهاونين بشأن القرآن، فقال:

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي أبهذا القرآن الموصوف بالأوصاف الأربعة السابقة متهاونون، تمالئون الكفار على الكفر، وتركنون إليهم؟ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي وتجعلون شكر رزقكم من السماء وهو المطر، أو من الأرض وهو الزرع أنكم تكذبون بنعمة الله وبالبعث وبما دل عليه القرآن، فتضعون التكذيب موضع الشكر؟ ومن أظلم ممن وضع التكذيب موضع الشكر!!

ثم وبخ الله تعالى المشركين على ما يعتقدون، فقال:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي فهلا إذا وصلت الروح أو النفس الحلق حين الاحتضار، وأنتم ترون المحتضر قد قارب فراق الحياة، تنظرون إليه وما يكابده من سكرات الموت، ونحن بالعلم والقدرة والرؤية وبملائكتنا أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرون ملائكة الموت الذين يتولون قبضه، وجواب ﴿فَلَوْلَآ﴾ سيأتي بعد وهو ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾.

ثم أكّد الله تعالى الحث والتحضيض، فقال:

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أي فهلا إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين ولا مبعوثين، تمنعون موته، وترجعون الروح التي قد بلغت الحلقوم إلى مقرها الذي كانت فيه، إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم لن تبعثوا وأنكم غير مربوبين ولا مملوكين للخالق؟

والمعنى المراد: أنه إذا لم يكن لكم خالق، وأنتم الخالقون، فلِمَ لا ترجعون الأرواح إلى أجسادها حين بلوغها الحلقوم؟! وإن صدقتم ألا بعث، فردوا روح المحتضر إلى جسده، ليرتفع عنه الموت، فينتفي البعث؟ أي إن تحقق الشرطان أو الوصفان منكم: إن كنتم غير مدينين، وإن كنتم صادقين فردوا روح الميت إليه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩)﴾ [القيامة: ٧٥/٢٦-٢٩].

ثم بيَّن الله تعالى مصائر هؤلاء الناس عند احتضارهم وبعد وفاتهم، وجعلهم أقساماً ثلاثة، فقال:

١- ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ (٨٩)﴾ أي إن كان المحتضر أو المتوفى من فئة السابقين المقربين: وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وبعض المباحات، وهم الصنف الأول في مطلع السورة، فلهم راحة، واستراحة وطمأنينة من أحوال الدنيا، ورزق واسع ونعيم في الجنة، وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت. والروح: الاستراحة، وهو يعم الروح والبدن، والريحان: الرزق، وهو للبدن، وجنة النعيم للروح، يتنعم بلقاء المليك المقتدر. يروى: أن المؤمن لا يخرج من الدنيا إلا ويؤتى إليه بريحان من الجنة يشمه. فاللهم اجعلنا من هؤلاء يا ذا الجلال والإكرام.

٢- ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٩٠) فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ (٩١)﴾ أي وأما إن كان المحتضر أو المتوفى من أهل اليمين: وهم الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم، فتبشرهم الملائكة بذلك، وتقول لهم: سلام لك يا صاحب اليمين من إخوانك أصحاب اليمين، لا بأس عليك أنت إلى سلامة، أنت من أصحاب اليمين، وذلك لأنك ستكون معهم، فيستقبلونك بالسلام.

وذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٤١/ ٣٠-٣٢] .

٣- ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾ أي وإن كان المتوفى أو المحتضر من المكذبين بالحق والبعث، الضالين عن الهدى، وهم أصحاب الشمال المتقدم ذكرهم، فله ضيافة أو نزل يُعَدُّ له من حميم: وهو الماء الشديد الحرارة، بعد أن يأكل من الزقوم، كما تقدم بيانه، ثم استقرار، وزج له في النار التي تغمره من جميع جهاته.

ثم حسم الله تعالى الأمر وأبان مدى صحة الخبر، فقال:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ أي إن هذا الخبر والمذكور في هذه السورة من أمر البعث وغيره لهو محض اليقين وخالصه، والحق الثابت الذي لا شك فيه ولا ريب، ولا محيد لأحد عنه.

ثم أمر الله نبيه بما يكمل نفسه، فقال:

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ أي نزِّه الله عما لا يليق بشأنه، لما علمت من أخبار علمه وقدرته. والباء في قوله: ﴿بِٱسْمِ﴾ زائدة، أي سبِّح اسم ربك، والاسم: المسمى.

أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه وصححه الحاكم عن عقبة بن عامر قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ قال: «اجعلوها في ركوعكم» ولما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في سجودكم» .

والفرق بين العظيم والأعلى: أن العظيم يدل على القرب، والأعلى يدل على البعد، فهو سبحانه قريب من كل ممكن، وقريب من الكل، وهو أعلى من أن يحيط به إدراكنا، وفي غاية البعد عن كل شيء.

أخرج الجماعة إلا أبا داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- أقسم الله تعالى بمساقط النجوم ومغاربها، وهو قسم عظيم لو يعلم الناس، على أن القرآن قرآن كريم، كثير النفع، ليس بسحر ولا كهانة، وليس بمفترى، بل هو قرآن كريم محمود، جعله الله تعالى معجزة لنبيه ﷺ، وهو كريم على المؤمنين؛ لأنه كلام ربهم، وشفاء صدورهم، كريم على أهل السماء؛ لأنه تنزيل ربهم ووحيه.

قال القشيري عن صيغة القسم: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾: هو قسم، ولله تعالى أن يقسم بما يريد، وليس لنا أن نقسم بغير الله تعالى وصفاته القديمة.

٢- وصف الله تعالى القرآن، في هذه الآيات بأربع صفات: هي أنه كريم، أي كثير الخيروالنفع والفائدة، وفي كتاب مكنون، أي في اللوح المحفوظ، مصون عند الله تعالى، ومحفوظ عن الباطل والتغيير والتبديل، ولا يمس ذلك الكتاب إلا المطهرون من الذنوب، وهم الملائكة، ومنزل من رب العالمين. والأصح أن المراد من الكتاب المكنون: اللوح المحفوظ. والضمير في ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ للكتاب.

أما مس المصحف على غير وضوء؛ فالجمهور ومنهم أئمة المذاهب الأربعة

على المنع من مسّه، لحديث عمرو بن حزم المتقدم: «لا يمس القرآن إلا طاهر» وأجاز المالكية مسّ القرآن للمحدث لضرورة التعلم والتعليم.

وروي عن الحكم وحماد وداود بن علي الظاهري: أنه لا بأس بحمل القرآن ومسّه للمسلم والكافر طاهراً أو محدِثاً، إلا أن داود قال: لا يجوز للمشرك حمله، واحتجوا في إباحة ذلك بكتاب النبيﷺ إلى قيصر، ورد عليهم بأنه موضع ضرورة، فلا حجة فيه. فيكون المنع من مس المصحف للمحدث ثابتاً بالسنة، وليس مأخوذاً من صريح الآية.

٣ً- بعد إثبات النبوة وصدق الوحي والقرأن الكريم وبّخ الله تعالى المتهاونين بالقرآن المكذبين به، وهذا قلب للأوضاع، فإن الجاحدين جعلوا شكر الرزق من الله والإنعام هو التكذيب، فوضعوا الكذب مكان الشكر، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٨/ ٣٥] أي لم يكونوا يُصلُّون، ولكنهم كانوا يصفِّرون ويصفِّقون مكان الصلاة.

قال القرطبي: وفي هذا بيان أن ما أصاب العباد من خير، فلا ينبغي أن يَرَوْه من قبل الوسائط التي جرت العادة بأن تكون أسباباً، بل ينبغي أن يروه من قِبَل الله تعالى، ثم يقابلونه بشكر إن كان نعمة، أو صبر إن كان مكروهاً، تعبُّداً له وتذللاً[(١)].

٤ً- تحدَّ الله منكري البعث بأنهم إن كانوا صادقين في زعمهم ألا بعث، وأنهم غير مجزيين ولا محاسبين ولا مبعوثين يوم المعاد، فليمنعوا الموت عن الإنسان حين الاحتضار، وليردوا الروح إليه إذا بلغت الحلقوم، وإذا انتفى الموت انتفى البعث، والحق أنهم عاجزون عن ذلك، لا يقدرون على شيء من هذا، وهم ينظرون إلى المحتضر محزونين آيسين، والله سبحانه أقرب إلى المحتضر بالقدرة والعلم والرؤية، ولكن الحاضرين حوله لا يدركون ذلك، ولا يرون الملائكة الرسل الذين يتولون قبض الروح.

(١) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٢٨.

٥ً- الناس عند الاحتضار ثم الوفاة أصناف ثلاثة: المقربون السابقون، وأهل اليمين، وأهل الشمال. أما المقربون فلهم الرحمة والاستراحة، والرزق الواسع، والتنعم المطلق في الجنة، ورؤية الله عز وجل، فلا يحجبون عنه.

وأما أصحاب اليمين، فإنهم يسلمون من عذاب الله، ويسلم الله عليهم، وتسلّم الملائكة أيضاً عليهم قائلين لهم: سلام لك من إخوانك أصحاب اليمين. قال ابن مسعود: إذا جاء مَلَك الموت ليقبض روح المؤمن قال: ربك يقرئك السلام. وكذلك يسلم عليهم منكر ونكير عند المساءلة في القبر، وتسلم عليهم الملائكة عند البعث في القيامة، قبل الوصول إليها.

فالملائكة تسلم على صاحب اليمين في الموا طن الثلاثة، ويكون ذلك إكراماً بعد إكرام[١].

وأما أصحاب الشمال المكذبون بالبعث، الضالون عن الهدى وطريق الحق، فلهم رزق من حميم: ماء تناهى حره، وإدخال في النار.

٦ً- إن جميع هذا المذكور في هذه السورة محض اليقين وخالصه، وهو الحق الثابت الذي لا شك فيه، ولا محيد عنه. قال قتادة في هذه الآية: إن الله ليس بتارك أحداً من الناس حتى يقِفَه على اليقين من هذا القرآن، فأما المؤمن فأيقن في الدنيا فنفعه ذلك يوم القيامة، وأما الكافر فأيقن يوم القيامة حين لا ينفعه اليقين.

٧ً- أمر الله نبيه والمؤمنين من بعده بأن ينزه الله تعالى عن السوء وعن كل ما لا يليق به، ما دام الحق قد ظهر، واستبان اليقين، وبطل زيف الكفار والمشركين.

---

(١) المرجع السابق : ص ٢٣٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحديد

مدنية، وهي تسع وعشرون آية

مدنيتها:

هي كما ذكر القرطبي مدنية في قول الجميع، وهو الظاهر، وقيل: إنها مكية وهو رأي مرجوح.

تسميتها:

سميت سورة الحديد، للإشارة في الآية(٢٥) منها إلى منافع الحديد، واعتماد مظاهر المدنية والعمران والحضارة عليه، سواء في السلم والحرب.

مناسبتها لما قبلها:

وجه اتصال هذه السورة بالواقعة من ناحيتين:

١- ختمت سورة الواقعة بالأمر بالتسبيح، وبدئت هذه بذكر التسبيح من كل ما في السماوات والأرض.

٢- إن سورة الحديد واقعة موقع العلة للأمر بالتسبيح في الواقعة، فكأنه قيل: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ لأنه سبح له ما في السماوات والأرض، فالله أمر بالتسبيح، ثم أخبر أن التسبيح المأمور به قد فعله، والتزمه كل ما في السماوات والأرض.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كغالب السور المدنية بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بالعقيدة والإيمان، والجهاد والإنفاق في سبيل الله، والترفع عن مفاتن الدنيا، وبيان أصول الحكم الإسلامي، وكشف مخازي المنافقين، وشرائع الأنبياء في الحياة الخاصة والعامة.

ابتدأت بالحديث عن صفات الله وأسمائه الحسنى، وظهور آثار عظمته في خلق الكون. ثم دعت المسلمين إلى الإنفاق في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، وإعزاز الإسلام، ورفع مجده وشأنه.

وقارنت أثر هذه الدعوة إلى البذل والجهاد بين المؤمنين المجاهدين الذين يتميزون بأنوارهم في الآخرة، وبين المنافقين الذين يبخلون ويجبنون، ويتخبطون في ظلمات الجهل والكفر.

ثم أبانت السورة حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، فالدنيا دار الفناء واللهو واللعب، والآخرة دار الخلود والبقاء والسعادة والراحة الكبرى، وفي ذلك تحذير من الاغترار بالدنيا، وترغيب في الآخرة والعمل من أجلها. ونصحت المؤمنين بالصبر على المصائب، وذمت أهل الاختيال والكبر والبخلاء، وحضَّت على العدل وعمارة الكون، وأبانت الغاية من بعثة الرسل الكرام، وأمرت بتقوى الله، واتّباع هدي الرسل والأنبياء.

وختمت السورة بالاعتبار بالأمم السابقة، وبقصص نوح وإبراهيم وأحفادهم الرسل، وبقصة عيسى ابن مريم، وموقف أتباعه من دعوته، وأوضحت ثواب المتقين، ومضاعفة أجر المؤمنين برسلهم، وأبانت أن الرسالة اصطفاء من الله، وفضل يختص به من يشاء من عباده.

فضلها:

أخرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي عن عِرْباض بن سارية أنه حدَّث أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبِّحات قبل أن يرقد، وقال: «إن فيهن

آية أفضل من ألف آية» وهي قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

التسبيح لله في جميع الأوقات وأسبابه

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٥ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾

القراءات:

﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾: قرئ:

١- (تُرْجَع الأمور) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم.

٢- (تَرْجِع الأمور) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ ﴿مَعَكُمْ﴾ ظرف متعلق بما يشبه الفعل مقدر، تقديره: وهو شاهد معكم.

البلاغة:

﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ بينهما طباق، وكذا بين﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ﴾ وبين ﴿وَٱلظَّٰهِرُ

وَٱلْبَاطِنُ﴾ . ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ و﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ بينهما مقابلة . ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ﴾ فيه رد العجز على الصدر.

المفردات اللغوية:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أي نزهه كل شيء من كل نقص وعما لا يليق به من صفات الحوادث كالشريك والولد، وإنما عدّي باللام وهو معدّى بنفسه، مثل نصحت له ونصحته، إشعاراً بأن إيقاع الفعل لأجل الله وخالصاً لوجهه. وذكر في القرآن: (سبِّحْ) كما في آخر السورة السابقة ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وأول الأعلى للأمر بالتسبيح، وذكر هنا وفي الحشر والصف بلفظ الماضي، وفي الجمعة والتغابن بلفظ المضارع، إشعاراً بأن من شأن ما أسند إليه أن يسبحه في جميع أوقاته، وكله يدل على الديمومة والاستمرار، وأن ذلك ديدن من في السماوات والأرض، وجاء بلفظ المصدر ﴿سُبْحَٰنَ﴾ أول الإسراء، إشعاراً بإطلاقه على استحقاق التسبيح من كل شيء وفي كل حال.

﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جيء بـ﴿مَا﴾ وليس (مَنْ) تغليباً للأكثر من غير العقلاء . ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ القوي في ملكه فلا ينازعه فيه شيء، الحكيم في صنعه، والجملة حال يشعر بما يدل على أنه الأهل للتسبيح مع استغنائه . ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي إن سبب التسبيح كونه تعالى مالكاً السماوات والأرض، وله تمام التصرف في الملك، وهو إيجاد ما شاء وإعدام ما شاء بقدرته على الإحياء والإماتة . ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر تام القدرة على كل شيء من الإحياء والإماتة وغيرهما.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾السابق على سائر الموجودات، والموجود قبل كل شيء بلا بداية؛ لأنه موجد الأشياء ومحدثها . ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الباقي بعد فناء الموجودات، والموجود بعد كل شيء بلا نهاية . ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الظاهر وجوده لكثرة

دلائله، والباطن: حقيقة ذاته، فلا تحيط به العقول والحواس، وخفيت عنه ذاته، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله، وباطن بذاته. ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ستة أطوار. ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾الكرسي استواء يليق به. ﴿يَلِجُ﴾ يدخل. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ من كنوز ومعادن وبذور ومطر وأموات. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالنبات والمعادن لمنفعة الناس. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ كالمطر والرحمة والملائكة والعذاب وغير ذلك. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالأبخرة والأعمال والدعوات. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي بعلمه وقدرته، لا يفارقكم بحال، فليس المراد المعية بالذات. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه، وتقديم الخلق في الآية على العلم؛ لأنه دليل عليه.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ الموجودات جميعها. ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ يدخل أحدهما في الآخر بالزيادة والنقص، فيزيد الليل وينقص النهار تارة، وعلى العكس تارة أخرى. ﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾أي بما فيها من الأسرار والمكنونات، والنوايا والخفايا والمعتقدات.

التفسير والبيان:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)﴾ أي نزّه الله تعالى عن كل نقص وعما لا يليق به كل شيء في السماوات والأرض من الجماد والنبات والإنسان والحيوان، تعظيماً له وإقراراً بربوبيته، سواء بلسان المقال، كتسبيح الملائكة والإنس والجن، أو بلسان الحال، كتسبيح غيرهم، فإن كل موجود يدل على الصانع، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] فتسبيح العقلاء: تنزيه وتقديس وعبادة، وتسبيح غيرهم إقرار واعتراف بالصانع.

والله هو القوي القادر الغالب الذي خضع له كل شيء، ولا ينازعه أحد في

ملكه، الحكيم في تدبيره وأمره وخلقه وشرعه، يتصرف على وَفْق الحكمة والصواب. وهذه الجملة مستأنفة بمنزلة التوكيد المعنوي لما قبلها، تدل على أنه تعالى مبدأ التسبيح مع الاستغناء عنه.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾﴾ أي لله تعالى الملك المطلق للسموات والأرض، يتصرف فيهما وحده، وله السلطان التام، وهو نافذ الأمر، فلا ينفذ غير تصرفه، وهو المالك المتصرف في خلقه، فيحيي من يشاء، ويميت من يشاء، ويعطي من يشاء ما يشاء، وهو تام القدرة، لا يعجزه شيء، كائناً ما كان، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ أي الله هو الأول قبل كل شيء، قيل، وهو غير حديث: «كنت كنزاً مخفياً، فأردت أن أعرف، فخلقت الخلق، فبي عرفوني» وهو الآخر الباقي بعد كل شيء، بعد فناء خلقه، كما قال سبحانه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٢٨/٨٨].

وهو الظاهر العالي فوق كل شيء، الغالب على كل شيء، والباطن العالم بما بطن، ولا تعرف العقول ذاته على حقيقتها، ولا تدركه الحواس، وهو ذو علم تام بكل شيء، لا يعزُب عن علمه شيء من المعلومات.

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «اللهم أنت الأول، فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بَعْدَك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن، فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر».

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾ أي الله الذي أوجد وأبدع السماوات والأرض في أيام ستة الله أعلم بمقدارها،

وفي ستة أطوار مختلفة، وهو القادر على خلقها في لحظة، ولكن هذا العدد لتعليم العباد التأني والتثبيت في الأمور، ثم استوى على العرش أي الكرسي استواء يليق به، على نحو يريده، مما لا يعلم به إلا هو، وهذا رأي السلف، وهو الأولى احتياطاً، ورأي الخلف تأويل الاستواء على العرش بتدبير الأمر وتفصيل الآيات والاستيلاء على مقاليد السلطة.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي يعلم كل شيء، يدخل في الأرض من مطر وأموات وغير ذلك، ويخرج منها من نبات وزرع وثمار ومعادن وغيرها، وما ينزل من السماء من مطر وملائكة وغير ذلك، وما يصعد إلى السماء من الملائكة وأعمال العباد الصالحة والسيئة، والدعوات، والأبخرة المتصاعدة ونحو ذلك، جاء في الحديث الصحيح: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل».

ونظير الآية: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٥٩].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي والله سبحانه مع عباده بقدرته وسلطانه وعلمه، أينما كانوا في البر والبحر والجو، والله رقيب عليهم بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه شيء منها.

قال أبو حيان: وهذه آية أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها، وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات، وهي حجة على من منع التأويل في غيرها، مما يجري مجراها من استحالة الحمل على ظاهرها[١].

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾﴾ أي هو المالك

---

(١) البحر المحيط: ٨/٢١٧.

للدنيا والآخرة. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (١٣)﴾ [الليل: ٩٢/ ١٣] فلا راد لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، وهو المحمود على ذلك كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ﴾ [القصص: ٢٨/ ٧٠] ومرجع جميع الأمور إلى الله وحده لا إلى غيره يوم القيامة، فيحكم في خلقه بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور، ولا يظلم مثقال ذرة.

وقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ﴾ هذا التكرير للتأكيد، أو أنه وما بعده ليس بتكرار؛ لأن الكلام الأول في الدنيا لقوله: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ﴾ والثاني في العقبى والآخرة لقوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦)﴾ أي إن الله سبحانه هو المتصرف في الخلق، يقلّب الليل والنهار، ويقدرهما بحكمته كما يشاء، فتارة يطول الليل، ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتتوالى الفصول الأربعة بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه، وهو يعلم السرائر وضمائر الصدور ومكنوناتها، وإن خفيت، لا يخفى عليه من ذلك خافية، سواء الظاهر والباطن.

وهذا حث على التأمل في ملكوت الله، وشكر على ما أنعم، وتنزيه على كل ما لا يليق به.

والخلاصة: أن هذه الآيات إخبار بتسبيح كل شيء الله، وبيان موجبات التسبيح.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

أ- مجَّدَ الله ونزَّهَه عن السوء في الذات والصفات والأسماء والأفعال كُلُّ شيء في الأرض والسماء، سواء بالنطق والمقال الصريح، أم بلسان الحال

والدلالة وظهور آثار الصنعة: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] .

٢- إن موجبات التسبيح كون الله العزيز الغالب في ملكه، الحكيم في صنعه، المالك المتصرف في السماوات والأرض، المستغني في ذاته وفي جميع صفاته عن كل ما عداه، ويحتاج كل ما عداه إليه في ذواتهم وفي صفاتهم، والنافذالأمر، المالك القادر القاهر، الذي لا يعجزه شيء.

٣- ومن موجباته أيضاً أنه سبحانه الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء والظاهر الغالب الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، وهو تام العلم بما كان أو يكون، فلا يخفى عليه شيء.

وهذا دليل على أنه تعالى قبل كل شيء، ومتقدم على ما سواه تأثيراً وطبعاً وشرفاً ومكاناً وزماناً، أي إنه سبحانه قبل المكان وقبل الزمان. وهو إله لجميع الممكنات والكائنات، وإله للعرش والسماوات والأرضين، وعالم بظواهرنا وبواطننا.

٤- ومما يوجب تسبيحه أنه خالق السماوات والأرض ومبدعهما، صاحب العرش الذي استوى عليه استواء يليق به، العالم بما يدخل في الأرض من مطر وغيره، وما يخرج منها من نبات وغيره، وما ينزل من السماء من رزق ومطر وملائكة، وما يصعد فيها من ملائكة وأعمال العباد، وهو مع خلقه بقدرته وسلطانه وعلمه، لا بذاته، أينما كانوا، ويبصر أعمالهم ويراها، ولا يخفى عليه شيء منها.

٥- ومن موجبات التسبيح أنه سبحانه المالك للدنيا والآخرة، وترجع إليه أمور الخلائق في الآخرة. وهو يقلب الليل والنهار طولاً وقصراً، ويأتي بالفصول الأربعة، ولا تخفى عليه الضمائر، فهو إذن المعبود على الحقيقة، فلا يجوز أن يعبد من سواه.

والخلاصة: أن هذه الآيات جامعة بين الدلالة على قدرة الله، وبين إظهار نعمه، والمقصود من إعادة بعض معانيها في رأي القائلين بالتكرار الحث على النظر والتأمل، ثم الاشتغال بالشكر على تلك النعم.

بعض التكاليف الدينية الحث على الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وعلى الإنفاق

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

القراءات:

﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾:

وقرأ أبو عمرو (وقد أُخِذَ ميثاقُكم).

﴿يُنَزِّلُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (يُنْزِل).

﴿لَرَءُوفٞ﴾:

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي (لرؤف).

﴿وَكُلًّا وَعَدَ﴾:

وقرأ ابن عامر (وكلٌّ وُعد).

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾: قرئ:

١- (فيضعِّفُه) وهي قراءة ابن كثير.

٢- (فيضعِّفَه) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (فيضاعِفَه) وهي قراءة عاصم.

٤- (فيضاعِفُه) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ ﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من معنى الفعل في ﴿وَمَا لَكُمْ﴾، ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾: جملة اسمية في موضع نصب على الحال، والواو: واو الحال، وتقديره: مالكم غير مؤمنين بالله تعالى، والرسول ﷺ في هذه الحال، فهما حالان متداخلتان. وقرئ: (وما لكم لا يؤمنون) والمعنى: وأي عذر لكم في ترك الإيمان، والرسول يدعوكم إليه، وينبهكم عليه، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ ﴿وَكُلًّا﴾ منصوب بـ ﴿وَعَدَ﴾ و﴿ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ منصوب مفعول ثانٍ لـ ﴿وَعَدَ﴾ وقرئ: (وكلٌّ) على أنه مبتدأ، و﴿وَعَدَ﴾ خبره، وقدر في ﴿وَعَدَ﴾ هاء، أي وعده الله، أو خبر مبتدأ محذوف، أي أولئك كل وعد الله، و﴿وَعَدَ﴾: صفة لـ (كل).

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: منصوب على الظرف، والعامل فيه﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ و﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال؛ لأن ﴿تَرَى﴾ بصرية لا قلبية.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ تقديره: دخول جنات، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه؛ لأن البشارة إنما تكون بالأحداث، لا بالجنات.

البلاغة:

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ فيه حذف بالإيجاز، تقديره: ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، لدلالة الكلام عليه بعدئذ، ولوضوحه.

﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ استعارة، حيث استعار ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ للكفر والضلالة، و﴿ٱلنُّورِ﴾ للإيمان والهداية.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ استعارة تمثيلية، مثل حال المنفق بإخلاص بمن يقرض ربه قرضاً واجب الوفاء.

المفردات اللغوية:

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ صدقوا بوحدانية الله تعالى وبرسوله ﷺ، وداوموا على الإيمان بهما .﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أنفقوا في سبيل الله من الأموال التي جعلكم خلفاء في التصرف فيها، فهي في الحقيقة له، لا لكم، وسيخلفكم بدلاً عنها، وفيه حث على الإنفاق وتهوين له على النفس .﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ هذا وعد فيه عدة مبالغات هي جعل الجملة اسمية، وإعادة ذكر الإيمان والإنفاق، وبناء الحكم على الضمير، وتنكير كلمة الأجر، ووصفه بالكبر.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ خطاب للكفار، أي لا مانع لكم من الإيمان. ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أخذه الله عليكم في عالم الذر حين أشهدكم على أنفسكم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، وكذلك بعد وجودكم، إذ أقام الأدلة على وجوده وتوحيده في الأنفس والآفاق، ومكّنكم من النظر بالعقل والتفكير. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مريدين الإيمان به، فبادروا إليه.

﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ هي آيات القرآن. ﴿لِّيُخْرِجَكُم﴾ الله تعالى، أو عبده محمد ﷺ. ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ﴾ في إخراجكم من الكفر إلى الإيمان. ﴿لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث نبّهكم بالرسل والآيات، ولم يقتصر على الحجج العقلية.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي وما لكم بعد إيمانكم ألا تنفقوا في سبيل الجهاد وفيما يكون قربة إليه. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي إنه يرث كل شيء فيهما، ولا يبقى لأحد مال، وإذا كان الأمر كذلك فإنفاقه بحيث يستخلف عوضاً يبقى، وهو الثواب، كان أولى. ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أي لا تساوي بين المنفق قبل فتح مكة وقاتل الأعداء، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل، لوجود السبق في الإيمان، وقوة اليقين، وتحرّي المصالح العامة للمسلمين. وذكر القتال للاستطراد. والمراد بالفتح فتح مكة الذي أعز الله به الإسلام، وكثر أهله، وقلّت الحاجة إلى الإنفاق والمقاتلة. ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي وكلّاً من الفريقين وعده الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بأعمالكم الظاهرة والباطنة، فمجازيكم على حسبها.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ أي ينفق ماله في سبيل الله رجاء أن يعوضه، فإنه كمن يقرضه. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ خالصاً لله. ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ يعطي أجره أضعافاً. ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾مقترن بالرضا والقبول. ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ ما يوجب

نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة .﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمامهم .﴿وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ كتبهم؛ لأنهم يؤتون صحائف أعمالهم من الأمام واليمين .﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾ أي تتلقاهم الملائكة تبشرهم بدخول الجنات وبشراكم أي ما تبشرون به.

سبب النزول:

نزول الآية (٧):

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: نزلت في غزوة العسرة، وهي غزوة تبوك.

نزول الآية (١٠):

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم﴾: ذكر الواحدي عن الكلبي: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

وذكر أيضاً عن ابن عمر قال: بينا النبي ﷺ جالس، وعنده أبو بكرالصديق، وعليه عباءة قد خَلَّلها على صدره بخلال، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام، فأقرأه من الله السلام، وقال: يا محمد، مالي أرى أبا بكر عليه عباءة قد خلَّلها على صدره بخلال؟ فقال: يا جبريل، أنفق ماله قبل الفتح عليّ، قال: فأقرئه من الله سبحانه وتعالى السلام، وقل له: يقول لك ربك: أراضٍ أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فالتفت النبيﷺ إلى أبي بكر فقال: يا أبا بكر، هذا جبريل يقرئك من الله سبحانه السلام، ويقول لك ربك: أراض أنت عني في فقرك هذا أم ساخط؟ فبكى أبو بكر، وقال: على ربي أغضب، أنا عن ربي راض، أنا عن ربي راض[١].

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أدلة إثبات وحدانيته وعلمه وقدرته، بمشاهد في

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٣٠ وما بعدها، تفسير القرطبي: ٢٤٠/١٧.

السماوات والأرض والأنفس، أتبعها ببعض التكاليف الدينية، فأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وباستدامته والإخلاص فيه، ثم طلب من المؤمنين الإنفاق في سبيل الله، وأخبر بمضاعفة الأجر عليه، وأبان أن آياته تخرج من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وفضّل السابقين الأولين إلى الإسلام الذين أسلموا وأنفقوا قبل فتح مكة، ثم أكد الحث على الإنفاق مرة أخرى.

التفسير والبيان:

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾ أي صدّقوا بالتوحيد وبصحة رسالة محمد ﷺ على الوجه الأكمل، وداوموا واثبتوا على ذلك، وأنفقوا من مال الله الذي جعلكم خلفاء في التصرف فيه من غير أن تملكوه حقيقة، فإن المال مال الله، والعباد خلفاء الله في أمواله، فعليهم أن يصرفوها فيما يرضيه.

ثم رغب في الإيمان والإنفاق في الطاعة، مبيناً أن الذين جمعوا بين الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، وبين الإنفاق في سبيل الله، لهم ثواب كثير الخير والنفع وهو الجنة.

أخرج أحمد عن عبد الله بن الشِّخِّير قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «ألهاكم التَّكاثُرُ، يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت» ورواه مسلم أيضاً وزاد: «وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس».

ثم وبخهم الله تعالى على ترك الإيمان، فقال:

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ أي، وأيّ شيء يمنعكم عن الإيمان، والرسول معكم يدعوكم إلى ذلك، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به،

بتلاوة القرآن المشتمل على الدلائل الواضحة، وقد أخذ الله ميثاقكم بأن تؤمنوا في عالم الذر حين أخرجكم من ظهر أبيكم آدم، وبما أقام لكم في الكون والآفاق والأنفس من الأدلة على التوحيد ووجوب الإيمان، وكذا ما ترشد إليه العقول السليمة، إن كنتم مريدين الإيمان، فبادروا إليه، فهذا توبيخ على ترك الإيمان بشرطين: أحدهما - أن يدعو الرسولﷺ والثاني- أنه أخذ الميثاق عليهم.

أخرج البخاري في صحيحه أن رسول اللهﷺ قال يوماً لأصحابه: «أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة، قال: وما لهم لا يؤمنون، وهم عند ربهم؟ قالوا: فالأنبياء، قال: وما لهم لا يؤمنون، والوحي ينزل عليهم، قالوا: فنحن، قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها».

ثم أوضح الله تعالى الغاية من إنزال القرآن لقطع عذرهم، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ أي إن الله أراد بإنزال الآيات البينات الواضحات التي هي القرآن وغيره من المعجزات أن يخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين والإيمان، وإن الله لكثير الرأفة والرحمة بعباده، حيث أنزل الكتب، وبعث الرسل، لهدايتهم، وأزال الموانع والشُّبَه، وأزاح العلل.

وبعد أن أمرهم بالإيمان والإنفاق، وحثهم عليهما، ووبخهم على ترك الإيمان، وبخهم على ترك الإنفاق، فقال:

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ أي، أي عذر لكم وأي شيء يمنعكم من الإنفاق في طاعة الله ومرضاته والجهاد من أجله؟ فأنفقوا ولا تخشوا فقراً، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك

السماوات والأرض، وهو متصرف فيهما وعنده خزائنهما، وكل الأموال صائرة إلى الله سبحانه، إن لم تنفقوها في حياتكم، كرجوع الميراث إلى الوارث، ولا يبقى لكم منه شيء، فالمال مال الله، والله يقول: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٤/٣٩] ويقول: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ١٦/٩٦] . وهكذا أمر الله أولاً بالإيمان والإنفاق، ثم أكد إيجاب الإيمان، ثم أكد في هذه الآية إيجاب الإنفاق.

وبعد أن بيّن الله تعالى أن الإنفاق فضيلة، بيَّن أن المسابقة في الإنفاق تمام الفضيلة، وأن للمنفقين درجات بحسب أحوالهم، فقال:

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ﴾ أي لا تساوي بين من أنفق في سبيل الله قبل فتح مكة وقاتل، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل؛ أولئك الأولون أعظم درجة من الآخرين؛ لأن حاجة الناس كانت إذ ذاك أكثر، وهم أقل وأضعف، ولا يجدون من المال إلا قليلاً، أما بعد الفتح فقد كثر المسلمون، وزاد الخير.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: أي وكل واحد من الفريقين وعده الله المثوبة الحسنى، وهي الجنة، مع تفاوت الدرجات، والله عليم بأعمالكم وأحوالكم الظاهرة والباطنة، فيجازيكم بذلك، إذ لا يخفى عليه شيء مما أنتم عليه.

أخرج الإمام أحمد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أنفقتم مثل أُحُد، أو مثل الجبال ذهباً، ما بلغتم أعمالهم»[(١)].

---

(١) ومعلوم أن إسلام خالد بن الوليد كان بين صلح الحديبية وفتح مكة.

وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فوالذي نفس محمد بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهباً، ما أدرك مُدّ أحدهم، ولا نَصِيفَه».

ثم بيَّن الله تعالى ثمرة الإنفاق، فقال:

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾ أي من ذا الذي ينفق ماله في سبيل الله، محتسباً أجره عند ربه، فإنه كمن يقرضه قرضاً حسناً، أي بلا منّ ولا أذى، طيبة به نفسه، فإن الله يضاعف له ذلك القرض، فيجعل له الحسنة بعشرة أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، على اختلاف الأحوال والأشخاص والأزمان، وله بعد ذلك ثواب كثير الخير والنفع وجزاء كريم جميل، وهو الجنة.

روى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح، قال أرني يدك يا رسول الله، فناوله يده، قال: فإني قد أقرضت ربي حائطي- بستاني- وله حائط فيه ست مئة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها، فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح، قالت: لبيك، قال: اخرجي، فقد أقرضته ربي عز وجل.

وفي رواية: أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح، ونقلت منه متاعها وصبيانها، وإن رسول الله ﷺ قال: «كم من عَذْق[1] رَداح في الجنة لأبي الدَّحْداح».

(١) العَذْق: النخلة بحَمْلها، والرداح: المثمر.

ثم أخبر الله تعالى عن حال المؤمنين المتصدقين يوم القيامة، فقال:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي وله أجر كريم، أو اذكر تعظيماً لذلك اليوم[1] حين تنظر المؤمنين والمؤمنات الذين تصدقوا يسعى الضياء الذي يرونه على الصراط يوم القيامة أمامهم، وتكون كتبهم بأيمانهم، أي تكون أعمالهم الصالحة سبباً لنجاتهم، وهدايتهم إلى الجنة، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٨٤/٧-٩]. وإنما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ لأن ذلك أمارة النجاة.

والناس كما قال ابن مسعود في هذه الآية على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه، يتّقد مرة، ويطفأ مرة[2]. وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبْيَن وصَنْعاء، فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه».

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ويقال لهم من قبل الملائكة: لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً، تكريماً وجزاء وفاقاً لما قدمتم من صالح الأعمال، ذلك النور والبشرى هو النجاح العظيم الذي لا مثيل له، حتى كأنه لا فوز غيره، ولا اعتداد بما سواه، ونظير الآية: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ، سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٣-٢٤].

---

(١) يوم: ظرف لقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أو منصوب بـ (اذكر)، تعظيماً لذلك اليوم.

(٢) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير.

والخلاصة: أن الإيمان والإنفاق سبب لثلاثة أمور: النجاة يوم الحساب، وتبشير الملائكة بالجنة، والخلود في جنات النعيم. وقد دلت هذه الآية على أن المؤمنين لا ينالهم أهوال القيامة؛ لأنه تعالى بيَّن أن هذه صفتهم يوم القيامة من غير تخصيص.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستفاد من الآيات ما يأتي:

١ً- وجوب الإيمان بالله تعالى ورسولهﷺ، أي التصديق بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمداً رسول اللهﷺ، وهذا يقتضي الاشتغال بطاعة الله تعالى.

٢ً- وجوب الإنفاق في سبيل الله، والمراد بذلك الزكاة المفروضة، وقيل: المراد غيرها من وجوه الطاعات والقربات. وهذا يعني الأمر بترك الدنيا والإعراض عنها وإنفاقها في سبيل الله تعالى.

٣ً- دل قوله: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ على أن أصل الملك لله سبحانه وأن العبد ليس له في ماله إلا التصرف الذي يرضي الله، فيثيبه على ذلك بالجنة.

فمن أنفق من ماله في حقوق الله، وهان عليه الإنفاق منه، كما يهون على الرجل النفقة من مال غيره إذا أذن له فيه، كان له الثواب الجزيل والأجر العظيم.

وهذا دليل على أن الأموال ليست بأموال الناس في الحقيقة، وما هم إلا بمنزلة النواب والوكلاء، فليغتنم المؤمن الفرصة في الأموال بإقامة الحق قبل أن تزال عنه إلى من بعده.

٤ً- للمؤمنين الذين عملوا الصالحات، والذين أنفقوا في سبيل الله أجر كبير وهو الجنة.

٥ً- وبّخ الله على ترك الإيمان بالله تعالى، فأي عذر للناس في ألا يؤمنوا وقد أزيلت الموانع وأزيحت العلل؟ مع أن الرسولﷺ يدعو بالبرهان الصحيح والدليل المقنع إلى الإيمان بالله، والله سبحانه أخذ الميثاق الأول على الناس حينما كانوا في ظهر آدم بأن الله ربهم، لا إله لهم سواه، ومن ميثاقهم أيضا ما أودع الله لهم من العقول والأفكار، وأقام الدلائل والحجج التي تدعو إلى متابعة الرسولﷺ، فإذا كنتم أيها الناس مؤمنين بالحجج والدلائل، فبادروا إلى الإيمان.

٦ً- أيّد الله نبيه بما يدل على صدقه وبما يؤدي إلى إنجاح دعوته بالقرآن والمعجزات، فيلزم الناس بعدئذ الإيمان؛ لأن آيات القرآن البينات تخرج من ظلمات الشرك والكفر إلى نور الإيمان، وإن الله بالناس لرؤوف رحيم إذ أنزل لهم الكتب وبعث الرسل وأزال الموانع والعلل التي تمنع من الإيمان.

٧ً- وبخ الله تعالى أيضاً على عدم الإنفاق في سبيل الله تعالى، وفيما يقرب من الله سبحانه، فالناس جميعاً يموتون، ويخلفون أموالهم، وهي صائرة إلى الله تعالى، كرجوع الميراث إلى المستحق له.

وهكذا أمرت الآيات بالإيمان وبالإنفاق، ثم أكدت وجوب الإيمان وإيجاب الإنفاق، فهو ترتيب حسن بارع، انتقل فيه البيان من الأمر المفيد للوجوب إلى ذكر الرادع أو المؤيد، والتهديد على التقصير أو الإهمال.

٨ً- يكون ثواب الإنفاق أعظم إذا كانت الحاجة إليه أشد بسبب الأزمات والظروف الضيقة، لذا نفى الله سبحانه المساواة بين من أنفق قبل فتح مكة وقاتل الأعداء، وبين من أنفق بعد الفتح وقاتل، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٢٠] ، لأن المال كان أقل، والحاجة إلى النفقة أشد، والمسلمين قلة، أما بعد الفتح فكثر الخير، وقلّت الحاجة إلى الإنفاق، وكثر المسلمون.

روى أشهب عن مالك قال: ينبغي أن يُقَدَّم أهل الفضل والعزم؛ وقد قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾. وقال الكلبي كما تقدم: نزلت في أبي بكر رضي الله عنه، ففيهما دليل واضح على تفضيل أبي بكر رضي الله عنه وتقديمه؛ لأنه أول من أسلم. قال ابن مسعود: أول من أظهر الإسلام بسيفه النبي ﷺ وأبو بكر، ولأنه أول من أنفق على نبي الله ﷺ.

والتقدم والتأخر يكون في أحكام الدنيا والدين، فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم، وأعظم المنازل مرتبة الصلاة». وقال ﷺ في مرضه فيما رواه الشيخان والترمذي وابن ماجه عن عائشة: «مروا أبا بكر فليصلّ بالناس» وقال فيما رواه أحمد عن أنس: «يؤمُّ القومَ أقرؤهم للقرآن» وقال فيما رواه الجماعة عن مالك بن الحويرث: «وليؤمّكما أكبرُكما» وقال مالك: إن للسن حقاً، وراعاه الشافعي وأبو حنيفة، وهو أحق بالمراعاة؛ لأنه إذا اجتمع العلم والسن في خيِّرين قدِّم العلم، وأما أحكام الدنيا فهي مرتَّبة على أحكام الدِّين، فمن قدِّم في الدين قُدِّم في الدنيا.

وفي الحديث الثابت الذي رواه الترمذي عن أنس: «ما أكرم شاب شيخاً لسِنِّه إلا قيَّض الله له من يكرمه عند سِنِّه» . وروى الترمذي أيضاً عن أنس: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقِّر كبيرنا» وفي رواية لأحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمرو: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا» وفي رواية أخرى لأحمد والحاكم عن عبادة بن الصامت: «ليس منا من لم يُجلّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه» .

٩ً- وعد الله تعالى كلاً من المتقدمين المتناهين السابقين، والمتأخرين اللاحقين الجنة، مع تفاوت الدرجات.

١٠ً- ندب القرآن مرة أخرى في هذه الآيات إلى الإنفاق في سبيل الله،

وأبان أن ثواب الصدقة التي يحتسب فيها المتصدق من قلبه بلا منّ ولا أذى مضاعف ما بين السبع إلى سبع مئة، إلى ما شاء الله من الأضعاف، بحسب الأحوال والأشخاص، ويكون للمنفِق جزاء جميل، ورزق باهر، وهو الجنة يوم القيامة.

١١- إن هذا الأجر الكريم والجزاء الجميل يكون للمؤمنين والمؤمنات الذين تصدقوا في سبيل الله، ويكون إيمانهم وعملهم الصالح سبباً للنجاة واجتياز الصراط، وهو الضياء الذي يمرون فيه، ويكون أمامهم، وتكون كتب أعمالهم بأيمانهم، وتبشرهم الملائكة بدخول الجنة خالدين فيها أبداً، ولا تنالهم أهوال القيامة، ويدخلون الجنة، وذلك هو الفوز الأكبر.

حال المنافقين يوم القيامة

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾

القراءات:

﴿ٱنظُرُونَا﴾:

وقرأ حمزة (أنْظِرونا).

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿يُؤْخَذُ﴾ :

وقرأ ابن عامر (تُؤخذ)، وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (يُوْخذ).

﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾ :

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وماواكم).

﴿وَبِئْسَ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (وبيس).

الإعراب:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ : ظرف، وعامله ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أو بدل من ﴿يَوْمَ﴾ الأول.

﴿ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ﴾ وراء هنا: اسم لـ ﴿ٱرْجِعُواْ﴾ وليس بظرف لـ ﴿ٱرْجِعُواْ﴾ قبله، فلا يكون ظرفاً للرجوع لقلة الفائدة فيه؛ لأن لفظ الرجوع يغني عنه، ويقوم مقامه.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ الباء: زائدة، وسور: في موضع رفع؛ لأنه نائب فاعل.

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ : إما مصدر مضاف إلى المفعول، ومعناه: تليكم وتمسكم، أو معناه: أولى بكم، وأنكر بعضهم هذا الوجه، وقال: إنه لا يعرف المولى بمعنى الأولى.

البلاغة:

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أسلوب تهكمي، أي لا ولي لكم ولا ناصر إلا نار جهنم.

﴿بَابٌ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

﴿بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ سجع مرصع غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿ٱنظُرُونَا﴾انتظرونا أو أبصرونا؛ لأنه يسرع بهم إلى الجنة كالبرق الخاطف، وقرئ: (انظرونا)، أي أمهلونا أو انتظرونا .﴿نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ نستضيء بنوركم، من الاقتباس: طلب القبس، أي الجذوة من النار، والمراد هنا نأخذ القبس والإضاءة .﴿قِيلَ﴾ لهم، استهزاء بهم .﴿ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ إلى الدنيا. ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ أي إلى حيث شئتم، فاطلبوا نوراً آخر، فإنه لا سبيل لكم إلى هذا، وهذا تهكم بهم وتخييب من المؤمنين أو من الملائكة .﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ ضرب بحائط أو حاجز بين المؤمنين والمنافقين، قيل: هو سور الأعراف .﴿لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ يدخل فيه المؤمنون .﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾باطن السور أو الباب من جهة المؤمنين لأنه يلي الجنة .﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾ من جهة المنافقين؛ لأنه يلي النار .﴿مِن قِبَلِهِ﴾ من جهته.

﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ أي ألسنا على دينكم وعلى الطاعة؟ أي في الظاهر. ﴿بَلَىٰ﴾ أي كنتم معنا .﴿فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ﴾ بالنفاق وأهلكتموها بالمعاصي. ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ بالمؤمنين الدوائر .﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ شككتم في دين الإسلام وفي أمر البعث .﴿ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ الآمال والأطماع كامتداد العمر وانتكاس الإسلام .﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ الموت .﴿ٱلۡغَرُورُ﴾ الشيطان .﴿فِدۡيَةٞ﴾فداء يفتدى به، وهو ما يبذل من المال لحفظ النفس من الهلاك .﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ منزلكم الذي تأوون إليه .﴿مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ التي تليكم أو أولى بكم .﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ النار.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى حال المؤمنين المنفقين يوم القيامة، وأن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة، فهو أمارة النجاة، بيَّن حال المنافقين في ذلك اليوم، وأنهم يلتمسون عون المؤمنين لهم، فيجابون بالخيبة واليأس، وألا أمل لهم في النجاة، وأن النار هي مأواهم وأولى بهم، وذلك يدل على أنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله تعالى ورسوله ﷺ إيماناً حقاً، وعمل بما أمر الله به، وترك ما عنه زجر.

التفسير والبيان:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي في ذلك اليوم يوم القيامة يقول المنافقون والمنافقات للمؤمنين الذين يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم: أيها المؤمنون الناجون انتظرونا لعلنا نستضيء بنوركم، ونخرج من هذا الظلام الحالك، والعذاب الأليم المنتظر.

قال جمع من العلماء: الناس كلهم يوم القيامة في الظلمات، ثم إنه تعالى يعطي المؤمنين هذه الأنوار، والمنافقون يطلبونها منهم قائلين: ﴿ٱنظُرُونَا﴾ لأنهم إذا نظروا إليهم، والنور قدامهم، استضاؤوا بتلألؤ تلك الأنوار.

فيجابون بما يخيب آمالهم، كما قال تعالى:

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي تقول لهم الملائكة أو المؤمنون: ارجعوا إلى الدنيا، فالتمسوا النور بما التمسناه به من الإيمان والأعمال الصالحة، وفي هذا تهكم بهم واستهزاء بطلبهم، كما كانوا يستهزئون بالمؤمنين في الدنيا، حين كانوا يقولون: آمنا وما هم بمؤمنين.

ثم يحسم الله الموقف وهذه المحاورة بقوله:

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ أي

فضرب بين المؤمنين وبين المنافقين حاجز، باطن ذلك السور، وهو الجانب الذي يلي أهل الجنة، فيه الرحمة، وهي نِعَم الجنة، والجانب الذي يلي أهل النار، من جهته عذاب جهنم.

ثم يذكر الله تعالى حال المنافقين واستغاثاتهم، فيقول:

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين قائلين لهم: ألم نكن معكم في الدار الدنيا، نوافقكم في أعمالكم، نشهد معكم الجُمُعات، ونصلّي معكم الجماعات في المساجد، ونقف معكم بعرفات، ونحضر معكم معارك الجهاد، ونؤدي معكم سائر الواجبات، ونعمل بأعمال الإسلام كلها؟

فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين: بلى قد كنتم معنا في الظاهر، ولكنكم فتنتم أنفسكم بالنفاق وإبطان الكفر، وأهلكتموها باللذات والمعاصي والشهوات، وأخرتم التوبة، وتربصتم الدوائر وحوادث الدهر بالمؤمنين، وبالحق وأهله، وشككتم في أمر الدين والبعث بعد الموت، ولم تصدِّقوا ما نزل به القرآن، ولا آمنتم بالمعجزات الظاهرة.

وغرتكم الأماني الباطلة حيث قلتم: سيُغْفَرُ لنا، وغرتكم الدنيا وطول الأمل، حتى جاءكم الموت، وغرّكم أو خدعكم الشيطان، حتى قال لكم: إن الله غفور رحيم لا يعذبكم.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ أي ففي هذا اليوم لا تقبل منكم فدية تفدون بها أنفسكم من النار أو العذاب، أيها المنافقون، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢/١٢٣] ولا من الذين كفروا بالله ظاهراً وباطناً، منزلكم الذي تأوون إليه النار، هي أولى بكم من كل منزل، وبئس المصير الذي تصيرون إليه، وهو النار.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- يستنجد المنافقون (الذين أظهروا الإسلام في الدنيا وأبطنوا الكفر) بالمؤمنين الذين نجوا من العذاب، طالبين منهم انتظارهم أو إمهالهم وتأخيرهم ليأخذوهم معهم، والاستضاءة بنورهم. قال أبو أمامة: يعطى المؤمن النور، ويترك الكافر والمنافق بلا نور.

٢ً- تقول الملائكة أو المؤمنون لهم: ارجعوا إلى الموضع الذي أخذنا منه النور، فاطلبوا هنالك لأنفسكم نوراً، فإنكم لا تقتبسون من نورنا.

٣ً- لما رجعوا وانعزلوا في طلب النور ضرب حاجز بين الجنة والنار، باطنه فيه الرحمة، وهو ما يلي المؤمنين، وظاهره فيه العذاب وهو ما يلي المنافقين.

٤ً- ينادي المنافقون المؤمنين قائلين لهم: ألم نكن معكم في الدنيا، نصلي كما تصلون، ونجاهد كما تجاهدون، ونفعل مثلما تفعلون؟

فيجيبهم المؤمنون بقولهم: بلى، قد كنتم معنا في الظاهر، ولكنكم استعملتم أنفسكم في الفتنة، وأهلكتموها بالنفاق والمعاصي والشهوات واللذات، وتربصتم بالنبي ﷺ الموت، وبالمؤمنين الدوائر، وغرتكم الأباطيل، حتى حضركم الموت، وخدعكم بالله الشيطان.

٥ً- أيأسهم الله تعالى من النجاة، وأخبرهم بأنه لا يقبل منهم يوم القيامة فدية يدفعون بها العذاب عن أنفسهم، ومقامهم ومنزلهم النار، هي أولى بهم من كل منزل، وساءت مرجعاً ومصيراً.

خشية الله وجزاء المتصدقين والمؤمنين وجزاء الكافرين

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

القراءات:

﴿يَأْنِ﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (يان).

﴿نَزَلَ﴾ : قرئ:

١- (نَزَل) وهي قراءة نافع، وحفص.

٢- (نَزَّل) وهي قراءة الباقين.

﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ :

وقرأ ابن كثير (المصَدِّقين والمصَدِّقات).

﴿يُضَٰعَفُ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وابن عامر (يُضَعَّفُ).

الإعراب:

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (ما): اسم موصول بمعنى الذي في موضع جر بالعطف على قوله: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ويجوز أيضاً أن تكون مصدرية، وتقديره: لذكر الله وتنزيل الحق ﴿وَلَا يَكُونُواْ﴾ معطوف على﴿تَخْشَعَ﴾.

﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ﴿وَأَقْرَضُواْ﴾: إما معطوف على ما في صلة الألف واللام في قوله: ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾على تقدير: إن الذين تصدقوا وأقرضوا، وإما أن يكون: ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ﴾اعتراضاً بين اسم ﴿إِنَّ﴾ وخبرها، وهو﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ وجاز هذا الاعتراض لأنه يؤكد المعنى الأول من التصدق.

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾.

البلاغة:

﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استعارة تمثيلية، استعار إحياء الأرض بالنبات لإحياء القلوب القاسية بالقرآن وتلاوته.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ ألم يأت وقته، يقال: أنى الأمر أنْياً وأناء وإناءً: إذا جاء أناه، أي وقته .﴿أَن تَخْشَعَ﴾ تخشى وتخاف .﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وعظه وإرشاده .﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ هو القرآن .﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم اليهود والنصارى، والمراد النهي عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكى الله عنهم بقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ﴾ الزمن، أي طال العهد بينهم وبين أنبيائهم .﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ صلُبت ولم تلن لذكر الله .﴿فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حدود دينهم، مخالفون للأوامر والنواهي.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ﴾ خطاب للمؤمنين المذكورين في الآية السابقة .﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ﴾ يحييها بالماء والنبات بعد جدبها، فكذلك يفعل بقلوبكم يردها إلى الخشوع، وهذا تمثيل لإحياء القلوب القاسية بالذكر والتلاوة .﴿قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ أوضحنا لكم الآيات الدالة على قدرتنا بهذا البيان هنا وغيره، وهي الحجج .﴿تَعۡقِلُونَ﴾ تتدبرون.

﴿إِنَّ ٱلۡمُصَّدِّقِينَ وَٱلۡمُصَّدِّقَٰتِ﴾ أي الذين تصدقوا واللاتي تصدقن بأموالهم على المحتاجين من التصدق: أدغمت التاء في الصاد، وفي قراءة بتخفيف الصاد فيهما من التصديق: الإيمان .﴿وَأَقۡرَضُواْ ٱللَّهَ﴾ راجع إلى الذكور والإناث معاً بطريق التغليب .﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ صدقة مقرونة بالإخلاص ابتغاء مرضاة الله، بلا مَنّ ولا أذى ولا إرادة جزاء من المحتاج المعطى .﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ يضاعف الله لهم ثواب عملهم، وفي قراءة يضعّف بالتشديد، أي قرضهم، ﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ ثواب جميل ورزق باهر.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ المبالغون في التصديق، أي أولئك عند الله بمنزلة الصديقين وهم الذين كثر صدقهم وصار سجية لهم .﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ هم الذين قتلوا في سبيل الله، جمع شهيد، سمي بذلك؛ لأن الملائكة تشهد له بالجنة، أو القائمون بالشهادة لله أو لهم أو على الأمم يوم القيامة، والمراد بهم الأنبياء؛ لقوله تعالى ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤/ ٤١] .

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جحدوا وجود الله ووحدانيته .﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة على وحدانيتنا .﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ النار، قال البيضاوي: فيه دليل على أن الخلود في النار مخصوص بالكفار، من حيث إن التركيب يشعر بالاختصاص، والصحبة تدل على الملازمة.

سبب النزول:

نزول الآية (١٦):

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ : أخرج ابن أبي شيبة في مصنفه عن عبد العزيز بن أبي رواد: أن أصحاب النبي ﷺ ظهر فيهم المزاح والضحك، فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان قال: كان أصحاب النبي ﷺ قد أخذوا في شيء من المزاح، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وأخرج أيضاً عن السُّدِّي عن القاسم قال: ملّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلَّة، فقالوا: حدثنا يا رسول الله، فأنزل الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ ثم مَلُّوا مَلَّة، فقالوا حدثنا يا رسول الله، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

وأخرج ابن المبارك في الزهد عن الأعمش قال: لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ المدينة، فأصابوا من العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم من الجهد، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية. وروي مثل هذا عن ابن مسعود، وقال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عوتبنا بهذه الآية إلا أربع سنين[١]. وقال ابن عباس: إنه عاتبنا على رأس ثلاث عشرة سنة.

المناسبة:

بعد بيان حال المؤمنين وحال المنافقين يوم القيامة، أتبعه بندب المؤمنين

(١) رواه مسلم والنسائي وابن ماجه والبزار.

الذين فترت عزائمهم إلى الخشوع وخشية القلب ولينه بسماع مواعظ القرآن وإرشاداته، وحذرهم من مماثلة أهل الكتاب الذين قست قلوبهم لطول العهد بينهم وبين أنبيائهم، فأهملوا أوامر الدين ونواهيه، ثم ذكر الفرق بين جزاء المتصدقين والمؤمنين وجزاء الكافرين.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي ألم يحن الوقت لأن تلين قلوب المؤمنين وترقّ عند سماع تذكير الله ووعظه وقرآنه. فتفهمه وتنقاد له وتسمع أوامره وتطيعه وتجتنب نواهيه؟

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إن الله استبطأ قلوب المؤمنين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الآية. والظاهر أن هذا القول أصح من غيره؛ لأن السورة مدنية.

ثم نهاهم عن مماثلة أهل الكتاب، فقال:

﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي ولا يتشبهوا بجملة الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى الذين أوتوا التوراة والإنجيل من قبل نزول القرآن، حين طال عليهم الزمان بينهم وبين أنبيائهم، فقست قلوبهم بذلك السبب، حتى صاروا لا يتأثرون بالموعظة ولا بالوعد والوعيد، وبدّلوا كتاب الله الذي بأيديهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، ونبذوه وراء ظهورهم، واتبعوا الآراء المختلفة والأقوال المؤتفكة، وقلّدوا أحبارهم ورهبانهم في دين الله من غير دليل ولا برهان، وكثير منهم خارجون عن حدود الله وأوامره ونواهيه، فصارت أعمالهم باطلة، وقلوبهم فاسدة، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣/٥] ولهذا نهى الله المؤمنين عن التشبّه بهم.

ثم ضرب الله تعالى المثل لتأثير المواعظ وتلاوة القرآن، فقال:

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي كما أن الله يحيي الأرض بالنبات والغيث بعد جدبها قادر على أن يلين القلوب بعد قسوتها، ويهدي الحيارى بعد الضلال، ببراهين القرآن ودلائله، قد أوضحنا لكم الآيات والحجج، كي تتدبروها، وتعقلوا ما فيها من المواعظ، وتعملوا بموجب ذلك.

ثم أبان الله تعالى ثواب المتصدقين والمتصدقات على البائسين، فقال:

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ أي إن المتصدقين والمتصدقات بأموالهم على ذوي الحاجة والفقر والبؤس والمسكنة، ودفعوا المال بنية خالصة ابتغاء رضوان الله، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً، يقابل لهم الحسنة بعشرة أمثالها، ويضاعفها إلى سبع مئة ضعف إلى أكثر من ذلك، ولهم فوق ذلك ثواب جزيل حسن، ومرجع صالح، ومآب كريم معزَّز.

ثم وصف الله جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ أي إن الذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله، هم في منزلة الصدّيقين، قال مجاهد: كل من آمن بالله ورسله، فهو صدِّيق، والذين استشهدوا في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله ودينه، ورفع راية الحق وأهله، لهم الثواب العظيم عند ربهم، والنور الموعود به الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، وهذا إشارة إلى صنفين من أصناف المؤمنين المخلصين الأربعة، وهم الأنبياء، والصِّدِّيقون، والشهداء، والصالحون، المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾ [النساء: ٤/٦٩] . ومن الشهداء ما ثبت في الحديث الذي

أخرجه أحمد: أن النبي ﷺ قال: «ماتعدّون الشهيد فيكم؟ قالوا: المقتول في سبيل الله، فقال: إن شهداء أمتي إذن لقليل، المقتول شهيد، والمبطون شهيد، والمطعون شهيد» الحديث. وهؤلاء هم شهداء الآخرة الذين لهم ثواب خاص.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾أي والذين أنكروا وجود الله، وجحدوا وحدانيته، وكذبوا آياته وبراهينه الدالة على ألوهيته الحقَّة، وصِدْق رسله، أولئك لا غيرهم هم أصحاب النار خالدين فيها أبداً. وهذا بيان حال الأشقياء بعد بيان حال السعداء.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً- إن خشية الله والخضوع لأوامره وأحكامه من صفات أهل الإيمان، وإن الإعراض عن آيات الله ومواعظه وشرائعه من خصال الفاسقين، وهم اليهود والنصارى الذين بدلوا كلام الله، واتبعوا آراءهم وأهواءهم، وتركوا الدين الحق، ولم تلن قلوبهم لسماع تذكير الله ووعظه.

وهذا نهي صريح للمؤمنين عن مشابهة أهل الكتاب الذين قطعوا الصلة الحقيقية بينهم وبين هدي الله فيما نزل من التوراة والإنجيل والذي لا يخالف ما نزل في القرآن، ولو بقي هذان الكتابان على حالهما ولم يندثرا لظهر التطابق التام بينهما وبين القرآن في أصول الدين والاعتقاد وأصول الشرائع.

٢ً- أن سماع مواعظ الله وآياته يحيي القلوب الميتة، ويلين النفوس القاسية، كما أن الله يحيي الأرض الجدبة الهامدة، ويلينها بالغيث، ويجعل فيها الحركة والحيوية والحياة البهيجة.

٣ً- أن الذين أنفقوا شيئاً من أموالهم، وتصدقوا به على الفقراء والبائسين بإخلاص ابتغاء رضاء الله، يضاعف لهم ثواب أعمالهم، ولهم الجنة.

٤ً- المؤمنون بالله ورسله هم الصدِّيقون الكاملون في الصدق؛ إذ لا قول أصدق من التوحيد والاعتراف بالرسالة، والصديقون يتلون الأنبياء، والشهداء يتلون الصديقين، والصالحون يتلون الشهداء، وهؤلاء جميعاً لهم الأجر العظيم عند ربهم، وهم الناجون يوم الحساب، والخالدون في النعيم.

٥ً- الكافرون بالله ورسله، المكذبون بالرسل والمعجزات، هم أصحاب النار المخلدون فيها المعذبون فيها، فلا أجر لهم ولا نور، بل عذاب مقيم وظلمة دائمة؛ لأنهم جمعوا بين الكفر وتكذيب الآيات.

حال الدنيا والحث على عمل الآخرة

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾

الإعراب:

﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ﴾ الكاف في موضع رفع، إما وصف لقوله ﴿وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ وإما خبر بعد خبر وهي ﴿ٱلۡحَيَوٰةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

﴿عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿كَعَرۡضِ﴾ جار ومجرور في موضع رفع؛ لأنه خبر المبتدأ الذي هو ﴿عَرۡضُهَا﴾ والجملة في موضع جر؛ لأنها صفة لـ ﴿وَجَنَّةٍ﴾.

البلاغة:

﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾ مجاز مرسل علاقته المسببية، أي إلى سبب مغفرة.

المفردات اللغوية:

﴿لَعِبٌ﴾ ما لا فائدة فيه. ﴿وَلَهْوٌ﴾ ما يشغل الإنسان عما يعنيه. ﴿وَزِينَةٌ﴾ تزيين أو ما يتزين به، كالمناصب العالية والمراكب البهية والمنازل الرفيعة والملابس الفاخرة. ﴿وَتَفَاخُرٌ﴾بالألقاب والأمجاد والأنساب. ﴿وَتَكَاثُرٌ﴾ مباهاة بكثرة الأموال والأولاد. ﴿كَمَثَلِ﴾ أي إن الدنيا في إعجابها لكم واضمحلالها كمثل ﴿غَيْثٍ﴾ مطر. ﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أعجب الزراع نباته الناشئ عنه. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ ييبس بعد أن كان أخضر. ﴿حُطَٰمًا﴾ هشيماً متكسراً من الجفاف أو اليبس. ﴿وَفِى ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لمن آثر عليها الدنيا. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ لمن آثر الآخرة، وهذا تنفير عن الانهماك في الدنيا، وحث على العمل للآخرة. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ أي وما التمتع في الدنيا. ﴿إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ متاع الخديعة لمن أقبل عليها ونسي الآخرة.

﴿سَابِقُوٓاْ﴾ سارعوا مسارعة السابقين في مضمار السباق. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إلى موجبات المغفرة. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي عرضها كعرضهما، وإذا كان العرض كذلك، فما ظنك بالطول؟ ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾فيه دليل على أن الجنة مخلوقة، وأن الإيمان وحده كافٍ في استحقاقها. ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ ذلك الموعود به من الجنة والمغفرة يتفضل الله به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ولا إلزام. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ والله واسع الفضل، لا يبعد منه التفضل بذلك.

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال الفريقين: المؤمنين والكافرين في الآخرة، أردفه بما يدل على تحقير أمور الدنيا، وكمال حال الآخرة، فإن الدنيا قليلة

النفع سريعة الزوال، والآخرة تامة الفائدة، خالدة باقية، ولا شك أن الأدوم الأخلد مفضل على المؤقت، لذا أعقبه بالحث على ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه والفوز بالنعيم الأبدي.

التفسير والبيان:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ أي اعلموا أيها الناس جميعاً أن الحياة الدنيا مجرد لعب لا جِدّ، ولهو يتلهى به ثم يذهب، وزينة يتزين بها مؤقتاً، ومفخرة يفتخر بها بعضكم على بعض بكثرة الأموال وعدد الأولاد.

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾ [آل عمران: ٣/ ١٤].

وهذا يدل على حقارة الدنيا، ثم شبهها في سرعة زوالها، مع قلة جدواها بنبات أنبته الغيث وربَّاه إلى أن يتكامل نشوؤه ثم يزول، فقال:

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي إن الدنيا مثل مطر، أعجب الزراع النبات الحاصل به، ثم يجف وييبس بعد خضرته، ثم يكون فتاتاً هشيماً متكسراً متحطماً بعد يبسه، تعصف به الرياح. والكفار هنا: الزُّراع؛ لأنهم يَكْفُرون البذر في الأرض، أي يغطونه بالتراب.

ونظير الآية: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤].

ثم حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير استعداداً للآخرة، فقال: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي وليس في الآخرة الآتية إلا أمران: إما عذاب شديد لأعداء الله، وإما مغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته، وما الحياة الدنيا إلا مجرد متاع يتمتع به، وخديعة لمن يغتر بها، ولم يعمل لآخرته، حتى أعجبته واعتقد أنه لا دار سواها، ولا معاد وراءها، مع أنها حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة. قال سعيد بن جبير: الدنيا متاع الغرور، إذا ألهتك عن طلب الآخرة، فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله ولقائه، فنعم المتاع ونعم الوسيلة. وهذا دليل على أن من استعان على الآخرة بطلب الدنيا، فهي له متاع وبلاغ إلى ما هو خير منه.

روى ابن جرير، وجاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها» اقرؤوا: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ والزيادة الأخيرة في رواية ابن جرير فقط.

وأخرج البخاري وأحمد عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك» وهذا يدل على اقتراب الخير والشر من الإنسان.

ولما ذكر الله تعالى ما في الآخرة من المغفرة أمر بالمسابقة إليها:

أي إنه سبحانه حث على المبادرة إلى الخيرات، والمسابقة إلى المغفرة وإلى الجنة، من فعل الطاعات، وترك المحرمات التي تكفّر الذنوب والزلاّت، وتحصّل الثواب والدرجات، فقال:

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ﴾ أي بادروا أو سارعوا مسارعة المتسابقين

بالأعمال الصالحة إلى ما يوجب المغفرة لكم من ربكم، وسارعوا إلى التوبة الماحية للذنوب والمعاصي، وإلى ما يوصّل إلى جنة عرضها مثل عرض السماء والأرض معاً، وإذا كان هذا قدر عرضها، فما ظنك بطولها؟!

تلك الجنة التي هيئت وخلقت للذين صدقوا بالله وبرسله، وعملوا بما فرض الله عليهم، واجتنبوا نَهْيه.

ثم بيَّن الله تعالى أن المغفرة والجنة فضل منه ورحمة، لا إيجاب وإلزام، فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾أي إن هذا الجزاء الموعود به وهو الجنة والمغفرة مجرد فضل من الله ورحمة منه، وليس واجباً عليه.

جاء في الحديث الصحيح: «أن فقراء المهاجرين قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، بالدرجات العلى والنعيم المقيم، قال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق، قال: أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثلما صنعتم، تسبِّحون وتكبِّرون وتحمِّدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، قال: فرجعوا، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول اللهﷺ: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾» .

فقه الحياة أو الأحكام:

١- إن المقصود الأصلي من الآية الأولى تحقير حال الدنيا، وتعظيم حال الآخرة، لذا وصف الله تعالى الدنيا بخمس صفات: أنها لعب وهو فعل الصبيان الذين يتعبون أنفسهم جداً، ثم تنقضي متاعبهم من غير فائدة، وأنها لهو وهو فعل الشبان، ولا يبقى غالباً بعده إلا الحسرة، وأنها زينة وهذا دأب النساء وهو تكميل الناقص، وتفاخر بين أهلها بالصفات الفانية الزائلة، وهو

إما التفاخر بالنسب، أو التفاخر بالقدرة المادية والقوة الجسدية والأتباع والمنصب، وكلها ذاهبة، وأنها تكاثر في الأموال والأولاد.

ثم شبهها في سرعة انقضائها وزوال جمالها بالزرع الذي يعجب الناظرين إليه، لخضرته بكثرة الأمطار، ثم لا يلبث أن يصير هشيماً كأن لم يكن، وقد ذكر هذا المثل في سورتي يونس (٢٤) والكهف (٤٥).

ثم ذكر حال الآخرة، فالناس فيها إما إلى عذاب شديد دائم لأعداء الله، وإما إلى مغفرة من الله ورضوان لأوليائه وأهل طاعته، وهو أعظم درجات الثواب.

ثم ختم الآية تأكيداً لما سبق بأن الحياة الدنيا مجرد متاع يغُرّ ويخدع من أقبل عليها، وهم الكفار، أما المؤمنون فالدنيا لهم متاع بلاغ إلى الجنة.

٢ً- إذا كان هذا شأن الدنيا وحال الآخرة، فما على الناس إلا العمل للآخرة، لذا أمر الله بالمسارعة بالأعمال الصالحة التي توجب المغفرة لهم من ربهم، وتبوئهم جنات تجري من تحتها الأنهار، والجنة كعرض السماء والأرض لو وصل بعضها ببعض، وقد خلقت وهيئت للذين صدّقوا بوجود الله ووحدانيته وبرسله.

وفي هذا تقوية للرجاء، ودليل على أن الجنة مخلوقة جاهزة. لكن لا تُنال الجنة ولا تُدخل إلا برحمة الله تعالى وفضله، والله صاحب الفضل الواسع الكثير. والمراد بهذه الجملة: التنبيه على عظم حال الجنة؛ لأن ذا الفضل العظيم إذا أعطى عطاء مدح به نفسه، فإنه لا بد وأن يكون ذلك العطاء عظيماً.

تعلق المصائب بالقضاء والقدر وجناية البخلاء على أنفسهم

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

القراءات:

﴿ءَاتَىٰكُمْ﴾:

وقرأ أبو عمرو (أتاكم).

﴿بِٱلْبُخْلِ﴾:

وقرأ حمزة، والكسائي (بالبَخَل).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (فإن الله الغني الحميد).

الإعراب:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ موضعه إما الجر على أنه صفة لمصيبة على اللفظ، أي كائنة في الأرض، وإما الرفع صفة لمصيبة على الموضع، وموضعها الرفع؛ لأن ﴿مِن﴾ زائدة، وفي الصفة ضمير يعود على الموصوف، وإما النصب على أنه متعلق بـ﴿أَصَابَ﴾ أو بـ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ فلا يكون إذن فيه ضمير.

و﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ في موضع نصب على الحال، أي إلا مكتوباً، وهاء ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾تعود على النفس أو على الأرض أو على المصيبة.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ﴾ ﴿تَأْسَوْاْ﴾ منصوب بـ (كي) لا بتقدير (أن) بعدها؛ لأن اللام هنا حرف جر، وقد دخلت على (كي) فلا يجوز أن تكون (كي) حينئذ حرف جر؛ لأن حرف الجر لا يدخل على حرف الجر.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾بدل من كل مختال، أو مبتدأ، خبره محذوف دل عليه ما بعده: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ لأن معناه: ومن يعرض عن الإنفاق، فإن الله غني عنه، وعن إنفاقه. وضمير ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل.

المفردات اللغوية:

﴿مُّصِيبَةٍ﴾ هي في اللغة: كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، وخصت في العرف بالشر، كالجدب والعاهة في الأرض، والمرض والآفة وفقد الولد في الأنفس. ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ أي اللوح المحفوظ. ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ نخلقها. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إن إثباته في كتاب الله سهل؛ لاستغنائه فيه عن العَدّ والمدة. ﴿تَأْسَوْاْ﴾ تحزنوا. ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نعيم الدنيا. ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾فرح بطر، بل فرح شكر على النعمة، بما أعطاكم الله منها، فإن من علم أن الكل مقدّر، هان عليه الأمر. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ أي يعاقب. ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ﴾ متكبر بما أوتي. ﴿فَخُورٍ﴾ متباه أو مباه على الناس بماله أو جاهه.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾ بما يجب عليهم. ﴿وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾أي بالبخل به، لهم وعيد شديد، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾عما يجب عليه. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن غيره﴿ٱلْحَمِيدُ﴾المحمود في ذاته، لا يضره الإعراض عن شكره، ولا ينتفع بالتقرب إليه بشيء من نعمه. وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق.

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن كل ما في الآخرة من مغفرة وجنة من فضله ورحمته، أراد أن يبين أن كل ما في الدنيا من مصائب وأحداث بقضائه وقدره، لتهوين أمر المصيبة على المؤمنين.

ثم حذر الله تعالى من الحزن على ما فات من نعيم الدنيا، والبطر والاختيال والمباهاة عند مجيء النعمة، ثم أخبر أنه يعاقب المختالين الفخورين الذين يبخلون بما يجب عليهم شرعاً، بل ويأمرون الناس بالبخل، وهؤلاء لا يجنون إلا على أنفسهم.

التفسير والبيان:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي لا توجد مصيبة من هذه المصائب في الدنيا إلا وهي مكتوبة عند الله، فهي بقضاء وقدر، سواء أكانت مصيبة في الأرض مثل القحط والجدب أو قلة النبات، وفساد الزرع، ونقص الثمار، وغلاء الأسعار، وتتابع الجوع، أم في الأنفس كالأمراض، والفقر وضيق المعاش، وذهاب الأولاد، وإقامة الحدود، فذلك كله مسطّر في اللوح المحفوظ، من قبل إيجاد هذه الخليقة.

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ الأحسن عود الضمير على الخليقة والبرية أو النسمة؛ لدلالة الكلام عليها، كما قال ابن جرير.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي إن إثباتها في الكتاب، مع كثرتها، وعلمه بالأشياء قبل وجودها، سهل يسير على الله، غير عسير؛ لأن الله هو الخالق، وهو أعلم بما خلق، يعلم ما كان وما سيكون وما لا يكون. ورد في الخبر: (من عرف سر الله في القَدَر، هانت عليه المصائب). وقد استدل العلماء بهذه الآية على أنه تعالى عالم بالأشياء قبل وقوعها.

فالأشياء والأحداث والمصائب تنسب إلى الله الموجد لها، لا إلى أحد من البشر في الحقيقة، وأما ما يقال من التشاؤم (الطيرة) في المرأة والدابة والدار، فذلك بحسب عرف الناس وتصوراتهم ومقالاتهم، لا في واقع الأمر، كذلك السحر والعين والقتل كل ذلك يحدث بتأثير الله، فهو المؤثر والفعال الحقيقي، وأما فعل الناس فهو مجرد أمر أو سبب في الظاهر، فينسب إليه الشيء الحادث ظاهراً، لا حقيقة. وإنما قيد المصائب بكونها في الأرض والأنفس لقصرها على أحوال الدنيا، لذا قال ﷺ: «جفَّ القلم بما هو كائن إلى يوم الدين» ولم يقل: إلى الأبد.

أخرج الإمام أحمد، والحاكم وصححه عن أبي حسان: أن رجلين دخلا على عائشة رضي الله تعالى عنها فقالا: «إن أبا هريرة يحدِّث أن النبي ﷺ كان يقول: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار، فقالت: والذي أنزل القرآن على أبي القاسم ﷺ ما هكذا كان يقول، ولكن كان رسول الله ﷺ يقول: كان أهل الجاهلية يقولون: إنما الطيرة في المرأة والدابة والدار» ، ثم قرأت: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أي أخبرناكم بذلك لكيلا تحزنوا على ما فاتكم من نعيم في الدنيا، ولا تفرحوا فرح بطر بما هو آت، فلا تأسوا على ما فاتكم؛ لأنه لو قدر شيء لكان، ولا تفرحوا بما جاءكم أو أعطاكم، أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك من قدر الله ورزقه لكم، لذا قال تعالى:

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾أي إن الله يعاقب كل مختال في نفسه، أي متكبر، فخور على غيره، أي مباه بماله أو جاهه.

وبه يتبين أن الحزن المذموم: هو الذي لا صبر لدى صاحبه، ولا رضا بقضاء الله وقدره، والفرح الممنوع: هو البطر الذي يحمل صاحبه على

الطغيان، ويلهيه عن الشكر. قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يحزن أو يفرح، ولكن اجعلوا الفرح شكراً، والحزن صبراً.

ولا يصح النهي عن شيء من طبائع البشر كالفرح والحزن والغضب، وإنما النهي وارد على مقدمات الغضب وتعاطي أسبابه، أو على توابع الفرح والحزن وهو بطر النعمة وكفرانها، والسخط على القدر، والجزع.

وبما أن المختال الفخور يكون غالباً بخيلاً؛ لأنه لا يرى لغيره حقاً عليه، ذكر تعالى صفة البخل عندهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾ أي إن المختالين الفخورين هم الذين يبخلون عادة بأموالهم، فلا يؤدون حق الله فيها، ولا يواسون بائساً فقيراً، ولا معدماً عاجزاً، بل إنهم يطلبون من غيرهم إمساك المال، ويحسِّنون للناس أن يبخلوا بما يملكون، حتى يجعلوا لهم أشباهاً وأمثالاً. ولكن من يعرض عن الإنفاق وعن أمر الله وطاعته، فإن الله غني عنه، محمود الذات في السماء والأرض عند خلقه، لا يضره ذلك، ولا يضرن البخيل إلا نفسه، كما قال موسى عليه السلام لقوم فيما حكى القرآن: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- كل ما في الكون بأمر الله تعالى، وكل المصائب معلومة لله تعالى، مكتوبة في اللوح المحفوظ قبل إيجاد الخليقة، وحفظ ذلك وعلمه هيّن يسير على الله تعالى.

٢- إذا كان الكل مكتوباً مقدراً لا مرد له، هانت المصائب على الناس،

وكان عليهم امتثال الأمر، فلا يحزنوا على ما فاتهم من الرزق، ولا يفرحوا بما أوتوا من الدنيا.

وروى عكرمة عن ابن عباس: ليس من أحد إلا وهو يحزن ويفرح، ولكن المؤمن يجعل مصيبته صبراً، وغنيمته شكراً[١]. والحزن والفرح المنهي عنهما هما اللذان يتعدى فيهما المرء إلى ما لا يجوز. وقد تقدم أن الفرح المذموم: هو الموجب للبطر والاختيال، أي التكبر. وأن الحزن الممنوع: هو الذي يخرج صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى، ورجاء ثواب الصابرين.

٣ً- إن الله يبغض كل متكبر بما أوتي من الدنيا، فخور به على الناس ولا يرضى عنه، ويعاقبه.

٤ً- إن الله لا يحب المختالين الذين يبخلون أو يضنون بالمال عما أوجب الله عليهم من الإنفاق في سبيله، والصدقة به على الفقراء والمساكين، ويأمرون الناس بالبخل مثلهم.

٥ً- من يعرض عن الإنفاق وعن طاعة الله والإيمان بما قدر وقضى فإن الله غني عنه وعن إنفاقه، والله سبحانه هو الغني المطلق الغنى الذي يرزق عباده، والمحمود في ذاته في السماء والأرض، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه، كما قال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٥] ولا يضره الإعراض عن شكره، بالتقرب إليه بشيء من نعمه جل جلاله.

(١) أخرجه الحاكم وصححه وغيره.

الغاية من بعثة الرسل

- ١ -

دستور المجتمع الإسلامي ونظام الحكم

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)﴾

القراءات:

﴿رُسُلَنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

﴿بَأْسٌ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (باس).

الإعراب:

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ جملة مركبة من مبتدأ وخبر، في موضع نصب على الحال من ﴿الْحَدِيدَ﴾.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ معطوف على ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ﴾ ﴿وَرُسُلَهُ﴾ منصوب بالعطف على هاء ﴿يَنصُرُهُ﴾ وتقديره: وينصر رسله، مثل: ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر: ٨/٥٩]. ولا يجوز نصبه بـ (يعلم) لأنه يصير فصلاً بين الصلة والموصول أي بين ﴿يَنصُرُهُ﴾ وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾وذلك لا يجوز. و﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من هاء .﴿يَنصُرُهُ﴾ أي غائباً عنهم في الدنيا.

البلاغة:

﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ جناس ناقص لتغير الشكل وبعض الحروف. ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ سجع مرصع محبب إلى النفس.

المفردات اللغوية:

﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ أرسلنا الأنبياء إلى الأمم ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الحجج والمعجزات. ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أراد به الجنس، أي كتب الشرائع. ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ العدل. ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ بالحق. ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ خلقناه وأخرجناه من المعادن. ﴿فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ﴾ أي تتخذ منه آلات الحرب والصناعات الثقيلة والمباني الضخمة ونحو ذلك، والبأس: القوة. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ يدخل في صناعات كثيرة مفيدة للناس. ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾ علم مشاهدة وظهور في الواقع الحاصل. ﴿مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ من ينصر دينه وينصر رسله باستخدام الأسلحة وآلات الحرب من الحديد وغيره من مجاهدة الكفار الأعداء. ﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾ غائباً عنهم في الدنيا، قال ابن عباس: ينصرونه ولا يبصرونه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ على إهلاك من أراد إهلاكه. ﴿عَزِيزٞ﴾ لا حاجة له إلى نصرة عباده، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به وينالوا ثواب الامتثال فيه.

المناسبة:

بعد بيان حال الدنيا وحال الآخرة، أراد الله تعالى أن يبين الغرض من بعثة الرسل المؤيدين بالمعجزات والحجج القاطعات، ويرشد إلى مقومات الرسالات والشرائع الإلهية لتنظيم حياة المجتمعات، وإعزاز دين الله ونصرة رسله.

وأما وجه المناسبة بين الكتاب والميزان والحديد في الآية، فإن العلماء ذكروا وجوهاً سبعة أظهرها: أن الدين إما اعتقادات أو معاملات أو أصول

وفروع، والاعتقادات أو الأصول لا تتم إلا بالكتاب السماوي، ولاسيما إذا كان معجزاً، والمعاملات أو الفروع لا تصلح ولا تنتظم إلا بالميزان وهو العدل، ولا بد من مؤيد يحمي نظم الشرائع، وذلك المؤيد هو الحديد لتأديب من ترك الأصلين أو الطريقين، وهما الاعتقاد ونظام التعامل(١).

وهذا إشارة إلى أن الكتاب يمثل سلطة التشريع، والعدل يمثل سلطة القضاء، وإنزال الحديد يمثل السلطة التنفيذية.

التفسير والبيان:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أي تالله لقد أرسلنا الملائكة إلى الأنبياء بالوحي، والأنبياء إلى أممهم لتبليغ الوحي، بالمعجزات البينة والشرائع الظاهرة والحجج والبراهين القاطعة، وأنزلنا معهم الكتاب أي جنسه الشامل لكل كتاب سماوي كالتوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وأنزلنا معهم الميزان، أي العدل في الأحكام، أي أمرناهم به، ليتبع الناس ما أمروا به من الحق والعدل، وتقوم حياتهم عليه، فيتعاملوا بينهم بالإنصاف في جميع أمورهم الدينية والدنيوية، فهم الحراس على تنفيذ الأحكام واحترام الشرائع واتباع الرسل.

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي وخلقنا الحديد مع المعادن، وعلَّمنا الناس صنعته، وجعلناه رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه، ففيه قوة رادعة، وفيه منافع للناس ينتفعون به في كثير من حاجاتهم ومعايشهم، كأدوات الطعام ومرافق المنازل وإقامة المباني والعمارات، ومرافق الحياة الاقتصادية وآلات الزراعة وأدوات الصناعة السلمية والحربية، الخفيفة والثقيلة من آلات وأسلحة وقطارات وبواخر

(١) تفسير الرازي : ٢٩/ ٢٤٠ وما بعدها، غرائب القرآن للنيسابوري : ٢٧/ ١٠١ وما بعدها.

وطائرات وسيارات وغيرها. فكلمة الحديد إشارة إلى القوة الرادعة لتنفيذ أحكام الشريعة بين المسلمين ومن يتعايش معهم في داخل الدولة، ولجهاد الأعداء الذين يعتدون على حرمات الدين وبلاد الإسلام ويعرقلون انتشاره في العالم.

لهذا أقام الرسول ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية لإصلاح العقيدة والأخلاق وجدال المشركين وإيضاح أصل التوحيد وإثبات النبوة بالمعجزات الباهرات، فلما قامت الحجة على الناس المخالفين، شرع الله الهجرة، وأذن بالقتال دفاعاً عن استقرار العقيدة وكرامة المسلمين وعزتهم، وكفالة احترام تعاليم القرآن. وروى الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بالسيف بين يدي الساعة، حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجُعلت الذلةُ والصغَار على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقوم فهو منهم».

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ أي إنما فعل الله ذلك ليعلم علم مشاهدة ووجود من ينصر دينه وينصر رسله بإخلاص ونية صالحة، باستعمال الحديد، في أسلحة الجهاد ومقاومة الأعداء، إن الله قوي قادر عزيز قاهر غالب، يستطيع دفع عدوان الظالمين، وينصر رسله والمؤمنين من غير حاجة إليهم، وإنما أمرهم بالجهاد لينتفعوا به وبثوابه، ويحققوا لأنفسهم العزة والمنعة والهيبة في قلوب الناس، فإن حماية القيم والمبادئ تحتاج دائما إلى حُماة أشداء، ذوي بأس وإباء.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآية دستور المجتمع الإسلامي ونظام الحكم في الإسلام، فهو مجتمع يحكم بشريعة سماوية، على منهج الحق والعدل والمساواة، وفي ظل من القوة الحامية لمبادئ التشريع الرادعة الزاجرة كل من يتجرأ على انتهاكها أو النيل من

قدسيتها، أو محاولة القضاء عليها، أو عرقلة مسيرة الدعوة الإسلامية في الداخل والخارج.

أساس هذه الشريعة: المعجزات البيِّنة والشرائع الظاهرة التي تضمنتها الكتب السماوية، واحتواها وصاغها خاتم هذه الكتب وهو القرآن العظيم دستور الحياة البشرية.

ومنهج الحكم في شريعة الله تعالى هو التزام الحق والعدل في المعاملات فبالعدل قامت السماوات والأرض، وهو المعبر عنه بالميزان، الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمن: ٥٥/٧-٩] .

والحديد رمز القوة الرادعة لكفالة احترام الأحكام في دار الإسلام، ولتأديب المعتدين والمعادين لشرع الله ودينه وحرمات أهله ودياره، روى عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما أخرجه في الفردوس عن ابن عمر: «إن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض: الحديد والنار والماء والملح».

وفي الحديد أيضاً منافع كثيرة للناس في شؤون معايشهم وتحقيق حاجياتهم في المنازل والمصانع والمعامل والمباني والأسلحة وآلات الزراعة ووسائل النقل والمواصلات البرية والبحرية والجوية.

وقد أنزل الله الحديد وخلقه للناس ليعلم علم مشاهدة حسية من ينصر شرعه ودينه وينصر رسله، وهم غائبون عنه لم يروه، إن الله قوي على الأمور في أخذه، منيع غالب لا يمانع، والنصر الصحيح: هو ما كان عن إخلاص بالقلب، وهو المراد ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾

- ٢ -

وحدة الشرائع في أصولها وصلة الإسلام بما قبله

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾

القراءات:

﴿النُّبُوَّةَ﴾:

وقرأ نافع (النبوءة).

﴿بِرُسُلِنَا﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلنا).

﴿رَأْفَةً﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (رافة).

﴿لِّئَلَّا﴾:

وقرأ ورش (لِيَلا).

الإعراب:

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوبة بفعل مقدر، أي ابتدعوا رهبانية ابتدعوها. و﴿ٱبْتِغَآءَ﴾ مستثنى بـ (إلا) من غير الجنس، أو بدل من الضمير المنصوب في ﴿كَتَبْنَٰهَا﴾.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ﴿لِّئَلَّا﴾ بكسر اللام على القراءة المشهورة، وقرئ بفتحها وهي لغة لبعض العرب، ولا: إما زائدة، وهو الظاهر، أو غير زائدة بمعنى: لئلا يعلم أهل الكتاب أن يفعل بكم هذه الأشياء من إيتاء الرحمة والمغفرة وجعل النور، ليبين جهل أهل الكتاب، وأن ما يؤتيكم الله من فضله لا يقدرون على إزالته وتغييره. وبعبارة أخرى: لئلا يعتقد أهل الكتاب أنه لا يقدر النبي والمؤمنون به على شيء من فضل الله، ولا ينالونه.

المفردات اللغوية:

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ جعلنا النبوة في ذرية نوح وإبراهيم، والكتب الأربعة: التوراة والزبور والإنجيل والفرقان، ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ من الذرية أو من المرسل إليهم. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن الطريق المستقيم.

﴿قَفَّيْنَا﴾ أتبعنا أو جعلناهم تابعين متأخرين عنهم في الزمان، يقال: قفّى أثره، وقفّى على أثره: أتبعه. ﴿ٱلْإِنجِيلَ﴾ الكتاب الذي أنزل الله على عيسى عليه السلام. ﴿رَأْفَةً﴾ هي دفع الشر باللطف واللين. ﴿وَرَحْمَةً﴾ جلب الخير والمودة بالحسنى. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أو رهبنة: هي الانقطاع للعبادة عن الناس، واتخاذ الصوامع في الجبال وغيرها، والامتناع عن لذيذ الطعام والشراب والزواج. ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ استحدثوها وليست في دينهم. ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾

ما فرضناها عليهم، أو ما أمرناهم بها. ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناء منقطع، أي لكنهم ابتدعوها بقصد مرضاة الله. ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي لم يرعها الجميع، فتركها كثير منهم، وكفروا بدين عيسى، ودخلوا في دين ملكهم. ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ آتينا الذين آمنوا بعيسى الإيمان الصحيح والمحافظة على حقوقه. ﴿مِنْهُمْ﴾ من أتباعه. ﴿فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حال الاتباع.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالرسل المتقدمة. ﴿ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه. ﴿وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ﴾ محمد ﷺ. ﴿كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين، الكفل: الحظ والنصيب. ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بالنبيين.

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ أي نوراً تمشون به على الصراط، يكون أساس النجاة، وهو المذكور في قوله تعالى المتقدم في السورة: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ (١٢). ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ الكفر والمعاصي. ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليعلم، ولا: زائدة ويؤيده أنه قرئ: (ليعلم، ولكي يعلم، ولأن يعلم). وأهل الكتاب هنا: اليهود وأصحاب التوراة الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ. ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ أن: مخففة من الثقيلة، أي أنه لا ينالون شيئاً مما ذكر من فضله، ولا يتمكنون من نيله، ولا يستطيعون التصرف في أعظم فضله وهو النبوة، فيخصونها بمن أرادوا. ﴿يُؤْتِيهِ﴾ يعطيه.

سبب النزول:

نزول الآية (٢٨):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل قال: لما نزلت: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٤] فخر مؤمنو أهل الكتاب على أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: لنا أجران، ولكم أجر، فاشتد

ذلك على الصحابة، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ الآية، فجعل لهم أجرين مثل أجور مؤمني أهل الكتاب، وزادهم النور.

نزول الآية (٢٩):

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال: بلغنا أنه لما نزلت: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ حسد أهل الكتاب المسلمين عليها، فأنزل الله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية.

وأخرج ابن المنذر عن مجاهد قال: قالت اليهود: يوشك أن يخرج منا نبي، فيقطع الأيدي والأرجل، فلما خرج من العرب كفروا، فأنزل الله: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ الآية، يعني بالفضل النبوة.

المناسبة:

بعد بيان أن الله أرسل الرسل بالبينات والمعجزات، وأمر الخلق بنصرتهم، أبان تعالى وحدة النبوة سلالة ومعنى في ذرية نوح وإبراهيم، ووحدة النبوة تقتضي وحدة التشريع، ووحدة الكتاب، أي الكتب السماوية الأربعة، فما جاء أحد بعد نوح وإبراهيم بالنبوة إلا من سلالتهما وعلى منهجهما، وتلك نعمة شرف الله بها نوحاً وإبراهيم عليهما السلام.

ثم أوضح الله تعالى أن الأجر والثواب واحد لكل من آمن بالرسل المتقدمة، وأكمل إيمانه بخاتم الرسل محمدﷺ، وأن النبوة فضل من الله ورحمة، لا تختص بقوم دون قوم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته، ولا يصح قول اليهود: إن الرسالة فينا دون غيرنا، ونحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن شعب الله المختار.

التفسير والبيان:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي تالله

لقد بعثنا نوحاً أبا البشر الثاني إلى قومه وإبراهيم خليل الرحمن أبا الأنبياء وأبا العرب إلى قوم آخرين، وجعلنا الرسالة والنبوة في ذريتهما، فكل الأنبياء من سلالتهما، فلم يرسل الله بعدهما رسولاً ولا نبياً إلا من ذريتهما، وكذلك جعلنا الكتب المنزلة فيهما، فلم ينزل الله كتاباً ولا أوحى إلى بشر وحياً إلا من سلالتهما.

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي كان مصير الذرية الانقسام إلى فريقين، فمنهم جماعة مهتدون إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، وكثير منهم خارجون عن حدود الله وطاعته، وتلك سنة الله مع الأنبياء جميعاً.

وهذا دليل على أن الانحراف والخروج عن جادة الحق كان بعد التمكن من معرفته والوصول إليه وقيام الحجة عليهم.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي ثم بعثنا بعدهم رسلاً تترى، رسولاً بعد رسول، وبعضهم بعد بعض، مع مرور العصور، وذلك إلى أن انتهى الأمر إلى أيام عيسى عليه السلام، فخصه بالذكر لشهرته في عصر التنزيل، فقال:

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي وأتبعنا سلسلة الرسل بعيسى عليه السلام وأعطيناه الإنجيل: وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه، متضمناً أصول شرعه، ومكملاً لما في التوراة، وموضحاً حقيقة الشريعة وحكمتها، ومخففاً بعض أحكامها القاسية التي شرعت تغليظاً على بني إسرائيل لظلمهم وفحشهم، كما قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ٤/ ١٦٠] .

ثم ذكر الله تعالى بعض صفات أتباع عيسى، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا

كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي وجعلنا في قلوب أتباعه وهم الحواريون وأنصارهم رقة في الطبع ورحمة بالخلق، خلافاً لليهود القساة، وابتدعوا الرهبانية من جهة أنفسهم، ولم يشرعها لله لهم، ولم يأمرهم بها، بل ساروا عليها غلواً في العبادة، وحمَّلوا أنفسهم المشقات في الامتناع عن المطعم والمشرب والزواج، وانعزلوا عن الناس وانقطعوا إلى العبادة في الكهوف والصوامع، ولبسوا الملابس الخشنة، تقرباً إلى الله تعالى.

ولكنهم ابتدعوا الرهبانية بقصد مرضاة الله، غير أنهم لم يراعوها حق الرعاية، ولم يحافظوا على أصولها، بل ضيَّعوها، واستعملها كثير منهم في الفساد.

وهذا- كما قال ابن كثير- ذمّ لهم من وجهين:

أحدهما - الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله تعالى.

والثاني- أنهم لم يقوموا بما التزموه مما زعموا أنه قربة تقربهم إلى الله عز وجل.

روى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا ابن مسعود، قلت: لبَّيك يا رسول الله، قال: هل علمت أن بني إسرائيل افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة؟ لم ينج منهم إلا ثلاث فرق قامت بين الملوك والجبابرة بعد عيسى ابن مريم عليه السلام، فدعت إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فقاتلت الجبابرة، فقُتلت، فصبَرت، ونجت، ثم قامت طائفة أخرى لم تكن لها قوة القتال، فقامت بين الملوك والجبابرة، فدعوا إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فقُتلت وقُطعت بالمناشير، وحُرقت بالنيران، فصبرت ونجت، ثم قامت

طائفة أخرى لم يكن لها قوة بالقتال، ولم تطق القيام بالقسط، فلحقت بالجبال، فتعبدت وترهبت، وهم الذين ذكر الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾[1].

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾أي فأعطينا المؤمنين إيماناً صحيحاً ثوابهم الذي يستحقونه بالإيمان، وكثير من هؤلاء المترهبين فاسقون خارجون عن حدود الله وطاعته، يأكلون أموال الناس بالباطل، وسلوكهم منحرف.

روى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تشدّدوا على أنفسكم، فيُشدّد عليكم، فإن قوماً شدَّدوا على أنفسهم، فشُدِّد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديارات، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾».

وروى الإمام أحمد عن إياس بن مالك: أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي رهبانية، ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله عز وجل».

ثم ذكر الله تعالى ثواب المؤمنين بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بوجود الله تعالى ووحدانيته وصدقوا رسولهﷺ من مؤمني أهل الكتاب: اليهود والنصارى، خافوا الله تعالى، بترك ما نهاكم عنه، وأداء ما أمركم به، وآمنوا برسوله محمدﷺ، يعطكم الله نصيبين أو ضعفين من رحمته، بسبب إيمانكم برسولهﷺ، بعد إيمانكم بمن قبله من الرسل، ويزيدكم على ذلك أنه يجعل لكم نوراً تمشون به على الصراط، تهتدون به في الآخرة، وهدى

(١) ورواه ابن جرير بلفظ آخر.

تبصرون به العمى والجهالة في الدنيا، ويغفر لكم ما سلف من ذنوبكم، والله بليغ المغفرة والرحمة.

فهذا وعد للمؤمنين برسول الله ﷺ بعد الإيمان بجميع الأنبياء قبله يتضمن ثلاثة أمور: مضاعفة الثواب، وجعل النور لهم على الصراط للنجاة، ومغفرة الذنوب والسيئات.

أخرج الشيخان صاحبا الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه، وآمن بي، فله أجران؛ وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، فله أجران، ورجل أدّب أمَته، فأحسنَ تأديبَها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران».

ثم رد الله على اليهود الذين زعموا اختصاص النبوة فيهم، فقال: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ ۙ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ (١) أي اتقوا الله وآمنوا يؤتكم الأمور الثلاثة المتقدمة، ليعلم ويتحقق الذين لم يتقوا ولا آمنوا من أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ورسوله، ولا إعطاء ما منع الله، فإنهم لا يقدرون على أن ينالوا شيئاً من فضل الله الذي تفضل به على من آمن بمحمد ﷺ، ولا يقدرون أن يمنعوا ذلك الفضل الذي تفضل به على المستحقين له، كالنبوة والرسالة وغيرها، وأن الفضل ومنه النبوة والعلم والتقوى بيد

(١) أي ليعلم كما تقدم، وقرأها ابن مسعود وغيره: لكي يعلم، قال ابن جرير: لأن العرب تجعل (لا) صلة زائدة مؤكدة في كل كلام، دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح، فالسابق كقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٢]. ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ١٠٩]. ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٥].

الله، يعطيه من يشاء، كما آتى محمداًﷺ وأصحابه وأمته منه نصيباً أوفر من دين الإسلام، والله واسع الفضل، كثير العطاء والخير لمن يشاء من عباده.

والخلاصة: أن إيمان أهل الكتاب بالتوراة والإنجيل وبموسى وعيسى لا يكفي، ولا ينفع شيئاً، ما لم يؤمنوا بالنبيﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين.

فقه الحياة أو الأحكام:

هذه الآيات تفصيل ما أجمل في الآيات السابقة من إرسال الرسل بالكتب، وقد دلت على ما يأتي:

١ً- أخبر الله أنه أرسل نوحاً وإبراهيم، وجعل النبوة في نسلهما، فجعل بعض ذريتهما الأنبياء، وأوحى إليهم الكتب المنزَّلة من السماء: التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

٢ً- بعض تلك الذرية آمن وائتم بإبراهيم ونوح واهتدى، وكثير منهم كافرون خارجون عن طاعة الله تعالى.

٣ً- أتبع الله سبحانه على آثار تلك الذرية رسلاً كثيرين كموسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم، وعيسى ابن مريم، فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه، وآتاه الله الإنجيل، وهو الكتاب المنزل عليه.

٤ً- جعل الله تعالى في قلوب الذين اتبعوا عيسى على دينه، وهم الحواريون وأتباعهم، رأفة ورحمة، أي مودّة، فكان يوادّ بعضهم بعضاً، والرأفة: اللين، والرحمة: الشفقة.

وهذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس، وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم، وحرّفوا الكلم عن مواضعه. قال مقاتل: المراد من الرأفة والرحمة: أنهم كانوا متوادِّين بعضهم مع بعض، كما وصف الله أصحاب محمدﷺ بذلك في قوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾.

واستدل أهل السنة بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، وكسب للعبد؛ لأنه تعالى حكم بأن هذه الأشياء مجعولة لله تعالى، وحكم بأنهم ابتدعوا تلك الرهبانية.

٥ً- لقد ابتدع أتباع عيسى الرهبانية (الفعلة المنسوبة إلى الرهبان) من قبل أنفسهم، ولم يفرضها الله عليهم ولا أمرهم بها، لكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، فما قاموا بها حق القيام، وتسببوا بالترهب إلى طلب الرياسة مع الناس، وأكل أموالهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٤] .

والمراد من الرهبانية كما ذكر الرازي وغيره: ترهبهم في الجبال فارّين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة، ومتحملين كُلَفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن، والاعتزال عن النساء، والتعبد في المغاور والكهوف.

عن ابن عباس: أن في أيام الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام غيّر الملوك التوراة والإنجيل، فساح قوم في الأرض، ولبسوا الصوف.

٦ً- آتى الله الذين آمنوا من أتباع عيسى والذين ابتدعوا الرهبانية أولاً ورَعَوْها أجرهم المستحق لهم، وكان كثير من المتأخرين بعدئذ فاسقين خارجين عن حدود الله وطاعته، كافرين بما جاء به عيسى وموسى عليهما السلام، ولما بعث الله محمداً ﷺ، ولم يبق منهم إلا قليل، جاؤوا من الكهوف والصوامع والمغاور، فآمنوا بمحمد ﷺ.

٧ً- هذه الآية: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ دالة على أن كل محدثة بدعة، فينبغي لمن ابتدع خيراً أن يدوم عليه، ولا يعدل عنه إلى ضده، فيدخل في الآية.

وفيها أيضاً دليل على أن العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت مندوب إليه عند فساد الزمان وتغيّر الأصدقاء والإخوان.

٨- أمر الله تعالى صراحة مؤمني أهل الكتاب (الذين آمنوا بموسى وعيسى) أن يتقوا الله حق تقاته باتباع أوامره واجتناب نواهيه، وأن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، فإن فعلوا كان لهم مثلان من الأجر على إيمانهم بعيسى ومحمد ﷺ، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٢٨/ ٥٤].

ويجعل الله لهم أيضاً نوراً، أي بياناً وهدى إلى الحق في الدنيا، وضياء يمشون به على الصراط، وفي القيامة إلى الجنة، ويغفر لهم ذنوبهم وسيئاتهم. وهذا وعد من الله منجز في أمور ثلاثة كما تقدم: مضاعفة الثواب، وجعل النور، وغفران الآثام.

٩- رد الله تعالى بقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ بما يأتي على بني إسرائيل الذين كانوا يقولون: الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا، والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جمع العالمين.

ومضمون الرد: أن النبوة ليست مختصة بهم، وغير حاصلة في غير قومهم، فهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين، ولا يمكنهم حصر النبوة والرسالة في قوم مخصوصين، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده، ولا اعتراض عليه في ذلك.

وهذا المفهوم على القول المشهور عند أكثر المفسرين بأن (لا) في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ صلة زائدة مؤكدة، أي ليعلم أهل الكتاب أنهم عاجزون عن منح أحد شيئاً من فضل الله تعالى.

وعلى قول أبي مسلم الأصفهاني وجمع آخرين: أن هذه الكلمة ليست

بزائدة، يكون المفهوم والمستفاد من الآية: لئلا يعلم أهل الكتاب أن النبي والمؤمنين لا يقدرون على شيء من فضل الله، وأنهم إذا لم يعلموا أنهم لا يقدرون عليه، فقد علموا أنهم يقدرون عليه[١]، وليعلموا أن الفضل بيد الله، ويكون تقدير الآية: إنا فعلنا كذا وكذا لئلا يعتقد أهل الكتاب أنهم يقدرون على حصر فضل الله وإحسانه في أقوام معينين، وليعتقدوا أن الفضل بيد الله، فيكون في هذا القول تقدير محذوف وهو: وليعتقدوا أن الفضل بيد الله. وأما القول الأول فاحتاج إلى حذف شيء موجود، ومن المعلوم أن الإضمار أولى من الحذف[٢].

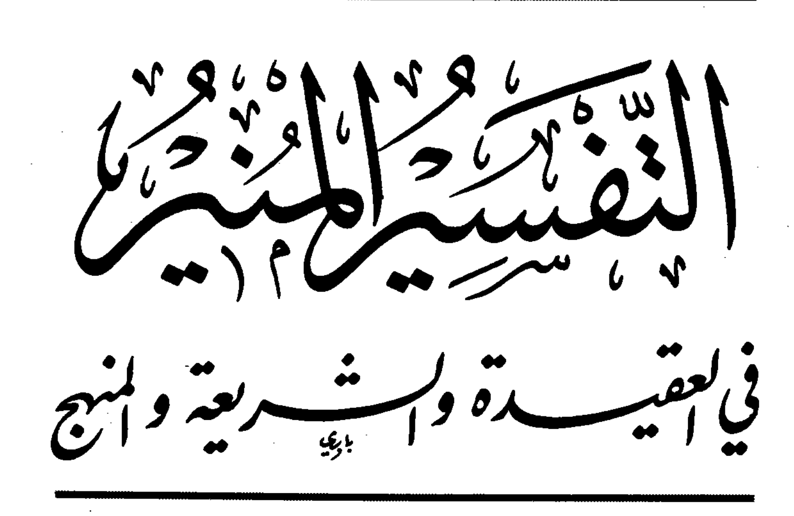
١٠- دل قوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾ على أن الفضل الإلهي في ملك الله وتصرفه، يؤتيه من يشاء؛ لأنه قادر مختار يفعل ما يريد، ودل قوله: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ على أنه لا بد وأن يكون إحسانه عظيماً، والمراد تعظيم حال محمدﷺ في نبوته وشرعه وكتابه، وأمر أهل الكتاب بالمبادرة إلى الإيمان برسالته خاتمة الشرائع الإلهية.

انتهى الجزء السابع والعشرون ولله الحمد

(١) لأن نفي النفي إثبات، كما تقول: لا تصدِّق فلاناً أنه ما قال كذا، أي قال.

(٢) تفسير الرازي: ٢٩/٢٤٧ - ٢٤٨.

بسم الله الرحمن الرحيم



الجزء الثامن والعشرون



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة المجادلة

مدنية، وهي سبع وثلاثون آية

مدنيتها:

هذه السورة مدنية على الصحيح، وروي عن الكلبي أنه قال: نزلت كلها بالمدينة إلا قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فإنها نزلت بمكة، وعن عطاء: العشر الأول منها مدني، وباقيها مكي.

تسميتها:

سميت سورة المجادلة؛ لافتتاحها بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ وهذه المرأة هي خَوْلة امرأة أوس بن الصامت.

مناسبة السورة لما قبلها:

تتضح صلة هذه السورة بما قبلها من وجوه ثلاثة هي:

أ- ذكر في مطلع سورة الحديد صفات الله الجليلة، ومنها الظاهر والباطن، والعالم بما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها، وهو مع خلقه أينما كانوا، وذكر في مطلع هذه السورة ما يدل على ذلك وهو سماع قول المجادلة التي تشتكي إلى الله، ولهذا قالت عائشة رضي

الله عنها حين نزلت: «سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، إني في ناحية البيت لا أعرف ما تقول»[١] أي المجادلة.

٢- ختمت السورة السابقة ببيان فضل الله، وافتتحت هذه السورة بما يشير إلى بعض الفضل.

٣- ذكر في المجادلة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية (٧) وهي تفصيل لإجمال قوله تعالى في السورة السابقة: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٤] .

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كغالب السور المدنية بيان الأحكام التشريعية، وقد تضمنت حكم الظهار وكفارته، وحكم التناجي، وأدب المجالس، وتقديم الصدقة في بدء الأمر قبل مناجاة الرسول ﷺ، وحكم المنافقين وجزاءهم وتكذيبهم ووصفهم بأنهم حزب الشيطان، وموادة أعداء الله وموالاتهم، وتميزت الآيات كلها في هذه السورة باشتمال كل آية على لفظ الجلالة: (الله) لتربية المهابة منه في النفوس، وعدم التجرؤ على مخالفة أحكامها.

بدئت السورة ببيان سماع الله صوت امرأة هي خَوْلة بنت ثَعْلَبة، تجادل رسول الله ﷺ في شأن مصيرها من زوجها أوس بن الصامت الذي ظاهر منها قائلاً لها: «أنت عليّ كظهر أمي» وحكم الظهار في الجاهلية تحريم الزوجة تحريماً مؤبداً، فبدَّل الله ذلك الحكم، وجعل حكم الظهار التحريم المؤقت الذي يزول بإخراج كفارة الظهار المنصوص عليها في الآيات الأولى من هذه السورة: عتق رقبة، فصيام شهرين متتابعين، فإطعام ستين مسكيناً (الآيات:

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور والبخاري تعليقاً، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي في سننه، بلفظ « الحمد لله..».

١-٤) وأعقبت ذلك بالحكم بإذلال وخزي الذين يعادون الله تعالى ورسوله ﷺ، وإحصاء أعمالهم وشهادته عليهم (الآيتان: ٥-٦).

ثم ذكرت أدب التناجي في المجالس: وهو الكلام سراً بين اثنين فأكثر أمام الآخرين، وحرّمته إذا كان تناجياً بالإثم والعدوان، كما كان يفعل اليهود والمنافقون، وأخبرت بأن الله يعلم سر الحديث الدائر بين اثنين فأكثر، وفضحت خبث اليهود ومكرهم وخداعهم حينما كانوا يحيون رسول الله ﷺ بتحية ظاهرها السلام، وباطنها الأذى والسب، قائلين: السامُ عليك يا محمد، أي الموت (الآيات: ٧-١٠).

وأردفت ذلك ببيان أدب التفسح في المجالس، وطلب مغادرتها، وأشادت بالمؤمنين الذين يمتثلون أوامر الله وأوامر رسوله، وامتدحت العلماء منهم خاصة، وأوجبت تقديم الصدقة عند مناجاة النبي ﷺ، ثم رفعت الحكم تخفيفاً على المؤمنين وتيسير لقاء نبيهم، وجعلت محله الاشتغال بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله ورسوله (الآيات: ١١-١٣).

ثم أبانت مخازي المنافقين الذين يوالون اليهود ويحبونهم، ويفشون أسرار المؤمنين لهم، ويحلفون الأيمان الكاذبة، ويعادون الله تعالى والرسول ﷺ، ويخالفون أمرهما، فهم مخذولون مهزومون، والمؤمنون أعزة منصورون (الآيات: ١٤-٢١).

وختمت السورة الكريمة بأمر المؤمنين بتجنب الخونة الذين يوالون أعداء الأمة ولو كانوا أقرب الناس إليهم، وينافقون ويتذبذبون بين هؤلاء وهؤلاء، لإضعاف كيان أمتهم وتفريق جمعهم، أما الأمة المتماسكة المتحابّة، فهي أمة الإيمان الحق، وأهل الجنة خالدين فيها أبداً.

والتفريق بين الموقفين: موقف الإيمان وموقف الكفر والنفاق يبين أن الحب ينبغي أن يكون لله، والبغض لله، وأن اكتمال الإيمان يتطلب معادة أعداء الله (الآية: ٢٢).

الظهار وكفارته:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾

القراءات:

﴿يُظَـٰهِرُونَ﴾: قرئ:

١- (يَظَّهَّرُون) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (يُظَاهِرون) هي قراءة عاصم.

٣- (يَظَّاهرون) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿قَدْ سَمِعَ﴾ قال النحاة: إن قد الداخلة على الماضي لا بد فيها من معنى التوقع، فلا يقال: قد فعل إلا لمن ينتظر الفعل أو يسأل عنه.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، خبره: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ﴾ أو دليل خبره المحذوف أي الذين يظاهرون من

نسائهم مخطئون، لسن أمهاتهم، ﴿مَّا﴾: نافية حجازية تعمل عمل ليس، و﴿هُنَّ﴾: اسمها، و﴿أُمَّهَٰتُهُمْ﴾: خبرها المنصوب على لغة أهل الحجاز، وتقرأ بالرفع على لغة بني تميم. وتعدى فعل الظهار بمن لتضمنه معنى التبعيد.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ ﴿مُنكَرًا﴾ ﴿وَزُورًا﴾: منصوب على الوصف لمصدر محذوف، وتقديره: وإنهم ليقولون قولاً منكراً وقولاً زوراً.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ الجار والمجرور في موضع نصب، متعلق بـ ﴿يَعُودُونَ﴾وما: مصدرية، أي يعودون لقولهم، والمصدر في موضع المفعول، وكقولك: هذا الثوب نسج اليمن، أي منسوجه، ومعناه: يعودون للإمساك المقول فيه الظهار ولا يُطلِّق الزوج.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مبتدأ، وتحرير: مبتدأ ثان خبره محذوف أي فعليهم تحرير رقبة، والجملة خبر المبتدأ الأول.

البلاغة:

﴿قَدْ سَمِعَ﴾ السماع هنا مجاز عن القبول والإجابة بعلاقة السببية.

﴿سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ ﴿غَفُورٌ﴾ ﴿خَبِيرٌ﴾ ﴿أَلِيمٌ﴾ صيغ مبالغة.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ إطناب بذكر الأمهات، لزيادة التقرير والبيان.

المفردات اللغوية:

﴿سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ أجاب وقبل، كما في التسميع: "سمع الله لمن حمده" أي أجابه .﴿ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ تراجعك الكلام أيها النبي في أمرها وأمر زوجها الذي ظاهر منها، وهي خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية، زوجة

أوس بن الصامت أخي عبادة، وكان قد ظاهر منها قائلاً: أنت علي كظهر أمي، فاستفتت النبي ﷺ، فقال تأثراً بالعرف: حَرُمتِ عليه؛ لأن الظهار كان عند العرب موجباً حرمة مؤبدة، فقالت: ما طلقني، فقال: حرمت عليه، فاغتمت لصغر أولادها، وشكت إلى الله تعالى، فنزلت هذه الآيات الأربع. ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تبث شكواها وغمها وهمها إلى الله، متوقعة أن الله يسمع مجادلتها وشكواها، ويفرج عنها كربها، ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ تراجعكما الكلام، بطريق تغليب الخطاب، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ للأقوال والأحوال، وهذا يدل على إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ الذين يقولون لنسائهم مثلاً: أنت علي كظهر أمي، أي في الحرمة، وكالأم سائر المحارم، وقد كان هذا أشد طلاق في الجاهلية. والظهار: تشبيه المرأة أو عضو منها بأحد محارمه نسباً أو رضاعاً أو مصاهرة بقصد التحريم، وقوله: ﴿مِنكُم﴾ تهجين لعادتهم فيه، فإنه كان من أيمان الجاهلية. ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ أي ما أمهاتهم إلا اللاتي ولدن الأولاد، فلا تشبه بالمحارم في الحرمة إلا من ألحقها الله بهن، كالمرضعات وأزواج الرسول ﷺ. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي بالظهار. ﴿لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي قولاً منكراً أنكره الشرع، والمنكر: كل ما استقبحه الشرع والعقل والطبع. ﴿وَزُورًاۚ﴾ كذباً وبهتاناً، فإن الزوجة لا تشبه بالأم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ يعفو عن المظاهر ويغفر له إذا تاب وأدى الكفارة، كما أنه سبحانه غفور لكل من أذنب وعصى مطلقاً إذا تاب وأناب.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي عدلوا عن قصد التحريم، وذلك عند الشافعي بإمساك المظاهر منها في الزواج زماناً يمكنه مفارقتها فيه، وعند أبي حنيفة: باستباحة استمتاعها ولو بنظرة شهوة، وعند مالك: بالعزم على الجماع، وعند الحسن البصري وأحمد: بالجماع. ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي فعليهم، أو

فالواجب إعتاق رقبة: عبد أو أمة، والفاء للسببية الدالة على تكرر وجوب التحرير بتكرر الظهار. ويجب أن تكون الرقبة مؤمنة عند الجمهور غير الحنفية قياساً على كفارة القتل الخطأ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾أي من قبل استمتاع أحدهما بالآخر، لعموم اللفظ، وفيه دليل على حرمة المتعة أو الزواج قبل التكفير.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾الرقبة أو ثمنها. ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ أي فالواجب صوم شهرين متواليين، فإن أفطر بغير عذر لزمه الاستئناف، وإن أفطر بعذر ففيه خلاف، وإن جامع المظاهر منها ليلاً لم ينقطع التتابع عند الشافعية، خلافاً لأبي حنيفة ومالك.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾أي الصوم لهرم أو مرض مزمن أو شبَق مفرط إلى النساء. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ﴾ لكل مسكين عند الشافعية: مدّ من غالب قوت البلد، وهو رطل وثلث، كالفطرة، وعند الحنفية: نصف صاع من بُرّ أو صاع من تمر أو شعير، وذلك من قبل التّماسّ أو الاستمتاع، وإنما لم يذكر التّماس مع الإطعام اكتفاء بذكره مع الخصلتين الأخريين: العتق والصيام. ﴿ذَٰلِكَ﴾البيان أو التعليم للأحكام، والتخفيف في الكفارة. ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۚ﴾أي فرض ذلك لتصدقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ في قبول شرائعه، ورفض أعراف الجاهلية. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِۗ﴾أحكام شريعته، لا يجوز تعدّيها. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾أي الذين لا يقبلون تلك الأحكام. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب مؤلم، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧].

سبب النزول:

نزول الآية (١) وما بعدها:

﴿قَدْ سَمِعَ﴾أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: تبارك الذي وسع

سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وتقول: يا رسول الله، أكَلَ شبابي، ونَثَرت له بطني، حتى إذا كَبِرت سِنّي وانقطع ولدي، ظاهَر مني، اللهم إني أشكو إليك، فما برِحتْ حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ وهو أوس بن الصامت.

وأخرج الإمام أحمد والبخاري في كتاب التوحيد تعليقاً عن عائشة قالت: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآية» .

وجاء في السنن كابن ماجه والبيهقي والمسانيد أن أوس بن الصامت قال لزوجته: خولة بنت ثعلبة بن مالك في شيء راجعته فيه: «أنت علي كظهر أمي» وكان الرجل في الجاهلية إذا قال لزوجته ذلك، حَرُمت عليه، فندم من ساعته، فدعاها فأبت وقالت: والذي نفس خولة بيده لا تصل إلي، وقد قلتَ ما قلتَ، حتى يحكم الله ورسوله ﷺ، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أوساً تزوجني، وأنا شابة مرغوب في، فلما خلا سني، ونَثَرت بطني (كثر ولدي)، جعلني عليه كأمه، وتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجد لي رخصة يا رسول الله تنعشني بها وإياه، فحدثني بها.

فقال ﷺ: «ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن» وفي رواية: «ما أراك إلا قد حرمت عليه» . قالت: ما ذكر طلاقاً، وجادلت رسول الله ﷺ مراراً. ثم قالت: اللهم إني أشكو إليك فاقتي وشدة حالي، وروي أنها قالت: إن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء، وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك.

وما برحت حتى نزل القرآن فيها، فقال ﷺ يا خَوْلَةُ أبشري، قالت: خيراً، فقرأ ﷺ عليها: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ الآيات.

وروى البخاري في تاريخه أنها - أي المجادلة- استوقفت عمر يوماً فوقف، فأغلظت له القول، فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما رأيتُ كاليوم، فقال رضي الله عنه: وما يمنعني أن أستمع إليها، وهي التي استمع الله لها، فأنزل فيها ما أنزل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ الآيات.

التفسير والبيان:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ أي قد قبل الله شكوى المرأة التي تراجعك الكلام أيها النبي في شأن زوجها الذي ظاهر منها، قائلاً لها: «أنت علي كظهر أمي» أي في الحرمة، وتشتكي إلى الله ما أغمها وأحزنها، والله يسمع ما تتراجعان به من الكلام، إن الله يسمع كل مسموع، ويبصر كل مُبْصَر على أتم وجه وأكمله، ومن ذلك: محاورة هذه المرأة معك.

والمجادَلة هنا: بمعنى التحاور، وهي المراجعة في الكلام لتبين المخرج من الأزمة. والشكوى: أن تخبر عن مكروه أصابك. والسمع: صفة يدرك بها الأصوات، غير صفة العلم. والمرأة: خولة بنت ثعلبة، والزوج: أوس بن الصامت أحد الأنصار.

أخرج البخاري والنسائي وغيرهما كما تقدم عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمد لله الذي وَسِع سمعه الأصوات، لقد جاءت خولة بنت ثعلبة، تشكو إلى رسول الله ﷺ، وأنا في كسر البيت، يخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى﴾ الآيات.

وقوله: ﴿قَدْ﴾ معناه التوقع، كما تقدم؛ لأن رسول الله ﷺ والمجادلة كانا

يتوقعان أن يسمع الله مجادلتهما وشكواها، وينزل في ذلك ما يفرج عنها. وقوله: ﴿سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ مجاز عن القبول والإجابة، لعلاقة السببية.

ثم شنّع الله تعالى على المظاهرين ووبخهم، فقال:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ﴾ أي الذين يشبّهون أزواجهم بأمهاتهم، فيقول أحدهم لامرأته: أنت علي كظهر أمي ونحوه، أي إنك علي حرام كحرمة أمي، ما نساؤهم بأمهاتهم، فذلك كذب منهم، وفي هذا توبيخ لهم وتبكيت، فليست أمهاتهم في الحقيقة إلا النساء اللائي ولدنهم.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي وإن هؤلاء المظاهرين ليقولون بهذا قولاً منكراً، أي فظيعاً ينكره الشرع ويقبّحه ولا يجيزه، كما لا يقره عقل، ﴿وَزُورًاۚ﴾، أي كذباً، وإن الله كثير العفو والمغفرة؛ إذ جعل الكفارة مخلِّصة لهم عن هذا المنكر، كما أن الله غفور لمن أذنب وتاب، وغفور من غير توبة لمن يشاء، كما قال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤/٤٨] .

يتبين منه أن الله وصف الظهار بأنه منكر وزور، لتشبيه الزوجة بالأم، فهو خبر زور كذب، وإنشاء منكر ينكره الشرع ولا يعرفه، وهو يدل على أن الظهار محرَّم، وهو أيضاً عند الشافعية معصية كبيرة؛ لأن فيه الإقدام على إحالة حكم الله تعالى وتبديله بدون إذنه سبحانه، ولأن المقدم على ذلك كاذب معاند للشرع.

والظهار كان طلاقاً في الجاهلية، يوجب حرمة مؤبدة لا رجعة فيه.

وضابط المظاهر عند الشافعية والحنابلة: كل من صح طلاقه صح ظهاره، وهو البالغ العاقل، سواء أكان مسلماً أم كافراً، فعلى هذا ظهار الذمي

عندهم صحيح؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ ولأن الذمي يصح طلاقه فيصح ظهاره، وهو أهل للزجر بالكفارة كالمسلم. وضابطه عند الحنفية والمالكية: كل زوج مسلم عاقل بالغ، فلا يصح ظهار الذمي ولا يلزم ولا يترتب عليه حكم؛ لظاهر قوله تعالى: ﴿مِنكُم﴾ وهو خطاب للمؤمنين، فيدل على أن الظهار خاص بالمؤمنين، ولأن من لوازم الظهار الصحيح وجوب الصوم على العائد العاجز عن الإعتاق، وإيجاب الصوم على الذمي ممتنع[١].

وقال الجمهور غير أحمد: لا يصح ظهار المرأة من زوجها، وهو أن تقول المرأة لزوجها: أنت عليّ كظهر أمي. وقال الأوزاعي: هو يمين تكفّر، قال الرازي: وهذا خطأ؛ لأن الرجل لا يلزمه بذلك كفارة يمين، وهو الأصل، فكيف يلزم المرأة ذلك؟ ولأن الظهار يوجب تحريماً بالقول، والمرأة لا تملك ذلك، بدليل أنها لا تملك الطلاق.

وقال الإمام أحمد في رواية راجحة عنه: يجب عليها كفارة الظهار؛ لأنها أتت بالمنكر من القول والزور، وفي رواية كالأوزاعي: يجب كفارة اليمين، وهذا أقيس على مذهبه.

وأما المظاهر منها فهي عند الحنفية: كل امرأة يحرم على الرجل نكاحها على التأبيد، بالنسب أو بالرضاع أو المصاهرة كزوجة الأب، أو أي عضو منها لا يحل له النظر إليه، كالظهر والبطن، وهذا مذهب الشافعية إلا أنهم استثنوا مرضعة المظاهر وزوجة الابن؛ لأنهما كانتا حلالاً له في وقت، فيحتمل إرادته.

ورأي المالكية: أن المشبه به: هو من حرم وطؤه أصالة من آدمي - ذكر أو

(١) أحكام القرآن للجصاص الرازي: ٣/ ٤١٧ وما بعدها، أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٧٣٨.

أنثى- أو غيره كالبهيمة، ويصح الظهار بتشبيه الزوجة أو جزئها، ولو حكماً كالشعر والريق بالأم.

وكذا قال الحنابلة: يصح التشبيه سواء كان بكل المشبه به، أو ببعضو منه كاليد والوجه والأذن، فيشمل كل محرّم من النساء على التأييد بنسب أو رضاع أو مصاهرة، كالأمهات والجدات والعمات والخالات والأخوات. كما يشمل كل محرم من النساء تحريماً مؤقتاً كأخت المرأة أو عمتها، وكل محرَّم من الرجال أو البهائم أو الأموات ونحوهم.

ثم أبان الله تعالى كفارة الظهار، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾﴾ أي والذين يحدث منهم الظهار، ثم يريدون نقضه والعودة لما كانوا عليه من إرادة الجماع، فعليهم تحرير رقبة، أي أمة أو عبد مملوك، من أجل ما قالوا، من قبل التماس، وهو الجماع، فلا يجوز للمظاهر الوطء حتى يكفِّر، ذلك الحكم المذكور أو تشريع الكفارة تؤمرون به أو تزجرون به عن ارتكاب الظهار، والله خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شيء منها، فهو مجازيكم عليها.

واختلف العلماء في تفسير العود: فقال الظاهرية وأبو العالية: العود تكرار لفظ الظهار وإعادته، فلا تلزم الكفارة إلا إذا أعاد لفظ الظهار، وهو قول باطل. ورأى الحنفية والمالكية على المشهور أن العود: هو العزم على الوطء أو الجماع. وذهب الشافعي إلى أن العود: أن يمسك المظاهر منها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق.

وقال أحمد بن حنبل: هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه، فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة.

فالآراء ثلاثة أو أربعة: تكرار لفظ الظهار، والعزم على الوطء أو إرادة الوطء، والوطء في الفرج، والإمساك زمناً يمكن طلاقها فيه. وأجاب الجمهور عن رأي الظاهرية بأنه يقتضي أن الظهار أول مرة لا يترتب عليه كفارة، وقصة خولة تدفعه؛ لأنه لم ينقل التكرار، ولا سأل عنه ﷺ.

وقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾أي فإعتاق رقبة كاملة، أو فعليهم رقبة، والرقبة هنا مطلقة غير مقيدة بالإيمان، فاقتضى ذلك إجزاء عتق رقبة مؤمنة أو كافرة، وبهذا الظاهر قال الحنفية والظاهرية؛ لأنه لو كان الإيمان شرطاً لبيَّنه سبحانه كما بيَّنه في كفارة القتل، فوجب أن يطلق ما أطلقه الله، ويقيد ما قيده، فيعمل بكل منهما في موضعه، ورأى الحنفية بناء على قواعدهم أن اشتراط الإيمان هنا زيادة على النص، وهو نسخ، والقرآن لا ينسخ إلا بالقرآن أو الخبر المتواتر أو المشهور، ولا يحمل المطلق على المقيد إلا في حكم واحد في حادثة واحدة.

واشترط الجمهور الإيمان في كفارة غير القتل، كما هو شرط في كفارة القتل الخطأ بنص القرآن، ويحمل المطلق على المقيد، أي يحمل ما أطلق هنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب: وهو عتق الرقبة، واعتضد في ذلك بما رواه مالك بسنده عن معاوية بن الْحَكَم السُّلمي في قصة الجارية السوداء، وأن رسول الله ﷺ قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»[1].

وضمير ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ للمظاهر والمظاهر منها المعلومين من الكلام السابق، والتَّماسّ: كناية عن الجماع، فيحرم الجماع قبل التكفير، ومقدمات الجماع كالتقبيل ونحوها حرام أيضاً عند الحنفية؛ لأن طريق الحرام حرام، وليست بحرام في الأظهر عند الشافعية؛ لأن تحريم الجماع لا صلة له بعقد

(١) ورواه أيضاً أحمد في مسنده ومسلم في صحيحه.

الزواج، فإن الحائض يحرم جماعها دون دواعيه، والصائم يحرم منه الوطء دون دواعيه.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾أي فمن لم يجد الرقبة في ملكه، ولا تمكّن من ثمنها أو قيمتها زائداً عن قدر كفايته، أو لم يجد رقبة يشتريها لعدم وجود الرقيق في عصرنا، فعليه قبل التماس (أي الجماع) صيام شهرين متتابعين متواليين لا يفطر فيهما عملاً بظاهر النص القرآني، وإجماع العلماء على وجوب التتابع، فإن أفطر يوماً أو أكثر لغير عذر، أو جامعها ليلاً أو نهاراً عمداً، استأنف في رأي الجمهور. وقال الشافعي وأبو يوسف: لا يستأنف إذا وطئ ليلاً؛ لأنه ليس محلاً للصوم.

ولا ينقطع التتابع لدى المالكية بالمرض، وبالفطر سهواً، وبالإكراه على الفطر، وبظن غروب شمس أو ببقاء ليل، فأكل أو شرب، وبحيض ونفاس.

وينقطع التتابع عند الحنفية، والشافعية في المذهب الجديد بالإفطار بعذر كمرض مسوغ للفطر، ولا ينقطع التتابع في الصوم بحيض أو نفاس أو جنون.

ورأى الحنابلة أن المظاهر إن أفطر في الشهرين بعذر، بنى على ما مضى، وإن أفطر بغير عذر ابتدأ من جديد.

واختلف العلماء في بيان قدر الكفاية، وفي وقت اعتبار اليسار والإعسار، فذهب مالك، والشافعي في الأظهر إلى اعتبار ذلك بوقت التكفير والأداء؛ لأن الكفارة عبادة لها بدل من غير جنسها كالوضوء والتيمم، والقيام في الصلاة والقعود فيها، فاعتبر وقت أدائها. وذهب أحمد إلى اعتبار ذلك بوقت الوجوب، تغليباً لشائبة العقوبة في الكفارة.

ومن المعلوم أن الأشهر تعتبر بالأهلّة، فلا فرق بين التام والناقص، فمن بدأ بالصوم في أول الشهر، كمّل الشهرين بالهلال، ولو كانا ناقصين، ومن

بدأ بالصوم في أثناء الشهر، فقال الشافعية: يحسب الشهر بعده بالهلال لتمامه، ويتم الأول من شهر آخر ثلاثين يوماً لتعذر الهلال فيه. وقال الحنفية: لا بد من ستين يوماً.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾أي فمن لم يستطع صيام شهرين متتابعين لكبر سن أو مرض مزمن أو لمشقة شديدة لا تحتمل عادة، فعليه أن يطعم ستين مسكيناً، لكل مسكين عند الحنفية مدان، أي نصف صاع من القمح، وصاع[1] من تمر أو شعير، كالفطرة قدراً ومصرفاً، من قبل التّماسّ أيضاً، سواء بالإباحة أو بالتمليك، عملاً بظاهر القرآن وهو أن الواجب هو الإطعام، وحقيقة الإطعام هو التمكين، وذلك يتأدى بالإباحة والتمليك.

ويجب عند المالكية التمليك لكل مسكين مد[2] وثلثان من القمح إن اقتاتوه، فلا يجزئ غيره من شعير أو ذرة أو غيرهما، فإن اقتاتوا غير القمح فما يعدله شبعاً لا كيلاً، ولا يجزئ الغداء والعشاء إلا أن يتحقق بلوغهما مداً وثلثين.

وأوجب الشافعية والحنابلة التمليك أيضاً، وقَدْر ما يعطى كل مسكين: مُدٌّ من قمح، أو نصف صاع من تمر أو شعير، ودليلهم على التمليك القياس على الزكاة وصدقة الفطر.

وظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾أنه لا بد من استيفاء عدد الستين، فلو أطعم واحداً ستين يوماً لم يجزه عند الجمهور غير الحنفية إلا من واحد؛ لظاهر الآية، وهو أنه أوجب إطعام ستين مسكيناً، فوجب رعاية ظاهر الآية. ويجزئه ذلك عند الحنفية؛ لأن المقصود سد خلة المحتاج، والحاجة

---

(١) الصاع: ٢٧٥١ غم.

(٢) المد: ٦٧٥ غم.

تتجدد كل يوم، فالدفع إليه مع مرور الأيام إطفاء للحاجة المتكررة بتكرر الأيام. وهذا معارض لظاهر النص على ستين مسكيناً، وبتكرر الحاجة في مسكين واحد لا يصير هو ستين مسكيناً، فالتعليل بسد خلة المحتاج مبطل لمقتضى النص، فلا يجوز.

واتفق العلماء على أن خصال كفارة الظهار مرتّبة، فالإعتاق أولاً، ثم الصيام، ثم الإطعام، للأحاديث الآمرة بهذا على الترتيب، كما ثبت في الصحيحين في قصة الذي جامع امرأته في رمضان.

واتفق الفقهاء أيضاً على أن من وطئ قبل أن يكفِّر عصى ربه وأثم، لمخالفة أمره تعالى، وتستقر الكفارة في ذمته، ويظل تحريم زوجته عليه باقياً حتى يكفر، وذلك شامل جميع خصال الكفارة: العتق والصوم والإطعام. فإن وطئ أثناء التكفير فاختلف الفقهاء:

فذهب المالكية إلى أن الوطء في أثناء التكفير يحرم ويبطل ما تم، ويبتدئ الكفارة أياً كانت خصلتها من جديد.

ورأى الشافعية: أن المظاهر إن جامع أثناء الصوم ليلاً قبل أن يكفِّر، أثم؛ لأنه جامع قبل التكفير، ولا يبطل تتابع الصيام؛ لأن جماعه لم يؤثر في الصوم المفروض، فلم يقطع التتابع، كالأكل بالليل. وكذا إن جامع أثناء الإطعام، لا يبطل ما مضى.

وفصل الحنفية والحنابلة فقالوا: إن وطئ المظاهر امرأته المظاهر منها في أثناء الصوم، أفسد ما مضى من صيامه، واستأنف الصوم من جديد. أما إن وطئ في أثناء الإطعام، فلا تلزمه إعادة ما مضى، عملاً بعدم تقييد الإطعام في النص القرآني بكونه قبل التَّماسّ، وتقييده في تحرير الرقبة والصيام بكونهما قبل التَّماسّ.

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي ذلك الحكم الذي بيناه من وجوب الكفارة بسبب الظهار، لتصدقوا بشرع الله تعالى وأمره، وتصدقوا رسوله ﷺ، وتقفوا عند حدود الشرع، ولا تتعدّوها، ولا تعودوا إلى الظهار الذي هو منكر من القول وزور، وتلك الأحكام المذكورة حدود الله أي محارمه، فالزموها ولا تتجاوزوا حدوده التي حدّها لكم، فإنه قد بين لكم أن الظهار معصية، وأن كفارته المذكورة توجب العفو والمغفرة، وللكافرين الذين يتعدونها ولا يقفون عند حدود الله عذاب مؤلم على كفرهم وهو عذاب جهنم في الآخرة، كما لهم عذاب في الدنيا.

وأطلق الكافر على متعدي الحدود تغليظاً وزجراً، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ٩٧].

فقه الحياة أو الأحكام:

يفهم من الآيات ما يأتي:

١- الشكوى إلى الله من الهم والحزن والضيق أنجع طريق، فقد أجاب الله شكوى خولة بنت ثعلبة وقبل استغاثتها، وحقق ما توقعته من ربها، لثقتها بفضل الله وإحسانه. والإجابة والقبول هو المقصود من قوله سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾.

والسماع في الأصل إدراك المسموعات، والسمع والبصر صفتان لله كالعلم والقدرة والحياة والإرادة، فهما من صفات الذات، لم يزل الخالق سبحانه وتعالى متصفاً بهما. والسميع: المدرك للأصوات التي يدركها المخلوقون بآذانهم من غير أن يكون له أذن؛ لأن الأصوات لا تخفى عليه.

٢- الظهار معصية وحرام ومنكر شرعاً من القول وزور (كذب) وليست النساء بأمهات، فما أمهاتهم إلا الوالدات، وأصل الظهار: أن يقول الرجل

لامرأته: أنت علي كظهر أمي، فمن قال ذلك فهو مظاهر بالإجماع، كما أن من قال لها: أنت علي كظهر ابنتي أو أختي أو غير ذلك من ذوات المحارم، فهو مظاهر.

والظهار نوعان: صريح وكناية؛ فالصريح: أنت علي كظهر أمي، وأنت عندي، وأنتِ مني، وأنتِ معي كظهر أمي، أو أنت عليَّ حرام كظهر أمي، وكذا: أنت عليَّ كبطن أمي أو كرأسها أو فرجها أو نحوه، وكذلك فرجك أو رأسك أو ظهرك أو بطنك أو رجلك علي كظهر أمي، ففي ذلك كله يكون مظاهراً.

والكناية: أن يقول: أنت عليّ كأمي أو مثل أمي، فإنه يعتبر فيه النية، فإن أراد الظهار كان ظهاراً، وإن لم يرد الظهار، لم يكن مظاهراً عند أئمة المذاهب الأربعة؛ لأنه أطلق تشبيه امرأته بأمه، فكان ظهاراً.

والظهار لازم في كل زوجة مدخول بها أو غير مدخول بها، على أي الأحوال كانت من زوج يجوز طلاقه.

ويلزم عند مالك الظهار قبل النكاح إذا نكح التي ظاهر منها، ولا يلزم عند الشافعي وأبي حنيفة، لقوله تعالى: ﴿مِّن نِّسَآئِهِم﴾ وهذه ليست من نسائه.

والذميّ لا يلزم ظهاره عند أبي حنيفة ومالك؛ لقوله تعالى: ﴿مِنكُم﴾ يعني من المسلمين، وهذا يقتضي خروج الذمي من الخطاب. ويلزم ظهاره عند الشافعي وأحمد؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾.

ولا ظهار للمرأة من الرجل في قول الجمهور؛ لأن الله تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ولم يقل: اللائي يظاهرن منكن من أزواجهم، إنما الظهار على الرجال. وقال الأوزاعي وإسحاق وأبو يوسف: إذا قالت المرأة

لزوجها: أنت عليّ كظهر أمي فلانة، فهي يمين تكفِّرها. وقال أحمد: يجب عليها كفارة الظهار؛ لأنها أتت بالمنكر من القول والزور.

وظهار السكران صحيح كطلاقه، ويلزمه حكم الظهار والطلاق إذا عقل، بالاتفاق، ولا يصح ظهار المكره عند الجمهور غير الحنفية. وكذا يلزم الغضبان حكم الظهار. ومن كان به لَمَم، أي إلمام بالنساء وشدة حرص وتوقان إليهن، كأوس بن الصامت الذي ظاهر من زوجته خَوْلة بنت ثَعْلَبَة، لزمه ظهاره. وليس معنى اللمم: الجنون والخبل كما قال الخطابي، إذ لو كان به ذلك، ثم ظاهر في تلك الحالة، لم يكن يلزمه شيء.

ولا يقرب المظاهر امرأته ولا يباشرها ولا يتلذذ بها بشيء حتى يكفِّر في رأي الجمهور، ورأى الشافعي أن المباشرة ليلاً لا تقطع الصوم ولا تحرم.

ومن وطئ قبل أن يكفِّر: عليه كفارة واحدة في رأي الجمهور، وقال بعضهم (مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن مهدي): عليه كفارتان، ودليل الجمهور: أن الآية دلت على أنه يجب على المظاهر كفارة قبل العود، وهنا فاتت صفة القبلية، فيبقى أصل وجوب الكفارة، وليس في الآية دلالة على أن ترك التقديم يوجب كفارة أخرى.

وإذا ظاهر من أربع نسوة في كلمة واحدة، كقوله: أنتن علي كظهر أمي، كان مظاهراً من كل واحدة منهن، ولم يجز له وطء إحداهن، وأجزأته كفارة واحدة في قول الجمهور، وقال الشافعي في الأظهر: تلزمه أربع كفارات.

وإن قال لأربع نسوة: إن تزوجتكن فأنتن علي كظهر أمي، فتزوج إحداهن، لم يقربها حتى يكفّر، ثم قد سقط عنه اليمين في سائرهن.

وإن قال لامرأته: أنت عليّ كظهر أمي وأنت طالق ألبتة[1]، لزمه الطلاق والظهار معاً، ولم يكفر حتى ينكحها بعد زوج آخر، ولا يطأها إذا نكحها حتى يكفّر. والمبتوتة عند المالكية لا يلحقها طلاق ولا ظهار.

(١) يريد بـ (ألبتة) هنا: الطلاق الثلاث.

٣ً- كفارة الظهار واجبة على الترتيب: الإعتاق، ثم الصيام شهرين متتابعين، ثم إطعام ستين مسكيناً، وذلك قبل التَّماسّ، أي الجماع ومقدماته عند الحنفية، والجماع فقط عند الشافعية، فإن جامع قبل أن يكفر، لم يجب عليه إلا كفارة واحدة في قول أكثر العلماء كما تقدم.

٤ً- العود لما قال المظاهر في الظهار: معناه عند الحنفية والمالكية: العزم على الوطء أو إرادة الوطء، والوطء في الفرج عند الحنابلة، وإمساك الزوجة بعد الظهار مع القدرة على الطلاق في مذهب الشافعية.

والأظهر أنه لا ينبغي للمرأة أن تدعه يقربها حتى يكفّر، فإن تهاون بالتكفير حال الإمام بينه وبينها، ويجبره على التكفير.

٥ً- يجزئ عند الحنفية إعتاق الرقبة الكافرة ومن فيها شائبة رق كالمكاتبة وغيرها، ولا يجزئ إعتاق غير الرقبة المؤمنة عند بقية المذاهب، ولا يجزئ عند الشافعي رحمه الله إعتاق المكاتب.

ومن لم يجد الرقبة ولا ثمنها، أو كان مالكاً لها إلا أنه شديد الحاجة إليها لخدمته، أو كان مالكاً لثمنها إلا أنه يحتاج إليه لنفقته، أو كان له مسكن ليس له غيره ولا يجد شيئاً سواه، فله أن يصوم عند الشافعي. وقال أبو حنيفة: لا يصوم وعليه عتق، ولو كان محتاجاً إلى ذلك. وقال مالك: إذا كان له دار وخادم، لزم العتق، فإن عجز عن الرقبة، صام شهرين متتابعين.

٦ً- تتابع الصيام شرط، وينقطع تتابع صوم الشهرين إن أفطر بغير عذر، ويستأنف. فإن أفطر بعذر من سفر أو مرض، بنى وأكمل عند المالكية والحنابلة، واستأنف أو ابتدأ الصيام من جديد عند الحنفية والشافعية؛ لفوات التتابع، ولكن لا ينقطع عند هؤلاء بحيض أو نفاس أو جنون.

وينقطع التتابع بالوطء ليلاً أو نهاراً عند الجمهور؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ

أَن يَتَمَآسَّا﴾ ولا يبطل التتابع عند الشافعية بالوطء ليلاً؛ لأنه ليس محلاً للصوم.

٧- لا يجزئ عند مالك والشافعي وأحمد أن يطعم أقل من ستين مسكيناً، وقال أبو حنيفة وأصحابه: إن أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد، أجزأه.

٨- إن كفارة الظهار إيمان بالله سبحانه وتعالى، لقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي لتكونوا مطيعين لله سبحانه، واقفين عند حدود الكفارة لا تتعدّوها، فسمى التكفير طاعة، ومراعاة الحد إيماناً. وتلك حدود الله تعالى بين معصيته وطاعته، فمعصيته الظهار، وطاعته الكفارة، ولمن لم يصدق بأحكام الله تعالى عذاب جهنم.

وهذا دليل على أن العمل داخل في مسمى الإيمان؛ لأن الله أمر بهذه الأعمال، وبيَّن أنه أمرهم بها ليصيروا بعملها مؤمنين، فدلت الآية على أن العمل من الإيمان. وأنكر بعضهم ذلك وقال: إنه تعالى لم يقل: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ﴾ بعمل هذه الأشياء، ورد الرازي عليهم بأن المعنى: ذلك لتؤمنوا بالله بالإقرار بهذه الأحكام.

ودل قوله: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على أنه لا بد لهم من الطاعة، وأن العذاب لمن جحد هذا وكذب به.

وعيد الذين يعادون الله تعالى والرسول ﷺ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾

الإعراب:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، وهو ﴿مُّهِينٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي لهم عذاب مهين في هذا اليوم، أو بإضمار: اذكر.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾: مجرور بالإضافة، ويكون ﴿نَّجْوَىٰ﴾ مصدراً، أو مجروراً على البدل، بمعنى (متناجين) وتقديره: ما يكون من متناجين ثلاثة.

البلاغة:

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ﴾ بينهما طباق؛ لأن معنى ﴿أَدْنَىٰ﴾ أقل، فصار الطباق بينها وبين أكثر.

المفردات اللغوية:

﴿يُحَآدُّونَ﴾ يعادون ويخالفون، وأصل المحادّة: الممانعة، يقال للبواب: حداد. ﴿كُبِتُوا۟﴾ خذلوا وأذلوا وأهينوا. ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في مخالفتهم رسلهم، وهم كفار الأمم الماضية.

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحات دالة على صدق الرسول ﷺ وما جاء به. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ بالآيات. ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ ذو إهانة، وإذلال، يذهب عزهم وتكبرهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ يبعثهم كلهم، لا يدع أحداً غير مبعوث، أو مجتمعين. ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ يخبرهم بأعمالهم أمام الناس، تشهيراً لحالهم، وتقريراً لعذابهم وتوبيخاً وتقريعاً لهم. ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أحاط به عدداً، لم يغب عنه شيء. ﴿وَنَسُوهُ﴾ لكثرته، أو تهاونهم به. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيء.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تعلم. ﴿مَا يَكُونُ﴾ ما يوجد. ﴿نَّجْوَىٰ﴾ تناج ومسارّة، أو أصحاب نجوى، مأخوذ من النجوة: وهي ما ارتفع من الأرض؛ لأن المتسارّين يخلوان وحدهما بنجوة من الأرض. ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي محيط بهم بعلمه. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ ولا نجوى خمسة. ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ تخصيص العددين إما لخصوص الواقعة، فإن الآية نزلت في تناجي المنافقين، أو لأن التشاور لا بدّ له من اثنين يكونان كالمتنازعين وثالث يتوسط بينهما. ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ ولا أقل مما ذكر كالواحد والاثنين. ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من هذا العدد. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينهم. ﴿أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ علم الله شامل لكل شيء، لا يتحدد بمكان. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يخبرهم بأعمالهم، فضحاً لهم وتقريراً لجزائهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ عالم بكل شيء على سواء.

المناسبة:

بعد بيان أحكام الظهار في شريعة الإسلام، وتوبيخ المتورطين في الظهار، ومدح المؤمنين الواقفين عند حدوده، ذكر تعالى ما يلحق المخالفين لشرع الله والمعادين لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ من خزي وهوان في الدنيا، وعذاب في

غاية الذل والمهانة في الآخرة، وأيد ذلك بالوعيد الشديد لهم، فأخبر أن الله مطلع عليهم وعلى أعمالهم، لا يخفى عليه شيء من أحوالهم في السر والعلن، وسيخبرهم بذلك يوم الحساب، ويجازيهم على ما قدموا من عمل.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ أي إن الذين يعادون الله تعالى ورسوله ﷺ، ويخالفون شرع ربهم ويعاندونه، أذلّوا وأخزوا وأهينوا ولعنوا، وينكل بهم في الدنيا، كما أذل الذين من قبلهم من كفار الأمم المتقدمة، بسبب معاداتهم شرع الله سبحانه، وقد تحقق هذا الإنذار بإذلال المشركين بالقتل والأسر والقهر يوم بدر والخندق. وفي ذلك تبشير بنصر المؤمنين على من عاداهم، ووعيد لكل الحكام المسلمين الذين يهجرون شريعتهم الإلهية، ويعملون بالقوانين الوضعية، ونظير الآية: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾ [النساء: ٤/ ١١٥] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ [الحشر: ٥٩/ ٤] .

﴿وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۢ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أي وقد أنزلنا للناس آيات واضحات، لا يخالفها إلا كل كافر فاجر مكابر، وللجاحدين بتلك الآيات، المستكبرين عن اتباع شرع الله والانقياد له، عذاب يهين صاحبه، ويذله، بسبب كفرهم وتكبرهم عن حكم الله، وذلك العذاب: هو الخزي والهوان في الدنيا، ونار جهنم في الآخرة.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ أي اذكر ذلك اليوم تعظيماً له، وأخبر بأن لهم عذاباً مهيناً يوم يحشرهم الله جميعاً من الأولين والآخرين في يوم الحساب، مجتمعين في حالة واحدة، لا يبقى منهم أحد لا يبعث، فيخبرهم الله بأعمالهم القبيحة التي عملوها في الدنيا، لإقامة الحجة وتكميلها عليهم، كما يخبرهم بكل ما

صنعوا من خير وشر، ضبطه الله وحفظه عليهم، في صحائف كتبهم، وهم قد نسوا ما كانوا عملوا، والله مطلع وناظر لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً.

وفي هذا أيضاً وعيد شديد لكل من قدم الأعمال المنكرة والأفعال القبيحة.

ثم أخبر الله تعالى تأكيداً لما سبق بإحاطة علمه بخلقه واطلاعه على كل شيء، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ أي ألم تعلم أيها النبي وكل مخاطب أن علم الله واسع شامل محيط بكل شيء في الأرض والسماء، بحيث لا يخفى عليه شيء مما فيهما، فما يوجد من تناجي أشخاص ثلاثة أو خمسة إلا هو معهم بعلمه، ومطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، ولا يوجد من نجوى أقل من ذلك العدد أو أكثر منه مهما كان الرقم عشرات ومئات أو ألوفاً أو ملايين إلا وهو عليم بهم، في أي زمان وفي أي مكان، يعلم السر والجهر، لا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عنه شيء من تناجيهم في السر والعلن؛ لأن علم الله تعالى محيط بكل شيء، ولا يحده زمان ولا يحجبه مكان، يسمع كلامهم، ويبصر ويرى مكانهم حيثما كانوا، وأينما كانوا، ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به، مع علم الله به، وسمعه له.

والسبب في ذكر الثلاثة والخمسة وإهمال ذكر الاثنين والأربعة: هو إما تصوير الحالة الواقعية التي نزلت الآية بسببها، فإنها نزلت في قوم منافقين، اجتمعوا على التناجي مغايظة للمؤمنين، وكانوا على هذين العددين. عن ابن عباس: أن ربيعة وحبيباً ابني عمرو وصفوان بن أمية كانوا يوماً ما يتحدثون، فقال أحدهم: أترى أن الله يعلم ما نقول؟ فقال الآخر: يعلم بعضاً ولا يعلم بعضاً، وقال الثالث: إن كان يعلم بعضاً، فهو يعلم كله، فنزلت.

وإما أن طبيعة المشاورة، تتطلب وجود عدد وتر، فيكون الاثنان أو الأربعة متنازعين، والثالث أو الخامس كالمتوسط الحكم بينهم، فذكر سبحانه الثلاثة والخمسة تنبيهاً على الأفراد والمجموعات الباقية.

ونظير الآية كثير في القرآن، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٧٨] وقوله سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/ ٨٠].

ولهذا أجمع المفسرون على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى، ولا شك في إرادة ذلك.

ومع علم الله وسمعه وبصره بكل شيء، هو سبحانه وتعالى مطلع على جميع أمور خلقه، كما قال: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ثم يخبر الله عباده المتناجين وغيرهم بجميع أعمالهم يوم القيامة، ليعلموا أن الله عالم بهم، وليكون إعلامه لمن يتناجون بالسوء والمكر توبيخاً لهم وتبكيتاً، وإلزاماً للحجة، والله تعالى واسع العلم بكل الأشياء والأعمال، لا تخفى عليه خافية من الأمور، ويجازيهم عليها.

قال الإمام أحمد: افتتح الآية بالعلم، واختتمها بالعلم.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١- إن كل من خالف شرع الله أو عاداه، أو تجاوز حدوده، له الخزي والذل والهوان في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة. وهذا بشارة من الله تعالى للمؤمنين بالنصر، ووعيد وإنذار للكافرين بالعقاب الشديد.

٢ً- يوم يبعث الله الرجال والنساء من أول عمر الدنيا إلى آخرها، من قبورهم في حالة واحدة، يخبرهم بما عملوا في الدنيا، وقد أحصاه الله عليهم في صحائف أعمالهم، بالرغم من نسيانهم له، ليكون أبلغ في الحجة عليهم، والله مطّلع وناظر لا يخفى عليه شيء.

٣ً- لا يخفى على الله سر ولا علانية في السماوات والأرض، فكل ما يكون من تناجٍ أو سرار اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو أقل أو أكثر من ذلك العدد، يعلم به الله ويسمع نجواهم، كما دل عليه افتتاح الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾ بالعلم، ثم ختمها بالعلم، وسمع الله محيط بكل كلام، وقد سمع الله مجادلة المرأة التي ظاهر منها زوجها، وعلمه شامل كل شيء؛ لأن علمه علم قديم، فهو عالم بجميع المعلومات.

٤ً- أكد الله تعالى المذكور في الآية السابقة بأنه سيخبر يوم القيامة خلقه بما عملوا من حسن وسوء؛ لأن الله عليم بجميع الأشياء، والمراد به أنه يحساب الناس على أعمالهم، ويجازيهم على قدر استحقاقهم. ودل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ على التحذير من المعاصي، والترغيب في الطاعات.

٥ً- المراد من كونه تعالى رابعاً للثلاثة، وسادساً للخمسة وكونه معهم: كونه تعالى عالماً بكلامهم وضميرهم وسرهم وعلنهم، وكأنه تعالى حاضر معهم ومشاهد لهم، مع تنزيهه تعالى عن المكان والمشاهدة.

عقاب المتناجين بالسوء وآداب المناجاة في القرآن

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿وَيَتَنَاجَوْنَ﴾:

وقرأ حمزة (وَيْنتَجُون).

﴿وَمَعْصِيَتِ﴾:

كتبت بالتاء، ووقف عليها بالهاء ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿فَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (فبيس).

﴿لِيَحْزُنَ﴾:

وقرأ نافع (لِيُحْزِن).

الإعراب:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مبتدأ وخبر،

و﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من﴿جَهَنَّمُ﴾ وبئس المصير: حذف المقصود بالذم، وتقديره: جهنم.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تنظر .﴿الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ هم اليهود والمنافقون كانوا يتناجون فيما بينهم، أي يتحدثون سراً للتآمر على المؤمنين وإيقاع الريبة في قلوبهم، فنهاهم رسول الله ﷺ، ثم عادوا لمثل فعلهم .﴿بِالْإِثْمِ﴾بما هو معصية وذنب .﴿وَالْعُدْوَانِ﴾الاعتداء على غيرهم .﴿وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ﴾ التواصي بمخالفة الرسول ﷺ .﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي إذا جاؤوك أيها النبي قالوا: السام عليك، أي الموت، أو أنعم صباحاً، والله تعالى يقول: ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٢٧/٥٩] . و﴿حَيَّوْكَ﴾ خاطبوك بالتحية، والتحيات لله: أي البقاء .﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي فيما بينهم ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هلا يعذبنا بسبب ذلك، أي بالتحية لو كان محمد نبياً .﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاب جهنم كافٍ لهم .﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها ويقاسون حرّها .﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ جهنم.

﴿فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ كما يفعله المنافقون .﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ بما يتضمن خير المؤمنين واتقاء معصية الرسول ﷺ .﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيما تأتون وتذرون، فإنه مجازيكم عليه، و﴿تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ﴾ النجوى بالإثم والعدوان من الشيطان، فإنه المزين لها والدافع إليها .﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ليوقعهم بتوهمه في الحزن. ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا﴾ أي وليس الشيطان بضارّ المؤمنين .﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بمشيئته .﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فليفوضوا الأمر إليه، ولا يبالوا بنجواهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٨):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيَّان قال: كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة، فكانوا إذا مرّ بهم رجل من الصحابة، جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله، أو بما يكرهه، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى، فلم ينتهوا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الآية.

وأخرج أحمد والبزار والطبراني بسند جيد عن عبد الله بن عمرو: أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: سام عليكم، ثم يقولون في أنفسهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾

وقال ابن عباس ومجاهد: نزلت في اليهود والمنافقين، وذلك أنهم كانوا يتناجون فيما بينهم، وينظرون إلى المؤمنين، ويتغامزون بأعينهم، فإذا رأى المؤمنون نجواهم قالوا: ما نراهم إلا وقد بلغهم عن أقربائنا وإخواننا الذين خرجوا في السرايا قتل أو موت أو مصيبة أو هزيمة، فيقع ذلك في قلوبهم ويحزنهم، فلا يزالون كذلك حتى يقدم أصحابهم وأقرباؤهم، فلما طال ذلك وكثر، شكوا إلى رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يتناجوا دون المسلمين، فلم ينتهوا عن ذلك، وعادوا إلى مناجتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

نزول قوله تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾

عن عائشة قالت: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: السام عليك

(١) أسباب النزول للنيسابوري: ص ٢٣٣

يا أبا القاسم، فقلت: السام عليكم وفعل الله بكم، فقال رسول الله ﷺ: مَهْ، ياعائشة، فإن الله تعالى لا يحبّ الفحش ولا التفحش، فقلت: يا رسول الله، ألستُ أدري ما يقولون؟ قال: ألستِ ترين أردّ عليهم ما يقولون؟ أقول: وعليكم، ونزلت هذه الآية في ذلك: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾[1].

نزول الآية (١٠):

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كان المنافقون يتناجون بينهم، وكان ذلك يغيظ المؤمنين، ويكبر عليهم، فأنزل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد بيان علم الله بكل شيء، ومنه السر والنجوى، أبان الله تعالى حال أولئك الذين نهوا عن النجوى وهم اليهود والمنافقون، ثم عودتهم إلى المنهي عنه، وتحيتهم بالسوء للنبي ﷺ، قائلين له: السام عليك، أي الموت، وتهديد بدخول جهنم.

ثم ذكر تعالى آداب المناجاة من الامتناع عن التناجي بالإثم والعدوان، أي بالمعصية والقبيح والاعتداء، وكل ما يؤدي إلى ظلم الغير، وضرورة التناجي بالبر والتقوى، أي بالخير وما يتقى به من النار من فعل الطاعات وترك المعاصي.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي ألم تنظر إلى

---

(١) المرجع والمكان السابق، والحديث رواه ابن أبي حاتم.

الذين نهيتهم عن التناجي والمسارّة بالسوء، ثم عودتهم إلى ما نهيتهم عنه، وهم اليهود والمنافقون كما ذكر في سبب النزول.

﴿وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي ويتسارّون أو يتحدثون فيما بينهم بما هو معصية وذنب كالكذب، واعتداء وظلم للآخرين وعدوان على المؤمنين، وتواصٍ بمخالفة النبي ﷺ.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي وإذا أتى إليك اليهود حيّوك بتحية سوء لم يحيِّك بها الله إطلاقاً، فيقولون: السام عليك، يريدون بذلك السلام ظاهراً، وهم يعنون الموت باطناً، فيقول النبي ﷺ: وعليكم.

روي في الصحيح لدى البخاري ومسلم عن عائشة: أن ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال ﷺ: وعليكم، وقالت عائشة: عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم، فقال عليه الصلاة والسلام: يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفُحْش، فقلتُ: ألا تسمعهم يقولون: السام؟ فقال عليه الصلاة والسلام: وأما سمعت ما أقول: وعليكم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي والله تعالى يقول: ﴿وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩/٢٧] و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ و﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ أي يفعلون هذا، ويقولون فيما بينهم: لو كان محمد نبياً لعذبنا الله بما يتضمنه قولنا من الاستخفاف به، فأجاب الله تعالى عن قولهم: بأن جهنم تكفيهم، كما قال سبحانه:

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي يكفيهم عذاب جهنم عن الموت الحاضر، يدخلونها، فبئس المرجع والمآل، وهو جهنم.

ثم ذكر الله تعالى آداب المناجاة حتى لا يكون المؤمنون مثل اليهود

والمنافقين، فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين يقتضي إيمانكم امتثال أمر الله، والابتعاد عن كل ما يتنافى مع الإيمان الصحيح، إذا تحدثتم سراً فيما بينكم، فلا تفعلوا مثلما يفعل الجهلة من اليهود والمنافقين، من التناجي بالمعصية والذنب، والاعتداء على الآخرين وظلمهم، ومخالفة النبي ﷺ قائد الأمة ومنقذها من الضلالة.

﴿وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي وتحدثوا بالطاعة وترك المعصية، وبالخير واتقاء الله فيما تفعلون وتتركون، فإنكم إليه تجمعون يوم القيامة للحساب، فيخبركم بأعمالكم وأقوالكم، ويحاسبكم عليها، ويجازيكم بما تستحقون، قال ﷺ: «إذا كنتم ثلاثة، فلا يتناجى رجلان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، فإن ذلك يحزنه»(١).

ثم ذكر الله تعالى بواعث مناجاة الكفار بالسوء، فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾(٢) أي إنما التناجي أو المسارّة بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ﷺ من تزيين الشيطان وتسويله ووسوسته ليسوء المؤمنين، ولأجل أن يوقعهم في الحزن بإيهامهم أنهم في مكيدة يكادون بها، وليس الشيطان أو التناجي الذي يزينه الشيطان بضارّ المؤمنين شيئاً، إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي فلا يأبه المؤمنون بتناجيهم، وليتوكلوا على الله ربهم، بأن يكلوا أمرهم إليه، ويفوضوه في جميع شؤونهم، ويستعيذوا بالله من الشيطان، ولا يبالوا بما يزينه من النجوى.

(١) رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه وعبد الرزاق عن ابن مسعود.

(٢) اللام للعهد، وهو التناجي بالإثم والعدوان، زينه الشيطان لأجلهم.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- إن شأن اليهود وديدنهم معاداة القيم والأنبياء، والتآمر والمكايد، فتراهم يتناجون سراً بالإثم والعدوان، أي بالكذب والظلم، ويتواصون بمخالفة الرسول ﷺ، ويخرجون عن الآداب الاجتماعية المعروفة، فيحيون النبي ﷺ بقولهم: السام عليك يريدون بذلك السلام ظاهراً، وهم يعنون الموت باطناً، فيجيبهم النبي ﷺ بقوله: «عليكم» أو «وعليكم» وكانوا يقولون: لو كان محمد نبياً لما أمهلنا الله بسبّه والاستخفاف به، وجهلوا أن الباري تعالى حليم، لا يعاجل من سبّه، فكيف من سبّ نبيه؟!

وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «لا أحد أصبر على الأذى من الله، يدعون له الصاحبة والولد، وهو يعافيهم ويرزقهم».

واختلف العلماء في رد السلام على أهل الذمة، هل هو واجب كالرد على المسلمين، فذهب ابن عباس والشعبي وقتادة إلى الوجوب، للأمر بذلك. وذهب مالك والشافعي إلى أن ذلك ليس بواجب، فإن رددت فقل عليك، قال القرطبي: وما قاله مالك أولى اتباعاً للسنة، أخرج الترمذي عن أنس أن النبي ﷺ قال: «إذا سلّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: عليك ما قلت».

٢- أمر الله المؤمنين أن يتناجوا فيما بينهم بالبر والتقوى، أي بالطاعة والعفاف عما نهى الله عنه، ونهاهم عن التناجي أي التسارر بالمعصية والذنب، والاعتداء على الآخرين والظلم، فإنهم مجموعون في الآخرة إلى الله الذي يجازيهم على ما قالوا وما عملوا.

٣- إن الباعث على نجوى السوء من تزيين الشيطان، ليوقع المؤمنين في الهمّ والحزن، وليوهمهم أن المسلمين أصيبوا في السرايا، أو أنهم متعرضون لمكايدة

الأعداء، والوقوع فريسة الأقوياء، ومحنة السوء، مع العلم بأن الشيطان لا يضر أحداً بشيء إلا بمشيئة الله وتدبيره، وعلى المؤمنين أن يكلوا أمرهم إلى الله ربهم القاهر القادر، ويفوضوا جميع شؤونهم إلى عونه، ويستعيذوا به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلَّط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحاناً، ولو شاء لصرفه عنه.

٤- من أدب الإسلام، كما جاء في حديث عبد الله بن مسعود المتقدم: «إذا كنتم ثلاثة.. » ألاّ يتناجى أو يتحدث سراً اثنان أمام ثالث، حتى يجد الثالث من يتحدث معه، كما فعل ابن عمر؛ وذلك أنه كان يتحدث مع رجل، فجاء آخر يريد أن يناجيه، فلم يناجه حتى دعا رابعاً، فقال له وللأول: تأخرا، وناجى الرجل الطالب للمناجاة[١]. ويستوي في ذلك كل الأعداد، فلا يتناجى أربعة دون واحد ولا عشرة ولا ألف مثلاً؛ لوجود ذلك المعنى في حقه؛ بل وجوده في العدد الكثير أوقع، فيكون بالمنع أولى، وإنما خص الثلاثة بالذكر؛ لأنه أول عدد يتأتى ذلك المعنى فيه. وظاهر الحديث يعم جميع الأزمان والأحوال، وإليه ذهب الجمهور، وسواء أكان التناجي في مندوب أم مباح أو واجب، فإن الإساءة تشملها[٢].

أدب المجالسة في الإسلام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾﴾

(١) أخرجه الموطأ.

(٢) تفسير القرطبي: ١٧/ ٢٩٥.

القراءات:

﴿قِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿ٱلْمَجَٰلِسِ﴾:

قرأ عاصم (المجالس)، وقرأ الباقون (المجلس).

﴿ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾: قرئ:

١- (انشُزوا فانشُزوا) وهي قراءة نافع، وابن عامر، وحفص.

٢- (انشِزوا فانشِزوا) وهي قراءة الباقين.

البلاغة:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ الجملة الأخيرة عطف خاص على عام تنويهاً بشرف العلماء، مع أنهم داخلون في المؤمنين.

المفردات اللغوية:

﴿تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ توسعوا فيها، وليفسح بعضكم عن بعض، يقال: افسح عني، أي تنحَّ، وقرئ: «في المجلس»، والمراد به الجنس. ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ يوسع الله لكم في رحمته، من المكان والصدر والرزق والجنة وغيرها. ﴿ٱنشُزُوا۟﴾ انهضوا للتوسعة على القادمين، أو ارتفعوا في المجلس، أي تنحوا من الموضع، ويقال: امرأة ناشز، أي منتحية عن زوجها. ﴿فَٱنشُزُوا۟﴾ فانهضوا دون تباطؤ. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ يعلي منزلتهم بالنصر وحسن السمعة في الدنيا، والإيواء في غرف الجنان في الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي ويرفع العلماء منهم خاصة درجات في الكرامة وعلوّ

المنزلة؛ لجمعهم بين العلم والعمل، فإن العلم مع علو درجته يقتضي العمل المقرون به زيادة رفعة، جاء في الحديث: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[١]. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ أي عالم مطلع على جميع أعمالكم، وهو تهديد لمن لم يمتثل الأمر.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير الطبري عن قتادة قال: كانوا إذا رأوا من جاءهم مقبلاً، ضنُّوا بمجلسهم عند رسول الله ﷺ، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل: أنها نزلت يوم الجمعة، وقد جاء ناس من أهل بدر، وفي المكان ضيق، فلم يفسّح لهم، فقاموا على أرجلهم، فأقام ﷺ نفراً بعدتهم وأجلسهم مكانهم، فكرِه أولئك النفر ذلك، فنزلت.

المناسبة:

بعد أن نهى الله تعالى المؤمنين عن التناجي سراً في المجتمعات، والتناجي بالإثم والعدوان، لكونه سبب التباغض والتنافر، أمرهم تعالى بما يكون سبباً لزيادة المحبة والمودة من التوسع في المجالس، والانصراف عنها عند الطلب لمصلحة ما، ثم أخبر عن رفع منازل المؤمنين والعلماء درجات في الجنان وفي الدنيا أيضاً.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ أي يا أيها المصدقون بالله تعالى ورسوله ﷺ، إذا طلب منكم التوسع في

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية عن معاذ، وهو ضعيف.

الأماكن والمجالس، وعدم التضايق فيها، سواء مجالس النبي أو مواضع القتال، فليفسح بعضكم لبعض، وليوسع أحدكم للآخر، يوسع الله لكم في الجنة، أي إن الجزاء من جنس العمل.

والآية عامة في كل مجلس، اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب أو ذِكر وعلم، أو يوم جمعة أو عيد، وكل واحد أحق بمكانه الذي يسبق إليه، ولكن يوسع لأخيه. جاء في الحديث الثابت عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا»[١].

قال الرازي: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾: هو مطلق في كل ما يطلب الناس الفسحة فيه، من المكان والرزق والصدر والقبر والجنة.

والآية دلت على أن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة، ولا ينبغي للشخص أن يقيد الآية بالتفسح في المجلس، بل المراد منه إيصال الخير إلى المسلم، وإدخال السرور في قلبه، لذا قال ﷺ: «ومن يسَّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[٢].

وهذا الأدب له تأثيره الكبير في غرس المحبة والتقدير في القلوب. وهو يومئ إلى أن الصحابة كانوا يتنافسون في القرب من مجلس الرسول ﷺ لسماع حديثه، والانتفاع بهديه وأدبه وفضله.

وفي الحديث المروي في السنن: أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به

---

(١) رواه مالك والشافعي وأحمد والترمذي وابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنهما، وأخرجه الشيخان في الصحيحين.

(٢) تفسير الرازي: ٢٩/٢٦٩، والحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة.

المجلس، ولكن حيث يجلس، يكون صدر ذلك المجلس، فكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم، فالصديق رضي الله عنه يجلسه عن يمينه، وعمر عن يساره، وبين يديه غالباً عثمان وعلي؛ لأنهما كانا ممن يكتب الوحي وكان يأمرهما بذلك، وروى مسلم وأحمد وأهل السنن إلا الترمذي عن أبي مسعود أن النبي ﷺ كان يقول: «ليلني منكم أولو الأحلام والنُّهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» وما ذاك إلا ليعقلوا عنه ما يقوله صلوات الله وسلامه عليه.

ولهذا أمر أؤلئك النفر بالقيام ليجلس الذين وردوا من أهل بدر، إما لتقصير أؤلئك في حق البدريين، أو ليأخذ البدريون نصيبهم من العلم، كما أخذ أولئك قبلهم، أو تعليماً بتقديم الأفاضل إلى الأمام.

وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال:

فمنهم من رخص في ذلك، محتجاً بحديث أبي داود عن أبي سعيد الخدري: « قوموا إلى سيدكم » وهو سعد بن معاذ حينما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة.

ومنهم من منع ذلك محتجاً بحديث أحمد وأبي داود والترمذي عن معاوية بن أبي سفيان: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار».

ومنهم من فصّل، فقال: يجوز عند القدوم من سفر، وللحاكم في محل ولايته، كما دلت عليه قصة سعد المتقدمة، ليكون أنفذ لحكمه، فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم، وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، وكان إذا جاء لا يقومون له، لما يعلمون من كراهته لذلك[1].

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٢٥

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ أي إذا طُلب من بعض الجالسين في المجلس أن ينهضوا من أماكنهم، ليجلس فيها أهل الفضل في الدين، وأهل العلم بشرع الله، فليقوموا.

وهذا يشمل أيضاً ما إذا قال صاحب مجلس لمن في مجلسه: قوموا، ينبغي أن يجاب.

وبعد أن نهى الله تعالى المؤمنين عن بعض الأشياء، ثم أمرهم ثانياً ببعض الأشياء، وعدهم على الطاعات، فقال:

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي يرفع الله منازل المؤمنين في الدنيا والآخرة بتوفير نصيبهم فيها، ويرفع أيضاً بصفة خاصة منازل العلماء درجات عالية في الكرامة في الدنيا، والثواب في الآخرة، فمن جمع الإيمان والعلم، رفعه الله بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات، ومن جملة ذلك رفعه في المجالس، والله خبير بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه، مطّلع على أحوال ونوايا جميع عباده، ومجازيهم على أعمالهم جميعاً، خيراً أو شراً.

روى الإمام أحمد ومسلم عن أبي الطفيل عامر بن واثلة: أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بن الخطاب بعُسفان، وكان عمر استعمله على مكة، فقال له عمر: من استخلفت على أهل الوادي؟ قال: استخلفت عليهم ابن أَبْزَى، رجل من موالينا، فقال عمر: استخلفت عليهم مولى؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه قارئ لكتاب الله، عالم بالفرائض، قاض، فقال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم ﷺ قد قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب قوماً، ويضع به آخرين» .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآية إلى ما يأتي:

١- التوسع في كل مجلس اجتمع فيه المسلمون للخير والأجر مطلوب شرعاً، وأدب حسن، سواء كان مجلس النبي في عصره، أو مجلسَ عالم بعده أو مجلس حرب أو ذكر أو شورى أو مجلس يوم الجمعة أو العيد أو العلم ونحوه، وليس ذلك واجباً وإنما هو مندوب شرعاً؛ فإن كل واحد أحق بمكانه الذي سبق إليه؛ لقوله ﷺ: «من سبق إلى ما لم يُسْبَق إليه، فهو أحق به»[١] ولكن يوسع لأخيه ما لم يتأذّ بذلك، فيخرجه الضيق عن موضعه.

روى البخاري ومسلم عن ابن عمر كما تقدم عن النبي ﷺ قال: «لا يُقِم الرجلُ الرجلَ من مجلسه، ثم يجلس فيه» وعن ابن عمر أيضاً فيما رواه البخاري عن النبي ﷺ: «أنه نهى أن يقام الرجل من مجلسه، ويجلس فيه آخر، ولكن تفسحوا وتوسعوا» وكان ابن عمر يكره أن يقوم الرجل من مجلسه، ثم يجلس مكانه.

٢- إذا قعد واحد من الناس في موضع من المسجد، لا يجوز لغيره أن يقيمه حتى يقعد مكانه؛ لما روى مسلم عن جابر عن النبي ﷺ قال: «لايقيمنّ أحدكم أخاه يوم الجمعة، ثم يخالف إلى مقعده، فيقعد فيه، ولكن يقول: افسحوا» .

وإذا أمر إنسان إنساناً أن يبكر إلى الجامع، فيأخذ له مكاناً يقعد فيه، لا يكره، فإذا جاء الآمر يقوم من الموضع، ومثل ذلك إرسال بساط أو سجادة لتبسط له في موضع من المسجد.

(١) حديث صحيح رواه أبو داود والضياء عن أم جنوب بلفظ: «من سبق إلى ما لم يسبقه إليه مسلم، فهو له».

والجالس يختص بموضعه إلى أن يغادره نهائياً؛ لما روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم- أو من قام من مجلسه- ثم رجع إليه، فهو أحق به» .

٣ً- إن للتوسع في المجالس ثواباً؛ لقوله تعالى: ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي يوسع عليكم في الدنيا والآخرة.

٤ً- إذا قيل: انهضوا إلى الصلاة والجهاد وعمل الخير، يجاب القائل، وإذا دعي الشخص إلى القيام عن مجلس النبي ﷺ، وجب القيام، لأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤثر أحياناً الانفراد في وظائف تخصه لا تتأتى ولا تكمل بدون الانفراد.

وإذا قال صاحب مجلس لمن في مجلسه: (قوموا) ينبغي أن يجاب، ويفعل ذلك لحاجة، إذا لم يترتب عليه مفسدة أعظم منها، مما لا نزاع في جوازه.

٥ً- يرفع الله درجات المؤمنين والعلماء في الثواب في الآخرة، وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم. قال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية.

وتدل هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أيضاً على أن الرفعة عند الله تعالى بالعلم والإيمان، لا بالسبق إلى صدور المجالس، فيرفع المؤمن بإيمانه أولاً ثم بعلمه ثانياً. وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل العلماء، منها الحديث السابق عند أبي نعيم عن معاذ- وفيه ضعف-: " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب" ومنها حديث حسن رواه ابن ماجه عن عثمان رضي الله عنه: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء» فأعظم بمنزلة هي واسطة بين النبوة والشهادة بشهادة رسول الله ﷺ. وعن ابن عباس: خيّرسليمان عليه السلام بين العلم والمال والمُلْك، فاختار العلم، فأعطي المال والملك معه.

الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

البلاغة:

﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ استعارة، استعار اليدين لما يكون قبل الشيء، أي قبل نجواكم، وهي استعارة بالكناية، حيث شبه النجوى بالإنسان، وحذفه ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو اليدان. ويصح أن يكون في التركيب استعارة تمثيلية.

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ استفهام معناه التقرير.

المفردات اللغوية:

﴿نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ أردتم مناجاته والتحدث معه .﴿فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ أي قدموا قبل المناجاة صدقة للفقراء، قال البيضاوي: وفي هذا الأمر تعظيم الرسولﷺ، وانتفاع الفقراء، والنهي عن الإفراط في السؤال، والتميز بن المخلص والمنافق ومحب الآخرة ومحب الدنيا، واختلف في أنه للندب أو للوجوب، لكنه منسوخ بقوله: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾ وهو إن اتصل به تلاوة، لم يتصل به نزولاً.

﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾ أي أزكى للنفوس وأبعد عن الريبة وحب المال، وهو يشعر بالندب، لكن قوله: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أدل على الوجوب،

أي إن لم تجدوا ما تتصدقون به، يرخص لكم في المناجاة بلا صدقة، والله غفور لمناجاتكم، رحيم بكم، فلا حرج عليكم في المناجاة.

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ خفتم، والمعنى: أخفتم الفقر في تقديم الصدقة؟ وجمع صدقات لجميع المخاطبين أو لكثرة التناجي .﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ الصدقة .﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأن رخص لكم ألا تفعلوه، أو رجع بكم عنها، وفيه إشعار بأن إشفاقهم ذنب تجاوز الله عنه. ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي دوموا عليهما ولا تفرطوا في أدائهما .﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في سائر الأوامر، فإن القيام بها كالجابر للتفريط في ذلك .﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً.

سبب نزول الآيتين (١٢، ١٣):

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقّوا عليه، فأراد الله أن يخفف عن نبيه، فأنزل: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ فلما نزلت، صبر كثير من الناس، وكفُّوا عن المسألة، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ الآية.

وأخرج الترمذي وحسَّنه، وغيره عن علي قال: لما نزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ قال لي النبي ﷺ: ما ترى، دينار؟ قلت: لا يطيقونه، قال: فنصف دينار؟ قلت: لا يطيقونه، قال: فكم؟ قلت: شعيرة، قال: إنك لزهيد، فنزلت: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾ الآية، فبي خفف الله عن هذه الأمة.

وقال مقاتل بن حيان: نزلت الآية في الأغنياء، وذلك أنهم كانوا يأتون النبي ﷺ، فيكثرون مناجاته، ويغلبون الفقراء على المجالس، حتى كره رسول الله ﷺ ذلك من طول جلوسهم ومناجاتهم، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية، وأمر بالصدقة عند المناجاة، فأما أهل العسرة، فلم يجدوا شيئاً، وأما أهل الميسرة فبخلوا، واشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فنزلت الرخصة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن في كتاب الله لآية ما عمل بها قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ﴾ كان لي دينار فبعته، وكنت إذا ناجيت الرسول ﷺ تصدقت بدرهم حتى نفد، فنسخت بالآية الأخرى: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَـٰتٍۚ﴾ ؟.

المناسبة:

بعد بيان أدب الإسلام في المناجاة والمجالسة، أمر الله تعالى المؤمنين بتقديم صدقة قبل مناجاة النبي ﷺ؛ لأنهم كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله ﷺ لسماع أحاديثه، وكانوا يكثرون من هذه المناجاة. فكان ذلك يشق على الرسول ﷺ، وقد يستثقله الحاضرون، فأراد الله أن يحد من هذه المناجاة، ويخفف عن نبيه، فأمر بتقديم الصدقة قبل المناجاة، تعظيماً للنبي ﷺ وإعظام مناجاته، ولنفع الفقراء بتلك الصدقات المقدّمة قبل المناجاة، ولتمييز المنافقين الذين يحبون المال عن المؤمنين المخلصين. قال ابن عباس: إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله ﷺ حتى شقوا عليه، وأراد الله أن يخفف عن نبيه، فلما نزلت هذه الآية، شحّ كثير من الناس، فكفّوا عن المسألة.

التفسير والبيان:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةًۚ﴾ أي يا أيها الذين أقروا بوجود الله ووحدانيته وصدقوا رسوله ﷺ، إذا أردتم مناجاة النبي ﷺ أو مساررته في أمر من أموركم، فقدموا قبل المناجاة صدقة، تصدقوا بها، لتعظيم النبي ﷺ، والتخفيف عنه، ونفع الفقراء، وتمييز المؤمن الحق والمنافق.

ثم أبان الله تعالى حكمة الصدقة، فقال:

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ أي إن تقديم

الصدقة قبل النجوى خير لكم، لما فيه من طاعة الله وامتثال أمره، والثواب الأخروي، وأزكى لنفوسكم بتطهيرها من الشح والبخل وحب المال، ونفع الفقراء، وتضامن الآمة، وإعزاز شأنها ورفعة قدرها، فإن لم يجد أحدكم تلك الصدقة، فلا حرج عليه في النجوى بدون صدقة، وقد رخص الله لكم في المناجاة بلا تقديم صدقة؛ لأن المأمور بها هو القادر عليها الغني.

وظاهر الآية يدل على أن تقديم الصدقة كان واجباً؛ لأن الأمر للوجوب، ويتأكد ذلك بقوله في آخر الآية: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فإن ذلك لا يقال إلا لترك الوجوب.

وقال بعضهم: إن الأمر هنا للندب والاستحباب، بقرينة ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ وهذا إنما يستعمل في التطوع لا في الفرض، ولأنه لو كان ذلك واجباً لما أزيل وجوبه بكلام متصل به، وهو ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟﴾. والجواب: أن الواجب يوصف أيضاً بأنه خير وأطهر كالمندوب، وأنه لا يلزم من كون الآيتين متصلتين في التلاوة، كونهما متصلتين في النزول، فتكون آية ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾ ناسخة للوجوب الذي ثبت بالأمر.

وأنكر أبو مسلم الأصفهاني وقوع النسخ، وقرر أن الأمر بتقديم الصدقة على النجوى لتمييز المؤمن المخلص من المنافق، فلما تحقق الغرض، انتهى الحكم، أي إن ذلك التكليف كان مقدراً بغاية مخصوصة، فوجب انتهاؤه بانتهاء تلك الغاية، فلا يكون هذا نسخاً. قال الرازي: وهذا الكلام حسن ما به بأس، والمشهور عند الجمهور أنه منسوخ بقوله: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾.

ثم رفع الله تعالى الحكم السابق، فقال:

﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ﴾ أي أخفتم تقديم الصدقات، لما فيه من إنفاق؟ قال مقاتل: إنما كان ذلك عشر ليال ثم نسخ.

وقال الكلبي: ما كان ذلك إلا ليلة واحدة.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي حين لم تفعلوا ما أمركم به من الصدقة قبل النجوى لثقلها عليكم، ورخص الله لكم في الترك، والمناجاة من غير صدقة، فثابروا واثبتوا على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله تعالى ورسوله ﷺ، والله خبير محيط بأعمالكم كلها ظاهرها وباطنها، فمجازيكم عليها. والإشفاق: الخوف من المكروه.

قال قتادة ومقاتل بن حيان: سأل الناس رسول الله ﷺ حتى أحفوه بالمسألة، ففطمهم الله بهذه الآية، فكان الرجل منهم إذا كانت له الحاجة إلى نبي الله ﷺ، فلا يستطيع أن يقضيها حتى يقدِّم بين يديه صدقة، فاشتد ذلك عليهم، فأنزل الله الرخصة بعد ذلك.

وليس في الآية إشارة إلى وقوع تقصير من الصحابة في تقديم الصدقة، فقد يكون عدم الفعل؛ لأنهم لم يناجوا. ولا يدل أيضاً قوله: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ على أنهم قصروا؛ لأن المعنى أنه تاب عليهم برفع التكليف عنهم تخفيفاً، ومثل هذا يجوز أن يعبر عنه بالتوبة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيتان على ما يأتي:

أ- أوجب الله تقديم الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ، تعظيماً لنبيه وتخفيفاً عنه من كثرة الأسئلة، ثم خفف الله عن الأمة، ورفع التكليف.

والظاهر أن النسخ إنما وقع بعد فعل الصدقة، فقد تصدق علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما تقدم، ولم يوجد مقتضٍ للمناجاة لدى بقية الصحابة الذين تريثوا وفهموا علة التكليف.

وكان التكليف مقصوراً على الأغنياء؛ لأنه تعالى جعل الصدقة بالمال خيراً من إمساكها، وأطهر لقلوبهم من المعاصي والذنوب، فإن لم يجد الواحد ما يتصدّق به، فإن الله غفور له، رحيم به.

٢- عَلِم الله تعالى ضيق صدر كثير منهم عن إعطاء الصدقة في المستقبل، مع كثرة المسائل، لو دام الوجوب، فخفف الله عنهم، وأمر بمتابعة إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وإطاعة الله تعالى في فرائضه، ورسوله ﷺ في سننه، والله محيط بأعمال عباده ونياتهم.

حال المنافقين الذين يوالون غير المؤمنين

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

القراءات:

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾

قرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة (يَحْسَبُون)، وقرأ الباقون (يَحْسِبُون).

الإعراب:

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ جملة حالية من فاعل ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ أو استئنافية، والمعنى واحد، ويصح جعلها صفة لقوم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾ ﴿جَمِيعًا﴾ منصوب على الحال من الهاء والميم في ﴿يَبْعَثُهُمُ﴾ وهو عامل الحال.

البلاغة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ استفهام يراد منه التعجيب. ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و﴿يَعْمَلُونَ﴾ جناس ناقص لتغير الرسم.

﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ و﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

﴿أَلَا﴾ ﴿إِنَّ﴾ ﴿هُمُ﴾ في الجملتين السابقتين، تأكيدات متنوعة تفيد التقبيح في الأولى، والتحلية في الثانية.

﴿يَعْمَلُونَ﴾، ﴿خَالِدُونَ﴾، ﴿الْكَاذِبُونَ﴾، ﴿الْخَاسِرُونَ﴾، توافق الفواصل في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنظر أو أخبرني، وهو أسلوب يراد به التعجيب للمخاطب من حال هؤلاء المنافقين .﴿الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ والوا وودوا وأحبوا، وهم المنافقون. ﴿قَوْمًا﴾ هم اليهود .﴿غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾سخط .﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك .﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ﴾ وهو ادعاء الإسلام وأنهم من المؤمنين .﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنهم كاذبون فيه أي في المحلوف عليه.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ نوعاً من العذاب متفاقماً .﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من المعاصي التي تمرنوا عليها وأصروا على فعلها .﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ أي التي حلفوا بها .﴿جُنَّةً﴾ وقاية وستراً على أنفسهم من المؤاخذة .﴿فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ صدوا بأيمانهم الناس عن دين الله بالتحريش والتثبيط .﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيد ثان بوصف آخر لعذابهم، وهو أنه ذو إهانة.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه. ﴿شَيْـًٔا﴾ من الإغناء. ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ﴾ أي اذكر لهم ذلك اليوم. ﴿فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أنهم مؤمنون. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ من نفع حلفهم في الآخرة كالدنيا. ﴿ٱسْتَحْوَذَ﴾ استولى عليهم وأحاط بهم وغلب على عقولهم. ﴿حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أعوانه وأتباعه وأنصاره.

سبب النزول:

نزول الآية (١٤):

﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن السدي ومقاتل في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا﴾ الآية، قال: بلغنا أنها نزلت في عبد الله بن نَبْتَل المنافق، كان يجالس النبي ﷺ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود، فبينما رسول الله ﷺ في حجرة من حُجَره، إذ قال: يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبَّار، وينظر بعيني شيطان، فدخل عبد الله بن نبتل وكان أزرق، فقال له رسول الله ﷺ: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فحلف بالله ما فعل ذلك، فقال له النبي ﷺ: فعلتَ، فانطلق، فجاء بأصحابه، فحلفوا بالله ما سبّوه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

نزول الآية (١٨):

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾: أخرج أحمد والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ في ظل حجرة، وقد كاد الظل يتقلص، فقال: إنه سيأتيكم إنسان، فينظر إليكم بعيني شيطان، فإذا جاءكم، لا تكلموه، فلم يلبثوا أن طلع عليهم رجل أزرق أعور، فدعاه رسول الله ﷺ، فقال له حين رآه: علام تشتمني أنت وأصحابك؟ فقال: ذرني آتك بهم، فانطلق، فدعاهم، فحلفوا له ما قالوا وما فعلوا، فأنزل الله: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد أمر المؤمنين بالصدقة قبل مناجاة النبي ﷺ تخفيفاً عنه في طول مجالسته وكثرة التردد عليه، ذكر الله تعالى حال جماعة من المنافقين كانوا يتولون اليهود ويودونهم، ويطلعونهم على أسرار المؤمنين، وهم في الواقع لا مع الكفار ولا مع المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَالِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾ [النساء: ٤/ ١٤٣].

وقد أنذرهم الله بالعذاب، وأبان بواعث أفعالهم واستيلاء الشيطان على عقولهم، فهم أتباع الشيطان وأنصاره.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي أخبرني عن حال هؤلاء المنافقين الذين تولوا اليهود ومالؤوهم في الباطن، ونقلوا إليهم أسرار المؤمنين، فموقفهم يستدعي التعجب، لذا سخط الله عليهم، وهم في الواقع، لا مع المؤمنين ولا مع اليهود، أي ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون، ولا من الذين يوالونهم، وهم اليهود.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي واتخذوا الأيمان الكاذبة ستاراً لهم، فهم يحلفون أنهم مسلمون، أو ما نقلوا الأخبار إلى اليهود، وهم يعلمون بطلان ما حلفوا عليه، وأنه كذب لا حقيقة له.

ثم أنذرهم تعالى بالعذاب الشديد، فقال:

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي هيأ الله لهم، وأرصد لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة، وهي موالاة الكافرين ونصحهم، ومعاداة المؤمنين وغشّهم، وساء ما فعلوا من الأعمال القبيحة في الزمان الماضي، ومصرّين على سوء العمل.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ أي أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، واتقوا بالأيمان الكاذبة، واتخذوها وقاية وستراً لدمائهم، فخدع بهم بعض الناس الذين لا يعرفون حقيقة أمرهم، وظنوا صدقهم، فحصل بهذا صدّ عن سبيل الله، بأن منعوا الناس عن الإسلام بسبب ما يصدر عنهم من التثبيط، وتهوين أمر المسلمين، وتضعيف شوكتهم، فلهم عذاب يلازمه الذل والهوان في نار جهنم بسبب أيمانهم الكاذبة بالله تعالى، وفي مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة.

ثمّ ذكر الله تعالى مدى إفلاسهم يوم القيامة، فقال:

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي لن تفيدهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله، شيئاً من الإفادة، وأولئك الموصوفون بهذه الصفات هم أهل النار، لا يفارقونها، وماكثون فيها، لا يخرجون منها ولا يموتون فيها.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ أي اذكر لهم أيها النبي حين يبعثهم الله جميعاً من قبورهم أحياء، ويحشرهم يوم القيامة عن آخرهم، فلا يغادر منهم أحداً، فيحلفون بالله عز وجل أنهم كانوا على الهدى والاستقامة، كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا؛ لأن من عاش على شيء مات عليه، وبعث عليه، ويظنون أن ذلك ينفعهم عند الله، كما كان ينفعهم عند الناس.

وهذا من شدة شقاوتهم، فإن الحقائق يوم القيامة قد انكشفت.

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أي ويظنون في الآخرة أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً، كما كانوا يظنون ذلك في الدنيا، ألا إنهم بهذا التصور هم الكاذبون أشد الكذب فيما يحلفون عليه.

وحال هؤلاء كما أخبر الله تعالى عن المشركين حيث يقول: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/٢٣-٢٤] .

ثم ذكر الله تعالى سبب ضلالهم، فقال:

﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي استولى عليهم وأحاط بهم وغلب على عقولهم، فتركوا أوامر الله والعمل بطاعاته، أولئك جنود الشيطان وأتباعه ورهطه، إلا إن أعوان الشيطان هم الخاسرون الهالكون؛ لأنهم باعوا الجنة بالنار، والهدى بالضلالة، وكذبوا على الله وعلى نبيه، وحلفوا الأيمان الفاجرة، فسوف يخسرون في الدنيا والآخرة، وليس العاقل من يقبل هذا ويرتضيه لنفسه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً- تحرم موادّة الكافرين أعداء المؤمنين، وإطلاعهم على أسرار المسلمين، ومؤازرتهم ونصحهم.

٢ً- ليس المنافقون من اليهود ولا من المسلمين، بل هم مذبذبون بين ذلك، وكانوا يحملون أخبار المسلمين إليهم.

٣ً- لهؤلاء المنافقين عذاب شديد في جهنم، وهو الدَّرْك الأسفل من النار، وبئست الأعمال أعمالهم.

٤ً- اتخذ هؤلاء المنافقون أيمانهم جُنَّة أو ساتراً ووقاية لهم من القتل، فلهم عذاب ذو إهانة في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار.

٥ً- لن تفيدهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً.

٦ً- لهم عذاب مهين يوم بعثهم من قبورهم وحشرهم يوم القيامة.

٧ً- إنهم يغالطون باليمين مغالطة ظاهرة، ظانين أن الأيمان الكاذبة تنفعهم في الآخرة كما تنفعهم في الدنيا، وهم يحسبون أنهم على شيء من النفع بإنكارهم وحلفهم، وهم في الواقع كاذبون، والمراد: أنهم كما عاشوا على النفاق والحلف الكاذب يموتون ويبعثون على ذلك الوصف.

٨ً- لقد غلب الشيطان عليهم بوسوسته في الدنيا، مما أدى بهم إلى ترك أوامر الله والعمل بطاعته، وهم رهط الشيطان وطائفته، وحزب الشيطان هم الخاسرون في بيعتهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة.

جزاء المعادين لله تعالى والرسول ﷺ والوعد بنصر المؤمنين وتحريم موالاة الأعداء

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

القراءات:

﴿وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (ورسليَ إن).

﴿قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾: قرئ:

١- (قلوبهِم) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (قلوبهُمُ) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وخلف.

٣- (قلوبهِمُ) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ﴾ ﴿كَتَبَ﴾: أجري مجرى القسم، لذا أجيب بجواب القسم في قوله: ﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾.﴿وَرُسُلِيٓۚ﴾: في موضع رفع بالعطف على الضمير في﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾. وإنما جاز العطف على الضمير المرفوع المستتر لتأكيده بقوله: ﴿أَنَا۠﴾. وإذا أكد الضمير المنفصل أو المستتر، جاز العطف عليه.

﴿فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ هي أفعل التفضيل.

البلاغة:

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ مجاز مرسل؛ لأنه سبب للحياة الطيبة الأبدية.

المفردات اللغوية:

﴿يُحَآدُّونَ﴾ يعادون ويخالفون ويشاقون، فهم في حد، والشرع والهدى في حد. ﴿فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ في جملة المغلوبين أذل خلق الله .﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ قضى وحكم .﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾ بالحجة والقوة .﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ﴿يُوَآدُّونَ﴾ يصادقون، أي لا ينبغي أن تجدهم وادّين أعداء الله، والمراد: أنه لا ينبغي لهم أن يوادّوهم .﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾ ولو كان المحادّون أقرب الناس إليهم .﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي الذين لم يوادّوهم .﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أثبت الإيمان في قلوبهم، وهو دليل على خروج العمل من مفهوم الإيمان؛ لأن أعمال الأعضاء لا تثبت في القلب.

﴿وَأَيَّدَهُم﴾ قواهم. ﴿بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي بنور من عند الله يقذفه في القلوب، لتطمئن وتسكن. ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعته. ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ بثوابه الذي وعدهم به. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾ جنده وأنصار دينه، يتبعون أمره ويجتنبون نهيه. ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بخير الدارين.

سبب النزول:

نزول الآية (٢١):

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾: قال مقاتل: لما فتح الله مكة للمؤمنين والطائف وخيبر وما حولها، قالوا: نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم، فقال عبد الله بن أُبي: أتظنون الروم وفارس كبعض القرى التي غلبتم عليها، والله إنهم لأكثر عدداً وأشد بطشاً من أن تظنوا فيهم ذلك؟ فنزلت: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾.

نزول الآية (٢٢):

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾: أخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في سننه عن ابن عباس عن عبد الله بن شَوْذَب قال: نزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ الآية.

وأخرجه الطبراني والحاكم في المستدرك بلفظ: جعل والد أبي عبيدة بن الجراح يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر، قصده أبو عبيدة، فقتله، فنزلت.

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال: حُدِّثت أن أبا قحافة سبّ النّبي ﷺ، فقال: فصكّه أبو بكر صكّة، فسقط، فذكر ذلك للنّبي ﷺ، فقال: أفعلت يا أبا بكر؟ فقال: والله لو كان السيف قريباً مني لضربته به فنزلت: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ الآية.

وقال الرازي، إن الأكثرين اتفقوا على أن قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وإخباره أهل مكة بمسير النّبي ﷺ إليهم، لما أراد فتح مكة.

المناسبة:

بعد بيان سوء حال المنافقين في الآخرة وخسارتهم الكبرى، أبان الله تعالى سبب خسارتهم وهو مشاقّة الله تعالى ورسوله ﷺ ومخالفة أوامرهما، ثم أخبر عن قضائه المبرم في نصر الرسل وهزيمة أعدائهم، ثم ذكر أن الإيمان لا يجتمع مع وداد أعداء الله وموالاتهم؛ لأن من أحبّ أحداً، امتنع أن يحب مع ذلك عدوه.

التفسير والبيان:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ أي إن الكفار المعاندين المخالفين أوامر الله ونواهيه، والذين يجانبون الحق ويعادون الإسلام، يجعلون أنفسهم في حد، وشرع الله ورسوله في حد آخر، هم في جملة المغلوبين وفي جملة من هم أذلّ خلق الله تعالى، لا ترى أحداً أذلّ منهم، سواء في الدنيا بالقتل والأسر والطرد من الديار، كما حصل للمشركين واليهود، وفي الآخرة بالخزي والنكال والعذاب، كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٢] . وهذ إنذار بهزيمة أعداء الله، والآية جملة استئنافية لتعليل خسرانهم.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ أي حكم الله وقضى في سابق علمه الأزلي أن الله ورسله هم الغالبون بالحجة والسيف ونحوهما، إن الله قوي على نصر رسله، غالب لأعدائه، وهذا- كما قال ابن كثير- قدر محكم، وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

وهذا بشارة بنصر المؤمنين على الكافرين، وقد تحقق ذلك مراراً، فنصر رسله الكرام على أقوامهم، كقوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ممن مضى، ونصر رسوله محمد ﷺ ومن آمن معه على المشركين في الجزيرة العربية، وعلى دولتي الروم والفرس.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ٣٧/ ١٧١-١٧٣] .

ثم بيَّن الله تعالى شأن المؤمنين في أنهم لا يوادون أعداء الله، فقال:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أي لا ينبغي للمؤمنين بالله واليوم الآخر أن يحبوا ويصادقوا ويوالوا من عادى الله تعالى ورسوله ﷺ وشاقهما، ولو كان المحادّون المعادون لله تعالى ورسوله ﷺ أقرب الناس إليهم، كالآباء الذين يجب بِرُّهم وطاعتهم، والأبناء فِلْذات الأكباد، والإخوان الناصرين لهم، والعشيرة أو القبيلة التي ينتمون إليها ويتآزرون بها.

أخرج الترمذي والحاكم والطبراني مرفوعاً: «يقول الله تبارك وتعالى: وعزتي لا ينال رحمتي من لم يوال أوليائي، ويعاد أعدائي» . وأخرج أحمد وغيره عن البراء بن عازب مرفوعاً: «أوثق الإيمان: الحب في الله، والبغض في الله» .

وأخرج الديلمي من طريق الحسن عن معاذ قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم لا تجعل لفاجر- وفي رواية: ولا لفاسق- علي يداً ولا نعمة، فيودّه قلبي، فإني وجدت فيما أوحيتَ إلي: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ » .

ثم بيَّن الله تعالى سبب الامتناع من موادّة الأعداء وجزاء الممتنعين، فقال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ

جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي أولئك الذين لا يوادّون من حادّ الله تعالى ورسوله ﷺ أثبت الله الإيمان الصحيح في قلوبهم، وقواهم بنصر منه على عدوهم في الدنيا، وسمي نصره لهم روحاً؛ لأنه به يحيا أمرهم، ويدخلهم الجنان التي تجري الأنهار من تحت قصورها وأشجارها، ماكثين فيها على الأبد، وقد قبل أعمالهم، وأفاض عليهم آثار رحمته العاجلة والآجلة، وفرحوا بما أعطاهم عاجلاً وآجلاً.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي أولئك أنصار الله وجنده الذين يمتثلون أوامره، ويقاتلون أعداءه، وينصرون أولياءه، ألا إن هؤلاء الأنصار هم الفائزون بسعادة الدنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي من الموضوعات الأربعة:

١ً- إن الكفار المعاندين الذين يشاقون الله تعالى ورسوله ﷺ، ويعادون شرع ربهم، وسنة رسولهم، من جملة الأذلاّء، فلا أذلّ منهم.

٢ً- قضى الله وحكم في اللوح المحفوظ أنه سيغلب أعداءه بالحجة والسيف ونحوهما، فمن تهيأ للحرب غلب بالحرب، ومن استعد للحجة والبيان غلب بالحجة.

٣ً- لا يجتمع الإيمان الحق مع وداد أعداء الله؛ لأن من أحب أحداً، امتنع أن يحب مع ذلك عدوه، حتى ولو كان الأعداء من الأقربين، ومن أنعم الله عليه بنعمة الإيمان العظمى، كيف يمكن أن يحصل في قلبه مودة أعداء الله؟!

٤ً- وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين المجتنبين مصادقة الأعداء بأن الله غرس الإيمان في قلوبهم، وأيدهم بنصر من عنده، ثم بيَّن جزاءهم الأخروي وهو دخول الجنان مع الخلود فيها، والحظوة برضوان الله وثوابه، والفرح بما

أمدهم الله به من النعم في الدنيا والآخرة من نصر ورزق وخير، ونور وإيمان وبرهان وهدى، وجنان، ثم وصفهم الله بأنهم حزب الله الغالب، وحزب الله هم المفلحون الفائزون، وهذا المعنى الأخير بيان لاختصاص هؤلاء بسعادة الدنيا والآخرة.

والخلاصة: ذكر الله أربع نعم على من ترك موادة الأعداء وهي:

أولاً- إثبات الإيمان في قلوبهم.

ثانياً- تأييدهم بروح من عند الله، أي بنصرهم على عدوهم، وبروح من الإيمان.

ثالثاً- إدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها.

رابعاً- ينعمون بنعمة الرضوان، ويفرحون بما أعطاهم الله تعالى.

وذكر الله تعالى أيضاً أربعة أمور توجب ترك المودة وهي:

أولاً- إن الإيمان ومودة الأعداء لا يجتمعان في القلب.

ثانياً- نفورهم من موادة الأعداء، ولو كانوا من الأقربين: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾ إلخ.

ثالثاً- إنه تعالى عدَّد نعمه على المؤمنين، وهي توجب ترك مودة أعداء الله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ إلخ.

رابعاً- وصفهم بأنهم حزب الله الغالب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحشر

مدنية، وهي أربع وعشرون آية

تسميتها:

سميت سورة الحشر؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ أي الحشر الأول وهو الجمع الأول الذي حشروا فيه وأخرجوا في عهد النبوة من المدينة إلى بلاد الشام، والحشر الثاني: إجلاؤهم وإخراجهم في عهد عمر من خيبر إلى الشام.

وتسمى أيضاً سورة بني النضير، لا شتمالها على قصة إجلاء يهود بني النضير، في غزوة بني النضير، وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع النبيﷺ، فأجلاهم عن المدينة المنورة.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة:

أً- ذكر في السورة السابقة من حادّ الله تعالى ورسولهﷺ، ومن قَتَل من الصحابة أقرباءه يوم بدر، وفي أول هذه السورة ذكر من شاقّ الله تعالى ورسوله ﷺ، وما جرى بعد غزوة بني النضير من إجلاء اليهود، وقد حدثت الغزوة بعد بدر.

٢- أخبر الله في آخر السابقة عن نصر الرسل: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ وأفاد في أول هذه إنجاز النصر على اليهود: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

٣- كشف الله في السورة المتقدمة حال المنافقين واليهود وموادة بعضهم بعضاً، وذكر في هذه السورة ما حلّ بيهود بني النضير.

ما اشتملت عليه السورة:

سورة الحشر كسائر السور المدنية عنيت بالأحكام التشريعية، مثل إجلاء يهود بني النضير من المدينة، وأحكام الفيء والغنائم، والأمر بالتقوى. كما أن فيها تحليلاً لعلاقة المنافقين باليهود، وبيان عظمة القرآن، وإيراد بعض أسماء الله الحسنى.

افتتحت السورة بتنزيه الله نفسه عن كل نقص وتمجيده من جميع ما في الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وشهادتهم بوحدانيته وقدرته، والنطق بعظمته.

وأردفت ذلك بالإشارة بالنصر على أعداء الله تعالى والرسول ﷺ، وإجلاء يهود بني النضير من المدينة المنورة، وتهديم قلاعهم وحصونهم.

ثم أبانت حكم الفيء وهو الأراضي والدور والأموال الآيلة من العدو للمسلمين من غير قتال، ببيان مصارفه وتوزيعه على مختلف فئات المسلمين، وحكمة ذلك التوزيع.

وفي أثناء آيات الفيء امتدح الله تعالى مواقف المهاجرين، وأشاد بمآثر الأنصار، وانتدب الذين جاؤوا من بعدهم للثناء على من سبقهم والدعاء لهم بالمغفرة.

وقارن ذلك بعلاقة المنافقين باليهود، وتحالفهم على الباطل، وكشف أخلاق الفريقين، ومنها خذلان المنافقين من يحالفونهم وقت الأزمة، وجبن اليهود وخوفهم من مواجهة المؤمنين، وتشبيه المنافقين بالشيطان الذي يغري الإنسان بالسوء والضلال، ثم يتخلى عنه في الوقت العصيب.

ثم أمر الله المؤمنين بالتقوى، والاستعداد ليوم القيامة وما فيه من أهوال جسام، والاعتبار بأحوال الماضين، وتذكر الفرق العظيم بين أهل الجنة وأهل النار، ومصير السعداء والأشقياء في دار الخلود.

وختمت السورة ببيان عظمة القرآن الكريم، وعظمة من أنزله واتصافه بأوصاف الجلال، وتسميته بالأسماء الحسنى.

سبب نزول السورة:

روى سعيد بن منصور والبخاري ومسلم عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر؟ قال: أنزلت في بني النضير، وفي رواية: سورة بني النضير.

وقال ابن عباس ومجاهد والزهري وغير واحد: كان رسول الله ﷺ، لما قدم المدينة، هادنهم وأعطاهم عهداً وذِمّة على ألا يقاتلهم ولا يقاتلوه، فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه، فأحلّ الله بهم بأسه، الذي لا مرد له، وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصدّ، فأجلاهم النّبي ﷺ، وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون، وظنوا هم أنها مانعتهم من بأس الله، فما أغنى عنهم من الله شيئاً، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم، وسيَّرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذْرِعَات من أعالي الشام، وهي أرض المحشر والمنشر، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم، فكانوا يخربون ما في بيوتهم من المنقولات التي لا يمكن أن تحمل معهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ يُخْرِبُونَ

بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله تعالى، وخالف رسوله ﷺ، وكذب كتابه، كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره في الآخرة من العذاب الأليم[١].

فضل السورة:

أخرج الثعالبي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، لم يبق شيء من الجنة والنار والعرش والكرسي والسماوات والأرض والهوامّ والريح والسحاب والطير والدوابّ والشجر والجبال والشمس والقمر والملائكة إلا صلّوا عليه، واستغفروا له، فإن مات من يومه أو ليلته، مات شهيداً» .

وأخرج الثعالبي أيضاً عن يزيد الرقاشي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « من قرأ آخر سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ - إلى آخرها - فمات من ليلته، مات شهيداً » [٢].

وأخرج أحمد والترمذي عن مَعْقِل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال حين يُصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكّل الله به سبعين ألف مَلك يصلّون عليه حتى يُمسيَ، وإن مات في يومه، مات شهيداً، ومن قرأها حين يمسي، فكذلك» قال الترمذي: حديث حسن غريب.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٣٠

(٢) تفسير القرطبي: ١٨/ ١

إجلاء يهود بني النضير

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾

القراءات:

﴿قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ : قرئ:

١- (قلوبهِم الرُّعْب) وهي قراءة أبي عمرو.

٢- (قلوبهِمُ الرُّعُب) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (قلوبهُمُ الرُّعُب) وهي قراءة الكسائي.

٤- (قلوبهُمُ الرُّعْب) وهي قراءة حمزة وخلف.

٥- (قلوبهِمُ الرُّعْب) وهي قراءة الباقين.

﴿يُخْرِبُونَ﴾ :

وقرأ أبو عمرو (يُخَرِّبون).

﴿بُيُوتَهُم﴾ :

قرأ قالون، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وابن كثير: بكسر الباء، وقرأ الباقون بضمها.

الإعراب:

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ في الجملة فعل الظن مكرر، وإنما أتى بـ (أن) الخفيفة والثقيلة بعد الظن؛ لأن الظن يتردد بين الشك واليقين، فتارة يحمل على الشك، فيؤتى بالخفيفة، وتارة يحمل على اليقين، فيؤتى بالثقيلة. و﴿حُصُونُهُم﴾: مرفوعة باسم الفاعل: ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ لأن اسم الفاعل جرى خبراً لـ (أنَّ) فوجب أن يُرفع ما بعده.

البلاغة:

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ بين ﴿مَا ظَنَنتُمْ﴾ و﴿وَظَنُّوا﴾ ما يسمى بطباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ نزهه وقدسه، ولام ﴿لِلَّهِ﴾ مزيدة. ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ﴾ أتى بـ ﴿مَا﴾ تغليباً للأكثر. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب في ملكه. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه، يضع الأشياء في موضعها المناسب لها.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يهود بني النَّضير، وهم إحدى قبائل اليهود الثلاث الكبرى في المدينة بجوار بني قريظة وبني قينقاع. ﴿مِن دِيَارِهِمْ﴾ مساكنهم في المدينة. ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ﴾ أي عند الحشر الأول أو أول حشرهم، والحشر الأول: الجمع والإخراج والجلاء من المدينة ونفيهم إلى بلاد الشام، والحشر الآخر: إجلاء عمر إياهم في خلافته من خيبر إلى الشام. ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ﴾ ما ظننتم أيها المؤمنون خروجهم؛ لشدة بأسهم ومنعتهم. ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي وتأكدوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله وعذابه،

والحصون: القصور الشاهقة والقلاع المشيدة، جمع حصن. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي جاءهم عذابه وأمره. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ من حيث لم يخطر لهم ببال؛ لقوة وثوقهم بأنفسهم.

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ ﴿وَقَذَفَ﴾: ألقى بقوة، والمراد هنا: أثبت فيها الخوف الذي يرعبها، أي يملؤها رعباً بقتل سيدهم كعب بن الأشرف. ﴿يُخْرِبُونَ﴾ وقرئ: (يخرِّبون) أي يهدمون، والغاية من الهدم: نقل ما استحسنوا منها من خشب وغيره، ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟﴾ فاتعظوا بحالهم، أو فانظروا في حقائق الأشياء ما تدل عليه من دلالة وعبرة. واستدل به على أن القياس حجة من حيث إنه أمر بالمجاوزة من حال إلى حال، وحملها عليها في حكم، لما بينها من العلة المشتركة المتقضية التساوي في الحكم.

﴿كَتَبَ﴾ قضى. ﴿ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروج الجماعي من الوطن مع الأهل والولد، أما الإخراج فيكون لواحد وجماعة، ومع بقاء الأهل والولد. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والسبي، كما فعل ببني قريظة. ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ كلام مستأنف معناه أنهم إن نجوا من عذاب الدنيا، لم ينجوا من عذاب الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور الذي حاق بهم. ﴿شَآقُّوا۟﴾ خالفوا وعادوا، حتى كأنهم في شق، ومن عادوه في شق آخر. ﴿لِّينَةٍ﴾ نخلة مطلقاً أو النخلة الكريمة، وجمعها أليان. ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فبأمره. ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ علة لمحذوف، أي وفعلتم، أو: وأذن لكم في القطع ليخزيهم على فسقهم بما غاظهم من العدو. واستدل به على جواز هدم ديار الكفار وقطع أشجارهم زيادة لغيظهم.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: أخرج البخاري عن ابن عباس قال: سورة الأنفال نزلت في بدر، وسورة الحشر نزلت في بني النضير.

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: كانت غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر، وكان منزلهم ونخلهم في ناحية المدينة، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلّت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحَلْقة وهي السلاح، فأنزل الله فيهم: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾.

وروي أنه ﷺ، لما قدم المدينة، صالح بني النضير على ألا يكونوا له ولا عليه، فلما ظهر على المشركين يوم بدر، قالوا: إنه النبي المبعوث- في التورية بالنصرة- فلما هزم المسلمون يوم أحد، ارتابوا ونكثوا، وخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكباً إلى مكة، وحالفوا أبا سفيان، فأمر رسول الله ﷺ محمد بن مِسْلمة أخا كعب من الرضاعة، فقتله غيلة، ثم صبَّحهم بالكتائب، وحاصرهم، حتى صالحوه على الجلاء، فجلا أكثرهم إلى الشام، ولحقت طائفة بخيبر والحيرة، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

ويوضح ذلك ما قاله المفسرون: نزلت هذه الآية في بني النضير، وذلك أن النّبي ﷺ لما قدم المدينة، صالحه بنو النضير على ألا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه، وقَبِل رسول الله ﷺ ذلك منهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً، وظهر على المشركين، قالت بنو النضير: والله، إنه النّبي الذي وجدنا نعته في التوراة، لا تردّ له راية، فلما غزا أحداً، وهزم المسلمون، نقضوا العهد، وأظهروا العداوة لرسول الله ﷺ والمؤمنين، فحاصرهم رسول الله ﷺ، ثم صالحهم على الجلاء من المدينة[1]. وكان خروج النبي ﷺ إليهم في ربيع الأول السنة الرابعة من الهجرة.

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٣٦

نزول الآية (٥):

﴿مَا قَطَعْتُم﴾ : أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ حرّق بني النضير، وقطعَ وَدِيّ[1] البويرة، فأنزل الله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الآية.

وأخرج ابن إسحاق عن يزيد بن رُومان قال: لما نزل رسول الله ﷺ ببني النضير، تحصنوا منه في الحصون، فأمر بقطع النخل والتحريق فيها، فنادوه يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه، فما بال قطع النخل وتحريقها، فنزلت. وأخرج ابن جرير عن قتادة ومجاهد مثله.

التفسير والبيان:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ إن جميع ما في السماوات والأرض من الأشياء ينّزه الله عن كل نقص، ويمجده ويقدسه، ويصلي له، ويوحده، إما تصريحاً باللسان، وإما بالقلب، وإما بلسان الحال والمقال، إذعاناً لعظمته، وانقياداً وخضوعاً لجلاله، وهو المنيع الجناب القوي الغالب القاهر في ملكه، الحكيم في صنعه وقدَره وشرعه، يضع الأشياء في موضعها الصحيح، وإن لم يدرك الإنسان في الحال حكمة الله وتدبيره.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٧/٤٤] .

ومن مظاهر قدرة الله تعالى وحكمته ما قال سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي

(١) الوَديّ بوزن فعيل: صغار الفسيل، والواحدة: ودية.

إنه سبحانه هو الذي قضى بإخراج يهود بني النضير من ديارهم في المدينة، في الحشر الأول، أي الجمع والإخراج والجلاء، فكان جلاؤهم أول حشر من المدينة، وآخر حشر إجلاء عمر لهم من خيبر إلى الشام.

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي ما توقعتم أيها المسلمون أن بني النضير يخرجون من ديارهم؛ لعزتهم ومنعتهم، وكانوا أهل حصون مانعة، وعقار ونخيل واسعة، وأهل عدد وعدة، وفي هذا بيان عظمة النعمة، وتوقعوا أن حصونهم تمنعهم من بأس الله، وألا يتعرضوا لسوء.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ أي جاءهم أمر الله وبأسه وعقابه من جهة لم تخطر لهم ببال، وهو أنه سبحانه أمر نبيه ﷺ بقتالهم وإجلائهم، وكانوا لا يظنون مثل هذا الحدث، بل كانوا يرون أنفسهم أعزّ وأقوى، وألقى الله الخوف الذي يملأ الصدر، قال ﷺ فيما أخرجه الشيخان والنسائي عن جابر: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر».

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لما أيقنوا بالجلاء، دمّروا منازلهم من الداخل لكيلا يستفيد منها المسلمون، ودمرها المؤمنون من الخارج، قال الزهري وعروة بن الزبير: لما صالحهم النبي ﷺ على أن لهم ما أقلّت الإبل، كانوا يستحسنون الخشبة أو العمود، فيهدمون بيوتهم، ويحملون ذلك على إبلهم ويخرب المؤمنون باقيها.

﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فاتعظوا أيها العقلاء بما حدث، واعلموا أن الله يفعل مثل ذلك بمن غدر وخالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾﴾ أي ولولا أن قضى الله عليهم بالخروج والجلاء من أوطانهم على هذا النحو المهين، لعذبهم بالقتل والسبي في الدنيا، كما فعل ببني قريظة سنة

خمس للهجرة، بعد غزوة الخندق، وكما فعل مع المشركين يوم بدر في السنة الثانية، ومع يهود قينقاع وإجلائهم عن المدينة عقب معركة بدر، ولهم في القيامة عذاب شديد في جهنم.

أما سبب إجلائهم في التاريخ، فهو أن النّبي ﷺ خرج مع عشرة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر وعلي، إلى بني النضير يسألهم المعونة في دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين خطأ، وهما من بني عامر حلفائهم، فقد كان بين بني النضير وبني عامر عقد وحلف. فوعدوا خيراً في الظاهر، وأضمروا الغدر والاغتيال، وكان رسول ﷺ قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم، فتآمروا على قتله على يد عمرو بن جِحَاش بن كعب اليهودي، بإلقاء صخرة عليه من فوق السطح، مكان جلوسه بجوار الجدار.

فأطلعه الله تعالى بالوحي على مؤامرتهم، فقام ورجع إلى المدينة، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم وإجلائهم من المدينة، وعاد إليهم في شهر ربيع الأول سنة أربع للهجرة، فحاصرهم ست ليال، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فقبل. ثم خرج بعضهم إلى خيبر، وبعضهم إلى الشام.

وفي أثناء الحصار أمر النبي ﷺ بقطع نخلهم وإحراقه، حتى لا يبقى لهم تعلق بأموالهم، ونادوا يا محمد: قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيب من يصنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها؟! فنزل قوله تعالى كما تقدم: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الآية.

وهنا أبان الله تعالى سبب جلائهم قائلاً:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك وهو الطرد والجلاء، وتسليط المؤمنين عليهم، لأنهم

خالفوا الله تعالى ورسوله ﷺ، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين، من البشارة بمحمد ﷺ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

ومن يعادي الله تعالى ورسوله ﷺ بعدم الطاعة، والميل مع الكفار، ونقض العهد، فإن الله يعاقبه أشد العقاب، ويعذبه في الدنيا والآخرة.

ثم عذر الله تعالى المؤمنين فيما أقدموا عليه مما تقضي به الضرورة الحربية، فقال: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ أي إن ما قمتم به من قطع النخيل وإحراقه، أو تركه **قائماً** دون قطع، فهو بأمر الله ومشيئته، وقد أذن بذلك ليعز المؤمنين، وليذل الخارجين عن الطاعة، وهم اليهود، ويغيظهم في القطع والترك، فإنهم إذا رأوا المؤمنين يفعلون في أموالهم ما شاؤوا، ازدادوا غيظاً وحنقاً. واللينة: أنواع التمر سوى العجوة.

والنخيل الذي قطع وأحرق هو البويرة؛ لأن رسول الله ﷺ لما حاصرهم، أمر بقطع نخيلهم، إهانةً لهم، وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم. وقد تمّ قطع النخل بأمر الله ومشيئته، ولإذلال اليهود الذين كفروا بالله ورسوله ﷺ وكتبه.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستدل بالآيات على ما يأتي:

١ً- أن تسبيح الله وتنزيهه عن كل ما لا يليق به هو شأن جميع المخلوقات في السماوات والأرض، نباتاً وحيواناً وجماداً، وملكاً وكوكباً، إما بلسان الحال أو بلسان المقال، اعترافاً بوجود الله ووحدانيته وقدرته وعظمته.

٢ً- تعرض اليهود في العصر الإسلامي الأول بأمر الله لحشرين في الدنيا، والحشر: الجمع والإخراج والجلاء، والحشر الأول من المدينة إلى الشام، والحشر الآخر: إجلاء عمر رضي الله عنه إياهم من خيبر إلى الشام، بكفرهم ونقضهم العهد. ولهم حشر في الآخرة كبقية الناس للحساب والجزاء.

٣ً- كان إجلاء اليهود من المدينة ومن خيبر أمراً غير متوقع من الناس؛ لقوتهم ومنَعتهم وتحصنهم في حصونهم واجتماع كلمتهم، فأتاهم أمر الله وعذابه من حيث لم يظنوا، وألقى الله الرعب والخوف في قلوبهم بقتل سيدهم كعب بن الأشرف، والذي قتله محمد بن مِسْلمة، وأبو نائلة سِلْكان بن سلامة بن وَقْش، أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة، وعَبَّاد بن بشر بن وَقْش، والحارث بن أوْس بن معاذ، وأبو عَبْس بن جبر.

وكانوا يخربون بيوتهم لئلا يسكنها المسلمون بعدهم، وأتم المؤمنون تخريبها؛ لمحو آثارهم وتصفية وجودهم من الجزيرة العربية.

وفي ذلك نصر لرسول الله ﷺ وتشريف له، وإعزاز لمكانة المسلمين، وإذلال لليهود الذين عاثوا الفساد في الأرض.

٤ً- إن في إجلاء اليهود على هذا النحو عبرة وعظة، يتعظ بها أولو الألباب وأصحاب العقول، جاء في الأمثال الصحيحة: «السعيدُ: من وُعظ بغيره» .

٥ً- تمسك علماء أصول الفقه بآية: ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ على أن القياس حجة؛ لأن الله تعالى أمر فيها بالاعتبار وهو العبور والانتقال من الشيء إلى غيره، وذلك متحقق في القياس؛ إذ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع.

٦ً- استدل العلماء بالآية: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ إلخ على جواز هدم ديار الكفار الأعداء، وقطع أشجارهم، وإحراق زروعهم في أثناء الحرب، للضرورة الحربية، فلا بأس من الهدم والحرق والتغريق والرمي بالمجانيق، وقطع الأشجار، مثمرة كانت أو غير مثمرة. ثبت في صحيح مسلم وغيره عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع نخل بني النضير وحَرَّق. وهذا هو الرأي الصحيح، ويرى الشافعية أنه إن علم المسلمون أن ذلك لهم لم يفعلوا، وإن ييأسوا فعلوا.

٧ً- قال الكِيَا الطبري: ومصالحة أهل الحرب على الجلاء من ديارهم من غير شيء لا يجوز الآن، وإنما كان ذلك في أول الإسلام ثم نسخ، والآن فلا بد من قتالهم أو سَبْيهم أو ضرب الجزية عليهم. وهذا محل نظر في تقديري.

٨ً- كان قضاء الله تعالى بجلاء يهود بني النضير من المدينة وخيبر رحمة بهم، ولولا ذلك لعذبهم الله في الدنيا بالقتل والسَّبْي، كما فعل ببني قُرَيظة. والجلاء: مفارقة الوطن، والفرق بين الجلاء والإخراج وإن كان معناهما لغة واحداً من وجهين كما ذكر القرطبي:

أحدهما- أن الجلاء: ما كان مع الأهل والولد، والإخراج قد يكون مع بقاء الأهل والولد.

الثاني- أن الجلاء لا يكون إلا لجماعة، والإخراج يكون لواحد ولجماعة.

٩ً- إن سبب ذلك التخريب والجلاء هو مشاقة الله تعالى ورسوله ﷺ، أي معاداة الله تعالى والرسول ﷺ، ومخالفة أمر الله، ثم عمم الله الإنذار، فقال بقصد الزجر: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾

١٠ً- كان خروج النبي ﷺ إلى يهود بني النضير في ربيع الأول أوّل السنة الرابعة من الهجرة، وتحصنوا منه بالحصون، وأمر بقطع النخل وإحراقها، وحينئذٍ نزل تحريم الخمر. ودسّ عبد الله بن أُبيّ بن سَلُول ومن معه من المنافقين إلى بني النضير: إنّا معكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فاغترّوا بذلك.

ولما لزم الأمر واقتضت الحرب معاونتهم خذلوهم وأسلموهم، وسألوا رسول الله ﷺ أن يكفّ عن دمائهم ويُجْليهم؛ على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فاحتملوا ذلك إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

١١- قال الماوردي في آية: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾: إن في هذه الآية دليلاً على أن كل مجتهد مصيب؛ لأن بعض الناس كان يقطع، وبعضهم لا يقطع، فصوّب الله الفريقين. والحق أن المصيب في الاجتهاد واحد، وغيره مخطئ لا إثم عليه، كما أن الآية ليست من محل النزاع؛ لأن اجتهاد الصحابة في عهد النبي ﷺ لا تأثير له، قال ابن العربي معلقاً على قول الماوردي: وهذا باطل؛ لأن رسول الله ﷺ كان معهم، ولا اجتهاد مع رسول الله ﷺ، وإنما يدل على اجتهاد النّبي ﷺ فيما لم ينزل عليه؛ أخذاً بعموم الأذيّة للكفار، ودخولاً في الإذن للكل بما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾[(1)]

حكم الفيء

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٧٥٧

القراءات:

﴿رَءُوفٌ﴾: قرئ:

١- (رؤف) وهي قراءة حمزة، والكسائي، وأبي عمرو، وخلف.

٢- (رؤوف) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الجملة حال.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: في موضع جر؛ لأنه معطوف على قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾. و﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾: منصوب بتقدير فعل، وتقديره: وقبلوا الإيمان. و﴿يُحِبُّونَ﴾: جملة فعلية في موضع نصب على الحال من (الذين). ويجوز أن يكون ﴿يُحِبُّونَ﴾ في موضع رفع، على أن يجعل (الذين) مبتدأ، و﴿يُحِبُّونَ﴾ خبره.

البلاغة:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ و﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ بينهما ما يسمى بالمقابلة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الضمير ﴿هُمُ﴾ بين المبتدأ والخبر لإفادة الحصر.

﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ استعارة، شبه الإيمان المستقر في نفوسهم بمنزل للإنسان نزل فيه وتمكن منه.

المفردات اللغوية:

﴿وَمَآ أَفَآءَ﴾ رد وأعاد، أي صيَّره إليه، والفيء شرعاً: ما أخذ من أموال الكفار من غير حرب ولا قتال، أو بلا إيجاف خيل ولا ركاب أو صلحاً

كأموال بني النضير، أما الغنيمة: فهي ما أخذ بحرب وقتال، ورأى بعضهم أن الفيء: العقارات، والغنيمة: المنقولات. ﴿مِنْهُمْ﴾ من بني النضير أو من الكفرة أو أهل الكتاب المذكورين في أول السورة. ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أسرعتم أيها المسلمون، من الوجيف: وهو سرعة السير. ﴿مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة، والركاب: ما يركب من الإبل، والمراد: أنكم لم تبذلوا في تحصيله مشقة، ولم تقاسوا فيه شدة. ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بإلقاء الرعب في قلوبهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ الله القادر على ما يريد، تارة بواسطة، وتارة بغير واسطة، بحرب أو بغير حرب.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بيان للأول، أي من أهل البلدان المفتوحة بلا قتال، كالصفراء ووادي القرى وينبع. ﴿فَلِلَّهِ﴾ الأمر فيه لله يأمر فيه بما يشاء، قيل: تكون قسمة الغنائم أسداساً، ويصرف سهم الله في عمارة الكعبة وسائر المساجد، وقيل: يخمّس، وذكر الله للتعظيم، ويصرف الآن سهم الرسول ﷺ إلى الإمام أو إلى الجيش، أو في مصالح المسلمين.

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صاحب قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب. ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ أطفال المسلمين الذين فقدوا آباءهم، وهم فقراء. ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ ذوي الحاجة من المسلمين. ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المنقطع في سفره من المسلمين. ﴿كَىْ لَا يَكُونَ﴾ أي لئلا يكون الفيء، أو المال، وهو علة لقسمه على النحو المذكور. ﴿دُولَةًۢ﴾ بالضم: متداولاً، فالدُولة: ما يتداول من المال، والدَّوْلة بالفتح: ما ينتقل من الحال. ﴿ءَاتَىٰكُمُ﴾ أعطاكم. ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ ما منعكم عنه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة رسوله ﷺ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالف.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ﴾ بدل من قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وما عطف عليه، فإن الرسول ﷺ لا يسمى فقيراً، والمهاجرون: هم الذين هاجروا في صدر الإسلام من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة. ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾

﴿وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الجملة حال مقيدة لصفة إخراجهم بما يوجب تفخيم شأنهم. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ ينصرون دينه بأنفسهم وأموالهم. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾الذين صدقوا في إيمانهم وجهادهم.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي والذين سكنوا المدينة ولزموها، ولزموا الإيمان وألفوه وتمكنوا فيه، والمراد بالدار: دار الهجرة، وهم الأنصار. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبل هجرة المهاجرين. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ في أنفسهم. ﴿حَاجَةً﴾ أي شيئاً نفسياً كالحزازة والحسد والغيظ. ﴿مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ مما أعطي المهاجرون من الفيء وغيره دون الأنصار. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ويقدمون المهاجرين على أنفسهم، من الإيثار: وهو تقديم مصلحة الغير على النفس في أعراض الدنيا. ﴿خَصَاصَةٌ﴾ حاجة إلى ما يؤثرون به، من خصاص البناء: فُرْجته. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ أي ومن يمنع ويحمى من بخل نفسه، وهو حب المال وبغض الإنفاق، والشح: بخل مع حرص. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالثناء العاجل والثواب الآجل.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد المهاجرين والأنصار، وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة، فلذلك قيل: إن الآية قد استوعبت جميع المؤمنين. ﴿غِلًّا﴾ حقداً وحسداً لهم. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بالغ الرأفة والرحمة، فحقيق بأن تجيب دعاءنا.

سبب النزول:

نزول الآية (٩):

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾: أخرج ابن المنذر عن زيد الأصم: أن الأنصار قالوا: يا رسول الله، اقسم بيننا وبين إخواننا المهاجرين الأرض نصفين قال: لا،

ولكن تكفونهم المؤنة وتقاسمونهم الثمرة، والأرض أرضكم، قالوا: رضينا، فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾ الآية.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أصابني الجَهْد (الجوع والفاقة) فأرسل إلى نسائه، فلم يجد عندهن شيئاً، فقال: ألا رجلٍ يضيفه هذه الليلة يرحمه الله، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيف رسول الله ﷺ، لا تدخريه شيئاً، قالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ، فقال: لقد عجب الله، أوضحك من فلان وفلانة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

وأخرج مسدِّد في مسنده وابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي أن رجلاً من المسلمين، فذكر نحوه، وفيه: أن الرجل الذي أضاف: ثابت بن قيس بن شماس، فنزلت فيه هذه الآية.

وأخرج الواحدي عن عبد الله بن عمر قال: أهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس شاة، فقال: إن أخي فلاناً وعياله أحوج إلى هذا منا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث واحد إلى آخر، حتى تداولها أهل سبعة أبيات حتى رجعت إلى أولئك، فنزلت: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد بيان ما حل ببني النضير في الدنيا من تخريب بيوتهم، وتحريق نخيلهم وتقطيعها، ثم إجلائهم إلى الشام، ثم الإخبار عن عذابهم في الآخرة، ذكر الله تعالى حكم الأموال التي أخذت منهم، فهي فيء، ثم ذكر تعالى حكم الفيء

بصفة عامة، لبيان الفرق بين الغنيمة التي تؤخذ بقتال، والفيء الذي يؤخذ صلحاً بغير قتال.

وإنما أخذت أموال بني النضير بغير قتال يذكر، بالرغم من حصارهم؛ لأنه لم يكن للمسلمين يومئذ كثير خيل ولا ركاب، ولم يقطعوا إليها مسافة كثيرة، وإنما كانوا على ميلين من المدينة، فمشوا إليها مشياً، ولم يركب إلا رسول الله ﷺ، وكان راكباً جملاً، فلما كانت المقاتلة قليلة، ولم يكن خيل ولا ركاب، أجراه الله تعالى مجرى ما لم يحصل فيه قتالٌ أصلاً، وخص رسول الله ﷺ بتلك الأموال، فقسمها بين المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر كانت بهم حاجة، وهم أبو دُجانة، وسهل بن حُنَيف، والحارث ابن الصمّة.

التفسير والبيان:

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ أي ما ردّه الله تعالى على رسوله ﷺ وصيّره إليه من أموال الكفار بني النضير، فهو للرسول ﷺ؛ لأنه لم يحصل فيه قتال ولا حرب ولا تجشم مشقة، ولم تركبوا لتحصيله خيلاً ولا إبلاً، وإنما كانت من المدينة على ميلين، وافتتحت ديارهم صلحاً، وأخذت أموالهم بعد جلائهم عنها، ولذا لم تقسم بين الغانمين، وإنما جعل الله أموال بني النضير لرسوله ﷺ خاصة لهذا السبب، يصرفه على مصالحه كيف يشاء.

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كانت أموال بني النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ، مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب. فكانت لرسول الله

ﷺ خالصة، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته - أو قال: قوت سنته- وما بقي جعله في الكُراع[١] والسلاح عُدَّة في سبيل الله عز وجل» . وإنما قال: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ لأنه الطائع لربه فيما يأمره به، وجدير بالمال أن يكون للمطيعين.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي ولكن الله بقدرته يسلط رسله على من يشاء من أعدائه، كما سلط محمداً ﷺ على بني النضير، فأخذ أموالهم دون قتال، والله قادر على كل شيء، يفعل ما يشاء بمن يشاء، فإنه سبحانه هو الذي مكّن رسوله ﷺ من بني النضير.

ثم ذكر الله حكم الفيء، فصارت أموال الأعداء ثلاثة أنواع: الغنائم المنقولة المأخوذة قهراً التي توزع أخماساً بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١] والأموال المنقولة التي تؤخذ صلحاً بلا إيجاف خيل ولا ركاب، فهي للرسول ﷺ خاصة، يصرفها كيف شاء بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أموال الفيء العقارية التي توزع على المصالح العامة بعد الرسول ﷺ، بقوله تعالى هنا:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ في هذه الآية بيان مصارف الفيء بعد الرسول ﷺ، وهو أن كل ما ردّه الله على رسوله ﷺ من كفار أهل القرى، كقريظة والنضير وفَدَك وخيبر، صلحاً من غير قتال، ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، يحكم به الله بما يشاء، ثم يكون ملكاً للرسول ﷺ في حياته، وفي مصالح المسلمين من بعده، فينفق منه على قرابة النبي ﷺ وهم بنو هاشم وبنو المطلب الممنوعون من أخذ الصدقة أو الزكاة، فجعل لهم حقاً في الفيء.

(١) الكُراع: الخيل أو الدواب التي تصلح للحرب.

كما ينفق منه على اليتامى وهم الصغار الذين مات آباؤهم قبل البلوغ، والمساكين الفقراء ذوي الحاجة والبؤس، وأبناء السبيل المنقطعين في أثناء السفر، وهم الغرباء الذين نفدت نفقتهم في سفرهم.

فيكون الفيء مقسوماً خمسة أقسام: سهم الله تعالى والرسول ﷺ، وهو للرسول ﷺ في حياته، ثم يصرف على مصالح المسلمين بعد وفاته، وسهم ذوي القربى أقارب الرسول ﷺ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، وسهم اليتامى، وسهم المساكين، وسهم ابن السبيل، والأربعة أخماس الباقية لمصالح المسلمين العامة.

أما الغنيمة: فيصرف خمسها لهؤلاء الخمسة المذكورين في هذه الآية وآية الغنائم: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ والأربعة أخماس الباقية للمقاتلين الذين حضروا المعركة.

وعلة هذا التقسيم ما قال الله تعالى:

﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ أي حكمنا بهذه القسمة بين هؤلاء المذكورين، لئلا يكون تداول الأموال محصوراً بين الأغنياء، ولا يصيب الفقراء منه شيء، فيغلب الأغنياء الفقراء، ويقسمونه بينهم. وهذا مبدأ إغناء الجميع، وتحقيق السيولة للكل.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ أي ما أمركم به الرسول ﷺ فافعلوه، وما منعكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير، وإنما ينهى عن شر، فإذا أعطاكم الرسول ﷺ شيئاً من الفيء مثلاً، فخذوه، فهو حلال، وإذا منعكم شيئاً منه، فلا تقربوه، فإنه يعمل بالوحي ولا ينطق عن الهوى. والآية توجب امتثال أوامر الرسول ﷺ ونواهيه أيضاً.

ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمرتكم

بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» وأخرج أحمد والشيخان صاحبا الصحيحين أيضاً وأبو داود والترمذي عن ابن مسعود قال: «لعن الله تعالى الواشمات والمستوشمات، والمتنمِّصات، والمتفلجات للحسن[١]، المغيِّرات لخلق الله عز وجل» فبلغ ذلك امرأة من بني أسد في البيت، يقال لها أم يعقوب كانت تقرأ القرآن، فجاءت إليه، فقالت: بلغني أنك قلت كيت وكيت، فقال: مالي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ، وهو في كتاب الله تعالى، فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه، فما وجدته، فقال: لإن كنت قرأتيه، فقد وجدتيه أما قرأت: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾؟ قالت: بلى، قال: فإن رسول الله ﷺ نهى عنه».

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أي خافوا الله بامتثال أوامره، وترك زواجره ونواهيه، فإنه شديد العقاب لمن عصاه، وخالف أمره وأباه، وارتكب ما زجر عنه ونهاه، والآية تتناول كل ما يجب فيه التقوى، وتحث على امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

وبعد بيان مصارف الفيء، بيَّن الله تعالى حال الفقراء المستحقين له، فقال:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي إن هؤلاء الأصناف الأربعة (وهم ذوو القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل) هم فقراء المهاجرين والأنصار والتابعين. وفقراء المهاجرين: هم الذين اضطرهم كفار مكة إلى الخروج منها، وإلى ترك أموالهم وديارهم فيها، طلباً لمرضاة الله وفضله ورزقه في الدنيا،

---

(١) الوشم: غرز الإبرة في الجلد ثم حشوه بالكحل، والواشمة: فاعلة الوشم، والمستوشمة: طالبة الوشم، والمتنمصات جمع متنمصة: وهي التي تنتف الشعر من وجهها، والمتفلجات جمع متفلجة: وهي التي تتكلف التفريق بين أسنان الثنايا والرباعيات.

وثوابه ورضوانه في الآخرة، ونصرة الله تعالى ورسوله ﷺ بمجاهدة الكفار، وإعلاء كلمة الله ودينه، أي إن الخمس يصرف للمذكور في الآية: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وتكون الأخماس الأربعة الباقية للفقراء المهاجرين ومن جاء بعدهم[١].

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي هؤلاء المهاجرون هم الكاملون في الصدق، الراسخون فيه، الذين صدَّقوا قولهم بفعلهم، وقرنوا إيمانهم بالعمل المخلص.

ثم مدح الله تعالى الأنصار، وأبان فضلهم وشرفهم، وعدم حسدهم، وإيثارهم المهاجرين مع الحاجة، ورضاهم بإعطاء الفيء لهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي والذين سكنوا المدينة دار الهجرة، وتمكّن الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ في قلوبهم، قبل هجرة المهاجرين، وهم الأنصار، يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم، ولا يجدون في أنفسهم حسداً أو غيظاً أو حزازة للمهاجرين مما أوتي المهاجرون دونهم من الفيء، بل طابت أنفسهم بذلك، مع أنهم كانوا في دور الأنصار، وقدّموا المهاجرين على أنفسهم في حظوظ الدنيا، ولو كان بهم حاجة وفقر. ويلاحظ أن كل ما يجد الإنسان في صدره مما يحتاج إلى إزالته، فهو حاجة. والإيثار: هو تقديم الغير على النفس وحظوظها الدنيوية، والرغبة في الحظوظ الدينية.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي من كفاه الله حرص نفسه وبخلها، وحفظ من ذلك، فأدى ما أوجبه الشرع عليه في مال من زكاة أو حق، فقد فاز ونجح، وظفر بكل المنى والمطلوب.

---

(١) تفسير الألوسي: ٥٦/٢٨

أخرج الترمذي وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس بن مالك مرفوعاً:

«لايجتمع غبار في سبيل الله، ودخان نار جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الإيمان والشح في قلب عبد أبداً» وروي أيضاً عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يجتمع... » .

وأخرج أحمد ومسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظلم، فإن الظلم ظلُمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» .

وأخرج أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الفحش؛ فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش، وإياكم والشح، فإنه أهلك مَن كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجورففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا» .

والآية دليل على اتصاف الأنصار بصفات خمس: هي استيطانهم دار الهجرة مسبقاً وجعل الإيمان مستقراً ووطناً لهم، ومحبتهم إخوانهم المهاجرين، وترفعهم عن الجشع والطمع والحسد والحزازة، وإيثارهم المحتاجين على أنفسهم، ولو كان بهم حاجة، واتصافهم بالجود والبعد عن الشح، لذا وصفوا بأنهم المفلحون الظافرون بما أرادوا.

ثم وصف الله القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء، وهم التابعون بإحسان، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ أي والذين أتوا في الزمان من بعد المهاجرين والأنصار، وهم التابعون لهم بإحسان، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ٩/ ١٠٠] يقولون أي قائلين: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا السلف الصالح من المهاجرين والأنصار، وانزع من قلوبنا الغش والبغض والحسد للمؤمنين قاطبة، فإنك يا ربنا بالغ الرأفة كثير الرحمة، فاقبل دعاءنا.

والتابعون لهم بإحسان: هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة، الداعون لهم في السر والعلانية.

والآية دليل على تضامن وتكافل آخر الأمة وأولها وأجيالها، وعلى وجوب محبة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وتقدير إخوتهم في الدين والسبق إلى الإيمان، والحث على الدعاء لهم بخير، وعلى صفاء القلوب من أمراض الحقد والحسد لأي مؤمن.

قال الزهري: قال عمر رضي الله عنه: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾: هذه لرسول الله ﷺ خاصة؛ وقرى عُرَينة وكذا وكذا مما أفاء الله تعالى على رسوله ﷺ من أهل القرى، فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وللفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم، والذين جاؤوا من بعدهم، فاستوعبت هذه الآية الناس، فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق[1].

وروى ابن جرير عن مالك بن أوس بن الحَدَثان قال: قرأ عمر بن الخطاب: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ حتى بلغ ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٩/ ٦٠] ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم قرأ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الأنفال: ٨/ ٤١] ثم قال: هذه لهؤلاء، ثم

---

(١) رواه أبو داود، وفيه انقطاع.

قرأ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ حتى بلغ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ ثم قال: استوعبت هذه المسلمين عامة، وليس أحد إلا وله فيها حق، ثم قال: لئن عشت ليأتين الراعي، وهو بسرو حِمْيَر، نصيبُه فيها لم يعرق فيهاجبينه[1].

قال الرازي: واعلم أن هذه الآيات قد استوعبت جميع المؤمنين؛ لأنهم إما المهاجرون أو الأنصار، أو الذين جاؤوا من بعدهم. وبيَّن أن من شأن من جاء من بعد المهاجرين والأنصار أن يذكر السابقين، وهم المهاجرون والأنصار بالدعاء والرحمة، فمن لم يكن كذلك، بل ذكرهم بسوء، كان خارجاً من جملة أقسام المؤمنين بحسب نص هذه الآية[2].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى الأحكام التالية:

١- كانت أموال بني النضير ونحوها التي ردها الله تعالى على رسوله ﷺ من غير قتال ولا حرب ولا مشقة للنبي ﷺ خاصَّة يضعها حيث شاء، فقسمها النبي ﷺ بين المهاجرين لشدة حاجتهم. ولم يعط الأنصار منها شيئاً إلا ثلاثة نفر محتاجين؛ هم أبو دُجانة سِماك بن خَرَشة، وسهل بن حُنَيف، والحارث بن الصِّمَّة.

٢- أموال الفيء: هي - كما قال ابن عباس - قُرَيْظة والنضير، وهما بالمدينة، وفَدَك وهي على ثلاثة أيام من المدينة، وخَيْبر، وقرى عُرَيْنة، ويَنْبُع، جعلها الله تعالى لرسوله ﷺ.

(١) تفسير ابن كثير: ٤/٣٣٩ - ٣٤٠
(٢) تفسير الرازي: ٢٩/٢٨٨

٣- الأموال التي للدولة فيها حق التدخل ثلاثة أنواع: الأول - الصدقات والزكوات: وهي ما أخذ من المسلمين على طريق التطهير لهم. والثاني - الغنائم: وهي ما يحصل في أيدي المسلمين من أموال الكافرين بالحرب والقهر والغلبة. والثالث - الفيء: وهو ما رجع للمسلمين من أموال الكفار عفواً صفواً من غير قتال ولا إيجاف (إسراع) خيل ولا ركاب، كالصلح والجزية والخراج والعشور المأخوذة من تجار الكفار. ومثله أن يهرب المشركون ويتركوا أموالهم، أو يموت أحد منهم في دار الإسلام، ولا وارث له.

أما الزكاة (أو الصدقة) فتصرف إلى الفقراء والمساكين والعاملين عليها وهم الأصناف الثمانية المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ﴾ [التوبة: ٩/ ٦٠].

وأما الغنائم الحربية: فكانت في صدر الإسلام للنبي ﷺ يصنع فيها ما شاء كما قال في سورة الأنفال: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ فيكون الخمس لمن ذكر الله تعالى، والأربعة أخماس الباقية للغانمين.

وأما الفيء وهو العقار، فالأمر فيه عند المالكية للإمام، يفعل ما يراه مصلحة، من قسمته كالغنائم أو ترك قسمته وجعله لمصالح المسلمين العامة، كما فعل عمر بن الخطاب في سواد العراق ومصر وغيرهما، واحتج على الزبير وبلال وسلمان الفارسي وغيرهم الذين طالبوا بالقسمة بهذه الآية آية الفيء: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ وشاور علياً وجماعة من الصحابة في ذلك، فأشاروا عليه بترك القسمة وأن يقر أهلها (أهل أراضي العراق) ويضع عليها الخراج، ففعل ذلك، ووافقته الجماعة عند احتجاجه بالآية[1]. وتكون آية الحشر في رأي المالكية ناسخة في شأن

(١) أحكام القرآن للجصاص: ٣/ ٤٣٠

العقارات لآية الأنفال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾. وذكر أنه يقسم كل مال في البلد الذي جبي فيه، ولا ينقل عن ذلك البلد الذي جبي فيه حتى يغنوا، ثم ينقل إلى الأقرب من غيرهم، إلا أن ينزل بغير البلد الذي جبي فيه فاقة شديدة، فينقل إلى أهل الفاقة حيث كانوا، كما فعل عمر رضي الله عنه عام الرمادة.

وقال الحنفية: تقسم الغنائم- أي المنقولات- على النحو الذي ذكره الله في قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ الخمس لمن ذكرت الآية، والباقي للغانمين، وأما حكم الفيء أي الأرض فهو أن يكون لكافة المسلمين، ولا يخمس، بل يصرف جميعه في مصالح المسلمين. لكن الغنيمة تقسم على ثلاثة أسهم فقط: سهم اليتامى، وسهم المساكين، وسهم أبناء السبيل. وأما ذكر الله تعالى في الخمس فهو لافتتاح الكلام، تبركاً باسمه تعالى، وسهم النبي ﷺ سقط بموته، فالحنفية والمالكية يتركون الخيار للإمام في قسمة العقار، فهو مخير في قسمته أو جعلة وقفاً على مصالح المسلمين.

وتكون آية الحشر الثانية: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ بياناً لما أفاء الله على المسلمين من أموال سائر الكفار. روى مالك أن عمر قال: لولا من يأتي من آخر الناس ما فُتحت قرية إلا قسمتها كما قسم رسول الله ﷺ خيبر.

وذهب الشافعية إلى أن حكم الفيء والغنيمة واحد، فيخمس الفيء قياساً على الغنيمة التي ثبت التخميس فيها بالنص القرآني: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ بجامع أن كلّاً منهما مال الكفار استولى عليه المسلمون، وأما اختلاف سبب الاستيلاء بالقتال وغيره، فلا تأثير له، فعلى الإمام قسمة العقار، ومن طاب نفساً عن حقه، فللإمام أن يجعله وقفاً على المسلمين.

وتقسم الغنيمة في رأي الشافعية والحنابلة على خمسة أسهم، أولها- سهم المصالح (سهم الله تعالى ورسوله ﷺ) أي يصرف لمصالح المسلمين العامة كالثغور وقضاة البلاد وعلماء الشرع والأئمة والمؤذنين ولو أغنياء ونحوهم.

وثانيها - سهم ذوي القربى وهم بنو هاشم من أولاد فاطمة وغيرها، وثلاثة أسهم أخرى إلى ما نص الله عليهم.

٤ً- علة قسمة الفيء: إن تقسيم الفيء على النحو السابق كيلا يختص به الأغنياء، كما كانوا يستأثرون بالغنيمة، وكانوا يغترون به، وبذلك قضى الإسلام على الطبقية وتجمع الثروة في يد فئة قليلة، وحرمان الأكثرية من سيولة المال.

٥ً- قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ دليل واضح على وجوب امتثال جميع أوامر الرسول ﷺ، واجتناب جميع نواهيه، فإنه لا يأمر إلا بصلاح، ولا ينهى إلا عن فساد.

وقد استدل الصحابة كابن مسعود وغيره بتحريم أشياء عملاً بنهي النبي ﷺ عنها، كتحريم الوشم والتنمص (نتف شعر الوجه) وتفليج الأسنان، وجواز قتل الزُّنبور في الإحرام، اقتداء فيه بعمر الذي أمر النبي ﷺ بالاقتداء به في قوله: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر» وأمر الله سبحانه بقبول قول النبي ﷺ. ويؤكده قوله ﷺ - فيما يرويه ابن ماجه عن أبي هريرة-: «ما أمرتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فانتهوا».

وأمر الرسول ﷺ أمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٤/ ٨٠] وعن أبي رافع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا أُلْفِيَنَّ أحدَكم متكئاً على أريكته، يأتيه أمري مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدناه في كتاب الله اتبعناه»[1].

٦ً- دلَّ قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على وجوب اتقاء عذاب الله، فإنه شديد على من عصاه، وعلى وجوب تقوى الله في أوامره ونواهيه، فلا تضيّع، فإن الله شديد العقاب لمن خالف ما أمره به.

---

(١) أخرجه الإمامان الشافعي وأحمد، وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم.

٧ً- المقصود بأولئك الأصناف الأربعة الذين يصرف لهم الفيء: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هم هؤلاء الأصناف من الفقراء، وهم المهاجرون ثم الأنصار، ثم التابعون لهم بإحسان.

٨ً- وصف الله تعالى المهاجرين بأوصاف ستة: أولها- أنهم فقراء، وثانيها- أنهم مهاجرون، وثالثها- أنهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم، ورابعها- أنهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، والفضل: ثواب الجنة، والرضوان قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٩/٧٢] ، وخامسها - ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بأنفسهم وأموالهم، وسادسها - ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ في دينهم، لهجرهم لذات الدنيا، وتحملهم شدائدها.

وتمسك بعض العلماء بهذه الآية على إمامة أبي بكر رضي الله عنه، فقال: هؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار كانوا يقولون لأبي بكر: يا خليفة رسول الله، ومتى كان الأمر كذلك وجب الجزم بصحة إمامته.

٩ً- أثنى الله على الأنصار حين طابت أنفسهم عن الفيء، إذ أعطي للمهاجرين دونهم، ووصفهم أيضاً بأوصاف ستة: أولها - أنهم استوطنوا المدينة قبل وصول المهاجرين إليها، واعتقدوا الإيمان وأخلصوه، وثانيها- محبتهم الخالصة للمهاجرين، وثالثها- لا يحملون في نفوسهم حقداً ولا حسداً ولا حزازة بسبب ما أعطي المهاجرون من الفيء وغيره، ورابعها - إيثارهم غيرهم ولوكان بهم حاجة، وخامسها - وقاهم الله من مرض الشح، وسادسها - هم المفلحون الفائزون الظافرون بما أرادوا.

١٠ً- استدل الإمام مالك على تفضيل المدينة على غيرها من الآفاق بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية. وقال: إن المدينة تُبُوئت بالإيمان والهجرة، وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف.

١١- الأولى أن يقال: إن الآيات متعلقة بعضها ببعض، معطوف بعضها على بعض، فتكون آية: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ معطوفة على قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ وآية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي التابعون ومن دخل في الإسلام إلى يوم القيامة. قال ابن أبي ليلى: الناس على ثلاثة منازل: المهاجرون، والذين تبؤوا الدار والإيمان، والذين جاؤوا من بعدهم، فاجهد ألا تخرج من هذه المنازل.

١٢- آية: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ دليل على وجوب محبة الصحابة؛ لأنه تعالى جعل لمن بعدهم حظاً في الفيء ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم، وأن من سبَّهم أو سب واحداً منهم، أو اعتقد فيه شراً، فإنه لا حق له في الفيء.

١٣- آيات الحشر هذه في الفيء تدل على أن الصحيح من أقوال العلماء قسمة المنقول، وإبقاء العقار والأرض حقاً عاماً للمسلمين جميعاً أو وقفاً دائماً على مصالحهم، كما فعل عمر رضي الله عنه في سواد العراق ومصر والشام وغيرها من البلاد المفتوحة عَنْوة؛ لأن الله تعالى أخبر عن الفيء، وجعله لثلاث طوائف: المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان، فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ عامة في جميع التابعين والآتين بعدهم إلى يوم الدين. جاء في الحديث الصحيح عند مسلم وغيره: «أن النبي ﷺ خرج إلى المقبرة، فقال: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، ودِدت أن رأيت إخواننا، قالوا: يا رسول الله، ألسنا بإخوانك؟ فقال: بل أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعدُ، وأنا فَرَطهم على الحوض» أي متقدمهم حتى يردوا، فبين ﷺ أن إخوانهم كل من يأتي بعدهم.

١٤- دل قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ على أن المؤمنين المتأخرين مع مرور الأجيال مأمورون أن يستغفروا

للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار. قال العوَّام بن حَوْشَب: أدركت صدر هذه الأمة يقولون، اذكروا محاسن أصحاب رسول الله ﷺ حتى تألف عليهم القلوب، ولا تذكروا ما شَجَر بينهم، فتجسَّروا الناس عليهم.

أما من يلعن أو يسب بعض الصحابة فهو فاسق، بعيد عن أدب الإسلام وأخلاقه، وروح الدين وصفائه، متنكر لأهل الفضل والسبق، مبتدع ضال، فإن القرآن الكريم أمر بالاستغفار للصحابة، ونهى عن الحقد والحسد لجميع المؤمنين والمؤمنات. وإذا بلغ القدح ببعض الأصحاب أو أزواج النبي ﷺ ما يصادم نصاً قرآنياً أو حديثاً ثابتاً مقطوعاً به، أدى ذلك إلى الكفر، والعياذ بالله تعالى.

تواطؤ المنافقين واليهود وجزاؤهم

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

القراءات:

﴿جُدُرٍ﴾ :

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (جدار).

﴿بَأْسُهُم﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (باسهم).

﴿تَحْسَبُهُمْ﴾:

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وخلف: بكسر السين. وقرأ الباقون بفتحها.

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (إنيَ أخاف).

الإعراب:

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ لم يجزم ﴿يَخْرُجُونَ﴾ و﴿يُنصَرُونَ﴾ لأنهما جوابا قسمين قبلهما، وتقديره: والله لا يخرجون معهم ولا ينصرونهم، فلذلك لم ينجزما بحرف الشرط.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ﴿كَمَثَلِ﴾: جار ومجرور في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: مثلهم كمثل الذين من قبلهم. و﴿قَرِيبًا﴾ لا يبعد أن يتعلق بصلة ﴿ٱلَّذِينَ﴾. وكذلك ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ تقديره: مثلهم كمثل الشيطان إذ قال للإنسان: اكفر، فحذف المبتدأ.

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا﴾ ﴿عَٰقِبَتَهُمَآ﴾: منصوب لأنه خبر كان، و(أن) واسمها وخبرها في موضع رفع؛ لأن الجملة اسم(كان). و﴿خَٰلِدَيْنِ﴾ حال من المضمر في الظرف في قوله: ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ وتقديره: كائنان في النار خالدين فيها، وكرر﴿فِى﴾ تأكيداً كقولهم: زيد في الدار قائم فيها. ويجوز رفع ﴿خَٰلِدَيْنِ﴾ على خبر(أن).

البلاغة:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ استفهام يراد به الإنكار والتعجيب.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ بين﴿جَمِيعًا﴾ و﴿شَتَّىٰ﴾ طباق.

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾ تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنظر. ﴿نَافَقُوا﴾ أظهروا الإسلام وأخفوا الكفر. ﴿لِإِخْوَانِهِمُ﴾ المراد بذلك أخوّة الكفر، أو الصداقة والموالاة أي أصدقائهم. ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم بنو النضير وإخوانهم في الكفر. ﴿لَئِنْ﴾ اللام لام القسم في الحالات الأربع. ﴿أُخْرِجْتُمْ﴾ من المدينة. ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي لا نطيع أحداً من الرسول والمؤمنين في قتالكم، ولا نسمع أمر أحد في خذلانكم. ﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ﴾ حذف من (إنْ) اللام الموطئة للقسم. ﴿لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ لنعاوننكم. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لعلمه بأنهم لا يفعلون ذلك.

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ ثبت في التاريخ أنهم كانوا على هذا النحو، فإن ابن أبي وأصحابه المنافقين راسلوا بني النضير بذلك، ثم أخلفوهم. وفيه دليل على صحة النبوة وإعجاز القرآن. ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ﴾ جاؤوا لنصرهم على الفرض والتقدير. ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ ليفرُّن هاربين منهزمين. واستغني بجواب القسم المقدر عن جواب الشرط في المواضع الخمسة. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ بعد أي اليهود، بل نخذلهم، ولا ينفعهم نصرة المنافقين.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي إن المنافقين يخافونكم خوفاً أشد من خوفهم الله، وقوله: ﴿رَهْبَةً﴾ خوفاً، أي أشد مرهوبية،

وقوله: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ لتأكيد استقرار الخوف في نفوسهم، فإنهم كانوا يضمرون مخافتهم من المؤمنين. وقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لأنهم يظهرون النفاق مع أنه لا يخفى على الله تعالى، ولتأخير عذاب الله .﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون عظمة الله تعالى حتى يخشوه حق خشيته.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ أي اليهود .﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين .﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادق ﴿جُدُرٍۭ﴾ حيطان وأسوار، جمع جدار، وذلك لفرط رهبتهم. ﴿بَأْسُهُم﴾ حربهم، فإنه يشتد بأسهم إذا حارب بعضهم بعضاً، وليس ذلك لضعفهم وجبنهم، بل لقذف الله الرعب في قلوبهم .﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾تظنهم مجتمعين متفقين .﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقة لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم، جمع شتيت .﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه صلاحهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مثل اليهود، ولا سيما يهود بني النضير، كالمشركين الذين قتلوا وعذبوا في معركة بدر، أو المهلكين من الأمم الماضية. ﴿قَرِيبًا﴾ في زمان قريب .﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوء عاقبة كفرهم في الدنيا من القتل وغيره .﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذاب مؤلم في الآخرة .﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي مثل المنافقين في إغراء اليهود على القتال كمثل الشيطان .﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أغراه على الكفر إغراء الآمر المأمور .﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ تبرأ منه مخافة أن يشاركه في العذاب، ولم ينفعه ذلك. والمراد بالإنسان الجنس، فيشمل أبا جهل الذي قال له إبليس يوم بدر: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٤٨] .﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ كذباً منه ورياء .﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ﴾ أي الغاوي والمغوي .﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

سبب النزول:

نزول الآية (١١):

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ : أخرج ابن أبي حاتم عن السُّدِّي قال: أسلم ناس من أهل قريظة، وكان فيهم منافقون، وكانوا يقولون لأهل النضير: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾، فنزلت هذه الآية فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ﴾.

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عباس: أن الآية نزلت في عبد الله بن أبيّ ورفاعة بن زيد، وعبد الله بن نَبْتَل وهم من منافقي أهل المدينة كانوا بعثوا إلى بني النضير بما تضمنته الآيات.

المناسبة:

بعد بيان مصير يهود بني النضير، وحكم مصارف الفيء الذي يشمل أموال هؤلاء اليهود، ذكر الله تعالى أحوال العلاقات المشبوهة بين المنافقين واليهود، فقد كان المنافقون في الظاهر من الأنصار، ولكنهم كانوا يوالون اليهود في السر، فصاروا إخوانهم في الكفر، وأصدقاءهم في معاداة المؤمنين. ومثل هذا الارتباط يتكرر في كل زمان، حيث نجد ضعاف الإيمان والنفوس وخونة الأمة الإسلامية يوالون أعداءهم، كما يَعِدُ بعض الناس غيرهم على المؤازرة في شيء، ثم يتخلون عنهم وقت الأزمة.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي ألم تنظر إلى هؤلاء القوم من المنافقين كعبد الله بن أُبيّ بن سلول وعبد الله بن نَبْتَل ورفاعة بن زيد ووديعة بن مالك وسُوَيد وداعس وأمثالهم حين بعثوا إلى يهود بني النضير: أن اثبتوا وتحصنوا، أو تمنَّعوا، فإننا لا نُسْلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، ولا نطيع في شأنكم، ومن أجلكم أحداً ممن يريد أن يمنعنا من الخروج معكم كمحمد وأتباعه، وإن طال الزمان، وإن قوتلتم لننصرنكم على عدوكم. فكذبهم الله بقوله:

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾أي لكاذبون فيما وعدوهم به من الخروج معهم، والنصرة لهم، إما لنيتهم ألا يفوا بما وعدوا به، وإما لأنهم لا يقع منهم ما قالوا.

وقوله في مطلع الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أسلوب يراد به التعجيب من حال المخبر عنه، وأن أمره في غاية الغرابة. وقد تبين لليهود كذب المنافقين، فلم ينصروهم وقت الحصار، وقذف الله الرعب في قلوب أولئك اليهود، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم، ففعل، فكان الرجل منهم يهدم بيته، فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام.

ثم أكد الله تعالى تكذيبهم مفنداً على سبيل التفصيل مواقفهم الخادعة، فقال:

﴿لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي وتالله لئن أخرج يهود بني النضير من ديارهم، لا يخرج معهم المنافقون، ولئن قاتلهم المؤمنون لا يقاتلون معهم، ولئن آزروهم وقاتلوا معهم لفرُّوا هاربين منهزمين، ثم لا يصير المنافقون واليهود منصورين بعد ذلك، بل يذلهم الله ويخذلهم، ولا ينفعهم نفاقهم. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٢٣] .

وكان الواقع مطابقاً لما أخبر به القرآن، فإن المنافقين لم يخرجوا مع من أخرج من اليهود، وهم بنو النضير ومن معهم، ولم ينصروا اليهود الذين قوتلوا، وهم بنو قريظة وأهل خيبر، ثم بشر الله تعالى بنصر المؤمنين على كلا الفريقين: المنافقين واليهود، وتحقق وعد الله، وتطهرت جزيرة العرب من اليهود بفضل من الله وتوفيقه.

وسبب عدم نصرتهم لليهود ما قال تعالى:

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي إنكم أيها المسلمون أشد خوفاً وخشية في صدور المنافقين أو في صدور اليهود من رهبة الله، فهم يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، وذلك الخوف بسبب أنهم قوم لا يعلمون قدر عظمة الله حتى يخشوه حق خشيته، ولو كان لهم فقه لعلموا أن الله سبحانه أحق بالرهبة منه دونكم.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٤/٧٧].

ثم ذكر تعالى أسلوب اليهود والمنافقين في مقاتلة المؤمنين، فقال:

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي إن اليهود والمنافقين من جبنهم وهلعهم لا يواجهون جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة، ولا يقاتلونهم مجتمعين، بل يقاتلونهم إما وراء الحصون والدروب والخنادق، أو من خلف السوار والحيطان التي يستترون بها، لجبنهم ورهبتهم، فيقاتلون للدفاع عنهم ضرورة، وقد لمس العرب هذا الأسلوب في حروب اليهود في فلسطين في عصرنا.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ أي إن عداوتهم وحربهم فيما بينهم شديدة، وقاسية، تظنهم متوحدين وهم متفرقون، فاجتماعهم إنما هو في الظاهر، مع اختلاف نواياهم وأهوائهم وآرائهم وشهاداتهم في الواقع، لما بينهم من أحقاد وعداوات، ولأنهم قوم لا يعقلون الحق وأمر الله، ولا يدركون سر النجاح في الحياة وهو الوحدة، ولو عقلوا لعرفوا الحق واتبعوه، فتوحدوا ولم يختلفوا.

وهذا دليل على أن ضعفهم ناشئ من التفرقة والخلاف، فجدير بالمسلمين الذين يقاتلونهم في هذا العصر أن يكونوا متوحدين صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، وأن يعتمدوا على أنفسهم دون التماس حلول واهنة ضعيفة من شرق أو غرب.

ثم ذكر الله تعالى أحوالاً مشابهة لهم، فقال:

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾ أي إن هؤلاء اليهود بني النضير أصابهم مثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر، في السنة الثانية من الهجرة، ومثل من قبلهم من يهود بني قينقاع الذين أجلاهم النبي ﷺ من المدينة إلى أذرعات بالشام بعد سنة ونصف من الهجرة، وكانت وقعة بدر قبل غزوة بني النضير بستة أشهر، وذاقوا في زمان قريب سوء عاقبة كفرهم في الدنيا، ولهم عذاب مؤلم في الآخرة.

ثم ذكر الله تعالى مثلاً آخر للمنافقين ورابطتهم باليهود، فقال:

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾ أي إن مثل هؤلاء المنافقين في وعودهم اليهود بالمناصرة والمؤازرة في القتال والخروج، كمثل الشيطان الذي سوَّل للإنسان الشر، وأغراه بالكفر، وزيَّنه له، وحمله عليه، فلما كفر الإنسان مطاوعة للشيطان، تبرأ الشيطان منه، وتنصل يوم القيامة، وقال على وجه التبري من الإنسان: إني أخاف عذاب الله رب العالمين إذا ناصرتك.

وهذا مثل في غاية السوء وشدة الوقع على النفوس، لذا أبان الله تعالى بعده ما يوجبه من العقاب، فقال:

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾ أي فكان عاقبة الشيطان الآمر بالكفر، والإنسان الذي كفر واستجاب أنهما صائران إلى نار جهنم خالدَيْن فيها على الدوام، وذلك الجزاء وهو الخلود في النار هو جزاء الكافرين جميعاً، ومنهم اليهود والمنافقون.

فقه الحياة أو الأحكام:

تدل الآيات على ما يأتي:

١- إن هناك مصادقة وموالاة ومعاونة في الظاهر بين المنافقين واليهود، بسبب أخوة الكفر، ورابطة الاشتراك في العداوة والكفر بمحمد ﷺ، فيقول المنافقون ليهود قريظة والنضير: نحن معكم في الإقامة والقتال والخروج، ولا نطيع محمداً في قتالكم، والله شاهد على أنهم كاذبون في قولهم وفعلهم.

وفي هذا دليل على صحة نبوة محمد ﷺ بإخبار الغيب؛ لأنهم أخرجوا فلم يخرجوا، وقوتلوا فلم ينصروهم.

٢- كذّب الله المنافقين أولاً على سبيل الإجمال، ثم أتبعه بالتفصيل، فأخبر بأن اليهود لو أخرجوا من ديارهم، لن يخرج المنافقون معهم، وأنهم لو قاتلهم المؤمنون ما نصروهم ولا عاونوهم، ولئن نصر المنافقون اليهود لفروا هاربين منهزمين.

٣- إن بني النضير في خوفهم من المسلمين أشد خوفاً وخشية من رهبة الله، فهم يخافون منهم أكثر مما يخافون من ربهم، ذلك الخوف بسبب أنهم قوم لا يفقهون قدر عظمة الله وقدرته.

٤- لا يقدر اليهود والمنافقون على مقاتلة المسلمين مجتمعين إلا في حصون محصنة بالخنادق والدروب، أو من خلف الأسوار والحيطان التي يستترون بها لجُبنهم ورهبتهم، وإلقاء الله الرعب في قلوبهم، وتفرقهم، وتأييد الله ونصرته لعباده المؤمنين.

وسبب ذلك التفرق والتشتت والكفر أنهم لا عقل لهم يعقلون به أمر الله، ويدركون به نظم الحياة، ويعرفون أن الوحدة أساس النجاح.

٥- إن ما أصاب يهود بني النضير من الطرد والجلاء عن المدينة والعذاب مشابه لما أصاب بني قينُقاع وكفار قريش يوم بدر، من العقاب، فقد كان بين النضير وقريظة سنتان، وكانت وقعة بدر قبل غزوة بني النضير بستة أشهر، ولهؤلاء الكفار في الآخرة عذاب مؤلم.

٦- إن مثل المنافقين واليهود في تخاذلهم وعدم الوفاء في نُصْرتهم مثل الشيطان الذي سوَّل للإنسان الكفر، فلما كفر تبرأ منه، مدعياً أنه يخاف عذاب الله.

فكانت عاقبة المنافقين مثل عاقبة الشيطان والإنسان، حيث صارا إلى النار خالدين فيها على الدوام.

الأمر بالتقوى والعمل للآخرة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾

البلاغة:

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾ كناية في كلمة ﴿لِغَدٖۖ﴾ كنى بها عن القيامة لقربها.

﴿ٱلۡجَنَّةِۚ﴾ و﴿ٱلنَّارِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿نَفۡسٞ﴾ تنكيرها للتقليل أي تقليل الأنفس النواظر، كأنه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك. ﴿مَّا قَدَّمَتۡ﴾ أي الذي قدمته من الأعمال الصالحة. ﴿لِغَدٖۖ﴾ هو يوم القيامة، سمي به لقربه وتحقق وقوعه وتنكيره للتعظيم وإبهام أمره، كأنه قيل: لغد لا يعرف كنهه لعظمه. ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ﴾ نسوا حق الله، فتركوا طاعته. ﴿فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ أنساهم أن يقدموا لها خيراً. ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسق.

﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۚ﴾ أي لا يتساوى أصحاب النار الذين لم يعملوا ما ينقذهم منها، فاستحقوا النار، والذين استكملوا نفوسهم، فاستأهلوا الجنة، واحتج به الشافعية على أن المسلم لا يقتل بالكافر .﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

المناسبة:

بعد بيان أحوال المنافقين واليهود، أمر الله تعالى بالتقوى التي هي التزام المأمورات واجتناب المنهيات، وأمر بالعمل في الدنيا للآخرة، ورغب في الإعداد للجنة، وحذر من عمل أهل النار، ووصف أهل الجنة المستحقين لها بالفائزين، وأهل النار بالفاسقين.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ أي يا أيها الذين صدقوابالله تعالى ورسوله ﷺ، افعلوا ما أمر الله به، واتركوا ما زجر عنه، واتقوا عقابه، ولتتأمل نفس أي شيء قدَّمت من الأعمال الصالحة ليوم القيامة، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، واتقوا الله- وكرر الأمر بالتقوى للتأكيد والحث على ما يُنفع في الآخرة- فإن الله لا تخفى عليه من أعمالكم وأحوالكم خافية، فهو مجازيكم بأعمالكم صغيرها وكبيرها، قليلها وكثيرها.

ثم نهى الله تعالى عن التشبه بالذين أهملوا حقوق الله، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي واحذروا أن تكونوا كالذين تركوا أمر الله، وأهملوا حقوق الله الواجبة على العباد، ولم يخافوا ربهم، فجعلهم ناسين أنفسهم بسبب نسيانهم لربهم، فلم يعملوا الأعمال الصالحة التي تنفعهم في المعاد، وتنجيهم من العذاب، فإن الجزاء من

جنس العمل، وأولئك التاركون حقوق الله هم الخارجون الكاملون في الخروج عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم.

وذلك كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٦٣/٩].

ثم قارن الله تعالى بين المحسنين والمسيئين لبيان أنه لا استواء بين الفريقين، فقال:

﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي لا يستوي مستحقو النار ومستحقو الجنة في حكم الله تعالى في الفضل والرتبة يوم القيامة، أصحاب الجنة هم الظافرون بكل مطلوب، الناجون من كل مكروه.

ونظير الآية كثير في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/٢١] وقوله سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٤٠/٥٨] وقوله عز وجل: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٣٨/٢٨].

وهذا ترغيب في العمل للجنة، وترهيب من العمل للنار. ويلاحظ أن الآيات بدأت بالأمر بالتقوى، ثم نهت عن نسيان حقوق الله، ثم وازنت بين الطائعين والعصاة، وكل ذلك لتأكيد الأمر بالتقوى وطاعة الله، فبعد إرشاد المؤمنين إلى ما فيه مصلحتهم يوم القيامة: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ وتهديد الكافرين بقوله: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أبان تعالى الفرق بين الفريقين.

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١- لزوم تقوى الله في أوامره ونواهيه، وأداء فرائضه واجتناب معاصيه.

٢- أعاد الله تعالى الأمر بالتقوى مرة ثانية للتأكيد، أو يحمل الأمر الأول على أداء الواجبات والتوبة فيما مضى من الذنوب، والثاني على ترك المعاصي في المستقبل.

وكان النبي ﷺ يستشهد بهذه الآية في الحث في خطبه على عمل الخير والمعروف، أخرج أحمد ومسلم عن المنذر بن جرير عن أبيه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار[1] أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة، فصلى ثم خطب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ٤/١] وقرأ الآية في الحشر: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

«تصدَّق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من صاع تمره» ، حتى قال: «ولوبشق تمرة» . فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، ثم تتابع الناس، حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مُذَهَّبة[2]، فقال رسول الله ﷺ:

«من سنّ في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء؛ ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» .

---

(١) أي مخططي الثياب.

(٢) أي صفحة مموهة بالذهب.

٣ً- نهى الله تعالى عن التشبه بقوم تركوا أمر الله- والنهي يقتضي التحريم- حتى نسوا أنفسهم أن يعملوا لها خيراً، فكانوا هم الفاسقين، أي الذين خرجوا عن طاعة الله تعالى.

روى أبو القاسم الطبراني عن نُعَيم بن نمحة قال: كان في خطبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أما تعلمون أنكم تَغْدُون وتروحُون لأجَل معلوم، فمن استطاع أن يقضي الأجَل، وهو في عمل الله عز وجل، فليفعل، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل، إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم، فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾.

أين من تعرفون من إخوانكم؟ قدِمُوا على ما قَدَّموا في أيام سلفهم، وخَلَوْا بالشِّقْوة والسعادة، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن، وحصَّنوها بالحوائط؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار، هذا كتاب الله لا تَفْنى عجائبه، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة، واستضيئوا بسنائه وبيانه.

إن الله تعالى أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ لا خير في قول لا يراد به وجه الله، ولا خير في مال لا ينفَق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهلُه حلمَه، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم(١).

٤ً- هناك فرق واضح في حكم الله تعالى في الفضل والرتبة بين المؤمنين أهل الجنة، وبين الكافرين أهل النار، فالأولون ناجون فائزون بالمطلوب، والآخرون فاسقون هالكون معذبون.

٥ً- احتج الشافعية بآية: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ﴾ على أن المسلم لا

---

(١) قال ابن كثير: هذا إسناد جيد، ورجاله كلهم ثقات (تفسير القرآن العظيم: ٤/ ٣٤٢).

يقتل بالكافر الذمي، وإلا استويا، وأن الكافر لا يملك مال المسلم بالقهر وإلا استويا.

مكانة القرآن وعظمة منزِّله ذي الأسماء الحسنى

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

وقرأ ابن كثير، وحمزة وقفاً (القران).

الإعراب:

﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ منصوبان على الحال من هاء (رَأَيْتَهُ) لأن (رأيت) من رؤية البصر.

﴿ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ من صوَّر يصوِّر، لا من صار يصير فهو مصيِّر، وهو مرفوع على أنه وصف بعد وصف، أو خبر بعد خبر. وقرئ (المصوَّر) وهو آدم عليه السلام وأولاده، والمعنى: الخالق الذي برأ المصوَّر، وقرئ (المصوِّر) بالجر على الإضافة، كقولهم: الضارب الرجل، بالجر حملاً على الصفة الشبهة باسم الفاعل، كقولهم: الحسن الوجه.

البلاغة:

﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ تمثيل وتخييل مثل آية: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾.

﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ أي وجعل فيه تمييز ووعي كالإنسان. ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا﴾ ﴿خَٰشِعًا﴾ منقاداً خاضعاً، و﴿مُّتَصَدِّعًا﴾ متشققاً. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي وتلك الأمثال المذكورة يراد بها توبيخ الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن، لقساوة قلبه، وقلة تدبّره.

﴿ٱلْغَيْبِ﴾ما غاب عن الحس والمشاهدة من العوالم غير المرئية. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ عالم الماديات والمرئيات المشاهدة المحسوسة، وقدم الغيب على الشهادة؛ لأن الغيب معدوم متقدم في الوجود، والشهادة موجود متأخر. ﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ الطاهر المنزه عما لا يليق به من النقص. ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة من كل نقص وآفة. ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ المصدّق رسله فيما بلّغوه عنه بالقول، أو بخلق المعجزة على أيديهم، أو هو واهب الأمن لعباده. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيب على أعمال عباده، الحافظ لكل شيء. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾القوي الغالب. ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾الذي جبر خلقه على ما أراد. ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾البليغ الكبرياء والعظمة، الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصاناً. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾تنزه الله عما يصفه به المشركون من الصاحبة والولد والشريك، فلا يشاركه أحد من خلقه في شيء من ذلك.

﴿ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدّر للأشياء على مقتضى حكمته. ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ المنشئ من العدم الموجد للأشياء بريئاً من التفاوت. ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجد لصورها

وكيفياتها كما أراد. ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ التسعة والتسعون الوارد بها الحديث، والحسنى: مؤنث الأحسن، وقد وصفت بالحسنى؛ لأنها دالة على محاسن المعاني التي تظهر في هذا الوجود، فإن جمال الكون البديع دليل على كمال صفات الموجد المبدع.

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ ينزهه جميع المخلوقات، لتنزهه عن النقائص كلها. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ الجامع للكمالات كلها المتمثلة في كمال القدرة والعلم.

المناسبة:

بعد بيان أحوال اليهود والمنافقين، وأمر المؤمنين بالتقوى والاستعداد ليوم القيامة، عظَّم الله عز وجل أمر القرآن الذي يعلم منه هذا البيان، ونبَّه إلى عظمة منزِّل القرآن ذي الأسماء الحسنى الذي انقادت السماوات والأرض لحكمه وأمره ونهيه، وتنزه عن النقائص.

التفسير والبيان:

﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لقد بلغ من شأن القرآن وعظمته وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين لها القلوب، أنه لو أنزل على جبل من الجبال، وجعل له عقل كما جعل كالبشر، لرأيت الجبل، مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة، خاشعاً خاضعاً متذللاً منقاداً، متشققاً من خوف الله، حذراً من عقابه، وخوفاً من عدم أداء ما يجب عليه من تعظيم كلام الله تعالى.

وهذا تعظيم لشأن القرآن، وتمثيل لعلو قدره وشدة تأثيره على النفوس، لما فيه من المواعظ والزواجر، ولما اشتمل عليه من الوعد الحق والوعيد الأكيد، فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته، لو فهم هذا القرآن لخشع وتصدع من

خوف الله عز وجل، فكيف يليق بكم أيها البشر ألا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله، وقد فهمتهم عن الله أمره وتدبرتم كتابه، ولهذا قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾أي وهذه الأمثال المذكورة نضربها لجميع الناس، لعلهم يتفكرون فيما يجب عليهم التفكر فيه ليتعظوا بالمواعظ، وينزجروا بالزواجر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الرعد: ١٣/٣١] أي لكان هذا القرآن. وثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ، لما عُمِل له المنبر، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد، فلما وضع المنبر أول ما وضع، وجاء النبي ﷺ ليخطب، فجاوز الجذع إلى نحو المنبر، فعند ذلك حنّ الجذع، وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكَّت، لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده.

والمراد بالآية التنبيه على قساوة قلوب هؤلاء الكفار، وغلظ طباعهم، وتوبيخ الإنسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن، فإذا كانت الجبال الصم لو سمعت الكلام وفهمته، لخشعت وتصدعت من خشيته، فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم؟!!

ثم أعظم الله تعالى شأن القرآن بوجه آخر، وهو التنبيه على أوصاف منزِّله فقال:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾﴾ أي إن الله منزل القرآن، هو الذي لا إله إلا هو، فلا رب غيره، ولا إله للوجود سواه، وكل ما يعبد من دونه فباطل، وأنه عالم ما غاب عن الإحساس وما حضر، يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات

عنا، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، من جليل وحقير، وصغير وكبير، في الذّر (النمل الأسود) في الظلمات، وأنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦/٧] وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٥٤].

ثم ذكر الله تعالى أوصافاً أخرى لنفسه، فقال:

﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أكد تعالى صفة الوحدانية مرة أخرى، وكرر ذلك للتأكيد والتقرير في مطلع هذه الآية كالتي قبلها، فهو تعالى الإله الواحد الذي لا شريك له، المالك لجميع الأشياء، المتصرف فيها، بلا ممانع ولا مدافع، الطاهر من كل عيب، المنزه عن كل نقص، الذي سلم من كل نقص وعيب لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله، وسلم الخَلْق من ظلمه، والواهب الأمن والصدق لأنبيائه بالمعجزات، وأمن خلقه من أن يظلمهم، فهو المصدق لرسله بإظهار المعجزات، وللمؤمنين بما وعدهم به من الثواب، وهو الشاهد الرقيب على عباده بأعمالهم، فهو بمعنى الرقيب عليهم، كقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٨٥/ ٩] وقوله: ﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٤٦]. وقوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ١٣/ ٣٣].

وهو القاهر الغالب غير المغلوب، الذي قد عزّ كل شيء، فقهره وغلب الأشياء، ذو الجبروت أي العظمة، الذي تكبر عن كل نقص، وتعظم عما لا يليق به، والكبر في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذم، قال ﷺ في

الحديث القدسي الصحيح: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما غذّبته»[1].

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾أي تنزه الله عما يصفه به المشركون من إشراكهم بالله غيره، كالصاحبة والولد والشريك.

ثم قال الله تعالى:

﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾ أي هو الله الخالق أي المقدِّر للأشياء على مقتضى إرادته ومشيئته، البارئ، أي المنشئ المخترع للأشياء الموجد لها، فالخلق: التقدير، والبَرْء: هو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود، وليس كل من قدر شيئاً ورتّبه، يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل، وهو المصوِّر، أي الموجد للصور على هيئات مختلفة، وصفات أرادها، كما قال: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾ [الانفطار: ٨٢/٨] وله الأسماء والصفات الحسنى التي لا يماثله أحد فيها، لعزته، ومن عزته كان منزهاً عن النقائص، أهلاً للتسبيح، ينطق بتنزيهه بلسان الحال أو المقال كل ما في السماوات والأرض، ومن حكمته أنه أمر المكلفين في السماوات والأرض بأن يسبحوا له ليربحوا، لا ليربح هو عليهم، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤].

وهو القوي الغالب القاهر الذي لا يغالبه مغالب، الشديد الانتقام من

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري بلفظ: «العز إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني في واحد منهما فقد عذبته» وفي رواية: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني في واحد منهما قصمته ثم قذفته في النار».

أعدائه، الحكيم في تدبير خلقه وشرعه وقدره، وفي كل الأمور التي يقضي فيها، فهو كامل القدرة، كامل العلم.

وإنما قدم ذكر الخالق على البارئ؛ لأن ترجيح الإرادة مقدم على تأثير القدرة، وقدم البارئ على المصور؛ لأن إيجاد الذوات مقدم على إيجاد الصفات. وتقدم بيان أسماء الله الحسنى في الآية(١٨٠) من سورة الأعراف والآية (١١٠) من سورة الإسراء.

ويحسن ذكر الحديث المروي في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى تسعة وتسعين اسماً، مئة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر» ورواه أيضاً الترمذي وابن ماجه بالزيادة التالية، وأذكر هنا لفظ الترمذي:

«هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن، الرحيم، الملِك، القُدُّوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبَّار، المتكبِّر، الخالق، البارئ، المصوِّر، الغفّار، القهَّار، الوهّاب، الرزَّاق، الفتَّاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعزُّ، المذِلُّ، السميع، البصير، الحَكَم، العَدْل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفورُ، الشكورُ، العليُّ، الكبير، الحفيظ، المُقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحقُّ، الوكيل، القويُّ، المتين، الوليُّ، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيُّوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الصَّمَد، القادر، المقتدر، المقدِّم، المؤخِّر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البَرُّ، التوَّاب، المنتقم، العفوُّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المُقْسِطُ، الجامع، الغنيُّ، المغني، المانع، الضارّ، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور» .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١ً- حثّ الله تعالى على تأمل مواعظ القرآن، وبيّن أنه لا عذر في ترك التدبُّر، فإنه لو خوطب بهذا القرآن الجبال مع تركيب العقل فيها، لانقادت لمواعظه، ولرأيتها على صلابتها ورزانتها خاشعة أي ذليلة، متصدعة، أي متشققة من خشية الله، كما ذكر القرطبي.

٢ً- إن هذا المثل للناس للتفكر والتدبر، فإنه لو نزل هذا القرآن على جبل كما تقدم، لخشع لوعده وتصدّع لوعيده.

٣ً- الله تعالى عالم السرّ والعلانية، وما كان وما يكون، ما لم يعلم العباد ولا عاينوه، وما علموا وشاهدوا، وعالم بالآخرة والدنيا، وهو الواسع الرحمة، المنعم بجلائل النعم ودقائقها.

٤ً- الله تعالى مالك الملك، القُدُّوس (المنَّزه عن كل نقص، والطاهر من كل عيب)، السلام (ذو السلامة من النقائص) المؤمن (المصدِّق لرسله بإظهار معجزاته على أيديهم، ومصدّق المؤمنين ما وعدهم به من الثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب) المهيمن (الرقيب الحافظ لكل شيء) العزيز (الغالب القاهر) الجبار (العظيم) المتكبر (الذي تكبر بربوبيته، فلا شيء مثله) والكبرياء في صفات الله مدح، وفي صفات المخلوقين ذمّ.

وهو المنزه لجلالته وعظمته عما يشرك به المشركون، والخالق (المقدِّر) والبارئ (المنشئ المخترع) والمصوِّر (مركب الصور على هيئات مختلفة) وله الأسماء والصفات الحسنى، وينزهه جميع ما في السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم (كامل القدرة وكامل العلم).

عن أبي هريرة قال: سألت خليلي أبا القاسم رسول الله ﷺ عن اسم الله

الأعظم، فقال: « يا أبا هريرة، عليك بآخر سورة الحشر، فأكثر قراءتها»، فأعدت عليه فأعاد علي، فأعدت عليه فأعاد علي. وقال جابر بن زيد: إن اسم الله الأعظم هو الله، لمكان هذه الآية.

وعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الحشر، غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

وقال ﷺ: «ما أصاب عبداً هَمّ ولا حَزَن، فدعا بهذا الدعاء (أي بأسماء الله الحسنى) إلا أذهب الله همّه وحَزَنه، وأبدله مكانه فرجاً».

وأخرج الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً: « اسم الله الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر». وفي رواية عبد الرحمن النيسابوري عن البراء عن علي رضي الله عنهما أنه قال: «يا براء، إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم، فاقرأ من أول سورة الحديد عشر آيات، وآخر الحشر، ثم قل: يا من هو كذلك، وليس شيء هكذا غيره أسألك أن تفعل لي كذا وكذا، فوالله لو دعوت علي لخسف بي».

وأخرج الديلمي عن علي وابن مسعود مرفوعاً أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا﴾ إلى آخر السورة: « هي رقية الصداع ».

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةُ المُمْتَحَنة

مدنية، وهي ثلاث عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة الممتحنة (كسر الحاء) أي المختبرة، بإضافة الفعل إلى المرأة مجازاً، كما سميت سورة (براءة): المبعثرة والفاضحة، لما كشفت عيوب المنافقين. ويقال: (الممتحَنة) بفتح الحاء بإضافة الفعل حقيقة إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كُلْثُوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيْط، قال الله تعالى: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾[١٠] الآية. وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها وهي سورة الحشر من وجهين:

١ً- ذكر في الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً، ثم موالاة الذين نافقوا للكفار من أهل الكتاب، وافتتحت هذه السورة بنهي المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء، لئلا يشابهوا المنافقين في ذلك، وكرر النهي في السورة، ثم ختمت به.

٢ً- كانت سورة الحشر في المعاهَدين من أهل الكتاب، وهذه السورة

للمعاهَدين من المشركين؛ لأنها نزلت في صلح الحديبية، فالسورتان تشتركان في بيان علاقات المسلمين مع غيرهم.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كغالب السور المدنية في بيان الأحكام التشريعية، وهي هنا أحكام المعاهدين من المشركين، والذين لم يقاتلوا المسلمين، والمؤمنات المهاجرات وامتحانهن.

ابتدأت السورة بالنهي عن موالاة المشركين وأسباب ذلك وهي إيذاء المؤمنين وعداوتهم لله ولمن آمنوا، وإلجاؤهم إلى الهجرة وترك الديار والأوطان.

ثم ذكرت أن القرابة أو الصداقة غير نافعة يوم القيامة، وإنما النافع للإنسان هو الإيمان والعمل الصالح: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وأعقبت ذلك بضرب الأمثال بقصة إبراهيم ومن معه من المؤمنين، وتبرؤهم من قومهم المشركين، ليتخذ المؤمن أبا الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن قدوة وأسوة طيبة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الآيات.

ثم وضعت أصول العلاقات بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب في حالتي السلم والحرب، والمودة والعداوة: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾، ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآيات.

وانتقل البيان عقب ما ذكر إلى حكم العلاقات مع المشركين فيما يتعلق بالنساء المؤمنات، وضرورة امتحانهن عند الهجرة لدار الإسلام، وعدم ردهن إلى الكفار في دار الكفر وإيتاء أزواجهن مهورهن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ الآيات.

واستتبع ذلك بيان حكم مبايعة الرسول ﷺ لهن، وشروط البيعة وبنودها، وأصولها في الإسلام وداره.

وختمت السورة بتأكيد النهي عن موالاة أعداء المؤمنين من المشركين والكفار، حرصاً على وحدة الأمة والملة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا﴾

النهي عن موالاة الكفار

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾

القراءات:

﴿يَفْصِلُ﴾: قرئ:

١- (يُفْصَل) وهي قراءة نافع، وابن كثير، وأبي عمرو.

٢- (يُفَصِّل) وهي قراءة ابن عامر.

٣- (يَفْصِل) وهي قراءة عاصم.

٤- (يُفَصَّل) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ ﴿تُلْقُونَ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال

من واو . ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أي لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء مُلقين. وكذلك: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ حال من واو ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾

﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من واو ﴿كَفَرُوا﴾. و﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾: في موضع نصب على المفعول لأجله. وإن في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ حرف شرط، وجوابه فيما تقدم، لدلالة الكلام عليه، وهو﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ أي فلا تتخذوهم أولياء، فهذا متعلق بقوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾ يعني لا تتولوا أعدائي إن كنتم أوليائي. و﴿جِهَادًا﴾ و﴿وَابْتِغَاءَ﴾ منصوبان على المفعول لأجله، أو على المصدر في موضع الحال، وتقديره: مجاهدين في سبيلي، ومبتغين لمرضاتي. و﴿تُسِرُّونَ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال، تقديره: مسرِّين إليهم بالمودة، أو بدل من قوله: ﴿تُلْقُونَ﴾، وباء ﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ زائدة أو ثابتة غير زائدة.

﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف، وعامله: إما﴿تَنفَعَكُمْ﴾ أو ﴿يَفْصِلُ﴾. ويفصل بينكم المبني للمعلوم تقديره: يفصل الله بينكم، وقرئ مبنياً للمجهول. (يُفْصَل بينكم) فيكون﴿بَيْنَكُمْ﴾ قائماً مقام الفاعل، إلا أنه بني على الفتح، كقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ٦/٩٤] أي وصلكم.

البلاغة:

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ﴾ عتاب وتوبيخ.

﴿أَخْفَيْتُمْ﴾ و﴿أَعْلَنتُمْ﴾ بينهما طباق، فالإخفاء يقابل الإعلان.

المفردات اللغوية:

﴿عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ﴾ عدو الله: من كفر به أو أشرك، ولم يؤمن بما أنزل في

كتبه وعدو المؤمنين: من خانهم أو أضر بمصالحهم، أو قاتلهم أو عاون على مقاتلتهم، مثل كفار مكة في الماضي والماديين والملحدين الذين لا يؤمنون بوجود الله أو يؤمنون بألوهية أحد من البشر بتأويلات باطلة في عصرنا. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أصدقاء جمع ولي، أي صديق توليه بالسر .﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تفضون إليهم المودة، والمراد هنا النصيحة بالمكاتبة وإرسال أخبار الرسول ﷺ إليهم .﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي دين الإسلام والقرآن﴿ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ من مكة بالتضييق عليكم .﴿أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي لأجل أن آمنتم، وفيه تغليب المخاطب في عهد التنزيل، والتفات من الخطاب إلى الغيبة، للدلالة على ما يوجب الإيمان، وهو تعليل لقوله: ﴿يُخْرِجُونَ﴾ أي يخرجونكم لإيمانكم بالله تعالى.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾ أي خرجتم من أوطانكم للجهاد في سبيل الله وطلب مرضاته أي رضائه .﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ أي أنا أعلم منكم، والباء في قوله: ﴿بِمَآ أَخْفَيْتُمْ﴾ مزيدة، وما: موصولة أو مصدرية .﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ يفعل الاتخاذ .﴿ضَلَّ﴾ أخطأ طريق الهدى .﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ السواء في الأصل: الوسط، والمراد هنا الطريق المستوي وهو طريق الحق.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يظفروا بكم .﴿وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والضرب. ﴿وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي بما يسوؤكم بالسب والشتم .﴿وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ تمنوا كفركم .﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ لن تفيدكم قراباتكم .﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ﴾ الذين توالون المشركين لأجلهم .﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ يفرق بينكم من شدة الهول، فيفرّ بعضكم من بعض. ويفصل بالبناء للفاعل بالتخفيف أو التشديد أي الله عز وجل.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أخرج الشيخان وبقية الأئمة عن علي رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[١]، فإن بها ظعينة[٢]، معها كتاب، فخذوه منها، فأتوني به، فخرجنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب، أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عِقَاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ، فإذا هو من حاطب بن أبي بَلْتَعَة إلى ناس من المشركين بمكة، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، فقال: ما هذا يا حاطب؟ قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرءاً ملصقاً في قريش، ولم أكن من أَنْفَسِها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات، يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من نسب فيهم أن أتخذ يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر، فقال النبي ﷺ: صدق.

وفيه أنزلت هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ الآية.

وتفصيل القصة والكتاب: «أن مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم يقال لها: سارَّة، أتت رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو متجهز لفتح مكة سنة ثمان من الهجرة، فعرضت حاجتها، فحث بني المطلب على الإحسان إليها، فأتاها حاطب بن أبي بَلْتعة، وأعطاها عشرة دنانير، وكساها بُرْداً، واستحملها كتاباً

---

(١) موضع بين مكة والمدينة على اثني عشر ميلاً من المدينة.

(٢) الظعينة: المرأة في الهودج.

إلى أهل مكة، هذه نسخته: (من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة: اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم، فخذوا حذركم) فخرجت سارّة، ونزل جبريل عليه السلام بالخبر، فبعث رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه وعماراً وعمراً وفرساناً أخر، وقال:

انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَة خاخ، فإن بها ظعينة، معها كتاب، فخذوه منها، فإن أبت، فاضربوا عنقها، فأدركوها فجحدته وحلفت، فهموا بالرجوع، فقال علي رضي الله عنه: والله ما كذَبْنا ولا كذَبَ رسول الله ﷺ، وسلَّ سيفه، وقال:

أخرجي الكتاب أو تضعي رأسك، فأخرجته من عقاص شعرها، فقال رسول الله ﷺ لحاطب: ما حملك عليه؟ فقال: يا رسول الله، ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتك منذ نصحتك، ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن كنت غريباً في قريش، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة، يحمون أهاليهم وأموالهم، فخشيت على أهلي، فأردت أن اتخذ عندهم يداً، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدّقه وقبل عذره، فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: وما يُدْريك يا عمر، لعلَّ الله قد اطّلع على أهل بدر، فقال لهم: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم»، وأنزلت السورة.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي يا أيها المصدقون بالله تعالى ورسوله ﷺ لا تتخذوا عدوي وعدوكم[1] أنصاراً

(١) العدو يطلق على الواحد والجمع.

وأصدقاء وأعواناً لكم، توصلون إليهم أخبار النبي ﷺ والمؤمنين، بسبب المودة التي بينكم وبينهم، والآية تدل على النهي عن موالاة الكفار بأي وجه من الوجوه.

ونظير الآية كثير، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [المائدة: ٥/ ٥١] . وقوله سبحانه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ﴾ [آل عمران: ٣/ ٢٨] . والآية الأولى تتضمن تهديداً شديداً ووعيداً أكيداً.

وسبب النهي هنا أمران:

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ أي إنهم كفروا بالله تعالى والرسول ﷺ وما جاءكم من القرآن والهداية الإلهية، وأخرجوا الرسول ﷺ والمؤمنين من مكة من أجل إيمانهم بالله، وإخلاص عبادتهم لله تعالى، كما جاء في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠] .﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨٥/ ٨] .

ثم حرَّض الله تعالى على الامتناع من الموالاة، فقال:

أ- ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِىۚ﴾ أي لا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي، مبتغين رضواني عنكم، ولا توالوا أعدائي وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم، وسخطاً لدينكم.

ب- ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْۚ﴾ أي تسرون إليهم الأخبار وخطط النبي والمؤمنين بسبب المودة، وتفعلون ذلك، وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر، والأعلم من كل أحد بما تخفون وما تعلنون.

جـ- ﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي ومن يوال الأعداء منكم، فقد أخطأ طريق الحق والصواب، وحاد عن قصد السبيل التي توصل إلى الجنة والرضوان الإلهي.

ثم ذكر ثلاثة أمور أخرى تمنع الموالاة على عداوة المشركين في مكة وغيرها، فقال:

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ أي إن يلقوكم يظهروا لكم ما في قلوبهم من العداوة، ويكونوا حرباً عليكم، ويمدوا إليكم أيديهم بالضرب والقتل، وألسنتهم بالسب والشتم، ويتمنوا ارتدادكم وكفركم بربكم ورجوعكم إلى الكفر، فهم يحرصون على ألا تنالوا خيراً، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة، فكيف توالون مثل هؤلاء؟!!

وهذا كما سبق تهييج على عداوتهم أيضاً.

ثم ذكر الله تعالى أن رابطة الدين والإيمان أوثق وأولى وأنفع من رابطة القرابة والولاء، فقال:

﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٣﴾﴾ أي لن تفيدكم يوم القيامة أقاربكم وأولادكم، حتى توالوا الكفار لأجلهم، كما وقع في قصة حاطب بن أبي بلتعة سبب النزول، بل الذي ينفعكم هو ما أمركم الله به من معاداة الكفار وترك موالاتهم وتوثيق عرى الإيمان وأخوة الدين، ففي الآخرة يفرّق الله بينكم، فيدخل أهل طاعته الجنة، وأهل معصيته النار، والله مطلع على أعمالكم، ومجازيكم عليها خيراً أو شراً.

والمقصود أن القرابة لا تنفع عند الله تعالى، إن أراد الله بكم سوءاً، ولن

يصل نفعهم إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم، فقد خاب وخسر وضلَّ عمله، ولا تنفعه عند الله قرابة من أحد، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء، قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ١٠١] وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٨٠/ ٣٤-٣٧] فالمودة لا تنفع في القيامة إذا لم تكن في الله لانفصال كل اتصال يومئذ، ويجوز أن يكون الفصل بمعنى القضاء والحكم.

روى الإمام أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس: «أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: في النار، فلما قفا، دعاه، فقال: إن أبي وأباك في النار» .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١ً- تحريم موالاة الكفار ومناصرتهم ومعاونتهم بأي وجه من الوجوه، والسورة أصل في النهي عن موالاة الكفار، ولو في الظاهر، مع عدم الرضا في القلب بالاعتقاد الذي هم عليه.

٢ً- من كثر تطلعه على عورات المسلمين والتجسس عليهم ونقل أخبارهم للأعداء، لم يكن بذلك كافراً إذا كان فعله لغرض دنيوي، وكان اعتقاده سليماً، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد، ولم ينو الرِّدة عن الدِّين.

٣ً- اختلف العلماء في قتل الجاسوس، فقال مالك والأوزاعي في شأن المعاهد والذمي: يجوز قتله؛ لأنه يصير ناقضاً للعهد. وقال الجمهور: لا ينتقض عهد المعاهد بذلك، أما الذمي فرأى الحنابلة: أنه ينتقض عهده بدلالة أهل الحرب المشركين على أسرارنا. وذهب الشافعية: إلى أنه لا ينتقض عهد الذمي بالتجسس إلا إذا شرط عليه انتقاض عهده بذلك.

وأما الجاسوس المسلم: فقال كبار المالكية: إنه يقتل. وقال الجمهور: لا يقتل، بل يعزّره الإمام بما يراه من ضرب وحبس ونحوهما.

ودليل الفريقين قصة حاطب، فإن الفريق الأول قالوا: أقر النبي ﷺ عمر رضي الله عنه على إرادة القتل لولا وجود المانع: وهو شهود بدر. وقال الفريق الثاني: إن الرسول ﷺ لم يقتل حاطباً؛ لأنه مسلم، وروي عن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتي بعَيْن (جاسوس) للمشركين اسمه فُرَات بن حَيَّان، فأمر به أن يُقتل، فصاح: يا معشر الأنصار، أُقتلُ وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله! فأمر به النبي ﷺ، فخلَّ سبيله، ثم قال: «إن منكم من أَكِلُه إلى إيمانه، منهم فُرات بن حيَّان» .

٤- ذكرت الآيات خمسة أسباب لتحريم موالاة الكفار، وهي الكفر بالله تعالى والرسول ﷺ، وإخراج الرسول ﷺ والمؤمنين من ديارهم وأموالهم في مكة، وعداوتهم ومحاربتهم للمؤمنين، وقتالهم إياهم وضربهم فعلاً، وسبهم وشتمهم، وحرصهم على كفرهم بمحمد ﷺ.

٥- حذر الله تعالى من مخالفة نهيه عن موالاة الأعداء بأمرين: أولهما- أنه سبحانه الأعلم بما تخفي الصدور، وما تظهر الألسن من الإقرار بالله وتوحيده. وثانيهما- أن من يوالي الكفار ويسرّ إليهم ويكاتبهم من المسلمين، فقد ضل سواء السبيل، أي أخطأ قصد الطريق.

٦- قوله سبحانه: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي بالنصيحة في الكتاب إليهم، هو معاتبة لحاطب، وهو يدل على فضله وكرامته ونصيحته لرسول الله ﷺ وصدق إيمانه، فإن المعاتبة لا تكون إلا من محبٍّ لحبيبه.

٧- الذي يفيد الإنسان يوم القيامة هو الإيمان الصحيح والعمل الصالح، أما الأهل والأولاد أو أصحاب القرابات أو الأنساب، فلا ينفعون شيئاً يوم القيامة، إن عُصيَ الله عز وجل من أجل ذلك، والله بصير بأعمال عباده، ويجازيهم عليها إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والله سبحانه يفرق أو يفصل بين الأقارب وغيرهم يوم القيامة، فيدخل المؤمنين الجنة، ويدخل الكافرين النار.

التأسي بإبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾

القراءات:

﴿أُسْوَةٌ﴾ :

قرأ عاصم (أسوة). وقرأ الباقون (إسوة).

الإعراب:

﴿إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ﴾ بدل بعض من كل في قوله: ﴿تُلْقُونَ﴾.

﴿بُرَءَٰٓؤُا۟﴾ جمع بريء، نحو شريف وشرفاء، وظريف وظرفاء، وحذفت الهمزة الأولى تخفيفاً. وقرئ (بِرآء) بكسر الباء، جمع بريء أيضاً كشراف وظراف، وقرئ أيضاً بفتح الباء على أنه مصدر دال على الجمع. ولفظه يصح للواحد والجمع.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ منصوب على الاستثناء من قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي كائنة في سُنّته وأقواله، إلا قوله لأبيه:

﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾. ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ بدل اشتمال من الكاف والميم في ﴿لَكُمْ﴾ بإعادة الجار.

البلاغة:

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تقديم ما حقه التأخير، وهو الجار والمجرور على ما بعده لإفادة الحصر.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ ﴿قَدِيرٌ﴾ ﴿غَفُورٌ﴾ ﴿رَّحِيمٌ﴾ صيغة مبالغة.

المفردات اللغوية:

﴿أُسْوَةٌ﴾ قدوة ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي بإبراهيم قولاً وفعلاً. ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ من المؤمنين. ﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾ أبرياء جمع بريء، كظريف وظرفاء، أي متبرئون مما تعملون، فلا نعتد بكم ولا بشأن آلهتكم. ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ من الأصنام والكواكب وغيرها. ﴿وَبَدَا﴾ ظهر. ﴿ٱلْعَدَٰوَةُ﴾ ضد الألفة والصداقة. ﴿وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ البغض والكراهة ضد المحبة. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ مستثنى من قوله: ﴿أُسْوَةٌ﴾ فليس التأسي به في ذلك، بأن تستغفروا للكفار. ﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي لا أملك من عذابه وثوابه شيئاً، وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ كنى به عن أنه لا يملك له غير الاستغفار، وكان استغفاره له قبل أن يتبين له أنه عدو الله، كما ذكر في سورة ﴿بَرَآءَةٌ﴾. ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ فوضنا أمرنا إليك. ﴿أَنَبْنَا﴾ رجعنا وتبنا. ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ المرجع والمآب.

﴿فِتْنَةً﴾ مفتونين معذبين بأن تسلطهم علينا، فيفتنونا بعذاب لا نتحمله. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ما فرطنا من ذنب. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ القوي الغالب في ملكه، الذي يحسن التدبير في صنعه. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون أمة محمد ﷺ، وهو جواب قسم مقدر. ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة طيبة. وكرر لمزيد الحث على التأسي بإبراهيم. ﴿لِّمَن كَانَ﴾ بدل من قوله. ﴿لَكُمْ﴾ قال البيضاوي: فإنه يدل

على أنه لا ينبغي لمؤمن أن يترك التأسي بهم، وإن تركه مؤذن بسوء العقيدة، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي ومن يعرض عن التأسي بإبراهيم ومن آمن معه ويعص النصيحة، بأن يوالي الكفار، فإن الله هو الغني عن خلقه، المحمود على فعله، الحامد لأهل طاعته، وهذا وعيد يوعد به الكفرة .﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ أي يؤمل ثواب الله، ويخاف العقاب، ويخشى أهوال الآخرة.

﴿عَادَيْتُم﴾ من الأقارب المشركين وغيرهم من كفارَ مكة وغيرها، وتبرأتم منهم طاعة لله تعالى .﴿مَّوَدَّةً﴾ محبة وصلة، بأن يهديهم للإيمان، فيصيروا لكم أولياء وأصدقاء وأنصاراً، وهذا وعد من الله، أنجزه بالفعل، لأنه أسلم أكثرهم وصاروا والمؤمنين عوناً وسنداً وأولياء .﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ قادر على ذلك، وقد فعله بعد فتح مكة .﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فرط منكم في موالاتهم من نقل أخبار وغيره .﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم إذ لم يعاجلكم بالعقوبة.

سبب النزول:

نزول الآية (٧):

﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾: قال المفسرون: يقول الله تعالى للمؤمنين: لقد كان لكم في إبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء اقتداء بهم في معاداة ذوي قراباتهم من المشركين، فلما نزلت هذه الآية عادى المؤمنون أقرباءهم المشركين في الله، وأظهروا لهم العداوة والبراءة، وعلم الله تعالى شدة وجد المؤمنين بذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ ثم فعل ذلك بأن أسلم كثير منهم، وصاروا لهم أولياء وإخواناً، وخالطوهم وناكحوهم، وتزوج رسول الله ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب. فلَانَ

لهم أبو سفيان وبلغه ذلك، فقال: ذاك الفحل لا يُقْدَع أنفه[١]، أي لا يضرب أنفه، وذلك إذا كان كريماً.

المناسبة:

بعد النهي عن موالاة الكفار والإنكار على من والاهم وتوثيق عرى الإخاء ورابطة الإيمان، أمر الله تعالى بالتأسي بإبراهيم ومن آمن معه في التبرؤ من الكفار، وذكر أن وجوب البغض في الله، وإن كان أخاً أو أباً أسوة بإبراهيم عليه السلام وأصحابه، حيث جاهروا قومهم بالعداوة، وصرحوا بأن سبب العداوة ليس إلا الكفر بالله، فإذا آمنوا انقلبت العداوة موالاة، والمناوأة مصافاة، والمقت محبة. ثم استثنى تعالى من التأسي بأقوال إبراهيم هذا القول الذي هو الاستغفار لأبيه عن موعدة منه قبل أن يعلم أنه عدو لله.

التفسير والبيان:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ يخاطب الله تعالى المؤمنين الذين أمرهم بمجانبة الكافرين والتبري منهم، بأنه قد كانت لكم قدوة طيبة حميدة تقتدون بها في إبراهيم خليل الرحمن أبي الأنبياء والذين آمنوا معه من أتباعه حين قالوا لقومهم: إنا بريئون منكم؛ لكفركم بالله، وبريئون من كل ما تعبدون من غير الله من الأصنام والأنداد، فقد جحدنا بما آمنتم به من الأوثان، أو بدينكم، أو بأفعالكم، فإن تلك الأوثان لا تنفع شيئاً، فهي لا تعقل ولا تسمع ولا تبصر.

والمقصود إفهام من والى الكافرين وهو حاطب، وكأنه تعالى يقول: أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم، فتتبرأ من أهلك، كما تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه؟!

---

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٤١

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ أي هذا دأبنا معكم ما دمتم على كفركم، فقد ظهرت وشرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دمتم على كفركم، فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم، حتى تظهروا الإيمان بالله وحده، وتوحدوا الله، فتعبدوه وحده لا شريك له، وتتركوا ما أنتم عليه من الشرك، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد، فإذا فعلتم ذلك، صارت تلك العداوة موالاة، والبغضاء محبة.

ثم استثنى الله تعالى شيئاً لا يتأسى به بإبراهيم، فقال:

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ أي وقد كانت لكم أسوة حسنة في كل مقالات إبراهيم إلا قوله لأبيه الكافر: لأستغفرن لك، وما أدفع عنك من عذاب الله شيئاً إن أشركت به، فلا تأتسوا به في هذا القول، فتستغفروا للمشركين، فإن استغفاره إنما كان عن موعدة وعدها إياه، فلما تبيَّن له أنه عدو لله، تبرأ منه. والخلاصة: ليس لكم أسوة في الاستغفار للمشركين.

وقد كان بعض المؤمنين يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك، ويستغفرون لهم، ويقولون: إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ٩/١١٣-١١٤].

ثم أخبر الله تعالى عن اعتصام إبراهيم والمؤمنين معه بالله حين فارقوا قومهم وتبرؤوا منهم فقال:

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي اعتمدنا عليك يا رب في جميع الأمور، وفوضنا أمورنا إليك، ورجعنا إليك بالتوبة من كل ذنب، وإليك المرجع والمآب والمعاد في الدار الآخرة.

وهذا من دعاء إبراهيم وأصحابه، ومما فيه أسوة حسنة يقتدى به فيها، ومن تتمة دعائه قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ أي يا ربنا لا تجعلنا مفتونين معذبين بأيدي الكفرة، واستر لنا ذنوبنا عن غيرك، واعف عنها فيما بيننا وبينك، فإنك أنت القوي الغالب القاهر، الذي لا يغالَب، ولا يضام من لاذ بجنابك، وذو الحكمة البالغة في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرتك، وتدبير خلقك، وفعل ما فيه صلاحهم. قال قتادة: لا تُظْهرهم علينا، فيفتنونا بذلك، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه. وقال مجاهد: معناه: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولوا: لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا.

ثم أكد الله تعالى الحث على التأسي بإبراهيم والمؤمنين معه، فقال:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ أي لقد كان لكم في إبراهيم والذين معه قدوة حسنة، وهذه الأسوة إنما تكون لمن يطمع في الخير والثواب من الله في الدنيا والآخرة، ويتأمل النجاة في الآخرة، وهذا تهييج إلى الإيمان لكل مؤمن بالله وبالمعاد. ومن يعرض عما أمر الله تعالى به، ويوال أعداء الله، ويوادهم، فإنه لا يضر إلا نفسه، فإن الله هو الغني عن خلقه، الذي قد كمل في غناه، المحمود من خلقه في جميع أقواله وأفعاله، لا إله غيره، ولا رب سواه. والحميد: إما بمعنى الحامد أي يحمد الخلق ويشكرهم حيث يجزيهم بالكثير من الثواب عن القليل من الأعمال، أو بمعنى المحمود، أي الذي يستحق الحمد من خلقه بما أنعم عليهم.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ١٤/٨].

ثم أخبر الله عن أموره العجيبة في تحول الكافرين إلى مؤمنين، فقال:

﴿ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ أي ربما أسلم أعداؤكم، وصاروا من أهل دينكم، فتحولت العداوة إلى مودة، والبغضاء إلى محبة، والفرقة والمخالفة إلى إلفة، والله قادر على كل شيء، وغفور لمن أخطأ، فوادَّهم، رحيم بهم فلم يعذبهم بعد التوبة، ويقبلهم ليدخلهم في مغفرته ورحمته. وكلمة ﴿عَسَى﴾ لرجاء حصول ما بعدها، لكن إذا صدرت من الله، كان ما بعدها واجب الوقوع.

وقد أسلم أكثر العرب بعد فتح مكة، وحسن إسلامهم، وانعقدت مودة قوية بينهم وبين من تقدمهم في الإسلام، وجاهدوا وقاموا بالأفعال المقرِّبة إلى الله تعالى، وتزوَّج النبي ﷺ بأم حبيبة بنت أبي سفيان، وترك أبو سفيان بعد إسلامه يوم الفتح ما كان عليه من العداوة لرسول الله ﷺ. أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: أوّل من قاتل أهل الردة على إقامة دين الله أبو سفيان بن حرب، فيه نزلت هذه الآية: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ﴾.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- جعل الله إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة وقدوة عالية للمؤمنين في التبرؤ من الكفار، فعلى من آمن بالله ورسوله الاقتداء به إلا في استغفاره لأبيه، فلا يتأسون به في الاستغفار للمشركين، فإن استغفاره كان عن موعدة منه له.

٢ً- صرح إبراهيم ومن آمن معه بسبب البراءة من الكفار وهو كفرهم بالله وإيمانهم بالأوثان، وستظل العداوة والبغضاء قائمة في القلوب على الدوام بين المؤمنين وغيرهم ما دام هؤلاء الكفار على كفرهم، حتى يعلنوا إيمانهم بالله وحده لا شريك له، فحينئذ تنقلب المعاداة موالاة.

٣- قوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ يدل على تفضيل نبينا عليه الصلاة والسلام على سائر الأنبياء؛ لأن الله حين أمرنا بالاقتداء به أمرنا أمراً مطلقاً في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧/٥٩] وحين أُمِرنا بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام، استثنى بعض أفعاله.

٤- علَّم الله المؤمنين أيضاً أن يقولوا ما كان يدعو به إبراهيم عليه السلام ومن معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾﴾ أي تبرؤوا من الكفار وتوكلوا على الله، وقولوا: اعتمدنا عليك يارب، ورجعنا إليك تائبين، ولك الرجوع في الآخرة، ولا تُظهر أو لا تسلط عدونا علينا، فيظنوا أنهم على حق، فيفتتنوا بذلك، واغفر لنا ما فرط من الذنوب، فإنك القوي الغالب الذي لا يغالَب، الحكيم في تدبير خلقه وتحقيق مصالحهم.

٥- أكد الله تعالى الحث على التأسي بإبراهيم ومن معه من الأنبياء والأولياء، مرة أخرى في الآيات، في التبرؤ من الكفار. ثم حذر من المخالفة، وهدد المعرضين المستكبرين عن حكم الله، فذكر أن من يتول عن الإسلام وقبول هذه المواعظ، فإنه لن يضر إلا نفسه، والله غني عن خلقه، لم يتعبدهم لحاجته إليهم، محمود في نفسه وصفاته ومن خلقه.

٦- كان نزول هذه الآيات سبباً في معاداة المسلمين أقرباءهم من المشركين، ولما علم الله شدة وَجْد المسلمين وحرجهم في ذلك، نزل قوله تعالى كما بينا: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ أي بأن يُسلم الكافر، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة، وخالطهم المسلمون، كأبي سفيان بن حرب، والحارث بن هشام، وسُهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام. وتزوج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان التي كانت متزوجة بعبيد الله بن جحش،

وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة، إلا أن زوجها تنصر، ومات على النصرانية، وبقيت هي على دينها، فبعث النبي ﷺ إلى النجاشي، فخطبها، وأمهرها النجاشي من عنده أربع مئة دينار. وفي الحديث: «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»[1].

فقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ وعد من الله تعالى، والله سبحانه قادر على تقليب القلوب، وتغيير الأحوال، وتسهيل أسباب المودة، والله غفور لعباده رحيم بهم إذا تابوا وأسلموا ورجعوا إلى دينه وشرعه ومواعظه، وهو سبحانه الذي ألّف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فأصبحت مجتمعة متفرقة، كما قال تعالى ممتناً على الأنصار: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ٣/١٠٣] وكذا قال لهم النبي ﷺ: «ألم أجدكم ضلاّلاً، فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألّفكم الله بي» ؟ وقال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال ٨/ ٦٢-٦٣] .

(١) رواه الترمذي والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة، والطبراني عن عبد الله بن عمرو، والدارقطني في الإفراد وابن عدي والبيهقي في الشعب عن علي، والبخاري في الأدب المفرد والبيهقي عن علي موقوفاً، وهو حديث حسن.

علاقة المسلمين بغيرهم

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

الإعراب:

﴿أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾: في موضع جر على البدل من﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ﴾ بدل الاشتمال.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل الاشتمال أيضاً. وقيل: هما منصوبان على المفعول لأجله.

﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ عدّاه بـ (إلى) حملاً على معنى (تحسنوا) فكأنه قال: تحسنوا إليهم.

البلاغة:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ و﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ بينهما طباق السلب.

المفردات اللغوية:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ﴾ من الكفار، أي لا ينهاكم عن مبرّة هؤلاء؛ لأن قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل من ﴿ٱلَّذِينَ﴾، أي أن تفعلوا البر والخير لهم. ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ تقضوا إليهم بالقسط، أي تحكموا بينهم بالعدل. ﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين.

﴿وَظَٰهَرُواْ﴾ ساعدوا أو عاونوا، كمشركي مكة، فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين من مكة، وبعضهم أعانوا المخرجين .﴿أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ﴾ أن تتخذوهم أولياء أي أنصاراً وأعواناً لكم .﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي ومن يتخذهم أولياء، فأولئك هم الظالمون أنفسهم، لوضعهم الولاية في غير موضعها.

سبب النزول:

نزول الآية (٨):

﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «قدمت أمي، وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: نعم، صلي أمّك» فأنزل الله فيها: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾.

وأخرج أحمد والبّزار والحاكم وصححه آخرون عن عبد الله بن الزبير قال: قدمت قُتَيْلة بنت عبد العُزى على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا- صناب[١] وأقِط وسمن، وهي مشركة، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخلها بيتها، حتى أرسلت إلى عائشة أن سلي عن هذا رسول الله ﷺ، فأخبرته، فأمرها أن تقبل هداياها وتدخلها منزلها، فأنزل الله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ الآية.

المناسبة:

بعد النهي عن موالاة الكافرين، والحث على القطيعة بالتأسي بإبراهيم ومن

(١) صناب: صباغ يتخذ من الخردل والزبيب.

معه، ثم تهوين الأمر على المؤمنين بإخبارهم أن الله قادر على تغيير أوضاع المشركين من الكفر إلى الإيمان، رخص الله تعالى في صلة الذين لم يقاتلوا المؤمنين من الكفار، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يعاونوا على إخراجهم.

التفسير والبيان:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ أي لا يمنعكم الله من البّر والإحسان وفعل الخير إلى الكفار الذين سالموكم ولم يقاتلوكم في الدين كالنساء والضعَفة، منهم، كصلة الرحم، ونفع الجار، والضيافة، ولم يخرجوكم من دياركم، ولا يمنعكم أيضاً من أن تعدلوا فيما بينكم وبينهم، بأداء ما لهم من الحق، كالوفاء لهم بالوعد، وأداء الأمانة، وإيفاء أثمان المشتريات كاملة غير منقوصة، إن الله يحب العادلين، ويرضى عنهم، ويمقت الظالمين ويعاقبهم.

والمقصود بالآية أن الله سبحانه لا ينهى عن برّ أهل العهد من الكفار الذين عاهدوا المؤمنين على ترك القتال، وعلى ألا يعينوا عليهم، ولا ينهى عن معاملتهم بالعدل، مثل خزاعة، وغيرهم الذين عاهدوا رسول الله ﷺ على ترك القتال.

ثم حدد الله تعالى موضع النهي في المعاملات، فقال:

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ أي إنما ينهاكم الله عن موالاة هؤلاء الذين عادوكم، وهم صناديد الكفر من قريش وأشباههم ممن هم حرب على المسلمين، وعاونوا الذين قاتلوكم وأخرجوكم على ذلك، وهم سائر أهل مكة ومن دخل معهم في عهدهم، ينهاكم الله عن اتخاذهم أولياء وأنصاراً لكم، ويأمركم بمعاداتهم.

ثم أكد الوعيد على موالاتهم، فأبان أن من يتولهم ويناصرهم، فأولئك الذين ظلموا أنفسهم، لأنهم تولوا من يستحق العداوة؛ لكونه عدواً لله تعالى ولرسوله ﷺ ولكتابه.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥/ ٥١] .

فقه الحياة أو الأحكام:

أبانت الآيتان أن للكفار من المسلمين موقفين: إما المسالمة وإما المعاداة. وحددتا علاقة المسلمين بغيرهم في تلك الحالتين.

أ - فيجوز برّهم وفعل الخير لهم، والحكم بينهم وبين غيرهم بالعدل إذا لم يقاتلوا في الدين أو الدنيا، ولم يخرجوا المؤمنين من ديارهم، ولم يعينوا على إخراجهم، فإن الله يحب العادلين ويأمر بالعدل مع جميع الناس، والعدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل.

وهؤلاء هم أهل العهد الذين عاهدوا رسول الله ﷺ على ترك القتال، والمظاهرة (المعاونة) في العداوة، وهم خزاعة، كانوا عاهدوا الرسول ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يخرجوه، فأمر الرسول ﷺ بالبر والوفاء إلى مدة أجلهم.

قال قتادة: كان هذا في أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال، ثم نسخ، نسختها آية: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٩/ ٥] .

وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة غير منسوخة، بدليل إباحة صلة أسماء أمّها، كما تقدم[١].

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٥٩.

واستدل بهذه الآية بعض العلماء على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر، وأجيب بأن الإذن في الشيء أو ترك النهي عنه، لا يدل على وجوبه، وإنما يدل على الإباحة فقط.

٢- ولا يجوز اتخاذ الأولياء والأنصار والأحباب من الذين قاتلوا المسلمين على الدين، وأخرجوهم من ديارهم، وعاونوا على إخراجهم، وهم مشركو أهل مكة، ومن يفعل ذلك بأن يواليهم، فأولئك هم الظلمة المستحقون للعقاب الشديد.

والخلاصة: لا ينهى الله عن مبرة الفريق الأول، وإنما ينهى عن تولي الفريق الثاني.

حكم المهاجرات من دار الكفر إلى دار الإسلام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾

القراءات:

﴿تُمْسِكُوا۟﴾:

وقرأ أبو عمرو (تُمَسِّكوا).

﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾:

وقرأ ابن كثير، والكسائي، ووقفاً حمزة (وَسَلُوا).

الإعراب:

﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ ﴿أَن﴾: في موضع نصب بتقدير حذف حرف جر، وتقديره: في أن تنكحوهن. و﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ إما استئناف، أو حال من الْحُكْم، على حذف الضمير، أي يحكمه الله، أو على جعل (الْحُكْم) حكماً على المبالغة.

البلاغة:

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ جملة اعتراضية للإشارة إلى أن التعامل مع الناس يكون بحسب الظاهر، فللإنسان الظاهر، والله يتولى السرائر.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فيهما ما يسمى في علم البديع بالعكس والتبديل.

المفردات اللغوية:

﴿مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ من بلاد الكفار إلى ديار الإسلام. ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهن للتأكد من مطابقة ألسنتهن لما في قلوبهن من الإيمان. ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ الله هو العالم بالحقائق، المطلع على ما في القلوب. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ تأكدتم من إيمانهن، وظننتم ظناً غالباً بالحلف وظهور الأمارات، فقد كان ﷺ يحلّفهن على أنهن ماخرجن إلا رغبة في الإسلام، لا بغضاً لأزواجهن الكفار، ولا عشقاً لرجال من المسلمين. وإنما سُمِّيَ الظن الغالب علماً إيذاناً بأنه كالعلم في وجوب العمل به.

﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ تردوهن إلى أزواجهن الكفرة. ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ التكرار للمطابقة والمبالغة. ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ أعطوا

الكفار مادفعوا لأزواجهن من المهور .﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ لا إثم ولا حرج عليكم في الزواج بهن، فإن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار .﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورهن، وقد شرط إيتاء المهر في نكاحهن إيذاناً بأن ما أعطي لأزواجهن من تعويض لا يغني عن المهر الواجب للمرأة تكريماً لها عند زواجها بأي رجل .﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أي ما تعتصم به الكافرات من عقد وسبب، جمع عصمة، والمراد نهي المؤمنين عن نكاح المشركات، سواء الباقيات على الشرك بعد إسلام الزوج، أو المرتدات اللاحقات بالمشركين، فالمراد بالعصمة: عقد النكاح. و﴿ٱلْكَوَافِرِ﴾: جمع كافرة. وقرئ (ولا تمسّكوا) بالتشديد.

﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾ اطلبوا .﴿مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ اطلبوا ما قدمتم من المهور لنسائكم اللاحقات بالكفار حال الارتداد، ممن تزوجن من الكفار .﴿وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ وليطلبوا ما أنفقوا على المهاجرات من مهور أزواجهم، فإنهم يؤتونه. ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ أي جميع ما ذكر في الآية هو شرع الله .﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يقضي بينكم .﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بالغ العلم، يشرع ما تقتضيه حكمته.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾ أي وإن سبقكم وانفلت منكم .﴿شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أحد من أزواجكم .﴿إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ مرتدات .﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ أي فجاءت عقبتكم أي نوبتكم من أداء المهر، والمراد أنكم غنمتم مغانم القتال أو الحرب بسبب الغلبة والنصر لكم .﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي أعطوهم من الغنيمة مهور أزواجهم، بدل الفائت عليهم من جهة الكفار. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي خافوا الله الذي آمنتم به، فإن الإيمان به يقتضي التقوى منه.

سبب النزول:

نزول الآية (١٠):

﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾: أخرج الشيخان عن المِسْور ومروان

ابن الحَكَم: أن رسول الله ﷺ، لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من المؤمنات، فأنزل الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

وأخرج الواحدي عن ابن عباس قال: إن مشركي مكة صالحوا رسول الله ﷺ عام الحديبية على أن من أتاه من أهل مكة، رده إليهم، ومن أتى من أهل مكة من أصحابه فهو لهم، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه، فجاءت سُبيعة بنت الحارث الأسلمية بعد الفراغ من الكتاب، والنبي ﷺ بالحديبية، فأقبل زوجها وكان كافراً، فقال: يا محمد، ردّ علي امرأتي، فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1].

وقيل: جاءت أم كلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط، وقيل: نزلت في أميمة بنت بشر امرأة أبي حسان الدحداحة. وقيل: نزلت في امرأة تسمى سعيدة كانت تحت صيفي بن الراهب، وهو مشرك من أهل مكة جاءت زمن الهدنة، فقالوا: ردها علينا، فنزلت.

وأخرج ابن منيع عن ابن عباس قال: أسلم عمر بن الخطاب فتأخرت امرأته في المشركين فأنزل الله: ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾.

نزول الآية (١١):

﴿وَإِن فَاتَكُمْ﴾أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾ الآية، نزلت في أم الحكم بنت أبي سفيان ارتدت، فتزوجها رجل ثقفي، ولم ترتد امرأة من قريش غيرها.

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٢٤١

المناسبة:

بعد بيان أحكام العلاقات بين المسلمين وغيرهم في حال السلم، أبان الله تعالى حكم ردّ النساء المهاجرات من بلاد الكفر إلى ديار الإسلام، والتزوج بهن عقب صلح الحديبية، والزواج بالمشركات، ورد مهور هؤلاء النساء إلى أزواجهن، وتعويض الأزواج المسلمين من الغنائم عن مهور زوجاتهن اللاتي ذهبن إلى بلاد الكفار، والاعتصام في كل ذلك بتقوى الله تعالى. قال القرطبي: لما أمر الله المسلمين بترك موالاة المشركين، اقتضى ذلك مهاجرة المسلمين عن بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، وكان التناكح من أوكد أسباب الموالاة، فبيّن أحكام مهاجرة النساء.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ إذا جاءكم النساء اللاتي آمنّ مهاجرات من بين الكفار، فاختبروهن، لتعلموا مدى رغبتهن في الإسلام، واسألوهن عن سبب مجيئهن. وقوله: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أمر بمعنى الوجوب، أو بمعنى الندب أو بمعنى الاستحباب.

وذلك أن النبي ﷺ لما صالح قريشاً يوم الحديبية على أن يردّ عليهم من جاءهم من المسلمين، فلما هاجر إليه النساء، أبى الله أن يُردَدْن إلى المشركين، وأمر بامتحانهن، فكن يتسجلفن بالله ما خرجن من بغض زوج، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا لالتماس دنيا، بل حباً لله تعالى ولرسوله ﷺ، ورغبة في دينه. فإذا حلفت على هذا النحو أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها، ولم يردّها إليه.

﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي إن الامتحان أمر في الظاهر فقط، أما في الحقيقة والواقع، فلا يعلم حقيقة حالهن

إلا الله سبحانه، والله أمركم بالظواهر، وهو يتولى السرائر، فإن غلب على ظنكم أنهن مؤمنات بحسب الظاهر بعد الامتحان الذي أمرتم به، فلا تردّوهن إلى أزواجهن المشركين الكافرين. وإنما سُمِّيَ الظن علماً من باب الظن الغالب، وما يفضي إليه الاجتهاد، والقياس جارٍ مجرى العلم.

قال ابن كثير: فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطِّلاع عليه يقيناً.

ثم أردف الله تعالى ذلك بأحكام أخرى تتعلق بهن، فقال:

أ - ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أي ليست المؤمنات حلالاً للكفار، وإسلام المرأة يوجب فرقتها من زوجها، لا مجرد هجرتها، وليس الكفار حلالاً للمؤمنات. وهذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة، ولهذا كان أبو العاص ابن الربيع زَوْجَ ابنة النّبي ﷺ زينب رضي الله عنها، وقد كانت مسلمة، وهو على دين قومه، فلما وقع في الأسارى يوم بدر، بعثت امرأته زينب في فدائه بقلادة لها، كانت لأمها خديجة، فلما رآها رسول الله ﷺ رقّ لها رقة شديدة، وقال للمسلمين: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فافعلوا» .

فأطلقه رسول الله ﷺ على أن يبعث ابنته إليه، فوفى له بذلك، وصَدَقه فيما وعده، وبعثها إلى رسول الله ﷺ مع زيد بن حارثة رضي الله عنه، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر سنة اثنتين، إلى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان، فردها عليه بالنكاح الأول، ولم يحدث لها صداقاً[(١)]، كما قال الإمام أحمد عن ابن عباس: «إن رسول الله ﷺ ردّ ابنته زينب على أبي العاص، وكانت هجرتها قبل إسلامه بست سنين على النكاح الأول، ولم يحدث شهادة ولا صداقاً[(٢)]». ومنهم من يقول: بعد سنتين.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٥١

(٢) ورواه أيضاً أبو داود والترمذي وابن ماجه.

وأخرج عبد بن حميد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أن رسول الله ﷺ ردّ ابنته على أبي العاص بن الربيع بمهر جديد ونكاح جديد» قال يزيد ابن هارون: حديث ابن عباس أجود إسناداً، والعمل على حديث عمرو بن شعيب. وأجاب الجمهور عن حديث ابن عباس بأن ذلك كان قضية عين يحتمل أنه لم تنقض عدتها منه؛ لأن الذي عليه الأكثرون أنها متى انقضت العدة، ولم يسلم، انفسخ نكاحها منه.

٢- ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾أي وادفعوا إلى أزواج المهاجرات من المشركين الذين غرموه عليهن من المهور. وهذا يدل على أن عهد صلح الحديبية اقتصر على ردّ الرجال دون النساء. قال الشافعي: وإذا طلبها غير الزوج من قراباته، منع منها بلا عوض.

٣- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي لا إثم ولا حرج عليكم أيها المؤمنون في الزواج بالمؤمنات المهاجرت إذا أعطيتموهن مهورهن، وبشرط انقضاء العدة، وتزويج الولي وغير ذلك.

٤- ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أي ويحرم عليكم أيها المؤمنون زواج المشركات والاستمرار معهن في العصمة الزوجية، فمن كانت له امرأة كافرة مشركة، فليست له بامرأة؛ لانقطاع عصمتها باختلاف الدين. وكان الكفار يتزوجون المسلمات، والمسلمون يتزوجون المشركات، ثم نسخ ذلك بهذه الآية. وهذا دال على تحريم صريح للمشركات، وهو خاص بهن، دون الكوافر من أهل الكتاب. وينفسخ الزواج ببقاء الزوجة على الشرك، ولا مانع من نكاح أختها أو نكاح امرأة خامسة، ما دامت في العدة.

ثبت في الصحيح كما تقدم عن المسور ومروان بن الحكم أن رسول الله ﷺ، لما عاهد كفار قريش يوم الحديبية، جاءه نساء من المؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ﴾ -إلى قوله-

﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ فطلق عمر بن الخطاب يومئذٍ امرأتين، تزوج إحداهما معاوية بن أبي سفيان، والأخرى صفوان بن أمية.

٥- ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ۚ﴾ أي وطالبوا بمهور نسائكم إذا ارتددن، وليطالبوا بمهور نسائهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين. قال المفسرون: كان من ذهب من المسلمات مرتدّة إلى الكفار من أهل العهد، يقال للكفار: هاتوا مهرها، ويقال للمسلمين إذا جاءت امرأة من الكفار إلى المسلمين وأسلمت: ردّوا مهرها على زوجها الكافر(١).

﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي ذلك المذكور من إرجاع المهور من الجهتين، والمذكور في صلح الحديبية واستثناء النساء منه هو حكم الله وشرعه يحكم به بين خلقه، والحكم متعلق بالمشركين بعد صلح الحديبية، بخلاف المشركين الذين لا عهد لهم. والله بليغ العلم لا تخفى عليه خافية، بالغ العلم بما يصلح عباده، بليغ الحكمة في أقواله وأفعاله، فلا يشرع إلا ما تقتضيه الحكمة.

قال ابن العربي: وكان هذا مخصوصاً بذلك الزمان في تلك النازلة خاصة بإجماع الأمة(٢)، أي رد المهور.

٦- ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ أي إن سبقكم وانفلت منكم وذهبت امرأة من أزواجكم إلى الكفار، بأن ارتدت المسلمة ورجعت إلى دار الكفر، ولو أهل كتاب، فأصبتم غنيمة من قريش بعد الانتصار في الحرب، فأعطوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا من الفيء

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٧٧٦

(٢) المرجع والمكان السابق، تفسير القرطبي: ١٨/ ٦٨.

والغنيمة إذا لم يرد المشركون على زوجها مهرها، واحذروا أن تتعرضوا لشيء مما يوجب العقوبة عليكم، وخافوا الله تعالى بتنفيذ حكمه وشرعه.

قال ابن عباس وآخرون: يعني إن لحقت امرأة رجل من المهاجرين بالكفار، أمر له رسول الله ﷺ أنه يعطى مثل ما أنفق من الغنيمة قبل أن تخمّس، أي قبل قسمتها أخماساً[1]. فقوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ معناه فغنمتم، أو ظفرتم. وقال الزهري: يعطى من مال الفيء.

والخلاصة: على الكفار رد مهر المرأة التي تعود إلى دار الكفر، فإن أمكن ذلك فهو الأولى، وإلا فمن الغنائم التي تؤخذ من أيدي الكفار.

روي عن الزهري ومسروق: أن من حكم الله تعالى أن يسأل المسلمون من الكفار مهر المرأة المسلمة إذا صارت إليهم، ويسأل الكفار من المسلمين مهر من صارت إلينا من نسائهم مسلمة، فأقر المسلمون بحكم الله تعالى، وأبى المشركون، فنزلت: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أي سبقكم وانفلت منكم.

وقال الحسن ومقاتل: نزلت في أم حكيم بنت أبي سفيان ارتدت وتركت زوجها عباس بن تميم القرشي، ولم ترتد امرأة من غير قريش غيرها، ثم عادت إلى الإسلام.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

أً- وجوب امتحان النسوة اللاتي هاجرن من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام، ليعرف مدى صدق إيمانهن وإخلاص إسلامهن. قال ابن عباس: كانت المِحْنة أن تُستحلف بالله أنها ما خرجت من بغض زوجها، ولا رغبة من

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ٧٠.

أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقاً لرجل منّا، بل حبّاً لله تعالى ولرسوله ﷺ. فإذا حلفت بالله الذي لا إله إلا هو على ذلك، أعطى النبي ﷺ زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

٢- أكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان ﷺ عاهد قريشاً في صلح الحديبية، من أنه يرد إليهم من جاءه منهم مسلماً، فنُسخ من ذلك النساء. وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن. ويرى بعضهم أن الآية نزلت بياناً لنص العقد، وأنه ما تناول إلا الرجال، غير أن هذا يكون من تخصيص العام المتأخر. وذهب جماعة إلى أن التعميم في عقد الصلح لم يكن من طريق الوحي، بل كان اجتهاداً منه ﷺ أثيب عليه بأجر واحد، وجاءت هذه الآية بعدم إقراره على هذا الاجتهاد. والتعميم الوارد في الصلح: «من جاء إلى محمد من قريش بدون إذن وليه، رده عليه»[1].

ويرى الحنفية أن هذا الحكم منسوخ في الرجال والنساء، ولا يجوز أن يهادن الإمام العدو على أن يرد إليهم من جاءه مسلماً؛ لأن إقامة المسلم بأرض الشرك لا تجوز، واستدلوا بقوله ﷺ: «أنا بريء من كل مسلم أقام مع مشرك في دار الحرب لا تَرَاءى ناراهما» أي تتراءى ناراهما، وهذا مجاز، أي يلزم المسلم أن يباعد منزله عن منزل المشرك، وينزل مع المسلمين في دارهم. فهذا ناسخ لردّ المسلمين إلى المشركين؛ إذ كان رسول الله ﷺ قد برئ ممن أقام معهم في دار الحرب.

ومذهب مالك والشافعي: أن هذا الحكم غير منسوخ، وعقد الصلح على ذلك جائز. قال الشافعي: وليس لأحد هذا العقد إلا الخليفة أو رجل يأمره؛ لأنه يلي الأموال كلها.

---

(١) نص المعاهدة كما أخرج البخاري عن مَرْوان والمِسْوَر: «أنه لا يأتيك أحد منا، وإن كان على دينك إلا رددته إلينا..» (نيل الأوطار: ٨/ ٣٧).

٣ً- إن هذا الامتحان في الظاهر، والله في الحقيقة أعلم بإيمانهن؛ لأنه متولّي السرائر. فإذا علم، أي غلب على الظن إيمان المهاجرات، لم يجز ردهن إلى بلاد الكفار، لأن الله لم يحل مؤمنة لكافر، ولا نكاح مؤمن مشركة. وسبب الفرقة هو إسلام المرأة لا هجرتها؛ لأن الله تعالى قال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فبيَّن أن العلة عدم الْحِلّ بالإسلام، وليس باختلاف الدار.

وقال أبو حنيفة ومالك: الذي فرّق بينهما هو اختلاف الدارين، روي عن ابن عباس أن اختلاف الدارين يقطع العصمة.

وعلى هذا إذا خرجت الحربية مسلمة، ولها زوج كافر في دار الحرب، وقعت الفرقة بينهما ولا عدة عليها، وقال أبو يوسف ومحمد: تقع الفرقة وعليها العدة. وإن أسلم الزوج بعد ذلك لم تحل له إلا بعقد زواج جديد، وهو رأي سفيان الثوري.

وقال مالك والشافعي: إن أسلم الزوج في العدة أي قبل أن تحيض ثلاثة حِيَض، فهي امرأته، ولا تحصل الفرقة إلا إذا انقضت العدة، فإذا انقضت العدة، فلا تحل له إلا بعقد جديد.

٤ً-يجب على المسلمين أن يردوا على زوج المرأة التي أسلمت ما أنفق من المهر، وذلك من الوفاء بالعهد، حتى لا يخسر الأمرين: الزوجة والمال.

٥ً- لا غُرْم للمهر إلا إذا طالب الزوج الكافر به، فإن ماتت المرأة قبل حضور الزوج لم نغرم المهر، إذ لم يتحقق المنع، أي منعها منه، وإن كان المهر المسمى خمراً أو خنزيراً لم نغرم شيئاً؛ لأنه لا قيمة له.

وللشافعي في هذا الحكم قولان: أحدهما -أن هذا منسوخ، والثاني- يعطى الزوج المهر إن طالب به، وليس ذلك لأحد من الأولياء سوى الزوج.

٦ً- إن المطالب برد مثل ما أنفق إلى الأزواج هو الإمام، من بيت المال.

وهذا الحكم - كما قال مقاتل - خاص برد صداق نساء أهل العهد، فأما من لا عهد له مع المسلمين، فلا يرد إليهم الصداق. وعلى هذا فلا مانع من العمل بهذا في المعاهدات التي تجري بين المسلمين وغيرهم في مثل تلك الحالة التي كان عليها المسلمون في الماضي، فإذا عاهدناهم على رد ما أنفقوا على أزواجهم وجب الوفاء بالعهد.

٧- يباح للمسلمين الزواج بالمهاجرات المسلمات إذا انقضت عدتهن لما ثبت من تحريم نكاح المشركة والمعتدّة، فإن أسلمت قبل الدخول، فلها التزوج في الحال، إذ لا عدة عليها.

٨- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ دليل على تحريم التزوج بالمشركات عبدة الأوثان، فهي خاصة بالكوافر من غير أهل الكتاب، أما الكتابيات (اليهوديات والنصرانيات) فيجوز الزواج بهن؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [المائدة: ٥/ ٥] .

فإذا أسلم وثني أو مجوسي ولم تسلم امرأته فرِّق بينهما وهو مذهب المالكية. ومنهم من قال: ينتظر بها تمام العدة، وهو قول الشافعي وأحمد. وقال الحنفية: إذا أسلمت المرأة، عُرِض على الزوج الإسلام، فإن أسلم وإلا فُرِّق بينهما.

وهذا الاختلاف إنما هو في المدخول بها، فإن كانت غير مدخول بها، فلا خلاف في انقطاع العصمة بينها وبين زوجها؛ إذ لا عدة عليها. وهذا مذهب مالك أيضاً في المرأة المرتدة وزوجها مسلم، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾. ومذهب الشافعي وأحمد: أنه ينتظر بها تمام العدة.

فإن كان الزوجان نصرانيين فأسلمت الزوجة: فمذهب مالك والشافعي وأحمد: الانتظار إلى تمام العدة، وكذا الوثني تُسلم زوجته، فإنه إن أسلم في عدتها فهو أحق بها. ومن العلماء من قال: ينفسخ النكاح بينهما.

٩ً- إذا ذهبت مسلمة مرتدةً إلى الكفار من أهل العهد، يطالب الكفار بمهرها، وإذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة، يرد إلى الكفار مهرها. وهذا الحكم كان مخصوصاً بزمان النبي ﷺ بعد صلح الحديبية.

١٠ً- إذا لم يدفع الكفار المعاهدون وغيرهم مهر امرأة ارتدت وذهبت إلى ديار الكفر، وجب تعويض زوجها من غنائم الحرب. وقال قتادة: هذا خاص في الكفار المعاهدين، ثم نسخ هذا في سورة براءة. وقال قوم: هو ثابت الحكم الآن أيضاً.

١١ً- حذر الله تعالى من مخالفة الأحكام السابقة، فقال في الآية الأولى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي ذلكم الحكم إلزموه، وقال في الآية الثانية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ أي احذروا أن تتعدوا ما أمرتم به.

مبايعة النبي ﷺ المهاجرات (بيعة النساء)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِىُّ﴾ :

وقرأ نافع (النبيء).

الإعراب:

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ﴾ ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾: جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير﴿يَأْتِينَ﴾ أو في موضع جر على الوصف لـ (بهتان).

﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾: في موضع نصب؛ لأنه يتعلق بـ ﴿يَئِسَ﴾ وتقديره: يئسوا من بعث أصحاب القبور، فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه.

البلاغة:

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾: كناية عن اللقيط.

﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ تشبيه مرسل مجمل. وفي الآية ما يسمى رد العجز على الصدر، فقد ختمت السورة بمثل ما بدئت به.

وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ﴾ فيه وضع الظاهر موضع الضمير، للدلالة على أن الكفر أيأسهم.

المفردات اللغوية:

﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ البيعة: العقد والعهد على التزام الطاعة. ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ أي بوأد البنات. ﴿بِبُهْتَٰنٍ﴾ أي بولد مفترى ملصق بالزوج كذباً. ﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾الافتراء: الكذب، والمراد يختلقن نسبة الولد إلى الزوج. ﴿مَعْرُوفٍ﴾ المعروف: كل ما ندب عليه الشرع من المحسنات؛ ونهى عنه من المستقبحات. والتقييد بالمعروف مع أن الرسول ﷺ لا يأمر إلا به، تنبيه على أنه لا يجوز طاعة مخلوق في معصية الخالق. ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ أي إذا بايعنك فبايعهن، أي فالتزم لهن بضمان الثواب حال الوفاء بهذه الأشياء. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ اطلب لهن المغفرة.

﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ عامة الكفار، أو اليهود إذ روي أنها نزلت في بعض فقراء المسلمين كانوا يواصلون اليهود، ليصيبوا من ثمارهم. ﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لكفرهم بها، أو لعلمهم بأنه لا حظ لهم فيها لمعاندة الرسول ﷺ. ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ من موتاهم أن يبعثوا، أي يرجعوا أحياء.

سبب النزول:

نزول الآية (١٢):

نزلت يوم الفتح، فإنه ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال، أخذ في بيعة النساء. أخرج البخاري عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها قالت: «إن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجرن إليه بهذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ - إلى قوله -: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: (قد بايعتك) كلاماً، ولا، والله ما مسَّتْ يده يد امرأة في المبايعة قط، ما بايعهن إلا بقوله: قد بايعتكِ على ذلك».

وفي صحيح مسلم عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «كان المؤمنات إذا هاجرن إلى رسول الله ﷺ يُمتَحنَّ بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ إلى آخر الآية. قالت عائشة: فمن أقرّ بهذا من المؤمنات فقد أقر بالمِحْنة، وكان رسول الله ﷺ إذا أقْررن بذلك من قولهن قال لهن رسول الله ﷺ: انطلقن فقد بايعتكن، ولا والله ما مسَّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قطُّ، غير أنه بايعهن بالكلام. قالت عائشة: والله، ما أخذ رسول الله ﷺ كفَّ امرأة قط؛ وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: قد بايعتُكنّ كلاماً».

وروي أنه ﷺ بايع النساء وبين يديه وأيديهن ثوب، وكان يشترط عليهن.

وروى أحمد عن أميمة بنت رقية التيمية قالت: أتيت رسول الله ﷺ في نساء لنبايعه، فأخذ علينا ما في القرآن: «ألا نشرك بالله شيئاً -حتى بلغ- ولا يعصينك في معروف، فقال: فيما استطعتُنَّ وأطقتُنَّ، قُلْنا: الله ورسولُه أرحمُ بنا من أنفسنا، قلنا: يا رسول الله، ألا تصافحنا؟ قال: إني لا أصافح النساء، وإنما قولي لامرأة واحدة قولي لمئة امرأة[1]». وزاد أحمد في رواية: «ولم يصافح منا امرأة».

نزول الآية (١٣):

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس قال: كان عبد الله بن عمر، وزيد بن الحارث يوادّان رجلاً من يهود، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ الآية.

المناسبة:

روي أن النبي ﷺ لما فرغ يوم فتح مكة من بيعة الرجال، أخذ في بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر أسفل منه يبايع النساء، بأمر رسول الله ﷺ ويبلغهن عنه.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ الآية: أي إذا جاءك المؤمنات بالله ورسوله يعاهدنك ويقصدن مبايعتك على الإسلام والطاعة، فبايعهن على ألا يشركن بالله شيئاً من وثن أو حجر أو ملَك أو بشر، ولا يسرقن من أموال الناس شيئاً، ولا يزنين (والزنى: الاعتداء على الأعراض) ولا يقتلن أولادهن: أي ولا يئدن البنات، وهو ما

(١) ورواه أيضاً الترمذي والنسائي وابن ماجه وابن جرير وابن أبي حاتم.

كانت تفعله الجاهلية من وأد البنات، ولا يلحقن بأزواجهن أولاداً ليسوا لهم، قال الفراء: كانت المرأة تلتقط المولود، فتقول لزوجها: هذا ولدي منك. فكان هذا من البهتان والافتراء.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾: وهو كل أمر وافق طاعة الله، أي كل ما أمر به الشرع، أو نهى عنه، كالنهي عن النَّوْح، وتمزيق الثياب، وجزّ الشعر، وشق الجيب، وخَمْش الوجوه، والدعاء بالويل، والخلوة بالأجنبي غير المحرم، فبايعهن، واطلب من الله المغفرة لهن بعد هذه المبايعة منك، إن الله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم، فلا يعذبهم بما اقترفوه قبل الإسلام، ويجزل لهم الثواب إذا وفّين بهذا العهد الذي حدث في فتح مكة.

رُوي أن النبي ﷺ لما قال: أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئاً، قالت هند بنت عُتْبة، وهي مُنْتَقبة، خوفاً من النبي ﷺ أن يعرفها، لِمَا صنعته بحَمْزَةَ يوم أُحد: والله ما عبدنا الأصنام، وإنك لتأخذ علينا أمراً ما رأيناك أَخذته على الرجال، تبايع الرجال على الإسلام والجهاد فقط، فقال ﷺ: «ولا تسرقن» فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، وإني أصيب من ماله قُوتنا؟ فقال أبو سفيان: هو لك حلال، فضحك النبي ﷺ وعَرَفها، وقال: «أنت هند؟» فقالت: عفا الله عما سلف.

فقال: «ولا تزنين» فقالت هند: أوتزني الحرة؟ فقال: «ولا تقتلن أولادكن» أي لا تئدن البنات ولا تسقطن الأجنة، فقالت هند: ربيناهم صغاراً وقتلتهم كباراً يوم بدر، فأنتم وهم أبصر أو أعلم، فضحك عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى استلقى، وكان ابنها البكر حَنْظلة بن أبي سفيان قُتل يوم بدر، وتبسم رسول الله ﷺ.

فقال: «ولا تأتين ببهتان تفترينه» وهو أن تلصق بزوجها ما ليس منه، فقالت هند: والله، إن البهتان لأمر قبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم

الأخلاق، فقال: «ولا تعصينني في معروف» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا، وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء.

وتحريم الزنى عام، قالﷺ: «اليدان تزنيان، والعينان تزنيان، والرِّجْلان تزنيان، والفرج يصدق ذلك أو يكذِّبه»[1].

وأكد النبي ﷺ تحريم النواح، فقال: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[2].

وعن عروة بن الزبير عن عائشةقالت: «جاءت فاطمة بنت عُتْبة تبايع رسول الله ﷺ، فأخذ عليها: ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين... » الآية، قال: فوضعت يدها على رأسها حياء، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة: «أقرّي أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا، قالت: نعم، فبايعها بالآية» .

ولم تقتصر بنود بيعة النساء عليهن، وإنما بويع بها الرجال أيضاً.

روى البخاري عن عبادة بن الصامت قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: «أتبايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا» قرأ آية النساء، «فمن وَفَى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له منها» .

---

(١) رواه مسلم عن أبي هرير بلفظ: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليدان تزنيان، وزناهما البطش، والرجلان تزنيان وزناهما المشي، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه» وأخرجه البخاري ومسلم عن ابن عباس بلفظ آخر.

(٢) رواه أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود.

وروى محمد بن إسحاق وابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن يفرض الحرب، على ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، وقال: فإن وفيتم فلكم الجنة».

ثم أكد تعالى النهي عن موالاة الكفار كما بدأ السورة، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ أي يا أيها المؤمنون برسالة الإسلام لا تتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم ولعنهم واستحقوا الطرد والإبعاد من رحمته، أولياء وأنصاراً وأصدقاء، وقد يئسوا من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل، وأصبحوا لا يوقنون بالآخرة بسبب كفرهم وعنادهم، بالرغم من قيام الأدلة والبينات والمعجزات على الإيمان بالله واليوم الآخر، كيأسهم من بعث موتاهم، لاعتقادهم عدم البعث.

قال ابن عباس: يريد حاطب بن أبي بَلْتَعة يقول: لا تتولوا اليهود والمشركين، وذلك لأن جمعاً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين لحاجتهم إليهم، فنهوا عن ذلك، ويئسوا من الآخرة. يعني أن اليهود كذبت محمداً ﷺ، وهم يعرفون أنه رسول الله ﷺ، وأنهم أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم إياه، فهم يئسوا من الآخرة، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، أي كما يئس الكفار الذين لا يؤمنون بالبعث من موتاهم أن يرجعوا أحياء. وسبب يأسهم من الآخرة تكذيبهم بصحة نبوة الرسول ﷺ.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآية الأولى على تحريم الشرك بالله، والسرقة، والزنى، وقتل

الأولاد، أي وأد البنات الذي كان في الجاهلية، وإلحاق الأولاد اللقطاء بغير آبائهم، وعصيان شرع الله فيما أمر ونهى.

وقد صرح في الآية بأركان النهي في الدين وهي ستة، ولم يذكر أركان الأمر، وهي ستة أيضاً: الشهادة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والاغتسال من الجنابة؛ لأن النهي دائم في كل الأزمان وفي كل الأحوال، فكان التنبيه على اشتراط الدائم آكد وأهم وأخطر. ولم تقتصر البيعة على هذه الأمور على النساء فقط، وإنما بويع عليها وفد من الأنصار في بيعة العقبة الأولى، فأصبح الحكم عاماً للرجال والنساء.

وأكدت الآية الثانية تحريم موالاة الكفار وتزويدهم بأخبار المسلمين، والإسرار إليهم، واتخاذهم أصدقاء وأخلاء، لأنهم لا يؤتمنون على مصالح المسلمين، بل يخونونهم ويفيدون من ذلك في قتالهم ومعاداتهم، ولأنهم قوم كفروا بالآخرة ولم يؤمنوا بالبعث والحساب، ويئسوا من ثواب الآخرة، كما يئس الكفار الأحياء من رجوع موتاهم أصحاب القبور إلى الدنيا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الصَّفِّ

مدنية، وهي أربع عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة (الصف)؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجهين:

١- نهت السورة السابقة في مطلعها وفي أثنائها وختامها عن موالاة الكفار من دون المؤمنين، وأمرت هذه السورة بوحدة الأمة ووقوفها صفاً واحداً تجاه الأعداء.

٢- ذكرت السورة المتقدمة أحكام العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم داخل الدول الإسلامية وخارجها، وقت السلم، وحرضت هذه السورة على الجهاد ورغبت فيه بسبب العدوان، وأنّبت التاركين للقتال وشبهتهم ببني إسرائيل الذين عصوا موسى عليه السلام حين ندبهم للقتال، ثم عصوا عيسى عليه السلام حين أمرهم باتباعه بعد إتيانه بالبينات والمعجزات، واتباع النبي محمد ﷺ الذي بشر به.

ما اشتملت عليه السورة:

إن محور السورة وموضوعها هو القتال وجهاد الأعداء، والتضحية في سبيل الله تعالى، وبيان ثواب المجاهدين العظيم، وذلك من الأحكام التشريعية التي تعنى به السورة المدنية عادة.

وقد بدئت السورة بتسبيح الله سبحانه وتنزيهه وتمجيده تنبيهاً لعظمة مُنزلها، وبيان خطورة ما ترشد إليه من وجوب الحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، ووقوفها صفاً واحداً في قتال الأعداء، لرفع منار الحق، وإعلاء كلمة الله تعالى، ثم لوم الذين يخالفون بعملهم أقوالهم.

ثم حذرت من الفرقة والعصيان والمخالفة شأن بني إسرائيل الذين عصوا أمر موسى وعيسى عليهما السلام حينما أمرهم موسى بقتال الجبارين، وأمرهم عيسى باتباعه واتباع الرسول أحمد ﷺ الذي يأتي بعده وتلك بشارة به: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى﴾ الآية، ثم ضربت المثل للمشركين بمن يريد إطفاء نور الله بأفواههم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا﴾.

وأردفت ذلك بالبشارة والإخبار بنصرة الإسلام ودعوته وتفوقه وغلبته على سائر الأديان، فهو دين الهدى والحق.

ثم رسمت طريق الهدى، وأوضحت منهاج السعادة الكبرى وسبيل النجاة من العذاب الأخروي بإعلان الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس، وبيان ثمرة الجهاد وهو النصر في الدنيا وثواب المجاهدين في الآخرة، وأكدت ذلك بالأمر بنصرة دين الله عز وجل، كمناصرة الحواريين دين عيسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ الآيات، وبالدعوة إلى نصرة الله يتناسب ختام السورة مع بدايتها.

فضلها:

أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن سَلاَم قال: تذاكرنا أيكم يأتي

رسول الله ﷺ، فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله؟ فلم يقم أحد منا، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً رجلاً، فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة، يعني سورة الصف كلها.

وأخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام أيضاً قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل لعملناه، فأنزل الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ قال عبد الله ابن سَلاَم، فقرأها علينا رسول ﷺ.

الدعوة إلى القتال في سبيل الله صفاً واحداً

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾

الإعراب:

﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾ ﴿مَقۡتًا﴾: تمييز منصوب، وفاعل ﴿كَبُرَ﴾ يفهم بالتفسير، وتقديره: كبر المقت مقتاً، مثل ﴿كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ﴾ [الكهف: ١٨/ ٥].
و﴿أَن تَقُولُواْ﴾ مرفوع على الابتداء، و﴿كَبُرَ مَقۡتًا﴾: خبر مقدم، وتقديره: قولكم ما لا تفعلون كبر مقتاً، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف وتقديره: هو أن تقولوا ما لا تفعلون، أو هو فاعل ﴿كَبُرَ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ ﴿صَفّٗا﴾: منصوب على المصدر في موضع الحال، و﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ

﴿مَّرۡصُوصٞ﴾: في موضع نصب على الحال من واو ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾ أي يقاتلون مشبهين بنياناً مرصوصاً.

البلاغة:

﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ استفهام بأسلوب التوبيخ والإنكار، وما في قوله ﴿لِمَ﴾ استفهامية حذفت ألفها تخفيفاً.

﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٣﴾ بعد قوله: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾إطناب بتكرار اللفظ لبيان شدة قبح ما فعلوا. وقوله: ﴿تَقُولُواْ﴾ و﴿تَفۡعَلُونَ﴾بينهما طباق.

﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ تشبيه مرسل مفصَّل، حذف منه وجه الشبه، أي في المتانة والالتئام.

المفردات اللغوية:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ نزهه ومجَّده ودل عليه، واللام مزيدة .﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ جيء بقوله: ﴿مَا﴾ وليس (مَنْ) تغليباً للأكثر .﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ القوي الغالب القاهر في ملكه .﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في صنعه وتدبير أمور خلقه.

﴿لِمَ تَقُولُونَ﴾ ﴿لِمَ﴾ مركبة من لام الجر وما الاستفهامية، والأكثر حذف ألفها مع حرف الجر تخفيفاً لكثرة استعمالها معاً ودلالتهما على المستفهم عنه، أي لأي شيء تقولون: قد فعلنا، مع أنكم لم تفعلوا، والمقصود التأنيب والتوبيخ على المغالطة والكذب في طلب الجهاد وغيره، مع أنهم انهزموا يوم أحد .﴿كَبُرَ﴾ عظم .﴿مَقۡتًا﴾ المقت: أشد البغض .﴿يُحِبُّ﴾ يرضى ويكرم وينصر .﴿صَفّٗا﴾أي صافين .﴿مَّرۡصُوصٞ﴾ متراص من غير فُرجة أو متلاصق محكم، والرص: اتصال أجزاء البناء وإحكامه.

سبب نزول الآية (١، ٢):

أخرج الترمذي كما تقدم والحاكم وصححه والدارمي عن عبد الله بن سَلام قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ، فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ فقرأها علينا رسول الله ﷺ حتى ختمها. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس نحوه، قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه، فنعمل به، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لا شك فيه، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به، وإقرار برسالة نبيه ﷺ، فلما نزل الجهاد، كره ذلك ناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره، فأنزل الله الآية[1].

ويؤيد ذلك قول عبد الله بن رَواحة: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله، لعملناه؛ فلما نزل الجهاد كرهوه.

التفسير والبيان:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾﴾ أي نزّه الله ومجده لعظمته وقدرته ووحدانيته وجميع صفات كماله جميعُ ما في السماوات وما في الأرض من العقلاء وغير العقلاء، وهو القوي الغالب القاهر فوق عباده الذي لا يغالب، الحكيم في أفعاله وأقواله، وفي تدبير خلقه وتصريف أمورهم وإرشادهم.

وفيه الإرشاد إلى مشروعية التسبيح في كل الأوقات، ثم أرشد خلقه إلى فضائل الأخلاق والأعمال، فقال:

(١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٨٥

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله، لأي شيء تقولون قولاً وتخافونه عملاً. وهذا إنكار على من يَعِد وعداً، أو يقول قولاً لا يفي به، قال ابن كثير: ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً، سواء ترتب عليه غرم للموعود أم لا، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا وَعَد أخلف، وإذا حدَّث كذَب، وإذا اؤتمن خان» . وفي الحديث الآخر في الصحيح: «أربعٌ من كُنَّ فيه، كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها» فذكر منهن إخلاف الوعد.

وذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى إلى أنه إذا أدخل الموعود به في ورطة، وجب الوفاء به، كما لو قال لغيره: تزوج ولك علي كل يوم كذا، فتزوج وجب عليه أن يعطيه، ما دام كذلك؛ لأنه تعلق به حق آدمي، وهو مبني على المضايقة.

وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب ديانة مطلقاً الوفاء بالوعد، وإن كان يجب ديانة ومروءة، وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم، فلما فرض نكل عنه بعضهم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ﴾ [النساء: ٤/٧٧-٧٨] وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ [محمد: ٤٧/٢٠] .

ثم ذمهم سبحانه على مخالفة القول العمل، فقال:

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ أي عظم جُرْماً أن تقولوا قولاً وتفعلون غيره، فإن خلف الوعد دليل على حب الذات (الأنانية) وإهدار لمصلحة وكرامة ووقت الآخرين، وإخلال بالثقة بين الأفراد والجماعات، وما أسوأ خلف الوعد وأقبح بصاحبه، لذا كان مبغوضاً عند الله أشد البغض ومعاقباً عليه، كما هو مبغوض مستنكر مذموم عند الناس جميعاً.

وفي مقابل ذم التاركين للقتال الهاربين منه، مدح الله تعالى الذين أقدموا على القتال، فقال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ أي إن الله يرضى عن المقاتلين، ويثيب ثواباً جزيلاً الذين يقاتلون في سبيل الله، صافّين أنفسهم صفاً واحداً، وكتلة متراصة لا تتزحزح من المواقع، كأنهم بناء راسخ شامخ ملتزق بعضه ببعض دون فُرَج كقطعة واحدة.

وهذا تعليم من الله للمؤمنين كيف يكونون عند قتال عدوهم، وحث على الجهاد بأسلوب آخر، ودليل على قوتهم وشدتهم في أمر الله، دون تراخٍ فيهم، وإشارة إلى إحكام أمر القتال، وتنفيذ مهمة الجهاد بدقة وإتقان، وتضامن واجتماع حازم على وحدة الكلمة، وإمضاء الأمر بعزيمة لا تعرف اللين، وهمة لا تردد فيها، ولقاء للعدو بقلوب ثابتة راسخة لا تخاف ولا تخشى الموت. وهكذا تبني الأمم القوية أمجادها، وتثبت هيبتها وشخصيتها الذاتية، وتنتزع احترام الآخرين لها.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- إن تسبيح الله وتنزيهه وتمجيده من جميع ما في السماوات وما في الأرض دليل على الربوبية والوحدانية والعظمة والقدرة والاتصاف بجميع صفات الكمال.

٢- توجب آية: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ، كَبُرَ مَقْتًا﴾ على كل من ألزم نفسه عملاً فيه طاعة أن يفي بها، فإن من التزم شيئاً لزمه شرعاً.

والملتَزم قسمان:

أحدهما: -النذر: وهو نوعان: نذر تقرّب مبتدأ، كقوله: لله علي صوم وصلاة وصدقة، ونحوه من القُرَب، فهذا يلزم الوفاء به إجماعاً. ونذر مباح معلق على شرط، مثل إن قدم غائبي فعلي صدقة، أو إن كفاني الله شرّ كذا فعلي صدقة، فقال أكثر العلماء: يلزمه الوفاء به. ورأى بعضهم أنه لا يلزمه الوفاء به، والآية حجة للأكثرين؛ لأنها بمُطْلَقها تتناول ذمّ من قال ما لا يفعله، على أي وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط. ويرى الشافعي أن نذر اللجاج والغضب لا يجب الوفاء به، وهو ما لا يقصد به النذر والقربة، مثل: إن كلمت فلاناً فلله علي صوم أو نحوه.

والثاني- الوعد: فإن كان متعلقاً بسبب، كقوله: إن تزوجت أعنتك بدينار، أو ابتعت شيئاً أعطيتك كذا، فهذا لازم إجماعاً من الفقهاء. وإن كان وعداً مجرداً، فقيل: يلزم، عملاً بسبب نزول الآية المتقدم، وقيل: لا يلزم، قال ابن العربي والقرطبي: والصحيح عندي أن الوعد يجب الوفاء به على كل حال إلا لعذر[1].

٣- إن خلف الوعد مذموم شرعاً، مستوجب للإثم والمؤاخذة، أما في الماضي فيكون كذباً، وأما في المستقبل فيكون خُلْفاً، وكلاهما مذموم.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ١٧٨٨/٤، تفسير القرطبي: ٧٩/١٨ .

٤ً- يرضى الله سبحانه عن الذين يقاتلون في سبيله صفاً واحداً، وهذا يدل على وجوب الثبات في الجهاد في سبيل الله، ولزوم المكان كثبوت البناء.

ولا يجوز الخروج عن الصف إلا لحاجة تعرض للإنسان، أو لأداء رسالة يرسلها الإمام أو القائد، أو لمنفعة تظهر في المقام، كفرصة تنتهز ولا خلاف فيها، أو للخروج للمبارزة إذا طلبها العدو، كما كانت حروب النبي ﷺ يوم بدر وفي غزوة خيبر.

التذكير بقصة موسى وعيسى عليهما السلام مع بني إسرائيل

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾

القراءات:

﴿بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (بعديَ اسمه).

﴿سِحْرٌ﴾ :

وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف (ساحِر).

﴿مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾: قرئ:

١- (متمُّ نورِهِ) وهي قراءة ابن كثير، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (متمٌّ نورَهُ) وهي قراءة باقي السبعة.

الإعراب:

﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ﴾ في موضع الحال.

﴿يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ جملة ﴿يَأۡتِي﴾: جملة فعلية في موضع جر؛ لأنها صفة لرسول. و﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ جملة اسمية من المبتدأ والخبر في موضع جر؛ لأنها صفة بعد صفة.

﴿لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ منصوب بأن مقدرة، واللام مزيدة.

البلاغة:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ﴾ استعارة، شبَّه من أراد إبطال الدين بمن أراد إطفاء الشمس بفمه، واستعار نور الله لدينه وشرعه.

﴿ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ﴿مُّبِينٞ﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إلخ سجع لطيف مقبول.

المفردات اللغوية:

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى﴾ أي واذكر حين قال، وهو كلام مستأنف مقرر لما قبله من ذم التاركين للقتال والمخالفين أمر الرسولﷺ ﴿يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾ بالعصيان ومخالفة أمري إذ تركتم القتال، ومن الأذى أيضاً الرمي بالأدَرَة، أي بانتفاخ الخصية، وهو كذب وافتراء ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ بما جئتكم من المعجزات، وفائدة (قَدْ) تأكيد العلم، لا تقليله، كأنه قال:

وتعلمون علماً يقيناً لا شبه لكم فيه، وفيه إشارة إلى نهاية جهلهم؛ إذ عكسوا القضية، وصنعوا مكان تعظيم رسول الله ﷺ إيذاءه. ﴿زَاغُوٓاْ﴾ مالوا عن الحق والهدى الذي جاء به موسى بإيذائه. ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ أمالها عن الهدى وصرفها عن قبول الحق والميل إلى الصواب. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ لا يوفق إلى معرفة الحق أو إلى الجنة القوم الكافرين الخارجين عن الطاعة.

﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ﴾ أي واذكر. ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لم يقل: يا قوم؛ لأنه لم يكن له فيهم قرابة. ﴿لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾ لما تقدمني أو قبلي من الكتب كالتوراة والزبور. ﴿أَحۡمَدُۖ﴾ من أسماء النبي ﷺ، أي أحمد الناس لربه. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم﴾ جاء أحمد الناس الكفار. ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾الأدلة والعلامات والمعجزات. ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾أي قالوا: هذا المجيء به سحر بيِّن. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾الكافرين، أي لا يرشدهم إلى ما فيه فلاحهم.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ﴾ أي يريدون أن يطفئوا، واللام مزيدة لما فيها من معنى الإرادة تأكيداً. ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ شرعه ودينه أو كتابه والحق الذي جاء به الرسول ﷺ. ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾بأفواههم: إنه سحر وشعر وكهانة. ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ مظهر دينه وناشره في الآفاق. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ ذلك الانتشار الشامل لدعوة الإسلام إرغاماً لهم.

﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ بالقرآن أو المعجزة. ﴿وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ الملة الحنيفية. ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليعليه على جميع الأديان. ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ لما فيه من الدعوة إلى التوحيد المحض، وإبطال الشرك.

سبب النزول:

نزول الآية (٨):

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ﴾: حكى الماوردي عن عطاء عن ابن عباس: أن النبي ﷺ

أبطأ عليه الوحي أربعين يوماً؛ فقال كعب بن الأشرف: يا معشر اليهود، أبشروا! فقد أطفأ الله نور محمد فيما كان ينزل عليه، وما كان ليتمّ أمره، فحزن رسول الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية، واتصل الوحي بعدها[1].

المناسبة:

بعد الحث على الجهاد وتأنيب المتخلفين عنه، التاركين للقتال، ذكّر الله المؤمنين بقصة موسى عليه السلام مع قومه حين دعاهم إلى قتال الجبارين بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٥/ ٢١] فخالفوه وعصوا أمره، كيلا يفعلوا بنبيهم مثلما فعل به بنو إسرائيل. ثم ذكَّرهم أيضاً بقصة عيسى عليه السلام مع بني إسرائيل أيضاً حين جاءهم بالبينات والمعجزات وبشرهم بمجيء رسول من بعده اسمه أحمد، فعصوه ولم يمتثلوا أمره. وقرنت القصتان هنا لأن كلّاً من موسى وعيسى من أنبياء بني إسرائيل، ولأن المخالفين هم أنفسهم.

ثم شنع على هؤلاء العصاة الذين لم يستجيبوا لدعوة النبي إلى الإسلام، وإنما افتروا على الله الكذب بوصف المعجزات بأنها سحر، ثم ذكَر غرضهم من الافتراء وهو محاولة إبطال دين الله وإطفاء نوره وشرعه، والحال أن الله متم نوره، ومظهر دينه على الأديان كلها.

التفسير والبيان:

يحذِّر الله سبحانه أمة محمد ﷺ من مخالفة أمر نبيهم بأن يفعلوا مع نبيهم ما فعله قوم موسى وعيسى معهما، فيقول:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ

(١) تفسير القرطبي ١٨/ ٨٥

﴿ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ﴾ أي واذكر يا محمد لقومك خبر موسى بن عمران عليه السلام حين قال لقومه بني إسرائيل: يا قوم لِمَ تلحقون الأذى بي بمخالفة ما آمركم به من الشرائع التي افترضها الله عليكم، أو لِمَ تؤذونني بالشتم والانتقاص، وأنتم تعلمون يقيناً صدقي فيما جئتكم به من الرسالة، والرسول يُحترم ويُعظم، وقد شاهدتم معجزاتي التي توجب الاعتراف برسالتي.

وهذا تعليم للمؤمنين ونهي لهم عن إيذاء نبيهم كما أوذي موسى عليه السلام، كما جاء في آية أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٦٩] وفي هذا أيضاً تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم، وأمرٌ له بالصبر، ولهذا قال: « رحمة الله على موسى: لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر ».

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي وإنهم لما تركوا الحق ولم يتبعوا نبيهم وآذوه، أمال الله قلوبهم عن الهدى، وصرفها عن الحق، وأسكنها الشك والحيرة، جزاء بما ارتكبوا، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ٦/ ١١٠] .

والله لا يوفق للحق ولا يرشد للهداية القوم الكافرين الذين كفروا بأنبيائهم، وعصوا رسلهم، وهؤلاء من جملتهم.

- ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾أي واذكر يا محمد أيضاً لقومك خبر عيسى إذا قال: يا بني إسرائيل، إني رسول الله إليكم بالإنجيل، لم آتكم بشيء يخالف التوراة، وإنما أؤيدها وأكملها، فكيف تعصونني وتنفرون عني وتخالفونني؟!

﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾أي إن التوراة قد بشرت بي، وأنا

مصداق ما أخبرت عنه، وأنا مبشر بمن بعدي، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد: وهو الذي يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره. وهو خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، كما أن عيسى خاتم أنبياء بني إسرائيل.

أورد البخاري ومسلم عن جبير بن مُطْعِم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناس على قدمي- أي بعدي-، وأنا العاقب» أي الآخر الآتي بعد الأنبياء. وروى مسلم وأبو داود الطيالسي عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء، منها ما حفظنا، فقال: «أنا محمد، وأنا أحمد، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة والتوبة والملحمة» .

وعن كعب الأحبار: أن الحواريين قالوا لعيسى: ياروح الله، هل بعدَنا من أمة؟ قال: نعم، أمة محمد، حكماء علماء أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل.

وجاء في الفصل العشرين من السِّفْر الخامس من التوراة: «أقبل الله من سينا، وتجلّى من ساعير، وظهر من جبال فاران، معه الربوات الأطهار عن يمينه» . وسينا مهبط الوحي على موسى، وساعير مهبط الوحي على عيسى، وفاران جبال مكة مهبِط الوحي على محمد.

وجاء في إنجيل يوحنا في الفصل الخامس عشر: قال يسوع المسيح: إن الفارَقْليط روح الحق الذي يرسله أبي، يعلمكم كل شيء، والفارقليط: لفظ يدل على الحمد، وهو إشارة إلى أحمد ومحمد اسمي النبي ﷺ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي حين جاء أحمد المبشَّر به في الكتب المتقدمة بالأدلة والمعجزات القاطعة، قال الكفرة والمخالفون: هذا

الذي جئت به سحر واضح لا شك فيه. وقيل: المراد لما جاءهم عيسى بالمعجزات، قالوا: هذا الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر.

ثم ذكر الله تعالى حكم المعارضين المخالفين الذين دعوا إلى الإسلام وتوحيد الله، فقال:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله، ويجعل له أنداداً وشركاء، وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص، والله لا يرشد للحق والصواب الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم، وهؤلاء منهم.

- ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ أي إن هؤلاء يحاولون جاهدين إبطال دعوة الإسلام، ومنع هدايته، ومقاومة دعوته بأفواههم الكاذبة، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفئ شعاع الشمس بفيه، وكما أن هذا مستحيل، كذلك إبطال دعوة الإسلام مستحيل، ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي والله مظهر دين الإسلام في الآفاق، ويعليه على غيره من الأديان، ومؤيد رسوله محمد ﷺ، ولو كره الكافرون ذلك.

- ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ أي إن الله عز وجل هو الذي أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى الكامل، ودين الحق الأبلج الواضح، المتمثل بالقرآن والسنة النبوية، ليجعله متفوقاً منتصراً على جميع الأديان، عالياً عليها، غالباً بالمنطق والواقع لها، ولو كره المشركون ذلك، فإنه كائن لا محالة.

وإنما قال أولاً: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وهم اليهود والنصارى والمشركون، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لأنه ذكر أولاً النور وإطفاءه، فكان اللائق به الكفر: وهو الستر والتغطية، ثم ذكر الرسول والإرسال ودين الحق، وكان

الاعتراض عليه أولاً من المشركين، ولأن أكثر الحاسدين للرسول ﷺ من قريش، وهم المشركون. ولما كان النور أعم من الدين والرسول ﷺ، ناسبه ذكر الكافرين الذين هم جميع مخالفي الإسلام، ولفظ الكافر أعم من لفظ المشرك، والرسول والدين أخص من النور، فناسبه ذكر المشركين الذين هم أخص من الكافرين(١).

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- إن مخالفة أوامر الأنبياء والرسل موجبة لعقاب المخالفين، وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يذكر لقومه العرب أنه لما أمر المؤمنون بالجهاد، فتثاقل بعضهم وتبرموا منه، كان حالهم كحال بني إسرائيل لما أمرهم موسى وعيسى بالتوحيد والجهاد في سبيل الله، خالفوا، فحل العقاب بمن خالف.

٢- يريد الله الخير لعباده، ولا يضل أحداً بغير موجب، فلا يضل المهتدين، وإنما يضل الظالمين والفاسقين، ولما زاغ بنو إسرائيل (مالوا عن الحق) أزاغ الله قلوبهم، أي أمالها عن الهدى وعن الطاعة والإيمان والثواب.

٣- نزل الإنجيل على عيسى عليه السلام متمماً للتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، فلم يأتهم عيسى بشيء يخالف التوراة، فينفروا عنه، وقد بشرت التوراة بعيسى، وبشر عيسى بالنبي محمد ﷺ، وهذا أمر منطقي؛ لأن رسالات الأنبياء صلوات الله عليهم كلهم يكمل بعضها بعضاً، فهي من مصدر واحد، وذات غاية واحدة تنحصر في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته والإيمان بالرسل والملائكة والكتب الإلهية واليوم الآخر.

---

(١) تفسير الرازي: ٢٩/ ٣١٥-٣١٦

٤ً- سمى الله نبينا ﷺ باسمه قبل أن يسمِّي به نفسه، ومعنى (أحمد) أنه أحمد الحامدين لربه، والأنبياء عليهم السلام كلهم حامدون لله، ونبينا أحمد أكثرهم حمداً. ومحمد: هو الذي حُمِد مرة بعد مرة، واسمه صادق عليه، فهو محمود في الدنيا لما هَدَى إليه، ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة، ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد، حَمِد ربه فشرفه بالنبوة، فلذلك تقدم اسم (أحمد) على (محمد) في بشارة عيسى عليه السلام: ﴿ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾. وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة محمد.

٥ً- كل من عيسى ومحمد عليهما السلام لما جاء بالبينات أي المعجزات والأدلة على النبوة، قال المعارضون: هذا سحر مبين.

٦ً- إن الكفر بعيسى ومحمد عليهما السلام بعد المعجزات التي ظهرت لهما، أمر يدعو إلى العجب، والكافرون برسالات الأنبياء، المنكرون لوجود الله، أو المشركون به أحداً من خلقه هم أظلم الناس على الإطلاق.

٧ً- كل محاولات الكفرة لإبطال دين الله تعالى ومقاومة دعوة الإسلام بالإنكار والتكذيب خائبة خاسرة، ومثلهم في إرادة إبطال الحق مثل من أراد إطفاء نور الشمس بفيه، فوجده مستحيلاً ممتنعاً.

٨ً- الله متم نوره بقدرته وتدبيره، ومعلن دينه بإظهاره في الآفاق، ولو كره الكافرون جميعاً ذلك.

٩ً- أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالحق والرشاد، ليعليه على جميع الأديان بالحجج، ولو كره المشركون قاطبة ذلك. وقال أبو هريرة: "ليظهره

على الدين كله" بخروج عيسى. وحينئذ لا يبقى كافر إلا أسلم. جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لينزلن ابن مريم حَكَمًا عادلاً، فلَيكسرِّن الصليب، وليقتُلَنَّ الخنزير، ولَيَضَعنَّ الجزية، ولَتُتْركنَّ القِلاص[1]، فلا يُسعى عليها، ولَتَذْهَبَن الشحناءُ والتباغضُ والتحاسدُ، ولَيَدْعَون إلى المال، فلا يقبلُه أحد».

التجارة الرابحة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾

القراءات:

﴿تُنجِيكُم﴾:

وقرأ ابن عامر (تُنجِّيكم).

﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (أنصاراً لله).

---

(١) القَلُوص جمع قُلُص وقلائص وهي الناقة الشابة، وجمع القُلُص: قِلاص.

﴿أَنصَارِيَ إِلَى﴾:

وقرأ نافع (أنصاريَ إلى).

الإعراب:

﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ خبر معناه الأمر، أي آمنوا، بدليل قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ بجزم ﴿يَغْفِرْ﴾ على الجواب، وتقديره: آمنوا، إن تؤمنوا يغفر لكم، ولولا أنه في معنى الأمر، لما كان للجزم وجه.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾: إما في موضع جر عطفاً على قوله: ﴿تِجَارَةٍ﴾ وتقديره: وعلى تجارة أخرى، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه. وإما في موضع رفع على الابتداء، أي ولكم خَلَّة أخرى. والوجه الأول أوجه. و﴿تُحِبُّونَهَا﴾: جملة فعلية في موضع جر أو رفع؛ لأنها وصف بعد وصف. ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ﴾: خبر مبتدأ محذوف، أي هي نصر من الله.

﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ ﴿ظَاهِرِينَ﴾: خبر (أصبح) المنصوب.

البلاغة:

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ﴾ ؟ استفهام للترغيب والتشويق.

﴿فَآمَنَت طَّائِفَةٌ﴾ ﴿وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿تِجَارَةٍ﴾ التجارة هنا: العمل الصالح، وهي في الأصل: تداول البيع والشراء لأجل الكسب. ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ﴾ أي تدومون على الإيمان، وهو كلام مستأنف مبين لنوع التجارة وهو الجمع بين الإيمان والجهاد، والمراد به الأمر، أي آمنوا، وإنما جيء بلفظ الخبر إيذاناً بأن ذلك

مما لا يترك. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾أي ما ذكر من الإيمان والجهاد. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم؛ إذ الجاهل لا يعتد بفعله.

﴿يَغْفِرْ﴾ جواب للأمر المراد من الخبر: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ أو جواب الشرط المقدر أي إن تفعلوه يغفر. ﴿طَيِّبَةً﴾ طاهرة خالصة. ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ بساتين إقامة دائمة. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ إشارة إلى ما ذكر من المغفرة وإدخال الجنة.

﴿وَأُخْرَىٰ﴾ أي ولكم نعمة أخرى أو ويؤتكم نعمة أخرى. ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ فيه تعريض بأنهم يؤثرون العاجل على الآجل. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ نصر عاجل، وهو فتح مكة. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر والفتح، وهو معطوف على محذوف وهو: قل: يا أيها الذين آمنوا، أو على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ الذي هو في معنى الأمر، أي آمنوا وجاهدوا وبشرهم يا رسول الله بما وعدتهم عليهما عاجلاً وآجلاً.

﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾أي بعض أنصار الله الناصرين لدينه، أي قل لهم كما قال عيسى. ﴿لِلْحَوَارِيِّۦنَ﴾ أصفياء عيسى وخواصه، وهم أول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً، والحواري: صفي الرجل وخليله، من الحور: البياض الخالص. ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي من جندي متوجهاً إلى نصرة الله. ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ آمنت جماعة بعيسى عليه السلام، وقالوا: إنّه عبد الله رفع إلى السماء. ﴿وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ بعيسى، لقولهم: إنه ابن الله رفعه إليه، فاقتتلت الطائفتان. ﴿فَأَيَّدْنَا﴾ وساعدنا، أي بالحجة أو بالحرب، وذلك بعد رفع عيسى. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من الطائفتين. ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ الطائفة الكافرة. ﴿ظَٰهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبينة.

سبب النزول:

نزول الآية(١٠):

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾: أخرج ابن جرير عن أبي صالح قال: قالوا: لو كنا نعلم أي

الأعمال أحب إلى الله وأفضل؟ فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ الآية، فكرهوا الجهاد، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس نحوه. وأخرج عن ابن عباس، وابن جرير عن الضحاك قال: أنزلت: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ في الرجل يقول في القتال ما لم يفعله من الضرب والطعن والقتل.

نزول الآية (١١):

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠﴾ قال المسلمون: لو علمنا ما هذه التجارة، لأعطينا فيها الأموال والأهلين، فنزلت: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

المناسبة:

بعد حث المؤمنين على الجهاد في سبيل الله، وتحذيرهم من المخالفة، حتى لا يكونوا أمثال بني إسرائيل الذين خالفوا موسى وعيسى، ذكر الله تعالى أن التجارة الرابحة التي لا تبور هي في الإيمان بالله والجهاد في سبيله بالمال والنفس. ثم حث على مناصرة دين الله تعالى وشرعه ورسوله ﷺ كما ناصر الحواريون عيسى عليه السلام.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، ألا أرشدكم إلى تجارة نافعة رابحة، تحققون بها النجاح والنجاة من العذاب الشديد المؤلم يوم القيامة؟

وهذا أسلوب فيه ترغيب وتشويق، وقد جعل العمل الصالح لنيل الثواب العظيم بمنزلة التجارة؛ لأنهم يربحون فيه كما يربحون فيها، وذلك بدخولهم الجنة ونجاتهم من النار، ونوع التجارة كما بيَّنت الآيتان التاليتان، ومعناهما أن الإيمان والجهاد ثمنهما من الله الجنة، وذلك بيع رابح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة: ٩/١١١].

ثم بين نوع التجارة بقوله:

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ﴾ أي هي أن تدوموا على الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، وتخلصوا العمل لله، وتجاهدوا من أجل إعلاء كلمة الله ونشر دينه بالأنفس والأموال. وقدم تعالى الأموال؛ لأنها التي يبدأ بها في الإنفاق.

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أي ذلك المذكور من الإيمان والجهاد خير لكم وأفضل من أموالكم وأنفسكم، ومن تجارة الدنيا والاهتمام بها وحدها، إن كنتم من أهل العلم والوعي للمستقبل، فإن المهم هو النتائج والغايات، ولا يدرك تلك الغاية النبيلة أهل الجهل.

والجهاد نوعان: جهاد النفس، وهو منعها عن الشهوات، وترك الطمع والشفقة على الخلق ورحمتهم، وجهاد العدو: وهو مقاومة الأعداء ورد عدوانهم من أجل نشر دين الله تعالى.

ثم ذكر ثمرة الإيمان والجهاد، فقال:

﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم، غفرت لكم ذنوبكم، وأدخلتكم الجنات التي تجري من تحت قصورها الأنهار، والمساكن

الطيبات للنفوس، والدرجات العاليات في جنات الإقامة الدائمة التي لا تنتهي بموت ولا خروج منها، وذلك المذكور من المغفرة وإدخال الجنات هو الفوز الساحق الذي لا فوز بعده. وهذه هي الفائدة الأخروية.

ثم ذكر الله تعالى الفائدة الدنيوية بقوله:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ أي ولكم خصلة أو نعمة أخرى تعجبكم هي نصر مبين من الله لكم، وفتح عاجل للبلاد كمكة وغيرها من بلاد فارس والروم، أي إذا قاتلتم في سبيل الله، ونصرتم دينه، تكفل الله بنصركم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧/٤٧] وقال سبحانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٢٢/ ٤٠].

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وبشر أيها الرسول المؤمنين بالنصر العاجل في الدنيا، وبالجنة في الآخرة. ثم أمرهم الله تعالى بنصرة دينه ورسوله ﷺ في كل وقت، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، دوموا على ما أنتم عليه من نصرة دين الله وتأييد شرعه ورسوله ﷺ، في جميع الأحوال بالأقوال والأفعال، والأنفس والأموال، واستجيبوا لله تعالى ولرسوله ﷺ، كما استجاب الحواريون (أصفياء المسيح وخلصاؤه) لعيسى حين قال لهم: من الذي ينصرني ويعينني في الدعوة إلى الله عز وجل، ومن منكم يتولى نصري وإعانتي فيما يقرب إلى الله، أو من أنصاري متجهاً إلى نصرة الله؟

قال الحواريون: وهم أنصار المسيح وخُلّص أصحابه، وأول من آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً: نحن أنصار دين الله، ومؤيدوك ومؤازروك فيما أرسلت به، فبعثهم دعاة إلى دينه في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين.

وهكذا كان رسول الله ﷺ ينادي في أيام الحج: «من رجل يؤويني حتى أبلِّغ رسالة ربي، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلّغ رسالة ربي؟» حتى قيَّض الله الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه على نشر دينه في بلدهم.

﴿فَآمَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ أي لما بلّغ عيسى رسالة ربه إلى قومه، وآزره الحواريون، اهتدت طائفة من بني إسرائيل إلى الإيمان الحق وآمنوا بعيسى على حقيقته أنه عبد الله ورسوله، وضلّت طائفة أخرى، وكفرت بعيسى، وجحدوا نبوته، واتهموه وأمه بالفاحشة، وتغالت جماعة أخرى من أتباعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة، فوصفوه بأنه ابن الله أو هو الله أو ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس. وصارت النصارى فرقاً وأحزاباً كثيرة.

﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ أي فنصرنا المؤمنين على من عاداهم من فرق النصارى، وقوّينا المحقّين منهم بالحجة والروح من عندنا على المبطلين، فأصبحوا عالين غالبين عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٤٠/ ٥١] .

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد عن قتادة في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله، جاءه سبعون رجلاً، فبايعوه عند العقبة، وآووه ونصروه، حتى أظهر الله دينه.

وأخرج ابن إسحاق وابن سعد: قال رسول الله ﷺ للنفر الذين لقوه بالعقبة: « أخرِجُوا إلي اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم، كما كفلت الحواريون لعيسى ابن مريم ». ثم قال رسول ﷺ للنقباء: «إنكم كفلاء على قومكم، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي، قالوا: نعم» .

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يلي:

١ً- أرشد الله إلى التجارة الرابحة المنجّية المخلّصة من العذاب المؤلم في الآخرة، وهي الإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ، والجهاد في سبيله بالأموال والأنفس. قال مقاتل في آية: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾: نزلت في عثمان بن مظعون؛ وذلك أنه قال لرسول الله ﷺ: لو أذنت لي فطلّقتُ خولة، وترهّبت واختصيت وحرّمت اللحم، ولا أنام بليل أبداً، ولا أُفطر بنهار أبداً! فقال رسول الله ﷺ: «إن من سنتي النكاح، ولا رهبانية في الإسلام، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله، وخِصاءُ أمتي الصوم، ولا تحرِّموا طيبات ما أحل الله لكم، ومن سنتي أن أنام وأقوم وأفطر وأصوم، فمن رغب عن سنتي، فليس مني» فقال عثمان: والله لَوَدِدْتُ يا نبي الله، أي التجارات أحب إلى الله، فأتّجر فيها؛ فنزلت.

وهذا مع ما ذكر سابقاً من حالات تعدد أسباب النزول.

٢ً- الإيمان والجهاد خير من الأموال والأنفس في الواقع وعند تأمل الإنسان مستقبله، وتعمقه في الفكر، لذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون أنه خير لكم، كان خيراً لكم؛ لأن نتيجة الخير إنما تحصل بعد اعتقاد كونه خيراً.

٣ً- إن جدوى الإيمان والجهاد في سبيل الله في الآخرة مغفرة الذنوب ودخول الجنات، والتمتع بالمساكن الطيبة الطاهرة في جنات إقامة دائمة، وتلك هي السعادة الدائمة الشاملة.

٤ً- وللإيمان والجهاد فائدة أو مزية أخرى في الدنيا وهي الظفر والنصر على الأعداء، وفتح بلاد الأعداء كمكة وفارس والروم في الماضي، وبشارة المؤمنين برضا الله عنهم.

٥ً- أمر الله تعالى بإدامة النصرة لدين الله تعالى والثبات عليه، كنصرة الحواريين (أصفياء) عيسى عليه السلام حين قال لهم: من ينصر دين الله ويؤازرني؟ فناصروه وآزروه.

٦- اختلف بنو إسرائيل والنصارى في شأن عيسى بعد رفعه إلى السماء، فمنهم من آمن به، ومنهم من كفر به، وصاروا ثلاث فِرَق: فرقة قالوا: كان الله فارتفع، وفرقة قالوا: كان ابن الله فرفعه إليه، وفرقة قالوا: كان عبد الله ورسوله فرفعه إليه، وهم المسلمون، واتبع كل فرقة منهم طائفة من الناس، ثم أيد الله الذين آمنوا بعيسى على أنه عبد الله ورسوله على الذين كفروا بعيسى، فأصبحوا غالبين.

ثم تأيدت الفئة الغالبة ببعثة النبي محمد ﷺ، فظهرت على الكافرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الجمعة

مدنية، وهي إحدى عشرة آية

تسميتها

سميت سورة الجمعة لاشتمالها على الأمر بإجابة النداء لصلاة الجمعة، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

يتضح وجه اتصال هذه السورة بما قبلها من نواحٍ أربع وهي:

١ً- ذكر تعالى في السورة التي قبلها حال موسى مع قومه، وإيذائهم له، مؤنباً لهم، وذكر في هذه السورة حال الرسول ﷺ وفضل أمته، تشريفاً لهم، ليظهر الفرق بين الأمتين وفضل الأمة الإسلامية.

٢ً- بشَّر عيسى عليه السلام في السورة المتقدمة بمحمد أو أحمد ﷺ، ثم ذكر في هذه السورة أنه هو الذي بشَّر به عيسى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾.

٣ً- ختم الله تعالى سورة الصف السابقة بالأمر بالجهاد وسماه ﴿تِجَارَةٍ﴾ وختم هذه السورة بالأمر بالجمعة، وأخبر أنه خير من التجارة الدنيوية.

٤- في السورة المتقدمة أمر الله المؤمنين بأن يكونوا صفاً واحداً في القتال، فناسب تعقيب سورة القتال بسورة صلاة الجمعة التي تستلزم الصف؛ لأن الجماعة شرط فيها دون سائر الصلوات[١].

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كالسور المدنية بيان أحكام التشريع، والهدف منها هنا بيان أحكام صلاة الجمعة المفروضة بدلاً عن الظهر في يوم الجمعة.

بدأت السورة كسابقتها بتنزيه الله وتمجيده ووصفه بصفات الكمال. ثم أشادت بأوصاف النبي ﷺ خاتم النبيين ورحمة الله المهداة وهي عروبته وتلاوته آيات القرآن على قومه وتزكيتهم وتعليمهم الكتاب والسنة، سواء في زمنه أم للأجيال المتلاحقة، وبيان كون ذلك فضلاً من الله ونعمة ورحمة.

ثم نَعَتْ على اليهود لتركهم العمل بأحكام التوراة، وتشبيههم بالحمار الذي يحمل على ظهره الكتب النافعة، ولكنه لا يفهم منها شيئاً، ولا يناله إلا التعب، وذلك الشقاء بعينه.

ثم ذكرت طلب مباهلة اليهود إن كانوا أولياء الله بتمني الموت.

وختمت السورة بالحث على أداء صلاة الجمعة وإيجاب السعي لها بمجرد النداء الذي ينادى لها بالأذان والإمام على المنبر، وأباحت السعي وكسب الرزق عقب انتهاء الصلاة، وعاتبت المؤمنين الذين تركوا النبي ﷺ، وهو يخطب على المنبر، ومسارعتهم لرؤية قافلة التجارة.

فضلها:

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين.

---

(١) تناسق الدرر في تناسب السور للسيوطي: ص ٨٤

خصائص النبي ﷺ بالنسبة للعرب والناس كافة

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾

الإعراب:

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ﴿مِّنْهُمْ﴾: في موضع نصب لأنه صفة لـ (رسول) وكذلك قوله تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ وكذلك ما بعده من المعطوف عليه. ﴿وَإِن كَانُوا﴾ (إنْ) مخففة من الثقيلة، واللام تدل عليها، واسمها محذوف، أي وإنهم.

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ ﴿وَآخَرِينَ﴾ يجوز فيه النصب والجر، أما النصب فهو إما بالعطف على الهاء والميم في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ أو بحمل معنى ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ على معنى (يعرفهم آياته). وأما الجر: فهو بالعطف على قوله تعالى: ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ وتقديره: بعث في الأميين رسولاً منهم وفي آخرين. و(من) في ﴿مِّنْهُمْ﴾ للتبيين.

المفردات اللغوية:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ ينزهه ويمجده، واللام زائدة ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ذكر ﴿مَا﴾ دون. (من) تغليباً للأكثر. ﴿الْقُدُّوسِ﴾ المنزَّه عما لا يليق به. المتصف بصفات الكمال. ﴿الْعَزِيزِ﴾ القوي القاهر الغالب الذي لا يغالَب. ﴿الْحَكِيمِ﴾ في صنعه وتدبير خلقه، يضع الأمور في موضعها الصحيح. وقد قرئت الصفات الأربع بالرفع على المدح.

﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ العرب جمع أمي: وهو من لا يقرأ ولا يكتب، وصف العرب بذلك؛ لأن أكثرهم لا يقرؤون ولا يكتبون. والأمي: نسبة للأم التي ولدته. ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ من جملتهم، فهو أمي مثلهم. ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يتلو على العرب آيات القرآن، مع كونه أمّياً مثلهم. ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾ يطهرهم من الشرك ومن خبائث العقائد والأعمال. ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ الشريعة أي معالم الدين وأحكام القرآن. ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي من قبل مجيئه لفي خطأ بيّن واضح، وهو الشرك وخبائث الجاهلية. وهذا بيان لشدة حاجتهم إلى نبي يرشدهم.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾ أو وغيرهم الآتين بعدهم، جمع آخر بمعنى: غير، وهم الذين جاؤوا بعد الصحابة إلى يوم القيامة. ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ لم يلحقوا بهم في السابقة والفضل. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ القوي في ملكه وتمكينه من النبوة، الحكيم في صنعه واختياره. والاقتصار على الصحابة دليل على فضلهم على من عداهم من جميع الإنس والجن إلى يوم القيامة.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ ذلك الفضل المتميز لهذا النبي عن أقرانه. ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ تفضلاً وعطية للنبي ﷺ وصحبه. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الذي يتضاءل دونه نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

التفسير والبيان:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾ أي ينزه الله ويمجده جميع المخلوقات ناطقها وجامدها، إقراراً بوجوده ووحدانيته وقدرته، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] فهو مالك السماوات والأرض المتصرف فيهما بأمره وحكمته، المنزّه عن النقائص وعن كل ما يخطر بالبال، الموصوف بصفات الكمال والقوي الغالب القاهر الذي لا يغلبه غالب، بليغ العزة والحكمة، المتقن في تدبير شؤون خلقه، الحكيم في كل شيء.

وبعد تنزيه الله نفسه وصف رسوله (ﷺ) بما تميز به من خصائص، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ أي إنه سبحانه هو الذي أرسل في العرب الأميين؛ إذ كان أكثرهم لا يحسن القراءة والكتابة، رسولاً من جنسهم فهو أمي مثلهم، كما قال- فيما يرويه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن ابن عمر-: «إنا أُمَّةٌ أمية لا نكتُب ولا نحسِب» وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٤٨].

ومع كونه أمياً لا يقرأ ولا يكتب ولا تعلم من أحد، كان يتلو على أمته آيات القرآن التي ترشدهم لخيري الدنيا والآخرة، ويطهرهم من دنس الكفر والذنوب وأخلاق الجاهلية، ويعلمهم القرآن والسنة والشرائع والأحكام وحكمتها، وإن كانوا في جاهليتهم في ضلال وخطأ واضح في العقيدة والتشريع والنظام، إذ كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام، فبدّلوه وغيّروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً ووثنية، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله، وكذلك أهل الكتاب قد بدَّلوا كتبهم وحرّفوها، وغيّروها وأوّلوها.

فأرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بشرع كامل شامل لجميع الخلق، لا إلى العرب وحدهم، فيه بيان جميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة إلى ما يقرّبهم إلى الجنة ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى عليهم.

وتخصيص العرب الأميين بالذكر؛ لأنه ﷺ مبعوث إليهم خاصة وإلى الناس عامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ٧/١٥٨].

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾﴾ أي وبعث الله رسولاً من العرب لأجيال آخرين من المؤمنين، سواء كانوا من العرب أو من غيرهم، كالفرس والروم، وهم من جاء بعد الصحابة من المسلمين إلى يوم القيامة، لم يلحقوا بهم في ذلك الوقت، وسيلحقون بهم من بعد، والله هو القوي الغالب القاهر ذو العِزّة والسلطان، القادر على التمكين لأمة الإسلام في الأرض، وهو ذو الحكمة البالغة في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله وتدبير خلقه.

روى الإ مام أبو عبد الله البخاري رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ، فأُنزلت عليه سورة الجمعة، فتلاها، فلما بلغ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ قالوا: من هم يا رسول الله؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً، وفينا سلمان الفارسي، فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي، ثم قال: لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء»[1].

ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية، وعلى عموم بعثته ﷺ إلى جميع الناس؛ لأنه فسر قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ بفارس، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به.

وروى ابن أبي حاتم عن سهل بن سعد الساعدي قال: قال رسول الله ﷺ: « إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب » ثم قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ يعني من يأتي من أمة محمد ﷺ.

---

(١) ورواه أيضاً مسلم والترمذي والنساءي وابن أبي حاتم وابن جرير.

ثم أبان الله تعالى أن الإسلام وبعثة محمد فضل منه ورحمة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ أي ذلك الإسلام والوحي وإعطاء النبوة العظيمة لمحمد ﷺ فضل من الله يعطيه من يشاء من عباده، والله صاحب الفضل العظيم الذي لا يساويه فضل ولا يدانيه، وهو ذو المن العظيم على جميع خلقه في الدنيا بتعليم الكتاب والحكمة في الدنيا، وفي الآخرة بمضاعفة الجزاء على الأعمال.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يأتي:

١ً- ينزه الله ويمجده ويقرّ بوجوده ووحدانيته وقدرته جميع الكائنات في السماوات والأرض.

٢ً- الغاية من بعثة الرسول ﷺ النبي الأمي ثلاثة أمور: هي تلاوة آيات القرآن التي فيها الهدى والرشاد، وجعل أمته أزكياء القلوب بالإيمان، مطهرين من دنس الكفر والذنوب ومفاسد الجاهلية، وتعليم القرآن والسنة وما فيهما من شرائع وأحكام وحِكَم وأسرار.

٣ً- كانت أمة العرب قبل بعثة النبي ﷺ في ضياع وشتات وذهاب عن الحق.

٤ً- وجه الامتنان بجعل النبي ﷺ نبياً أمياً ثلاثة أسباب كما قال الماوردي:

أحدها - موافقته ما تقدمت به بشارة الأنبياء، الثاني- مماثلة حاله لأحوال أمته، فيكون أقرب إلى موافقتهم، الثالث -انتفاء سوء الظن عنه في تبليغه وتعليمه ما أوحي إليه من القرآن والأسرار.

٥ً- رسالة النبي ﷺ غير خاصة بالعرب، وإنما هي عامة للناس جميعاً في زمنه، وفي الأزمان اللاحقة إلى يوم القيامة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ﴾.

٦- إن الإسلام والوحي وبعثة النبي ﷺ فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. ولله الفضل الدائم على الناس في غير ذلك كالمال الذي ينفق في الطاعة والصحة والمعونة المستمرة، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن فقراء المهاجرين أتَوْا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدُّثور[١] بالدرجات العلا والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلّون كما نصلّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون، ولا نتصدق، ويُعتقون ولا نعتق، فقال رسول الله ﷺ: أفلا أعلّمكم شيئاً تُدْركون به من سَبَقكم، وتَسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضلَ منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، قالوا: بلى يا رسول الله؛ قال: تسبّحون وتكبّرون وتحمّدون دُبُر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة. فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. فقال رسول الله ﷺ: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾[٢].

حال اليهود مع التوراة وتمني الموت

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿بِئْسَ﴾:

---

(١) الدثور: الثياب والأمتعة والأموال الكثيرة.

(٢) فسر أبو صالح الراوي عن أبي هريرة فضل الله: بأنه المال الذي يُنفق في الطاعة.

وقرأ ورش، والسوسي، ووقفاً حمزة (بيس).

الإعراب:

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ الكاف في﴿كَمَثَلِ﴾ في موضع رفع؛ لأنها في موضع خبر المبتدأ، وهو ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟﴾. و﴿يَحْمِلُ﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال، وتقديره: كمثل الحمار حاملاً أسفاراً.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ إما في موضع رفع بتقدير مضاف محذوف، تقديره بئس مثل القوم الذين كذبوا، فحذف ﴿مَثَلُ﴾ المضاف المرفوع وأقيم المضاف إليه مقامه، وإما في موضع جر على أن يكون ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصفاً للقوم الذين كذبوا بآيات الله، ويكون المقصود بالذم محذوفاً، وتقديره: مثلهم أو هذا المثل.

﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ المرفوع، ودخول الفاء: إما لأنها زائدة، أو أنها غير زائدة، لتضمن ﴿ٱلَّذِى﴾ معنى الشرط بسبب وقوعها وصفاً، فدخلت في خبر الفاء كما تدخل في الشرط.

البلاغة:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ تشبيه تمثيلي؛ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد، أي مثلهم في عدم الانتفاع بالتوراة، كمثل الحمار الذي يحمل الكتب، وليس له إلا التعب.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ بينهما طباق السلب.

﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ كلفوا العمل بها، من الحمالة: وهي الكفالة. ﴿لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي لم يعملوا بها ولم ينتفعوا بما فيها، فلم يؤمنوا بما جاء فيها من

نعته ﷺ. ﴿أَسْفَارًا﴾ كتباً علمية عظيمة، سميت أسفاراً؛ لأنها تسفر عن معناها إذا قرئت .﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ الذين كذبوا بآيات الله الدالة على نبوة محمد ﷺ. ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الكافرين.

﴿هَادُوٓا۟﴾تهودوا .﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ أي أحبّاء له، إذ كانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه .﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ تمنوا من الله أن يميتكم .﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ تعلق هذا الشرط والشرط الأول وهو﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾ بقوله: ﴿فَتَمَنَّوُا۟﴾ على أن الشرط الأول قيد في الثاني، أي إن صدقتم في زعمكم أنكم أولياء الله، والوالي يؤثر الآخرة، ومبدؤها الموت، فتمنوه.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما اقترفوا من الكفر والمعاصي، ومن ذلك كفرهم بالنبي ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ﴾الكافرين. ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ لاحق بكم لا تفوتونه. ﴿عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ السر والعلانية. ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يجازيكم عليه.

المناسبة:

بعد أن أثبت الله تعالى التوحيد والنبوة، وأخبر أنه بعث الرسول العربي الأمي إلى الأميين العرب، فقال اليهود: إنه ﷺ بعث إلى العرب خاصة، ولم يبعث لنا بمفهوم الآية، وردّ الله عليهم بأنهم لم يعملوا بالتوراة، وأنهم لو عملوا بمقتضاها وما تضمنته من البشارة بهذا الرسول، لا نتفعوا بها وآمنوا به، ولم يقولوا هذا القول أو يوردوا هذه الشبهة، ومثلهم في عدم الانتفاع بتوراتهم وترك العمل بها مثل الحمار الذي يحمل الكتب، ولم يصبه إلا العناء والتعب.

ثم رد الله عليهم قولاً آخر وشبهة أخرى حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨/٥] ، بأنه لو كان قولهم حقاً وهم على ثقة، لتمنوا على الله أن يميتهم، وينقلهم سريعاً إلى دار كرامته التي أعدَّها لأوليائه، مع أنهم في الحقيقة لايتمنون الموت أبداً بسبب ما قدَّموا من الكفر وتحريف الآيات.

التفسير والبيان:

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ أي إن شبه اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة، بعد أن كُلِّفوا القيام بها والعمل بما فيها، فلم يعملوا بموجبها، ولا أطاعوا ما أمروا به فيها، كشبه الحمار الذي يحمل الكتب الكبيرة على ظهره، وهو لا يدري الفرق بين الكتاب والزبل، لأنه لا فهم له، واليهود وإن كان لهم عقول وأفهام، فإنهم لم ينتفعوا بها فيما ينفعهم وفي إدراك الحقائق؛ لأنهم حفظوا اللفظ ولم يتفهموه، ولا عملوا بمقتضاه بل أوّلوه وحرفوه وبدّلوه، فهم أسوأ حالاً من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، لذا وصفهم تعالى بقوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩]. وقال تعالى هنا مبيناً قبح هذا المثل:

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي ما أقبح ما يمثل به للمكذبين، وما أشنع هذا التشبيه، وهو تشبيه اليهود بحق بالحمار، فلا تكونوا أيها المسلمون مثلهم، والله لا يوفق للحق والخير القوم الكافرين على العموم، ومنهم اليهود بصفة أولى.

واختير الحمار في هذا التمثيل لإظهار الجهل والبلادة، والذل والحقارة. وقد قدم هذا تحذيراً للذين تركوا رسول الله ﷺ على المنبر قائماً يخطب وذهبوا إلى التجارة، وشبيه به كل من أعرض عن الخطبة، وهو يسمعها كما في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «من تكلَّم يوم الجمعة، والإمام يخطب، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له: أنصت، ليس له جمعة».

ثم ذم الله تعالى اليهود الذين لم يعملوا بالتوراة ذمّاً آخر مناسباً للذم الأول؛ لأن شأن من لم يعمل بالكتاب أن يحب الحياة، فقال:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾ أي قل أيها الرسول: أيها اليهود إن كنتم تزعمون أنكم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس، وأنكم على هدى، وأن محمداً ﷺ وأصحابه على ضلالة، فاطلبوا الموت لتصيروا إلى الكرامة في زعمكم، وادعوا بالموت على الضال من الفئتين، إن كنتم صادقين في هذا الزعم، فإن من علم أنه من أهل الجنة أحب الخلوص من هذه الدار.

وقد ذكرت هذه المباهلة (الملاعنة) وتحدي اليهود في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٩٤] . كما ذكرت مباهلة النصارى في قوله سبحانه: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: ٣/ ٦١] . ومباهلة المشركين في قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ١٩/ ٧٥] .

أخرج الإمام أحمد والبخاري والترمذي والنسائي عن ابن عباس قال: قال أبو جهل لعنه الله: إن رأيتُ محمداً عند الكعبة، لآتينه حتى أطأ على عنقه، قال: فقال رسول الله ﷺ: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً، ولا مالاً» .

ثم كشف الله حقيقة أمر اليهود الماديين الذين يحبون الحياة ويكرهون الموت، وأنهم لن يتمنوه أبداً لسوء أفعالهم، فقال:

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾﴾ أي لن يتمنى اليهود الموت أبداً على الإطلاق، بسبب ما عملوا من الكفر والمعاصي، والتحريف والتبديل، والله بالغ العلم، واسع الاطلاع على أحوال الكافرين،

فيجازيهم بما عملوا. وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد. ويلاحظ أنه قال هنا: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾ بدون لفظ التأكيد، وفي سورة البقرة قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ [البقرة: ٢/ ٩٥] بلفظ التأكيد ونفي المستقبل.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ أي قل أيها النبي لهؤلاء اليهود: إن الموت الذي تهربون منه، وتأبون المباهلة فيه حباً في الحياة، هو آتٍ إليكم حتماً من الجهة التي تفرون منها، ثم ترجعون بعد موتكم إلى الله عالم الغيب في السماوات والأرض، وعالم الحس المشاهد فيهما، فيخبركم بما أنتم عاملون من الأعمال القبيحة، ويجازيكم عليها بما أنتم له أهل. وهذا أيضاً تهديد ووعيد، ومبالغة في الدلالة على أنه لا ينفع الفرار من الموت.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٤/ ٧٨].

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي، مبيِّنة ذم اليهود من ناحيتين:

١ً- إن مثل اليهود الذين تركوا العمل بالتوراة، ولم يؤمنوا بمحمد ﷺ بالرغم من إخبار التوراة عنه، كمثل الحمار الذي يحمل الكتب الكبيرة، ولا ينتفع بها، وما أقبح هذا المثل الذي شُبِّهوا به، والله لا يوفق للحق كل من كان ظالماً لنفسه، كافراً بنعمة ربه.

٢ً- إن كان اليهود صادقين في زعمهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وأصفياؤه، فليطلبوا الموت ليصيروا إلى ما يصير إليه أولياء الله، لأن للأولياء عند الله الكرامة والحظوة.

٣ً- لكن هؤلاء اليهود لن يتمنوا الموت أبداً بسبب ما أسلفوا من تكذيب

محمد ﷺ، فلو تمنوه لماتوا، جاء في حديث أن النبي ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «والذي نفس محمد بيده، لو تمنوا الموت ما بقي على ظهرها يهودي إلا مات» . وفي هذا إخبار عن الغيب، ومعجزة للنبي ﷺ.

٤- غير أنه تعالى أخبر أن الموت الذي يفر منه هؤلاء اليهود بسبب ما قدمت أيديهم من تحريف الآيات وغيره آتٍ حتماً لا محالة، ولا ينفعهم الفرار، ثم يرجعون إلى الله ربهم العالم بكل شيء من أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، فيخبرهم بما فعلوا، ويجازيهم بما عملوا.

فرضية صلاة الجمعة وإباحة العمل بعدها

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾

الإعراب:

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ ﴿مِن﴾ بمعنى (في): في يوم الجمعة، ويقرأ﴿ٱلۡجُمُعَةِ﴾ بضم الميم وسكونها وفتحها، بالضم على الأصل، والسكون على التخفيف، والفتح على نسبة الفعل إليها، كأنها تجمع الناس.

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ كنى عن أحدهما دون الآخر، للعلم بأنه داخل في حكمه، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٩/ ٣٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: ٢/ ٤٥] .

البلاغة:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ ثم قال: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ تفنن في العبارة، فقدَّم التجارة أولاً؛ لأنها المقصود الأصلي، ثم قدَّم اللهو؛ لأن الخسارة فيما لا نفع فيه أعظم، فقدم المهم في كل موضع.

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ مجاز مرسل، أطلق البيع، وقصد جميع أنواع التعامل والانشغال من بيع وشراء وإجازة وشركة وغيرها.

المفردات اللغوية:

﴿نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ أُذِّن لها الأذان الثاني الذي كان يفعل أمام النبي ﷺ، وهو جالس على المنبر قبل الخطبة. ﴿مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾ بيان لـ ﴿إِذَا﴾ وإنما سمي جمعة لاجتماع الناس فيه للصلاة، وكانت العرب تسميه (العَرُوبة) أي الرحمة، وأول من سماه جمعة كعب بن لؤي لاجتماع الناس فيه إليه، وأول جمعة جمعها رسول الله ﷺ في قُبَاء، حينما قَدِم المدينة، وصلى الجمعة في دار بني سالم بن عوف. وأول من أقام الجمعة بالمدينة قبل الهجرة أسعد بن زُرَارة بقرية على ميل من المدينة. قال ابن حجر: فرضت الجمعة بمكة، ولم نقم بها لفقد العدد، أو لأن شعارها الإظهار، وكان ﷺ بها مستخفياً[١].

﴿فَاسْعَوْا﴾ فامشوا، وعبّر بالسعي إشارة إلى أنه يطلب من المسلم القيام للجمعة بهمَّة ونشاط، وجد وعزيمة؛ لأن لفظ السعي يفيد الجد والعزم. ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ للصلاة. ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ اتركوا عقد البيع وسائر وجوه المعاملات. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي السعي إلى ذكر الله خير لكم من المعاملة، فإن نفع الآخرة خير وأبقى. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخير والشر الحقيقين، فإن علمتم أنه خير فافعلوه.

---

(١) تفسير الألوسي: ٢٨/ ١٠٠.

﴿قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أدّيت وفرغ منها. ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي تفرقوا، وهو أمر بعد حظر، فيفيد الإباحة لا الوجوب، واحتج به من جعل الأمر بعد الحظر للإباحة. ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ اطلبوا الرزق. ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ اذكروه في مجامعكم ومجالسكم ذكراً كثيراً. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون بخير الدارين.

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ التجارة تشمل كل أنواع الكسب، واللهو: الطبول والمزامير ونحوها. ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ انصرفوا إلى التجارة، وإلى اللهو. ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ على المنبر وأنت تخطب. ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب. ﴿خَيْرٌ﴾ للذين آمنوا من اللهو ومن التجارة، لأن ثواب الله محقّق مخلّد، بخلاف ما يتوهم من نفع اللهو والتجارة. ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فتوكلوا عليه واطلبوا الرزق منه، فكل ما ييسر الله للإنسان من رزق عائلته هو من رزق الله تعالى.

سبب النزول:

نزول الآية (١١):

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً﴾: أخرج أحمد والشيخان (البخاري ومسلم) والترمذي عن جابر قال: كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ أقبلت عير[١] قد قدمت، فخرجوا إليها حتى لم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾.

وأخرج ابن جرير عن جابر أيضاً قال: كان الجواري إذا نكحوا كانوا يمرون بالكير والمزامير، ويتركون النبي ﷺ قائماً على المنبر، وينفضّون إليها. وأخرج ابن المنذر عن جابر أن الآية نزلت في الأمرين معاً: قصة النكاح، وقدوم العير معاً من طريق واحد.

---

(١) العير: الإبل المحملة طعاماً من دقيق وبُرّ وزيت.

قال المفسرون: أصاب أهلَ المدينة أصحاب الضرار جوعٌ وغلاء سعر، فقدم دحْية بن خليفة الكلبي في تجارة من الشام، وضرب لها طبل يُؤذن الناس بقدومه، ورسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة، فخرج إليه الناس، فلم يبق في المسجد إلا اثنا عشر رجلاً، منهم أبو بكر وعمر، فنزلت هذه الآية، فقال النبي ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لو تتابعتم حتى لم يبق أحد منكم، لسال بكم الوادي ناراً»[1].

المناسبة:

بعد أن بيَّن الله تعالى أن اليهود يفرون من الموت حباً في الدنيا وطيباتها، أراد تعالى أن يربي المؤمنين ويوجههم للعمل في الدنيا ولما ينفع أيضاً في الآخرة، وهو حضور الجمعة؛ لأن الدنيا ومتاعها فانية، والآخرة وما فيها باقية، قال تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: ١٧/٨٧] . ثم ندَّد تعالى بترك النبي ﷺ وهو على المنبر يخطب، منصرفين للهو أو التجارة، فمنهم من انفض بمجرد سماع الطبل ورؤيته، ومنهم من انفض إلى التجارة مع الحاجة إليها والانتفاع بها.

ثم أباح تعالى السعي في العمل ومكاسب الدنيا عقب انتهاء صلاة الجمعة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص: ٢٨/٧٧] .

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله تعالى ورسوله ﷺ، إذا أُذِّن لصلاة الجمعة الأذان الثاني بعد أن يجلس الخطيب على المنبر؛ لأنه الأذان الذي كان على عهد رسول الله ﷺ، أما

(١) أسباب النزول للواحدي: ص ٢٤٣

الأذان الأول فقد زاده عثمان رضي الله عنه بمحضر الصحابة لما اتسعت المدينة، وذلك على الزّوراء (أعلى دار كانت بالمدينة قرب المسجد) وسمي أذاناً ثالثاً إضافة إلى الإقامة، كما قال ﷺفيما رواه الجماعة عن عبد الله بن مغفّل: « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » يعني الأذان والإقامة.

إذا أذن للجمعة، فبادروا إلى السعي أو المضي إلى ذكر الله وهو الخطبة وصلاة الجمعة في المساجد الجامعة، بعد الإعداد لذلك والتهيؤ للصلاة بالغسل والوضوء والطيب واللباس الجديد أو النظيف الأبيض ونحوها، واتركوا البيع وسائر أوجه المعاملات من إجارة وشركة ونحوهما، وذلك السعي إلى ذكر الله وترك البيع خير من فعل البيع وترك السعي، لما في الامتثال من الأجر والجزاء، إن كنتم من أهل الدراية والعلم الصحيح بما ينفع، فإنه لا يخفى عليكم أن ذلك خير لكم. ولفظ (من) إما بمعنى (في) أو تبعيضية. وخص البيع بالذكر؛ لأنه من أهم ما يشتغل به المرء في النهار من أسباب المعاش، وفيه إشارة إلى ترك جميع أنواع التجارة.

وتخصيص الجمعة بفريضتها تشريع للمسلمين في مقابل السبت عند اليهود. وليس المراد بالسعي في الآية المشي السريع، وإنما هو الاهتمام بها، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٧/١٩] . فأما المشي السريع إلى الصلاة، فقد نُهي عنه، لما أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم الإقامة، فامشوا إلى الصلاة، وعليكم السكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا».

وأخرج الشيخان أيضاً عن أبي قتادة قال: «بينما نحن نصلي مع النبي ﷺ إذ سمع جَلَبة رجال[١]، فلما صلى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى

(١) الجَلَب والجَلَبة: الأصوات.

الصلاة، قال: فلا تفعلوا، إذا أتيتم الصلاة، فامشوا وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا» .

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أقيمت الصلاة، فلا تأتوها تسعون، ولكن ائتوها تمشون، وعليكم السكينة والوقار، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا» .

ثم أباح الله تعالى العمل والسعي للدنيا بعد الصلاة، فقال:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي إذا أديتم الصلاة وفرغتم منها، فيؤذن ويباح لكم الانتشار والتفرق في الأرض للتجارة والتصرف فيما تحتاجون إليه من أمر معاشكم، والابتغاء، أي الطلب من فضل الله أي من رزقه الذي يتفضل به على عباده من الأرباح في المعاملات والمكاسب، ولا تنسوا في أثناء عملكم وبيعكم وشرائكم أن تذكروا الله ذكراً كثيراً بالشكر له على ما هداكم إليه من الخير الأخروي والدنيوي، وبالأذكار التي تقربكم إليه، كالحمد والتسبيح والتكبير والاستغفار ونحو ذلك، كي تفوزوا بخير الدارين وتظفروا به.

وفي هذا دلالة على أن عمل المؤمن للدنيا ينبغي أن يكون مصحوباً بذكر الله تعالى ومراقبته، حتى لا يطغى عليه حبها، وأن في مراقبة الله تعالى تحقيق الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

كان عِراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة، انصرف، فوقف على باب المسجد، فقال: اللهم إني أجبتُ دعوتك، وصلَّيت فريضَتك وانتشرتُ كما أمرتني، فارزقني من فضلك، وأنت خير الرازقين[١].

---

(١) رواه ابن أبي حاتم (تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦٧).

وجاء في الحديث: «من دخل سوقاً من الأسواق، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة[1]».

ثم عاتب الله تعالى ما وقع من المؤمنين من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى اللهو أو التجارة القادمة إلى المدينة، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾ أي وإذا رأى هؤلاء المصلّون المؤمنون وهم في الجامع يستمعون إلى الخطبة إبلاً محملة بتجارة قادمة من بلد آخر، أو رأوا لهواً كقرع الطبول وزمر المزامير احتفالاً بزواج أو غيره، تفرقوا خارجين إلى ذلك، وتركوك أيها النبي قائماً على المنبر وأنت تخطب، قل أيها الرسول لهم مخطّئاً ما عملوا: ما عند الله من الجزاء والثواب العظيم في الدار الآخرة خير من اللهو ومن التجارة اللذين ذهبتم إليهما، وتركتم البقاء في المسجد وسماع خطبة النبي ﷺ لأجلها، والله هو خير الرازقين، فمنه اطلبوا الرزق، وإليه توسلوا بعمل الطاعة، فإن ذلك من أسباب تحصيل الرزق وأعظم ما يجلبه، والله يرزق من توكل عليه، وطلب الرزق في وقته، وهو كفيل برزق العباد، ولن يحرم أحد رزقه أو ينقص منه شيء بسبب الصلاة. وكلمة (إذا) مستعملة في الماضي. ولما كان العطف بـ (أو) بين قوله: ﴿تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ صح مجيء الضمير في﴿إِلَيْهَا﴾ مفرداً. وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ مناسب لكل من التجارة واللهو الذي هو كالتبع للتجارة.

وقد عرفنا أن سبب نزول هذه الآية أنه كان بالمدينة فاقة وحاجة، فأقبل دِحْية الكلبي بتجارة من الشام، والنبي ﷺ يخطب يوم الجمعة، فانفتل الناس

(١) كنز العمال ٤/ ٩٣٢٧، ٩٤٤٣

إليها، حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً في المسجد، وسبع نسوة. وترك بعضهم الخطبة إلى سماع اللهو، فكان الترديد في قوله: ﴿تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾ للدلالة على أن منهم من انفض بمجرد سماع الطبل ورؤيته، ومنهم من انفض إلى التجارة للحاجة إليها والانتفاع بها.

فقه الحياة أو الأحكام:

يؤخذ من الآيات الأحكام التالية:

١ً- صلاة الجمعة فرض والسعي إليها فرض أيضاً؛ لأنه لا يمكن أداؤها جماعة في المسجد إلا به. والخطاب في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ خاص بالمكلفين بالإجماع، فلا يطالب بالجمعة المرضى والزَّمْنى والمسافرين والعبيد والنساء، والعميان والشيخ الذي لا يمشي إلا بقائد عند أبي حنيفة، لما أخرجه الدارقطني عن جابر: أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فعليه الجمعة يوم الجمعة إلّا مريض أو مسافر أو امرأة أو صبي أو مملوك، فمن استغنى بلهوٍ أو تجارة استغنى الله عنه، والله غني حميد».

وقال علماء المالكية وغيرهم: ولا يتخلف أحد عن الجمعة ممن عليه إتيانها إلا بعذر، لا يمكنه منه الإتيان إليها، مثل المرض الحابس، أو خوف الزيادة في المرض، أو خوف جور السلطان عليه في مال أو بدن دون القضاء عليه بحق. والمطر الوابل مع الوَحَل عذر إن لم ينقطع.

٢ً- يختص وجوب الجمعة على القريب الذي يسمع النداء، أما البعيد الدار الذي لا يسمع النداء فلا يدخل تحت الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾.

٣ً- دل قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على أن الجمعة لا تجب إلا بالنداء، والنداء لا يكون إلا بدخول

الوقت، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه الجماعة عن مالك بن الحويرث: «إذا حضرت الصلاة، فأذّنا، ثم أقيما وليؤمَكما أكبركما» . وروى البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان يصلي الجمعة حين تميل الشمس.

وروي عن أبي الصدّيق وأحمد بن حنبل أنها تُصلّى قبل الزوال، وتمسك أحمد في ذلك بحديث سَلَمة بن الأكوع: « كنا نصلّي مع النبي ﷺ، ثم ننصرف، وليس للحيطان ظل» وبحديث ابن عمر وسهل: « ما كنا نَقيل ولا نتغدّى إلا بعد الجمعة ».

ومذهب الجمهور من الخلف والسلف ما رواه البخاري فيما تقدم، وما رواه وكيع عن يعلى بن إياس عن أبيه قال: » كنا نجمِّع مع رسول الله ﷺ إذا زالت الشمس، ثم نرجع نتتبع الفيء» . وقياساً على صلاة الظهر.

وحديث ابن عمر وسهل دليل على أنهم كانوا يبكّرون إلى الجمعة تبكيراً كثيراً عند الغداة أو قبلها، فلا يتناولون الغداء إلا بعد انقضاء الصلاة، وقد جاء في البخاري ومسلم ما يفيد استحباب التبكير إلى الجمعة، وذلك ما روياه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال: « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجمعة، ثم راح في الساعة الأولى، فكأنما قرَّب بدَنة[1]، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرَّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة، فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرَّب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذِّكْر» .

والتبكير محمول عند أغلب العلماء على ساعات النهار الزمانية، لحديث ابن عمر المتقدم: «ما كانوا يقيلون ولا يتغدون إلا بعد الجمعة لكثرة البكور إليها» .

(١) البدنة: الناقة.

ورأى مالك أن التبكير بالجمعة إنما يكون قرب الزوال بيسير. قال ابن العربي: والقول الأول أصح.

٤- الجمعة فرض عيني على كل مسلم، وهو رأي جماهير الأمة والأئمة، لقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لينتهين أقوام عن وَدْعهم الجُمُعات أو ليختمن الله على قلوبهم، ثم ليكونُنَّ من الغافلين» . وهذا حجة واضحة في وجوب الجمعة وفرضيتها على الأعيان. وفي سنن ابن ماجه عن أبي الجَّعْد الضَّمْري الصحابي قال: قال رسول الله ﷺ: «من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها، طبع الله على قلبه» . وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «الرواح إلى الجمعة واجب على كل مسلم» .

٥- أوجب الله السعي إلى الجمعة مطلقاً من غير شرط. وثبت شرط الوضوء بالقرآن والسنة في جميع الصلوات؛ لقوله عز وجل: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ٥/٦] وقال النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة: «لا يقبل الله صلاة بغير طهور» .

أما غسل الجمعة فهو سنة أو مستحب لا فرض، لما ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء أَحدكم الجمعة فليغتسل» وفيهما أيضاً عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غُسْلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم» . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حقٌّ لله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، يغسل رأسه وجسده» وفيه أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ يوم الجمعة فأحسن الوضوء، ثم راح إلى الجمعة، فاستمع وأنصت،

غفر الله له ما بين الجمعة إلى الجمعة، وزيادة ثلاثة أيام، ومن مسَّ الحصى فقد لغا»[١]. وهذا نص في عدم فرضية الغسل. وروى النسائي وأبو داود في سننهما أن النبي ﷺ قال: «من توضأ يوم الجمعة فبها ونِعْمتْ، ومن اغتسل فالغسل أفضل».

ويستحب أيضاً لمن أتى الجمعة أن يلبس أحسن ثيابه ويتطيب ويتسوك ويتنظف ويتطهر، لحديث أبي سعيد المتقدم:

«غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم، والسواك، وأن يمس من طيب أهله» وروى أحمد عن أبي أيوب الأنصاري:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من اغتسل يوم الجمعة ومسّ من طيب أهله إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد، فيركع إن بدا ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت إذا خرج إمامه حتى يصلي، كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى».

٦ً- لا تسقط الجمعة لكونها في يوم عيد، خلافاً لأحمد بن حنبل، فإنه قال: إذا اجتمع عيد وجمعة، سقط فرض الجمعة؛ لتقدم العيد عليها واشتغال الناس به عليها، ولما روي أن عثمان أذن في يوم عيد لأهل العوالي[٢] أن يتخلفوا عن الجمعة. لكن قول الواحد من الصحابة ليس بحجة إذا خولف فيه، ولم يجمع معه عليه، والأمر بالسعي متوجه يوم العيد كتوجهه في سائر الأيام. وأخرج أبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه: أنه إذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد، يقرأ بالأعلى والغاشية أيضاً في الصلاتين.

---

(١) اللغو: الكلام المطرح الساقط.

(٢) العالية والعوالي: أماكن بأعلى أراضي المدينة، وروى أبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبيﷺ قال: «اجتمع في يومكن هذا عيدان، فمن شاء أجزأه من الجمعة، وإنا مجمعون».

٧- اختلف العلماء في أول جمعة صليت في الإسلام، فقد أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد عن ابن سيرين قال: جمَّع أهل المدينة قبل أن يقدم النبيﷺ، وقبل أن تنزل الجمعة، قالت الأنصار: لليهود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة أيام، وللنصارى مثل ذلك، فهلم فلنجعل لنا يوماً نجتمع فيه، فنذكر الله تعالى ونشكره، فقالوا: يوم السبت لليهود، ويوم الأحد للنصارى، فاجعلوه يوم العَرُوبة، وكانوا يسمون الجمعة بذلك، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة، فصلى بهم يومئذ ركعتين، وذكرهم، فسموه (الجمعة) حين اجتمعوا إليه. فذبح لهم شاة، فتغدوا وتعشوا منها، وذلك لعامتهم، فأنزل الله تعالى في ذلك بعد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ الآية[1].

وقيل: إن أول من جمع الناس مصعب بن عمير، وجمع بين الروايتين بأن جمع أسعد كان بغير أمر الرسول ﷺ، وجمع مصعب كان بأمره.

والصحيح أن أول جمعة كانت هي صلاة النبي ﷺ بعد قدومه إلى المدينة بأربعة أيام، حيث أدركه وقتها في بني سالم بن عوف، فصلاّها في بطن واد لهم، حيث خطب ﷺ، وصلى بالناس.

أخرج ابن ماجه عن جابر أن رسول الله ﷺ خطب، فقال: «إن الله افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في يومي هذا، في شهري هذا، في عامي هذا، إلى يوم القيامة، فمن تركها استخفافاً بها، أو جحوداً بها، فلا جَمَع الله شمله، ولا بارك في أمره، ألا ولا صلاة له، ولا زكاة له، ولا حج له، ولا صوم له، ولا بِرّ له حتى يتوب، فمن تاب تاب الله عليه». قال الألوسي: فإن الظاهر أن هذه الخطبة كانت في المدينة، بل ظاهر الخبر أنها بعد الهجرة بكثير، إذ ظاهر قوله عليه الصلاة والسلام فيه: «لا حج له» أن الحج كان مفروضاً إذ ذاك، والأصح أنه فرض في السنة السادسة، فإما أن يقدح في صحة

(١) وروي ذلك أيضاً في سنن أبي داود وابن ماجه وابن حبان والبيهقي.

الحديث، وإما أن يقال: مفاده افتراض الجمعة إلى يوم القيامة، أي بهذا القيد[١] .

٨ً- الصحيح أن السعي إلى ذكر الله واجب، وذكر الله يشمل الصلاة والخطبة والمواعظ، ورأى الحنفية أنه لا يشترط في الخطبة اشتمالها على ما يسمى خطبة عرفاً؛ لأنه ورد الذكر في الآية مطلقاً غير محدود، ومن غير تفصيل بين كون الذكر طويلاً أو قصيراً، فكان الشرط هو الذكر مطلقاً، وما ورد من الآثار مشتملاً على بيان كيفية الخطبة يدل على السنية أو الوجوب، ولا يصلح دليلاً على أنه لا يجوز الصلاة إلا بالخطبة.

ورأى العلماء الآخرون أن الخطبة واجبة؛ لأنها تحرِّم البيع، ولولا وجوبها ما حرَّمته؛ لأن المستحب لا يحرِّم المباح. واشترط الشافعية أن يأتي الخطيب بخطبتين بشروط خاصة، بآثار وردث في ذلك.

وأجمع العلماء على اشتراط العدد في صلاة الجمعة؛ لأنها ما سميت جمعة إلا لما فيها من الاجتماع. واختلفوا في أقلّ عدد تنعقد به الجمعة، على أقوال كثيرة، بلغت ثلاثة عشر قولاً. منها: أن يكون العدد في رأي أبي حنيفة ومحمد ثلاثة رجال سوى الإمام، ولو كانوا مسافرين أو مرضى؛ لأن أقل الجمع الصحيح إنما هو الثلاث، والجماعة شرط مستقل في الجمعة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ والجمعة مشتقة من الجماعة، ولا بُدّ لهم من خطيب.

واشترط المالكية حضور اثني عشر رجلاً للصلاة والخطبة، على أن يكون العدد من أهل البلد، وأن يبقوا مع الإمام من أول الخطبة حتى السلام؛ لأنه لم يبق مع النبي ﷺ من الصحابة الذين خرجوا للهو أو للتجارة إلا اثنا عشر رجلاً.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/٩٨، تفسير الألوسي: ٢٨/١٠٠.

وقال الشافعية والحنابلة: تقام الجمعة بحضور أربعين فأكثر بالإمام من أهل القرية المكلفين الأحرار الذكور المستوطنين، لا مسافرين، لكن يجوز كون الإمام مسافراً إن زاد العدد عن الأربعين، لما روى البيهقي عن ابن مسعود أنه ﷺ جَمَّع بالمدينة، وكانوا أربعين رجلاً. ولم يثبت أنه ﷺ صلى بأقل من أربعين، فلا تجوز بأقل منه.

٩ً- منع الله تعالى البيع عند صلاة الجمعة، وحرمه في وقتها على من كان مخاطباً بفرضها، والمراد من البيع المعاملة مطلقاً، فيشتمل النهي كل ما يشغل عن الصلاة من شركة وإجارة وزواج ونحوها، فهو مجاز عن ذلك كله، وخص البيع؛ لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق. أما من لا يجب عليه حضور الجمعة، فلا يُنهى عن البيع والشراء ونحوهما. والأمر في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ للوجوب عند أكثر العلماء، فيكون الاشتغال بهذه الأشياء محرماً عند الجمهور، وذلك من حين صعود الإمام على المنبر إلى أن تنقضي الصلاة، وهو مكروه تحريماً عند الحنفية.

والبيع صحيح منعقد لا يفسخ عند الحنفية والشافعية؛ لأنه لم يحرُم لعينه أي ليس النهي متوجهاً نحو خصوص البيع، ولكن لما فيه من الذهول عن الواجب فهو متوجه نحو ترك الجمعة، فكان كالصلاة في الأرض المغصوبة، والوضوء بماء مغصوب. وهو فاسد لا يصح عند الحنابلة، والصحيح المشهور عند المالكية: أنه يفسخ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه أحمد ومسلم عن عائشة: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» فكل أمر يَشْغَل عن الجمعة من العقود كلها هو حرام شرعاً، مفسوخ رَدْعاً.

١٠ً - السعي إلى ذكر الله، وترك الأعمال من أجله خير للمؤمنين وأنفع من المنافع الدنيوية، فإن كانوا من أهل العلم، عرفوا أن امتثال أوامر الله في الذهاب إلى الجمعة، والانتفاع بالمواعظ، خير لهم في الدنيا والآخرة. أما في

الدنيا فيبصرهم الإمام بما فيه الخير والنجاة من الأذى، وأما في الآخرة فإنهم يفوزون برضا الله عنهم، حيث امتثلوا أوامره.

١١- يباح عقب الفراغ من الصلاة الانتشار في الأرض للتجارة والتصرف في الحوائج، والابتغاء من رزق الله وفضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ [المائدة: ٥/ ٢] . وهذا أمر بعد الحظر، فهو للإباحة، فلا يطلب من الإنسان الخروج من المسجد بعد الصلاة لا وجوباً ولا ندباً.

١٢- نبَّه الله تعالى بقوله: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ على ذكر الله بالطاعة واللسان، وبالشكر على ما أنعم به على الإنسان من التوفيق لأداء الفرائض، وفي وقت الاشتغال بالأعمال وعدم الاكتفاء بالذكر الذي حصل في صلاة الجمعة، ليتحقق الفوز بخير الدارين. قال سعيد بن المسيب: الذكر طاعة الله تعالى، فمن أطاع الله فقد ذكره، ومن لم يطعه فليس بذاكر، وإن كان كثير التسبيح.

١٣- انفض الناس أثناء خطبة النبي ﷺ للتجارة أصالة، وللهو والفرح بمجيء التجارة تبعاً، فعاد الضمير للتجارة في قوله: ﴿إِلَيْهَا﴾.

١٤- استدل العلماء بقوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ على مشروعية القيام أثناء الخطبة، وهو أمر متفق عليه، ثبت في السنة أن النبي ﷺ ما خطب إلا قائماً، وكذلك الخلفاء من بعده، واستمر الأمر هكذا إلى زمن بني أمية حيث وجد منهم من استهان بأمر الخطبة، فخطب جالساً، وأول من خطب جالساً معاوية رضي الله عنه، حينما كان عاجزاً عن القيام.

والقيام في الخطبة سنة عند الحنفية، فلو خطب الإمام قاعداً، جاز؛ لحصول المقصود، إلا أنه يكره لمخالفته الموروث، وهو واجب غير شرط عند

المالكية، فإن جلس أتم خطبته وصحت، وشرط لا تصح إلا به عند الشافعية والحنابلة، اتباعاً للسنة. وهذه أحكام في الخطبة مأخوذة من السنة[١]:

أ - تصح الجمعة بغير إذن الإمام وحضوره؛ لأن الوليد بن عُقْبة والي الكوفة أبطأ يوماً، فصلى ابن مسعود بالناس من غير إذنه، وروي أن علياً صلّى الجمعة يوم حوصر عثمان، ولم ينقل أنه استأذنه، وروي أيضاً أن سعيد بن العاص والي المدينة لما خرج من المدينة، صلى أبو موسى بالناس الجمعة من غير استئذان.

واشترط أبو حنيفة وجود الإمام أو خليفته أو إذنه؛ لأن كل تجمع يتطلب الإذن بالحضور، ولأنه لا يحصل معنى الاجتماع إلا بالإذن، ولأن الجمعة من شعائر الإسلام وخصائص الدين، فلزم إقامتها بطريق الاشتهار.

ب- واشترط المالكية لأداء الجمعة أن تكون في المسجد المسقَّف؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ﴾ [الحج: ٢٢/٢٦] . وقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور: ٢٤/٣٦] وحقيقة البيت عرفاً أن يكون ذا حيطان وسقف. وكذلك اشترط الحنفية أن تكون في مصلى المصر. ولم يشترط الشافعية والحنابلة إقامة الجمعة في مسجد، واتفق الكل على أن تكون في بلد.

جـ- يرى جمهور العلماء أن الخطبة شرط في انعقاد الجمعة لا تصح إلا بها، لقوله تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ وهذا ذم، والواجب: هو الذي يذم تاركه شرعاً، ثم إن النبي ﷺلم يصلها إلا بخطبة. وقال سعيد بن جبير: هي بمنزلة الركعتين من صلاة الظهر، فإذا تركها وصلى الجمعة، فقد ترك الركعتين من صلاة الظهر.

(١) تفسير القرطبي ١٨/١١٤ - ١٢٠.

وقال الحسن البصري وابن الماجشون: إنها سنة مستحبة، وليست بفرض.

د- يخطب الخطيب متوكئاً على قوس أو عصا، وروى ابن ماجه في سننه عن سعد بن أبي وقاص: أن رسول الله ﷺ كان إذا خطب في الحرب، خطب على قَوْس، وإذا خطب في الجمعة، خطب على عصا.

هـ- يرى جمهور العلماء أن الخطيب يسلّم إذا صَعِد المنبر على الناس، لما روى ابن ماجه عن جابر بن عبد الله: «أن النبي ﷺ كان إذا صعد المنبر سلَّم». وليس السلام سنة عند مالك.

و- الطهارة من الحدثين في الخطبة شرط عند الشافعي في الجديد، وليست شرطاً عند الجمهور، فإن خطب الإمام على غير طهارة أساء عند مالك، وصحت الخطبة، ولا إعادة عليه إذا صلّى طاهراً.

ز- ذهب أكثر الفقهاء إلى أن أقل ما يجزئ في الخطبة: أن يحمد الله تعالى، ويصلي على نبيه ﷺ، ويوصي بتقوى الله، ويقرأ آية من القرآن، ويجب في الثانية أربع كالأولى، إلا أن الواجب هو الدعاء بدلاً من قراءة الآية في الأولى.

وذهب أبو حنيفة إلى أنه لو اقتصر الإمام على التحميد أو التسبيح أو التكبير، أجزأه؛ روي عن عثمان رضي الله عنه أنه صعد المنبر، فقال: الحمد لله، وأُرْتُجّ عليه، فقال: إن أبا بكر وعمر كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالاً، وإنكم إلى إمام فعَّال أحوج منكم إلى إمام قوَّال، وستأتيكم الخطب؛ ثم نزل فصلى، وكان ذلك بحضرة الصحابة، فلم ينكر عليه أحد.

ح- ما يذكر في الخطبة: روى مسلم في صحيحه عن أخت عَمْرة بنت عبد الرحمن قالت: ما أخذت ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ إلا من في

رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وهو يقرأ بها على المنبر في كل جمعة. وروى أيضاً عن يعلى بن أُميَّة أنه سمع النبي ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧٧] .

وفي مراسيل أبي داود عن الزُّهْري قال: كان صدر خطبة النبي ﷺ: «الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا. من يهدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له. ونشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يدي الساعة. من يطع الله ورسوله فقد رَشَد، ومن يعصيهما فقد غوى. نسأل الله ربنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتّبع رضوانه ويجتنب سَخَطه، فإنما نحن به وله» .

وعن الزهري قال: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول إذا خطب: «كل ما هو آتٍ قريبٌ، ولا بُعْد لما هو آت. ولا يعجل الله لعجلةِ أحدٍ، ولا يَخِفّ لأمر الناس. ما شاء الله، لا ما شاء الناس. يريد الله أمراً ويريد الناس أمراً، ما شاء الله كان ولو كَرِه الناس. ولا مُبْعد لما قرَّب الله. ولا مقرِّب لما بعّد الله. لا يكون شيء إلا بإذن الله جلّ وعز» .

وقال جابر: كان النبي ﷺ يوم الجمعة يخطب، فيقول بعد أن يَحْمدَ الله ويصلّي على أنبيائه: «أيها الناس، إن لكم معالم فانتُهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم. إن العبد المؤمن بين مخافتين: بين أجَل قد مضى لا يدري ما الله قاضٍ فيه، وبين أجَل قد بقي لا يدري ما الله صانع فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكِبَر، ومن الحياة قبل الممات. والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مُسْتَعْتَب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[1].

(١) وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس (إتحاف الأنام بخطب رسول الإسلام: ص ١٩٤).

ط- يجب وجوب سنة السكوت للخطبة على من سمعها، والسنة أن يسكت الجميع، من سمع ومن لم يسمع، وهما إن شاء الله في الأجر سواء، ومن تكلم حينئذ لغا، ولا تفسد صلاته بذلك. عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: « إذا قلت لصاحبك: أنصِتْ يوم الجمعة، والإمام يخطب، فقد لَغَوْت »[1].

ي- يستقبل الإمام الناس إذا صَعِد المنبر، اتباعاً لفعل النبي ﷺ، كما جاء في سنن أبي داود مرسلاً وسنن ابن ماجه متصلاً، وعند أبي نُعَيم الحافظ.

ك- يرى الجمهور أن من دخل المسجد والإمام يخطب ركع ركعتين، لما أخرج مسلم في صحيحه عن جابر عن النبي ﷺ: « إذا جاء أحدكم يوم الجمعة، والإمام يخطب، فليركع ركعتين، وليتجوَّز فيهما ». ولا يركع في رأي مالك وابن شهاب الزهري؛ لأن خروج الإمام يقطع الصلاة، وكلامه يقطع الكلام.

ل- يكره النوم والإمام يخطب، عن سَمُرة بن جُنْدُب أن النبي ﷺ قال: «إذا نعِس أحدكم؛ فليتحوَّل إلى مقعد صاحبه، وليتحول صاحبه إلى مقعده»[2].

م- فضل الجمعة: روى الأئمة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر يوم الجمعة، فقال: «وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم، وهو يصلي، يسأل الله عز وجل شيئاً إلا أعطاه إياه» وأشار بيده

---

(١) أخرجه أحمد وأصحاب الكتب الستة إلا الترمذي.

(٢) ورواه أبو داود والترمذي عن ابن عمر بلفظ "إذا نعس أحدكم وهو في المسجد، فليتحول من مجلسه ذلك إلى غيره".

يقلّلها[١]. وفي صحيح مسلم من حديث أبي موسى قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وهي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقْضَى الصلاة».

١٥- ما عند الله من ثواب الصلاة خير من لذة اللهو وفائدة التجارة، وكذلك ما عند الله من الرزق المقسوم للإنسان خير مما يصاب باللهو والتجارة، والله خير من رزق وأعطى، فهو الذي يقدر الأقوات وييسرها، وهو الذي بيده ملكوت كل شيء، فما يصح لإنسان إهمال عبادة الله من أجل شيء، فإن ما يكون له سوف يأتيه، ولو على ضعفه، وما لغيره لن يناله بقوّته، ولن يفيد منه إلا الإسراع إليه، والجري وراءه. وعلى الإنسان طلب الرزق من ربه، والاستعانة بطاعته على نَيْل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة.

(١) يقال: قلَّله في عينه، أي أراه إياه قليلاً.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة المنافقون

مدنية، وهي إحدى عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة (المنافقون) لافتتاحها بذلك، وتحدثها عن أوصاف المنافقين، ومواقفهم المعادية لرسول الله ﷺ وللمؤمنين.

مناسبتها لما قبلها:

تبدو صلة هذه السورة بما قبلها بعقد مقارنة وإجراء تقابل بين المؤمنين والمنافقين، ففي سورة الجمعة ذكر المؤمنون، وفي هذه ذكر أضدادهم وهم المنافقون، لذا أخرج الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في الجمعة سورة الجمعة، يُحرِّض بها المؤمنين، وسورة المنافقين يقرِّع بها المنافقين.

كما أن سورة الجمعة مشتملة على ذكر من كان يكذب ببعثة الرسول ﷺ قلباً ولساناً وهم اليهود، وتذكر هذه السورة من كان يكذبه قلباً دون اللسان ويصدقه لساناً دون القلب، وهم المنافقون.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة كسائر السور المدنية هو الحديث عن التشريعات والأحكام وما تمخض عنه مجتمع المدينة بعد الهجرة من بروز ظاهرة النفاق.

وابتدأت السورة بإيراد صفات المنافقين التي من أهمها الكذب في ادعاء الإيمان، وحلف الأيمان الفاجرة الكاذبة، وبجبنهم وضعفهم وتآمرهم على النبي ﷺ وعلى المؤمنين، وصدهم الناس عن دين الله.

ثم ذكرت موقفهم المخزي والمستعلي وهو ادعاؤهم العزة وزعمهم بأنهم بعد العودة من غزوة بني المصطلق سيخرجون الرسول ﷺ والمؤمنين من المدينة.

وختمت السورة بحثّ المؤمنين على التضامن والطاعة وعبادة الله، وإنفاق الأموال في سبيل الله لمواجهة الأعداء في الداخل والخارج، قبل انقضاء الأجل أو فوات الأوان، فإن الأجل لا يتأخر لحظة.

أقبح أوصاف المنافقين في ميزان الشرع

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾

القراءات:

﴿خُشُبٌ﴾:

وقرأ قنبل، وأبو عمرو، والكسائي (خُشْب).

﴿يَحْسَبُونَ﴾:

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وخلف: بكسر السين، وقرأ الباقون بفتحها.

﴿يُؤْفَكُونَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (يوفكون).

الإعراب:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عامل ﴿إِذَا﴾ هو ﴿جَآءَكَ﴾ وإنما جاز أن يعمل فيها وإن كان مضافاً إليه؛ لأن﴿إِذَا﴾فيها معنى الشرط، والشرط يعمل فيه ما بعده، لا ما قبله.

﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الآية، إنما كسرت (إن) في الآية في المواضع الثلاثة لمكان لام التأكيد في الخبر؛ لأنها في تقدير التقديم، فعلَّقت الفعل عن العمل.

﴿خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ يقرأ بضم الشين وسكونها، فمن قرأ بالضم فعلى الأصل، ومن قرأ بالسكون فعلى التخفيف، كأَسَد وأسْد.

﴿سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ﴿مَا﴾: إما موصولة في موضع رفع فاعل ﴿سَآءَ﴾. و﴿يَعْمَلُونَ﴾ جملة فعلية صلتها، والعائد محذوف تقديره: يعملونه، فحذف الهاء تخفيفاً. وإما مصدرية في موضع رفع أيضاً بـ﴿سَآءَ﴾ ولا عائد لها، وقيل: ﴿مَا﴾ نكرة موصوفة في موضع نصب، و﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ صفتها، والعائد إلى الموصوف من الصفة محذوف، كما هو محذوف من الصلة.

البلاغة:

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ تأكيد بالقسم وإنّ واللام، زيادة في التقرير، وتأكيد علمهم بهذا الخبر.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ جملة اعتراضية بين الشرط وجوابه، لدفع توهم أن التكذيب لقولهم في حد ذاته.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ استعارة، استعار لفظ ﴿جُنَّةً﴾ وهي كالترس؛ للتظاهر بالإسلام الذي يعصم الدم والمال.

﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بينهما طباق.

﴿كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ جملة دعائية عليهم باللعنة والهلاك.

المفردات اللغوية:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ إذا حضروا مجلسك، والمنافق: من يظهر الإسلام ويبطن الكفر. ﴿قَالُواْ﴾ بألسنتهم خلافاً لما في قلوبهم. ﴿نَشۡهَدُ﴾ الشهادة: إخبار عن علم من الشهود. ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ﴾ يعلم. ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنهم لم يعتقدوا بالرسالة أصلاً، فهم كاذبون فيما أضمروه خلافاً لما قالوه.

﴿جُنَّةً﴾ وقاية وستراً من القتل والسبي وأخذ الأموال. ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ صدوا بالأيمان عن الجهاد في سبيل الله. ﴿إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ من نفاق وصدّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي سوء أعمالهم. ﴿ءَامَنُواْ﴾ باللسان. ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ بالقلب، بمعنى أنهم استمروا على كفرهم به. ﴿فَطُبِعَ﴾ ختم، حتى تمرنوا على الكفر واستحكموا فيه. ﴿فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ حقيقة الإيمان ولا يعرفون صحته.

﴿تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ﴾ لضخامتها وجمالها. ﴿تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ﴾ لفصاحتهم وذلاقتهم وحلاوة كلامهم. ﴿خُشُبٞ﴾ جمع خشباء: وهي الخشبة المنخور جوفها. ﴿مُّسَنَّدَةٞۖ﴾ منصوبة مسندة إلى الجدار. ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ يظنون أن كل صوت واقع بهم لجبنهم وهلعهم. ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ الضمير للكل، والعدو يطلق على الجمع والفرد. ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ لعنهم وطردهم من رحمته، وأهلكهم. ﴿أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق والإيمان بعد قيام البرهان.

التفسير والبيان:

يخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم ينطقون بالإسلام إذا جاؤوا النبي ﷺ، وهم في الحقيقة على الضدّ من ذلك، فيقول:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ أي إذا قدم المنافقون إليك يا رسول الله مثل عبد الله بن أُبيّ وصحبه، وحضروا مجلسك، أظهروا لك الإسلام، وقالوا: نشهد إنك لرسول الله شهادة تتطابق فيها القلوب مع الألسنة، والله يعلم أن الأمر كما قالوا، وأنك رسول الله إلى الناس كافة، والله يشهد إنهم لكاذبون في قولهم: نشهد، وفيما أخبروا عنه وهو الشهادة بالرسالة التي هي حق؛ لأنهم لم يكونوا يعتقدون صدق وصحة ما يقولون، ولا تطابق بين ما عليه قلوبهم مع ما أعلنته ألسنتهم، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم، وأن شهادتهم لم تكن شهادة في الحقيقة، فهم كاذبون في تسميته شهادة.

وقولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ فيه تأكيد شهادتهم، للإشعار بأنها صادرة من صميم قلوبهم، مع صدق اعتقادهم، ومعنى ﴿نَشْهَدُ﴾ نعلم ونحلف. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ جملة اعتراضية مخبرة أنه رسول الله ﷺ، وهي تصديق من الله عز وجل لما تضمنه كلامهم من الشهادة لمحمد ﷺ بالرسالة، لئلا يتوهم كون التكذيب الآتي بعدئذ موجهاً إلى ذلك. وقوله ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ يراد به تكذيب دعواهم أن شهادتهم للنبي ﷺ هي من صميم القلب.

ثم أخبر الله تعالى عن استخدام الأيمان لإثباتهم ما يقولون، وإقناع الناس بصدقهم، فقال:

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾ أي إنهم جعلوا أيمانهم الكاذبة التي حلفوها وقاية وستراً لصون دمائهم من

القتل، وأنفسهم من الأسر، وأموالهم من الأخذ، حتى لا تطبق عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر واغتنام المال، فاغترّ بهم من لا يعرف حقيقة أمرهم، فاعتقدوا بأنهم مسلمون، فاقتدوا بهم فيما يفعلون، مما ألحق ضرراً بكثير من الناس، إذ منعوهم من الإيمان والجهاد وأعمال الطاعة بسبب ما يصدر منهم من التشكيك والقدح في النبوة، إنه لقبيح ما كانوا يفعلون من النفاق والصدّ عن سبيل الله تعالى.

والآية دليل على ارتكابهم جرمين كبيرين: الحلف بالأيمان الكاذبة، والصد عن الدخول في الإسلام والجهاد في سبيل الله، مما استوجب وصف أفعالهم بالقبح.

ثم أخبر الله تعالى عن أسباب موقفهم هذا، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾ أي ذلك المذكور من الكذب والصدّ وقبح الأعمال بسبب أنهم آمنوا نفاقاً، ثم كفروا في الحقيقة والباطن، فختم على قلوبهم بسبب كفرهم، فلا يدخلها إيمان، ولا تهتدي إلى حق، ولا ينفذ إليها خير، فأصبحوا لا يفهمون ما فيه رشدهم وصلاحهم، ولا يَعُون ولا يدركون الأدلة الدالة على صدق الرسول ﷺ والرسالة.

ثم أبان الله تعالى مدى الاغترار بمظاهرهم وصورهم الجسدية، فقال:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ﴾ أي وإذا نظرت إليهم تروقك هيئاتهم ومناظرهم، لما فيها من النضارة والرونق وجمال الصورة واعتدال الخلقة، وإن تكلموا حسن السماع لكلامهم، وظن أن قولهم حق وصدق، لفصاحتهم وحلاوة منطقهم وذلاقة ألسنتهم، كأنهم أخشاب جوفاء منخورة مستندة إلى الحيطان، فهم مجرد كتل بشرية لا تفهم ولا تعلم، وقد كان عبد الله بن أُبيْ رأس المنافقين فصيحاً

جسيماً جميلاً، ولكنه وصحبه لا وعي ولا إدراك لديهم، لخلوهم عن الفهم النافع، والعلم الذي ينتفع به صاحبه، فهم صور بلا معان. فقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ يعني عبد الله بن أُبيْ، ومُغيث بن قَيس، وجَدّ بن قيس، كانت لهم أجسام ومنظر، تعجبك أجسامهم لحسنها وجمالها، وكان عبد الله بن أُبيْ جسيماً صبيحاً فصيحاً.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ أي وهم مع جمال مناظرهم وجسامة أجسادهم في غاية الضعف والخور والجبن، يظنون كل صوت كلما وقع أمر، أو كل صيحة يسمعونها واقعة عليهم، نازلة بهم، لفرط جبنهم، ورعب قلوبهم، وفراغهم النفسي، وإحساسهم بالهزيمة من الداخل، فهم الأعداء الألداء، فاحذر مؤامراتهم، ولا تطلعهم على شيء من أسرارك؛ لأنهم عيون لأعدائك من الكفار، لعنهم الله وطردهم من رحمته وأهلكهم، كيف يصرفون عن الحق، ويميلون عنه إلى الكفر، ويتركون الهدى إلى الضلال.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ١٩] .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن للمنافقين علامات يعرفون بها: تحيتهم لعنة، وطعامهم نهبة، وغنيمتهم غلول، ولا يقربون المساجد إلا هجراً، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً، مستكبرين لا يألفون ولا يؤلفون، خشُب بالليل، صخُب بالنهار» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- إن الإيمان تصديق القلب، والكلام الحقيقي كلام القلب، ومن قال شيئاً واعتقد خلافه فهو كاذب، فالمنافقون كاذبون؛ لأنهم يقولون غير ما يعتقدون. وهذا مستنبط من الآية الأولى المتضمنة أن المنافقين يشهدون أن محمداً رسول الله ﷺ، اعترافاً بالإيمان، ونفياً للنفاق عن أنفسهم، وهم في هذا لم يضيفوا شيئاً جديداً للحقيقة، فالله يعلم أن محمداً رسول الله كما قالوا بألسنتهم، ولكنه يشهد أنهم في ضمائرهم كاذبون، وإن أظهروا الشهادة بالإسلام وبتصديق النبي ﷺ، وحلفوا بألسنتهم.

٢- لا يبالي المنافقون بالحلف كذباً، ويصدون عن الدخول في الإسلام، فقد اتخذوا بقيادة عبد الله بن أُبيْ أيمانهم وقاية وستراً من الناس، يتقون بها تطبيق أحكام الكفرة عليهم من القتل والسبي واغتنام الأموال، فاغتر الناس بهم وظنوا أنهم مسلمون، فقلّدوهم، فأدى صنعهم هذا إلى صد الناس من اليهود والمشركين عن الدخول في الإسلام، ومنعهم من الجهاد بسبب تخلفهم واقتداء غيرهم بهم، فبئست أعمالاً أعمالهم الخبيثة من نفاقهم وأيمانهم الكاذبة وصدهم عن سبيل الله.

ولكن الله تعالى بيَّن أن حالهم لا يخفى عليه، ولكن حكمه أن من أظهر الإيمان، أجري عليه في الظاهر حكم الإيمان.

٣- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر؛ لأنه أقر باللسان، ثم كفر بالقلب، والمعول عليه هو ما في القلوب. وكان من لوازم اعتصامهم بالكفر أن ختم الله على قلوبهم بالكفر، فأصبحوا لا يدركون معالم الإيمان وأدلته، ولا مفهوم الخير وطرقه، فهم على الكفر الثابت الدائم.

٤- إن الحكم على الناس لا يكون بالأشكال والهيئات والمناظر، وإنما يكون بالحقائق المدركة، والأفعال الواقعة، والأقوال الصادقة. وقد كان

المنافقون حسان الهيئة، فصيحي اللسان، ولكنهم أشباح بلا أرواح، وصور بلا معان. قال ابن عباس: كان عبد الله بن أُبيْ وسيماً صحيحاً صبيحاً ذَلِق اللسان، فإذا قال سمع النبي ﷺ مقالته، وصفه الله بتمام الصورة وحسن الإبانة.

أخرج مسلم وابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» .

٥ً- يؤدي النفاق عادة إلى القلق والتردد، والضعف والهزيمة، والجبن والجزع والهلع، لذا كان المنافقون جبناء، يحسبون كل واقعة، كأنها نازلة بهم لجبنهم، وكأن كل أمر وقع أو خوف نازل بهم وحدهم. قال مقاتل: إذا نادى مناد في العسكر، أو انفلتت دابة، أو نشدت ضالة مثلاً، ظنوا أنهم يرادون بذلك، لما في قلوبهم من الرعب، ولأنهم على وجل من أن يهتك الله أستارهم، ويكشف أسرارهم، يتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة.

٦ً- المنافقون أعداء المؤمنين، الكاملون في العداوة لله تعالى وللرسول ﷺ، فينبغي الحذر من أقوالهم والميل لكلامهم، والحرص من تآمرهم وتخذيلهم بعض ضعفة المؤمنين، واطلاعهم على أسرار الأمة، حتى لا تتسرب إلى الأعداء.

٧ً- لهذه الأوصاف الذميمة كلها ختمت الآيات بكلمة الذم والتوبيخ وهي ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي لعنهم وطردهم من رحمته، فكيف يصرفون عن الحق إلى الباطل، وعن الهدى إلى الضلال، وكيف تضل عقولهم عن الإيمان مع وضوح الدلائل؟!

أدلة إثبات كذب المنافقين ونفاقهم

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

القراءات:

﴿قِيلَ﴾ :

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿لَوَّوْاْ﴾ :

وقرأ نافع (لَوَوْا).

الإعراب:

﴿تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ﴾ هنا فعلان، أعمل الثاني منهما وهو ﴿يَسْتَغْفِرْ﴾ ولا ضمير فيه؛ لأن﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مرفوع به، والفعل لا يرفع فاعلين. ولو أعمل الأول وهو ﴿تَعَالَوْاْ﴾ لقيل: تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم، وكان في ﴿يَسْتَغْفِرْ﴾ ضمير يعود إلى﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ هو الفاعل .﴿أَسْتَغْفَرْتَ﴾استغني بهمزة الاستفهام عن همزة الوصل.

﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ هذا هو المشهور، وقرئ (لَيَخْرجن) بفتح الياء، وهو فعل لازم مضارع (خرج) إلا أنه نصب ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ على الحال، وهو شاذ؛ لأن الحال لا يكون فيها الألف واللام، مثل: (مررت به المسكينَ) منصوب على الحال، وقولهم: ادخلوا الأول فالأول.

البلاغة:

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ بينهما طباق السلب.

﴿مُّسْتَكْبِرُونَ﴾، ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.. إلخ، توافق الفواصل مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ﴾ أي احضروا معتذرين يطلب لكم الرسول المغفرة. ﴿لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ﴾ عطفوها وأمالوها إعراضاً واستكباراً عن ذلك واستهزاء. ﴿يَصُدُّونَ﴾ يعرضون عن الاستغفار وعن القائل. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار. ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لرسوخهم في الكفر. ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ الخارجين عن طاعة الله تعالى والرسول ﷺ.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ لأصحابهم من الأنصار. ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ من المهاجرين. ﴿حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ يتفرقوا عنه. ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي خزائن الأرزاق فيهما، فبيده الأرزاق، وهو الرزاق للمهاجرين وغيرهم. ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون ذلك لجهلهم بالله، فهم لا يدركون عظمة الله وقدرته وسعته.

﴿لَئِن رَّجَعْنَآ﴾ من غزوة بني المصطلق. ﴿ٱلْأَعَزُّ﴾ أي المنافقون. ﴿ٱلْأَذَلَّ﴾ أي المؤمنون في زعمهم. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ الغلبة والنصرة والقوة. ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك من فرط جهلهم وغرورهم.

سبب النزول:

نزول الآية (٥):

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أخرج ابن جرير عن قتادة قال: قيل لعبد الله بن أُبيْ: لو أتيت النبي ﷺ، فاستغفر لك، فجعل يلوي رأسه، فنزلت فيه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثله.

وأخرج البخاري ومسلم، والترمذي بمعناه في بيان سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ غزا بني المصطلِق على ماء يقال له (الْمُرَيْسِيع) من ناحية (قُدَيد) إلى الساحل، فازدحم أجير لعمر يقال له (جَهْجاه) مع حَليف لعبد الله بن أُبَيْ يقال له (سِنان) على ماء (بالْمُشَلَّل) فصرخ جهجاه بالمهاجرين، وصرخ سِنان بالأنصار؛ فلَطَم جهجاه سناناً، فقال عبد الله بن أُبي: أوَ قد فعلوها! والله ما مَثَلُنا ومَثَلُهم إلا كما قال الأول: سَمِّن كلبك يأكلْك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل - يعني محمداً ﷺ - ثم قال لقومه: كُفُّوا طعامكم عن هذا الرجل، ولا تنفقوا على من عندَه حتى ينفضّوا ويتركوه، فقال زيد بن أرقم - وهو من رهط عبد الله-: أنت والله الذليل الْمُنْتَقَص في قومك؛ ومحمد ﷺ في عز من الرحمن، ومودّة من المسلمين، والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبداً، فقال عبد الله: اسكت إنما كنت ألعب. فأخبر زيد النبي ﷺ بقوله؛ فأقسم بالله ما فعل ولا قال؛ فعذره النبي ﷺ. قال زيد: فوجدت في نفسي ولامَني الناس، فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله. فقيل لعبد الله: قد نزلت فيك آيات شديدة، فاذهب إلى رسول الله ﷺ ليستغفر لك؛ فألوى برأسه، فنزلت الآيات.

نزول الآية (٦):

﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ أخرج ابن جرير عن عروة قال: لما نزلت: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة:

٩/ ٨٠] قال النبي ﷺ: «لأزيدن على السبعين» ، فأنزل الله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾. الآية. وأخرج عن مجاهد وقتادة مثله. وأخرج عن ابن عباس قال: لما نزلت آية براءة قال النبي ﷺ: «وأنا أسمع، إني قد رخص لي فيهم، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة، لعل الله أن يغفر لهم» فنزلت.

نزول الآية (٧ - ٨):

أخرج البخاري كما تقدم وأحمد وغيرهما عن زيد بن أرقم قال: سمعت عبد الله بن أُبيّ يقول لأصحابه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ﴾ فلئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمّي، فذكر ذلك عمي للنبي ﷺ، فدعاني النبي ﷺ، فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذّبني، وصدّقه، فأصابني شيء لم يصبني مثله، فجلست في البيت، فقال عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك، فأنزل الله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إليّ رسول الله ﷺ، فقرأها، ثم قال: «إن الله قد صدّقك»(١).

وروى الترمذي أيضاً عن زيد بن أرقم: أن أعرابياً نازع أنصارياً في بعض الغزوات على ماء، فضرب الأعرابي رأسه بخشبة فشجّه، فشكا إلى ابن أبيّ، فقال: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، وإذا رجعنا إلى المدينة، فليخرج الأعز الأذل. عنى بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ.

المناسبة:

بعد بيان قبائح خصال المنافقين وهي الكذب والأيمان الكاذبة، والصد عن سبيل الله، والجبن، وجمال الأجسام وضعف العقول، وعداوة الله تعالى

(١) وأخرجه الترمذي أيضاً وقال: هذا حديث حسن صحيح.

والرسول ﷺ، ذكر تعالى أدلة تثبت كذبهم ونفاقهم من الواقع المشاهد، كإعراضهم عن الاعتذار، وتصميمهم بعد وقعة بني المُصْطَلِق (قبيلة يهود) على طرد المؤمنين من المدينة.

التفسير والبيان:

ذكر الله تعالى أدلة كذب المنافقين وأسباب غضب الله عليهم، فقال:

أ- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾ أي وإذا قيل للمنافقين بقيادة عبد الله بن أُبيْ: أقبلوا إلى رسول الله ﷺ يطلب لكم المغفرة من الله، أعرضوا استكباراً واستهزاء بذلك ورغبة عن الاستغفار، ورأيتهم يعرضون عن رسول الله ﷺ، وهم مستكبرون عن الإتيان إليه وطلب الاستغفار منه، فهم أكبر من ذلك في زعمهم. والمشهور في السيرة أن ذلك كان في غزوة المُرَيْسِيع، وهي غزوة بني المصطلق، وليس في غزوة تبوك كما ذكر بعضهم؛ لأن عبد الله بن أبي لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك، بل رجع بطائفة من الجيش.

قال الكلبي: لما نزل القرآن على الرسول ﷺ بصفة المنافقين، مشى إليه عشائرهم من المؤمنين، وقالوا لهم: افتضحتم بالنفاق، وأهلكتم أنفسكم فأْتوا رسول الله ﷺ، وتوبوا إليه من النفاق، واسألوه أن يستغفر لكم، فأبوا ذلك، وزهدوا في الاستغفار، فنزلت[1].

وقال ابن عباس: لما رجع عبد الله بن أُبيْ من أُحُد بكثير من الناس، مقتَه المسلمون، وعنّفوه، وأسمعوه المكروه، فقال له بنو أبيه: لو أتيت رسول الله ﷺ حتى يستغفر لك ويرضى عنك، فقال: لا أذهب إليه، ولا أريد أن يستغفر لي، وجعل يلوي رأسه، فنزلت[2].

---

(١) تفسير الرازي: ٣٠/ ١٥.

(٢) المرجع السابق.

وعند الأكثرين من المفسرين: إنما دعي إلى الاستغفار؛ لأنه قال: ﴿لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ وقال: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ فقيل له: يستغفر لك رسول الله، فقال: ماذا قلت، فذلك قوله تعالى: ﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾.

ثم أبان الله تعالى أن الاستغفار لهم لا ينفعهم، فقال:

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦)﴾ أي جازاهم الله على استكبارهم وإعراضهم، فأوضح أن الاستغفار لا ينفعهم لإصرارهم على النفاق، واستمرارهم على الكفر، فسواء حدث الاستغفار لهم أو لم يحدث لا يجديهم نفعاً، ولن يغفر الله لهم، ما داموا على النفاق، إن الله لا يوفق الخارجين عن الطاعة، المنهمكين في معاصي الله، ومنهم المنافقون بالأولى.

قال قتادة كما تقدم: نزلت هذه الآية بعد قوله: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وذلك لأنها لما نزلت، قال رسول الله ﷺ: «خيرني ربي، فلأزيدنهم على السبعين» فأنزل الله تعالى: ﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

٢- ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ أي إن هؤلاء المنافقين يقولون للأنصار: لا تطعموا أصحاب محمد المهاجرين، حتى يجوعوا ويتفرقوا عنه.

فرد الله عليهم بقوله:

﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي إن الله هو الرزاق لهؤلاء المهاجرين، وبيده مفاتيح أرزاق العباد، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولكن المنافقين يجهلون أن خزائن الأرزاق بيد الله، فظنوا أن الله لا يوسّع على المؤمنين.

٣- ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ أي يقول هؤلاء المنافقون، والقائل عبد الله بن أبي زعيم المنافقين: لئن عدنا من هذه الغزوة، أي غزوة بني المصطلق إلى المدينة، ليخرجن الأعز - عنى بالأعز نفسه ومن معه - منها الأذل، أراد بذلك رسول الله ﷺ ومن معه، فنحن الأعزاء الأقوياء، وهم الأذلاء الضعفاء. وقد رجع ابن أبي إلى المدينة، فلم يلبث إلا أياماً يسيرة حتى مات، فاستغفر له رسول الله ﷺ، وألبسه قميصه، فنزلت هذه الآية.

فرد الله عليهم قولهم، فقال:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي إن الله وحده القوة والغلبة، ولمن منحها من رسله وصالحي عباده المؤمنين، لا لغيرهم، ولكن المنافقين لا يدرون ذلك، لفرط جهلهم، وعدم إيمانهم، وشدة حيرتهم وقلقهم، فالله هو الذي ينصر من يشاء من عباده، كما قال: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢١]. والعز والمنعة والقوة لله، خلافاً لما توهموا أن العزة بكثرة الأموال والأتباع. والعزة غير الكبر، فالعزة: الشعور بالسمو مع معرفة الإنسان حقيقة نفسه، والكبر: غمط الناس حقوقهم وجهل الإنسان بنفسه.

روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبيْ ابن سلول قال لأبيه: والذي لا إله إلا هو لا تدخل المدينة حتى تقول: إن رسول الله ﷺ هو الأعز وأنا الأذلّ؛ فقاله[١].

وإنما قال في الآية الأولى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ وهنا ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ليعلم بالأول قلة كياستهم وفهمهم، وبالثاني كثرة حماقتهم وجهلهم.

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ١٢٩.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- السبب الأول في غضب الله على المنافقين: إباؤهم الاعتذار من أقوالهم وأفعالهم، وإعراضهم عن الرسول ﷺ متكبرين عن الإيمان.

٢- كل من الاستغفار للمنافقين وعدم الاستغفار سواء، فلا ينفعهم استغفار الرسول ﷺ شيئاً؛ لأن الله لا يغفر لهم، وإن الله لا يهدي من سبق في علمه أنه يموت فاسقاً كافراً.

٣- السبب الثاني: قول ابن أبي وصحبه للأنصار: لا تنفقوا على من عند محمد ﷺ من أصحابه المهاجرين حتى يتفرقوا عنه.

٤- رد الله على ذلك ببيان أن خزائن السماوات والأرض ومفاتيح الرزق لله عز وجل، ينفق كيف يشاء، غير أن المنافقين لا يفهمون أنه تعالى إذا أراد أمراً يسره.

٥- السبب الثالث: قول ابن أبي أيضاً: لئن عُدْنا إلى المدينة من غزوة بني المصطلق ليخرجن الأعز - يعني نفسه- منها الأذل - يعني محمداً ﷺ وصحبه- لتوهمه أن العزة بكثرة الأموال والأتباع، فرد الله عليه بأن العزة والقوة لله وحده ولمن أفاضها عليهم من رسله وعباده الصالحين. عن بعض الصالحين وكان في هيئة رثة: ألستُ على الإسلام، وهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر بعده. وعن الحسن بن علي رضي الله عنهما: أن رجلاً قال له: إن الناس يزعمون أن فيك تيهاً، فقال: ليس بتيه، ولكنه عزة، وتلا الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

تحذير المؤمنين من أخلاق المنافقين وأمرهم بالإنفاق في سبيل الخير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾﴾

القراءات:

﴿وَأَكُن﴾:

وقرأ أبو عمرو (وأكون).

﴿يُؤَخِّرَ﴾:

وقرأ ورش، ووقفاً حمزة (يوخر).

الإعراب:

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (أَكُن): مجزوم بالعطف على موضع ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ لأن موضعه الجزم على جواب التمني. وقرئ (فأكونَ) بالنصب عطفاً على لفظ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ وهو منصوب بتقدير (أن).

البلاغة:

﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ توافق الفواصل مثلما سبق، مراعاة لرؤوس الآيات.

المفردات اللغوية:

﴿لَا تُلْهِكُمْ﴾ لا تشغلكم عن الصلاة وسائر العبادات المذكِّرة بالمعبود، والمراد النهي عن اللهو بالأموال والأولاد، وتوجيه النهي إليها للمبالغة. ﴿ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الصلوات الخمس والعبادات الأخرى. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ وهو اللهو أو الشغل بها. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في تجارتهم؛ لأنهم باعوا العظيم الباقي بالحقير الفاني.

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم﴾ أي أنفقوا بعض أموالكم لادخار ثوابها للآخرة. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي قبل أن يرى دلائله. ﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي﴾ ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى هلا، وهي كلمة تفيد تمني حصول ما بعدها، و﴿أَخَّرْتَنِي﴾ أمهلتني. ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أمد غير بعيد. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ أي فأتصدق بالزكاة وغيرها. ﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ بتدارك الأعمال الصالحة كالحج وغيره. ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ﴾ لن يمهلها. ﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ آخر عمرها. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على كل أعمالكم، فمجازيكم عليها.

المناسبة:

بعد بيان خصال المنافقين وذمهم وتوبيخهم عليها، حذر الله المؤمنين من أخلاق المنافقين، ثم أمرهم أن ينفقوا بعض أموالهم في مجالات الخير، ولا يؤخروا ذلك حتى يداهمهم الموت، فيندموا ويطلبوا إطالة العمر حتى يتداركوا ما فاتهم من خير.

التفسير والبيان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي يا أيها المؤمنون المصدقون بالله تعالى ورسوله ﷺ لا تشغلكم الأموال وتدبيرها والأولاد والعناية بشؤونها عن القيام بذكر الله تعالى من قراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل وأداء فرائض الإسلام وحقوق الله تعالى.

ثم حذر من المخالفة وتوعد اللاهين بالدنيا، فقال:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي ومن يلتهي بالدنيا ومتاعها وزخارفها وزينتها، وينصرف عن الدين وطاعة ربه وذكره، فإنه من الخاسرين، الكاملين في الخسران، الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؛ لأنه باع خالداً باقياً بفان زائل.

ثم حث المؤمنين على الإنفاق في طاعته، فقال:

﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي وأنفقوا بعض ما رزقناكم في سبيل الخير، شكراً على النعمة، ورحمة بالفقراء، ورعاية لمصلحة الأمة العامة، من قبل مجيء أسباب الموت ومشاهدة علاماته، فيقول الواحد منكم: هلا أمهلتني وأخّرت موتي إلى مدة أخرى قصيرة، فأتصدق بمالي، وأكن من الصالحين المستقيمين.

وهذا يدل على أن كل مفرط يندم عند الاحتضار، ويسأل طول المدة، ولو شيئاً يسيراً ليستدرك ما فاته، ولكن فات الأوان.

أخرج الترمذي وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له مال يبلّغه حج بيت الله، أو تجب عليه فيه الزكاة، فلم يفعل، سأل الرجعة عند الموت» ، فقال له رجل: يا ابن عباس: اتق الله، فإنما يسأل الرجعةَ الكافرُ!! فقال: سأتلو عليكم بذلك قرآناً: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ الآية.

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ أي لن يؤخر الله أي نفس إذا حضر أجلها، وانقضى عمرها، والله لا يخفى عليه شيء

من أعمالكم، فهو مجازيكم عليها، بالإحسان إحساناً، وبالإساءة سخطاً وعذاباً، وبعداً عن الرحمة والرضوان.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ً- وجوب الاشتغال بطاعة الله تعالى، كقراءة القرآن، وإدامة الذكر، وأداء الصلوات الخمس، وإيتاء الزكاة، وإتمام الحج، والقيام بجميع الفرائض.

٢ً- عدم الاشتغال بتدبير الأموال والاهتمام بشؤون الأولاد عن أداء حقوق الله، كما فعل المنافقون؛ إذ قالوا بسبب الشح بأموالهم: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ. ومن يشتغل بالمال والولد عن طاعة ربه، فأولئك هم الخاسرون.

٣ً- قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ يدل على وجوب تعجيل أداء الزكاة، ولا يجوز تأخيرها أصلاً، وكذلك سائر العبادات إذا تعين وقتها، يجب أداؤها فوراً.

والآية في العموم حث على الإنفاق الواجب خاصة، دون النفل؛ لأن الوعيد إنما يتعلق بالواجب دون النفل، وذلك إما مطلقاً، وإما في طريق الجهاد، قبل فوات الأوان ومجيء أمارات الموت حين لا تقبل التوبة، ولا ينفع العمل، فيسأل الإنسان التأخير في الأجل لتدارك ما فات. وتشمل الآية على العموم الحج عند الجمهور القائلين بأنه على الفور. ولا تشمله عند الشافعية القائلين بأنه على التراخي.

٤ً- قال ابن عباس في آية: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ﴾ : هذه الآية أشدّ على أهل التوحيد؛ لأنه لا يتمنى الرجوع في الدنيا أو التأخير فيها أحد له عند الله خير

في الآخرة. واستثنى العلماء الشهيد، فإنه يتمنى الرجوع حتى يقتل؛ لما يرى من الكرامة.

٥- الله تعالى خبير بما يعمل العباد من خير وشر، لا تخفى عليه خافية، ويجازي كل امرئ بما عمل خيراً أو شراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التغابن

مدنية، وهي ثمان عشرة آية

تسميتها:

سميت التغابن تذكيراً بيوم القيامة الذي يظهر فيه غبن الكافر وخسارته بتركه الإيمان، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ (٩).

مناسبتها لما قبلها:

تتضح مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة:

١- في السورة السابقة ذكر الله أوصاف المنافقين، وحذر المؤمنين من أخلاق المنافقين، وهنا حذر تعالى من صفات الكافرين: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ وقسم الناس في الجملة قسمين: مؤمن وكافر، وبشر المؤمن بالجنة، وهدد الكافر بالنار.

٢- نهى الله تعالى في السورة المتقدمة عن الاشتغال بالأموال والأولاد عن ذكر الله: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وفي هذه السورة ذكر أن الأموال والأولاد فتنة: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ وهذا كالتعليل لما سبق.

٣- أمر الله في آخر سورة (المنافقون) السالفة بالإنفاق في سبيل الله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ كذلك أمر بالإنفاق في أواخر هذه السورة: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ كما أن سورة التغابن تدل على أنه يغبن الناس في يوم القيامة بعضهم بعضاً بترك الإيمان والعمل الصالح والإنفاق في سبيل الله.

ويلاحظ الترتيب بين السور الست التالية، فإنها اشتملت على أصناف الأمم، فسورة الحشر: في ذكر المعاهدين من أهل الكتاب، فإنها نزلت في بني النضير حين نبذوا العهد وقوتلوا، وسورة الممتحنة: في ذكر المعاهدين من المشركين، وسورة الصف: ذكر فيها أهل الكتاب: اليهود والنصارى، والمؤمنون، وكذلك سورة الجمعة: ذكر فيها اليهود وأهل الإيمان، وسورة (المنافقون): في أهل النفاق، وسورة التغابن: ذكر فيها المشركون والكفار بنحو عام. وبه يتبين أن الفصل بين المسبِّحات التي هي نظائر (وهي الحشر والصف والجمعة والتغابن) جاء لحكمة دقيقة هي الكلام الشامل عن هذه الأمم.

ما اشتملت عليه السورة:

سورة التغابن من السور المدنية التي عنيت خلافاً للمعتاد بأمور متعلقة بالعقائد.

ابتدأت ببيان بعض صفات الله الحسنى المتصلة بجلال الله وقدرته وعلمه وخلقه الإنسان الذي يؤول أمره إلى أحد قسمين: مؤمن وكافر.

ثم أنذرت الكفار بما حل بالأمم الماضية التي كذبت الرسل بسبب بشريتهم، وإنكارهم البعث، والرد عليهم بقسم الله بوقوعه وأنه حق، وبجزائه على الأعمال.

ودعت بعدئذ إلى الإيمان بالله تعالى والرسول ﷺ والقرآن، النور الذي

أنزله على نبيه محمد ﷺ، وهددت بما يلقاه الناس يوم القيامة يوم يغبن فيه الكافر بتركه الإيمان، ويغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان، ويدخل المؤمنون الذين يعملون الصالحات الجنان، ويدخل الكافرون النيران، وفي ذلك أمر بالطاعة وتحذير من المعصية.

ثم أبانت أن كل ما يحدث في الكون بإرادة الله ومشيئته، وأكدت الأمر بطاعة الله تعالى والرسول ﷺ والتوكل على الله وحده، فإن أعرضوا فلا يضير رسول الله ﷺ بقاءهم على الكفر.

ثم حذرت من عداوة بعض الأزواج والأولاد الذين يمنعون الإنسان أحياناً عن الجهاد، وأوصت بالعفو والصفح عن المسيء، وأخبرت بأن الأموال والأولاد فتنة واختبار.

وختمت السورة بالأمر بالتقوى والإنفاق في سبيل الله لإعلاء دينه، وحذرت من الشح والبخل، وأبانت مضاعفة الثواب للمحسنين المنفقين من أجل إعلاء كلمة الله تعالى.

مظاهر قدرة الله تعالى

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾

البلاغة:

﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ بينهما طباق، وكذا بين قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ تقديم الجار والمجرور لإفادة الحصر والاختصاص من حيث الحقيقة، أي له وحده الملك والحمد.

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بينهما جناس ناقص، لاختلاف الحركات والشكل.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ينزهه ويمجّده ويدل عليه جميع المخلوقات في السماوات والأرض، بدلالتها على كماله واستغنائه، واللام زائدة، وعبر بـ﴿مَا﴾ دون (مَنْ) تغليباً للأكثر. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي أن قدرته في إيجاد جميع المخلوقات على سواء.

﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ قال الشوكاني: خلق الكافر، وكفره فعل له وكسب، وخلق المؤمن، وإيمانه فعل له وكسب، والكافر يكفر ويختار الكفر، والمؤمن يؤمن ويختار الإيمان، والكل بإذن الله، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مبصر أعمالكم عالم بها، فيعاملكم بما يناسب أعمالكم. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بالغرض الصحيح والحكمة البالغة، وهو أن جعل الأرض مقر المكلفين ليعملوا فيجازيهم وسخر السماوات لهم. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أي جعل أشكالكم الآدمية بأحسن صورة، أي أتقنها وأحكمها، وجعلكم أنموذج جميع المخلوقات كما قال تعالى: ﴿فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٩٥/ ٤] فالتصوير: تخطيط وتشكيل وتمييز وتخصيص. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ إليه المرجع فأحسنوا السرائر والظواهر. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عليم بحديث النفس وخطرات القلب، والسر، فلا يخفى عليه شيء كلياً أو جزئياً، وعلمه بجميع الأشياء على سواء. قال البيضاوي: وتقديم تقرير القدرة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على العلم: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ لأن دلالة

المخلوقات على قدرته أولاً وبالذات، وعلى علمه بما فيها من الإتقان والاختصاص ببعض الأنحاء.

التفسير والبيان:

هذه السورة هي آخر المسبحات، قال تعالى:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١﴾ أي ينزه الله عن كل نقص وعيب، ويمجده، ويدل عليه جميع مخلوقاته التي في سماواته وأرضه، فهو بارئها ومالكها، له الملك وحده دون غيره؛ لأنه الخالق المصور المتصرف في جميع الكائنات، وله الحمد والشكر وحده، لأنه المستحق لذاك، وهو المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره، فالملك والحمد يختصان به، ليس لغيره منهما شيء، وما كان لعباده منهما فهو من فيضه وراجع إليه، وهو قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء في السماوات والأرض، فمهما أراد كان، وما لم يشأ لم يكن.

والتسبيح إما باللسان والنطق كما يفعل الإنسان، وإما بنطق وحال لا نفقهه، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ١٧/ ٤٤] .

ثم ذكر الله تعالى بعض آثار قدرته، فقال:

١- خلق الإنسان: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢﴾ أي إن الله هو الذي أوجدكم على هذه الصفة، وآل أمركم أن يكون بعضكم كافراً باختياره وكسبه على خلاف مقتضى فطرته، وبعضكم مؤمناً مختاراً للإيمان على وفق الفطرة السوية القائمة على التوحيد والإيمان بالله، والله العالم البصير قبل الخلق بما يؤول إليه أمر كل واحد منكم، الشهيد على أعمال عباده، وسيجزيهم بها أتم الجزاء.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٦] .

أخرج أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع عن النبي ﷺ قال: «كل مولود يولَد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه» .

٢- خلق العالم كله بالحكمة البالغة: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ أي أوجد السماوات والأرض بالعدل والحكمة البالغة المحققة لنفع العالم في الدين والدنيا، وخلقكم أيها البشر في أكمل صورة، وأحسن تقويم، وأجمل شكل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار: ٨٢/ ٦-٨] وقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٤] وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٩٥/ ٤] .

وإليه في عالم الآخرة المرجع والمآب، فيجازي كل نفس بما كسبت.

٣- العلم الشامل: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ أي يعلم الله جميع ما في السماوات والأرض، فلا تخفى عليه من ذلك خافية، ويعلم ما تخفونه وما تظهرونه، والله محيط علمه بما يضمره كل إنسان في نفسه من الأسرار والمعتقدات.

ويلاحظ أنه تعالى عطف الخاص على العام في قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ثم عطف ما هو أخص وهو حديث النفس الذي لا يعبر عنه الإنسان بكلام أو إشارة أو بيان ما.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- ينزه الله ويمجده جميع مخلوقاته في السماوات والأرض لدلالتها على كماله واستغنائه، وهو تنزيه وتسبيح دائم متجدد شامل كل جزء من أجزاء العالم. وهذا بخلاف قوله تعالى في موضع آخر: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٥٩/١] وقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٥٧/١] فهما للدلالة على التسبيح في الجملة على سبيل المبالغة.

٢- الله تعالى هو خالق الإنسان وبارئه، ويعلم حال كل واحد في علمه الأزلي قبل وجوده من إيمان وكفر، أخرج البخاري والترمذي من حديث ابن مسعود: «وإن أحدَكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبِق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع أو باع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها» . قال العلماء: والمعنى تعلق العلم الأزلي بكل معلوم؛ فيجري ما علم وأراد وحكم. فقد يريد إيمان شخص على عموم الأحوال، وقد يريده إلى وقت معلوم. وكذلك الكفر.

٣- خلق الله العالم كله سماءه وأرضه بالعدل والحكمة البالغة، وحقاً يقيناً لا ريب فيه، وخلق الإنسان في أحسن شكل وصورة وتقويم، وإليه في الحياة الآخرة المرجع، فيجازي كلّاً بعمله.

٤- الله سبحانه عالم الغيب والشهاة، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم السرائر والظواهر، ويعلم ما في الضمائر والقلوب.

إنكار المشركين الألوهية والنبوة والبعث

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾

القراءات:

﴿رُسُلُهُم﴾:

وقرأ أبو عمرو (رُسْلهم).

الإعراب:

﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ (بَشَرٌ) مبتدأ، وإنما قال: ﴿يَهْدُونَنَا﴾ الذي هو الخبر لأنه كنى به عن (بَشَرٌ)، و(بَشَرٌ) يصلح للجمع كما يصلح للواحد، والمراد به هنا الجمع، مثل قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥/٣٦] . ولو أراد الواحد لقال: "يهدينا" كما في آية: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٥٤/ ٢٤] .

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ ﴿زَعَمَ﴾: فعل يتعدى إلى مفعولين، وجملة: ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ سدت مسد المفعولين، لما فيها من ذكر الحديث والمحدث عنه، كقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟﴾ [العنكبوت: ٢/٢٩] . و﴿أَن﴾: مخففة من (أنّ) واسمها محذوف، أي أنهم.

المفردات اللغوية:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أيها الكفار، والاستفهام للتعجيب من أمرهم .﴿نَبَؤُا۟﴾ خبر مهم .﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ كقوم نوح وهود وصالح عليهم السلام .﴿فَذَاقُوا۟

﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ عقوبة وضرر كفرهم في الدنيا أو عاقبته، وأصل الوبال: الثقل، ومنه طعام وبيل، أي ثقيل على المعدة، والوابل: المطر الثقيل، ثم أطلق على الضرر الذي يصيب الإنسان؛ لأنه يثقل عليه، و﴿أَمْرِهِمْ﴾ كفرهم، إشارة إلى أنه أمر عظيم خطير. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لهم في الآخرة عذاب مؤلم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور من الوبال وعذاب الدنيا. ﴿بِأَنَّهُ﴾ أي بسبب أنه، والهاء: ضمير الشأن، أي بسبب أن الشأن. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات والحجج الظاهرات على الإيمان. ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ المراد به جنس البشر، أنكروا وتعجبوا أن يكون الرسول بشراً، والبشر: يطلق على الواحد والجمع. ﴿فَكَفَرُوا۟﴾ بالرسل. ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ أعرضوا عن الإيمان والتدبر في البينات. ﴿وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾ أظهر غناه عن كل شيء، ومنه طاعتهم وإيمانهم إذ أهلكهم. ﴿وَٱللَّهُ غَنِىٌّ﴾ عن خلقه وعن عبادتهم وغيرها. ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في أفعاله ويحمده كل مخلوق. ﴿بَلَىٰ﴾ أي تبعثون وهي كلمة جواب تقع بعد النفي للإثبات. ﴿وَرَبِّى﴾ قسم، أكد به الجواب. ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ لتخرجن من قبوركم أحياء وتحاسبن وتجزون بأعمالكم. ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ لتخبرن بأعمالكم بالمحاسبة والجزاء. ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لقدرته التامة وقبول المادة ما أراد.

المناسبة:

بعد بيان أدلة وجود الله تعالى وقدرته وآثاره في الكون، حذر مشركي مكة من الكفر وإنكار الألوهية: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ وإنكار النبوة: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ وإنكار البعث: ﴿أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ وأبان عقوبتهم في الدنيا وما أُعدّ لهم من العذاب في الآخرة، وأثبت أن البعث حق كائن لا ريب فيه، وأن كل إنسان سيجازى بما فعل يوم القيامة.

التفسير والبيان:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

أي ألم يبلغكم يا كفار مكة خبر كفار الأمم الماضية، كقوم نوح وعاد وثمود، وما حل بهم من العذاب والنكال بسبب مخالفة الرسل والتكذيب بالحق، فقد دعتهم رسلهم إلى توحيد الله وعبادته وترك الأوثان التي اتخذوها أرباباً من دون الله، فأصابهم عاقبة كفرهم وتكذيبهم ورديء أفعالهم من عذاب الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم جداً وهو عذاب النار. وهذا تعجيب من حالهم الغريبة.

ثم بيَّن الله تعالى أسباب عقابهم الدنيوي والأخروي، فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾ أي ذلك العذاب في الدارين بسبب أنه كانت تجيئهم الرسل المرسلة إليهم بالمعجزات الظاهرة، والأدلة والبراهين الواضحة، فقال كل قوم لرسولهم: كيف يتصور أن يهدينا البشر، أو من كان من جنس البشر؟ أي إنهم استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر، وأن يكون هداهم على أيدي البشر مثلهم، فكفروا بالرسل وما جاؤوا به، وأعرضوا عنهم وعن الحق وعن العمل به، ولم يتدبروا فيما جاؤوا به، واستغنى الله عن إيمانهم وعبادتهم؛ إذ أهلكهم، والله غير محتاج إلى العالم ولا إلى عبادتهم له، محمود من كل مخلوقاته بلسان المقال أو الحال.

ثم أخبر الله تعالى عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون، فقال:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ﴾ أي ادعى المشركون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، كما قال في آية أخرى: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣/ ٨٢] . وفي هذا تقريع لكفار مكة؛ لأن الزعم ادعاء العلم مع ظهور أمارات خلافه. جاء في الحديث: «زعموا: مطية الكذب» .

فرد الله عليهم بقوله:

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي قل أيها الرسول لهم وأخبرهم بأنكم والله ستبعثون وتخرجون من قبوركم أحياء، ولتُخْبَرُنّ بجميع أعمالكم جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، إقامة للحجة عليكم، ثم تجزون به، وذلك البعث والجزاء هيّن سهل على الله تعالى، لا يصرفه صارف. وقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ لإثبات لما بعد ﴿أَن﴾ وهو البعث.

وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده، الأولى منها قوله تعالى: ﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ١٠/٥٣] والثانية منها قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣٤/٣] والثالثة هذه الآية.

ونظير الآية: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٣٦/٧٨-٧٩] .

فقه الحياة أو الأحكام:

يستنبط من الآيات ما يأتي:

١- حذر الله المشركين في مكة وغيرها من تماديهم في الكفر بأن يعاقبوا مثل عقوبات كفار الأمم الخالية كقوم نوح وهود وصالح التي عوقبوا بها في الدنيا، وتنتظرهم في الآخرة.

٢- إن أسباب تعذيب الكفار في الماضي: هي كفرهم بالله وجحودهم بآياته، وتكذيب رسلهم الذين أرسلوا إليهم بالمعجزات والدلائل الواضحة، وإنكارهم البعث والحساب والجزاء.

وكان كفرهم برسلهم أنهم أنكروا أن يكون الرسول من البشر، واستصغروه، ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده، كما لم يعلموا أن الله تعالى مستغن بسلطانه عن طاعة عباده.

٣- أمر الله نبيه بأن يقسم بربه للمشركين على أن البعث حق كائن، لا محالة، فلا بد من أن يخرجوا من قبورهم أحياء، وعلى أنهم سيخبرون بما عملوا، وأن البعث والجزاء يسير على الله؛ إذ الإعادة أسهل من الابتداء.

المطالبة بالإيمان والتحذير من أهوال القيامة

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾

القراءات:

﴿يُكَفِّرْ﴾، ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾:

وقرأ نافع، وابن عامر (نكفر، وندخله).

﴿وَبِئْسَ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (وبيس).

الإعراب:

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق بقوله: ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾ أو

﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ وتقديره: لتبعثن أو لتنبؤن يوم يجمعكم ليوم الجمع. و﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ بالرفع وهي القراءة المشهورة، وقرئ (يجمعْكم) بسكون العين لكثرة توالي الحركات، كما قرئ: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ﴾ [الإنسان: ٧٦/٩] بسكون الميم.

البلاغة:

﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ استعارة، أطلق النور على القرآن بطريق الاستعارة، فإن القرآن ينير الظلمات ويبدد الشبهات.

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ و﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ مقابلة بين جزاء المؤمنين وجزاء الكافرين.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ بينهما جناس اشتقاق.

﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ استعارة، فقد أطلق التغابن على ما يكون يوم القيامة من مبادلة الخير بالشر، وهو يشبه المبادلة والمعاوضة والتجارة.

المفردات اللغوية:

﴿وَرَسُولِهِ﴾ محمد ﷺ. ﴿وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ أي القرآن، فإنه بإعجازه ظاهر بنفسه، مبين شارح لما تضمنه من عقيدة وتشريع وأحكام. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ مجاز عليه.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ أي اذكر يوم جمعكم وحشركم. ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ هو يوم القيامة الذي تجمع فيه الخلائق كلها من ملائكة وإنس وجن، لأجل ما فيه من الحساب والجزاء، سمي يوم القيامة بيوم الجمع؛ لأن الله يجمع فيه جميع المخلوقات في صعيد واحد. ﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان، مستعار من تغابن التجار بأن يبيع البائع بأقل من القيمة، أو يشتري المشتري بأكثر من الثمن. وتغابن الآخرة، هو

التغابن في الحقيقة، لا في أمور الدنيا، لعظم أمور الآخرة ودوامها، وفسر بعض المعاصرين يوم التغابن بأنه يوم الذهول. وفيه تهكم بالأشقياء، جاء في الحديث الذي رواه أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أُري مقعده من النار، لو أساء، ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أُري مقعده من الجنة، لو أحسن، ليزداد حسرة». ﴿وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ أي ويعمل عملاً صالحاً. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي مجموع الأمرين من تكفير السيئات ودخول الجنات مع الخلود الأبدي؛ لأنه جامع للمصالح من دفع المضار وجلب المنافع. ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ القرآن، الذي تدل آياته على البعث.

ويلاحظ أن الآيتين معاً: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بيان للتغابن وتفصيل له، كما ذكر البيضاوي.

المناسبة:

بعد بيان أدلة التوحيد والألوهية والنبوة، والرد على منكري البعث، وإيضاح ما نزل من العقوبة بالأمم الماضية، لكفرهم بالله وتكذيب الرسل، طالب الله تعالى بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وبآي القرآن وبالبعث، علماً بأن الاعتراف بالبعث من لوازم الإيمان، ثم حذر من الحساب والجزاء في الآخرة، وأبان مظاهر التغابن فيه، وفصله تفصيلاً تاماً.

التفسير والبيان:

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ أي إذا كان أمر البعث هيّناً يسيراً على الله لا يصرفه صارف، فصدِّقوا بالله ورسوله محمد ﷺ وكتابه المنير الهادي إلى السعادة، والمنقذ من ظلمة الضلالة، فهو نور يهتدى به إذا أشكلت الأمور، والله عالم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء من أقوالكم وأفعالكم، فهو مجازيكم على ذلك خيراً أو شراً. وفي هذا وعيد على

كل ما يؤتى من المعاصي، أو يترك من الفرائض والواجبات. ووصف القرآن بأنه نور؛ لأنه يُهتدى به في الشبهات، كما يهتدى بالنور في الظلمات.

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ أي واذكروا يوم القيامة الذي يجمع الله فيه أهل المحشر من الأولين والآخرين في صعيد واحد للجزاء، ويجمع فيه بين كل عامل وعمله، وبين كل نبي وأمته، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١١/١٠٣] . وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٥٦/٤٩-٥٠] .

ذلك اليوم وهو يوم القيامة يوم التغابن الذي يظهر فيه غبن الكافر بتركه الإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان، فكل من الفريقين تظهر له الخسارة الفادحة؛ فكأن أهل النار استبدلوا بالخير الشر، وبالجيد الرديء وبالنعيم العذاب، وأهل الجنة على العكس مما ذكر، ومع ذلك يشعرون بالنقص والخسارة، إذا لم يقدموا عملاً صالحاً أكثر مما قدموا، فالمغبون: من غبن أهله ومنازله في الجنة، جاء في الحديث الصحيح المتقدم الذي رواه أحمد: «ما من عبد يدخل الجنة إلا أُري مقعده من النار لو أساء ليزداد شكراً، وما من عبد يدخل النار إلا أُري مقعده من الجنة ليزداد حسرة». وأصل التغابن: مأخوذ من الغبن: وهو أخذ الشيء من صاحبه بأقل من قيمته، في عقود المعاوضات، وبما أنه لا معاوضة في الآخرة، فيكون إطلاق التغابن على العمل المقدم في الدنيا وجزائه في الآخرة، من قبيل الاستعارة، للدلالة على النقص على البائع.

والخلاصة: إن يوم القيامة يوم التغابن الجائز، فيه يغبن بعض أهل المحشر بعضاً، فيغبن فيه أهل الحق أهل الباطل، وأهل الجنة يغبنون أهل النار.

ثم فصل الله تعالى التغابن وبيّنه، فقال:

١- ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ومن يصدق بالله تصديقاً صحيحاً ويصدق بما جاءت به الرسل من الحشر والنشر والجنة والنار وغير ذلك، ويعمل العمل الصالح بأداء الفرائض والطاعات، واجتناب المنهيات، يمح الله سيئاته وذنوبه، ويدخله الجنات التي تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها على الدوام، وذلك التكفير للسيئات وإدخال الجنات هو الظفر الذي لا يساويه ظفر، ولا ظفر قبله ولا بعده، لإحراز أفضل الثمرات والنتائج. وإنما قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بلفظ الجمع بعد قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ﴾ بلفظ واحد؛ لأن ذلك بحسب اللفظ، وهذا بحسب المعنى.

٢- ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ أي والذين جحدوا وحدانية الله تعالى وقدرته، وكذبوا بآياته المنزلة على عبده محمد ﷺ، ومنها الآيات الدالة على البعث، أولئك أصحاب النار، خالدين فيها على الدوام، وبئس المرجع مرجعهم، وبئست النار مثوى لهم.

والآيتان دليل على حال السعداء وحال الأشقياء، لبيان ما تقدم من التغابن. وقد عبر الله تعالى عن أهل الإيمان بقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ﴾ بلفظ المستقبل، وفي الكفر بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بلفظ الماضي؛ لأن تقدير الكلام: ومن يؤمن بالله من الذين كفروا وكذبوا بآياتنا، يدخله جنات، ومن لم يؤمن منهم أولئك أصحاب النار.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ- بعد الإخبار بقيام الساعة، أمر الله عباده بالإيمان به وبرسوله محمد ﷺ وبالقرآن المنزل عليه، لئلا ينزل بهم من العقوبة ما نزل بالأمم الخالية لكفرهم

بالله وتكذيب الرسل، وأكد تعالى الأمر بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عالم بما تسرون وما تعلنون، فراقبوه وخافوه في الحالين معاً.

٢ً- ثم أكد الله تعالى هذا الأمر بالتحذير من مخاوف القيامة وأهوالها، ومن شدة الحساب والجزاء، فذكر أنه سيجمع يوم القيامة جميع أهل السماوات وأهل الأرض، فهو يوم الجمع والحشر، ويوم التغابن، لأن الكافرين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، واشتروا الضلالة بالهدى، فما ربحت تجارتهم، وأما المؤمنون فقد دلهم ربهم على التجارة الرابحة وهي الإيمان والجهاد، فباعوا أنفسهم بالجنة، فخسرت صفقة الكفار، وربحت صفقة المؤمنين. فيكون المعنى: ذلك يوم التغابن الجائز مطلقاً. قال مقاتل بن حيان: لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة، ويذهب بأولئك إلى النار.

٣ً- قال ابن العربي: استدل علماؤنا بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ على أنه لا يجوز الغبن في المعاملة الدنيوية؛ لأن الله تعالى خصص التغابن بيوم القيامة، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ وهذا الاختصاص يفيد أنه لا غبن في الدنيا، فكل من اطلع على غبن في مبيع فإنه مردود، إذا زاد على الثلث. وهو الغبن الفاحش، وهو من الخداع المحرَّم شرعاً في كل ملة.

أما الغبن اليسير: فلا يمكن الاحتراز منه لأحد، فلا ينقض به البيع؛ إذ لو حكمنا برده ما نفذ بيع أبداً؛ لأنه لا يخلو منه، حتى إذا كان كثيراً أمكن الاحتراز منه، فوجب الرد به.

والفرق بين القليل والكثير: هو الثلث، وقدّر علماؤنا الثلث بهذا الحد؛ إذ رأوه في الوصية وغيرها[1].

٤ً- إن جزاء المؤمنين: دخول الجنات التي تجري من تحت قصورها

(١) أحكام القرآن لابن العربي: ٤/ ١٨٠٤، تفسير القرطبي: ١٨/ ١٣٨

الأنهار، مع الخلود الأبدي فيها، وهو الفوز الساحق الذي لا فوز بعده؛ لاشتماله على النجاة من المخاطر والأهوال.

٥- إن جزاء الكافرين بالله وبالقرآن: دخول النيران، مع الخلود فيها على الدوام، وبئس المصير نار جهنم.

وهذا الجزاء المقرر للفريقين هو تفسير التغابن المذكور آنفاً.

كل شيء بقضاء وقدر

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾

البلاغة:

﴿مَآ أَصَابَ﴾ ﴿مُّصِيبَةٍ﴾ بينهما جناس الاشتقاق.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ إطناب بتكرر الفعل: ﴿وَأَطِيعُوا۟﴾ زيادة في التأكيد.

المفردات اللغوية:

﴿مُّصِيبَةٍ﴾ كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بتقديره وإرادته ومشيئته ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يشرح صدره للخير والطاعة، والثبات على الإيمان، والصبر على المصيبة والرضا بها ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ حتى بالقلوب وأحوالها.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم ﴿ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ التبليغ البين الواضح. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ليفوضوا أمرهم إلى الله، لإيمانهم بأن كل شيء منه.

المناسبة:

بعد بيان كون الناس قسمين: مؤمن وكافر، ثم الأمر بالإيمان والعمل الصالح، والنهي عن الكفر والتنفير فيه، أبان الله تعالى أن كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، فهو بقضاء الله وقدره على وفق السنن الكونية المدبرة والمرتبة بإرادة الله، ثم أمر تعالى بطاعته وطاعة الرسول ﷺ، وبالتوكل عليه وحده.

التفسير والبيان:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي إن كل ما يصيب الإنسان من خير أو شر، فهو بقضاء الله وقدره. قيل: إن سبب نزولها أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقاً، لصانهم الله عن المصائب في الدنيا.

فما على الإنسان إلا السعي والعمل لجلب الخير ودفع الضر عن نفسه، ثم التوكل على الله بعدئذ، فإن تحقيق النتائج يكون بقضاء الله وقدره. ونظير الآية قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٥٧/ ٢٢].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي ومن يصدّق بالله، ويعلم أن ما أصابه من مصيبة هو بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، يهد قلبه ويشرح صدره عند المصيبة، والله واسع العلم لا تخفى عليه من ذلك خافية، فهو عليم بالقلوب وأحوالها.

قال ابن عباس: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وفي الحديث المتفق عليه: «عجباً للمؤمن، لا يقضي الله قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له، وإن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

ثم أمر الله بطاعته: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾﴾ أي واشتغلوا بطاعة الله فيما شرع وطاعة رسوله ﷺ فيما بلّغ، وافعلوا ما به أمر، واتركوا ما عنه نهى وزجر، فإن أعرضتم عن الطاعة ونكلتم عن العمل، فإثمكم على أنفسكم، وليس على الرسول ﷺ من بأس، إذ وظيفته التبليغ البيِّن الواضح، وعليكم ما حمِّلتم من السمع والطاعة. قال الزهري: من الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. ثم أمر تعالى بالتوكل عليه:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾ أي إن الله هو الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله غيره ولا رب سواه، وهو المستحق للعبودية دون غيره، فوحدوا الله وأخلصوا العمل لديه، ولا تشركوا به شيئاً، وفوضوا أموركم إليه، واعتمدوا عليه، لا على غيره، كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٧٣/٩] .

وهذا إرشاد للعباد في وجوب الاعتماد على الله، والتوكل عليه، وطلب العون الدائم منه.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى المبادئ التالية في العقيدة والتشريع:

١ً- وجوب الرضا بالقضاء والقدر، فإن كل ما يحدث في الكون، وكل ما يصيب الإنسان من مصيبة في نفس أو مال أو قول أو فعل، هو بعلم الله وقضائه.

٢ً- من يصدّق ويعلم أنه لا يصيبه مصيبة إلا بإذن الله، يهد قلبه للصبر والرضا والثبات على الإيمان، فهو إن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وإذا ظُلم غفر، والله بكل شيء عليم، لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلّم لأمره، ولا كراهة من كرهه.

وليست المصائب في الدنيا دليلاً على عدم الرضا، وليس النجاح فيها دليلاً على الرضا.

٣- على المؤمنين تهوين المصائب على أنفسهم، والاشتغال بطاعة الله تعالى، والعمل بكتابه، وإطاعة الرسول ﷺ في العمل بسنته، فإن تولوا عن الطاعة فليس على الرسول ﷺ إلا التبليغ.

٤- على الناس قاطبة توحيد الله وعبادته وحده، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه، ولا خالق غيره، وعليهم التوكل على الله، وحسن الظن بالله، والاعتماد عليه بعد تعاطي الأسباب، والقيام بما يقتضيه الواجب من السعي والعمل في الحياة.

التحذير من فتنة الأزواج والأولاد والأموال والأمر بالتقوى والإنفاق

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

القراءات:

﴿يُضَٰعِفْهُ﴾:

وقرأ ابن كثير، وابن عامر (يُضَعِّفْه).

الإعراب:

﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ ﴿خَيۡرٗا﴾ إما منصوب بـ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ ويراد به هنا المال، أو منصوب بفعل مقدر دل عليه ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ أي وآتوا خيراً، أو وصف لمصدر محذوف، أي وأنفقوا إنفاقاً خيراً، أو خبر كان مقدرة، أي وأنفقوا وكان الإنفاق خيراً..

البلاغة:

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ بينهما طباق.

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ استعارة تمثيلية، شبه الإنفاق في سبيل الله والتصدق على الفقراء بمن يُقرض الله قرضاً واجب الوفاء بطريق التمثيل، سماه قرضاً من حيث التزام الله بثوابه. ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعول وفعيل.

﴿رَّحِيمٌ﴾ ﴿عَظِيمٌ﴾ ﴿حَلِيمٌ﴾ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ سجع مرصع لتوافق الفواصل.

المفردات اللغوية:

﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ يشغلكم عن طاعة الله والتخلف عن الخير، كالجهاد. ﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ عنهم في التثبيط عن الخير وعن ذنوبهم، بترك المعاقبة. ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ بالإعراض وترك اللوم. ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ بالتجاوز عما فعلوا والتمهيد للمعذرة. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ يعاملكم بمثل ما عملتم.

﴿فِتۡنَةٞۚ﴾ اختبار لكم بمعرفة مدى شغلها لكم عن أمور الآخرة. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ لمن آثر محبة الله وطاعته على محبة الأموال والأولاد والسعي لهم. ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ ابذلوا في تقواه جهدكم وطاقتكم.

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ مواعظه. ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامره. ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ في وجوه الخير والطاعة لوجهه الكريم. ﴿خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي افعلوا ما هو خير، وهو خبر (يكن) مقدرة، جواباً للأمر.

﴿وَمَن يُوقَ﴾ يحفظ نفسه. ﴿شُحَّ﴾ الشح: البخل مع الحرص. ﴿ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون. ﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ بصرف المال فيما أمر. ﴿قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ هو التصدق من الحلال، مقروناً بالإخلاص وطيب النفس. ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ يزيد الثواب من عشرة أضعاف إلى سبع مئة ضعف وأكثر، ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ببركة الإنفاق. ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي على الطاعة الجزيل بالقليل. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل بالعقوبة على المعصية.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ ما غاب عن الأنظار ويشمل السر. ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما يشاهد بالحس، ويشمل العلانية، فلا يخفى عليه شيء. ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تام القدرة والعلم فهو القوي في ملكه الحكيم المتقن في صنعه وتدبيره.

سبب النزول:

نزول الآية (١٤):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾: أخرج الترمذي والحاكم وابن جرير عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ في قوم من أهل مكة، أسلموا، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعوهم، فأتوا المدينة، فلما قدموا على رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فَقُهوا، فهمُّوا أن يعاقبوهم، فأنزل الله: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ﴾ الآية.

وأخرج ابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت سورة التغابن كلها بمكة إلا هؤلاء الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ نزلت في عَوْف بن مالك الأشْجعي كان ذا أهل وولد، فكان إذا أراد الغزو بكوا إليه،

ووقفوا، فقالوا: إلى من تَدَعُنا؟ فيرقُّ ويُقيم، فنزلت هذه الآية، وبقية الآيات إلى آخر السورة بالمدينة.

وفي رواية عن ابن عباس قال: كان الرجل يريد الهجرة، فتحبسه امرأته، فيقول: أما والله لئن جمع الله بيني وبينكم في دارة الهجرة لأفعلنَّ ولأفعلنَّ، فجمع الله بينهم في دار الهجرة، فأنزل الله هذه الآية.

سبب نزول الآية (١٦):

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال: لما نزلت: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى وَرِمتْ عراقيبهم، وتقرحتْ جِباههم، فأنزل الله تخفيفاً على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

المناسبة:

بعد الأمر بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، حذر تعالى من الأزواج والأولاد الذين يثبطون عن الطاعة، شأن أكثر ميل الناس عن الطاعات، ثم أبان أن الأموال والأولاد فتنة، فينبغي الحذر، ثم أمر تعالى بالتقوى والإنفاق في سبيل الله، مبيناً مضاعفة الثواب للمنفقين ومغفرته لهم.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ أي يا أيها المصدقون بالله تعالى ورسولهﷺ، إن بعض أزواجكم وأولادكم أعداء لكم، عداوة أخروية، يشغلونكم عن الخير والأعمال الصالحة التي تنفع في الآخرة، فكونوا منهم على حذر، واحذروا أن تؤثروا حبهم وشفقتكم عليهم على طاعة الله تعالى.

وقد عرفنا سبب النزول: أن رجالاً من مكة أسلموا، وأرادوا أن يهاجروا، فلم يَدَعهم أزواجهم ولا أولادهم، فأمر الله سبحانه بأن يحذروهم، فلا يطيعوهم، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ قال: «يأتي زمان على أمتي، يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجه وولده، يعيّرانه بالفقر، فيركب مراكب السوء، فيهلك»(١).

ثم أمر الله تعالى العفو والصفح عنهم، فقال:

﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي وإن تعفوا عن ذنوب أزواجكم وأولادكم التي ارتكبوها بترك المعاقبة، وتصفحوا بترك اللوم والتثريب عليها، وتستروا الأخطاء تمهيداً لمعذرتهم فيها، فالله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم، يعامل الناس بأحسن مما عملوا.

ثم زاد الله تعالى الأمر بياناً، فقال:

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ أي الأموال والأولاد بلاء واختبار ومحنة، وربما يحملونكم على كسب الحرام، ومنع حق الله، وارتكاب المعاصي والآثام، والله عنده الثواب الجليل لمن آثر طاعة الله تعالى، وترك معصيته في محبة ماله وولده.

أخرج أحمد والترمذي والحاكم والطبراني عن كعب بن عياض قال: سمعت رسول الله ﷺ: «إن لكل أمة فتنة، وإن فتنة أمتي المال».

وأخرج أحمد وأبو بكر البزار عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم مَجْبنة مَبْخلة محزنة».

وأخرج الطبراني عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «ليس

(١) تفسير الألوسي: ٢٨/ ١٢٦

عدوك الذي إن قتلته كان فوزاً لك، وإن قتلك دخلت الجنة، ولكن الذي لعله عدو لك: ولدك الذي خرج من صلبك، ثم أعدى عدو لك مالك الذي ملكت يمينك» .

ثم أمر الله بالتقوى والطاعة والنفقة، فقال:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ﴾ أي فالزموا أوامر الله واجتنبوا نواهيه قدر جهدكم وطاقتكم، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه» . واسمعوا ما تؤمرون به وأطيعوا أوامر الله تعالى والرسول ﷺ، وأنفقوا من أموالكم التي رزقكم الله إياها في وجوه الخير، ولا تبخلوا بها، فإن الإنفاق في مصالح الأمة والدين خير وسعادة لأنفسكم من الأموال والأولاد، وهو خير لكم في الدنيا والآخرة، وإن لا تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي من وقاه الله وحفظه من داء الشح والبخل، فأنفق في سبيل الله ووجوه الخير، فأولئك هم الظافرون بما يرجون، الفائزون بما يطلبون.

ثم أكد الله تعالى الحث على الإنفاق قائلاً:

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي إن تصرفوا بعض أموالكم في وجوه الخير بإخلاص نية وطيب نفس، يضاعف الله لكم الثواب، فيجعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، ويغفر لكم أيضاً ذنوبكم، والله يجزي على القليل الكثير، يصفح ويغفر ويستر الذنوب والزلات والخطايا، ولا يعاجل من عصاه بالعقوبة. وفي الآية إيماء إلى أن الشقي من لا يقدم لنفسه شيئاً يستقرضه منه رازقه، مع شدة حاجته إليه بعد مماته.

ونظير الآية: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٥] .

وأخرج الحاكم وصححه وابن جرير عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: استقرضتُ عبدي، فأبى أن يقرضني، ويشتمني عبدي، وهو لا يدري، يقول: وادهراه، وأنا الدهر»، ثم تلا أبو هريرة هذه الآية: ﴿إِن تُقْرِضُوا﴾.

ثم رغب الله تعالى في النفقة ترغيباً زائداً، فقال:

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ أي إن الله سبحانه بالغ العلم بما غاب عنكم وما حضر، الغالب القاهر، ذو الحكمة الباهرة، يضع الأمور في مواضعها الصحيحة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١- حذر الله تعالى كل إنسان من ضرر الأزواج والأولاد وأنذر من عداوتهم، إما ضرراً دينياً أخروياً، وإما ضرراً بدنياً متعلقاً بالدنيا، وضرر الدين: عدم الطاعة لأوامر الله تعالى والرسول ﷺ، وترك الهجرة التي كانت مفروضة في العهد الإسلامي الأول، وترك الإنفاق في سبيل الله أي الجهاد. وضرر الدنيا كارتكاب معصية إرضاءً لهم، مثل السرقة للإنفاق، أو هجر الضَّرْة مثلاً أو قطيعة جار أو صديق أو قريب.

وهذه العداوة لاتكون عادة إلا بسبب الكفر والنهي عن الإيمان، ولا تكون بين المؤمنين، فأزواجهم وأولادهم المؤمنون لا يكونون عدواً لهم. وفي هؤلاء الأزواج والأولاد الذين منعوا أزواجهم وآباءهم عن الهجرة في الماضي نزل قوله تعالى كما تقدم: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾. قال ابن عباس

رضي الله عنهما: لا تطيعوهم في معصية الله تعالى. و﴿فِتْنَةٌ﴾ أي بلاء وشغل عن الآخرة. والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد. لكن خصوص السبب لا يمنع عموم الحكم.

٢ً- ليس الأزواج والأولاد أعداء بالذات، وإنما أعداء بأفعالهم، فإذا فعل الزوج والولد فِعْل العدو كان عدواً. جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان قعد لابن آدم في طريق الإيمان، فقال له: أتؤمن وتذَر دينك ودين آبائك؟ فخالفه فآمن، ثم قعد له على طريق الهجرة، فقال له: أتهاجر وتترك مالك وأهلك، فخالفه فهاجر، ثم قعد له على طريق الجهاد، فقال له: أتجاهد فتقتل نفسك، فتُنكح نساؤك ويقسم مالك؟ فخالفه فجاهد فقتِل، فحق على الله أن يدخله الجنة».

وقعود الشيطان إما بالوسوسة وإما بحمله على ما يريد الزوج والولد والصاحب، قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١/ ٢٥].

٣ً- إن العفو والصفح ومغفرة الزلات والخطايا أفضل من الانتقام والعقاب، وإن الله غفور للسيئات رحيم بالعباد، فلا يعجل بالعقوبة، ويجازيكم خيراً حال العفو والصفح.

٤ً- إن الأموال والأولاد فتنة، أي بلاء واختبار يحمل على كسب الحرام ومنع حق الله تعالى، فلا طاعة لهم في معصية الله، ورد في الحديث: «يُؤْتى برجل يوم القيامة، فيقال: أكَلَ عيالهُ حسناتِه»[1].

٥ً- عند الله الأجر العظيم وهو الجنة، فهي الغاية، ولا أجر أعظم منها في قول المفسرين، وهذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة. جاء في الصحيحين

---

(١) تفسير الألوسي: ٢٨/ ١٢٧

- واللفظ للبخاري- عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لَبَّيْك رَبَّنا وسَعْديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لَنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضلَ من ذلك، قالوا: يا ربّ، وأي شيء أفضل من ذلك، فيقول: أُحِلُّ عليكم رِضْواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»

٦ً- تكون تقوى الله أي التزام أوامره واجتناب نواهيه بقدر الطاقة، للآية هنا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ وقوله في آية أخرى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦] .

ورأى جماعة مثل قتادة أن هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٢] . ورأى آخرون: ألا تعارض بين الآيتين؛ لأن قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ لا يراد به الاتقاء فيما لا يستطيعون؛ لأنه فوق الطاقة والاستطاعة.

ورأى كثير من المفسرين مثل مجاهد أن المراد بآية: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾: أن يطاع سبحانه فلا يعصى. ولا خلاف بين المفسرين أن هذه الآية نزلت بسبب قوم مؤمنين تأخروا عن الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام بتثبيط أولادهم إياهم عن ذلك، كما تقدم.

٧ً- أمر الله بالسمع والطاعة، أي سماع ما يوعظ به المؤمنون، وإطاعة ما أمر الله به، والانتهاء عما نهى عنه.

٨ً- أمر الله بالإنفاق من الأموال في حق الله كالزكاة والصدقة النفل والنفقة في الجهاد، ونفقة الرجل لنفسه وعياله، فالآية عامة. ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أنه قال له رجل: عندي دينار؟ قال: أنفقه على نفسك، قال: عندي آخر، قال أنفقه على عيالك، قال: عندي آخر؟ قال أنفقه على ولدك،

قال: عندي آخر؟ قال: تصدق به» فبدأ بالنفس والأهل والولد، وجعل الصدقة بعد ذلك، وهو الأصل في الشرع.

والإنفاق في الحقيقة خير للنفس، لما فيه من ثواب جزيل عند الله، لذا قال سبحانه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

٩- أكد الله تعالى الحث على الإنفاق في سبيل الله، فقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ وقال: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ فالله تعالى رتب على القرض الحسن المُنْفَق بإخلاص وطيب نفس تضعيف ثواب القرض وغفران الذنوب، وأبان أنه شكور يحب المتقرِّبين إلى حضرته، يجزي بالكثير على القليل، وأنه حليم لا يعجل بالعقوبة. والقرض الحسن: التصدق من الحلال بإخلاص وطيب نفس، كما تقدم.

١٠- زاد الله تعالى الحث على الإنفاق تأكيداً، فقال: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ أي إن الله مطلع على كل ما غاب وحضر، وهو الغالب القاهر، المحكم الصنع والتدبير، خالق الأشياء، واهب الأرزاق، وهذا دليل على كمال علم الله سبحانه وكمال قدرته.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الطلاق

مدنية، وهي اثنتا عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة الطلاق؛ لبيان أحكام الطلاق والعدة فيها، وافتتاحها بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

مناسبتها لما قبلها

تتعلق هذه السورة بما قبلها من وجهين:

أ- أنه قال في أواخر التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ ولما كانت عداوة الأزواج قد تفضي إلى الطلاق، وعداوة الأولاد قد تؤدي إلى القسوة وترك الإنفاق عليهم، عقب ذلك بسورة فيها أحكام الطلاق والإنفاق على الأولاد وعلى المطلقات.

٢- أشار الله تعالى في آخر التغابن إلى كمال علمه بقوله: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وأشار في آخر هذه السورة إلى كمال علمه بمصالح النساء وبالأحكام الخاصة بطلاقهن، فكأنه بيَّن ذلك العلم الكلي بهذه الجزئيات.

ما اشتملت عليه السورة:

موضوع هذه السورة المدنية بيان الأحكام التشريعية التي تنظم حال الأسرة أثناء قيامها وبعد انفصال الزوجين.

شرعت السورة في الكلام على أحكام الطلاق السُّنِّي الذي يستقبل به العدة، وأحكام العدة وإحصاء وقتها مع تقوى الله ورقابته في إعلان انقضائها. وأمرت الأزواج بعدئذ بالإمساك بالمعروف أو المفارقة بالإحسان. وأشادت في مجال العلاقات الزوجية وغيرها بتقوى الله والتوكل عليه.

ثم أبانت حكم عدة المرأة اليائس من المحيض التي انقطع دمها لكبر أو مرض، وعدة الصغيرة التي لم تحض، ومدتهما واحدة وهي ثلاثة أشهر. وأردفت ذلك ببيان عدة المرأة الحامل وهي وضع الحمل.

واقتضى البيان توضيح حكم النفقة والسكنى أثناء العدة، وحكم إعطاء الأجر على الرضاع، وتقدير النفقة يساراً وإعساراً، وتخلل ذلك الأمر بالتقوى منعاً من الظلم وتجاوز الحدود.

وختمت السورة بالتحذير من مخالفة الأحكام وتعدي حدود الله، وهددت بالعقوبة المماثلة لعقوبات الأمم الباغية التي تخطت أوامر الله، وكررت الأمر بالتقوى، وذكّرت بمهمة الرسول ﷺ وهي تلاوة آيات الله لإخراج المؤمنين من الظلمات إلى النور، وأوضحت جزاء الإيمان والعمل الصالح، ثم أوردت البرهان القاطع على قدرة الله الشاملة وعلمه الواسع بخلق السماوات السبع والأرضين السبع، وتنزل وحي الله وأمره وقضائه بين السماوات والأرض.

أحكام الطلاق والعدة وثمرة التقوى والتوكل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۖ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

وقرأ ورش (النبيء).

﴿بُيُوتِهِنَّ﴾:

بضم الياء قرأ: ورش، وأبو عمرو، وحفص، وقرأ الباقون بكسرها.

﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾:

وقرأ ابن كثير (مُبيَّنة).

﴿بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾: قرئ:

١- (بالغُ أمرِه) وهي قراءة حفص.

٢- (بالغٌ أمرَه) وهي قراءة الباقين.

الإعراب:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ﴾ ﴿بَٰلِغُ﴾ بغير تنوين: حذف التنوين للتخفيف، وجر ما بعده بالإضافة، وقرئ بالتنوين على الأصل؛ لأن اسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال، ونصب ﴿أَمْرِهِۦۚ﴾ به.

البلاغة:

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إظهار في موضع الإضمار للتهويل ﴿لَا تَدْرِى﴾ الأصل (لا يدري) ففيه التفات لمزيد الاهتمام، من الغائب إلى الخطاب.

﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ خص النبي ﷺ بالنداء، وعمَّ الخطاب بالحكم، فالمراد به أمته؛ لأنه إمام أمته، فنداؤه كندائهم .﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ أي إذا أردتم الطلاق، مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨/١٦] أي فإذا أردت قراءته .﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾أي مستقبلات عدتهن أي وقتها، وهو الطلاق في طهر لا جماع فيه .﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَۖ﴾ اضبطوها واحفظوها وأكملوها ثلاثة قروء.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ﴾ أطيعوه في أمره ونهيه، واحذروا تطويل العدة والإضرار بهن .﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي من مساكنهن وقت الفراق حتى تنقضي عدتهن .﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ لا يباح لهن الخروج من المساكن أثناء العدة حتى تنقضي .﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾أي بسبب ارتكاب فاحشة (وهي الزنى) واضحة توجب الحد، أو بالتطاول على الزوج أو أسرته، أو بالخروج قبل انقضاء العدة، فتخرج لإقامة الحد عليها، أو للتخلص من بذاءتها، أو لبيان كون خروجها فاحشة.

﴿وَتِلْكَ﴾ المذكورات. ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾أي أحكامه وشرائعه. ﴿ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أضرَّ بها إذ عرَّضها للعقاب. ﴿لَا تَدْرِى﴾ النفس أو أيها النبي أو المطلِّق. ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ يُحْدِث بعد الطلاق أمراً جديداً، وهو الندم على الطلاق والرغبة في المطلَّقة برجعة أو استئناف عقد.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ قاربن انقضاء عدتهن. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي راجعوهن بحسن عشرة. ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾اتركوهن مع إبقاء الحق واتقاء الضرار بالمراجعة، كأن يراجعها ثم يطلقها تطويلاً لعدّتها. ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يندب الإشهاد على المراجعة أو الفرقة بعداً عن الرّيبة وقطعاً للنزاع، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢]. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أدّوا أيها الشهود عند الحاجة الشهادة خالصة لوجه الله بلا تحريف، لا للمشهود له أو عليه. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ جميع ما في الآية، أو المراد الحث على الشهادة والإقامة (الأداء). ﴿يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ خصص المؤمن؛ لأنه المنتفع بالوعظ، والمراد تذكيره.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ طريقاً للخروج من كرب الدنيا والآخرة، جملة اعتراضية مؤكدة لما سبق، بوعد المحافظين على حدود الله وأحكامه. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾أي يفوض أموره لله. ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ منفذٌ حكمه ومراده وقضاءه في خلقه، يفعل ما يشاء، ويبلُغ ما يريد. ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من رخاء وشدة. ﴿قَدْرًا﴾تقديراً أو مقداراً أو أجلاً وميقاتاً.

سبب النزول:

نزول الآية (١):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾: أخرج ابن أبي حاتم وابن جرير وابن المنذر عن

أنس قال: طلّق رسول الله ﷺ حفصة، فأتت أهلها، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: راجعْها فإنها صوَّامة قوَّامة، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة.

وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي والدارقطني عن ابن عمر: « أنه طلّق امرأته، وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ، فتغيظ منه، ثم قال: ليراجعْها ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض، فتطهر، فإن بدا له أن يطلِّقها فليطلّقها طاهراً قبل أن يمسَّها، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل ». وفي لفظ مسلم: « فتلك العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء» . وفي لفظ الدارقطني: «ليراجعها ثم ليمسكها حتى تحيض حيضة مستقبلة سوى حيضتها التي طلقها فيها، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً من حيضتها قبل أن يمسَّها فذلك الطلاق للعدة كما أمر الله» .

سبب نزول الآية (٢):

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ : أخرج الحاكم عن جابر قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ في رجل من أشجع كان فقيراً، خفيف ذات اليد، كثير العيال، فأتى رسول الله ﷺ، فسأله، فقال له: اتق الله، واصبر، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ابن له بغنم، وكان العدو أصابوه، فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها، فقال: كُلْها، فنزلت. قال الذهبي: حديث منكر، له شاهد.

وأخرج ابن مردويه والخطيب عن ابن عباس قال: «جاء عَوْف بن مالك الأشجعي، فقال: يا رسول الله، إن ابني أسره العدو، وجزعت أمه، فما تأمرني؟ قال: آمرك وإياها أن تستكثروا من: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فقالت المرأة: نعم ما أمرك، فجعلا يكثران منها، فتغفل عنه العدو، فاستاق غنمهم، فجاء بها إلى أبيه، فنزلت: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ » .

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾: أي يا أيها الرسول والمؤمنون به إذا أردتم تطليق النساء وعزمتم عليه، فطلقوهن مستقبلات لعدتهن أو قبل وقت عدتهن. والمراد الأمر بالطلاق في طهر لم يقع فيه جماع، والنهي عن إيقاعه في الحيض، كما وردت السنة الصريحة بذلك في حديث ابن عمر المتقدم.

وإنما كان النداء خاصاً بالنبي ﷺ، والخطاب بالحكم عاماً له ولأمته، تكريماً لهﷺ، وإظهاراً لجلالة منصبه، كما يقال لرئيس القوم، أو قائد الجند: يا فلان، افعلوا كذا وكذا، إظهاراً لمقامه فيهم، وكونه القائد المسؤول عن التوجيه.

والآية دليل على حرمة الطلاق في الحيض، وذكر الفقهاء أن الطلاق أنواع ثلاثة[١]: طلاق سني، وطلاق بدعي[٢]، وطلاق ليس بسني ولا بدعي، أما الطلاق السني: فهو الطلاق في طهر لا جماع فيه، أو أثناء حمل قد استبان. وأما الطلاق البدعي: فهو الطلاق أثناء الحيض، أو في طهر قد تم فيه الوقاع، خشية الحمل؛ وهو حرام لإلحاقه الضرر بالزوجة، بتطويل المدة التي تنتظرها لانتهاء العدة؛ لأن بقية الحيض لا تحسب من العدة عند القائلين بأن الأقراء الأطهار، وكذلك الطهر الذي بعد الحيضة التي طلقت فيها عند القائلين بأن الأقراء الحيضات، ولا بد من حيضات ثلاث كاملة.

وألحق الفقهاء بذلك في الحرمة الطلاق في النفاس.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣٧٨/٤

(٢) سمي طلاق السنة لاتفاقه مع تقدير القرآن والسنة، وسمي طلاق البدعة للزيادة على الأقراء الثلاثة؛ لأنها إذا طلقت وهي حائض لم تحسب حيضتها، بل تزيد على ثلاثة أقراء فتطول العدة عليها.

ونصت السنة على صورة الطلاق البدعي المحرم في طهر جامعها فيه؛ إذ ربما تحمل، ويندم الرجل على الطلاق.

لكن الخلع في الحيض بعوض من المرأة ليس محرماً عند كثير من الفقهاء؛ لأن بذلها المال يشعر بحاجتها إلى الخلاص، وبرضاها بتطويل المدة، والله تعالى قال: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٩] وأذن النبي ﷺ لثابت ابن قيس في الخلع على مال، دون سؤال عن حال زوجته.

وأما الطلاق الذي ليس بسني ولا بدعي: فهو طلاق الصغيرة والآيسة من الحيض وغير المدخول بها.

والأفضل بالاتفاق كون الطلقة مرة واحدة، ويكره عند مالك الثلاث متفرقة أو مجموعة، وعند الحنفية: يكره الزيادة على الواحدة في طهر واحد، ويباح عند الشافعي الثلاث.

واستدل الشافعي بقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ على أن الأقراء: الأطهار؛ لأن اللام لام الوقت، أي فطلقوهن وقت عدتهن، ويؤيده حديث ابن عمر المتقدم الذي بين فيه النبي ﷺ أن العدة التي أمر الله أن تطلق لها النساء هي الطهر الذي بعد الحيضة، ولو كان القرء هو الحيض، كان قد طلقها قبل العدة، لا في العدة، وكان ذلك تطويلاً عليها.

وتأول الحنفية والحنابلة قوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أن المعنى لاستقبال عدتهن، لا في عدتهن؛ إذ من المحال أن يكون الطلاق وهو سبب العدة واقعاً في العدة، والذي يستقبل إنما هو الحيض لا الطهر.

لكن المعروف أن اللام إذا دخلت الوقت أفادت معنى التأقيت والاختصاص بذلك الوقت، فيكون المعنى: فطلقوهن للوقت الذي يشرعن فيه في العدة على الاتصال بالطلاق.

ثم أمر الله تعالى بضبط العدة وإحصاء وقتها، فقال:

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها، لتكون عدة كاملة، وهي ثلاثة قروء تامة، والخطاب للأزواج. وضبط العدة واجب لإجراء أحكامها فيها من تحديد حق الرجعة للزوج والإشهاد عليها، ونفقة الزوجة وسكناها، وعدم خروجها من بيتها قبل انقضائها.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ فلا تعصوه فيما أمركم، ولا تضارّوهن بتطويل العدة على المرأة، فتمتنع من الأزواج.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أي لا تخرجوا المطلقات من بيوتهن في مدة العدة، فلكل امرأة معتدة حق السكنى على الزوج، ما دامت معتدة منه، فليس للرجل أن يخرجها، ولا يجوز لها أيضاً الخروج، فليس للمعتدات الزوجات الخروج من تلك البيوت ما دمن في العدة إلا لأمر ضروري، رعاية لحق الزوج، فإذا خرجت المعتدة لغير ضرورة ليلاً أو نهاراً، كان الخروج حراماً.

وفيه دليل على وجوب السكنى للزوجات المطلقات أو المعتدات ما دمن في العدة، وأضاف البيوت إليهن، وهي لأزواجهن لتأكيد النهي عن الإخراج والخروج، ببيان كمال استحقاقهن للسكنى، كأنها ملك لهن.

والصحيح عند الحنفية أن للشرع في ملازمة المعتدة بيت الزوجية حقاً في ذلك، لا يملك الزوج إسقاطه، فيكون قوله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ دالاً على حرمة إخراجهن بمنطوقه، وعلى حرمة الإذن لهن في الخروج بإشارته؛ لأن الإذن في المحرم محرم.

ورأى الشافعية أن ملازمة المعتدة بيت الزوجية خالص حق الزوجين، فلوا اتفقا على الانتقال جاز؛ لأن الحق لهما وحدهما. وهذا هو المطبق فعلاً اليوم حال الطلاق، فلا نرى مطلقة تبقى في بيت الفراق.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ أي لا تخرجوهن من بيوتهن إلا إذا ارتكبن فاحشة الزنى، أو إذا نشزن أو صدر منهن بذاءة في اللسان واستطالة على الساكن معهن في ذلك البيت من أهل الرجل، وآذتهم المرأة في الكلام والفعال، فحينئذ يحل إخراجهن في المساكن لبذاءتهن وسوء خُلُقهن.

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ أي وهذه الأحكام السابقة التي بينها الله لعباده هي حدود الله التي حدها لهم، لا يحل لهم أن يتجاوزوها إلى غيرها، ومن يتجاوز هذه الحدود المذكورة فقد أوقع نفسه في الظلم وأضرّ بها وأوردها مورد الهلاك.

ثم ذكر الله تعالى علة تحريم تعدي حدود الله، فقال:

﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ أي لا تدري أيها المطلّق، فإنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة، لعل الزوج يندم على طلاقها، ولعلها إذا بقيت في بيتها أن يؤلف الله بين قلوبهما، فيتراجعا، بأن يراجعها الزوج، فيكون ذلك أيسر وأسهل، فالمقصود بالآية الرجعة.

وهذا واقع غالب، فإن غالب الطلاق يحدث نتيجة ثورة غضب جامحة، أو مكايدة ظاهرية، ثم تزول عوامل القلق، وتهدأ الأعصاب، ويعود الرجل إلى عقله ووعيه، ويحس بقسوة خلو البيت من المرأة أو التفكير بالزواج بامرأة أخرى، ويتذكر محاسن امرأته، ويغض النظر عن مساوئها، كما قال ﷺ فيما أخرجه مسلم عن أبي هريرة: «لا يَفْرَك مؤمن مؤمنة إن سَخِط منها خلقاً رضي خلقاً» وقد تكون المرأة حاملاً. والحديث مؤيد للآية: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩/٤] .

ثم بيّن الله تعالى الحكم عند الاقتراب من نهاية العدة، فقال:

﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ أي إذا شارفن

على انقضاء العدة، وقاربن ذلك، أي قاربت العدة على الانتهاء، ولكنها لم تنته تماماً، فلكم أيها الأزواج اختيار أحد أمرين: إما الإمساك بالمعروف، وهو الرجعة إلى عصمة الزوج والاستمرار في الزوجية، مع الإحسان إليها في الصحبة، وإما المفارقة بالمعروف، أي تركهن إلى انقضاء عدتهن مع إيفاء حقهن واتقاء الضرار بهن، من غير توبيخ ولا تعنيف ولا مشاتمة، بل تطلق المرأة على وجه جميل وسبيل حسن. أما الإمساك للمضارة أو التسريح مع الأذى ومنع الحق، فإن ذلك لا يحل لأحد.

ثم أمر الله تعالى بالإشهاد على الرجعة أو الفراق، فقال:

﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ أي وأشهدوا على الرجعة إن راجعتم، أو المفارقة إن فارقتم، قطعاً للنزاع، وحسماً لمادة الخصومة أو الإنكار، وأدوا الشهادة أيها الشهود وأتوا بها خالصة لوجه الله، وتقرباً إليه لإظهار الحق، دون تحيز أو مجاملة لأحد الخصمين، المشهود له أو عليه.

وهذه الشهادة على الرجعة والفرقة مندوبة، والأمر للندب والاستحباب عند أئمة المذاهب الأربعة في الجديد عن الشافعي، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٢] ودليل صرف الأمر عن الوجوب الإجماع على عدم الوجوب عند الطلاق، فكذلك عند الإمساك.

وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ دليل على وجوب أداء الشهادة عند القضاة على الحقوق كلها؛ لأن الشهادة هنا اسم للجنس. وإنما حث تعالى على أداء الشهادة لإظهار الحق، وترك التكاسل والتهرب من بعض المتاعب أو المشاق في الذهاب إلى المحاكم وانتظار القضاة، خشية تعطيل العمل أو الوقت بالنسبة للشاهد.

﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي ذلكم المذكور الذي أمرناكم به من الإشهاد على الرجعة والفرقة وإقامة الشهادة خالصة لله،

وإيقاع الطلاق على وجه السنة، وإحصاء العدة، والكف عن الإخراج والخروج، إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر ويخاف عقاب الله في الدار الآخرة. وخص المؤمن؛ لأنه المنتفع بذلك دون غيره.

ثم أكد الله تعالى بجملة معترضة وجوب احترام هذه الأحكام والتزام حدود الله بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ، وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ أي ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، ووقف عند حدوده التي حدها لعباده، يجعل له من أمره مخرجاً أو مخلصاً مما وقع فيه، ويرزقه من وجه لا يخطر بباله، ولا يكون في حسابه.

وهذا دليل على أن التقوى سبيل النجاة من المآزق والهموم والغموم الدنيوية والأخروية وعند الموت، وهي أيضاً سبب للرزق الطيب الحلال الواسع غير المتوقع.

روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال: جعل رسول الله ﷺ يتلو عليَّ هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ، وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ حتى فرغ من الآية، ثم قال: «يا أبا ذر، لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم» .

وروى ابن أبي حاتم عن عبد الله بن مسعود أنه قال: إن أجمع آية في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ وإن أكبر آية في القرآن فرجاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ أي ومن يثق بالله فيما نابه وفوض إليه أمره بعد اتخاذ الأسباب ومنها السعي لكسب الرزق، كفاه ما أهمه، في جميع أموره؛ لأن الله هو القادر على كل شيء، الغني عن كل شيء، إن الله يبلغ ما يريده، ولا يفوته مراد، ولا يعجزه مطلوب، قد جعل للأشياء قدراً قبل وجودها، وقدَّر لها أوقاتها، فجعل سبحانه للشدة أجلاً تنتهي إليه، وللرخاء أجلاً ينتهي إليه. وإذا كان

الرزق وغيره من الأشياء لا يكون إلا بتقدير الله تعالى، ولا يقع إلا على وفق علمه، فليس للعاقل إلا التسليم للقدر كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ١٣/٨] . وهذا دليل على وجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه، مع بيان السبب والحكمة.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

١- الطلاق جائز مشروع في الإسلام، على أن تلتزم فيه ضوابط الشرع وآدابه، فهو وإن كان جائزاً مباحاً وبيد الرجل، فيجب الامتناع عنه إلا عند الضرورة أو الحاجة وأن يكون متفرقاً وألا يزيد عن طلقة واحدة، وفي حال الرضا؛ لما روى أبو داود عن محارب بن دثار أن رسول الله ﷺ قال: «ما أحل الله شيئاً أبغض عليه من الطلاق» . وروى الثعلبي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق» وروى أبو داود والترمذي عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «أيُّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس، حرَّم الله عليها رائحة الجنة» .

٢- أن يستقبل بالطلاق العدة، لقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ ولما روى أبو داود عن أسماء بنت يزيد بن السَّكَن الأنصارية أنها طلِّقت على عهد النبي ﷺ، ولم يكن للمطلقة عِدَّة، فأنزل الله سبحانه حين طُلِّقت أسماء بالعدة للطلاق؛ فكانت أول من أنزل فيها العدة للطلاق.

٣- من طلّق في طهر لم يجامعها فيه، نفذ طلاقه وأصاب السُّنة، وإن طلقها حائضاً نفذ طلاقه وأخطأ السنة، عملاً بحديث ابن عمر المتقدم، وبقول ابن مسعود فيما رواه الدارقطني: طلاق السنة: أن يطلقها في كل طهر تطليقة؛ فإذا كان آخر ذلك، فتلك العدة التي أمر الله تعالى بها.

قال علماء المالكية: طلاق السنة ما جمع شروطاً سبعة: وهو أن يطلقها واحدة، وهي ممن تحيض، طاهراً، لم يمسَّها في ذلك الطهر، ولا تقدّمه طلاق في حيض، ولا تبعه طلاق في طُهْر يتلوه، وخلا عن العوض. وهذه الشروط السبعة من حديث ابن عمر المتقدم.

وقال أبو حنيفة: طلاق السنة: أن يطلّقها في كل طهر طلقة. وقال الشافعي: طلاق السنة أن يطلقها في كل طهر خاصة، ولو طلقها ثلاثاً في طهر، لم يكن بَدْعة؛ لظاهر الآية: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وهذا عام في كل طلاق كان، واحدة أو اثنتين أو أكثر. وإنما راعى الله سبحانه الزمان في هذه الآية، ولم يعتبر العدد. وكذلك حديث ابن عمر؛ لأن النبي ﷺ علّمه الوقت، لا العدد. قال ابن العربي: هذه غفلة عن الحديث الصحيح، فإنه قال: «مُرْه فليراجعها» وهذا يدفع الثلاث.

وفي الحديث أنه قال: أرأيت لو طلقها ثلاثاً؟ قال: حَرُمت عليك، وبانت منك بمعصية. وقال تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٩] أي مرة بعد مرة.

والطلاق المخالف للسنة يقع، وهو إثم؛ لما روي عن النبي ﷺ: أن رجلاً طلق امرأته ثلاثاً بين يديه، فقال له: « أو تلعبون بكتاب الله، وأنا بين أظهركم». والظاهر عند الشافعية كراهة تطليق المدخول بها واحدة بائنة.

٤- قال الجرجاني: اللام في قوله تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ بمعنى (في)؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ [الحشر: ٥٩/٢] أي في أول الحشر، فقوله: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي في الزمان الذي يصلح لعدتهن، والإجماع على أن الطلاق في الحيض ممنوع، وفي الطهر مأذون فيه. وهذا دليل على أن القرء هو الطهر.

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ هذا في المدخول بها المعتدة بالأقراء؛ لقوله تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، لأن غير المدخول بها لا عدة عليها،

للآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩/٣٣] وله أن يراجعها فيما دون الثلاث قبل انقضاء العدة، ويكون بعدها كأحد الخطّاب، ولا تحلّ له في الثلاث إلا بعد زواج.

٦- قوله تعالى: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ معناه احفظوا الوقت الذي وقع فيه الطلاق، حتى إذا انتهت ثلاثة القروء في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَـٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَـٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨/٢] حَلَّت للأزواج. وهذا يدل على أن العدة هي الأطهار، وليست بالحِيَض، وهو مذهب المالكية والشافعية، ويؤكده ويفسره قراءة النبي ﷺ، وقراءة ابن مسعود: (فطلقوهن لقُبُل عِدّتهن) وقُبُل الشيء: بعضه لغة وحقيقة، بخلاف استقباله، فإنه يكون غيره.

٧- الصحيح أن المخاطب بقوله: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ الأزواج؛ لأن الضمائر كلها من ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ و﴿وَأَحْصُواْ﴾ و﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾ على نظام واحد يرجع إلى الأزواج. ولكن الزوجات داخلة فيه بالإلحاق بالزوج، وكذلك الحاكم يحتاج إلى الإحصاء للعدة للفتوى بها والحكم بموجبها.

٨- ليس للزوج إخراج المعتدة من مسكن الزواج ما دامت في العدة، ولا يجوز لها الخروج أيضاً لحق الزوج إلا لضرورة ظاهرة، فإن خرجت أثمت ولا تنقطع العدّة. والرجعية والمبتوتة (المطلقة ثلاثاً) في هذا سواء. وهذا لصيانة ماء الرجل، منعاً لاختلاط الأنساب.

وآراء العلماء في خروج المعتدة هي:

قال مالك وأحمد: إن المعتدة تخرج بالنهار في حوائجها، وإنما تلزم منزلها بالليل، سواء كانت رجعية أو بائنة، لما أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله قال: «طُلِّقت خالتي، فأرادت أن تَجُدَّ[1] نخلها، فزجرها رجل أن تخرج؛ فأتت النبي ﷺ فقال: بلى فجُدِّي نخلك، عسى أن تَصَدَّقي أو تفعلي معروفاً».

(١) جَدَاد النخل: صرامه وهو قطع ثمره.

وذهب الشافعي إلى أنه لا يجوز للمعتدة مطلقاً، رجعية أو مبتوتة أو متوفى عنها زوجها، الخروج من موضع العدة ليلاً ولا نهاراً إلا لعذر، عملاً بالآية: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

ورأى أبو حنيفة أنه لا يجوز للمطلقة الخروج ليلاً ونهاراً، سواء كانت رجعية أو مبتوتة، للآية السابقة، ويجوز للمتوفى عنها زوجها الخروج نهاراً في حوائجها، لاحتياجها إلى اكتساب النفقة، ولا تخرج ليلاً، لعدم الحاجة.

٩ً- لا تخرج المعتدة من بيتها في العدة إلا لفاحشة مبينة، كإقامة الحد عليها بسبب الزنى، أو بذاءة لسانها واستطالتها على أهل الزوج، ونشوزها. قال ابن عباس وغيره: الفاحشة: كل معصية كالزنى والسرقة والبَذَاء على الأهل. وأجاز الشافعي كما تقدم التراضي على إسقاط الزوجة حقها في السكنى أثناء العدة.

١٠ً- هذه الأحكام المبينة هي أحكام الله على العباد، فيمنع التجاوز عنها، ومن تجاوزها فقد ظلم نفسه، وأوردها مورد الهلاك، إذ قد يستجد أمر في شأن المطلقة، فيندم الرجل، ويرغب في الرجعة، قال جميع المفسرين في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾: أراد بالأمر هنا الرغبة في الرجعة. ومعنى القول: التحريض على طلاق الطلقة الواحدة، والنهي عن الثلاثة؛ فإنه إذا طلّق ثلاثاً، أضرّ بنفسه عند الندم على الفراق، والرغبة في الارتجاع، فلا يجد عند الرجعة سبيلاً.

١١ً- إذا قاربت المعتدة انقضاء العدة فعلى الرجل إما الإمساك بمعروف، أي المراجعة بالمعروف من غير قصد المضارّة في الرجعة، تطويلاً لعدتها، أو المفارقة بالمعروف، أي الترك حتى تنقضي عدتها، فتملك نفسها. وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ دليل على أن القول قول المرأة في انقضاء العدة إذا ادّعت ذلك.

١٢ً- الإشهاد على الطلاق وعلى الرجعة مندوب إليه في المذاهب الأربعة، منعاً للتجاحد، وعدم الاتهام في الإمساك، وعدم التذرع بثبوت الزوجية للإرث بعد الموت. والرجعة عند الحنفية تحصل بالقول مثل: راجعتك، وبالفعل كالقبلة والمباشرة والملامسة بشهوة والنظر إلى الفرج. وعند الشافعي: تكون الرجعة بالكلام. وتحصل الرجعة عند المالكية بالقول أو الفعل أو النية، وتحصل الرجعة عند الحنابلة والأوزاعي بالقول الصريح وبالوطء، سواء نوى به الرجعة أم لم ينو به الرجعة؛ ولا تحصل الرجعة بالتقبيل أو اللمس بشهوة، أو النظر إلى الفرج أو الخلوة بالمرأة والحديث معها؛ لأن المذكور كله ليس في معنى الوطء، وهو الذي يدل على ارتجاعها دلالة ظاهرة.

١٣ً- من ادعى بعد انقضاء العدة أنه راجع امرأته في العدة، فإن صدّقته جاز، وإن أنكرتْ حلفت، فإن أقام بيِّنة أنه ارتجعها في العدة، ولم تعلم بذلك، لم يضره جهلها بذلك، وكانت زوجته. وإن تزوجت ولم يدخل بها الزوج الثاني، ثم أقام الأول بيِّنة على رجعتها، فلمالك في ذلك روايتان: إحداهما - أن الأوّل أحق بها، والأخرى- أن الثاني أحق بها. فإن دخل بها الثاني فلا سبيل للأول إليها.

١٤ً- الإشهاد يكون بالرجال المسلمين دون الإناث؛ إذ لا مدخل للنساء فيما عدا الأموال. ويجب أن تكون الشهادة تقرباً إلى الله في إقامتها وأدائها على وجهها إذا مسَّت الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير.

١٥ً- إن المؤمن هو الذي يرضى بهذه الأحكام وينتفع بهذه المواعظ، أما غير المؤمن بالله واليوم الآخر، فلا ينتفع بها.

١٦ً- كل من يتقي الله في تطبيق أحكام الشريعة في الطلاق والعدة والإشهاد ونحوها، يجعل الله له مخرجاً من كل شدة وضيق، ويرزقه الثواب الحسن ويبارك له فيما آتاه. روى أحمد والنسائي وابن ماجه عن ثوبان: « إن

العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر» .

١٧- كل من يتوكل على الله وفوض الأمر إليه، كفاه ما أهمه في الدنيا والآخرة؛ لأن الله بالغ أمره فيما أراد، وقاض أمره في كل الناس، سواء من توكل عليه ومن لم يتوكل عليه، وجعل لكل شيء من الشدة والرخاء أجلاً ينتهي إليه. ولا يعني التوكل إهمال اتخاذ الأسباب أو الحفظ والصون؛ لقوله ﷺ فيما رواه الترمذي عن أنس، وهو ضعيف: «اعقلها وتوكل» .

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٦٢/ ١٠] . وقال سبحانه: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ٦٧/ ١٥] .

قال الربيع بن خَيْثم: إن الله تعالى قَضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه، ومن آمن به هداه، ومن أقرضه جازاه، ومن وَثِق به نجَّاه، ومن دعاه أجاب له. وتصديق ذلك في كتاب الله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١١]. ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٦٥/ ٣] . ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ٦٤/ ١٧] . ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٠١] . ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: ٢/ ١٨٦] .

وقال رسول الله ﷺ: « من أحب أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على اللّه »[١].

---

(١) تفسير الرازي الكبير: ٣٠/ ٣٤.

عدة اليائسة والصغيرة

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾﴾

الإعراب:

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ فيه محذوف تقديره: اللائي يئسن من المحيض فعدتهن ثلاثة أشهر، واللائي لم يحضن فعدتهن ثلاثة أشهر. حذف خبر الثاني لدلالة خبر الأول عليه، مثل: زيد أبوه منطلق وعمرو، أي وعمرو أبوه منطلق. و﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ مبتدأ، وواحد ﴿وَأُوْلَٰتُ﴾: ذات، و﴿أَجَلُهُنَّ﴾ مبتدأ ثانٍ، و﴿أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ خبر المبتدأ الثاني، والجملة منهما خبر المبتدأ الأول. ويجوز أن يكون ﴿أَجَلُهُنَّ﴾ بدلاً من﴿وَأُوْلَٰتُ﴾ بدل الاشتمال، و﴿أَن يَضَعۡنَ﴾ الخبر.

البلاغة:

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ إيجاز الحذف، حذف منه الخبر، أي فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً.

المفردات اللغوية:

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ أصابهن اليأس من الحيض لكبرهن .﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ شككتم في عدتهن أي جهلتم .﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾أي الصغيرات،

فعدتهن ثلاثة أشهر أيضاً. وكلاهما في غير المتوفى عنهن أزواجهن، أما المتوفّى عنهن أزواجهنّ فعدتهن كما في آية أخرى [البقرة: ٢/ ٢٣٤] أربعة أشهر وعشراً.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ أي أجل انقضاء عدتهن، مطلقات أو متوفى عنهن أزواجهن. ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وضع الحمل، وهو حكم يعم المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن. ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ يسهل عليه أمره ويوفقه للخير، وييسر أموره في الدنيا والآخرة. ﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الأحكام، ومنها حكم العدة. ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ حكمه. ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإن الحسنات يذهبن السيئات. ﴿وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ بمضاعفة الثواب.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير وإسحاق بن راهويه والحاكم والبيهقي عن أُبيْ بن كعب قال: لما نزلت الآية التي في سورة البقرة في عَدَد من عِدَد النساء، قالوا: قد بقي عدد من عِدَد النساء لم يذكرن: الصغار والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض، وأولات الأحمال، فأنزلت: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ الآية.

وأخرج مقاتل في تفسيره: أنه لما ذكر قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ قال خَلَّاد بن النعمان: يا رسول الله، فما عِدَّة التي لم تَحِضْ، وعدة التي انقطع حيضها، وعدة الحُبْلى فنزلت الآية: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ يعني قعدن عن المحيض. وقيل: إن معاذ بن جَبَل سأل عن عِدَّة الكبيرة التي يئست؛ فنزلت الآية.

المناسبة:

بعد أن أمر الله تعالى بتطليق النساء لعدتهن وبيَّن أمر الطلاق والرجعة في التي تحيض، بيَّن هنا مقدار العدة للآيسة والصغيرة اللتين لا تريان الدم،

وأنها ثلاثة أشهر، وعدة الحامل وكونها بوضع الحمل، تتميماً لما ذكر الله تعالى في سورة البقرة من عدة ذوات الأقراء، والمتوفى عنها زوجها.

التفسير والبيان:

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ أي إن عدة النساء الآيسات وهن اللاتي قد انقطع حيضهن لكبرهن ببلوغهن سن الخامسة والخمسين أو الستين هي ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض كما دلت على ذلك آية البقرة [٢٢٨] إن شككتم وجهلتم كيف عدتهن، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض عدتهن ثلاثة أشهر كعدة الآيسة.

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ أي وعدة النساء الحوامل أي انتهاء عدتهن يتم بوضع الحمل، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بساعة في قول جمهور العلماء، بدليل ما روى أحمد وأصحاب الكتب الستة عن المِسْور بن مَخْرمة أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية توفي عنها زوجها: سعد بن خَوْلة، وهي حامل، فلم تمكث إلا ليالي(١)، حتى وضعت، فلما تعلّت - شفيت- من نفاسها خُطبت، فاستأذنت رسول الله ﷺ في النكاح، فأذن لها أن تنكح، فنكحت.

وفي لفظ: أنه دخل عليها أبو السنابل، فقال: ما لي أراك متجملة؟ لعلك ترجين النكاح، إنك والله ما أنت بناكح، حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر. قالت سبيعة: فلما قال لي ذلك، جمعت علي ثيابي، حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ، فسألته عن ذلك، فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزوج إن بدا لي.

---

(١) حددت في رواية بثلاثة وعشرين يوماً.

وأخرج أبو داود والنسائي وابن ماجه عن ابن مسعود أنه قال: من شاء لاعنته أن الآية التي في النساء القصرى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ﴾ الآية. نزلت بعد الآية التي في سورة البقرة [٢٣٤] بكذا وكذا شهراً.

وقال علي وابن عباس رضي الله عنهما: تعتد الحامل المتوفى عنها زوجها بأبعد الأجلين من وضع الحمل، والأشهر أي أربعة أشهر وعشر، عملاً بهذه الآية والتي في سورة البقرة.

وهذا في الواقع جمع بين المدتين، وليس جمعاً بين النصين ولا إعمالاً لعموم كل منهما في مقتضاه، فإننا إذا حكمنا بعدم انتهاء العدة على من وضعت حملها قبل أربعة أشهر وعشر، كان ذلك إهداراً لمقتضى الحصر والتوقيت في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. وكذلك إذا حكمنا بعدم انتهاء العدة على من مضى عليها أربعة أشهر وعشر، ولم تضع حملها، كان ذلك إهداراً لمقتضى الحصر والتوقيت في قوله تعالى: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ أي ومن يخف الله ويرهب عقابه، فيأتمر بما أمر الله به، وينته عما نهى عنه، يسهّل عليه أمره كله في الدنيا والآخرة. وهذا تنويه بفضيلة التقوى في الدنيا والآخرة.

﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ أي جميع الأحكام المتقدمة في الطلاق والعدة والسكنى هو أمر الله الذي أمر به عباده، وأنزله إليهم في قرآنه، ومن يخف الله، بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه، يمح عنه ذنوبه من صحائف أعماله، ولا يؤاخذه بها، كما وعد بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١/ ١١٤] ويضاعف له جزاء حسناته، ويجزل له المثوبة على عمله. وقد كرر الأمر بالتقوى للتأكيد عليها، وكونها عماد النجاة والسعادة الدنيوية والأخروية.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أ- عدة المرأة اليائس التي انقطع دمها بسبب الكبر وتقدم السن، وعدة الفتاة الصغيرة التي لم تر الدم هي ثلاثة أشهر، تقابل القروء الثلاثة عند من ترى الدم. وسن اليأس في تقدير الحنابلة: خمسون سنة، وفي تقدير الحنفية: خمس وخمسون، وعند الشافعية: اثنتان وستون سنة. وعند المالكية: سبعون سنة.

ولو تأخر الحيض لغير مرض ولا رضاع، فإنها تنتظر سنة لا حيض فيها، تسعة أشهر ثم ثلاثة. وكذلك المرتابة في عدتها لا تنكح حتى تستبرئ نفسها من ريبتها، ولا تخرج من العدة إلا بارتفاع الريبة، وتكون عدتها عند المالكية والحنابلة سنة بعد انقطاع الحيض، بأن تمكث تسعة أشهر، وهي مدة الحمل غالباً، ثم تعتد بثلاثة أشهر، فيكمل لها سنة، ثم تحل. وحكمها عند الحنفية والشافعية أنها تبقى أبداً حتى تحيض أو تبلغ سن من لا تحيض، ثم تعتد بثلاثة أشهر.

ومن تأخر حيضها لمرض، فكذلك تعتد عند مالك تسعة أشهر ثم ثلاثة. وأما من انقطع حيضها بسبب الرضاع فإن عدتها عند المالكية تنقضي بمضي سنة بعد انتهاء زمن الرضاع وهو سنتان، فإن رأت الحيض ولو في آخر يوم من السنة، انتظرت الحيضة الثالثة.

وأما التي جُهل حيضها بالاستحاضة أو ممتدة الدم فعدتها عند المالكية سنة كاملة، تمكث تسعة أشهر استبراء لزوال الريبة؛ لأنها مدة الحمل غالباً، وثلاثة أشهر عدة، وتحل للأزواج.

والمفتى به عند الحنفية: أنها تنقضي عدتها بسبعة أشهر، بأن يقدر طهرها بشهرين، فتكون أطهارها ستة أشهر، وتقدر ثلاث حيضات بشهر احتياطاً.

وذهب الشافعية والحنابلة إلى أن عدة المستحاضة الناسية لوقت الحيض، والمبتدأة كالآيسة: ثلاثة أشهر؛ لأن النبي ﷺ أمر حَمْنة بنت جحش أن تجلس في كل شهر ستة أيام أو سبعة، فتجعل لها حيضة من كل شهر.

٢ً- عدة الحامل تنتهي بوضع الحمل، سواء كانت مطلَّقة أو متوفى عنها زوجها. وتحل عند المالكية إذا وضعت عَلَقة أو مُضْغة. وقال أبو حنيفة والشافعي: لا تحلُّ إلا بما يكون ولداً.

٣ً- من يتّق الله في اجتناب معاصيه، يجعل له من أمره يسراً في توفيقه للطاعات، وقال الضحاك: من يتق الله في طلاق السنة يجعل له من أمره يسراً في الرجعة. ثم كرر الله تعالى الحث على التقوى، فذكر أن من يعمل بطاعة الله يكفِّر عنه سيئاته من الصلاة إلى الصلاة، ومن الجمعة إلى الجمعة، ويُعظم أجره في الآخرة.

٤ً- إن المذكور من الأحكام المتقدمة أمر الله أنزله للناس وبيَّنه لهم.

السكنى والنفقة للمعتدة وأجر الرضاع

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾

القراءات:

﴿وَأْتَمِرُوا۟﴾ :

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (واتمِرُوا).

الإعراب:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ جواب عن سؤال تقديره: كيف نتقي الله فيهن؟

﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾أو بدل مما قبله، بإعادة الجار، وتقدير مضاف، أي أمكنة سعتكم، لا ما دونها.

المفردات اللغوية:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ أسكنوا المطلقات المعتدات .﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي بعض مساكنكم وفي مستوى سكناكم .﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ مما تجدونه ويكون في وسعكم وطاقتكم .﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ﴾ أي في النفقة والسكنى .﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ لتضايقوهن في المساكن، فتلجئوهن إلى الخروج، ولا في النفقة فيفتدين منكم. ﴿حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فحينئذ يخرجن من العدة .﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾أولادكم منهن بعد انتهاء رابطة الزواج .﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع .﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي ليأمر بعضكم بعضاً بجميل وروح كريمة في الإرضاع والأجر، رعاية لمصلحة الأم والولد وحال الأب، فلا بخل من الأب، ولا معاسرة أو مضايقة وإرهاق لجانب الأب .﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ تضايقتم في الإرضاع، وضيق بعضكم على بعض في الأجر وأصابكم إعسار واختلاف، فامتنع الأب من الأجرة، والأم من الرضاع .﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ سترضع للأب امرأة أخرى، ولا تكره الأم على الرضاع، وفيه معاتبة للأم على المعاسرة.

﴿لِيُنفِقْ﴾ على المطلقات والمرضعات .﴿ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ لينفق الموسر بقدر يسره ووسعه .﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ ضيق عليه أو قتر عليه في الرزق، وهو المعسر، فلينفق بقدر وسعه .﴿فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ مما أعطاه الله على

قدره .﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ لا يكلف الله نفساً إلا بقدر ما أعطاها من الرزق قليلاً أو كثيراً، وفيه تطييب لقلب المعسر، فوعده باليسر، فقال: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي يبدل بالعسر يسراً، عاجلاً أو آجلاً.

المناسبة:

بعد بيان عدة الآيسة والصغيرة والحامل الحبلى، ذكر الله تعالى ما يجب للمعتدة من نفقة وسكنى بقدر الطاقة، سواء كانت مطلقة أو حاملاً، ثم ذكر ما يجب للمطلقة من أجرة على رضاع ولدها إذا هي أرضعته، فالأم أولى بالإرضاع إذا رضيت بأجر المثل، فإن أبت أرضعت المولود امرأة أخرى.

التفسير والبيان:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّۚ﴾ أي أسكنوا المطلقات في مسكن مشابه لما تسكنون فيه بقدر أحوالكم، وقدر سعتكم وطاقتكم، ولو كان ذلك في حجرة من غرف الدار التي تسكنون فيها، ولا تلحقوا بهن ضرراً في النفقة والسكنى، فتلجئوهن إلى الخروج من المسكن، أو التنازل عن النفقة، فالوجد: الغنى والمقدرة. وهذا بيان ما يجب للمطلقات من السكنى في المستوى الملائم لحال الرجل؛ لأن السكنى نوع من النفقة الواجبة على الزوج، فإذا طلق الرجل زوجته، وجب عليه أن يسكنها في منزل حتى تنقضي عدتها، دون مضارّة في السكنى أو النفقة.

﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ﴾ أي إن كانت المرأة المطلقة حاملاً، وجب الإنفاق عليها حتى تضع حملها. ولا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة. وقد ذهب الحنفية إلى تعميم هذا الحكم، فقالوا: تجب النفقة والسكنى لكل مطلقة، ولو مبتوتة، وإن لم تكن ذات حمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّۚ﴾ وترك النفقة من أكبر

الأضرار، لما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في المبتوتة: « لها النفقة والسكنى » لأن ذلك جزاء الاحتباس، وتستوي فيه الحامل وغيرها. لكن قال الإمام أحمد: لا يصح ذلك عن عمر.

ورأى مالك والشافعي: أن للمطلقة ثلاثاً السكنى، ولا نفقة لها إلا إذا كانت حاملاً؛ لأن آية ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ﴾ هي في البائن الحامل، بدليل أن الرجعية تجب نفقتها، سواء كانت حاملاً أو حائلاً (غير حامل) لذا قالوا: الآية دليل على اختصاص النفقة بالحامل من المعتدات، والأحاديث تؤيده.

ومذهب أحمد وإسحاق وأبي ثور: ألا نفقة للمطلقة ثلاثاً ولا سكنى؛ لما رواه مسلم وأحمد من حديث فاطمة بنت قيس الذي طلّقها زوجها ثلاثاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «لا نفقة لكِ ولا سكنى» . وذكر الدارقطني عن الأسود بن يزيد قال: قال عمر لما بلغه قول فاطمة بنت قيس: لا نجيز في المسلمين قول امرأة. وكان يجعل للمطلقة ثلاثاً السكنى والنفقة. لكن قال الدارقطني: السنة بيد فاطمة قطعاً.

ثم أمر الله تعالى بدفع الأجرة على الرضاع، فقال:

﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾ أي فإن أرضعت الأمهات المطلقات أولادكم بعد ذلك، فأعطوهن أجور إرضاعهن إذا رضين بأجر المثل، وائتمروا وتآمروا وتشاوروا أيها الأزواج والزوجات الذين وقع بينهم الفراق بالطلاق بما هو جميل معروف، وحسن غير منكر، في شأن الولد بما يضمن أوضاعه الصحية والمعاشية، من غير إضرار ولا مضارة، كما قال تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٣] وقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٣٣] . والآية دليل على أن أجرة الرضاع للأولاد على الأزواج، وحق الحضانة على الزوجات.

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أي وإن تضايقتم واختلفتم في شأن الإرضاع، فأبى الزوج أن يعطي الأم الأجر الذي تريده، وأبت الأم أن ترضعه إلا بما تريد من الأجر، فيستأجر الأب مرضعة أخرى ترضع ولده. وفي هذا عتاب للأم على التشدد في الطلب، وعدم التسامح مع الأب. وذلك إذا قبل الولد ثدي امرأة أخرى، وإلا وجب الإرضاع على الأم.

ثم أبان الله تعالى مقدار النفقة، فقال:

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب طاقته أو قدرته، ومن كان فقيراً مقتراً أو مضيَّقاً عليه في الرزق، فلينفق مما أعطاه الله من الرزق بقدر سعته، ليس عليه إلا ذلك، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦].

وقال هنا:

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ أي لا يكلف الله نفساً إلا ما أعطاها من الرزق، فلا يكلف الفقير بأن ينفق على الزوجة والقريب الرحم ما ليس في وسعه، كنفقة الغني.

ثم وعد الله تعالى بالعطاء والفضل، فقال:

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أي سيجعل الله بعد ضيق وشدة سعة وغنى، وهذا وعد منه تعالى، ووعده حق لا يخلفه، وهو بشرى بالفرج بعد الكرب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشرح: ٩٤/٥-٦].

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على الأحكام التالية:

أ- السكنى بقدر الطاقة وفي المستوى اللائق بحال الزوج واجبة لكل مطلقة، وقد أجمع العلماء على أن للمرأة الرجعية (التي يحق مراجعتها بعد طلقة واحدة رجعية أو طلقتين) السكنى والنفقة، أما السكنى: فللآية: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وآية ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ وأما النفقة ولو لم تكن حاملاً فلأن الرجعية كالزوجة في بقاء حق الاحتباس وسلطة الزوج عليها، فيكون الإجماع مخصصاً لمفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾.

واتفق العلماء أيضاً على أن للبائن (التي طلقت طلاقاً بائناً) الحامل السكنى والنفقة؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾.

وأما البائن غير الحامل أو المطلقة ثلاثاً، فاختلف العلماء في سكناها ونفقتها على أقوال ثلاثة تقدم ذكرها، وموجزها كما يلي:

أحدهما- وجوب السكنى والنفقة لها: وهو مذهب عمر وابن مسعود وكثير من فقهاء الصحابة والتابعين، ومذهب الحنفية والثوري، لقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾فهو أمر بالسكنى لكل مطلقة، ولأن النفقة جزاء الاحتباس لحق الزوج، سواء كانت حاملاً أو حائلاً. والمقصود بآية ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ دفع توهم ألا نفقة لها لطول مدة الحمل. وقد قال عمر رضي الله عنه: لا ندع كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ لقول امرأة، لا ندري جهلت أم نسيت. يريد قول فاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها ألبتة: «لم يجعل لي رسول الله ﷺ سكنى ولا نفقة».

والثاني- ألا نفقة للمبتوتة ولا سكنى: وهو رأي ابن عباس وأصحابه وجابر بن عبد الله وفاطمة بنت قيس وبعض التابعين، وإسحاق وداود وأحمد، لحديث مسلم وغيره المتقدم عن فاطمة بنت قيس حينما طلقها عمرو ابن حفص ألبتة، فلم يفرض لها رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى.

والثالث- للمطلقة البائن بينونة كبرى السكنى دون النفقة: وهو مذهب مالك والشافعي، أما السكنى فلقوله تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وأما عدم النفقة فلمفهوم قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فإن الله سبحانه لما ذكر السكنى أطلقها لكل مطلقة، فلما ذكر النفقة قيدها بالحمل، فدل مفهوم: ﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ﴾ على أن المطلقة البائن غير الحامل لا نفقة لها.

وردَّ الجصاص على حديث فاطمة بنت قيس بقوله: وهذا حديث قد ظهر من السلف النكير على راويه، ومن شرط قبول أخبار الآحاد تعريها من نكير السلف، أنكره عمر بن الخطاب على فاطمة بنت قيس، فقال: لا نترك كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة، لا ندري لعلها حفظت أو نسيت، لها السكنى والنفقة، قال الله تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾[١].

ثم جمع بين هذا الحديث - على فرض صحته- وبين الآية، فقال: وللحديث عندنا وجه صحيح يستقيم على مذهبنا فيما روته من نفي السكنى والنفقة، وذلك لأنه قد روي أنها استطالت بلسانها على أحمائها، فأمرها بالانتقال، فلما كان سبب النقلة من جهتها، كانت بمنزلة الناشزة، فسقطت نفقتها وسكناها جميعاً، فكانت العلة الموجبة لإسقاط النفقة هي الموجبة لإسقاط السكنى[٢].

(١) أحكام القرآن ٣/ ٤٦١.

(٢) المرجع السابق ٣/ ٤٦٢

٢ً- تحريم مضارة المرأة المطلقة في المسكن والنفقة، كما تحرم الرجعة والطلاق بقصد الضرار، وهو أن يطلقها، فإذا بقي يومان من عدتها راجعها ثم طلقها.

٣ً- لا خلاف بين العلماء في وجوب النفقة والسكنى للحامل المطلقة ثلاثاً، أو أقل منهن حتى تضع حملها.

أما الحامل المتوفى عنها زوجها: فقال جماعة من الصحابة كعلي وابن عمر وابن مسعود والتابعين كالنخعي والشعبي وحماد: يُنْفَق عليها من جميع المال أي من التركة حتى تضع. وقال ابن عباس وابن الزبير ومالك والشافعي وأبو حنيفة: لا ينفق عليها إلا من نصيبها، وروى الدارقطني بإسناد صحيح عنه ﷺ أنه قال: «ليس للحامل المتوفى عنها زوجها نفقة».

٤ً- إذا أرضعت المطلقات أولاد الزوج، فعلى الآباء أن يعطوهن أجرة إرضاعهن. ولايجوز عند مالك والشافعي للرجل أن يستأجر امرأته للرضاع، كما يستأجر أجنبية. ولا يجوز عند أبي حنيفة الاستئجار إذا كان الولد منهن ما لم يَبِنَّ أي يصبحن بائنات.

فإذا رضيت الأم أن ترضع ولدها بأجر المثل، فهي أحق به، لوفور شفقتها، فهي أولى بحضانته وإرضاعه من كل أحد، وليس للأب أن يسترضع غيرها في هذه الحالة. وتستحق الأجرة بالفراغ من العمل، لا بالعقد؛ لأن الله أوجبها بعد الرضاع بقوله: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

٥ً- دلّ قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ﴾ أيضاً على أن نفقة الولد الصغير على أبيه؛ لأنه إذا لزمه أجرة الرضاع، فكفايته ألزم. لذا أجمعوا على ذلك في طفل لا مال له، وأُلحق به بالغ عاجز عن نفقة نفسه، لخبر هند بنت عتبة فيما أخرجه الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن عائشة: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف».

٦ً- على الأزواج والزوجات الائتمار بينهم أو قبول بعضهم من بعض ما أمره به من المعروف الجميل في الإرضاع والأجر وغيرها. والجميل من الأم المطلقة إرضاع الولد من غير أجرة. والجميل من الأب توفير الأجرة للأم للإرضاع.

٧ً- إن حدث التعاسر أو تضييق بعض الأزواج على بعض في أجرة الرضاع، فأبى الزوج أن يدفع للأم أجرة المثل، أو أبت الأم الرضاع أو تغالت في الأجرة، فليس للزوج إكراهها، وليستأجر مرضعة أخرى غير أمه.

ودلت الآية ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ أيضاً على أنه إذا طلبت الأم أكثر من أجر المثل، فللأب أن يسترضع غيرها ممن يرضى بأجر المثل، إذا قبل الصبي ثدي المرأة الأخرى، ولم يحصل له ضرر بلبنها، وإلا أجبرت الأم على إرضاعه بأجرة المثل.

فإن اختلفا في الأجرة: فإن دعت الأم إلى أجر مثلها، وامتنع الأب إلا تبرعاً، فالأم أولى بأجر المثل إذا لم يجد الأب متبرعاً. وإن دعا الأب إلى أجر المثل، وامتنعت الأمّ لتطلب شططاً، فالأب أولى به. فإن أعسر الأب بأجرتها، أخذت جبراً برضاع ولدها.

٨ً- على الزوج الإنفاق على زوجته وعلى ولده الصغير على قدر وُسْعه وطاقته، فإن كان غنياً موسراً أنفق نفقة الأغنياء، وإن كان فقيراً أنفق نفقة الفقراء.

وتقدر النفقة بحسب حالة المنفق وحاجة المنفق عليه بالاجتهاد على وفق العرف والعادة، في رأي المالكية. وقال الإمام الشافعي: النفقة مقدّرة محدّدة، ولا اجتهاد لحاكم أو لِمُفْت فيها. وتقديرها هو بحال الزوج وحده يُسْراً وعُسْراً، ولا يعتبر بحالها وكفايتها، فإن كان الزوج موسراً لزمه مُدَّان، وإن كان متوسطاً فمدّ ونصف، وإن كان معسراً فمدّ؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو

سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ الآية، وقوله سبحانه: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٦] ، فجعل الاعتبار بالزوج في اليسر والعسر دونها، ولأن مراعاة كفايتها لا سبيل إلى علمه للحاكم ولا لغيره، فتقع الخصومة؛ لأن الزوج يدّعي أنه تطلب فوق كفايتها، وهي تزعم أن ما تطلبه قدر كفايتها، فجعلت مقدرة قطعاً للخصومة.

وأدلة المالكية على تقدير النفقة بحسب حال الزوجين معاً عرفاً وعادة قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢/٢٣٣] ، وقوله ﷺ في الصحيحين لهند امرأة أبي سفيان: « خذي ما يكفيك وولدَك بالمعروف » وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال في خطبة الوداع: «واتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بسنة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» ففي الحديثين إحالة على الكفاية، ولم يقل عليه الصلاة والسلام للأم في حديث هند: لا اعتبار بكفايتك، وأن الواجب لكِ شيء مقدر.

٩- آية ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أصل في وجوب النفقة للولد على الوالد، دون الأمّ، خلافاً لمحمد بن الموّاز يقول: إنها على الأبوين على قدر الميراث. وفي البخاري عن النبي ﷺ: «تقول لك المرأة: أنفق علي وإلا فطلِّقني، ويقول لك العبد: أنفق علي واستعملني، ويقول لك ولدك: أنفق عليّ، إلى من تكِلُني» .

١٠- قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ دليل على أنه لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغني، وعلى أنه لا فسخ بالعجز عن الإنفاق على الزوجة؛ لأنه تضمن عدم التكليف بالإنفاق في حال العجز، فلا يجوز إجباره على الطلاق من أجل النفقة؛ لأن فيه إيجاب التفريق لشيء لم يجب عليه.

وكذلك قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ يدل على أنه لا يفرق

بين الزوجين من أجل عجزه عن النفقة؛ لأن العسر يرجى له اليسر، وسيجعل الله بعد الضيق غنى، وبعد الشدّة سعة، كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٨٠] . وهذا مذهب الحنفية ورواية عن أحمد.

والقول بالفسخ للإعسار بالنفقة مذهب مالك وأظهر قولي الشافعي ورواية أخرى عن أحمد، بدليل خبر الدارقطني والبيهقي في الرجل لا يجد شيئاً ينفق على امرأته: يفرَّق بينهما. ولأنه شرع الفسخ بالعنَّة لإزالة الضرر، والضرر الذي يلحق المرأة بعدم النفقة أشد من ضررها بالعنة، فكان الفسخ بالعجز عن النفقة أولى من الفسخ بالعنة.

ودلت الآية: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ﴾ أيضاً على أنه ينبغي للإنسان مراعاة حال نفسه في النفقة والصدقة، جاء في الحديث: «إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً، إذا هو سبحانه وسّع عليه وسَّع، وإذا هو عز وجل قتَّر عليه قتَّر»[١].

وعيد المخالفين ووعد الطائعين والتذكير بقدرة الله

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾

(١) تفسير الألوسي: ٢٨/ ١٤٠

القراءات:

﴿وَكَأَيِّن﴾ :

وقرأ ابن كثير (وكائن).

﴿نُّكْرًا﴾ :

وقرأ نافع، وابن ذكوان، (نُكُراً).

﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ :

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو (مُبيَّنات).

﴿يُدْخِلْهُ﴾ :

وقرأ نافع، وابن عامر (ندخله).

الإعراب:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نعت للمنادى أو بيان له.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ، رَّسُولًا﴾ ﴿رَّسُولًا﴾ : منصوب بأحد خمسة أوجه: إما منصوب بـ ﴿ذِكْرًا﴾ على أنه مصدر، أي: أن اذكر رسولاً، كانتصاب ﴿يَتِيمًا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [البلد: ٩٠/ ١٤-١٥] أي أن أطعم يتيماً، أو منصوب بفعل مقدر، أي وأرسل رسولاً، أو بتقدير: أعني، أو أن يكون بدلاً من ﴿ذِكْرًا﴾ ويكون ﴿رَّسُولًا﴾ بمعنى رسالة، وهو بدل الشيء من الشيء نفسه، أو منصوب على الإغراء، بتقدير: اتبعوا رسولاً.

﴿مُبَيِّنَٰتٍ﴾ حال من اسم الله أو صفة رسولاً .﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ ﴿مِثۡلَهُنَّ﴾: إما منصوب بتقدير فعل أي: من الأرض خلق مثلهن، وليس منصوباً بفعل ﴿خَلَقَ﴾ المتقدم لئلا يقع الفصل بين واو العطف والمعطوف بالجار والمجرور. أو مرفوع بالظرف أو على الابتداء، أو الخبر مع خلاف فيه. ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ اللام إما تتعلق بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾ أو تتعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾.

البلاغة:

﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا، فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ تكرار الوعيد للترهيب.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ مجاز مرسل، أي أهل قرية، من إطلاق المحل وإرادة الحالّ.

﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ استعارة، استعار الظلمات للكفر والضلال، والنور للهدى والإيمان.

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ هذه الآيات فيما سبق من السورة سجع بديع غير متكلف.

المفردات اللغوية:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أي وكثير من أهل قرية، ﴿وَكَأَيِّن﴾: كاف الجرّ دخلت على (أي) بمعنى (كم). ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ عصت وأعرضت أو تجبرت وتكبرت، المراد عتى أهلها. ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ بالاستقصاء والمناقشة، والحساب في الآخرة، وعبر عنها بالماضي وإن لم تجئ لتحقق وقوعها. ﴿عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ عذاباً منكراً عظيماً وهو عذاب النار.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ عاقبة عتوها وكفرها ومعاصيها. ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ أي خسارة وهلاكاً، وهي خسارة لا ربح فيها أصلاً. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكرار الوعيد للتوكيد. ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أصحاب العقول. ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ أي قرآناً. ﴿رَّسُولًا﴾ أي وأرسل محمداً (ﷺ). ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين آمنوا بعد إنزال الذكر ومجيء الرسول ﷺ. ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الكفر والضلالة إلى الإيمان والهدى.

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ هو رزق الجنة التي لا ينقطع نعيمها، وفيه تعجب وتعظيم لما رزقوا من الثواب. ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي وخلق مثلهن في العدد من الأرض، يعني سبع أرضين. ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمر الله وقضاؤه بينهن، وينفذ حكمه فيهن. ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ متعلق بمضمر يعم كلّاً من الخلق والتنزيل فإن كلّاً منهما يدل على كمال قدرته وعلمه، فهو علة للأمرين.

المناسبة:

بعد بيان أحكام الطلاق والعدة وما يجب للمعتدة من نفقة وسكنى، والنهي عن تجاوز حدود الله، أنذر الله تعالى وتوعد كل من خالف أمره وكذب رسله عليهم السلام، بعقاب مماثل لعقاب الأمم الخالية التي كفرت وكذبت رسلها، ثم أردف ذلك بالتذكير بعظيم قدرته وإحاطة علمه، للحث على التزام الأوامر والعمل بالشريعة والأحكام، فكانت الآيات تحذيراً من مخالفة الأمر بعد بيان الأحكام.

التفسير والبيان:

توعد الله تعالى كل من خالف أمره وكذَّب رسله، وسلك غير ما شرعه، وأخبر عما حلّ بالأمم السالفة بسبب ذلك، فقال:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا

نُكْرًا ﴿٨﴾﴾ أي وكثير من أهل القرى عصوا أمر الله ورسله، وأعرضوا وتكبروا وتمردوا عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله، حاسبها الله بأعمالها التي عملتها في الدنيا، وعذب أهلها عذاباً عظيماً منكراً في الآخرة، وفي الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف.

وعبّر بقوله: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا﴾ ﴿وَعَذَّبْنَاهَا﴾ بالماضي عن المستقبل في الآخرة للدلالة على التحقق والوقوع لوعيد الله، مثل: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾ [النحل: ١٦/١]، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الزمر: ٣٩/٦٨] ، وقوله ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٧/٤٤] ، ونحو ذلك.

ثم أخبر عن سبب العذاب، فقال:

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾ أي لقيت شدة أمرها وعقوبة كفرها، وكان مصيرها الخسران والهلاك والنكال في الدنيا، والعذاب في الآخرة، فخسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم.

ثم أكّد الوعيد بقوله:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي هيأ الله لهم عذاباً شديد الوقع والألم لكفرهم وعتوهم وتمردهم، وهو عذاب النار.

ثم ذكر الله تعالى العبرة من الإنذار والوعيد وهي حث المؤمنين على التقوى، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي فخافوا عقاب الله يا أصحاب العقول الراجحة، والأفهام المستقيمة، فلا تكونوا مثلهم، فيصيبكم مثلما أصابهم.

ثم أوضح لهم ما يذكّرهم بنحو دائم، فقال:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ، رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أي فاتقوا الله يا أولي العقول من هذه الأمة الذين صدقوا بالله ورسله، وأسلموا لله، واتبعوا رسولهم محمداً ﷺ، قد أنزل الله إليكم ذكراً دائماً وهو القرآن العظيم، وأرسل إليكم رسولاً بهذا القرآن، فهو الترجمان الصادق، وهو الذي يبلِّغكم وحي الله، ويقرأ عليكم كلام الله وآياته في حال كونها بيِّنة واضحة جلية، يبيِّن فيها للناس ما يحتاجون إليه من الأحكام، ليخرج الله بالآيات والرسول الذين آمنوا بالله ورسله، وعملوا الصالحات من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية، ومن ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ثم أكرمهم ورغَّبهم ببيان جزاء الإيمان والعمل الصالح، فقال:

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ أي ومن يصدق بالله، ويعمل العمل الصالح، فيجمع بين التصديق والعمل بما فرضه الله عليه، يدخلْه جنات، أي بساتين تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبداً على الدوام، وقد وسَّع الله له رزقه في الجنة.

ثم نبَّه عباده إلى عظيم قدرته وإحاطة علمه، فقال:

١- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي إن الله هو الذي أبدع السماوات السبع، والأرضين السبع، أي سبعاً مثل السماوات السبع، يتنزل أمر الله وقضاؤه وحكمه ووحيه من السماوات السبع إلى الأرضين السبع، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٦٧/٣].

وثبت في الصحيحين: «من ظلم قيد شبر من الأرض، طُوِّقه من سبع أرضين» وفي صحيح البخاري: «خسف به إلى سبع أرضين» وفي البخاري وغيره أيضاً: «اللهم ربّ السماوات السبع وما أظللن، وربّ الأرضين وما أقللن».

وروى ابن مسعود أن النَّبي ﷺ قال: «ما السماوات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة».

وقال قتادة: في كل أرض من أرضه، وسماء من سمائه خلق من خلقه، وأمر من أمره، وقضاء من قضائه.

٢-﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي فعل ذلك، فخلق السماوات والأرض وأنزل قضاءه وأمره فيهما، لأجل أن تعلموا كمال قدرته، وإحاطة علمه بجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه شيء منهما كائناً ما كان، فاحذروا المخالفة، واعتبروا بمصير الأمم السابقة، فإن الله عالم بأعمالكم كلها، وسيجازيكم عليها.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات إلى ما يأتي:

١- حذر الله سبحانه من مخالفة أوامره، من طريق بيان عتو قوم وحلول العذاب بهم، فكثير من أهل القرى الظالمة التي عصت أمر الله ورسله، جازاهم بالعذاب في الدنيا بالجوع والقحط والسيف والخسف وسائر المصائب، وسيحاسبهم في الآخرة حساباً شديداً، ويعذبهم عذاباً منكراً عظيماً.

فذاقوا عاقبة كفرهم، وكان عاقبة أمرهم الهلاك والخسران في الدنيا بما ذكر، وفي الأخرة بجهنم.

وقد بيَّن الله تعالى نوع الخُسْر وهو أنه عذاب جهنم في الآخرة.

٢- أمر الله بالتقوى عن الكفر به وبرسوله، وجعل الأمر خطاباً لأهل العقول الراجحة، وللمؤمنين الذين آمنوا بالله ورسله، والذين أنزل عليهم

القرآن، وأرسل لهم الرسول محمداً ﷺ الذي يتلو عليهم الآيات البينات الواضحات التي تبين ما يحتاج إليه الناس من الأحكام والشرائع.

والتقوى: الخوف من الله والعمل بطاعته، والانتهاء عن معاصيه. والغاية السامية من التقوى والإيمان والعمل الصالح هي الخروج من الكفر والضلالة إلى الهدى والنور.

٣- الدليل على كمال قدرة الله تعالى، وأنه يقدر على البعث والحساب هو خلق السماوات والأرض، والدليل على إحاطة علم الله تعالى بكل شيء: علمه بجميع أحوال أهل السماء وأهل الأرض، وتدبير الكون، وتنزيل الأمر فيهم، وإنفاذ القضاء والحكم والوحي في شؤونهم، فلا يخرج شيء عن علمه وقدرته؛ وهو القادر على مجازاة جميع مخلوقاته، ولا يعلم أجرام السماء ولا تلك الأحكام ولا كيفية تنفيذها في المخلوقات إلا علام الغيوب.

ولا خلاف في أن السماوات سبع، بعضها فوق بعض، كما دلّ حديث الإسراء وغيره، واختلفوا في الأرض، فقال الجمهور: إنها سبع أرضين طباقاً، بعضها فوق بعض، ولعل ذلك طبقات الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي سبعاً من الأرضين، ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق أو فرجة، وللأحاديث الصحيحة المتقدمة مثل الحديث الذي رواه أحمد والشيخان عن عائشة وسعيد بن زيد: «من ظلم قيد شبر من الأرض طوّقه من سبع أرضين». وقيل: إنها أرض واحدة، وأن المماثلة ليست في العدد، وإنما هي في الخلق والإبداع والإحكام. والرأي الأول أصح وأظهر، كما قال القرطبي وغيره من كبار المفسرين القدامى والمعاصرين؛ لأن الأخبار دالّة عليه في الترمذي والنسائي وغيرهما.

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة التحريم

مدنية، وهي اثنتا عشرة آية

تسميتها:

سميت سورة "التحريم"، لتحريم النبي ﷺ شيئاً على نفسه، وافتتاح السورة بعتابه على سبيل التلطف في قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

مناسبتها لما قبلها:

تظهر مناسبة هذه السورة لما قبلها من وجوه ثلاثة:

١- افتتاح السورتين كلتيهما بخطاب النبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾

٢- اشتراك السورتين في الأحكام المخصوصة بالنساء. فالأولى سورة الطلاق في بيان أحكام الطلاق والعدة وحقوق المعتدة وحسن المعاشرة، وهذه السورة في موقف بعض نساء النبي ﷺ وكيفية معاملة النبي ﷺ لهنّ بالحسنى واللين والنصح.

٣- إن سورة الطلاق المتقدمة في تحريم ما أحل الله بالطلاق، وإنهاء خصومة بعض نساء الأمة، وهذه السورة في تحريم ما أحل الله من نوع آخر

بالإيلاء، وإنهاء خصومة نساء النّبي ﷺ، وإفرادها بأحكامهن تعظيماً لهن، لذا ختمت بذكر امرأتين في الجنة هما: آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران.

ما اشتملت عليه السورة:

هذه السورة المدنية تتضمن بعض أحكام التشريع الخاصة بأمهات المؤمنين لتكون نموذجاً يحتذى لجميع الأمة.

ابتدأت السورة بعتاب لطيف للنّبي ﷺ على تحريمه على نفسه شيئاً مباحاً وهو العسل كما ثبت في الصحيح إرضاء لبعض أزواجه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ الآية.

ثم وجَّهت العتاب لبعض أزواج النبي لإفشائهن السرّ حين أسرّ النبي ﷺ إلى زوجته حفصة، فأخبرت به عائشة، مما أغضب النّبي ﷺ، وهمَّ بتطليق أزواجه، وهَّددهن الله بإبداله أزواجاً خيراً منهن: ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ ﴾ ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾.

وناسب هذا التذكير باتقاء أهل بيت الإيمان النار والترهيب من الجزاء، وبالتوبة النصوح، وبجهاد الكفار والمنافقين من غير انشغال بأحوال البيت والأسرة من أزواج وأولاد.

وختمت السورة بضرب مثلين عظيمين: أحدهما للكافرين، والثاني للمؤمنين، والأول مثل الزوجة الكافرة: امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام، عند الرجل المؤمن الصالح، والثاني مثل الزوجة المؤمنة: امرأة فرعون، عند الرجل الكافر الفاجر، ومثل المرأة الحرة التقية البتول في غير عصمة أحد، تنبيهاً للناس على وجوب اعتماد الإنسان على نفسه، وأنه لا يغني في الآخرة أحد عن أحد، ولا ينفع حسب ولا نسب إذا ساء العمل.

بعض أحوال نساء النبي ﷺ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥﴾

القراءات:

﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ :

وقرأ نافع (النبيء).

﴿عَرَّفَ﴾ :

وقرأ الكسائي (عَرَف).

﴿تَظَٰهَرَا﴾ : قرئ:

١- (تَظَاهرا) وهي قراءة عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف.

٢- (تَظَّاهرا) وهي قراءة الباقين.

﴿يُبۡدِلَهُۥٓ﴾ :

وقرأ نافع، وأبو عمرو (يُبَدِّله).

الإعراب:

﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ ﴿تَبْتَغِي﴾: جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ضمير ﴿تُحَرِّمُ﴾.

﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ جمع القلوب، ولم يقل "قلباكما" بالتثنية؛ لأن كل ما ليس في البدن منه إلا عضو واحد، فإن تثنيته بلفظ جمعه، والقلب ليس في البدن منه إلا عضو واحد. ولو قال: قلباكما أو قلبكما، لكان جائزاً.

﴿هُوَ مَوْلَاهُ﴾ ﴿هُوَ﴾: ضمير فصل.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ إنما قال ﴿ظَهِيرٌ﴾ بالإفراد، دون الجمع "ظهراء" لأن ما كان على وزن فعيل يستوي فيه الواحد والجمع، مثل قوله تعالى: ﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ١٢/ ٨٠] . وقد يستغنى بذكر الواحد عن الجمع، مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٤٠/ ٦٧] .

﴿أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ الجملة جواب الشرط، و﴿أَنْ يُبْدِلَهُ﴾: خبر ﴿عَسَى﴾

البلاغة:

﴿تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ﴾ بينهما طباق، وكذا بين ﴿عَرَّفَ﴾ ﴿وَأَعْرَضَ﴾ وبين ﴿ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾

﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب للمبالغة في العتاب.

﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿ظَهِيرٌ﴾ صيغ مبالغة.

﴿وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ عام بعد خاص، ذكر الملائكة بعد جبريل أحدهم اعتناء بشأن الرسول ﷺ ومناصرته.

المفردات اللغوية:

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾لِمَ تمنع نفسك من الحلال وهو العسل. ﴿تَبْتَغِى﴾ تطلب بالتحريم. ﴿مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ رضاهن. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غفر لك هذا التحريم، فإنه لا يجوز تحريم ما أحله الله، رحيم بك حيث لم يؤاخذك به، وعاتبك حفاظاً على عصمتك.

﴿فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ شرع لكم تحليل الأيمان بالكفارة المذكورة في سورة المائدة [الآية ٨٩]. قال مقاتل: أعتق النبي ﷺ رقبة، وقال الحسن: لم يكفِّر؛ لأنه ﷺ مغفور له. واحتج به من رأى التحريم يميناً، مع احتمال أنه ﷺ أتى بلفظ اليمين، كما قيل ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بما يصلحكم. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ المتقن في أفعاله وأحكامه.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ﴾ أي واذكر إذ أسرّ إلى حفصة على المشهور﴿حَدِيثًا﴾ هو تحريم العسل الذي كان يتناوله عند زينب بنت جحش، وأيلولة الخلافة من بعده لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما. ﴿نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ أخبرت حفصة عائشة بالحديث، ظناً منها ألا حرج في ذلك. ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أطلعه على المنبَّأ به وعلى إفشائه. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ عرف حفصة بعض ما فعلت وترك بعضه. ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ العالم بكل شيء، ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بما في السماء والأرض، لا تخفى عليه خافية.

﴿إِن تَتُوبَآ﴾ أي حفصة وعائشة، وجواب الشرط محذوف تقديره: تقبل. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ مالت القلوب عما يجب للنّبي ﷺ عليهما من التوقير والتعظيم، بحب ما يحبه، وكراهية ما يكرهه. ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ﴾ تتظاهرا وتتعاونا على النّبي بما يسوؤه ويؤذيه أو يكرهه. ﴿مَوْلَىٰهُ﴾ وليه وناصره. ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مثل أبي بكر وعمر، هم ناصروه أيضاً، والمراد بالصالح: الجنس. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ ظهراء أعوان له وأنصار مساعدون، بعد نصر الله والمذكورين.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ هذا على التغليب أو تعميم الخطاب، أي عسى إن طلق النبي أزواجه أن يبدله (بالتشديد والتخفيف) أزواجاً خيراً منهن. ﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾مقرّات بالإسلام منقادات. ﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مصدقات مخلصات. ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ طائعات. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عن الذنوب. ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبدات لله متذللات لأمر الرسول ﷺ. ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائمات، سمي الصائم سائحاً؛ لأنه يسيح في النهار بلا زاد، أو مهاجرات. ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ مشتملات على الصنفين. ويلاحظ أنه بدأ في وصفهن بالإسلام وهو الانقياد، ثم بالإيمان وهو التصديق، ثم بالقنوت وهو الطواعية، ثم بالتوبة وهي الإقلاع عن الذنب، ثم بالعبادة وهي التلذذ بالمناجاة لله، ثم بالسياحة وهي كناية عن الصوم. وأما الثيوبة والبكارة فلا يجتمعان في امراة واحدة، لذا عطف أحدهما على الآخر، ولو لم يأت بالواو لاختل المعنى. وذكر الجنسين لأن في أزواجه ﷺ من تزوجها بكراً، وفيهن الثُّيَّاب.

سبب النزول:

نزول الآية (١ - ٢):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾: ذكر العلماء روايات في سبب نزول الآيتين، الصحيح منها كما ذكر ابن كثير وغيره أنهما نزلتا في تحريم العسل، كما قال البخاري عند هذه الآية.

أخرج البخاري ومسلم في الصحيحين عن عائشة أنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يحب الحَلْواء والعسل، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه، يمكث عند زينب بنت جحش، فيشرب عندها عسلاً، فتواطأتُ أنا وحفصة أنَّ أيّتنا دخل النبي ﷺ عليها، فلتقل له: إني أجد منك ريح مَغَافير[1]، أكلتَ

(١) المغافير: نبت كريه الرائحة، أي صمغ حلو له رائحة كريهة من شجر العُرْفُط في الحجاز.

مغافير، فقال: لا، بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود إليه، وقد حلفتُ، لا تخبري بذلك أحداً» .

وأخرج الطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺيشرب عند سَوْدة العسل، فدخل على عائشة، فقالت: إني أجد منك ريحاً، ثم دخل على حفصة، فقالت مثل ذلك، فقال: أراه من شراب شربته عند سودة، والله لا أشربه، فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

وتذكر الروايات في السيرة أن النّبي ﷺ حرم العسل أمام حفصة فأخبرت عائشة بذلك، مع أن النبي ﷺ استكتمها الخبر، كما استكتمها ما أسرَّها به من الحديث الذي يُسِرّها ويُسرّ عائشة، أن أباها وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتي من بعدي.

قال ابن العربي: إنما الصحيح أن التحريم كان في العسل، وأنه شربه عند زينب، وتظاهرت عليه عائشة وحفصة فيه، وجرى ما جرى، فحلف ألا يشربه، وأسرّ ذلك، ونزلت الآية في الجميع. وقال: أما ما روي أن الآية نزلت في الموهوبة (الواهبة نفسها للنبي) فهو ضعيف السند والمعنى، أما السند فرواته غير عدول، وأما المعنى فما يصح أن يقال: إن ردّ النبي ﷺ للهبة كان تحريماً، بل هو رفض لها، وللموهوب له شرعاً ألا يقبل الهبة. وأما ما روي عن أنه حرم على نفسه مارية القبطية، كما ذكر الدارقطني عن عمر، فهو وإن قرب من حيث المعنى، لكنه لم يدون في صحيح ولا نقله عدل[١].

نزول الآية (٥):

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ﴾ أخرج البخاري عن أنس قال: قال عمر: اجتمع نساء النّبي ﷺ في الغَيْرة عليه، فقلت: عسى ربّه إن طلقكنّ أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت هذه الآية.

---

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٨٣٣ - ١٨٣٤

وأخرج أيضاً عن أنس عن عمر قال: بلغني عن بعض أمهاتنا أمهات المؤمنين شدة على رسول الله ﷺ وأذاهنّ إياه، فاستقريتهنَّ امرأة امرأة أعظها، وأنهاها عن أذى رسول الله ﷺ وأقول: إن أبيتنّ أبدَله الله خيراً منكنّ، حتى أتيت على زينب، فقالت: يا ابن الخطاب، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، فأمسكت، فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية.

التفسير والبيان:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ أي يا أيها الرسول النبي، لماذا تمنع نفسك من بعض ما أباح الله لك، قاصداً إرضاء أزواجك، والله غفور لما فرط منك من تحريم ما أحل الله لك، وما تقدم من الزلّة، رحيم بك، فلا يعاقبك على ذنب تبت منه، ولم يؤاخذك به.

وهذا عتاب بطريق التلطف، مثل قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٩/٤٣]، وسمى الامتناع عن الحلال ذنباً، وهو مباح لغيره، تعظيماً لقدره الشريف، وإشارة إلى أن ترك الأولى بالنسبة إليه كالذنب، وإن لم يكن ذنباً في الواقع. والمراد بالتحريم: الامتناع من تناول العسل أو الاستمتاع ببعض الزوجات، وليس المراد اعتقاد كونه حراماً بعدما أحله الله؛ لأن تحريم الحلال كفر. قال القرطبي: والصحيح أنه معاتبة على ترك الأولى، وأنه لم تكن له صغيرة ولا كبيرة.

وتحريم الحلال يراه أبو حنيفة يميناً في كل شيء، حسبما ينوي، فإذا حرَّم طعاماً فقد حلف على أكله، وإذا حرَّم ملبساً أو شراباً أو شيئاً مباحاً، فهو بمنزلة اليمين، وإذا حرم امرأة فقد حلف يمين الإيلاء منها إذا لم يكن له نية، وإن نوى الظهار فظهار، وإن نوى الطلاق فطلاق بائن، وإن نوى عدداً معيناً في الطلاق كاثنتين أو ثلاث فعلى ما نوى.

ولا يراه الشافعي يميناً، ولكن سبباً في الكفارة في النساء وحدهن، وإن نوى الطلاق فهو رجعي. فإن حلف ألا يأكل شيئاً فخالف، حنث ويبرّ بالكفارة.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ أي شرع الله لكم تحليل أيمانكم بأداء الكفارة المقرر في سورة المائدة [الآية: ٨٩] وهي: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾

وبيَّن لكم ذلك، وليس لأحد أن يحرِّم ما أحل الله، فالتحليل والتحريم إلى الله سبحانه، فإن فعل الإنسان شيئاً من ذلك لا ينعقد ولا يلزم صاحبه، والله متولي أموركم وناصركم على الأعداء، وهو العليم بما فيه صلاحكم وفلاحكم، الحكيم في أقواله وأفعاله وتدبير أموركم.

وسبب إيراد آية التحليل هذه أن التحريم الذي كان من النبي ﷺ كان في الظاهر مقترناً بيمين، لظاهر الآية: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ﴾ فهو دليل على أن هناك يميناً تحتاج إلى التحلة، وأيد ذلك بعض الروايات، فتكون هذه الآية مناسبة لما قبلها باعتبار كون تحريم المرأة أو العسل يميناً، وهو يمين إيلاء من المرأة.

وهل كفَّر النبي ﷺ عن يمينه هذه؟ اختلف العلماء في ذلك، فقال الحسن البصري: إنه لم يكفِّر؛ لأنه كان مغفوراً له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، وإنما هو تعليم للمؤمنين. وفي هذا نظر؛ لأن الأحكام الشرعية عامة، ولم يقم دليل على التخصيص، لذا قال مقاتل: إنه -أي النبي- أعتق رقبة في تحريم مارية، ونقل عن الإمام مالك في المدونة أنه أعطى الكفارة.

أما تحريم الرجل لزوجته كأن يقول لها: أنتِ علي حرام أو الحلال علي

حرام دون استثناء شيء، ففيه كما ذكر ابن العربي[١] خمسة عشر قولاً[٢]، منها ما ذكرناه سابقاً أن أبا حنيفة يقول: إن نوى الطلاق أو الظهار كان ما نوى، وإلا كانت يميناً، وكان الرجل مولياً من امرأته.

وذهب الشافعي ومالك إلى أن ذلك ليس بيمين، لكن إن حرم الزوجة ونوى بالتحريم الطلاق، يقع الطلاق الرجعي.

وذهب مالك إلى أنه طلاق بائن يقع به ثلاث تطليقات.

وقال أبو بكر الصديق وعائشة والأوزاعي: إنه يمين تكفر.

ثم ذكر الدليل على إحاطة علم الله بكل شيء، فقال:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ أي واذكر حين أسرَّ النّبي ﷺ لزوجته حفصة حديثاً هو تحريم العسل أو مارية، أو أن أباها وأبا عائشة يكونان خليفتيه على أمته من بعده، فلما أخبرت به غيرها، وأطلع الله نبيه على ما وقع منها من إخبار غيرها، عرَّف حفصة بعض ما أخبرت به، وأعرض عن تعريف بعض ذلك.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي فحينما أخبرها بما أفشت من الحديث قالت: من أخبرك به؟ قال أخبرني به الله الذي لا تخفى عليه خافية، فهو العليم بالسر، الخبير بكل شيء في السماء والأرض.

ثم وجهّ الله تعالى زوجتي النبي ﷺ: حفصة وعائشة إلى التوبة وعاتبهما قائلاً:

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي إن تتوبا إلى الله، فتكتما السر،

(١) أحكام القرآن: ٤/ ١٨٣٥ وما بعدها.

(٢) وذكر القرطبي في تفسيره (٨/ ١٨٠) ثمانية عشر قولاً.

وتحبّا ما أحبه رسول الله ﷺ، وتكرها ما كرهه، قبلت توبتكما من الذنب وكان خيراً لكما، فقد عدلت قلوبكما ومالت عن الحق والخير، وهو حق تعظيم الرسول ﷺ وصون سره وتكريمه.

والخطاب لحفصة وعائشة، لما أخرج أحمد في مسنده عن ابن عباس أنه قال: لم أزل حريصاً على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج النبي ﷺ اللتين قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق، عدل عمر وعدلت معه بالإداوة فتبرَّز، ثم أتاني، فسكبت على يديه، فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾؟ فقال عمر: واعجباً لك يا ابن عباس، هما عائشة وحفصة.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ أي وإن تتعاضدا وتتعاونا على ما يسوؤه ويؤذيه بسبب الغَيرة والرغبة في إفشاء سره، فإن الله يتولى نصره، وكذلك جبريل وصالح المؤمنين كأبي بكر وعمر، والملائكة بعد نصر الله له ونصر جبريل والمؤمنين الصالحين أعوان له وحراس وحفظة. وقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ تعظيم للملائكة ومظاهرتهم.

ولم نر مثل هذا العون والعصمة والتأييد الرباني لأحد من الأنبياء والرسل وسائر البشر، للمبالغة في تعظيم شأن النبي ﷺ، والتخلص من مكر النساء، وتبديد أوهام المشركين والمنافقين من محاولات الكيد والأذى وإلحاق الضرر

ثم أنذرهما الله وحذرهما مع بقية الأزواج، فقال تعالى:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ

تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾﴾[1] أي لله القدرة البالغة، فإنه قادر إن وقع من النبي الطلاق أن يبدله أزواجاً خيراً وأفضل منكن، قائمات بفروض الإسلام، كاملات الإيمان والتصديق بالله وملائكته وكتبه ورسله، مطيعات لله تعالى ورسولهﷺ، تائبات من الذنوب، مواظبات على عبادة الله متذللات له، صائمات، بعضهن ثيِّبات، وبعضهن أبكاراً. والثيب: هي المرأة التي قد تزوجت، ثم طلقها زوجها أو مات عنها. والبكر: هي العذراء. قال الكلبي: أراد بالثيب مثل آسية امرأة فرعون، وبالبكر مثل مريم بنت عمران. وهذا مأخوذ من أحاديث ضعيفة، ومبني على أن الوعد بالتبديل في الآخرة فقط.

ويلاحظ أن جميع هذه الصفات يمكن اجتماعها في موصوف واحد، ما عدا الوصفين الأخيرين، لذا عطفا بالواو، للدلالة على التغاير أو التباين في الوصفين، والعطف يقتضي المغايرة.

والآية تتضمن غاية التهديد والوعيد على محاولات إيذاء النبي ﷺ، فإنه لا شيء أشد وأقسى على المرأة من الطلاق، والعزم على التزوج بزوجة أخرى، فذلك قاسم للظهر، مؤرِّق للبال، محطم دائم للشعور الذاتي بالسعادة في الحياة. وفي الآية أيضاً وعد من الله لنبيه ﷺ أن يزوجه بما يريد، قيل: في الدنيا، وقيل: في الآخرة، والأولى الجمع بين الحالتين.

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

أً- عاتب الله تعالى نبيه ﷺ على الامتناع من تناول ما أحل الله، فلا ينبغي

---

(١) عسى في القرآن: يجب تحقق ما بعدها إلا هذه، وقيل: وهنا أيضاً واجب، ولكنه معلق بشرط التطليق.

لأحد تحريم المباح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/٨٧] . قال الشعبي: كان مع الحرام يمين، فعوتب في الحرام، وإنما يكفر اليمين فذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾. وهذا العتاب دليل قاطع بأن القرآن من عند الله؛ إذ لا يعقل ولا يؤلف أن يعاتب الإنسان نفسه، أو يخبر عن نزاع خاص في بيته يظل خبراً متلواً دائماً.

٢- إن مجرد الامتناع عن تناول الشيء المأكول أو المشروب من غير حلف ليس يميناً، ولا يحرِّم قول الرجل: (هذا علي حرام) إلا الزوجة لزوجة، فيكون إيلاء منها. وهذا رأي الجمهور. وقال أبو حنيفة: إن تحريم المأكول والمشروب والملبوس والشيء المباح يكون يميناً توجب الكفارة. وإذا حرم امرأة، فقد حلف يمين الإيلاء منها، كما تقدم.

والحقيقة: ليس في الموضوع نص يعتمد عليه، فمن تمسك بالبراءة الأصلية قال: لا حكم، فلا يلزم بها شيء، ومن قال: إنها يمين، قال: سماها الله يميناً. ومن قال: تجب فيها كفارة وليست بيمين، اعتمد على أحد أمرين: أحدهما- أنه ظن أن الله تعالى أوجب الكفارة فيها، وإن لم تكن يميناً، والثاني- أن معنى اليمين عنده التحريم، فوجبت الكفارة على المعنى.

ومن قال: إنها طلقة رجعية، فإنه حمل اللفظ على أقل وجوهه، والرجعية محرَّمة الوطء. ومن قال: إنها ثلاث، حمل اللفظ على أكبر معناه وهو الطلاق الثلاث. ومن قال: إنه ظهار؛ لأنه أقل درجات التحريم، فإنه تحريم لا يرفع النكاح. ومن قال: إنه طلقة بائنة، فاعتمد على أن الطلاق الرجعي لا يحرِّم المطلَّقة، وأن الطلاق البائن يحرِّمها[1].

٣- تحليل اليمين كفارتها، والظاهر أن النبي ﷺ حلف، مع الامتناع عن تناول العسل، وأنه في الأصح كفَّر عن يمينه. والكفارات تجبر الخلل الحاصل.

---

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ١٨٣

وإن حرم الرجل أمته أو زوجته، فكفارة يمين، لما أخرج مسلم في صحيحه عن ابن عباس قال: "إذا حرَّم الرجل عليه امرأته، فهي يمين يكفّرها" وقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٢١] .

٤ً- للنساء بسبب الغَيْرة الفطرية الشديدة التأثير مواقف غريبة وعجيبة من بعضهن بعضاً.

٥ً- يصعب على النساء كتمان السر، فقد أسر النبي ﷺ لزوجته حفصة تحريم العسل أو مارية على نفسه، أو أمر الخلافة من بعده لأبي بكر وعمر، واستكتمها السر، فأباحت به لعائشة.

٦ً- يغفل الإنسان غالباً عن أن الله عالم خبير به وبأحواله، فيتصرف تصرفات الغافل غير الواعي ولا المدرك لما يفعل، ولا يحسب الحساب اللازم لمن يراه ويحاسبه على أعماله. وهذا ما كان من حفصة التي فاجأها النبي ﷺ بما فعلت، وأعلمها بأن الله أخبره بذلك.

٧ً- القرآن تهذيب وتربية وتعليم، لذا حث الله سبحانه حفصة وعائشة على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى مخالفة محبة رسول الله ﷺ، وتعظيم شأنه وإعلاء قدره وصون سره. فقد زاغت ومالت قلوبهما عن الحق، وهو أنهما أحبَّتا ما كَرِه النبي ﷺ من اجتناب جاريته، واجتناب العسل، وكان ﷺ يحب العسل والنساء، محبة فيها اعتدال وإعزاز وإكرام للنساء.

٨ً- هدد الله حفصة وعائشة بأنهما إن تتظاهرا وتتعاونا على النبي ﷺ بالمعصية والإيذاء، فهناك حملة صون وحفظ وعصمة وحراسة له من الله والملائكة وجبريل والمؤمنين الصالحين، كأبي بكر وعمر أبوي عائشة وحفصة.

٩ً- وهددهما بتهديد آخر أشد ألماً ووقعاً على النفس، وهو إن طلقهما وطلَّق زوجاته، أبدله الله زوجات خيراً وأفضل منهن في الدنيا والآخرة. وهذا

وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ، وإخبار عن القدرة الإلهية وتخويف لهم، مع علمه تعالى بأنه لا يطلقهن.

وأوصاف النساء اللاتي يبدله الله بدلاً عن زوجاته الحاليات في غاية الكمال، وهي كونهن مسلمات لأمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، مصدقات بما أُمرن به ونُهين عنه، ميطعات، تائبات من ذنوبهن، كثيرات العبادة لله تعالى، صائمات أو مهاجرات، ثيّبات وأبكاراً، أي منهن ثيِّب، ومنهن بِكْر.

١٠أ- حينما أفشت حفصة السر لعائشة، آلى رسول الله ﷺ لا يدخل على نسائه شهراً، فاعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة، فأنزل الله عز وجل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ الآية، وهذا ما رواه الدارقطني عن ابن عباس عن عمر أن النبي ﷺحرَّم على نفسه مارية.

وروى مسلم في صحيحه قصة طويلة مفادها: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه، وقال الناس في المسجد: طلّق رسول الله ﷺ نساءه، وذلك قبل الأمر بالحجاب، دخل عمر على كل من عائشة وحفصة يعاتبهما على إيذائهما رسول الله ﷺ.

ثم دخل على رسول الله ﷺ، وهو مضطجع على حصير، فجلس، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه، فقال عمر: فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلِها قَرَظاً[1] في ناحية الغرفة، وإذا أفِيقٌ[2] معلَّق، قال: فابتدرتْ عيناي، قال: « ما يبكيك يا ابن الخطاب؟ قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثّر في جنبك، وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى! وذاك قَيْصرُ وكسْرى في الثمار والأنهار،

---

(١) القرظ: ورق السَّلَم يدبغ به.

(٢) الأفيق: هو الجلد الذي لم يتم دباغه.

وأنت رسول الله وصفوتُه، وهذه خزانتك! فقال: يا ابن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة، ولهم الدنيا؟! قلت: بلى ».

الوقاية من النار والتوبة النصوح وجهاد الكفار

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾

القراءات:

﴿ ٱلنَّبِيَّ ﴾:

وقرأ نافع (النبيء).

﴿ وَمَأۡوَىٰهُمۡ ﴾:

وقرأ السوسي، وحمزة وقفاً (وماواهم).

﴿ وَبِئۡسَ ﴾:

وقرأ ورش، والسوسي، وحمزة وقفاً (وبيس).

الإعراب:

﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ ﴿ قُوٓاْ ﴾: فعل أمر من (وقى، يقي) وأصله (أوقيوا) بوزن أفعلوا، فحذفت الواو. كما حذفت من (يقي) لوقوعها بين ياء وكسرة.

﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ ﴿مَآ أَمَرَهُمۡ﴾: بدل من لفظ الجلالة، أي لا يعصون أمر الله. ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ إنما قال: ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ ولم يقل (نصوحة) على النسب، كما قالوا: امرأة صبور وشكور، على النسب. وقرئ (نُصوحاً) بضم النون، وهو مصدر كالذهوب والجلوس والفسوق.

البلاغة:

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ مجاز مرسل، من قبيل ذكر المسَّبب وإرادة السبب، أي لازموا على الطاعة، لتقوا أنفسكم وأهليكم من عذاب الله.

المفردات اللغوية:

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ اجعلوا لأنفسكم وقاية من النار بترك المعاصي وفعل الطاعات، واحملوا أهليكم على ذلك بالنصح والتأديب، ﴿وَقُودُهَا﴾ ما توقد به النار. ﴿ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ بجعلهما ناراً تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب، والمراد بالناس: الكفار، والحجارة: الأصنام التي تعبد، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ٩٨﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٨].

﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ خزنة وعدتهم تسعة عشر، كما في سورة المدثر (الآية ٣٠). ﴿غِلَاظٞ﴾ غلاظ الخَلْق والطباع. ﴿شِدَادٞ﴾ أقوياء البدن على الأفعال الشديدة. ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ لا يعصون أمر الله في الماضي. ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ في المستقبل، وهو تأكيد لما سبق. قال الجلال المحلي: والآية تخويف للمؤمنين عن الارتداد، وللمنافقين المؤمنين بألسنتهم دون قلوبهم.

﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يقال لهم ذلك عند دخولهم النار، أي لأنه لا ينفعكم الاعتذار، أو لأنه لا عذر لكم. ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي جزاء عملكم.

﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ صادقة، بالغة في النصح، وهي الندم على ما فات، والعزم على عدم العود إلى مثله في المستقبل. سئل علي رضي الله عنه عن التوبة، فقال: يجمعها ستة أشياء: على الماضي من الذنوب الندامة، والفرائض الإعادة، ورد المظالم، واستحلال الخصوم، وأن تعزم على ألا تعود، وأن تربي نفسك في طاعة الله كما ربَّيتها في المعصية.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ عسى من الله تدل على وجوب الوقوع، وذكر بصيغة الإطماع جرياً على عادة الملوك، وإشعاراً بأنه تفضل، وأن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء. ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ بساتين. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾ يوم ظرف متعلق بـ ﴿وَيُدْخِلَكُمْ﴾ و﴿لَا يُخْزِى﴾: لا يفضح. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمامهم، أي يسعى بهم نور الإيمان على الصراط. ﴿يَقُولُونَ﴾ كلام مستأنف جديد. ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾ إلى الجنة، أما المنافقون فيطفأ نورهم. ﴿وَٱغْفِرْ لَنَآ﴾ واسترنا يا ربنا.

﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾بمختلف أنواع الأسلحة كالسيف وغيره. ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي وجاهدهم باللسان والحجة، فالجهاد يكون تارة بالسيف، وتارة بالحجة والبرهان. ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾اشتد عليهم بالانتهار والمقت والقتل بحق. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ مكان الإيواء والإقامة.

المناسبة:

بعد أن أمر الله نساء النبي ﷺ بالتوبة عما حدث من الزلات، وحذرهم من مخالفته ووعظهم وأدبهم وهددهم بالطلاق، أمر المؤمنين بطائفة من المواعظ والنصائح، وأولها وقاية أنفسهم وأهليهم من النار بترك المعاصي وفعل الطاعات، ثم أخبر الكفار بما يقال لهم يوم دخولهم النار: لا عذر لكم، ثم أمر المؤمنين بالتوبة الخالصة النصوح من الخطايا والذنوب، وتوَّج جميع ذلك بالأمر بجهاد الكفار المعتدين، والمنافقين المتسترين، والمجاهدة قد تكون بالقتال، وقد تكون بالحجة والبرهان، ثم يكون جزاء الفريقين النار.

التفسير والبيان:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ أي يا أيها الذين صدّقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، أدبوا أنفسكم وعلموها، واتخذوا لها وقاية من النار، وحافظوا عليها بفعل ما أمركم به وترك ما نهاكم عنه، وعلِّموا أهليكم وأمروهم بطاعة الله وانهوهم عن معاصيه، وانصحوهم وأدبوهم حتى لا تصيروا معهم إلى النار العظيمة الرهيبة التي تتوقد بالناس وبالحجارة، كما يتوقد غيرها بالحطب. قال قتادة: تأمرهم بطاعة الله وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتأمرهم به، وتساعدهم عليه، فإذا رأيت معصية، قذَعتهم عنها، وزجرتهم عنها.

ونظير الآية قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ٢٠/ ١٣٢] وقوله سبحانه مخاطباً نبيه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢١٤]. وروى جماعة من أهل الحديث (أحمد وأبو داود والحاكم) عن عبد الله ابن عمرو عن النبي ﷺ: « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرِّقوا بينهم في المضاجع ». وقال: فيما رواه الترمذي والحاكم عن عمرو بن سعيد بن العاصي: «ما نحل والد ولده أفضل من أدب حسن» .

وروى أحمد وأبو داود والترمذي من حديث عبد الملك بن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده (أي سمرة بن جندب) قال: قال رسول الله ﷺ: «مُروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين، فاضربوه عليها» . وقال الضحاك ومقاتل: حق على المسلم أن يعلِّم أهله من قرابته وإمائه وعبيده ما فرض الله عليهم، وما نهاهم الله عنه. وقال ابن جرير: فعلينا أن نعلّم أولادنا الدين والخير وما لا يستغنى عنه من الأدب.

والمراد بالناس الكفار، وبالحجارة: الأصنام التي تعبد من دون الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ٩٨] ، والأهل: هم الزوجة والأولاد والخدَم.

والآية دليل على أن المعلِّم يجب أن يكون عالماً بما يأمر به وما ينهى عنه.

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي على النار خزنة من الملائكة يلون أمرها وتعذيب أهلها، غلاظ أطباعهم، قد نُزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله، شداد عليهم، تركيبهم في غاية الشدة والصلابة والمنظر المزعج، لا يرحمونهم إذا استرحموهم، إنما خلقوا للعذاب، عددهم تسعة عشر ملكاً هم زبانيتها كما جاء في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٧٤/ ٣٠] يتميزون بالطاعة الكاملة لله ربهم، فهم لا يخالفون أوامر الله تعالى، يؤدُّون ما يؤمرون به في وقته المحدد له من غير تراخ، فلا يؤخرونه عنه ولا يقدّمونه، وهم قادرون على الفعل، ليس بهم عجز عنه.

وفائدة الإتيان بالجملتين: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أن الأولى في الماضي، ولبيان الطواعية، فإن عدم العصيان يستلزم امتثال الأمر، ولنفي الاستكبار عنهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٩] والثانية للمستقبل وفورية التنفيذ والامتثال ونفي التراخي والكسل عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/ ١٩].

ثم وعظ المؤمنين بما يقال للكافرين عند دخولهم النار، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ أي يقال للكفرة عند إدخالهم النار يوم القيامة، تأييساً لهم وقطعاً لأطماعهم: لا تعتذروا، فإنه لا يقبل منكم العذر، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون في الدنيا، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا.

والمراد بهذا أن الدنيا دار جهاد وعمل صالح، والآخرة دار مقر وجزاء، والدنيا مزرعة الآخرة، فإن زرع فيها أو غرس الزرع أو الغرس الصالح، جنى طيباً، وإن زرع أو غرس نباتاً أو شجراً رديئاً، حصد ما فعل.

وبما أن العذر أو التوبة لا يفيدان في الآخرة، أرشد المؤمنين إلى طريق التوبة النصوح، فقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله تعالى ورسوله ﷺ، ارجعوا إلى الله تعالى، وتوبوا إليه توبة خالصة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات: وهي الندم بالقلب على ما مضى من الذنب، والاستغفار باللسان، والإقلاع بالبدن، والعزم على ألا يعود، لعل الله أن يمحو سيئات أعمالكم التي اقترفتموها، ويدخلكم بساتين تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، حين لا يعذب ولا يذل ولا يفضح الله نبيه محمداً ﷺ، ولا يعذب ولا يذل الذين آمنوا به واتبعوا شريعته، بل يكرمهم ويُعزّهم.

وكلمة ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ كما قال الزمخشري: إطماع من الله لعباده، وفيه وجهان:

أحدهما- أن يكون على ما جرت به عادة الجبابرة من الإجابة لعسى ولعل، ووقوع ذلك منهم موقع القطع والبت، فإنهم إذا أرادوا فعلاً يقولون: عسى أن نفعل كذا.

والثاني- أن يجيء به تعليماً للعباد أن يكونوا بين الخوف والرجاء.

والخلاصة: إن ﴿عَسَىٰ﴾ من الله موجبة تفيد التحقق.

وقوله: ﴿لَا يُخْزِى﴾ تعريض لمن أخزاهم من أهل النار: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٢].

قال العلماء: التوبة النصوح: هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على ألا يفعل في المستقبل.

روى الإمام أحمد وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«الندم توبة»، وثبت في الصحيح: «الإسلام يجبُّ ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها».

ثم ذكر الله تعالى أثر الإيمان، فقال:

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي إن نور المؤمنين يضيء لهم طريقهم، ويسعى أمامهم وعن أيمانهم حال مشيهم على الصراط، كما جاء في سورة الحديد: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [٢٨]، ويدعو المؤمنون حين يطفئ الله نور المنافقين يوم القيامة، قائلين تقرباً إلى الله: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾، أي أبقه لنا، فلا ينطفئ حتى نتجاوز الصراط، واستر ذنوبنا وتجاوز عن سيئاتنا، ولا تفضحنا بالعقاب عليها حين الحساب، فإنك على كل شيء قدير، ومنه إتمام نورنا، وغفران ذنوبنا، وتحقيق رجائنا وآمالنا، فأجب دعاءنا.

ثم أمر الله نبيه ﷺ بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة، فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ أي يا أيها الرسول النبي قاتل الكفار بالسيف، والمنافقين بالحجة والبرهان وإقامة الحدود عليهم إذا ارتكبوها، وشدِّد عليهم في الدعوة في الإسلام في الدنيا، واستعمل العنف والقسوة والشدة مع الفريقين فيما تجاهدهما به من القتال والمحاجة والوعيد، لذا أمر النبي ﷺ بطرد بعض المنافقين من الجامع قائلاً: اخرج يا فلان، اخرج يا فلان. وهذا عذابهم في الدنيا.

وسيكون مقر الفريقين ومسكنهما في الآخرة جهنم، وبئس المرجع والمثوى والمقيل.

فقه الحياة أو الأحكام:

أرشدت الآيات الكريمات إلى ما يلي:

١- أمر الله- والأمر للوجوب - بأن يقي المؤمنون أنفسهم النار بأفعالهم، وأهليهم بالنصح والوعظ والإرشاد. وهذا يتطلب الالتزام التام بأحكام الشرع أمراً ونهياً، وترك المعاصي وفعل الطاعات، ومتابعة القيام بالأعمال الصالحة، وحث الزوجة والأولاد على أداء الفرائض واجتناب النواهي، ومراقبتهم المستمرة في ذلك.

٢- عذاب المخالفين من الكفار والعصاة عذاب شديد في نار جهنم التي تتقد بالناس والحجارة، ويقوم بأمرها ملائكة تسعة عشر هم الملائكة الزبانية غلاظ القلوب، لا يرحمون إذا استُرْحِموا، خُلقوا من الغضب، وحُبِّب إليهم عذاب الخلق، كما حُبِّب لبني آدم أكل الطعام والشراب، شداد الأبدان والأفعال، غلاظ الأقوال، لا يخالفون أمر الله بزيادة أو نقصان، ويفعلون ما يؤمرون به في وقته، فلا يؤخرونه ولا يقدّمونه.

٣- لا تقبل التوبة من أحد من الكفار يوم القيامة، ولا يقبل منهم العذر، وسيجزون بأعمالهم التي عملوها في الدنيا، وكون عذرهم لا ينفع، والنهي عن الاعتذار لتحقيق اليأس، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٣٠/٥٧] .

٤- أمر الله بالتوبة، وهي فرض على الأعيان في كل الأحوال وكل الأزمان، والتوبة المطلوبة هي التوبة البالغة في النصح والصدق، وهي كما ذكر النووي التي تستجمع ثلاثة أمور: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على ألا يعود إلى مثلها أبداً.

وقال العلماء: الذنب الذي تكون منه التوبة لا يخلو، إما أن يكون حقاً لله

أو للآدميين، فإن كان حقاً لله كترك الصلاة، فإن التوبة لا تصح منه حتى ينضم إلى الندم قضاء ما فات منها، وهكذا إن ترك صوماً أو فرط في الزكاة. وإن كان ذلك ما يوجب القصاص أو الحد الذي فيه حق لآدمي كالقذف، وطلب منه، مكّن نفسه من العقوبة، إلا إذا عفي عنه، فيكفيه الندم والعزم على ترك العود بالإخلاص، أما إن كان الحد من الحدود الخالصة لله كالزنى والشرب، فيسقط عنه إذا تاب إلى الله تعالى بالندم الصحيح، وقد نص الله تعالى على سقوط الحد عن المحاربين إذا تابوا قبل القدرة عليهم، ولا يسقط عنهم إذا تابوا بعد القدرة عليهم.

فإن كان الذنب من مظالم العباد فلا تصح التوبة منه إلا برده إلى صاحبه والخروج عنه - عيناً كان أو غيره - إن كان قادراً عليه، فإن لم يكن قادراً، فالعزم أن يؤديه إذا قدَر في أعجل وقت وأسرعه.

وإن كان أضرّ بواحد من المسلمين، فإنه يزيل ذلك الضرر عنه، ثم يسأله أن يعفو عنه ويستغفر له، فإذا عفا عنه، فقد سقط الذنب عنه.

وإن أساء إلى رجل بأن فزّعه بغير حق، أو غمّه، أو لطمه، أو صفعه بغير حق، أو ضربه بسوط فآلمه، ثم استعفى منه، حتى طابت نفسه، فعفا عنه، سقط عنه ذلك[1].

٥ً- يقبل الله التوبة النصوح من التائب، ويكفر عنه سيئاته، ويدخله الجنان؛ لقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾ وعسى من الله واجبة، وقوله ﷺ فيما رواه البيهقي في شعب الإيمان وابن عساكر عن ابن عباس، وهو ضعيف: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له» .

٦ً- إن للإيمان نوراً يمشي بصاحبه على الصراط، ويسعى به إلى النجاة،

(١) تفسير القرطبي: ١٨/ ١٩٩ - ٢٠٠

ويدعو المؤمنون في الآخرة حين يطفئ الله نور المنافقين بقولهم: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. وطلب المغفرة لا يعني أن الذنب لازم لكل إنسان، وإنما التقصير لازم لكل مؤمن.

٧- أمر الله نبيه أن يجاهد الكفار بالسيف والمواعظ الحسنة والدعاء إلى الله، ويجاهد المنافقين بالغلظة وإقامة الحجة، وأن يعرفهم أحوالهم في الآخرة، وأنهم لا نور لهم يجوزون به الصراط مع المؤمنين، علماً بأن مأوى الصنفين جهنم، وبئس المرجع.

أمثلة من النساء المؤمنات والكافرات

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾

القراءات:

﴿ٱمْرَأَتَ﴾، ﴿ٱبْنَتَ﴾:

رسمت بالتاء، فوقف عليها بالهاء: ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي.

ووقف الباقون بالتاء.

﴿وَقِيلَ﴾:

بإشمام كسرة القاف الضم، قرأ الكسائي، وقرأ الباقون بالكسرة الخالصة.

﴿وَكُتُبِهِۦ﴾:

قرأ حفص، وأبو عمرو (وكتبه)، وقرأ الباقون (وكتابه).

الإعراب:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ ﴿مَثَلًا﴾ و﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ مفعولا﴿ضَرَبَ﴾، وقيل: ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ بدل من (مثل) على تقدير حذف مضاف، تقديره: مثل امرأة نوح، ثم حذف﴿مَثَلًا﴾ الثاني لدلالة الأول عليه.

وكذلك القول في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ .﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ منصوب بالعطف على﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾.

البلاغة:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ و﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقابلة بين المثلين، لتكون النساء في الإخلاص كالمؤمنتين، لا كالكافرتين الخائنتين.

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ فيه تغليب الذكور على الإناث.

﴿ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ سجع مرصّع.

المفردات اللغوية:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ أي أورد حالة غريبة لمعرفة حال أخرى مشابهة لها في الغرابة .﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ﴾ أي في عصمتهما .﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنفاق في أمر الدين، إذ كفرتا، وكانت امرأة نوح واسمها واغلة أو واعلة تقول لقومه: إنه مجنون، وامرأة لوط واسمها والهة أو واهلة تدل قومه على أضيافه، بإيقاد النار ليلاً، وبالتدخين نهاراً .﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا﴾لم يفيداهما أي نوح ولوط. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ من عذابه .﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أي قيل لهما: ادخلا

النار مع كفار قوم نوح وقوم لوط. وهذا تمثيل حالهم في إيقاع العقاب بهم بكفرهم دون مجاملة أو محاباة للنبي ﷺ والمؤمنين بنسب أو غيره.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ شبه حالهم في عدم التأثر ببيئة الكفر وعمالقة الكافرين وأن صلة الكفر لم تضرهم بحال آسية امرأة فرعون، واسمها آسية بنت مزاحم، وهي عمة موسى آمنت به، فعذبها عذاباً شديداً لصدها عن الإيمان. ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ في حال التعذيب: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ قريباً من رحمتك أو في أعلى درجات المقربين. ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ خلصني من طغيان فرعون وتعذيبه وعمله الشنيع. ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هم أقباط مصر الوثنيون التابعون لفرعون في الظلم.

﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ حفظته وصانته من الرجال، والمراد به كونها عفيفة. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ في الفرج. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ أي من روح خلقناه بلا توسط أب، قال الزمخشري: ومن بدع التفاسير: أن الفرج جيب الدِّرع (القميص). ومعنى (أحصنته) منعته جبريل، وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها، تسليةً للأرامل وتطييباً لأنفسهن. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ آمنت بشرائعه وكتبه التي أنزلها على رسله. ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ من عداد الطائعين المواظبين على الطاعة.

المناسبة:

بعد الحض على التوبة النصوح والإيمان والإخلاص وجهاد الأعداء، ضرب الله مثلين رائعين فذّين لأهل الكفر وأهل الإيمان، لبيان حال الكافرين بطريق التمثيل أنهم يعاقبون على كفرهم وعداوتهم للمؤمنين معاقبة أمثالهم من غير مراعاة نسب أو زوجية أو قرابة أو محاباة، فتعاقب امرأة نوح وامرأة لوط اللتان كانتا في بيت النبوة، ولكنهما كفرتا بالله وبالنبي، فلم تفدهما الرابطة الزوجية من عذاب الله شيئاً.

وجاء المثل الثاني الأروع للمؤمنين والمؤمنات للإشارة إلى أن من واجبهم أن يكونوا في الإخلاص وصدق العزيمة وقوة اليقين كهاتين المؤمنتين: آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، لا الكافرتين اللتين حين خانتا زوجيهما، لم يغنيا عنهما من عذاب الله شيئاً.

التفسير والبيان:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ أي جعل الله مثلاً لحال الكفار في مخالطتهم المسلمين ومعاشرتهم لهم أنه لا يغني أحد عن أحد، وأن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً، ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم، فمجرد الخلطة أو النسب أو الزوجية لا فائدة فيها ما دام الشخص كافراً.

وذلك المثل أن امرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام، كانتا في عصمة نكاح نبيين رسولين، وفي صحبتهما ليلاً ونهاراً، يؤاكلانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط، لكنهما خانتاهما في الإيمان والدين، فلم تؤمنا بهما، ولا صدّقتاهما في الرسالة، فلم ينفعهما نوح ولوط بسبب كونهما زوجتين لهما شيئاً من النفع، ولا دفعا عنهما من عذاب الله، ولا دفعا عنهما محذوراً، مع كرامتهما على الله، وحاق بهما سوء العذاب والعقاب.

قيل: كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر قومه بأضيافه ليفجروا بهم.

وقيل للمرأتين في الآخرة عند دخول النار: ادخلا النار مع الداخلين فيها من أهل الكفر والمعاصي، جزاء كفرهما وسيئاتهما.

وهذا تعريض بأميّ المؤمنين، وهما حفصة وعائشة، لما فرط منهما، وتحذير

وتخويف لهما ولغيرهما بأنه لا يفيدهن شيئاً زواجهن بالنبي ﷺ إن عصين الله تعالى. قال يحيى بن سلام: هذا يحذر به عائشة وحفصة من المخالفة لرسول الله ﷺ حين تظاهرتا عليه، ببيان أنهما، وإن كانتا تحت عصمة خير خلق الله تعالى، وخاتم رسله، فإن ذلك لا يغني عنهما من الله شيئاً. وقد عصمهما الله عن ذنب تلك المظاهرة بما وقع منهما من التوبة الصحيحة الخالصة.

ثم ضرب الله مثلاً آخر للمؤمنين بامرأتين أخريين يرشد إلى عكس المثل السابق أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانو محتاجين إليهم، فقال عن المرأة الأولى:

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ أي وجعل الله مثلاً آخر للمؤمنين حال امرأة فرعون آسية بنت مزاحم وعمة موسى عليه السلام، آمنت بموسى حين سمعت قصة إلقائه عصاه، فعذبها فرعون عذاباً شديداً بسبب الإيمان، فلم تتراجع عن إيمانها، مما يدل على أن صولة الكفر لا تضر المؤمنين. كما لم تضر امرأة فرعون، وقد كانت تحت أكفر الكافرين، وصارت بإيمانها بالله في جنات النعيم.

وذلك حين قالت: يا رب ابن لي بيتاً قريباً من رحمتك في أعلى درجات المقرَّبين منك، ونجني من ذات فرعون ومما يصدر عنه من أعمال الشر، وخلصني من القوم الظالمين هم كفار القبط.

قال قتادة: كان فرعون أعتى أهل الأرض وأكفرهم، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها، ليعلموا أن الله تعالى حكم عدل، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه.

وقال ابن جرير: كانت امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة.

والآية دليل على صدق إيمان امرأة فرعون بالله وبالبعث، وبالجنة والنار، وبأن العمل الصالح طريق الجنة، والعمل السيئ سبب النار. وهي دليل آخر على أن الاستعاذة بالله من الأشرار دأب الصالحين.

وقال عن المرأة الثانية:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران أم عيسى عليهما السلام، جمع الله لها بين كرامة الدنيا والآخرة، واصطفاها على نساء العالمين في عصرها، مع كونها بين قوم عصاة، صانت فرجها عن الرجال والفواحش، فهي مثال العفة والطهر، فأمر الله جبريل أن ينفخ في فرجها، وقال بعض المفسرين وهو من بدعهم: في جيب الدرع (القميص) فحملت بعيسى، وصدّقت بشرائع الله التي شرعها لعباده، وبصحفه التي أنزلها على إدريس وغيره، وبكتبه الكتب الأربعة الكبرى المنزلة على الأنبياء، وما خاطبها به الملَك، وهو قول جبريل لها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩/١٩] ، وما أخبرها به من البشارة بعيسى وكونه من المقرَّبين كما في سورتي آل عمران (الآيات ٤٢-٤٨) ومريم (الأيات ١٦-٣٦) وكانت من القوم المطيعين لربهم، كان أهلها أهل بيت صلاح وطاعة، ومن عداد الناسكين العابدين المخبتين لربهم.

روى أحمد عن ابن عباس قال: «خطّ رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط، وقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ: أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خُوَيلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون» .

وثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «كمُل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران،

وخديجة بنت خويلد، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» .

فقه الحياة أو الأحكام:

دلت الآيات على ما يأتي:

١ - دل المثل الأول للكافرين على أنه لا يغني أحد في الآخرة عن قريب ولا نسيب إذا فرّق بينهما الدِّين. فقد كانت امرأة نوح وامرأة لوط كافرتين، فلم يفدهما شيئاً من عذاب الله نوح ولا لوط مع كرامتهما على الله تعالى، كانت امرأة نوح تقول للناس: إنه مجنون، وكانت امرأة لوط تخبر بأضيافه. وكانت خيانتهما في الدين وكانتا مشركتين. قال ابن عباس: ما بَغَت امرأة نبي قط.

وهذا المثل تعريض لحفصة وعائشة أنهما إن صدرت منهما معصية، لن يفيدهما كونهما من زوجات النبي ﷺ لدفع العذاب. ويقال: إن كفار مكة استهزؤوا وقالوا: إن محمداً ﷺ يشفع لنا؛ فبين الله تعالى أن شفاعته لا تنفع كفّار مكة، وإن كانوا أقرباء، كما لا تنفع شفاعة نوح لامرأته، وشفاعة لوط لامرأته، مع قربهما لهما لكفرهما.

ويقال في الآخرة لامرأتي نوح ولوط: ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ كما يقال لكفار مكة وغيرهم.

٢ - ودل المثل الثاني للمؤمنين على أن الاختلاط بالكفار لا يضر، ما دام الاعتصام بالله والإيمان هو السمة المهيمنة على المؤمن، وهو مثل ضربه الله يحذر به عائشة وحفصة عن المخالفة حين تظاهرتا على رسول الله ﷺ.

وكان المثل بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران، ترغيباً في التمسك بالطاعة والثبات على الدّين، وحثاً للمؤمنين على الصبر في الشدة، كصبر آسية على أذى فرعون، وكانت آسية آمنت بموسى، وصبر السيدة مريم البتول على أذى

اليهود واتهامها بالفاحشة، فصبر المؤمن والمؤمنة على الذى ينجي من القوم الظالمين، والترقب إلى الله يكون بالطاعات، لا بالوسيلة والشفاعات.

فعلى الرغم من تعذيب فرعون لزوجته آسية دعت قائلة: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ومريم العذراء أم عيسى عليهما السلام ضرب الله بها مثلاً لصبرها على أذى اليهود الذين اتهموها بالفاحشة، مع أنها كانت عفيفة طاهرة صانت نفسها عن الفواحش، ولكن الله أرسل لها جبريل، فنفخ في فرجها روحاً من أرواحه وهي روح عيسى، فحملت به ثم ولدته من غير أب، وصدقت بشرائع الله وكتبه ورسالاته وبما أخبرها به جبريل: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩/١٩] وكانت من المطيعين.

روى قتادة عن أنس عن رسول الله ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خُوَيلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون بنت مزاحم».

قال الرازي: أما ضرب المثل بامرأة نوح المسماة بواعلة، وامرأة لوط المسماة بواهلة، فمشتمل على فوائد متعددة لا يعرفها بتمامها إلا الله تعالى:

منها: التنبيه للرجال والنساء على الثواب العظيم والعذاب الأليم.

ومنها: العلم بأن صلاح الغير لا ينفع المفسد، وفساد الغير لا يضر المصلح.

ومنها: أن الرجل، وإن كان في غاية الصلاح، فلا يأمن المرأة، ولا يأمن نفسه، كالصادر من امرأتي نوح ولوط.

ومنها: العلم بأن إحصان المرأة وعفتها مفيدة غاية الإفادة، كما أفاد مريم

بنت عمران، وكما أخبر الله تعالى، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ﴾ [آل عمران: ٣/ ٤٢] .

ومنها: التنبيه على أن التضرع بالصدق في حضرة الله تعالى وسيلة إلى الخلاص من العقاب، وإلى الثواب بغير حساب، وأن الرجوع إلى الحضرة الأزلية لازم في كل باب، وإليه المرجع والمآب[١].

تم الجزء الثامن والعشرون ولله الحمد

(١) تفسير الرازي: ٣٠/ ٥١

فهرس المجلد الرابع عشر

فهرس الجزء السابع والعشرون

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

فهرس الجزء الثامن والعشرون

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *